



التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الفاتحة والبقرة

الدكتور
محمد سيد طنطاوي
مفتي الديار المصرية

(الجزء الأول)

١٠٤٧ هـ ١٩٨٧ م

الطبعة الثالثة



رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا هو ، وحده لا شريك له ،
ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ،
أرسله رحمة للعالمين ، وأنزل عليه كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه
وأتباعه الذين آمنوا به وعرزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه ،
أولئك هم المفلحون .

وبعد : فإن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أنزله على قلب نبيه محمد
- صلى الله عليه وسلم - ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولينقذهم
من الكفر والظلم والفجور . وكتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات
إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، (١) .

وقد أنزل الله - تعالى - هذا القرآن على قلب نبيه - صلى الله عليه وسلم -
لمقاصد عالية ، وحكم سامية ، وأغراض شريفة . . .

من أهمها أن يكون هذا القرآن هداية للإنس وللجن في كل زمان ومكان
إلى الصراط المستقيم ، وإلى السعادة التي تصبو إليها النفوس ، وتتطلع إليها
الأفئدة والقلوب

(١) سورة إبراهيم : الآية ١ .

وقد أودع الله - تعالى - في هذا الكتاب من العقائد السليمة ، وللعبادات القويمة ، والأحكام الجليلة ، والآداب الفاضلة ، والعظات البليغة ، والتوجيهات الحكيمة . . . ما به قوام الملة الكاملة ، والآمة الفاضلة ، والجماعة الراشدة ، والفرد السليم في عقيدته وسلوكه وفي كل شئونه .

فكان هذا الكتاب أفضل الكتب السماوية ، وأوفاهها بحاجة البشرية ، وأجمعها للخير ، وأبقاها على الدهر ، وأعمها وأتمها وأضحها في هدايته الناس إلى ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم .

قال - تعالى - : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً » (١) .

وقال تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم » (٢) .

وقال - تعالى - « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجيباً . يهدي إلى الرشد فأمنأ به ولن نشرك بربنا أحداً » (٣) .

كذلك من أهم المقاصد التي من أجلها أنزل الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - هذا القرآن ، أن يكون هذا القرآن معجزة ناطقة في فهم الدنيا بصدقه فيما يبلغه عن ربه .

ولقد جاء النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس فدعاهم إلى وحدانية الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، وقال لهم : معجزتي الدالة على صدقي هذا القرآن ، فإن كنتم في شك من ذلك فها أتوا مثله فعجزوا ، فأرخصي لهم العنان وتحداهم بأن يأتيوا بعشر سور من مثله فما استطاعوا ، فزاد في إرخاء العنان لهم - وهم أرباب البلاغة والبيان - فتحداهم بأن يأتيوا بسورة واحدة من مثله ،

(١) سورة الإسراء . الآية ٩ (٢) سورة المائدة : الآيتان ١٥ ، ١٦

(٣) سورة الجن : الآيتان .

خاخر سوا وانقلبوا صاغرين . فثبت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان
من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

قال - تعالى - : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأنا بسورة من
مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا
فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » (١) .

كذلك من أهم المقاصد التي من أجلها أنزل الله هذا القرآن على قلب نبيه
- صلى الله عليه وسلم - ، أن يتقرب الناس به إلى خالقهم عن طريق تلاوته
وحفظه ، وتدبره ، والعمل بنشره ما به وآدابه وتوجيهاته . . .

ولقد تكلم الإمام القرطبي بإسهاب في مقدمة تفسيره عن فضائل القرآن
والرغيب فيه ، وفضل طاب به ، وقارئه ، ومستمعه ، والعمل به ، وكيفيه
تلاوته . . . فقال ما ملخصه :

اعلم أن هذا الباب واسع كبير . ألف فيه العلماء كتباً كثيرة ، فذكر
من ذلك نكتنا تدل على فضله ، وما أعد الله لأهله إذا أخلصوا الطلب لوجهه ،
وعملوا به . فأول ذلك أن يستشعر المؤمن من فضل القرآن أنه كلام رب العالمين -
كلام من ليس كمثله شيء . . .

ومن الآثار التي جاءت في هذا الباب ما أخرجه الترمذي عن أبي سعيد
قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول الله - تعالى - من شغله
القرآن وذكري عن مسألتى ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين . . .
وعن عبد الله بن مسعود : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن
هذا القرآن مادبة الله ، فتعلموا من مادبته ما استطعتم . . . »

وروى البخاري عن عثمان بن عفان عن النبي - صلى الله عليه وسلم -
قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ، وروى مسلم عن أبي موسى الأشعري
قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن

(١) سورة البقرة : الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

كمثل الأترجة (١) ريحها طيب وطعمها طيب . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن
كمثل الثمرة لا ریح لها وطعمها حلو . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل
قرحانة ريحها طيب وطعمها مر . ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل
الحنظل لا ریح لها وطعمها مر . .

وروى مسلم عن عائشة قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه - أى
يقروه بصوت ، وهو عليه شاق - له أجران . .

وروى الترمذى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : من قرأ حرفاً من كتاب الله فله بكل حرف حسنة ، والحسنة
بشراً أمثالها . لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، وميم حرف ،
ولام حرف ، (٢) .

هذا جانب من الأحاديث الشريفة التي أوردتها القرطبي ، وهو يتحدث
عن فضائل القرآن ، والترغيب فيه . . . الخ .

ولقد حذر النبي - صلى الله عليه وسلم - : أمته تحذيراً شديداً من نسيان
القرآن ، فقد روى الشيخان عن أبي موسى عن النبي - صلى الله عليه وسلم -
قال : تعاهدوا القرآن ؛ فوالذي نفسي بيده هو أشد تفصيلاً - أى : تفهناً -
من الإبل في ، ههلمها . .

وروى الترمذى وأبو داود عن أنس بن مالك عن النبي - صلى الله عليه وسلم -
قال : عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن
أو آية أوتيتها رجل ثم نسيها . .

هذه أهم المقاصد والحكم التي من أجلها أنزل الله - تعالى - القرآن على
نبيه - صلى الله عليه وسلم - : أن يكون هداية للناس ، وأن يكون معجزة خالدة
باقية شاهدة بصدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - : فيما يبلغه عن ربه . .

(١) الأترجة : ثمرة حلوة الطعم ، طيبة الرائحة ، جميلة اللون ، تشبه التفاحة

(٢) تفسير القرطبي : ج ١ ص ٤ وما بعدها :

وأن يتقرب الناس بقراءته والعمل به إلى خالقهم - عز وجل - . ولقد تمكفل الله - تعالى - بحفظ هذا القرآن ، وصانته من التحريف والتبديل ، والتغيير والمعارضة . قال - تعالى - : إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (١) ، . وكان من مظاهر عنايته - سبحانه - بكتابه ، أن جعله محفوظاً في كل العصور بالتواتر الصادق القاطع ، وبه الخلف عن السلف بالسلفية المروية عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، وأن وفق له في كل عصر حفاظاً متقنين جمعوه في صدورهم ، وعمروا به ليابم ونهارهم . . .

وأن قيض له رجالاً قضوا معظم أيام حياتهم في خدمته ودراسة علومه ، فمنهم من كتب في إعجازه وبلاغته ، ومنهم من كتب في قصصه وأخباره ، ومنهم من كتب في أسباب نزوله ، ومنهم من كتب في قراءاته ورسمه ، ومنهم من كتب في حكمه ومشابهه ، ومنهم من كتب في ناسخه ومفسوخه ، ومنهم من كتب في مكيه ومدنيه ، ومنهم من كتب في غريب ألفاظه إلى غير ذلك من ألوان علومه .

وكثير منهم قد كتبوا في تفسيره . وقوضيح معانيه ومقاصده وألفاظه . وذلك لأن سعادة الأفراد والأمم لا تنأى إلا عن طريق الاسترشاد بتعاليم القرآن وتوجيهاته ، وهذا الاسترشاد لا يتحقق إلا عن طريق الكشف والبيان ، لما تدل عليه ألفاظ القرآن . وهو ما يسمى بعلم التفسير .

فتفسير القرآن هو المفتاح الذي يكشف عن تلك الهدايات السامية ، والتوجيهات النافعة ، والعظات الشافية ، والكنوز الثمينه التي احتواها هذا الكتاب الكريم .

وبدون تفسير القرآن ، تفسيراً - علياً سليماً مستنيراً - لا يمكن الوصول إلى ما اشتمل عليه هذا الكتاب من هدايات وتوجيهات ، مهما قرأه القارئون . وردد ألفاظه المرددون .

قال إياس بن معاوية : مثل الذين يقرءون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره .

كمثل قوم جاءهم كتاب من مليكهم ليلا ، وليس عندهم مصباح ، فتداخلتهم
روعة ولا يدرون ما في المكتاب . ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل
جاءهم بمصباح فقرأوا ما في المكتاب ، (١) .

واقدم أفاض الإمام ابن كثير في بيان هذا المعنى ، وفي بيان أحسن طرق
التفسير فقال : « فالواجب على العلماء الكشاف عن معاني كلام الله ، وتفسير
ذلك ، وطلبه من مظانه ، وتعلم ذلك وتعليمه »

فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟ فالجواب : أن أصح الطريق
في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجل في مكان فإنه قد بسط في موضع
آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له
وقد قال رسول الله ﷺ - « إلا إني أوتيت القرآن ومثله معه ،
يعنى السنة »

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه ، فإن لم تجده فن السنة
فإن لم تجده فن أقوال الصحابة ، فإنهم أدري بذلك لما شاهدوا من القرأتين
والأحوال التي اقتصوا بها ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل
الصالح ، لا سيما علماءهم وكبراءهم كالائمة الأربعة الخلفاء الراشدين ،
والائمة المهتدين المهديين . . . قال عبد الله بن مسعود : والذي لا إله غيره ، ما
ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت . ولو أعلم
أحداً أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيتته . . وقال : كان الرجل منا إذا
تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن . .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : « حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا
يستقرئون من النبي ﷺ - وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم
يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً ،
فإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة ، فقد
رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ، وسعيد

ابن جبير . وعكرمه مولى ابن عباس ، وعطاء بن ابي رباح ، والحسن البصرى وغيرهم ، (١) .

هذا ، وأنت إذا سرحت طرفك في المكتبة الإسلامية ترى العشرات من كتب التفسير ، منها القديم والحديث ، وترى منها الكبير والوسيط والوجيز ، وترى منها ما يغلب عليه طابع التفسير بالمأثور ، وترى ما يغلب عليه طابع التفسير بالرأى ، وترى منها ما تغلب عليه الصبغة الفقهية ، أو البلاغية ، أو الفلسفية ، أو الصوفية ، أو العلمية ، أو الاجتماعية ، أو الطائفية غير ذلك من الاتجاهات والميول التى تختلف باختلاف أفكار السكاتبين وثقافتهم ومذاهبهم

وترى منها المحرر أو شبه المحرر من الخرافات ، والأقوال السقيمة ، والقصص الباطلة . . . كما ترى منها ما هو محشو بذلك .

ولقد أنتفعت كثيراً بما كتبه السكاتبون عن كتاب الله - تعالى - ، وهأنذا - أخى القارىء - أقدم لك تفسيراً وسيطاً لسورتي الفاتحة والبقرة ، وقد بذلت فيه أقصى جهدى ليكون تفسيراً علمياً محققاً ، محرراً من الأقوال الضعيفة ، والشبه الباطلة ، والمعاني السقيمة . .

وستلاحظ خلال قراءتك له أننى كثيراً ما أبدأ بشرح الالفاظ القرآنية شرحاً لغوياً مناسباً ثم أبين المراد منها - إذا كان الأمر يقتضى ذلك - .

ثم أذكر سبب النزول للآية أو الآيات - إذا وجد وكان مقبولاً - . ثم أذكر المعنى الإجمالى للآية أو الجمله ، مستعرضاً لما اشتملت عليه من وجوه البلاغه والبيان ، والعظات والآداب والاحكام . . . ، مدعماً ذلك بما يؤيد المعنى من آيات أخرى ، ومن الأحاديث النبويه ، ومن أقوال السلف الصالح .

وقد تجنبت التوسع في وجوه الإهراب ، واكتفيت بالرأى أو الآراء

(١) تفسير ابن كثير - ١ ص ٣ وما بعدها - بتصرف وتلخيص . .

وذلك لأننى توخيت فيما كتبت إبراز ما اشتمل عليه القرآن الكريم من هدايات جامعة ، وأحكام سامية ، وتشريعات جليمة ، وآداب فاضلة ، وعظات بليغة ، وأخبار صادقة ، وتوجيهات نافعة ، وأساليب بليغة ، وألفاظ فصيح . . .

والله أسأل أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، وأنس نفوسنا ، وبهجة قلوبنا ، وأن يعيننا ويوفقنا لإتمام ما بدأناه من خدمة لكتابه ، وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا خالصة لوجهه ، ونافعة لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

كتبه الراجحى عفوره

محمد سيد طنطاوى

مفتى الديار المصرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
 نَسْتَعِينُ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
 عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

سورة الفاتحة هي السورة الوحيدة التي أمر الإسلام أتباعه أن يقرءوها في كل صلاة . وفي جميع الركعات ، وفي كل الأوقات ، ولهذا أصبح حفظها ميسوراً لكل مؤمن .

وهذه السورة على صغر حجمها ، وقلة آياتها ، قد اشتملت بوجه إجمالي على مقاصد الدين من توحيد ، وتعبد ، وأحكام ، ووعد ووعيد . ونرى من الخير قبل أن نبدأ في تفسيرها بالتفصيل ، أن تمهد لذلك بالكلام عما يأتي :

أولاً : متى نزلت سورة الفاتحة ؟

للإجابة على هذا السؤال نقول : إن الرأي الراجح بين المحققين من العلماء أنها نزلت بمكة ، بل هي من أوائل ما نزل من القرآن بمكة .
 وقيل : إنها مدنية . وقيل : إنها نزلت مرتين مرة بمكة حين فرضت الصلاة حرة بالمدينة حين حولت القبلة .

قال القرطبي : الأول أصح لقوله - تعالى - في سورة الحجر : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » وسورة الحجر مكية بالإجماع . ولا خلاف في أن فرض الصلاة كان بمكة ، وما حفظ أنه كان في الإسلام قط صلاة بغير « الحمد لله رب العالمين » ، يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب » . وهذا خبر عن الحكم لا عن الابتداء ، (١) ،
ثانياً : عدد آياتها : وهي سبع آيات لقوله - تعالى - « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » . قال العلماء : السبع المثاني هي الفاتحة . وقال ابن كثير : هي سبع آيات بلاخلاف . وقال عمرو بن عبيد : هي ثمان آيات لأنه جعل « ياك نعبد » آية . وقال حسين الجعفي : هي ست آيات وهذا القولان شاذان ، (٢) .

ثالثاً : اسمائها : لسورة الفاتحة أسماء كثيرة من أشهرها :

١ - « الفاتحة أو فاتحة الكتاب » ، وسميت بذلك لأنه تفتتح قراءة القرآن بها لفظاً . وفتتح بها الكتاب في المصحف خطأ ، وفتتح بها الصلوات ، وإن لم تكن هي أول ما نزل من القرآن . وقد اشتهرت بهذا الاسم في أيام النبوة . وقد أصبح هذا الاسم علماً بالغلبة لتلك الطائفة من الآيات التي مبدؤها « الحمد لله » .. ونهايتها « .. ولا الضالين » .

٢ - « أم القرآن أو الكتاب » ، وسميت بذلك لاشتغالها إجمالاً على المقاصد التي ذكرت فيه تفصيلاً ، أو لاشتغالها على ما فيه من الثناء على الله بما هو أهله ، والتعبد بأمره ونهيه ، وبيان وعده ووعيده ، أو على جملة معانيه من الحكم النظرية ، والأحكام العملية التي هي سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء .

قال ابن جرير : « والعرب تسمى كل أمر جامع أموراً ، وكل مقدم .

(١) تفسير القرطبي . ج ١ ص ١١٥ طبعه دار الكتاب العربي .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٨ طبعه عيسى الحلبي .

رابعاً : ففض
ما رواه الب
كنت أصلي
فقلت : يا رسول
وللرسول إذا
ثم قال لي :
من المسجد . ثم
تقل : لأعملنك .
العالمين ، هي

(١) تفسير

(٢) تفسير

(٣) صحيح

وروى مسلم والنسائي ، عن ابن عباس ، قال :

بينما جبريل قاعد عند النبي - صلى الله عليه وسلم - سمع فقيضاً من فوقه - أي : صوتاً - فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم . فسلم وقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما ، ولم يؤت بهما نبياً قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ بحرف منها إلا أعطيته ، (١) .
وروى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :

« من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج (ثلاثاً) : غير تمام ، فقييل لأبي هريرة : إنا نكون وراء الإمام ؟ فقال : اقرأ بها في نفسك ، فإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : قال الله - تعالى - : (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبي ما سألت ، فإذا قال العبد : « الحمد لله رب العالمين » ، قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال : « الرحمن الرحيم » ، قال الله تعالى : أثنى علي عبدي . وإذا قال : « مالك يوم الدين » ، قال الله : مجدني عبدي . فإذا قال : « وإياك نعبد وإياك نستعين » ، قال الله : هذا بيني وبين عبدي ولعبي ما سألت . فإذا قال : « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ، قال الله : هذا لعبي ولعبي ما سألت (٢) .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده ، عن عبد الله بن جابر ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال له : ألا أخبرك بأخير سورة في القرآن ؟ قلت : بلى يا رسول الله . فقال : اقرأ : « الحمد لله رب العالمين » ، حتى تحتمها (٣) .

تلك هي بعض الأحاديث التي وردت في فضل هذه السورة الكريمة . وقد ذكر العلماء أنه يسن للمسلم قبل القراءة أن يستعذ بالله من الشيطان

(١) أخرجه مسلم في كتاب : صلاة المسافرين وقصرها ج ٢ ص ١٩٨ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة ج ٢ ص ٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠ .

الرجيم ، استجابة لقوله - تعالى - ، فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من
الشيطان الرجيم .

ومعنى ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، : أتجئء إلى الله وأتحصن به ،
وإستأجبر بجانبه من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي .

قال ابن كثير : والشيطان في لغة العرب كل متمرّد من الجن والإنس
والدواب وكل شيء . وهو مشتق من شطن إذا بعد ، فهو بعيد بطبعه عن

طباع البشر ، وبعيد بفسقه عن كل خير . وقيل : مشتق من شاط لأنه مخلوق
من نار . والأول أصح إذ عليه يدل كلام العرب ، فهم : يقولون تشيطان فلان

إذا فعل أفعال الشيطان ، ولو كان من شاط . لقالوا : تشيط ، فالشيطان
مشتق من البعد على الصحيح ، (١)

والرجيم : فعيل بمعنى مفعول أي أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن
كل خير ، وقيل : رجيم بمعنى راجم لأنه يرم الناس بالوساوس والشكوك .

قال بعض العلماء : وإنما خصت القراءة بطلب الاستعاذة مع أنه قد
أمر بها على وجه العموم في جميع الشئون ، لأن القرآن مصدر الهداية ،

والشيطان مصدر الضلال ، فهو يقف للإنسان بالمصاد في هذا الشأن على
وجه خاص ، فيشير أمامه ألواناً من الشكوك فيما يقرأ ، وفيما يفيد من قراءته ،

وفيما يقصد بها ، فيفوت عليه الانتفاع بهدي الله وآياته ، فعلمنا الله أن تتق
ذلك كله بهذه الاستعاذة التي هي في الواقع عنوان صادق ، وتعبير حق ،

هن امتلاء قلب المؤمن بمعنى اللجوء إلى الله ، وقوة عزيمته في طرد الوسوس
والشكوك ، واستقبال الهداية بقلب طاهر ، وعقل وواع ، وإيمان ثابت ، (٢)

قال القرطبي : وقد أجمع العلماء على أن التعوذ ليس من القرآن ولا آية
منه ، وهو قول القاري : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (٣)

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٤

(٢) تفسير القرآن الكريم ص ١٦ فضيلة الإمام الأكبر المرحوم محمود شلتوت

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٨٦

والآن وبعدهذا التمهيد الموجز الذي تكلمنا فيه عن نزول سورة الفاتحة ،
وعن عدد آياتها ، وعن أشهر أسمائها ، وعن بعض الأحاديث التي وردت في
فضلها نحب أن نبدأ في تفسير السورة الكريمة فنقول - وبالله التوفيق - :
بسم الله الرحمن الرحيم ،

الاسم : اللفظ الذي يدل على ذات أو معنى . وقد اختلف النحويون
في اشتقاقه على وجهين ، فقال البصريون : هو مشتق من السمو ، وهو العلو
والرفعة ، فقيل : اسم ، لأن صاحبه بمنزلة المرتفع به .

وقال الكوفيون : إنه مشتق من السمة وهي العلامة ، لأن الاسم
علامة لمن وضع له ، فأصل اسم على هذا ، وسم ، .

ويرى المحققون أن رأى البصريين أرجح ، لأنه يقال في تصغيره اسم
سُمى ، وفي جمعه أسماء ، والتصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها .
ولو كان أصله وسم - كما قال الكوفيون - لقليل في جمعه : أوسام ،
وفي تصغيره وسيم .

ولفظ الجلالة وهو ، الله ، - علم على ذات الخالق - عز وجل -
تفرد به - سبحانه - ولا يطلق على غيره ، ولا يشر به فيه أحد .

قال القرطبي : قوله ، الله ، هذا الاسم أكبر أسمائه - سبحانه - وأجمعها
حتى قال بعض العلماء : إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره ، ولذلك
لم يثن ولم يجمع . فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية ، المنفوت
بمعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقي ، لا إله إلا هو - سبحانه - (١)
و ، الرحمن الرحيم ، صفتان مشتقتان من الرحمة . والرحمة في أصل
اللغة : رقة في القلب تقتضي الإحسان ، وهذا المعنى لا يليق أن يكون وصفاً
لله - تعالى - ، ولذا فسرها بعض العلماء بإرادة الإحسان . وفسرها
آخرون بالإحسان نفسه .

والموافق لمذهب السلف أن يقال : هي صفة قائمة بذاته - تعالى - لا

نعرف حقيقة لها ، وإنما نعرف أثرها الذي هو الإحسان .

وقد كثرت أقوال المفسرين في العلاقة بين هاتين الصفتين ، فبعضهم يرى أن « الرحمن » هو المنعم على جمع الخلق . وأن « الرحيم » هو المنعم على المؤمنين خاصة . ويرى آخرون أن « الرحمن » هو المنعم بجلائل النعم ، وأن « الرحيم » هو المنعم بدقائقها .

ويرى فريق ثالث أن الوصفين بمعنى واحد وأن الثاني منها تأكيد للأول والذي يراه المحققون من العلماء أن الصفتين ليستا بمعنى واحد ، بل روعوا في كل منهما معنى لم يراع في الآخر ، فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة ، لأن فعلاً صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ، ويلزم منه الدوام كفضبان وسكران والرحيم بمعنى دائم الرحمة ، لأن صيغته فعيل تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف . فكانه قيل : العظيم الرحمة الدائمة (١) .

أو أن « الرحمن » صفة ذاتية هي مبدأ الرحمة والإحسان . و« الرحيم » صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديهما إلى المنعم عليه . ولعل مما يؤكد ذلك أن لفظ الرحمن لم يذكر في القرآن إلا مجرى عليا الصفات كما هو الشأن في أسماء الذات . قال - تعالى - : « الرحمن علم القرآن ، و« الرحمن على العرش استوى » ، « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » ، وهكذا . . .

أما لفظ الرحيم فقد كثر في القرآن استعماله وصفاً فعلياً ، وجاء في الغالب بألوان متعددة والتعاقب بالمنعم عليه . قال - تعالى - : « إن الله بالناس لرؤوف رحيم » ، « وكان بالمؤمنين رحيماً » ، « أنه كان بكم رحيماً ، الخ . قال بعض العلماء : وهذا الرأي في نظرنا هو أقوى الآراء ، فإن تخصيص أحد الوصفين بدقائق النعم أو ببعض المنعم عليهم لا دليل عليه ، كما أنه ليس مستساغاً أن يقال في القرآن : إن كلمة ذكرت بعد أخرى لمجرد تأكيد

(١) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين .

مجلة لواء الإسلام ، جلد الأول من السنة الأولى ص ٨ .

المعنى المستفاد منها ، (١) .

والجار والمجرور ، بسم ، متعلق بمحذوف تقديره ابتدئ .
والمعنى : ابتدئ ، قرأتى متبركاً ومتيمناً باسم الله الذى هو الأول والآخِر ،
والظاهر والباطن ، والذى رحمته وسعت كل شيء ، وأتبرأ عما كان يفعلهُ
المشركون والضالون ، من ابتدائهم قرأتهم وأفعالهم باسم اللات أو باسم
العزى أو باسم غيرهما من الآلهة الباطلة .

هذا وقد أجمع العلماء على أن البسملة جزء آية من سورة النمل في قوله
- تعالى - « وإنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » .
ثم اختلفوا بعد ذلك في كونها آية مستقلة أنزلت للفصل بين السور مرة
واحدة ، أو هي من سورة الفاتحة ومن كل سورة ألخ .

فبعضهم يرى أن البسملة آية من الفاتحة ومن كل سورة ، ومن حججهم
أن السلف قد أثبتوها في المصحف مع الأمر بتجريد القرآن عما ليس منه ،
ولذا لم يكتبوا « آمين » . فثبت بهذا أن البسملة جزء من الفاتحة ومن كل سورة .
وبهذا الرأي قال ابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وسعيد بن جبير
والشافعى ، وأحمد في أحد قوايه .

ويرى آخرون أن البسملة ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من السور ،
وقالوا : إنها آية فذة . من القرآن أنزلت للفصل والتبرك للابتداء بها ، ومن
حججهم أنها لو كانت آية من الفاتحة ومن كل سورة ، لما اختلف للناس في
ذلك ، ولما اضطربت أقوالهم في كونها آية من كل سورة أو من الفاتحة فقط .
وكما وقع الخلاف بين العلماء في كونها آية مستقلة أو آية من كل سورة ،
فقد وقع الخلاف بينهم - أيضاً - في وجوب قرأتها في الصلاة ، وفي الجهر
بها أو الإسرار إذا قرئت .

(١) تفسير القرآن العظيم ص ٢٤ لفضيلة المرحوم الشيخ محمود شلتوت .

وتحقيق القول في ذلك مرجعه إلى كتب الفقه ، وإلى كتب التفسير التي
عنيت بتفسير آيات الأحكام .

الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم

والحمد ، هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة
أو غيرها .

« رب العالمين » ، أى : ما لكم ، إذ الرب مصدر ، ربه يربه ، إذا تعاهده
بالتربية حتى يبلغ به شيئاً فشيئاً درجة السكال . وهو اسم من أسماء الله
- تعالى - ولا يطلق على غيره إلا مقيداً فيقال : رب الدار ، ورب الضيعة أى :
صاحبها وما لكها .

والعالمين : جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله - تعالى -

قال القرطبي : « وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على وجوده »
وقيل : المراد بالعالمين أولو العلم من الإنس والجن والملائكة .

وقد افتتحت سورة الفاتحة بهذه الجملة السكرية « الحمد لله رب العالمين ،
لأنه سبحانه أول كل شيء وآخر كل شيء » ، ولكي يعلمنا - سبحانه - أن
نبدأ كتبنا وخطبنا بالحمد والثناء عليه ، حتى نبدأ ونحن في صلة بالله تكشف
عن النفوس أغشيتها ، وتجلو عن القلوب أصداءها .

والمعنى - كما قال ابن جرير - « الشكر خالصاً لله - جل ثناؤه - دون
سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من
النعم التي لا يحصيها العدد . ولا يحيط بعددها غيره أحد ، في تصحيح الآلات
لطاعته ، وتمكين جوارح المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم
في دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق لهم
عليه ، ومع ما نهبهم عليه ودعاهم إليه ، من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود

في دار المقام في النعيم المقيم . لربنا الحمد على ذلك كله أولاً وآخرأ (١) .
فالآية الكريمة قد قررت بصراحة ووضوح ثبوت الثناء المطلق الذي
لا يحد الله - تعالى - وأنه ليس لأحد أن ينازعه إياه ، لأنه - سبحانه -
هو رب العالمين .

وجملة « الحمد لله ، مفيدة لقصر الحمد عليه - سبحانه - نحو قولهم :
« الكرم في العرب » . كما أن ال في « الحمد ، للاستغراق . أي : أن جميع
أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين .

وإنما كان الحمد مقصوراً في الحقيقة على الله ، لأن كل ما يستحق أن
يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجه إليه ، إذ هو الخالق لكل شيء ، وما
يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم ، فهو في الحقيقة حمد لله ،
لأنه - سبحانه - هو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه .

ولم تفتح السورة بصيغة الأمر بأن يقال : احمدا لله ، وإنما افتتحت
بصيغة الخبر « الحمد لله » ، لأن الأمر يقتضى التكليف : والتكليف قد
تنفر منه النفوس أحياناً ، فأراد - سبحانه - وهو يبادئهم بشريعة جديدة وبكألف
لم يهدوها ، أن يؤنس نفوسهم ، ويؤلف قلوبهم ، فساق لهم الخطاب
بصيغة الخبر ، ترفقاً بهم ، حتى يديروا الإصغاء لما سيلقيه عليهم من بتكليف .
وقد تكلم بعض المفسرين عن الحكمة في ابتداء السورة الكريمة بقوله
- تعالى - « الحمد لله » ، دون قوله - تعالى - : المدح لله ، أو : الشكر لله .
فقال :

اعلم أن المدح أعم من الحمد ، والحمد أعم من الشكر . أما بيان أن
المدح أعم من الحمد فلأن المدح يحصل للعاقل وغير العاقل ، ألا ترى أنه كما
يحسن مدح الرجل العاقل على أنواع فضائله ، فكذلك قد يمدح اللؤلو
لحسن شكله . أما الحمد فإنه لا يحصل إلا للعاقل المختار على ما يصدر منه

عن الإنعام والإحسان ، فثبت أن المدح أعم من الحمد .

وأما بيان أن الحمد أعم من الشكر ، فلأن الحمد عبارة عن تعظيم الفاعل لأجل ما صدر عنه من الإنعام . سواء أكان ذلك الإنعام واصلاً إليك أم إلى غيرك . وأما الشكر فهو عبادة عن تعظيمه لأجل إنعام وصل إليك ، فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد ، وأن الحمد أعم من الشكر .

إذا عرفت هذا فنقول : إنما لم يقل : المدح لله ، لأننا بينا أن المدح كما يحصل للفاعل المختار فقد يحصل لغيره . وأما الحمد فإنه لا يحصل إلا للفاعل المختار . فكان قوله : الحمد لله ، تصريحا بأن المؤثر في وجود هذا العالم فاعل مختار خلقه بالقدرة والمشئنة ... وإنما لم يقل : الشكر لله ، لأننا بينا أن الشكر عن تعظيمه بسبب إنعام صدر منه ووصل إليك ، وهذا يشعر بأن العبد إذا ذكر تعظيمه بسبب ما وصل إليه من النعمة . فحينئذ يكون المطلوب الأصلي له وصول النعمة إليه . وهذه درجة حقيرة . فأما إذا قال : الحمد لله ، فهذا يدل على أن العبد حمده لأجل كونه مستحقا للحمد لا لخصوص أنه - سبحانه - أوصل النعمة إليه ، فيكون الإخلاص أكمل ، واستغراق القلب في مشاهدة نور الحق أتم ، وانقطاعه عما سوى الحق أقوى وأثبت (١) .

وقد أجرى - سبحانه - على لفظ الجلالة نعم الربوبية للعالمين ، ليكون كالاتدلال على استحقاقه - تعالى - للحمد وحده ، وفي ذلك إشعار لعباده بأنهم مكرمون من ربهم ، إذ الأمر بغير توجيه فيه إيمان إلى إعمال عقولهم ، أما إذا كان موجهاً ومعللاً فإنه يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم ، وفي تلك الرعاية تشريف وتمكريم لهم .

فكانه - سبحانه - يقول لهم : اجملوا حمدكم وثناءكم لي وحدي . لأنني أنا رب العالمين . وأنا الذي تعهدتكم برعايتي وعنايتي وتربيتي منذ تمكو بينكم من الطين حتى استويتم عقلاء مفكرين .

(١) تفسير الفخر الرازي ٤ ص ٣ طبعة المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٤ هـ

وقد أتبع - سبحانه - هذا الوصف وهو « رب العالمين » ، بوصف آخر هو (الرحمن الرحيم) لحكم سامية من أبرزها : أن وصفه - تعالى - (رب العالمين) أى : مالكهم ، قد يشير فى النفوس شيئاً من الخوف أو الرهبة ، فإن المرئى قد يكون خشناً جباراً متعنتاً ، وذلك مما يחדس من جميل التربية ، وينقص من فضل التعهد .

لذا قرن - سبحانه - كونه مريباً ، بكونه الرحمن الرحيم ، لينفى بذلك هذا الاحتمال ، ويفهم عباده بأن ربوبيته لهم مصدرها عموم رحمته وشمول إحسانه ، فهم برحمته يوجدون ، وبرحمته يتصرفون وبرزقون ، وبرحمته يعثون ويسألون .

ولا شك أن فى هذا الإفهام تحريضاً لهم على حمده وعبادته بقلوب مطمئنة ، ونفوس مبهتجة ، ودعوة لهم إلى أن يقيموا حياتهم على الرحمة والإحسان ، لا على الجبروت والطغيان ، فالراحمون يرحمهم الرحمن .

مالك يوم الدين

بعد أن بين - سبحانه - لعباده موجبات حمده ، وأنه الجدير وحده بالحمد ، لأنه المرئى الرحيم ، والمنعم المكريم ، أتبع ذلك ببيان أنه - سبحانه - (مالك يوم الدين) .

والمالك وصف من الملك - بكسر الميم - بمعنى حيازة الشيء . مع القدرة على التصرف فيه . واليوم فى العرف : ما يكون من طلوع الشمس إلى غروبها ، وليس هذا مراداً هنا ، وإنما المراد مطلق الزمن وهو يوم القيامة .

والدين : الجزاء والحساب ، يقال : دنته بما صنع ، أى : جازته على صنيعه ، ومنه قولهم : كما تدان تدان . أى : كما تفعل تجازى ، وفى الحديث (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت) أى : حاسب نفسه : والمعنى : أنه - تعالى - يتصرف فى أمور يوم الدين من حساب وثواب وعقاب ، تصرف

المالک فیما یملک ، كما قال - تعالى - « یوم لا تملك نفس لنفس شیئاً والامر یومئذ لله » .

وهناك قرأه أخرى للآیه وهی « ملك یوم الدین ، من الملك - بضم المیم - وعلیها یكون المعنی : أنه - تعالى - هو المدبر لأمور یوم الدین ، وأنه له علی ذلك الیوم همیمنة الملوك وسيطرتهم ، فكل شیء فی ذلك الیوم یمری بأمره ، وكل تصرف فیہ ینفذ باسمه ، كما قال - تعالى - « لمن الملك الیوم ، لله الواحد القهار » .

قال الإمام ابن کثیر : (وتخصیص الملك بیوم الدین لا ینفیه عما عداه ، لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمین ، وذلك عام فی الدنیا والآخرة . وإنما أضيف إلى یوم الدین ، لأنه لا يدعی أحد هنالك شیئاً ، ولا یتكلم أحد إلا بإذنه ، كما قال - تعالى - « یوم یقوم الروح والملائكة صفاً . لا یتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » .

والملك فی الحقیقة هو الله ، قال - تعالى - « هو الله الذی لا إله إلا هو الملك القدوس السلام » ، وفی الصحیحین عن أبی هریرة ، عن رسول الله - صلی الله علیه وسلم - أنه قال : « یقبض الله الأرض ، ویطوی السماء بیمینه ثم یقول : أنا الملك ابن ملوك الأرض ؛ أين الجبارون ، أين المتكبرون » . ثم قال : « وأما تسمیة غیره فی الدنیا بملك فعلى سبیل المجاز كما قال - تعالى - « إن الله قد بعث لکم طالوت ملكاً ، (١) » .

وفی هذه الأوصاف التي أجريت علی الله تعالى ، من كونه ربا للعالمین وهما كما للأمر كله یوم الجزاء ، بعد الدلالة علی اختصاص الخد به فی قوله : « الحمد لله ، فی كل ذلك دلیل علی أن من كانت هذه صفاته لم یكن أحد أحق منه للحمد والثناء علیه ، بل لا یستحق علی الحقیقة سواء ، فإن ترتب الحكم علی الوصف مشعر بعلیته له ، (٢) » .

(١) تفسیر ابن کثیر - ١ ص ٢٥

(٢) « فتح البیان » - ١ ص ٢٩ . الشیخ صدیق حسن خان .

والتدبر لهذه الآية الكريمة يراها خير وسيلة لتربية الإنسان وغرس الإيمان العميق في قلبه ، لأنه إذا آمن بأن هناك يوماً يظهر فيه إحسان المحسن وإساءة المسيء ، وأن زمام الحكم في ذلك اليوم لله الواحد القهار ، فإنه في هذه الحالة سيقوى عنده خلق المراقبة لخالفه ، ويجتهد في السير على الطريق المستقيم .

«إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»

كانت الآيات الثلاث التي تقدمت هذه الآية تقريراً للحقيقة في جانب الربوبية وعظمتها وعموم سلطانها وسعة رحمتها تقريراً لجميع أمور الدنيا والآخرة ثم جاءت هذه الآية لتقرر أن الذي يجدر بنا أن نعبده وأن نستعين به إنما هو الله الذي تجلت أوصافه ، ووضحت عظمته ، وثبتت هيمنته على هذا الكون .

ولفظ «إيا» ضمير منفصل ، و«السكاف» الملحقة به للخطاب .

والعبارة : الطاعة البالغة حد النهاية في الخضوع والخشوع والتعظيم ، والعبادة الصحيحة تتأتى للمسلم بتحقيق أمرين : إخلاصها لله ، وموافقتها لما جاء به النبي — صلى الله عليه وسلم — .

قال ابن جرير : (لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة ، وأنها تسمى الطريق المذلل الذي وطئته الأقدام وذلكه السابلية معبداً ،) (١) .

والاستعانة : طلب المعونة ، من أجل الاقتدار على الشيء . والتسكين من فعله .

والمعنى : لك يا ربنا وحدك نخشع ونذل ونستكين ، فقد توليتنا برعايتك وغمرتنا برحمتك ، فنحن نخضعك بطلب الإعانة على طاعتك وعلى أمورنا كلها ، ولا نتوجه بهذا الطلب إلى أحد سواك ، فأنت المستحق للعبادة ، وأنت التقدير على كل شيء ، والمعلم ببواطن الأمور وظواهرها ، لا تخفى عليك طوية ، ولا تتوارى عنك نية .

وقدم — سبحانه — المعبود على العبادة فقال : «إياك نعبد» ، لإفادة قصر

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ١٩١ .

العبادة عليه ، وهو ما يقتضيه التوحيد الخالص .

وقال « نعبد ، بنون الجماعة ولم يقل أعبد ، ليدل على أن العبادة أحسن ما تكون في جماعة المؤمنين ، وللإشعار بأن المؤمنين المخلصين يكونون في اتحادهم وإخائهم بحيث يقوم كل واحد منهم في الحديث عن شئونهم الظاهرة وغير الظاهرة مقام جمعيتهم ، فهم كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - (المؤمنون تنكافأ دماؤهم ، ويسمى بذمتهم أدانهم ، وهم يد على من سواهم) وقدمت العبادة على الاستعانة ، لكون الأولى وسيلة إلى الثانية . وتقديم الوسائل سبب في تحصيل المطالب ، وليدل على أنهم لا يستقلون بإقامة العبادات ، بل إن عون الله هو الذي ييسر لهم أداءها . ولم يذكر المستعان عليه من الأعمال ، ليشمل الطلب كل ما توجه إليه نفس الإنسان من الأعمال الصالحة .

وجاءت الآية الكريمة بأسلوب الخطاب على طريقة الالتفات ، تلوينا لنظم الكلام من أسلوب إلى أسلوب . وقد وضح هذا المعنى صاحب الكشف فقال : « فإن قلت : لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب ؟ قلت : هذا يسمى الالتفات في علم البيان . وهو قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة ، ومن الغيبة إلى التكلم . . . وذلك على عادة العرب في اقتنائهم في الكلام وتصرفهم فيه . لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب ، كان ذلك أحسن طريقة لنشاط السامع ، وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد : وقد تخصص موافقه بفوائد . وما اختص به هذا الموضع : أنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، وأجرى عليه تلك الصفات العظام ، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن ، حقيق بالثناء وغاية للخضوع والاستعانة في المهمات ، فخطوب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : إياك يامن هذه صفاته نخصك بالعبادة والاستعانة ، ولا نعبد غيرك ولا نستعينه . . . (١) . هذا ، وقد جاءت في فضل هذه الآية الكريمة آثار متعددة ، ومن ذلك

(١) تفسير الكشف ح ١ ص ١٣ طبعة بيروت .

قول بعض العلماء : الفاتحة سر القرآن ، وسرها هذه الكلمة ، إياك نعبد وإياك نستعين ، فالأول تبرؤ من الشرك ، والثاني تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله ، (١) .

ثم بين - سبحانه - أن أفضل شيء يطلبه العبد من ربه ، إنما هو هدايته إلى الطريق الذي يوصل إلى أسمى الغايات ، وأعظم المقاصد ، فقال - تعالى -
اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين ،

والهداية : هي الإرشاد والدلالة بلطف على ما يوصل إلى البغية ، وتساعد الهداية إلى الله وإلى النبي وإلى القرآن ، وقد يراد منها الإيصال إلى ما فيه خير ، وهي بهذا المعنى لا تضاف إلى الله - تعالى - .

قال أبو حيان في البحر ما ملخصه : وقد تأتي بمعنى التبيين كما في قوله - تعالى - (وأما نمود فهديناهم) أى بينا لهم طريق الخير . أو بمعنى الإلهام . كما في قوله تعالى . (قال : فن ربك يا موسى ؟ قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) . قال المفسرون معناه : أهدم الحيوانات كلها إلى منافعها ، أو بمعنى الدعاء كما في قوله . تعالى . (واكل قوم هاد) أى : داع . والأصل فى هدى أن يصل إلى ثأنى معموليه باللام كما فى قوله . تعالى . وإن هذا القرآن يهدى للذى هى أقوم ، أو يلى كما فى قوله . تعالى . (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) ثم يتسع فيه فيعدى إليه بنفسه ومنه . اهدنا الصراط المستقيم (٢) .

والصراط : الجادة والطريق ، من سرت الشيء إذا ابتلعه ، وسمى الطريق بذلك لأنه يبتلع المارين فيه ، وتبدل سينه صاد على لغة قريش .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥ طبعة الحلبي .

(٢) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ١ ص ٢٥

والمستقيم : المعتدل الذي لا اعوجاج فيه .

وأنعمت عليهم : النعمة لين العيش وخفضه ، ونعم الله كثيرة لا تحصى (غير المغضوب عليهم) الغضب هيجان النفس وثورتها ، عند الميل إلى الانتقام ، وهو ضد الرضا . وإذا أسند إلى الله فسر بمعنى إرادة الانتقام أو بمعنى الانتقام نفسه .

والموافق لمذهب السلف أن يقال : هو صفة له - تعالى - لا نعمة بجماله لا نعلم حقيقتها مجردة عن اللوازم البشرية وإنما نعرف أثرها وهو الانتقام من العصاة ، وإزالة العقوبة بهم .

والمعنى : اهدنا يا ربنا إلى طريقك المستقيم ، الذي يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ويجعلنا مع الذين أنعمت عليهم من خلقك ، وجنبتنا يا مولانا طريق الذين غضبت عليهم من الأمم السابقة أو الأجيال اللاحقة بسبب سوء أعمالهم وطريق الذين هاموا في الضلالات ، فالتجرفوا عن القصد ، وحق عليهم العذاب .

وفي هذا الدعاء . أسمى ألوان الأدب ، لأن هذا الدعاء قد تضرع به المؤمنون إلى خالقهم بعد أن اعترفوا له - سبحانه - قبل ذلك بأنه هو المستحق لجميع المحامد ، وأنه هو رب العالمين ، والمتصرف في أحوالهم يوم الدين . قال الإمام ابن كثير : وهذا أكل أحوال السائل . أن يمدح مسئوله ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : (اهدنا الصراط المستقيم) لأنه أنجح الحاجة ، وأنجح للإجابة ، ولهذا أرشدنا الله إليه لأنه الأكمل (١) وقد تكلم المفسرون كلاماً كثيراً عن المراد بالصراط المستقيم الذي جعله الله طلب الهداية إليه في هذه السورة أول دعوة علماء لعباده . والذي نراه أن أجمع الأقوال في ذلك أن المراد بالصراط المستقيم ، هو ما جاء به الإسلام من عقائد وآداب وأحكام ، توصل الناس متى اتبعوها إلى سعادة الدنيا والآخرة ،

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٦ .

فإن طريق السلام هو الطريق لذي ختم الله به الرسالات السماوية ، وجعل القرآن دستوره الشامل ، ووكّل إلى النبي صلى الله عليه وسلم أمر تبليغه وبيانه .
 وقد ورد في الأحاديث النبوية ما يؤيد هذا القول ، ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، عن النّوّاس بن سمعان ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا ، وداع يدعو من فوق الصراط ، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال له : ويحك لا تفتحه ، فإنك إن تفتحه تفلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك للداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم) .

والمراد بقوله - تعالى - (اهدنا الصراط المستقيم) أى : ثبتنا عليه ، واجعلنا من المتقين على السير في سبيله ، فإن العبد مفتقر إلى الله في كل وقت لكي يثبتته على الهداية ، ويزيده منها ، ويعينه عليها . وقد أمر سبحانه المؤمنين أن يقولوا : (ربنا لا تزحقلنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) .

وجملة (صراط الذين أنعمت عليهم) بدل من الصراط المستقيم .
 ولم يقل (اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم) مستغنياً عن ذكر الصراط المستقيم ، ليدل أن صراط هؤلاء المنعم عليهم هو الصراط المستقيم .
 وقال : (صراط الذين أنعمت عليهم) ولم يقل صراط الأنبياء أو الصالحين ، ليدل على أن الدين في ذاته نعمة عظيمة ، ويكفي للدلالة على عظمتها إسنادها إليه - تعالى - في قوله : (أنعمت عليهم) لأن المراد بالإنعام هنا - على الراجح - الإنعام الديني . فالمنعم عليهم هم عرفوا الحق فتمسكوا به ، وعرفوا الخير فعملوا به .

قال بعض العلماء: (وإنما اختار في البيان أن يضيف الصراط إلى المنعم عليهم لمعنيين: أولهما هو إبراز نفسية المحب المخلص، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحري عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا في ثقة تملأ نفسه، وتفعم قلبه، ولا يجد في مثل هذا المقام ما يميلاً نفسه ثقة إلا أن يبين الطريق، بأنه الطريق الذي وصل بالسير عليه من قبله الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين. وثانيهما: أن من خواطر المؤمل في نعيم ربه أن يكون تمام أنه في رفقة من الناس صالحين، وصحب منهم محسنين) (١).

وقوله - تعالى - (غير المغضوب عليهم) بدل من (الذين أنعمت عليهم). وأتى في وصف الإنعام بالفعل المسند إلى الله - تعالى - فقال: (أنعمت عليهم). وفي وصف الغضب باسم المفعول فقال: (غير المغضوب عليهم) وفي ذلك تعليم لأدب جميل، وهو أن الإنسان يجمل به أن يسند أفعال الإحسان إلى الله، ويتحامي أن يسند إليه أفعال العقاب والابتلاء، وإن كان كل من الإحسان والعقاب صادراً منه، ومن شواهد هذا قوله - تعالى - حكاية عن مؤمنى الجن (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً) (٢). وحرف (لا) في قوله (ولا الضالين) جىء به لئلا كيد معنى النفي المستفاد من كلمة غير. والمراد بالمغضوب عليهم اليهود. وبالضالين النصارى. وقد ورد هذا التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث رواه الإمام أحمد في مسنده وابن حبان في صحيحه.

ومن المفسرين من قال بأن المراد بالمغضوب عليهم من فسدت إرادتهم حيث علموا الحق ولكنهم تركوه عناداً وجحوداً، وأن المراد بالضالين من فقدوا العلم فهم تائهون في الضلالات دون أن يهتدوا إلى طريق قويم. وقدم المغضوب عليهم على الضالين، لأن معنى المغضوب عليهم كالضد لمعنى المنعم عليهم، ولأن المقابلة بينهما أوضح منها بين المنعم عليهم والضالين.

(١) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة الاستاذ الشيخ حامد محسن بمجلة الأزهر السنة ٢٢ العدد ١٣ ص ٨٨٥ (٢) تفسير سورة الفاتحة لفضيلة الإمام الأكبر المرحوم محمد الخضر حسين بمجلة لواء الإسلام العدد الأول من سنة

فيمكن جديراً بأن يوضع في مقابلته قبل الضالين .

قال العلماء : ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها (آمين) ومعناه اللهم استجب وامن هذا اللفظ من القرآن بدليل أنه لم يثبت في المصاحف والدليل على استحباب النامين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن وائل بن حجر قال : سمعت النبي ﷺ قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقال : (آمين) مد بها صوته .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إذا أمن الإمام فأمنوا ، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ما تقدم من ذنبه) .

هذا ، وقد أفاض العلماء في الحديث عما اشتملت عليه سورة الفاتحة من آداب وعقائد وعبادات وأحكام ، ومن ذلك قول ابن كثير . (اشتملت هذه السورة الكريمة ، وهي سبع آيات - على حمد الله وتمجيدته والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا ، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين ، وعلى إرشاد عبده إلى سؤاله والتضرع إليه والتعري من حوهم وقوتهم ، إلى إخلاص العبادة له وتوحيده بالالوهية ، وتزيمه عن أن يكون له شريك أو نظير ، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم ، وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه ، واشتملت على الترغيب في الأعمال الصالحة ليسكنوا مع أهلها يوم القيامة ، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع السالكينها يوم القيامة ، وهم المغضوب عليهم والضالون) (١) .

وقال القرطبي : (سورة الفاتحة شتملة على أربعة أنواع من العلوم هي غناط الدين . أحدها علم الأصول وإليه الإشارة بقوله (الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم) ، ومعرفة النبوات وإليه الإشارة بقوله : (أنعمت عليهم) ومعرفة المعاد وإليه الإشارة بقوله (مالك يوم الدين) وثانيها علم الفروع وأعظمه للعبادات وإليه الإشارة بقوله (إياك نعبد) وثالثها علم الأخلاق ، وإليه الإشارة

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٠ .

يقوله (وإياك نصنعين . اهدنا الصراط المستقيم) ورابعها ، علم القمص
والأخبار عن الأمم السابقة السعداء منهم والأشقياء ، وهو المراد بقوله
﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سورة البقرة

سورة البقرة أطول سورة في القرآن الكريم ، فقد استغرقت جزءين ونصف جزء تقريباً من ثلاثين جزءاً قسم إليها القرآن . وتبلغ آياتها ستاً وثمانين ومائتي آية . وقبل سبع وثمانون ومائتي آية .

وسميت بذلك لأنها انفردت بذكر قصة البقرة التي كلف قوم موسى -
يذبحها بعد أن قتل فيهم قتيل ولم يعرفوا قاتله .

وهي مدنية بإجماع الآراء ، وقد ابتدأ نزولها بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة ، وقد نزل معظمها في السنوات الأولى من الهجرة ، واستمر نزولها إلى قبيل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بفترة قليلة . وكانت آخر آية من القرآن نزولاً منها ، وهي قوله - تعالى -

(واتقوا يوماً ما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظنون) .

مناسبتها لسورة الفاتحة : هناك مناسبة ظاهرة بين السورتين ، لأن سورة الفاتحة قد اشتملت على أحكام الألوهية والعبودية وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم اشتمالاً إجمالياً ، فجاءت سورة البقرة ففصلت تلك المقاصد ، ووضحت ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من هدايات وتوجيهات .

فضلها : وقد ورد في فضل سورة البقرة أحاديث متعددة ، وآثار متنوعة -

منها ما جاء في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، فإن
البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان .

وروى ابن حبان في صحيحه عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله
ﷺ (إن لكل شيء سنام وإن سنام القرآن البقرة ، وإن من قرأها في
بيته لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله
الشيطان ثلاثه أيام) .

وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : (بعث النبي
صلى الله عليه وسلم بعثاً ، وهم ذوو عدد فاستقرأ كل واحد منهم عما معه من
القرآن ، فأتى علي رجل من أحدثهم سنأ فقال : ما معك يا فلان ؟ فقال : معي
كذا وكذا وسورة البقرة . فقال : أملك سورة البقرة ؟ قال : نعم . قال .
اذهب فأنت أميرهم . فقال رجل من أشرفهم : والله ما منعتني أن أتعلم سورة
البقرة إلا أني خشيت ألا أقوم بها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأوا
القرآن وتعلموه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب
أو كفي أي أغلق - على مسك .

قال القرطبي : وهذه السورة فضها عظيم ، وثوابها جسيم ، ويقال لها
فسطاط القرآن ، وذلك لعظمتها وبهاثها وكثرة أحكامها ومواظمتها (١) .
مقاصدها : عندما تفتح كتاب الله فمطالع فيه سورة البقرة بتدبر وعناية ،
نراها في مطلعها تنوه بشأن القرآن الكريم ، وتصرح بأنه حق لا ريب فيه ،
وتبين لنا أن الناس أمام هدايته على ثلاثة أقسام :

قسم آمن به وانتفع بهدياته فكانت عاقبته السعادة والفلاح .

(أو أهلك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) .

وقسم جحد واستكبر واستحب العمى على الهدى ، فأصبح لا يرجي منه

خير ولا إيمان ، فكانت عاقبته الحرمان والخسران .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٥٢ .

، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم .

ثم فصلت السورة الحديث عن قسم ثالث هو شر ما تبتلى به الأمم وهم المنافقون الذين يظهرون خلاف ما يبطنون . وقد تحدثت السورة عنهم في ثلاث عشرة آية ، كشفت فيها عن خداعهم ، وجبنهم ، ومرض قلوبهم ، وبينت ما أعدّه الله لهم من سوء المصير ، ثم زادت في فضيحتهم وهتك سرايرهم فضربت مثلين لحيرتهم واضطرابهم ، قال - تعالى -

(ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) .
إلى أن يقول : (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير) .

ثم وجهت السورة نداء إلى الناس جميعاً دعوتهم فيه إلى عبادة الله وحده ، وأقامت لهم الأدلة الساطعة على صدق هذه القضية ، وتحدثهم - إن كانوا في ريب من القرآن - أن يأتوا بسورة من مثله ، وبينت لهم أنهم لن يستطيعوا ذلك لا في الحاضر ولا في المستقبل .

ثم ختم الربع الأول منها ببشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار . جمعت لذات المادة والروح ، وهم فيها خالدون . ثم قررت السورة الكريمة أن الله - تعالى - لا يمتنع عن ضرب الأمثال بما يوضح ويبين دون نظر إلى قيمة الممثل به في ذاته أو عند الناس ، كما قررت أن المؤمنين يقابلون هذه الأمثال بالإيمان والإذعان ، أما الكافرون فيقابلونها بالاستهزاء والإنكار .

وقد وبخت السورة بعد ذلك أولئك الكافرين على كفرهم ، مع وضوح الدلائل على وحدانية الله في أنفسهم وفي الآفاق فقالت :

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ، ثم يحييكم ، ثم إليه ترجعون . هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) .

ثم ذكرت السورة بعد ذلك جانباً من قصة آدم ، وقد حدثتنا فيه عن خلافة آدم في الأرض ، وعما كان من الملائكة من استفسار بشأنه . وعن سكن آدم وزوجه الجنة ، ثم عن خروجهما منها بسبب أكلهما من الشجرة المحرمة . (وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال : إني أعلم ما لا تعلمون) . . الخ الآيات الكريمة .

هذا ، وقد عرفنا قبل ذلك أن سورة البقرة نزلت بالمدينة بعد أن هاجر المسلمون إليها ، وأصبحت لهم بها دولة فنية ، وكان يجاورهم فيها عدد كبير من اليهود الذين كان أحبارهم يبشرون . بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم . فأخذت السورة الكريمة تتحدث عنهم . في أكثر من مائة آية - حديثاً طويلاً متشعباً . .

فترأى في أواخر الربع الثاني توجه لإيهم نداءً محبباً إلى نفوسهم ، تدعوهم فيه إلى الوفاء بعهودهم ، وإلى الإيمان بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فتقول : (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا من أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون) .

ثم تذكرهم في الربع الثالث بنعم الله عليهم ، وبوقفهم الجحودي من هذه النعم ، تذكرهم بنعمة تفضيلهم على عالمي زمانهم ، وبنعمة إنجائهم من عدوهم ، وبنعمة فرق البحر بهم ، وبنعمة عفو الله عنهم مع تسكاتر ذنوبهم ، وبنعمة بعثهم من بعد موتهم ، وبنعمة تظليلهم بالغمام ، وبنعمة إنزال المن والسلوى عليهم . الخ .

ولقد كان موقف بنى إسرائيل من هذه النعم يمثل الجحود والعناد والبلر ، فكافت نتيجة ذلك أن .

(ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله) .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك حديثاً مستفيضاً عن رذائلهم وقبائحهم ودعواهم الباطلة ، والعقوبات التي حلت بهم جزاء كفرهم وجحودهم .
فزاها في الربع الرابع تذكر لنا : تطعمهم في الدين وإلخافهم في المسألة
عندما قال لهم نبيهم موسى : (إن الله يأمركم أن تدبحوا بقرة) . ثم تذكر
قسوة قلوبهم فتقول على سبيل التوبيخ لهم :

(ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن
من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء .
وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون) .

وزاها في الربع الخامس تحدثنا عن تحريفهم للكلم عن مواضعه عن
تعمد وإصرار ، وتوعدهم على ذلك بسوء المصير :

(فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله
ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) .
ثم تحدثنا عن قولهم الباطل : (لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة) .

وترد عليهم بما يبطل حججهم ، وعن تقصيرهم لعبودهم ومواثيقهم مع الله
ومع الناس ومع أنفسهم ، وعن عداوتهم لرسول الله ، وعن جحودهم للحق
بدافع الحسد والعناد فتقول :

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون
على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين .
بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً ، أن ينزل الله من فضله
على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين) .

ثم نراها في الربع السادس تحكي لنا نماذج من مزاعمهم الباطلة ، ومن ذلك زعمهم أن الجنة خالصة لهم من دون الناس ، ثم ترد عليهم بما يخرسوا أنفسهم ، وبصرور جبنهم وحرصهم المشين على أية حياة حتى لو كانت حلاطخة بالذل والهوان .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يحكي ذلك بأسلوبه البليغ فيقول :

(قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا بالموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو ببعض جزاءه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون) .
ثم تسوق لنا نماذج من سوء أدبهم مع الله ، وعدارتهم للملائكة ، وبغدهم كتاب الله ، واتباعهم للسحر والأوهام .

ثم نراها في الربع السابع تقص علينا بعض الصور من المجادلات الدنيئة ، والخصامات الكلامية ، التي استعملوها مع النبي صلى الله عليه وسلم لحرب الدعوة الإسلامية ، كجدالهم في قضية النسخ ، وفي كون الجنة إن يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى ، وفي كون القرآن ليس معجزة - في زعمهم - وإنما هم يريدون معجزة كوفية . . الخ .

وقد رد القرآن عليهم بما يزهق باطلهم ، ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم ، وكما ابتدأ القرآن الحديث معهم بتداء محبب إلى نفوسهم (يا بني إسرائيل) فقد اختتمه - أيضاً - بالتداء نفسه ، لكي يستحشموه على الإيمان فقال :

(يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين . وانقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة ، ولا هم ينصرون) .

ثم أخذت السورة بعد ذلك في الربع الثامن منها تحدثنا عن الكلمات

ابلوغه في الفصاحة والحكمة مرتبة يقف فصحاؤهم وبلغاؤهم دونها بمراحل شاسعة، وفضلا عن ذلك فإن تصدير السور بمثل هذه الحروف المقطعة يجذب أنظار المعرضين عن استماع القرآن - حين ينزل عليهم إلى الإنصات والتدبر، لأنه يطرق أسماعهم في أول التلاوة ألفاظ غير مألوقة في مجارى كلامهم، وذلك مما يلفت أنظارهم ليقبضوا ما يراد منها، فيستمعوا حكما وحججا قد تكون سببا في هدايتهم واستجابتهم للحق .

هذه خلاصة آراء العلماء في الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور القرآنية، ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع - مثلا - إلى كتاب الإقنان - للسيوطي، وإلى كتاب (البرهان) للزر كشي، وإلى تفسير الألوسي .

ثم قال - تعالى - : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين) .

(ذلك) اسم إشارة واللام للبعد حقيقة في الحس، مجازاً في الرتبة، والكاف للخطاب، والمشار إليه - على الراجح - الكتاب الموعود به - عليه السلام - في قوله - تعالى - (إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً) .

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: أخبرني عن تأليف (ذلك الكتاب) مع (ألم) قلت: إن جعلت (ألم) اسماً للسورة ففي التأليف وجوه . أن يكون (ألم) مبتدأ و (ذلك) مبتدأ ثانياً ، و (الكتاب) خبره . والجملة خبر المبتدأ الأول .

ومعناه أن ذلك للكتاب هو الكتاب الكامل، كأن ما عداه من الكتب في مقابلته ناقص، وأنه الذي يستأهل أن يسمى كتاباً، كما تقول: هو الرجل، أي: الكامل في الرجولية، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال... وإن جعلت (ألم) بمنزلة الصوت، كان ذلك مبتدأ خبره الكتاب، أي: ذلك الكتاب المنزول هو الكتاب الكامل (١) (. . .) اهـ ملخصاً .
وقيل: المشار إليه (ألم) على أنه اسم للسورة والمراد المسمى .

و (الكتاب) مصدر كتب كالسكتب ، وأصل الكتب ضم أديم إلى أديم بالحياطة . واستعمل عرفا في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط ، وأريد به هنا المنظوم عبارة قبل أن تنظم حروفه التي يتألف منها في الخط ، تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه .

و (الريب) في الأصل مصدر رابه الأمر إذا حصل عنده فيه ريبة ، وحقبة الريبة ، قاق النفس واضطرابها ، ثم استعمل في معنى الشك مطلقاً . وقال ابن الأثير : الريب هو الشك مع التهمة .

و هدى ، مصدر هداه هدى وهداية وهدية - بكسرها - فهدى ، ومعناه الدلالة الموصلة إلى البغية ، وضده الضلال .

و المتقون ، جمع متق ، اسم فاعل من اتقى وأصله اتقى - بوزن افتعل - من وقى الشيء وقاية ، أى : صانه وحفظه مما يضره ويؤذيه .

والمعنى : ذلك الكتاب الكامل ، وهو القرآن الكريم ، ليس محلاً لأن يرتاب عاقل أو منصف في أنه منزل من عند الله ، وأنه هداية وإرشاد للمؤمنين الذين يحبسون كل مكروه من قول أو فعل ، حتى يصونوا أنفسهم عما يضرها ويؤذيها .

وكانت الإشارة بصيغة البعيد ، لأنه سامى المنزلة أينما توجهت إليه ، فإن نظرت إليه من ناحية تراكيبه فهو معجز للبلغاء ، وإن نظرت إليه من ناحية معانيه فهو فوق مدارك الحكماء ، وإن نظرت إليه من ناحية قصصه وتاريخه فهو أصدق محدث عن الماضين ، وأدق محدد لتاريخ السابقين ، فلا جرم أن كانت الإشارة في الآية باستعمال اسم الإشارة للبعيد لإظهار رفعة شأن هذا القرآن ، وقد شاع في كلام البلغاء تمثيل الأمر الشريف بالشيء المرفوع في عزة المنال ، لأن الشيء النفيس عزيز على أهله ، فمن العادة أن يجعلوه في مكان مرتفع بعيد عن الأبدى .

وصححت الإشارة إلى السكتاب وهو لم ينزل بعد ، لأن الإشارة إلى بعضه كالإشارة إلى الكل حيث كان بعدد الإنزال ، فهو حاضر في الأذهان ،

فشبهه بالحاضر في العيان .

وفنى عنه الريب على سبيل الاستغراق مع وقوع الريب فيه من المشركين حيث وصفوه بأنه أساطير الأولين ، لأنه لروعة حكمته ، وسطوع حجته ، لا يرتاب ذو عقل متدبر في كونه وحياً سماوياً ، ومصدر هداية وإصلاح . فالجملة السكريمة تنفى الريب في القرآن عن شأنهم أن يتدبروه ، ويقبلوا على النظر فيه بروية ، ومن ارتاب في القرآن فلأنه لم يقبل عليه بأذن واعية ، أو بصيرة نافذة . أو قلب سليم .

وقدم جملة « لا ريب فيه » على جملة « هدى للمتقين » ، لأنه أراد أن ينفي عن ساحة كونه كتاباً هادياً غير الريب ، وغيوم الشكوك ، حتى يستقر في النفوس وصفه ، وتطمئن القلوب لأناره ومقاصده وهداياته .

وفصل جملة « لا ريب فيه » عما قبلها لكمال الاتصال ، حيث كانت جملة (ذلك الكتاب) مفيدة لكمالها ، وجملة (لا ريب فيه) مفيدة لنفي الريب عنه . والمراد بكونه « هدى للمتقين » ، مع أنه هداية لهم ولغيرهم ، لأنهم هم المنتفعون به دون سواهم .

قال تعالى : (قل هو اللذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد) .

ومعنى كونه هدى لهم أنه يزيدهم هدى على ما لديهم من الهدى كما قال - تعالى - :

(والذين اهدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) .

ويصح أن يكون المعنى : هدى للناس الذين صاروا متقين بهذه الهداية ، كما قلت : هديت مهتدياً ، أو كتبت مكتوباً ، على معنى أني هديت شخصاً صار مهدياً بهذه الهداية ، وكتبت خطاباً صار مكتوباً بهذه الكتابة ، وهو أسلوب عربي صحيح . كما ورد في حديث « من قتل قتيلاً فله سلبه » .

قال صاحب الكشاف : « وحل هدى للمتقين ، الرفع ، لأنه خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر مع « لا ريب فيه ، لذلك ... والذي هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً ، وأن يقال : إن قوله « ألم ، جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة برأسها .

وذلك الكتاب ، جملة ثانية . و « لا ريب فيه ، ثالثة . و « هدى للمتقين ، رابعة . وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة و موجب حسن النظم ، حيث جرى بها متساقفة هكذا من غير فسق ، وذلك لمجيئها متأخية أخذاً بعضها بعنق بعض . فالثانية متحدة بالأولى معتقة لها ، وهلم جرأ إلى الثالثة والرابعة : بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه للكاتب المنعوت بغاية الكمال . فكان تقريراً لجهة التحدى ، وشدا من أعواده ثم نفي عنه أن يتشبه به من طرف الريب ، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله . لأنه لا كمال أكمل من الحق واليقين . ولا نقص أنقص مما للباطل والشبه . وقيل لبعض العلماء : فيم لذتك ؟ فقال : في حجة تبيختر انضاحاً ، وفي شبهة تتضام انضاحاً . ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين ، فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله ، وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ثم لم تخل كل واحدة من الأربع - بعد أن رتب هذا الترتيب الأنيق - من نكتة ذات جزالة . ففي الأولى الحذف والرمز إلى الغرض بالهلف وجه وأرشفه . وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة ، وفي الثالثة ما في تقديم الريب على الظرف ، وفي الرابعة الحذف (١) . . .

ثم فصل القرآن بعد ذلك أوصاف المتقين ، ومدحهم بجملة من المناقب الحميدة ، فقال : « الذين يؤمنون بالغيب ، أى : يصدقون بما غاب عن حواسهم ، كالأصانع وصفاته ، وكاليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب .

والإيمان لغه التصديق والإذعان ، وهو إفعال من الأمن . وشرعاً التصديق بما علم بالضرورة أنه من الدين ، كالايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم

الآخر ... الخ ، وعدى (يؤمنون) بالباء لتضمنه معنى أقر وأعترف .
 والغيب : مصدر غاب بغيب ، وكثيراً ما يستعمل بمعنى الغائب ، وهو الظاهر
 من هذه الآية الكريمة . ومعناه : ما لا تدركه الحواس ، ولا يعلم ببداهة العقل .
 قال بعض العلماء : وخص بالذكر الإيمان بالغيب دون غيره من متعلقات
 الإيمان ، لأن الإيمان بالغيب هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تخبر به الرسل
 عن وجود الله والعالم العلوي ، فإذا آمن به المرء تصدى لسماع دعوة الرسول
 وللنظر فيما يبلغه عن الله - تعالى - فسهل عليه إدراك الأدلة ، وأما من يعتقد
 أنه ليس من وراء عالم الماديات عالم آخر ، فقد راض نفسه على الإعراض
 عن الدعوة ، كما هو حال الماديين الذين يقولون : « ما يملكنا إلا الدهر (١) :
 والإيمان بالغيب : يستلزم التصديق به على وجه الجزم ، وهو لا يحصل
 إلا عن دليل . ولا شك أن قيام البراهين على صدق من أخبر بالغيب يجعل
 المؤمن بهذا الغيب مصدقاً عن دليل ، فنحن لا نحتاج في الإيمان بالملائكة
 والكتب السماوية السابقة ، والرسل الذين أرسلوا من قبل ، والبعث وما فيه
 من ثواب وعقاب ، لا نحتاج في الإيمان بكل ذلك إلى دليل زائد على الأدلة
 التي قامت على صدق نبينا محمد ﷺ .

والإيمان بالغيب دليل على اتساع العقول ، وسلامة القلوب ، إذ أن
 معنى الإيمان بالغيب هو أن عقولهم قد سلم لإدراكها ، وتغشيت عنها غشاواتها ،
 وامتد نظرها في الكائنات فأدركت أن لها مبدعاً حكيماً وخالقاً قديراً ، جعلها
 تسير بنظام محكم ، فهذه كواكب تظهر وتغيب ، وسما مرفوعة بغير
 عمد ، وأرض راسية لا تميد ولا تهضرب ... صنع الله الذي أتقن كل
 شيء . فكان من ذلك لتلك العقول براهين قاطعة على وجود خالق جبار ،
 وحكيم قدير ، ومبدع لا تأخذه سنة ولا نوم .

والإيمان بالغيب الذي أخبر به الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم -
 يقوى ويعظم كلما قوى الإيمان في القلوب ، واستولى الصفاء على النفوس ،
 (١) تفسير التحرير والتنوير ج ١ ص ١١٨ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

وقد مدح النبي - ﷺ - المؤمنين بالغيب في أحاديث متعددة، منها ما جاء عن خالد بن دريك، عن ابن عمير قال: قلت لابن جمعة: حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله - ﷺ - قال: نعم أحدثك حديثاً. فتدرينا مع رسول الله - ﷺ - ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا رسول الله، هل أحد خير منا؟ أسلنا معك وجاهدنا معك. قال: نعم. قوم من بعدكم يؤمنون بي ولم يروني.

قال ابن كثير: فقد مدحهم على ذلك وذكر أنهم أعظم أجرًا من هذه الخبيثة لا مطلقاً (١).

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وابن منده وأبو نعيم عن بديلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة، واستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين، ثم جاء من يخبرنا بأن رسول الله - ﷺ - قد استقبل البيت، فتحول الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فصلينا للسجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام، فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: «أولئك قوم آمنوا بالغيب» (٢).

تلك أول صفة نتيحة التقوى وهي الإيمان بالغيب، أما الصفة الثانية التي مدح الله بها المتقين فهي قوله - تعالى -
(ويقيمون الصلاة).

الصلاة في اللغة الدعاء، من صلى يصلي إذا دعا، واستعملها الشارع في العبادة ذات الركوع والسجود لاشتغالها على الدعاء، والاقامة في الأصل: الدوام والثبات، من قولك: قام الحق أي: ظهر وثبت. ومعنى «يقيمون الصلاة»: يؤدونها في أوقاتها المقدرة لها، مع تعديل أركانها، وإيقاعها مستوفية لواجباتها وسننها وآدابها وخشوعها. فإن الصلاة المقامة

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤١.

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٢.

بحق هي تلك التي يصحبها الإخلاص ، واستحضار جلال الله في الركوع
والسجود ، وهي التي تترقب عليها الآثار العظيمة من تزكية النفس ، وعفافها ،
وتركها لكل الشرور والآثام ، كما قال - تعالى - : إن الصلاة تنهى عن الفحشاء
والمنكر . .

وقدم الإيمان بالغيب على إمامة الصلاة تعظيماً لعمل القلب ، واعتداداً
بشرطية الإيمان في صحة أعمال الجوارح .

وقدم إقامة الصلاة على الإنفاق ، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ،
ولأنها تتكرر في اليوم خمس مرات ، ولأنها صلة بين العبد وربّه ، والإنفاق
صلته بالناس ، ولأن مشروعيّتها كانت سابقة على مشروعية الزكاة .
أما الصفة الثالثة التي مدح الله بها المتقين فهي قوله - تعالى - :
(وما رزقناهم ينفقون) .

أى : وما أعطيناهم وملكناهم يتصدقون في وجوه الخير ، ويمدون
أيديهم بالإحسان إلى الفقير والمسكين .

والرزق عند جمهور العلماء ما صلح للإنفاق به حلالاً كان أو حراماً ،
خلافاً للمعتزلة الذين يرون أن الحرام ليس برزق . والإنفاق : إخراج المال
وإنقاده وصرفه ، يقال : نفق - كفرح ونصر - نفد وفنى أو قل - وأنفق
ماله أنفده ، وأصل المادة يدل على الخروج والذهاب ، ومنه : نافق فلان ،
والنافقاء ، والنفق . وقال « ينفقون » ، ولم يقل أنفقوا ، ليشعر بأن الإنفاق
منهم يتجدد بين وقت وآخر . ولم يحدد وجوه الإنفاق بل تركها مطلقة
لتشمل الغرض الواجب وغيرهما من وجوه الإحسان .

وإيراد « من » في قوله - تعالى - : « وما رزقناهم » ، للإشارة إلى أن مواظبتهم
على إنفاق أموالهم بين الحين والحين ، كقيل بتوصيهم إلى زمة المهتمين
المفلحين ، والإشعار بأنهم ينفقون بعض أموالهم بتعدين عن الإسراف
والتبذير حتى لا يتركوا ورثتهم عالة يتكفون وجوه الناس .

« هذا ، وقد عنى القرآن الكريم عناية فائقة بالحض على الإنفاق في وجوه الخير ، ومدح الذين يفعلون ذلك مدحاً عظيماً في عشرات الآيات ، وذلك لأن الأمة التي يكثر فيها المنفقون لأموالهم في وجوه الخير ، لا بد أن تعزك كلمتهما ، وتسلم من كوارث شتى ، كالجهل ، والفقر ، والمرض . فيبذل المال تسد حاجات البؤساء ، وتشاد معاهد التعليم ، وتقام وسائل حفظ الصحة ، وتنمو المحبة والمودة بين الأغنياء والفقراء .

قال تعالى : (مثل الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) .

ثم أضاف القرآن إلى صفات المتقين وصفاً رابعاً فقال :

(والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) .

والمراد بقوله - تعالى - « بما أنزل إليك ، القرآن الكريم ، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي - وإن كان بعضه مترقياً - تغليباً للموجود على ما لم يوجد . والمراد بقوله - تعالى - « وما أنزل من قبلك ، الكتب الإلهية السابقة التي أنزلها الله على أنبيائه كعيسى وعيسى وداود . وهذا كقوله - تعالى - (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتب التي أنزل على رسوله والكتب التي أنزل من قبل) (١) .

والإيمان بما أنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستلزم الإيمان برسالاته ، ويستوجب العمل بما تضمنته شريعته .

وإيجاب العمل بما تضمنه القرآن الذي أنزله الله على محمد - صلى الله عليه وسلم - باق على إطلاقه . أما الكتب السماوية السابقة فيكفي الإيمان بأنها كانت وحياً وهداية ، وقد تضمن القرآن الكريم ما اشتملت عليه هذه

بحق هي تلك التي يصحبها الإخلاص ، واستحضار جلال الله في الركوع والسجود ، وهي التي تترقب عليها الآثار العظيمة من تركيبة النفس ، وعفافها ، وتركها لكل الشرور والآثام ، كما قال - تعالى - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . .

وقدم الإيمان بالغيب على إمامة الصلاة تعظيماً لعمل القلب ، واعتداداً بشرطية الإيمان في صحة أعمال الجوارح .

وقدم إقامة الصلاة على الإنفاق ، لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولأنها تتكرر في اليوم خمس مرات ، ولأنها صلة بين العبد وربّه ، والإنفاق صلته بالناس ، ولأن مشروعيتهما كانت سابقة على مشروعية الزكاة .
أما الصفة الثالثة التي مدح الله بها المتقين فهي قوله - تعالى - :

(وما رزقناهم ينفقون) .

أى : وما أعطيناهم وملكناهم يتصدقون في وجوه الخير ، ويمدون أيديهم بالإحسان إلى الفقير والمسكين .

والرزق عند جمهور العلماء ما صلح للانتفاع به حلالاً كان أو حراماً ، خلافاً للمعتزلة الذين يرون أن الحرام ليس برزق . والإنفاق : إخراج المال وإنفاده وصرفه ، يقال : نفق - كفرح ونصر - نفد وفنى أو قل - وأنفق ماله أنفده ، وأصل المادة يدل على الخروج والذهاب ، ومنه : نافع فلان ، والنافع ، والنفق . وقال ينفقون ، ولم يقل أنفقوا ، يشعر بأن الإنفاق منهم يتجدد بين وقت وآخر . ولم يحدد وجوه الإنفاق بل تركها مطلقة لتشمل الفروض الواجب وغيرهما من وجوه الإحسان .

وإيراد من ، في قوله - تعالى - وما رزقناهم ، للإشارة إلى أن مواظبتهم على إنفاق أموالهم بين الحين والحين ، كفيل بتوصيلهم إلى زهرة المهتدين المفلحين ، والإشعار بأنهم ينفقون بعض أموالهم مبتعدين عن الإسراف والتبذير حتى لا يتركوها ورثتهم عالة يتكفون وجوه الناس .

هذا ، وقد عنى القرآن الكريم عنابة فانقة بالحض على الإنفاق في وجوه الخير ، ومدح الذين يفعلون ذلك مدحاً عظيماً في عشرات الآيات ، وذلك لأن الأمة التي يكثر فيها المنفقون لأموالهم في وجوه الخير ، لا بد أن تعزكمتهما ، وتسلم من كوارث شتى ، كالجهل ، والفقر ، والمرض . فيبذل المال تسد حاجات البؤساء ، وتشاد معاهد التعليم ، وتقام وسائل حفظ الصحة ، وتنمو المحبة والمودة بين الأغنياء والفقراء .

قال تعالى : (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) .

ثم أضاف القرآن إلى صفات المتقين وصفاً رابعاً فقال :

(والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) .

والمراد بقوله - تعالى - « بما أنزل إليك » القرآن الكريم ، وإنما عبر عنه بلفظ الماضي - وإن كان بعضه مترقباً - تعليباً للموجود على ما لم يوجد . والمراد بقوله - تعالى - « وما أنزل من قبلك » الكتب الإلهية السابقة التي أنزلها الله على أنبيائه كموسى وعيسى وداود . وهذا كقوله - تعالى - (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتب التي أنزل على رسوله)

والكتب التي أنزل من قبل) (١) .

والإيمان بما أنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - يستلزم الإيمان برسالاته ، ويستوجب العمل بما تضمنته شريعته .

وإيجاب العمل بما تضمنه القرآن الذي أنزله الله على محمد - صلى الله عليه وسلم - باق على إطلاقه . أما الكتب السماوية السابقة فيكفى الإيمان بأنها كانت وحياً وهداية ، وقد تضمن القرآن الكريم ما اشتملت عليه هذه

الكتب من هداياهم وأصبح يزول مهيمناً عليها ، قال - تعالى - :

(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء) .

وصار من المحتم على كل عاقل أن يعمل بما جاء به القرآن من توجيهات ،
وقدم الإيمان بما أنزل عليه على الإيمان بما أنزل على الذين من قبله ، مع
أن الترتيب يقتضى العكس ، لأن إيمانهم بمن قبله لا قيمة له إلا إذا آمنوا
بمحمد - ﷺ -

ولم يقل : ويؤمنون بما أنزل من قبلك بتكرير يؤمنون ، للإشعار بأن
الإيمان به وبهم واحد ، لا تغاير فيه وإن تعدد متعلقه .

ويرى بعض العلماء أن المراد من الآية الكريمة ، أهل الكتاب الذين
آمنوا بالكتب السماوية التي نزلت قبل القرآن ، ثم لما نزل القرآن على النبي
محمد - ﷺ - وعرفوا أنه الحق - آمنوا به أيضاً - ، فصار لهم أجران ،
كما جاء في الحديث الشريف ، الذي ثبت في الصحيحين عن أبي موسى
الأشعري أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين
يوم القيامة : رجل من أهل الكتاب آمن بنفسه وآمن بي ، ورجل يملك أذى حق
الله وحق مواليه ، ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ، ثم اعتقها وزوجها
ثم وصف الله المتقين بوصف خامس فقال : « وبالآخرة هم يوقنون ،
الآخرة تأنيث الآخر .

وهذا اللفظ تارة يجيء وصفاً ليوم القيامة مع ذكر الموصوف ، كما في
قوله - تعالى - « وللدار الآخرة خير للذين يتقون ، وتارة بهذا المعنى ولكن
بدون ذكر الموصوف ، كما في الآية التي معنا ، وكما في قوله - تعالى -
(وللآخرة خير لك من الأولى) .

وسميت آخرة لأنها تأتي بعد الدنيا التي هي الدار الأولى .

و « يوقنون » من الإيقان وهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع ، بحيث
لا يطرأ عليه شك ، ولا تحوم حوله شبهة . يقال يقن الماء ، إذا سكن وظهر

ما تحته ، ويقال : يقنت - بالكسر - يقناً ، وأيقنت ، وتيقنت ، واستيقنت بمعنى واحد .

والمعنى : وبالدار الآخرة وما فيها من بعث وحساب وثواب وعقاب هم يوقنون إيقاناً قطعياً ، لا أثر فيه للدعاءات الكاذبة ، والأوهام الباطلة . وفي إيراد دم ، قبل قوله « يوقنون » تعريض ، بغيرهم ، بمن كان اعتقادهم في أمر الآخرة غير مطابق للحقيقة أو غير مرتبة اليقين . ولا شك أن الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، له أثر عظيم في فعل الخيرات ، واجتناب المنكرات ، لأن من أدرك أن هناك يوماً سيحاسب فيه على عمله ، فإنه من شأنه أن يسلك الطريق القويم الذي يكسبه رضى الله يوم يلقاه .

قال أبو حيان : « وذكر لفظه (هم) في قوله : « وبالآخرة هم يوقنون » ، ولم يذكرها في قوله : « وما رزقتهم ينفقون » ، لأن وصف إيقانهم بالآخرة أعلى من وصفهم بالإينافاق فاحتاج هذا إلى التوكيد ولم يحتج ذلك إلى تأكيد ، ولأنه لو ذكرهم هناك لكان فيه قلق لفظي ، إذ يكون التركيب « وما رزقتهم هم ينفقون (١) » .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك الثمار التي ترتبت على تقواهم فقال :

(أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون) .

المفلحون : من الفلاح وهو الظفر والفوز بدرك البعثة ، وأصله من الفلاح - بسكون اللام - وهو الشق والقطع ، ومنه فلاحه الأرض وهو شقها للحرث . وأستعمل منه الفلاح في الفوز ، كأن الفائز شق طريقه وفلحه للوصول إلى مبتغاه ، أو انفتحت له طريق الظفر وانشقت .

والمعنى : أولئك المنتصفون بما تقدم من صفات كريمة ، على نور من

(١) تفسير البحر المحیط لأبي حيان ج ١ ص ٤٢ .

رهبهم ، وأولئك هم الفائزون بما طلبوا ، الناجون مما منه هربوا ، بسبب
إيمانهم العميق ، وأعمالهم الصالحة .

والآية الكريمة كلام مستأنف لبيان أن أولئك المتقين في المنزلة العليا من
الكمال الإنساني ، فقد وصفهم - سبحانه - بأنهم على هدى عظيم ، ويدل
على عظيم هذا الهدى إيراد بصيغة التنكير ، إذ من المعلوم عند علماء البيان
أن التنكير يدل بمعونة المقام على التعظيم . كما يدل - أيضاً - على عظم هذا
الهدى وصفه بأنه « من رهبهم » ، فهو الذي وفقهم لإياه ، ويسر لهم أسبابه .
وفي قوله - تعالى - « على هدى » إشعار بأنهم تمكنوا منه تمكن من
استعمل على الشيء ، وصار في قرار راسخ منه .

وجملة « وأولئك هم المفلحون » بيان لما ظفر به المتقون الخائزون
لتلك الخصال ، من سعادة في الدنيا والآخرة .

وتعريف الخبر وهو « المفلحون » مع إيراد ضمير الفصل « هم » يفيد أن
الفلاح مقصور على أولئك المتقين ، فن لم يؤمن بالغيب ، أو أضع الصلاة ،
أو بخل بالمال الذي منحه الله إياه فلم يؤده في وجوهه المشروعة ، فإنه لا
يكون من المهتدين ، ولا من المفلحين الذين سعدوا في دنياهم وآخرتهم .
قال الإمام الرازي : « وفي تكرير « أولئك » تفيبه على أنهم كما ثبت لهم
الاختصاص بالهدى ، فقد ثبت لهم الاختصاص بالفلاح - أيضاً - فقد تميزوا عن
غيرهم بهذين الاختصاصين ، فإن قيل : فلم جيء بالعاطف « وما الفرق بينه وبين
نوله : (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

قلنا : قد اختلف الخبران ههنا فلذلك دخل العاطف ، بخلاف الخبرين ثمة
إنيهما متفقان ، لأن التسجيل عليهم بالغفلة وتشبيههم بالهائم شيء واحد ،
كانت لثانية مقررة لما في الأولى ، فهي من العطف بمعزل ، (١) .

وقال صاحب الكشاف بعد تفسيره لهذه الآية الكريمة « . . . فانظر
كيف كرر الله التثنية على اختصاص المتقين بنيل ما لا يتاله أحد على طرق

شئى ، وهى : ذكر اسم الاشارة ، وتكريره ، وتعريف المفلحين ، وتوسيط
 للفصل بينه وبين اولئك ، ليبصر كمرتبائهم ، ويرغبك فى طلب ما طلبوا ،
 وينشطك لتقديم ما قدموا ، ويشطك عن الطمع الفارغ والرجاء الاسكاذب
 والتعنى على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته . . . (١) .
 وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد مدحت القرآن الكريم بما يستحقه ، وأنت
 على من اهتدوا بهديه ، ووصفتهم بالصفات السامية ، وبشرتهم بالبشارات الكريمة
 وبعد أن انتهى القرآن من بيان شأن الكتاب وأثره فى الهداية والإرشاد ،
 وتصوير حال المتقين الذين اهتدوا به ، وما اكتسبوه بالهداية من أوصاف
 سامية ، وما كان لهم على ذلك من خير العاقبة وحسن الجزاء ، أقول بعد
 أن انتهى من بيان كل ذلك شرع فى بيان حال الكافرين ، وما هم عليه من
 سوء الحال وقبيح الأوصاف فقال :

إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾ خة
 اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ ﴿٦٢﴾

ففى هاتين الآيتين بيان لأحوال طائفة ثانية من الناس ، على الضد فى
 طبيعتها وأوصافها وما لها من الطائفة الأولى التى فازت برضوان الله .
 ٣ - والكفر - بالضم - ضد الإيمان . وأصله المأخوذ منه الكفر - بالفتح -
 وهو ستر الشئ وتغطيته ، ومنه سعى الليل كافرأ ، لأنه يغطى كل شئ بسواده ،
 فسمى السحاب كافرأ لستره ضوء الشمس .
 ثم شاع الكفر فى مجرد ستر النعمة ، كأن المنعم عليه قد غطى النعمة ببحوده
 لها . ويستعمله الشارع فى عدم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر

وسمى من لم يؤمن بما يجب الإيمان به بعد الدعوة إليه كافرًا ، لأنه صار
بمجروده لذلك الحق وعدم الإذعان إليه كالمغطى له .

والمراد بالذين كفروا في الآية التي معنا ، طائفة معينة صمت آذانها عن
الحق ، عناداً وحسداً ، وليس عموم الكافرين ، لأن منهم من دخل في
الإسلام بعد نزول هذه الآية .

وسواء : اسم مصدر بمعنى الاستواء والمراد به اسم الفاعل أى : مستو
ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر ، كما في قوله - تعالى :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم . »

أى : مستوية .

والإنذار : إخبار معه تخويف في مدة تتسع للحفاظ من الخوف ، فإن
لم تتسع له فهو إعلام وإشعار لا إنذار ، وأكثر ما يستعمل في القرآن
في التخويف من عذاب الله - تعالى - .

والمعنى : إن الذين كفروا برسالتك يا محمد « مستو عندهم إنذارك
وعدمه ، فهم لا يؤمنون بالحق ، ولا يستجيبون لداعى الهدى ، لسوء
استعدادهم ، وفساد فطرهم .

وجاءت جملة « إن الذين كفروا : مستأنفة ولم تعطف على ما قبلها
لاختلاف الغرض الذى سبق له الكلام ، إذ في الجمل السابقة حديث عن
الكتاب وآثاره وعظمته ، وهنا حديث عن الكافرين وأحوالهم .

وقد وضع هذا المعنى صاحب الكشف فقال : « فإن قلت لم قطعت
قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف كنعو قوله : « إن الأبرار لفي نعم .
وإن الفجار لفي جحيم . » وغيره من الآيات الكثيرة ؟ قلت : ليس وزان هاتين
القصتين وزان ما ذكرت . لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لفكر الكتاب وأنه
هدى المتقين ، وسيقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت ؛ فبين
الجملتين تباين في الغرض والأسلوب ، وهما على حد لا مجال فيه للعاطف ،

وقوله «سواء» خبر إن، و«عليهم» متعلق به، و«أنذرتهم» مؤول بمصدر فاعل سواء . أى : إن الذين كفروا سواء عندهم إنذارهم وعدم إنذارهم وإنما استوى لديهم الإنذار وعدمه ؛ مع أن الإنذار إنما يواجههم به نبي قوى أمين مؤيد من الله - تعالى - ، لأنهم لما جحدوا نعم الله ، وعبوا عن آياته ، وحسدوا رسوله على ما آتاه الله من فضله ، صاروا بسبب ذلك في حضيض جمد معه شعورهم ، وبرد فيه إحساسهم ، فلا تؤثر فيهم موجات القول ، ولا تنفذ إلى قلوبهم بالغات الحجج . فهم كما قال الشاعر :

لقد أسمعت إذ ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

والم يذكر - سبحانه - التبشير مع الإنذار ، لأنهم ليسوا أهلا للبشارة ، ولأن الإنذار أوقع في القلوب ، والذي لا يتأثر به يكون عدم تأثره بغيره أولى . ولم يقل - سبحانه - سواء عليك أنذرتهم أم لم تنذرهم . الخ ، لأنه بالنسبة له صلى الله عليه وسلم لا يستوى الأمران ، إذ هو في حالة إنذاره لهم مثاب وما جور ، أما في حالة عدم إنذاره فهو مأخذ من الله - تعالى - لأنه مكلف بتبليغ ما أنزل إليه من ربه .

وجملة «لا يؤمنون» مفسرة لعنى الجملة التي قبلها ومؤكدة لها ، لأنه حيث كان الإنذار وعدمه سواء ، فلا يتوقع منهم الإيمان . ولذلك فصلت . وفي هذه الجملة إخبار بعدم إيمانهم البتة ، وذلك لأن حرف «لا» إذا دخل على الفعل المضارع - كما هنا - أفاد أن الفعل لا يقع في المستقبل حتى تقوم قرينة تقصر النفي في المستقبل على وقت محدد .

والحكمة في الإخبار بعدم إيمان هذه الطائفة المعينة من الكفار، تسليية النبي - ﷺ - حتى لا يكون في صدره حرج من تمردهم وعدم إيمانهم بعد أن قام بواجب دعوتهم ، وفي ذلك تذكرة لكل داعٍ مصلح بأن لا يمترق قلبه أسفاً على قوم أعرضوا عن سلوك الصراط المستقيم بعد أن دعاهم إليه ، وبذل قصارى جهده في تبصيرهم وإرشادهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك المواقع التي حالت بينهم وبين الاهتداء إلى الحق في الماضي والمستقبل فقال تعالى :

(ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة) .

والختم : الوسم بطابع ونحوه ، مأخوذ من وضع الخاتم على الشيء وطبعه ، للإستيثاق ، لكي لا يخرج منه ما هو بداخله ، ولا يدخله ما هو خارج عنه . قال القرطبي : « والختم مصدر ختمت الشيء ختماً فهو مختوم مختم ، شددت بالغة ، ومعناه التغطية على الشيء والاستيثاق منه ، وقد يكون محسوساً في ختم الكتاب والباب ، وقد يكون معنوياً كالختم على القلوب . . . » (١)

والقلوب : جمع قلب ، وهو المضغة التي توجد بالجانب الأيسر من صدر إنسان ، ويستعمل في القوة العاقلة التي هي محل الفهم والعلم .

والسمع : مصدر سمع . ويطلق على الآلة التي يقع بها السمع .

ولما كان الختم يمنع من أن يدخل في المختوم عليه شيء ، استعير لإحداثه في القلب والسمع تمنع من خلوص الحق إليهما .

الأبصار : جمع بصر ، وهو في الأصل الإدراك بالعين ، ويطلق على الآلة التي يقع بها الإبصار ، وعلى العين نفسها . وهذا المعنى أقرب ما تحمله الأبصار في الآية . وهو الأنسب لأن تجعل عليه غشاوة . ومفاد الآية تصير أبصارهم بحيث لا تهتدى إلى النظر في حكمة المخلوقات وعجائب أنواعها . باعتبار وقدر ، حتى لسكناً مما جعلت عليها غشاوة .

والغشاوة : ما يغطي به الشيء ، من غشاه إذا غماه . يقال :

غشبه غشاوة - مثله - وغشابه . أي : ستره وغطاه .

فهذه الآية السكريمة تفيد عن طريق الاستهارة أو التمثيل أن هناك حواجز

حصينة ، وأفقلاً متينة ، وغشاوات مطيقة ، قد ضربت على أسماعهم وعلى قلوبهم حتى أصبحوا لا يخيفهم نذير ، ولا يرغيهم بشير .

وعبر في جانب القلب والسمع بالحتم ، وفي جانب البصر بالغشاوة ، لمعنى سام ، وحكمة رائعة ، ذلك أن آفة البصر معروفة ، إذ غشاوة العين معروفة لنا ، فالتعبير في جانب العين بالغشاوة مما يحدد لنا مدى عجزهم عن إدراك آيات الله بتلك الجراحة ، وأما القلب والسمع فإنهما لما كانا لا تدرك آفتهم إلا بصعوبة ، فقد صور لنا مواعظهما عن الاستجابة للحق بصورة الحتم وغير في جانب القلب والسمع بجملة فعلية تفيد التجدد والحدوث ، وفي جانب البصر بجملة اسمية تفيد الثبات والاستقرار ، لأنهم قبل الرسالة ما كانوا يسمعون صوت نذير ، ولا يواجهون بحجة ، وإنما كان صوت النذير وصياغة العرايين بعد ظهور النبي صلى الله عليه وسلم . وأما ما يدرك بالبصر من دلائل وجود الله وآيات قدرته ، فقد كان قائماً في السماوات وفي الأرض وفي الأنفس ، ويصح أن يدرك قبل الرسالة النبوية ، وأن يستدل به المتبصرون والمتدبرون على وجود ربهم وحكمته ، فلم يكن عمام عن آيات الله القائمة حادثاً متجدداً ، بل هم قد صحبهم العمى من بدء وجودهم ، فلما دعوا إلى التبصر والتدبر صمموا على ما كانوا عليه من عمى ،

وجمع القلوب والأبصار وأفرد السمع ، لأن القلوب تختلف باختلاف مقدار ما تفهمه مما يلقي إليها من إنذار أو تبشير ، ومن حجة أو دليل ، فكان عن ذلك تعدد القلوب بتعدد الناس على حسب استعدادهم ، وكذلك شأن الناس فيما تنظمه أبصارهم من آيات الله في كونه ، فإن أنظارهم تختلف في عمق تدبرها وضحوكته ، فكان من ذلك تعدد المبصرين بتعدد مقادير ما يستطيعون من آيات الله في الآفاق . وأما المسموع فهو بالنسبة للناس جميعاً شئ واحد هي الحجة يناديهم بها المرسلون ، والدليل يوضحه له النبيون . لذلك كان الناس جميعاً كأنهم على سمع واحد ، فكان لإفراد السمع إلذاناً من الله بأن حجته واحدة ، ودليله واحد لا يتعدد .

ونرى القرآن هنا قدم القلب في الذكر على السمع ، بينما في سورة
الجاثية قدم السمع في الذكر على القلب فقال :

(أفرايت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه
وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ؛ أفلا تذكرون) .

وذلك لأنه - سبحانه - في سورة الجاثية قد ذكر الختم معطوفا على قوله
« اتخذ إلهه هواه » ومن اتخذ إلهه هواه يكون أول ما يبدو منه للناس ويعرف
هو إغراضه عن النصح ، ولي رأسه عن استماع الحججة ، فكان مظهر عدم
السماع منه أول ما يبدو للناظرين ، فلذلك قدم السمع على القلب .

وأما آيتنا هذه وهي قوله - تعالى - « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم »
فقد جاءت إثر الآية المختومة بقوله « لا يؤمنون » . والإيمان تصديق يقوم
على الحججة والبراهين ، وإدراك الحججة والبرهان إنما هو بالقلب فكان التعليل
المتصل الواضح لنفي الإيمان أن قلوبهم مغلقة لا تنفذ إليها الحججة ، أولا
يتسرب إليها نور البرهان لذلك قدم القلب على السمع .

هذا وقوله - تعالى - « ختم الله على قلوبهم » .. الخ . لا ينفي عنهم تبعه
لكفر ، لأنهم هم الذين باشرُوا من فاسد الأعمال ، وذميمة الخصال ، وصابغة
الهوى ، مانسج على قلوبهم الأغلفة السمكية ، وأصم إلى جانب ذلك آذانهم
رأعى أبصارهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفُسهم يظلمون .

ولعلماء السككتم كلام طويل حول هذه المسألة فيرجع إليه من شاء .
ثم بين - سبحانه - ما يستحقونه من عقاب بسبب إغراقهم في
لكفر . واستحيابهم للمعاصي فقال :

« ولهم عقاب عظيم » .

أي : ولهم بسبب سوء أعمالهم عذاب موجع مؤلم لأبدانهم وأجسامهم .

وأصل العذاب : المنع ، يقال : عذب الفرس - كضرب - امتنع عن العلف . وعذب الرجل إذا ترك المأكل والنوم ، فهو عاذب وعذوب . ثم أطلق على الإيجاع الشديد لما فيه من المنع عن اقتراف الذنب . والعظيم : الكبير ، من عظم الشيء . وأصله كبر عظمه ، ثم استعير لسكل كبير محسوسا كان أو معقولا .

ووصف العذاب بالعظيم على معنى أن سائر ما يجانسه من العذاب يكون بالنسبة إليه حقيراً هيناً .

قال أبو حيان في البحر : وقد ذكروا في هاتين الآيتين من ضروب الفصاحة أنواعاً .

الأول : الخطاب العام اللفظ ، الخاص للمعنى . الثاني الاستفهام الذي يراد به تقرير المعنى في النفس . أى : يتقرر أن الانذار وعدمه سواء عندهم . الثالث : المجاز ويسمى الاستعارة وهو في قوله - تعالى - ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وحقيقة الختم وضع محسوس على محسوس يحدث بينهما رقم يكون علامة للخاتم ، والختم هنا معنوى ؛ فإن القلب لما لم يقبل الحق مع ظهوره استعير اسم المختوم عليه ، فبين أنه من مجاز الاستعارة . الرابع : الخذف وهو في مواضع منها : أن الذين كفروا .. أى : القوم الذين كفروا بالله وبك وبما جئت به ، ومنها (لا يؤمنون) أى بالله وبما أخبرتم به عنه .. (١) وإلى هنا يكون القرآن قد حدثنا عن طائفتين من الناس : طائفة المتقين وما لها من جميل الصفات ، وجزيل الثواب ، وطائفة الكافرين وما لها من ذميمة النعمت ، وشديد العقاب .

ثم ابتداء القرآن بعد ذلك حديثه عن طائفة ثالثة ليس عندها إخلاص المتقين ، وليس لديها صراحة الكافرين ، وإنما هي طائفة قلقة مذنبذة لا إلى هؤلاء ولا إلى أولئك ، تلك الطائفة الثالثة هي طائفة المنافقين الذين فضحهم القرآن . وأما طالثام عن خفياهم وخذاعهم فقال :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامِنُونَ وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا
 أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
 وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قال صاحب الكشاف : وافتتح - سبحانه - كتابه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله ، وواطأت قلوبهم ألسنتهم ، ووافق سرهم هلمهم ، وفعلهم قولهم ، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً ، قلوباً وألسنة ، ثم تلك بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وأبطنوا خلاف ما أظهروا . وهم الذين قال فيهم : « مذبيين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ، وسماهم المنافقين وكانوا أخبث الكفرة وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده ، لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتديساً ، وبالشرك استهزاء وخداعاً ، ولذلك أفرل فيهم : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ووصف حال الذين كفروا في آيتين ووصف حال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبثهم ، ومكرهم ، وفضحهم ، وسفهم . واستجملهم ، واستهزأ بهم ، وتهكم بفعلهم ، وسجل طغيانهم ، ودعاهم صابكاً عمياً ، وضرب لهم الأمثال الشنيعة . وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا ، كما تعطف الجملة على الجملة ، (١) .

والناس : اسم لجماعة الإناس . قال القرطبي : « واختلف النحاة في لفظ الناس فقيل : هو من أسماء الجموع ، جمع إنسان وإنسانة على غير اللفظ ، وتصغيره نويس ، فالناس من النوس وهو الحركة ، يقال : ناس ، (١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٤ .

ينوس أى : تحرك . وقيل : أصله نسي ، فأصل ناس نسى ، قلب فصار نيس ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً ، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس ، قال ابن عباس : نسي آدم عهد الله فسمى إنساناً . وقيل : سمي إنساناً لأنسه بربه ، قال الشاعر :

وما سمي الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب (١)
واليوم الآخر هو اليوم الذى يبتدىء بالبعث ولا ينقطع أبداً ، وقد يراد منه اليوم الذى يبتدىء بالبعث وينتهى باستقرار أهل الجنة فى الجنة . وأهل النار فى النار .

وقال القرآن فى شأن المنافقين «ومن الناس، مجرداً إياهم من الوصفين السابقين ، وصف الإيمان ووصف الكفر ، لأنهم لم يكونوا بحسب ظاهر الأمر مع الكافرين ، ولا بحسب باطنه مع المؤمنين ، لذا عبر عنهم بالناس لينطبق التعبير على ما حاولوه لأنفسهم من أنهم لاهم مؤمنون . ولا هم كافرون وفى ذلك مبالغة فى الخط من شأنهم . فهم لم يخرجوا عن كونهم ناساً فقط ، دون أن يصلوا بأوصافهم إلى أهل الإيمان أو إلى أهل الشك والصرخاء فى كفرهم ، بل بقوا فى منحدر من الأرض ، لا يمر بهم سالك الطريق المستقيم ولا سالك المعوج من الطرق .

وعبر القرآن بلفظ «يقول آمناً» ، ليفيد أنه مجرد قول باللسان ، لا أثر له فى القلوب ، وإنما هم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

وحكى القرآن عن هؤلاء المنافقين أنهم اقتصروا فى إظهار الإيمان على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ، ليزيدوا فى التمويه على المؤمنين بإدعاء أنهم أحاطوا بالإيمان من طرفيه ، لأن من يؤمن بالله واليوم الآخر ، استجابة لدعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإن من شأنه أن يكون - أيضاً - مؤمناً يرسل الله وملائكته وكتبه .

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ
 بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا
 أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
 لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾

قال صاحب الكشاف : دافنتح - سبحانه - كتابه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله ، وواطأت قلوبهم ألسنتهم ، ووافق سرهم هلنهم ، وفعلهم قولهم ، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً ، قلوباً وألسنة ، ثم تلك بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وأبطنوا خلاف ما أظهروا . وهم الذين قال فيهم : « مذنبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وسماهم المنافقين وكانوا أخبت الكفرة وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده ، لأنهم خلطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً ، وبالشرك استتراءً وخداعاً ، ولذلك أنزل فيهم : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ووصف حال الذين كفروا في آيتين ووصف حال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية ، نعى عليهم فيها خبيثهم ، ومكرهم ، وفضحهم ، وسفهمهم . واستجهاهم ، واستنزأهم ، وتهكمم بفعلهم ، وسجل طغيانهم ، ودعاهم صها بكما عميا ، وضرب لهم الأمثال الشنيعة . وقصة للمنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا ، كما تعطف الجملة على الجملة ، (١) .

والناس : اسم جماعة الإناس . قال القرطبي : « واختلف النحاة في لفظ الناس فقيل : هو من أسماء الجوع ، جمع إنسان وإنسانة على غير اللفظ ، وتصغيره نويس ، فالناس من النوس وهو الحركة ، يقال : ناس ،

ينوس أى : تحرك . وقيل : أصله نسي ، فأصل ناس نسى ، قلب فصار نيس ، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانتقلت ألفاً ، ثم دخلت الألف واللام فقيل : الناس ، قال ابن عباس : نسي آدم عهد الله فسمى إنساناً . وقيل : سمى إنساناً لأنسه بربه ، قال الشاعر :

وما سمى الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلب (١)
واليوم الآخر هو اليوم الذى يبتدىء بالبعث ولا ينقطع أبداً ، وقد يراد منه اليوم الذى يبتدىء بالبعث وينتهى باستمرار أهل الجنة فى الجنة . وأهل النار فى النار .

وقال القرآن فى شأن المنافقين «ومن الناس» مجرداً لإياهم من الوصفين السابقين ، وصف الإيمان ووصف الكفر ، لأنهم لم يكونوا بحسب ظاهر الأمر مع الكافرين ، ولا بحسب باطنه مع المؤمنين ، لذا عبر عنهم بالناس لينطبق التعبير على ما حاولوه لأنفسهم من أنهم لاهم مؤمنون . ولا هم كافرون وفى ذلك مبالغته فى الخط من شأنهم . فهم لم يخرجوا عن كونهم ناساً فقط ، دون أن يصلوا بأوصافهم إلى أهل الدين أو إلى أهل الشمال الصرحاء فى كفرهم ، بل بقوا فى منحدر من الأرض ، لا يمر بهم سالك الطريق المستقيم ولا سالك المعوج من الطرق .

وعبر القرآن بلفظ «يقول آمناً» ليفيد أنه مجرد قول باللسان ، لا أثر له فى القلوب ، وإنما هم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

وحكى القرآن عن هؤلاء المنافقين أنهم اقتصروا فى إظهار الإيمان على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ، ليزيدوا فى التمويه على المؤمنين بإدعاء أنهم أحاطوا بالإيمان من طرفيه ، لأن من يؤمن بالله واليوم الآخر ، استجابة لدعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإن من شأنه أن يكون - أيضاً - مؤمناً برسول الله وملائكته وكتبه .

وقد كذبهم الله - تعالى - في دعواهم الإيمان ، فقال :

« وما هم بمؤمنين ، . »

فهذه الجملة الكريمة رد لما ادعوه من الإيمان ، ونفى له على أبلغ وجه ، إذ جاء النفي مؤكداً بالباء في قوله « بمؤمنين ، . » ثم إن الجملة نفت عنهم الإيمان على سبيل الإطلاق ، فهم ليسوا بمؤمنين لا بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يكتب الله ولا يرسله ولا يملأ نيكته .

ثم بين - سبحانه - الدوافع التي دفعتهم إلى أن يقولوا « آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، فقال :

(يخادعون الله والذين آمنوا) .

والخدع في أصل اللغة : الإخفاء والإيهام ، يقال خدعه - كمنه - خدعا ، ختله وأراد به مكروهاً من حيث لا يعلم ؛ وأصله من خدع الضب حارسه إذ أظهر الإقبال عليه ثم خرج من باب آخر .

وخداعهم الله - تعالى - معناه إظهارهم الإيمان وإبطانهم الكفر ليحتملوا دماهم وأموالهم ، ويفوزوا بسهم من الغنائم ، وسمى فعلهم هذا خداعاً لله - تعالى - لأن صورته صورة الخداع ، فالجملة الكريمة مسوقة على أسلوب المشاكلة ، ولا يجوز حملها على الحقيقة ، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه صنع المنافقين ؛ بل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . قال - تعالى - « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، . »

أما خداعهم للمؤمنين فن مظاهره إظهارهم لهم أنهم إخوانهم في العقيدة وأنهم لا يريدون لهم إلا الخير . بينما هم في الحقيقة يصمرون لهم العداوة ويتربصون بهم الدوائر .

وجاءت الآية الكريمة هكذا بدون عطف ، لأنها جواب سؤال نشأ من الآية السابقة ، إذ أن قول المنافقين « آمنا ، وما هم بمؤمنين ، يشير في نفس السامعين استفهاماً عما يدعو هؤلاء لمثل تلك الحال المضطربة والحياة

القلعة المقامة على الكعب ، فكان الجواب : إنهم يفعلون ذلك محاولين
مخادعة المؤمنين ، جهلا منهم بصفات خالقهم .

وقال القرآن : « يخادعون الله والذين آمنوا ، . ولم يذكر مخادعتهم
للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولعل الحكمة في ذلك أن القرآن
يعتبر مخادعة الله مخادعة لرسوله ، لأنه هو الذي بعث إليهم ، وهو المبلغ
عن الله أحكامه وشرائعه . قال - تعالى - :

(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يداه فوق أيديهم) وقال - تعالى -
(من يطع الرسول فقد أطاع الله) .

ثم بين - سبحانه - غفلتهم وغباهم فقال : (وما يخدعون إلا
أنفسهم وما يشعرون) .

الأنفس : جمع نفس بمعنى ذات الشيء . وحقيقته . وتطلق على الجوهر
اللطيف الذي يكون به الحس والحركة والإدراك .

ويشعرون : مضارع شعر بالشيء - كنعصر وكرم - يقال : شعر
بالشيء أي : فطن له ، ومنه الشاعر لفطنته ، لأنه يفطن لما لا يفطن له غيره
من غريب المعاني ودقائقها .

والشعور : العلم الحاصل بالحواس ، ومنه مشاعر الإنسان أي : حواسه

والمعنى : أن هؤلاء المنافقين لم يخادعوا الله لعله بما يسرون ، ولم يخادعوا
المؤمنين لأن الله يدفع عنهم ضرر خداع المنافقين ، وإنما يخدعون أنفسهم
لأن ضرر المخادعة عائد عليهم ، ولكنهم لا يشعرون بذلك . لأن ظلام
الغى خالط قلوبهم ، فجعلهم عديمي الشعور ، فأقضى الحس .

وأى بجملة « وما يخدعون إلا أنفسهم ، بأسلوب القصر مع أن خداعهم
للمؤمنين قد ينالهم بسببه ضرر ، لأن أولئك المنافقين سيصيهم عذاب
شديد بسبب ذلك ، أما المؤمنون فحتى لو نالهم ضرر فلم عند الله ثوابه
وفى عنهم الشعور مع سلامة مشاعرهم ، لأنهم لم ينتفعوا من نعمتها ،
ولم يستعملوها فيما خلقت له ، فكانوا كالفقدين لها .

ثم بين - سبحانه - العلة في خداعهم لله وللمؤمنين فقال : (في قلوبهم مرض) .

والمرض : العلة في البدن وتقيضه الصحة ، وقد يستعمل على وجه الاستعارة فيما يعرض للمرء فيخل بكامل نفسه ، كسوء العقيدة والحسد ، والبغضاء والنفاق ، وهو المراد هنا .

وسمى ما هم فيه من نفاق وكفر مرض ، لكونه مانعاً لهم من إدراك الفضائل . كما أن مرض الأبدان يمنعها من التصرف الكامل . وجعل القرآن قلوبهم ظرفاً للمرض ، للإشعار بأنه تمكن منها تمكيناً شديداً كما يتمكن الظرف من المظروف فيه .

ثم أخبر - سبحانه - بأنهم بسبب سوء أعمالهم قد زادهم الله ضلالاً وخسراً فقال : (فزادهم الله مرضاً) .

لأنهم استمروا في نفاقهم وشكهم ، ومن سنة الله أن المريض إذا لم يعالج مرضه زاد له محالة مرضه ، إذ المرض ينشئ المرض ، والاحتراف يبدأ يسيراً ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة وتزداد .

والمعنى : أن هؤلاء المنافقين قد زادهم الله رجساً على رجسهم ، ومرضاً على مرضهم ، وحسداً على حسدهم ، لأنهم عموا وطمعوا عن الحق ، ولأنهم كانوا يحزنون لأى نعمة تنزل بالمؤمنين . كما قال - تعالى - : (إن تمسك حسنة تسره ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبتهم فقال : (ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) .

« أليم ، أى : مؤلم وموجع وجعاً شديداً . من ألم - كفرح - فهو ألم ، وآله يؤلمه إيلاماً ، أى : أوجعه إجماعاً شديداً .

والكذب : الإخبار عن الشيء بخلاف الواقع . ولقد كان المنافقون كاذبين في قولهم « آمناً بالله وباليوم الآخر ، وهم غير مؤمنين ، وجعلت الآية الكريمة العذاب الأليم مرتباً على كذبهم مع أنهم كفرة » .

والكفر أكبر معصية من الكذب ، للإشعار بقمح الكذب ، وللتنفير منه -
 بأبلغ وجه ، فهؤلاء المنافقون قد جمعوا الخسرتين ، الكفر الذي توعد الله
 مرتكبیه بالعذاب العظيم ، والكذب الذي توعد الله مقترفه بالعقاب الأليم .
 وعبر بقوله « كانوا يكذبون » لإفادة تجديد الكذب وحدوثه منهم
 حيناً بعد حين ، وأن هذه الصفة هي أخص صفاتهم ، وأبرز جرائمهم ،
 ثم وصفهم الله - تعالى - بعد ذلك بجملة من الرذائل والقبائح مضافة
 إلى قبائحهم السابقة فقال :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا

فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ

وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ

قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ إِلَّا إِنَّمَا هُمْ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا

يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

الفساد : خروج الشيء عن حالة الاعتدال والاستقامة ، وعن كونه
 منتفعاً به ، وهدده الصلاح ، يقال منه : فسد الشيء فساداً ، وأفسده إفساداً .
 والمراد به هنا كفرهم ، ومعاصيهم ، ومن كفر بالله واتهم بحارمه
 فقد أفسد في الأرض ، لأن الأرض لا تصلح إلا بالتوحيد والطاعة .
 ومن أبرز معاصي هؤلاء المنافقين ، ما كانوا يدعون إليه في السر من
 تكذيب الرسول - ﷺ - وإلقاء الشبه في طريق دعوته ، والتحالف
 مع المشركين ضد المسلمين كما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .
 وسلك القرآن هذا الأسلوب فقال : « وإذا قيل لهم ، بالإنباء للمفعول

دون أن يسند الفعل إلى فاعله ، لأن مصدر القول المعبر عن النهى عن الإفساد ليس مصدراً واحداً ، فقد يصل آذانهم هذا النهى مرة من رسول الله ، وأخرى من أصحابه ، وقد يفهمون هذا النهى مرة من صريح القول . وأخرى مما كانوا يقابلون به من ناحية الرسول ﷺ وأصحابه من نجهم وإعراض . وعلق بالفعل الذى هو الإفساد قوله : ، فى الأرض ، إذ نادى بأن الإفساد مهما ضاقت حدوده ، فإنه لا بد يوماً أن يتعدى الحدود إلى ما وراء ذلك فقد يعم ويشمل إذا لم يشتد فى الاحتياط له ، لذلك جعل ظرف لإفسادهم الأرض كلها مع أنهم موجودون فى بقعة محصورة هى المدينة المنورة . ولقد حكى القرآن جوابهم على نصيحة الناصحين وما فيه من تبجح وادعاء . فقال :

(قالوا : إنما نحن مصلحون) .

فقد بالغوا فى الرد فحسروا أنفسهم أولاً فى الإصلاح مبالغة المفجوع الذى أذهلته المفاجأة بكشف أستار حقيقته ، قرأهم لم يقتصروا على أن يقولوا : « إنا مصلحون » ، بل قالوا « إنما » . ثم أكدوا الجملة بكونها اسمية ليدلوا بذلك على أن شأنهم فى الإصلاح ثابت لازم .

قال الراغب : صوروا لإفسادهم بصورة الإصلاح لما فى قلوبهم من المرض ، كما فى قوله - تعالى - : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » . وقوله : « وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » . وقوله : « قل هل ننبئكم بالآخرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » . ولقد كذبهم الله - تعالى - تكذيباً مؤكداً فى دعواهم أنهم مصلحون فقال :

(ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) .

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وضع فى الرد عليهم جملة صدرها بأداة الاستفتاح « إذ نادى » بأن ما قالوه يجب أن يهمل لإهمالها ، بل يجب أن يكون

وصفهم بالإفساد قضية مبتدأة مقررة حتى يتلقاها السامع وهو منتبه النفس،
حاصر الذهن .

والمراد من الناس المؤمنون بالرسول ﷺ الصادقون في إيمانهم .
ثم أكد الجملة بعدة تأكيدات منها : وصل ، أيا ، بيان ، الدالة على
تأكيد الخبر وتحقيقه ، ومنها تأكيد الضمير بضمير منفصل حتى يتم التصاق
الخبر بالمبتدأ ، ومنها اسمية الجملة ، ومنها إفادة قصرهم على الإفساد في مقابل
تأكيدهم أنهم هم المصلحون .

ولما كان هذا الرد المؤكد عليهم يستدعي عجباً ، لأنهم زعموا أنهم لا
حال لهم إلا الإصلاح ، مع أنهم في الحقيقة لا حال لهم إلا لإفساد ، لما كان
الأمر كذلك ، فقد أزال القرآن هذا العجب بقوله :
(ولكن لا يشعرون) .

أى : أنهم ما قالوه إلا عن غباء استولى على إحساسهم ، وفق عنهم الشعور
بما يصدر عنهم من الفساد ، فأمسوا لا يدركون من شأن أنفسهم شيئاً ، ومن
أسوأ ألوان الجهل أن يكون الإنسان مفسداً ولا يشعر بذلك ، مع أن أثر فساد
ظاهر في العيان ، مرئى لكل ذى حس . فعدم شعورهم بالفساد الواقع منهم منى .
باختلاف آلات إدراكهم ، حتى صاروا يحسبون الفساد صلاحاً ، والشر خيراً .
وإيس عدم شعورهم رافعاً العقاب عنهم ، لأن الجاهل لا يعذر بجهله
خصوصاً إذا كان جهله يزول بأدنى تأمل لوضوح الأدلة ، وسطوع البراهين .
ثم بين القرآن أن الناصحين قد أمرهم بالمعروف بعد أن هو دم عن
المنكر فقال :

(وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) .
السفهاء : جمع سفية ، وأصل السفه : الخفة والرقة والتحرك والاضطراب
يقال : ثوب سفية ، إذا كان رديء النسيج خفيفه ، أو كان باليارقيقاً . وتسفت
الريح الشجر . أى : مالت به . وزمام سفية : كثير الاضطراب ، لمنازعة

الثاقفة إياه ، وشاع في خفة العقل وضعف الرأي . وهو المعنى المقصود بالسفهاء .
في الآية . فقد كان المنافقون يصفون المسلمين بذلك فيما بينهم . وروى
أنهم كانوا يقولون : أؤمن كما آمن سفيه بنى فلان ، وسفيه بنى فلان ١٩
فأوحى الله النبي - صلى الله عليه وسلم - بهذا الذي كانوا يقولونه .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : لم وصفوهم بالسفه وهم العقلاء
المراجيح ؟ قلت لأن المنافقين لجهلهم وإخلاقهم بالنظر ، اعتقدوا أن ما هم
فيه هو الحق ، وأن مآذاه باطل ، ومنزكب من الباطل كان سفياً ، ولأنهم
كانوا في رياسة من قومهم ويسار ، وكان أكثر المؤمنين فقراء ومنهم موال
كصهيت وبلال وخباب ، فدعوهم سفهاء تحقيراً لشأنهم (١) اهـ ملخصاً .
وقد رد الله عليهم بما يكتبهم ويفضحهم فقال :

(ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) لأنهم أعرضوا عن النظر في الدليل
وباعوا آخرتهم بدنياهم ، وهذا أقصى ما يبلغه الإنسان من سفه العقل .
وقد تضمن هذا العقل تسفيهم وتكذيبهم في دعوى سفه الصادقين في
إيمانهم ، فإن قوله - تعالى - « ألا إنهم هم السفهاء » يفيد أن السفه مقصور
عليهم فلا يتجاوزهم إلى المؤمنين ، وقد تضمنت من المؤكدات ما تضمنته
الجملة السابقة في قوله - تعالى - « ألا إنهم هم المفسدون » .

وإنما قال في الآية السابقة ولكن لا يشعرون ، وقال في هذه الآية ولكن
لا يعلمون ، لأن الآية السابقة وصفتهم بالإفساد ، وهو من المحسوسات التي
تدرك بأدنى نظر . فيناسبه نفي الشعور الذي هو الإدراك بالمشاعر : الخواص ،
أما هذه الآية فقد وصفتهم بالسفه ، وهو ضعف الرأي والجهل بالأمور ،
وهذا لا يدركه الشخص في نفسه إلا بعد نظر وإمعان فكر . فيناسبه نفي العلم .

ثم بين القرآن ما هم عليه من سلوك ذميم ، وأنهم يقابلون الناس بوجوه
مختلفة فقال :

وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ

شِبَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ

بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا

الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَّحَتِ بَيْعَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

• وإذا ما لقوا الذين آمنوا ، يقال لقيته ولاقيته إذا استقبلته وصادفته

وكان قريبا منك . والمصدر اللقاء واللقى واللقىة . والمقصود : استقبلوهم

وكانوا في مواجهتهم وقريبا منهم . ومرادهم بقولهم ءامننا ، أخلصنا الإيمان

يقولوننا لأن الإقرار باللسان معلوم منهم .

• وإذا خلوا إلى شياطينهم ، أى : انفردوا مع رؤسائهم وقادتهم المشبهين

الشياطين في تمردهم وعتوهم وصددهم عن سبيل الحق . يقال : خلا به

وإليه ومعها ، خاوا وخلا . وخلوة : سأله أن يجتمع به في خلوة ففعل وأخلاه معه

أو المعنى : وإذا مضوا وذهبوا إلى شياطينهم ، يقال : خلا بمعنى مضى

وذهب ، ومنه قوله تعالى • قد خلعت من قبلكم سنن • . أى مضت .

وعبر عن حالهم مع المؤمنين بالملافة ، وعن حالهم مع الشياطين بالخلوة

ليذانا بأن هؤلاء المنافقين لأنس لهم بالمؤمنين ، ولاطمأينة منهم إليهم فهم

لا يجاسونهم ولا يسامرونهم ، وإنما كل ما هنالك أن يلقوهم في عرض

طريق ، أما شأنهم مع شياطينهم فهم إليهم بركون ، وإليهم يتسامرون

ويتحدثون ، لذلك هم بهم يحلون .

• والمعنى في قولهم ءانا معكم ، والمراد منها موافقتهم في دينهم ، وأكدوا

ما خاطبوا به شياطينهم بحرف التأكيد ، إذ قالوا • ءانا معكم ، ليزيلوا ما قد

يجرى في خراطهم من أنهم فارقوا دينهم وانقلبوا إلى دين الإسلام بقلوبهم

ولم يأو كدوا ما خاطبوا به المؤمنين ، إذ قالوا لهم (آمننا) ولم يقولوا • ءانا

أنا ليومهم أنهم بمرقة لا ينبغي أن يترددوا في إيمانهم حتى يحتاجوا إلى تأكيد .

وقوله - تعالى - حكاية عنهم : (إنما نحن مستهزئون) . وارد مورد الجواب عما قد يعترض به عليهم شياطينهم إذا قالوا لهم : كيف تدعون أنكم معانم أنكم توافقون المؤمنين في عقيدتهم وتشاركونهم في مظاهر دينهم ؟ فكان جوابهم عليهم (إنما نحن مستهزئون) والاستهزاء : السخرية والاستخفاف بالغير ، يقال : هزأ منه وبه - كنع وسمع - واستهزأ به ، أي : سخر .

والمعنى : إننا نظهر للمؤمنين الموافقة على دينهم استخفافاً بهم وسخرية منهم ، لا أن ذلك صادر منا عن صدق وإخلاص .

ثم بين - سبحانه - موقفه منهم فقال : (الله يستهزئ بهم) .

حل بعض العلماء استهزاء الله بهم على الحقيقة وإن لم يكن من أسماء المستهزئ ، لأن معناه يحتقرهم على وجه شأنه أن يتعجب منه ، وهذا المعنى غير مستحيل على الله ، فيصح إسناده إليه - تعالى - على وجه الحقيقة .

ويرى جمهور العلماء أن الاستهزاء لا ينفك عن التلبس كأن يظهر المستهزئ استحسان الشيء وهو في الواقع غير حسن ، أو يقر المستهزأ به على أمر غير صواب ، وهذا المعنى لا يليق بجلال الله ، فيجب حل الاستهزاء المسند إليه تعالى على معنى يليق بجلاله ، فيحمل على ما يلزم على الاستهزاء من الانتقام والعقوبة والجزاء المقابل لاستهزائهم ، وسمى ذلك استهزاء على سبيل المشاركة كما في قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

وهذا دليل على غيرة الله على عباده المؤمنين ، وانتقامه من كل من يستهزئ بهم أو يؤذيهم .

وهب بالمضارع في قوله (يستهزئ) للإيدان بأن احتقاره لهم ، أو مجازاتهم على استهزائهم يتجدد ويقع المرة بعد الأخرى :

ثم بين - سبحانه - لونا آخر من ألوان غضبه عليهم فقال : « ويمدهم في طبغيانهم يعمهون » .

المد : الإمهال والمطاوله والزيادة ، من المد بمعنى الإمهال ، يقال :
 مده في غيه - من باب رد - أمهله وطول له ، ويقال : مد الجيش وأمهه
 إذا ألحق به ما يقويه ويكثره ويريده ، وقيل : أكثر ما يستعمل المد في
 المكروه ، والإمداد في المحبوب ، والظنيان : مجاوزة الحد ، ومنه طفا
 الماء ، أى : ارتفع .

ويعمون : يعمون عن الرشد ، أو يتحIRON و يترددون بين الإظهار
 والإخفاء ، أو بين البقاء على الكفر وتركه إلى الإيمان . يقال : عمه - كفرح
 ومنع - عمها ، إذا تردد وتحير ، فهو عمه وعمه وعمه ، وهم عمهون وعمه كركع
 والمعنى : أن الله تعالى يجازي هؤلاء المنافقين على استهزائهم وخذاعهم ،
 ويمكنهم من المعاصي أو يبلى لهم ليزدادوا إثماً . حال كونهم يعمون عن
 الرشد ، فلا يبصرون الحق حقاً ولا الباطل باطلاً .

ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان غبائهم وبلادتهم فقال : أولئك
 الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، .

الاشترأ : استبدال السلعة بالثمن . والمراد : أنهم استبدلوا ما كره الله
 من الضلالة بما أحبه من الهدى .

والمشار إليه بأولئك هم المنافقون : الموصوفون في الآيات السابقة بالكذب
 والمخادعة ، والفساد في الأرض ، ورمى المؤمنين بالسفاهة واستهزائهم بهم .

والسر في الإشارة إليهم والتعبير عنهم بأولئك تمييزهم وتوضيحهم بأكمل
 صورة وأجلى بيان . إذ من المعروف عند علماء البلاغة أن اسم الإشارة إذا
 أشير به إلى أشخاص وصفوا بصفات يلاحظ فيه تلك الصفات ، فهو بمنزلة
 إعادة ذكرها وإحضارها في أذهان المخاطبين . فتكون تلك الصفات ، وهي
 هنا الكذب والمخادعة وما عطف عليها ، كأنها ذكرت في هذه الآية مرة
 أخرى ليعرف بها علة الحكم الوارد بعد اسم الإشارة ، وهو هنا اشترأ
 للضلالة بالهدى . أى : اختبأها . واستبدلها به .

وعبرت الآية بالاشتراء على سبيل الاستعارة ليتحدد مقدار رغبتهم في الضلالة ، وزهدهم في الهدى ، فإن المشتري في العادة يكون شديد الرغبة فيما يشتري ، رغبة تجعله شديد الزهد فيما يبذله من ثمن . فهم راغبون في الضلالة ، زاهدون في الهدى .

وقوله تعالى : (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) لا يقتضى أنهم كانوا على هدى من ربهم فتركوه ، بل يكفى فيه أن يجعل تمكنهم من الهدى لقيام أدليه . بمنزلة الهدى الحاصل بالفعل .

ثم بين سبحانه نتيجة أخذهم الضلال وتركهم الهدى فقال :

فما ربحت تجارتهم ، أى : أنهم لم يحصلوا من اشتراهم للضلالة بالهدى على الربح ، وإذا كانت التجارة الحقيقية قد يفوت صاحبها الربح ، ولسكنه لا يقع فى خسارة بأن يبقى له رأس ماله محفوظاً ، فإن التجارة المقصودة من الآية هى استبدال الضلالة بالهدى ، لا يقابل الربح فيها إلا الخسران ، فإذا نفي عنها الربح فذلك يعنى أنها تجارة خاسرة .

ثم قال - تعالى - : « وما كانوا مهتدين ، أى : وما كانوا مهتدين إلى سبيل الرشاد وما توجه إليه العقول الراجحة من الدين الحق ، وما كانوا مهتدين إلى طرق التجارة الراجحة ، فهم أولاً لم يرحوا فى تجارتهم بل خسروها ، وهم ثانياً ذهب نور الهدى من حولهم فبقوا فى ظلمة الضلال .

وما أوجع أن يجتمع على التاجر خسارته وتورطه ، وما أوجع أن يجتمع عليه أن ينقطع عن غايته ، وأن يكون فى ظلمة تعلقه عن التبصر .

وبعد أن وصف الله تعالى حال المنافقين فى الآيات السابقة ، ساق مثلين لتوضيح سوء تصرفهم ، وشدة حيرتهم واضطرابهم . فقال تعالى :

عَسَلَهُمْ كَذَبَلُ الَّذِي اسْتَوْقَدْنَا نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ

بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صَمَّ بَكَرْعَى فَهَمَّ
لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ
يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِيءِ أَذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوْعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ
مُخِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا
أَضَاءَ لَهُمْ مَشَؤًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ
بِهِمْ سَمْعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

وقوله تعالى : مثلهم ، أى : صفتهم ، وأصل المثل بمعنى المثل ، والمثل
النظير والشبيه ، ثم أطلق على القول السائر المعروف لمعاقبة مضر به - وهو
الذى يضرب فيه - مورد الذى ورد فيه أولاً ، ولا يكون إلا فيما فيه غرابة
ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة ،
وعلى هذا المعنى يحمل المثل فى هذه الآية ،
وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى وتقرير المعقول من المحسوس ،
وعرض الغائب فى صورة الشاهد ، فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع
فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

واستوقد النار : طلب وقودها بسطوع ناراها واندلاع لهيها ، أو أوقدها
لأن أوقد واستوقد قد يكونان بمعنى واحد كأجاب واستجاب .
والنار : جوهر لطيف حار محرق من نار ينور إذا نقر لحركتها
واضطرابها ، وأضأت ما حوله : جعلت ما حوله مضيئاً ، أو أشرقت فيها
حوله . وحول الشيء : ما يحيط به من جميع نواحيه ، ولذا قيل للعام حول ،
اطلغه ودورانه حتى يعود كما كان .

والنور : الضوء الذي يكون للشيء المضيء ، وهو مأخوذ من النار ومعنى : (ذهب الله بنورهم) سلبه منهم ، وفي إسناد ذهب إلى ا تعالى - إشعار بأن النور الذي سلب عنهم لن يستطيع أحد أن يرده عليهم لأن الذي سلبه عنهم إنما هو الله الغالب على أمره .

وقال (بنورهم) ولم يقل بنارهم ، لأن إيقاد النار يكون الإضاءة وللإحراق والمقصود من إيقاد النار الواردة في المثل إنما هو الإضاءة .

وقال (بنورهم) ولم يقل بنوره ، مع أن الضمير يعود على (الذي استوقد وهو بحسب الظاهر مفرد ، لأن (الذي) قد يطلق أحياناً بمعنى الذين كما في قوله تعالى : (وخضتم كالذي خاضوا) أو لأن (الذي) أريد به جنس المستوقد ، لا مستوقد بعينه ، فصار في معنى جماعة من المستوقدين وصح أن يعود عليه ضمير الجمع في قوله (بنورهم) لذلك .

وأورد الظلمات بصيغة الجمع للمبالغة في شدتها ، فكأنها أشدة كثافتها وظلمتها بعضها فوق بعض ، وأكدها بقوله (لا يبصرون) أي : أن هذه الظلمات بالغة في الشدة حتى أولئك المحاطين بها لا يتأتى لهم أن يبصروا ، كما أن الشاك ذلك بالنسبة للذين طمس على أعينهم .

وعبر - سبحانه - بقوله (وتركهم) ولم يقل : ذهب بنورهم وبقوا ظلمات ، ليدل بذلك على قطع الصلة بينهم وبين ربهم ، وأنهم متروكون غضباً عليهم ونكابة بهم .

هذا ، وللعلماء رأيان في تطابق هذا المثل على المنافقين ، أما الرأي الأول فيرى أصحابه ، أن هذا المثل قد ضرب في قوم دخلوا في الإسلام عند وصول النبي - ﷺ - إلى المدينة ، ثم تحولوا بعد ذلك إلى الكفر والنفاق فيقال في تطابق هذا المثل عليهم : إن قصة هؤلاء المنافقين الذين اكتسبوا بإيمانهم نوراً ، ثم أبطلوا ذلك بنفاقهم ، ووقعوا في حيرة عظيمة ، كقصه من استوقدوا ناراً ؛ فلما أضاءت ما حولهم ، سلب الله منهم الضوء فراحوا في ظلام لا يبتدون إلى الخروج منه سبيلاً .

وأما الرأي الثاني فيرى أصحابه أن هذا المثل إنما ضرب في قوم لم يسبق لهم إيمان وإنما دخلوا في الإسلام من أول أمرهم نفاقاً ، فيقال في تطبيق هذا المثل عليهم : إن قصة هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام نفاقاً ، فظفروا بحقن دماهم وبغنائم الجهاد وسائر أحكام المسلمين ، وتمتعوا بذلك في الدنيا قليلاً ثم صاروا إلى ظلمات العذاب الدائم في الآخرة - قصة هؤلاء كقصة من استوقدوا ناراً لتضيء لهم ويفتغوا بها ، فأضأت ما حولهم قليلاً ، ثم طمئت وصاروا إلى ظلمة شديدة مطبقة .

ثم قال - تعالى - : (صم بكم عمى فهم لا يرجعون) .

قال القرطبي : والصم في كلام العرب : الانسداد ، يقال : فناة صماء إذا لم تكن مجوفة ، وصممت الفارورة إذا سددتها . فالأصم من انسدت خروق سماعه . والأبكم الذي لا ينطق ولا يفهم ؛ والعمى ذهاب البصر . وليس الغرض مما ذكرناه في الإدراكات عن حواسهم جملة ، وإنما الغرض نفيها من جهة ما (١) .

والآية الكريمة خبر اضمير مقدر يعود على المنافقين ، أي : هم بكم عمى ووصف المنافقون بهذه الصفات لأنهم وإن كانت لهم آذان تسمع ، وألسنة تنطق ، وأعين تبصر ، إلا أنهم لا يسمعون خيراً . ولا يتكلمون بما ينفعهم ولا يبصرون مسلكاً من مسالك الهداية ، ومن كان كذلك كان هو ومن فقد حواسه سواء ، فقد صرف الله عنهم عنايته ووكاهم إلى أنفسهم .

ووردت هذه الصفات مجردة من حرف العطف ، فلم يقل : صم وبكم وعمى ، لما عرف من استعمالات البلغاء . أن تجريد أمثال هذه الأوصاف من حرف العطف يفيد تأكيدها ، حيث إن المتكلم قد قصد إلى تقرير كل صفة منها على حدة .

ومعنى « فهم لا يرجعون » ، لا يعودون إلى الهدى بعد أن باعوه ، أو لا يرجعون عن الضلالة بعد أن اشتروها .

والفاء في قوله - تعالى - (فهم) للتفريع أو التسبب ، لأنها توحى بأن عدم رجوعهم عما فيه من النفاق متفرع على تلك الآفات ، ومسبب عن هذه العاهات .

ثم ساق - سبحانه - المثل الثاني فقال : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، . د أو ، للنسوية بين الشيتين وهى مفيدة أن التمثيل بأيهما أو بمجموعهما يؤدي إلى المقصود ، فهى مانعة لخلو مجوزة للجمع بينهما . و (الصيب) - كسيد - المطر ، من الصوب وهو النزول . يقال : صاب صوباً ، إذا نزل أو انحدر ، سمي به المطر لنزوله ، وفي الجملة الكريمة إيجاز بخذف ما دل عليه المقام دلالة واضحة . والتقدير : أو كمثل ذوى صيب . والمعنى أن قصة هؤلاء المنافقين مشبهة بقصة الذى استوقد ناراً ، أو بقصة ذوى صيب .

والسماء : كل ما علاك من سقف ونحوه ، والمراد بها السحاب . والرعد : الصوت الذى يسمع حين تصطك أجرام السماء بعضها ببعض والبرق : ما يحدث من أثر ذلك الاحتكاك بإثارة شرارة كهربائية يتصل هوجبها بسالبها ، وهو من برق الشيء برقاً إذا لمع .

وإيراد هذه الألفاظ بصفة التنكير للتحويل ، ويكون المعنى : أو أن مثل هؤلاء المنافقين كمثل قوم نزل بهم المطر من السماء تصحبه ظلمات كأنها سواد الليل ، ورعد الأذان ، وبرق يخطف الأبصار ؛ وصواعق تحرق ما تصيبه .

ثم قال - تعالى - « ويجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ، الصواعق : جمع صاعقة من الصعق وهو شدة الصوت الذى يصحبه - غالباً - قطعة من نار لا تاتى على شيء إلا أهلكته .

(ومن) في قوله - تعالى - (من الصواعق) للتعليل . وإنما كانت الصواعق داعية إلى سدهم آذانهم بأصابعهم ، من جهة أنها قد تفضى بصوتها الهائل إلى الموت ، وجاء هذا مصرحاً به في قوله - تعالى - (حذر الموت) .

والمعنى : يسدون آذانهم من أجل الصواعق خوفاً من أن تقتلهم بشدة صوتها .

ومن المعروف أن الذي يجعل في الآذان عند الفزع بعض الأصابع لا كلها ، إلا أنه عبر بالأصابع مبالغة في فرط فزدهم وشدة اضطرابهم ، ومسابقة للمألوف في اللغة من نسبة ما يكون لبعض الشيء إلى ذلك الشيء ، حيث يكون المراد جليلاً واضحاً . وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض .

وقوله (حذر الموت) يدل على أنهم لم يموتوا من تلك المفزعات وهذه المروعات . إمدادا في عذابهم . ومطاولا في نكاحهم .
وقوله - تعالى - : : والله محيط بالكافرين ، جملة معترضة في أثناء ضرب المثل بذوى الصيب .

ولإحاطته - سبحانه - بالكافرين على معنى أنهم لا يهرب لهم منه ، فهو محيط بهم لإحاطة تامة وهو قادر على النكال بهم متى شاء وكيف شاء . ولم يقل محيط بهم مع تقديم مرجع الضمير وهو أصحاب الصيب ، لإيداناً بأنهم إنما استحقوا ذلك العذاب بكفرهم .
ثم قال - تعالى - : : يكاد البرق يخطف أبصارهم ، .

يكاد من الأفعال التي تدخل على اسم يسند إليه فعل بعده نحو (البرق يخطف) . فتدل على أن المسند إليه وهو البرق قد قارب أن يقع منه الفعل وهو خطف الأبصار .

والخطف : الأخذ بسرعة . والأبصار : جمع بصر ، وهو قوة مودعة في العين يدرك بها الألوان والأشكال .

والمعنى : أن البرق لشدة لمعانه يقرب من أن يخطف أبصارهم ، وهو تصور يبلغ لشدة ذلك البرق ، وترك بيان شدة الرعد اكتفاء بما ذكره في جانب البرق ، ولم يذكر توقيهم للأعين بوضع شيء عليها اكتفاء بما ذكره توقي الآذان أو لأنهم شغلوا بالآذان عن الأعين .

وقوله - تعالى - : « كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، وصف رائع لما يصنعه أهل الصيب في حالتى ظهور البرق واختفائه . وكل ظرف ، وما مصدرية ولا تصالها بكل أفادت الشرط والعامل فيها هو جوابها وهو (مشوا) و (أضاء) بمعنى لمع ، و (أظلم) من الإظلام وهو اختفاء النور . و (قاموا) أى وقفوا وثبتوا في مكانهم . من قام الماء إذا جمد . ويقال : قامت الدابة إذا وقفت .

والعنى : أنهم إذا صادفوا من البرق وميضاً انتهبوا ذلك الوميض فرصة ، فخطروا خطوات يسيرة ، وإذا خفي لمعانه وقفوا في مكانهم ، فالجملة السكريمة تدل على فرط حرصهم على النجاة من شدة ما هم فيه من أهوال ثم قال - تعالى - (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ،

لو : أداة شرط ، وشاء بمعنى أراد . أى : لو أراد الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لزداد في قصف الرعد فأصمهم ، وفي ضوء البرق فأعماهم . أو يقال : إن قصف الرعد ولمعان البرق المذكورين في المثل سببان كافيان لأن يذهبا بسمع ذرى الصيب وأبصارهم لو شاء الله ذلك . فيكون قوله تعالى : « ولو شاء الله لذهب ، إشعاراً بأن تأثير الأسباب في مسبباتها إنما هو بإرادته - تعالى - وخص السمع والبصر بالذهاب مع أنها من جملة مشاعرهم ، لأهميتها . ولأنها هى التى سبق ذكرها ، أو من باب التنبيه بالأعلى على الأدنى ، لأنه إذا كان قادراً على إذهاب ما حافظوا عليه ، كان قادراً على غيره من باب أولى .

ثم ختم الآية بقوله - تعالى - « إن الله على كل شىء قدير ، . الشىء فى أصل اللغة كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه ، ويحمل فى هذه الآية على الممكن خاصة موجوداً ، كأن أومعدوماً ، لأن القدرة إنما تتعلق بالممكنات دون الواجب والمستحيل .

والقدير : الفاعل لما يريد . يقال : قدره على الشىء أقدره قدرة وقدرأ . وهذه الجملة السكريمة بمنزلة الاستدلال على ما تضمنته الجملة السابقة

من أن الله تعالى قادر على أن يذهب بأسماع أصحاب الصيب وأبصارهم متى شاء .

وتطبيق هذا المثل على المنافقين يقال فيه : إن أصحاب الصيب لضغفهم وخورهم لا يطيقون سماع الرعد الهائل ، ولا يستطيعون فتح أعينهم في البرق اللامع ، فيجعلون أصابعهم في آذانهم فزعاً من قصف الرعد ، وخوفاً من صواعق تجادل فوق رؤسهم فتدعهم حصيداً خامدين ، وكذلك حال هؤلاء المنافقين فإنهم لضغف بصرهم ، وانطلاس عقولهم ، تشتد عليهم زواجر القرآن ووعيده وتهديده وأوامره ونواهيه ، فتشتمز قلوبهم ويصرفون عنه أسماعهم خشية أن تثقل عليهم آيات تقع على أسماعهم وقع الصواعق المهلكة . قال ابن كثير : « وذهب ابن جرير ومن تبعه من المفسرين إلى أن هذين المثليين مضروبان لصنف واحد من المنافقين ، وتكون «أو» في قوله تعالى «أو كصيب» بمعنى الواو ، كقوله تعالى «ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً» أو تكون للتخيير ، أي ، اضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا ، أو للتساوي مثل : جالس الحسن أو ابن سيرين .. قلت : وهذا يكون باعتبار أجناس المنافقين ، فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة بقوله : « ومنهم من يقول ائذن لي .. » « ومنهم من عاهد الله .. » « ومنهم من يلزك في الصدقات .. » الخ . فجعل هذين المثليين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم (١) . »

هذا ، ويرى فضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز . أن المثليين لطائفتي الكافرين والمنافقين ، فالمثل الأول وهو قوله تعالى « مثلهم كمثل الذين استوفد نارا » ، يتطابق تمام الانطباق على الأوصاف التي ذكرها الله للكافرين وأن الذي ينطبق على صفات المنافقين إنما هو المثل الثاني وحده وهو قوله تعالى « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق .. » ، فقد ضرب الله لكنا الطائفتين مثلاً يناسبها .

قال فضيخته : فضرب مثلاً للمصريين المختوم على قلوبهم بقوم كانوا يسرون في ظلام الليل فيهم رجل استوقد لهم ناراً يمتدون بضوئها ، فلما أضاءت ما حوله لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر ، بل لأمر ما سلبوا نور أبصارهم ، وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجأة ، فذلك مثل النور الذي طلع به محمد صلى الله عليه وسلم في تلك الأمة على فطرة من الرسل ، فتفتحت له البصائر المستتيرة هنا وهناك ، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين الذين ألقوا العيش في ظلام الجهلية ، فلم يرفعوا له رأساً بل نكسوا على رؤسهم ، ولم يفتحوا له عيناً بل خروا عليه صماً وعمياناً .

وضرب مثلاً للترددين المخادعين بقوم جامتهم السماء بقيت منهمر في ليلة ذات رعد وبرق ، فأما الغيث فلم يلقوا له بالاً ولم ينالوا منه نيلاً ، فلا شربوا منه قطرة ، ولا استنبتوا به ثمرة .. وأما تلك التقلبات الجوية من الظلمات والرعد والبرق فكانت هي مشار اهتمامهم ، ومناط تفكيرهم ، ولذلك جعلوا يترصدونها ، ويدبرون أمورهم على وفقها ، لاسين لكل حال لبوسها : سيراً تارة ، ووقفاً تارة ، واختفاء تارة أخرى .

فكانوا إذا رأوا عرضاً قريباً وسفراً قاصداً وبرقت لهم (بروق) الأمل في الغنيمة ساروا مع المؤمنين جنباً إلى جنب ، وإذا دارت رحا الحرب وانقضت (صواعقها) مندرة بالموت والهزيمة أخذوا حذرهم وفرّوا من وجه العدو قائلين : إن بيوتنا عورة ، حتى إذا كانت الثالثة فلم يلمحوا من الآمال بارقة ولم يتوقعوا من الآلام صاعقة ، بل اشتبهت عليهم الأمور فهناك يقفون متربصين لا يتقدمون ولا يتأخرون ، ولكن يلزمون شقة الحيات ريشاً تنقشع سحابة الشك . فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين .

ذلك دأب المنافقين في كل أمرهم ، إن توقعوا ربحاً عاجلاً المنسوه في أي صف وجدوه ، وإن توقعوا أذى كذلك تنكروا للفتنة التي بناهم في سديها .

شيء مكره ؛ وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيداً إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ؛ أما الذي يؤمن بالله واليوم الآخر فإن له قبلة واحدة يولى وجهه شطرها ، هي قبلة الحق لا يخشى فيها لومة لائم :

وليس يبالي حين يقتل مسلماً

على أى جنب كان في الله لمصرعه (١)

هذا هو رأى فضيلة الدكتور دراز ، وهو رأى مستساغ يتمشى مع روح الآيات وأهداف السورة ، وأبما كان فالمثلان يصوران أحوال المبطلين بصورة حسية واضحة تنجلي فيها بلاغة القرآن الكريم في إبراز المعاني المعقولة في صورة محسنة واضحة من شأنها أن تهدي الناس إلى طريق الحق والرشاد .
وبعد أن بينت السورة الكريمة أقسام الناس الثلاثة ، وعاقبة كل قسم منهم ، ساقط لهم نداء عاماً دعوتهم فيه إلى عبادة الله وحده ، قال تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ

اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٢١﴾
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٢﴾

ففي هاتين الآيتين توجيه للناس إلى الأمر الذي خلقوا من أجله وهو عبادة الله دون ما سواه ، وبين البراهين الساطعة التي تدل على وحدانية الله وعظيم قدرته .

(١) من كتاب النبا العظيم ص ١٦٤ لفضيلة المرحوم الدكتور الشيخ

محمد عبد الله دراز .

و د يا ، حرف نداء وهو أكثر حروف النداء استعمالاً ، فهو أصل حروف النداء .

و «أى» اسم مبهم لكن يزول لبهامه بالإسْم المقصود بالنداء الذى يأتى بعده .

و (ها) المتصلة بين مؤكدة للتنبيه المستفاد من النداء .

و (العبادة) الخُضوع البالغ الغاية .

وقد كثر النداء فى القرآن الكريم بهذه الطريقة لما فيها من التأكيد الذى كثيراً ما يقتضيه المقام .

وفى ذكره تعالى باسم الرب ، وإضافته إلى المخاطبين ، تقوية لداعية إقبالهم على عبادته .

فإن الإنسان إذا اتجه بفسكره إلى معنى كون الله مالِكاً له ، أو مربياً له وتذكر ما يحضه به من رفق ، وما يجود به عليه من إنعام ، لم يلبث أن يخصه بأقصى ما يستطيع من الخُضوع والخشوع والإجلال .

وإفراد اسم الرب دل على أن المراد رب جميع الخلق وهو الله تعالى ، إذ ليس ثمة رب يستحق هذا الاسم بالإفراد والإضافة إلى جميع الناس إلا الله . ثم بين - سبحانه - المرجبات التى من شأنها أن تحملهم على عبادته وحده فقال «الذى خلقكم والذين من قبلكم» .

والخلق : أصله الإيجاد على تقدير وتسوية ، ويطلق فى القرآن وفى عرف الشريعة على إيجاد الأشياء المعدومة ، فهو إخراجها من العدم إلى الوجود إخراجاً لا صنعة فيه للبشر .

والمعنى : اجعلوا أيها الناس عبادتكم لله تعالى وحده ، لأنه هو الذى أوجدكم فى أحسن تقويم بعد أن كنتم فى هدم ، كما أوجد الذين تقدموكم . وقدم وصفه بخلق المخاطبين مع أنه متأخر بالزمان عن خلق من تقدموهم ، لأن علم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره .

وقوله تعالى «والذين من قبلكم» ، فيه رد على الدهريين من المخاطبين

الذين يرحمون أنهم إنما خلقهم آبائهم فقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر .

فكان قوله (والذين من قبلكم) تذكيراً لهم بأن آباءهم الأولين لا يبد أن ينتهوا إلى أب أول قد خلقه الله تعالى .

وجملة « لعلكم تتقون » تمليل للأمر بالعبادة ، ولذلك فصلت .

و (لعل) حرف موضوع ليدل على الترجى ، وهو توقع حصول الشيء .

عند ما يحصل سببه وتنتفي مواعنه . والشيء المتوقع حصوله في الآية هو التقوى وسببه العبادة ، إذ العبادة يستعد الإنسان لأن يبلغ درجة التقوى وهي الفوز بالهدى والفلاح ، والترجى قد يكون من جهة المتكلم وهو الشائع وقد تستعمل

لعل في الكلام على أن يكون الترجى مصروفاً للمخاطب ، فيكون المترجى هو المخاطب لا المتكلم ، وعلى هذا الوجه يحمل الترجى في هذه الآية ، لاستحالة

توقع حصول الشيء من عالم الغيب والشهادة ، لأن توقع الإنسان لحصول الشيء هو أن يكون متردداً بين الوقوع وعدمه مع رجحان الوقوع ، وعليه فيكون المعنى : اعبدوا ربكم راجين أن تكونوا من المتقين ، الذين بلغوا الغاية في الهدى والفلاح .

ثم أضاف - سبحانه - أسباباً أخرى تحمل الناس على عبادته وطاعته فقال : « الذي جعل لكم الأرض فراشا ، »

لفراس : ما يفرشه الإنسان ليستقر عليه بنحو الجلوس أو المنام . أى : اجعلوا عبادتكم لله الذى صير الأرض لاجلكم مهاداً كالبساط المفروش ، فدلها لكم ولم يجعلها صعبة غليظة ، لكي يتيسر لكم الاستقرار عليها . والتقلب في مناكبها ، والانتفاع بما أودع الله في باطنها من خيرات .

وتصوير الأرض بصورة الفراش لا ينافي كونها كروية ، لأن الكرة إذا عظمت جدا كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الانتفاع بها .

« والسما بناء » يقال لسقف البيت بناء أى : جعل السماء كالسقف

للأرض ، لأنها تظهر كالقبة المضروبة فوقها كما قال - تعالى - « وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون » .

وقدم خلق الأرض على خلق السماء لأن الأرض أقرب إلى المخاطبين ،
وانتفاعهم بها أظهر وأكثر من انتفاعهم بالسماء .

قال بعض الأذباء : (إذا تأملت هذا العالم وجدته كالبيت المعد فيه كل
ما يحتاج إليه ، فالسما مرفوعة كالسقف ، والأرض ممدودة كالإسط ،
والنجوم منورة كالمصابيح ، والإنسان كاللك البيت المتصرف فيه وضروب
النبات مبيأة لمنافعه ، وضروب الحياة مصروفة لمصلحه ، فهذه جملة واضحة
دالة على أن العالم مخلوق بتدبير كامل ، وتقدير شامل ، وحكمة بالغة ،
وقدرة غير متناهية) .

ثم قال - تعالى - و أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم :
السماء : السحاب . والثمرات : ما ينتجه الشجر . والرزق : ما يصلح
لأن يستفح به . والباء في . (به) للسببية .

أى : لأنه جعل الماء سبباً في خروج الثمرة ، وهو القادر على أن ينشئها
بلا سبب كما أنشأ الأسباب .

وأورد (ماء) و (رزقاً) في صيغة التنكير التي تستعمل عند إرادة بعض
أفراد المعنى الذي وضع له اللفظ لغة ، وذلك لأن من الماء ما لم ينزل من السماء ،
ومن الرزق ما لا يكون من الثمرات . فعنى الجملة الكريمة : أنزل من السماء
بعض الماء ، فأخرج به من الثمرات بعض ما يكون رزقاً لكم .
ثم قال - تعالى - فلا تجعلوا لله أنداداً وأتم تعلمون .

الأنداد : جمع ند ، وهو مثل الشيء الذي يضاذه وينافره ويتباعد عنه .
وأصله من : ند البعير يندند أو فداداً ونداً ، إذ أتفر دو ذهب على وجهه شاردأ .
والمعنى : فلا تجعلوا لله أمثالا ونظراء تعبدونها وتسمونها آلهة ، وتعتقدون
فيها النفع والضر ، وتجعلون لها ما لله تعالى وحده ، وأتم تعلمون أنها أشياء لا
يصح جعلها أنداداً مساوية له تعالى . أو وأتم من ذوى العلم والنظر ، فلو تأملتم
أدنى تأمل لا نصرقتم بقوة إلى عبادة الله وحده . ولتركتم الإشراف به .

وصدرت الجملة الكريمة بالفاء لتقرّبها على الكلام السابق ، المترتب على الأمر بعبادة الله وحده .

وسمى القرآن الشركاء المزعومين أنداداً تهكماً بالعابدين لها ، ولأن المشركين لما تركوا عبادة الله إلى عبادة الأوثان ، وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها آلهة ، قادرة على مخالفته ومضادته ، وذلك معنى جعلها أنداداً الذي هو مصب النهى في الآية .

وجملة (وأنتم تعلمون) ، حالية ، ومفعول تعلمون مقروك ، لأن الفعل لم يقصد تعليقه بمفعول ، بل قصد إثباته لفاعله فقط فنزل الفعل منزلة اللازم ، وفي هذه الجملة مبالغة في زجرهم عن عبادة الأوثان من دون الله ، لأن ارتكاب الباطل من الجاهل قبيح ، وهو من العالم يبطلانه أشد قبحاً ، وأدعى إلى أن يقابل بأغلظ ألوان الإنكار . كما أن فيها إثارة لهممهم ليقلعوا عن عبادة غير الله ، فإن كان من ذوى العلم لا يصح منه أن يفعل أفعال من لا عقل له . وهذا لون جليل من ألوان التربية ، فإن من سمات المرابي الناجح أن يجمع بين القسوة في النهى عن القبيح ، وبين إثارة همّة المرعوظ حتى لا يقتل همته باليأس ، لأن الإنسان إذا سادت ظنونه بنفسه خارت عزيمته ، وفترت همته .

هذا ، وقد استفاضت الأحاديث النبوية التي تدعو إلى توحيد الله ، وتنهى عن الإشراك ، ومن ذلك ما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : قلت يا رسول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك .

قال الإمام ابن كثير : وهذه الآية دالة على توحيد - تعالى - بالعبادة وحده لا شريك له ، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطبائعها ومنافعها ، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه - وإتقانه وعظيم سلطانه ، كما قال بعض الأعراب وقد سئل : ما الدليل على

وجود الله - تعالى - فقال : يا سبحان الله ! إن البعر ليبدل على البعير ؛
وإن أثر القدم ليبدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ،
وبحار ذات أمواج ، ألا يدل هذا على وجود اللطيف الخبير (١) .

وبعد أن ساق - سبحانه - في هاتين الآيتين البراهين الساطعة الدالة
على وحدانية الله ؛ ونفى عقيدة الشرك ، أورد بعد ذلك الدلائل الدالة على
صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن
ليس من صنع بشر ، وإنما هو كلام واهب القوى والقدرة فقال - تعالى - :

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ

مِنْ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾
فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
أَعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

ففي هاتين الآيتين انتقال لإثبات الجزء الثاني من جزأى الإيمان ، وهو
صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - في رسالته ، بعد أن تم لإثبات الجزء الأول
من ذلك وهو وحدانية الله - تعالى - وعظيم قدرته .

والمعنى : إن ارتبتم أيها المشركون في شأن هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا
محمد على مهل وتدرج ، فأتوا أنتم بسورة من مثله في سمو الرتبة ، وعلو الطبقة
واستعينوا على ذلك بأهلتكم وبكل من تتوقعون منهم العون ، ليساعدوكم
في مهمتكم ، أو ليشهدوا لكم أنكم أقيمت بما يمثله ، إن كنتم صادقين في
زعمكم أنكم تقدرون على معارضة القرآن الكريم .

والمقصود بقوله : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا . . .)
 في الريب عن المنزل عليه بنفيه عن المنزل .
 والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب الإيذان بأن أقصى ما يمكن
 صدوره عنهم هو الارتياب في شأنه ، أو للتنبية على أن كلامهم في شأن
 القرآن هو بمنزلة الريب الضعيف لكمال وضوح الدلائل الدالة على أن
 القرآن من عند الله - تعالى - .

وعبر بقوله (وإن كنتم في ريب) ولم يقل : وإن ارتبتم فيما نزلنا ، للإشارة
 إلى أن ذات القرآن لا يتطرق إليها ريب ، ولا لايطير إلى أفقها شرارة من شك ،
 وأنه أثير حوله أى شك فرجمه إلى انطماس بصيرتهم ، وضعف تفكيرهم ،
 واستيلاء الحقد والعناد على نفوسهم .

وأني بيان المفيدة للشك مع أن كونهم في ريب مما نزل على النبي - صلى
 الله عليه وسلم - أمر محقق ، تنزيلاً للمحقق منزلة المشكوك فيه ، وتنزيهاً
 لساحة القرآن عن أن يتحقق الشك فيه من أى أحد ، وتوبيخاً لهم على
 وضعهم الأمور في غير مواضعها .

ووجه الإتيان في الدالة على الظرفية ، للإشارة إلى أنهم قد امتلكهم
 الريب وأحاط بهم إحاطة الظرف بالمظروف .

وقال و نزلنا ، دون أنزلنا ، لأن المراد النزول على سبيل التدرج ؛
 و من المعروف أن القرآن قد نزل منجماً في مدة تزيد على عشرين سنة .

قال صاحب الكشاف : (فإن قلت : لم قيل : (مما نزلنا) على لفظ
 التنزيل دون الإنزال ؟ قلت : لأن المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم
 وذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هذا القرآن من عند الله ، لم ينزل هكذا
 نجوماً سورة بعد سورة ، وآيات غب آيات ، على حسب النوازل ، وعلى سنن
 ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً فحيناً
 حسب ما يعين لهم من الأحوال المتجدده . . . فقيل لهم : إن ارتبتم في هذا
 الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدرج ، فما اتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه .

وهاتوا نجما فردا من نجومه: سورة من أصغر السور ، أو آيات شتى مفترقات ، وهذا غاية التبكيت ومنتهى إزاحة العليل (١) اه ملخصاً .

والمراد بالعبد في قوله - تعالى - (على عبدنا) محمد - صلى الله عليه وسلم - وفي إضافته إلى الله - تعالى - تذييه على شرف منزلته عنده ، واختصاصه به . وفي ذكره - صلوات الله عليه - باسم العبودية تذكير لآمته بهذا المعنى ، حتى لا يغالوا في تعظيمه فيدعوا ألوهيته كما غالت بعض الفرق في تعظيم أنبيائها أو زعمائهم فادعت ألوهيتهم .

والسورة : الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص ، والتي أفلها ثلاث آيات ، والضمير في قوله (من مثله) يعود على المنزل وهو القرآن .

والمراد من مثل القرآن : ما يشابهه في حسن النظم ، وبراعة الأسلوب وحكمة المعنى . وهذا الوجه من الإعجاز يتحقق في كل سورة .

وقيل : إن الضمير في قوله (من مثله) يعود على المنزل عليه القرآن ، وهو النبي - صلى الله عليه وسلم - ولكن الرأي الأول أرجح .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : وهو الضمير إلى القرآن أرجح لوجوه أحدها : أن ذلك مطابق لسائر الآيات الواردة في باب التحدى لاسيما ما

ذكره في سورة يونس من قوله (فأتوا بسورة مثله ..) وثانيتها : إن البحث إنما وقع في المنزل وهو القرآن ، لأنه قال (وإن كنتم في ريب مما نزلنا ..) فوجب صرف الضمير إليه ، ألا ترى أن المعنى ، وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فها تروا أنتم شيئاً مما يماثله ، وتضية الترتيب لو كان الضمير مردوداً إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقال : وإن ارتبتم في أن محمداً منزل عليه فها تروا قرآناً مثله . وثالثها : أن الضمير لو كان عائداً إلى القرآن لا يقتضي كونهم عاجزين عن الإتيان بمثله سواء اجتمعوا أو انفردوا وسواء كانوا أميين أو عالمين ، أما لو كان عائداً إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - فذلك لا يقتضي إلا كون أحدهم من الأميين عاجزين عنه ، لأنه لا يكون

مثل محمد إلا الشخص الأمي ، فأما لو اجتمعوا وكانوا قارئين لم يكونوا مثل محمد ، لأن الجماعة لا تماثل الواحد ، والقارىء لا يكون مثل الأمي ، ولا شك أن الإعجاز عن الوجه الأول أقوى . ورابعها : أننا لو صرفنا الضمير إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - لسكان ذلك يوم أن صدور مثل القرآن عما لم يكن مثل محمد في كونه أميا يمكن ، ولو صرفناه إلى القرآن لدل ذلك على أن صدور مثله من الأمي ومن غير الأمي ممتنع فكان هذا أولى (١) .
وقوله - تعالى - (وادعوا شهداءكم من دون الله) مخطوف على قوله : (فاتوا بسورة) .

وادعوا : من الدعاء ، والمراد به هنا : طلب حضور المدعو أى : نادوهم وشهداءكم : أى : آلهتكم ، جمع شهيد وهو القائم بالشهادة ، فقد كانوا يزعمون أن آلهتهم تشهد لهم يوم القيامة بأنهم على حق . وقيل : الشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو الناصر أو الإمام ، وكأنه سمي به لأنه يحضر المجالس وتبرم بمحضرة الأمور .

ودرن : بمعنى غير : وتطلق في أصل اللغة على أدنى مكان من الشيء ، ومنه تدوين الكتب لأنه إدفاء البعض من البعض ، ودونك هذا أى : خذ من أدنى مكان منك ، ثم استعير للتفاوت في الرتب فقول : زيد دون عمرو أى : في الشرف ، ومنه الشيء دون ، ثم انسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد إلى حد ، وتخطى أمر إلى أمر .

قال الجمل : (والمعنى) : وادعوا إلى المعارضة من حضركم أو رجوتهم معونته من إنسكم وجنتكم وآلهتكم غير الله ، فإنه لا يقدر على أن يأتي بمثله إلا الله . . ، أو ادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بأن ما أتيتم به مثله ، ولا تستشهدوا بالله ، فإن الاستشهاد به من عادة المبهوت العاجز عن إقامة الحجة ، أو شهداءكم الذين اتخذتموهم من دون الله آلهة وزعمتم

أنها تشهد لكم يوم القيامة (١)
 وفي أمرهم بدعوة أصنامهم وهي جماد ، وفي تسميتها شهداء مع إضافتها
 إليهم مع أنها لا تعقل ولا تنطق ، في كل ذلك أقوى ألوان التوهم ، لكي
 يثير في نفوسهم من الألم ما قد يكون سبباً لتنبههم إلى جهلهم ، وانصرافهم
 عن ضلالتهم .

وقوله - تعالى - (إن كنتم صادقين) جملة معترضة في آخر الكلام
 وجواب الشرط محذوف دل عليه الكلام السابق دلالة واضحة حتى صار
 ذكره في نظام الكلام مما ينزل به عن مرتبة البلاغة .

والمعنى : إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم تقدرون على معارضة
 القرآن فأتوا بسورة من مثله . وادعوا آلثمتكم وبلغاءكم وجمع البشر
 ليخنيوكم (أو ليشهدوا لكم أنكم أقيمتم بما يماثله في حكمة معانيه وحسن بيانه
 وفي هذه الآية الكريمة إثارة للحناساتهم ، إذ عرض بعدم صدقهم ،
 فتتوفر دواعيهم على المعارضة التي زعموا أنهم أهل لها .
 ثم قال - تعالى - (فإن لم تفعلوا وإن ففعلوا فاتقوا النار التي وقودها
 الناس والحجارة) .

المعنى : فإن لم تفعلوا أي . تعارضوا القرآن ، وتبين لكم أن أحداً لا
 يستطيع معارضته ، فخافوا العذاب الذي أعدّه الله للجاحدين وهو النار التي
 وقودها الناس والحجارة .

والوقود : ما يلقى في النار لإضرارها كالخطب ونحوه ، والحجارة :
 الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله كما قال - تعالى - : (إنكم وما
 تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) .

واقتران المشركين بما كانوا يعبدون في النار مبالغة في إبلاهم وتحسيرهم
 والانتصار على ذكر الناس والحجارة لا يؤخذ منه أن ليس في النار غيرهما
 بدليل ما ذكر في مواضع أخرى من القرآن أن الجن والشياطين يدخلونها .

قال صاحب الكشف : فإن قلت : انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهلما جيء بإذا الذي للوجوب دون إن الذي للشك ؟ قلت : فيه وجهان أحدهما أن يساق القول معهم على حسب حسابهم وطعمهم ، وأن العجز عن المعارضة كان قبل التامل كالمشكوك فيه لديهم لا تمكلمهم على فصاحتهم واقتدارهم على الكلام . والثاني : أن يتمكم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغبلة على من يعاديه : إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويدينه تهكماً به (١) .

وقال : فإن لم تفعلوا ، ولم يقل فإن لم تأتوا بسورة من مثله ، لأن قوله (فإن لم تفعلوا) جار مجرى الكناية التي تعطى اختصاراً ووجازة تغني عن طول المكنى عنه ، ولأن الإتيان ما هو لإفعل من الأفعال ، تقول : أتيت فلانا . فيقال لك : نعم ما فعلت .

وجملة (ولن تفعلوا) جملة معترضة بين الشرط والجزاء ، جيء بها لتأكيد عجزهم عن معارضته . فإن في نفيها في المستقبل بإطلاق تأكيداً لنفيها في الحال .

قال الإمام الرازي : (فإن قيل : فما معنى اشتراطه في اتقاء النار انتفاء إتيانهم بسورة من مثله ؟ فالجواب أنه إذا ظهر عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإذا صح ذلك ثم لزمو العناد استوجبوا العقاب بالنار ، فاتقاء النار يوجب ترك العناد ، فأقيم المؤثر مقام الأثر ، وجعل قوله : (فاتقوا النار) قائماً مقام قوله فاتركوا العناد ، وهذا هو الإيجاز الذي هو أحد أبواب البلاغة ، وفيه تهويل بشأن العناد ، لإثابة اتقاء النار منابه متبعاً ذلك بتهويل صفة النار) (٢) .

ومعنى (أعدت للكافرين) هيئت لهم ، لأنهم الذين يخلدون فيها ، أو أنهم خصوا بها وإن كانت معدة للفاستقين - أيضاً لأنه يريد بذلك تارة

(١) تفسير الكشف ج ١ ص ١٠١

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ٢٢٤

مخصوصة لا يدخلها غيرهم كما قال - تعالى - (إن المناققين في الدرا
الأسفل من النار) .

وفي هذه الآية الكريمة معجزة من نوع الإخبار بالغيب ، إذ لم تق
المعارضة من أحد في أيام النبوة وفيها بعدها إلى هذا العصر .
قال صاحب الكشاف : (فإن قلت : من أين لك أنه إخبار بالغيب على
ما هو عليه حتى يكون معجزة ؟ قلت : لأنهم لو عارضوه بشئ لم يمتنع أن يتواصفا
للناس وبتناقلوهم ، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال ، لاسيما
وللطاعنون فيه أكثر عددًا من الذابين عنه ، فحين لم ينقل علم أنه إخبار
بالغيب على ما هو به ، فكان معجزة) (١) .

وقال بعض العلماء : (هذه الآية الجليلة من جملة الآيات التي صدقت
بتحدى الكافرين بالتنزيل الكريم . وقد تحداهم الله في غير موضع منه
فقال في سورة القصص :

(قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين)
وقال في سورة الإسراء (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأثوا بمثل
هذا القرآن لا يأثون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) وقال في سورة
يونس (أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم
من دون الله إن كنتم صادقين) . وكل هذه الآيات مكية .

ثم تحداهم أيضا في المدينة بهذه الآية (وإن كنتم في ريب) . الخ
فمجزوا عن آحرمهم ، وهم فرسان الكذب ، وأرباب النظام ، وقد خصوا
من البلاغة والحكم ما لم يخص به غيرهم من الأمم ، جعل الله لهم ذلك طبعاً
وخلاقة وفيهم غزيرة وقرة . يأثون منه على البديهة بالعجب ويدلون به إلى كل
سبب ، فيخطبون ، ويمدحون ، ويقدحون ، ويتوسلون ، ويتوصلون ،
ويرفعون ، ويضعون ، فيأثون بالسحر الحلال . . . ومع هذا فلم يتصد
لمعارضة القرآن منهم أحد ، ولم ينهض - لمقدار سورة منه - فاهض من بلغائهم ،
ولم ينبض منهم عرق العصبية مع اشتهاهم بالإفراط في المضارة والمضادة .

وقد جرد لهم النبي ﷺ - الحجة أولاً ، والسيف آخراً فلم يعارضوا إلا السيف وحده ، وما عرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أنهم أعجز من المعارضة ، وبذلك يظهر أن في قوله - تعالى - (ولن تفعلوا) معجزة أخرى ، فإنهم ما فعلوا ، وما قدروا

وحيث عجز عرب ذلك العصر فما سواهم أعجز في هذا الأمر

فدل على أن القرآن ليس من كلام البشر ، بل هو كلام خالق القوى والقدره أفرله تصديقاً لرسوله ، وتحقيقاً لمقوله (١)

وبعد أن ذكر القرآن الكفار وما لهم ، عطف على ذلك ذكر المؤمنين وما يفوزون به من نعم في حياتهم الباقية ، كما هي سنة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد فقال - تعالى - :

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا
 هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِءَ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ
 مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

البشارة : الخبر السار فهو أخص من الخبر ، سمي بذلك لأن أثره يظهر على البشرة وهي ظاهر جلد الإنسان ، والأمور بالتبشير هو النبي - صلى الله عليه وسلم - أو كل من يتأتى منه تفخيماً لأمره ، وتعظيماً لشأنه .

والصالحات : جمع صالحة وهي الفعلة الحسنة ، وهي من الصفات التي جرت مجرى الأسماء في إيلائها العوامل .

والجنات : جمع جنة ، وهي كل بستان ذي شجر متكاثف ، ملتف الأغصان ، يظل ما تحته ويستتره ، من الجن وهو ستر الشيء عن الحاسة ، ثم صارت الجنة اسماً شرعياً لدار النعيم في الآخرة ، وهي سبع درجات : جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة النعيم ، ودار الخلد ، وجنة المأوى ، ودار السلام ، وعليون ... وتتفاوت منازل المؤمنين في كل درجة بتفاوت الأعمال الصالحة .

والأنهار جمع نهر - بفتح الهاء وسكونها والفتح أفصح - وهو الأخدود الذي يجري فيه الماء على الأرض ، وهو مشتق من مادة نهر الدالة على الانشقاق والاتساع ، ويكون كبيراً أو صغيراً .

وأُسند إليه الجرى في الآية مع أن الذي يجري في الحقيقة هو الماء ، أخذاً بفن معروف بين البلغاء ، وهو إسناد الفعل إلى مكانه ، توسعاً في أساليب البيان .

وقوله « من تحتها ، وورد على طريقة الإيجاز بحذف كلمة « أشجار » اعتماداً على تبادلها إلى الذهن ، والمعنى : تجري من تحت أشجارها الأنهار . ثم بين - سبحانه - أحوال هؤلاء المؤمنين الصالحين فقال :

(كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل) .
 أى : إن سكان الجنة كلما رزقوا في الجنة ثمرة من ثمراتها ، وجدوها مثل الذي رزقوه فيها من قبل ، في بلوغه للغاية من حسن المنظر ولذة الطعم وفي هذا إشارة إلى أن ثمار الجنة متماثلة في حسن منظرها ، ولذة طعمها بحيث لا تفضل ثمرة في ذلك على أخرى ، فجميع ثمرها يسر له القلب ويستحلبه الذوق ، وإن اختلفت المناظر والطعوم .

ثم قال - تعالى - (وأتوا به متشابهاً) أى : يشبه بعضه بعضاً في الصور والرائحة ، ويختلف في اللذة والطعم ، أو في المزية والحسن ، وعن ابن عباس « ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء » ، وهذه الجملة مؤكدة لما قبلها في معنى أن كل ثمر يشابه ما قبله في حسن المنظر ولذة الطعم مشابهاً لا يفضا

حقها ثم على آخر ؛ بخلاف ثمر الدنيا ، فإنه يتفاوت في مناظره حسناً ، وفي طعمومه لذة .

ويرى بعض العلماء حمل قوله - تعالى - « قالوا هذا الذي رزقنا من قبل » على تقدير : من قبل دخول الجنة ، أى هذا الذي رزقناه في الدنيا ، وإلى هذا الرأى مال صاحب الكشف فقد قال : « فإن قلت : كيف قيل . « هذا الذي رزقنا من قبل ، وكيف تكون ذات الحاضر عندم في الجنة هي ذات الذي رزقوه في الدنيا ؟ قلت : معناه هذا مثل الذي رزقناه من قبل وشبهه ، به دليل قوله « وأقوا به متشابهاً ، فإن قلت : لإلام يرجع الضمير في قوله : « وأقوا به ، ؟ قلت : إلى المرزوق في الدنيا والآخرة جميعاً ، لأن قوله « هذا الذي رزقنا من قبل ، انطوى تحته ذكر ما رزقوه في الدارين . فإن قلت : لأى غرض يتشابه ثمر الدنيا وثمر الجنة ؟ قلت : لأن الإنسان بالمألوف آنس ؛ وإلى المعهود أميل ، وإذا رأى مالم يألفه نفر عنه طبعه ، وعافته نفسه (١) . »

ثم قال - تعالى - (ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) .
فالأزواج : جمع زوج وهي المرأة يختص بها الرجل ، والضمير في « فيها » يعود إلى الجنات .

والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين نساء مختصات بهم ، مطهرات غاية التطهير من كل دنس وقدر ، حسي ومعنوي ، لا كنساء الدنيا ، وهم في هذه الجنات باقون على الدوام ، لأن النعيم إنما يتم باطمئنان صاحبه على أنه دائم ، أما إذا كان محتملاً للزوال فإن صاحبه يبقى منغص الببال ، إذ يستدكر أنه سيفقده في يوم من الأيام ، فجملة « وهم فيها خالدون ، جرى بها على سبيل الاحتراس من وهم الانقطاع .

وبعد هذا البيان للجامع عن أحوال المهتمدين بهديه أو الناكبين عن

صراطه ، وما تخلل ذلك من المواعظ النافعة ، والتمثيلات الرائعة ، والبشارات الطيبة لمن آمن وعمل صالحاً ، بعد كل ذلك بين - سبحانه - أنه لا يعبا أن يضرب مثلاً بشيء حمير أو غير حمير ، فقال - تعالى :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ

مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا . فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ

بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ

أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ؕ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

روى الواحدى فى أسباب النزول عن ابن عباس أن الله - تعالى - لما أنزل قوله - تعالى - (إن الذين تدعون من دون الله إن يخافتوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه) وقوله - تعالى - (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً) .

لما نزل ذلك قال المشركون : أرأيتم أى شىء يصنع بهذا ؟ فأزل الله (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها . .) .

وروى عن الحسن وقتادة أن الله لما ذكر الذباب والعنكبوت فى كتابه وضرب بها المثل ضحك اليهود وقالوا : ما يشبه أن يكون هذا من كلام الله ، فأزل الله هذه الآية : (إن الله لا يستحى ، . . الخ .

وقال السدى : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين ، يعنى قوله تعالى :

(مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً . .) وقوله تعالى : (أو كصيب من السماء) قال المنافقون : الله أهلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ! فأنزل الله هذه الآية .

ويبدو أن الآية الكريمة قد نزلت للرد على جميع تلك الفرق الضالة ، فقد قرر العلماء أنه لا مانع من تعدد أسباب النزول للآية الواحدة أو للطائفة من الآيات .

والاستحياء والحياء واحد ، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل استقدم واستأجر واستجاب . وهو فى أصل اللغة انقباض النفس وانكسارها من خوف ما يعاب به ويذم . وهذا المعنى غير لائق بجلال الله ، لذا ذهب جمع من المفسرين إلى تأويله بإرادة لازمه ، وهو ترك ضرب الأمثال بها . والمعنى : إن الله لا يترك أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها ، وإطلاق الفعل كالاستحياء على ما يقرئ عليه كترك الفعل ، مألوف فى الكلام البليغ حيث يكون المراد واضحاً .

ومذهب السلف : إمرار هذا وأمثاله على ما ورد ، وتقويض علم كتمه . وكيفيته إلى الله - تعالى - مع رجوب تنزيهه عما لا يليق بجلاله من صفات المحدثات .

أى : ليس الحياء بمافع لله - تعالى - من ضرب الأمثال بهذه المخلوقات الحقيرة الصغيرة فى نظركم ؛ كالبعوض والذباب والعنكبوت ، فإن فيها من دلائل القدرة ، وبدائع الصنعة ما تحار فيه العقول ، ويشهد بمحكمة الخالق والمثل فى اللغة : العيبه . وهو فى عرف القرآن : الكلام البليغ المشتمل على تشبيهه بديع ، كالمثلين السابقين اللذين ضربهما الله فى حال المنافقين ؛ أو وصف غريب نحو قوله تعالى :

(يأبى الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ؛ وإن يسألهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه) .

وضرب المثل : لإبراده ، وعبر عن إبراده بالضرب ، لشدة ما يحدث عنه من التأثير في نفس السامع .

و (ما) في قوله (مثلاما) هي ما الإبهامية ، تجى - بعد النكرة فتزيدها شيوعاً وعموماً ، كقولك : أعطنى كتاباً ما ، تريد أى كتاب كان .
والبعوضة واحدة البعوض وهي حشرة صغيرة تطلق على الناموس وهي بدل أو بيان من قوله (مثلاً) .

وقوله (فيما فوقها) عطف على بعوضة ، والمراد فما فوقها في الحجم كالذباب والعنكبوت ، والسكب والحمار ، أو فما فوقها في المعنى الذى وقع التمثيل فيه ، وهو الصغر والحقارة كجناحها أو كالذرة .

قال صاحب الكشاف : سبقت هذه الآية لبيان أن ما استكروه الجبهة والسفها - وأهل العناد والمرء من الكفار واستغروه من أن تكون المحقرات من الأشياء مضروراً بها المثل ، ليس بموضع للاستنكار والاستغراب ، من جهة أن التمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، وإدناء المتوهم من المشاهد . . وأن الله - تعالى - أن يتمثل للأنداد وحقارة شأنها بما لا شىء أصغر منه وأقل ، كما لو تمثل بالجزء الذى لا يتجزأ أو بما لا يدركه لتناهيه في صغره إلا هو وحده .. وقوله (فيما فوقها) فيه معنيان : أحدهما : فيما تجاوزها وزاد عليها في المعنى الذى ضربت فيه مثلاً وهو القلة والحقارة نحو قولك لمن يقول : فلان أسفل الناس وأندلهم ، هو قوق ذلك ، تريد هو أعرق فيما وصف من السفالة والنذالة ، والثانى : فيما زاده عليها في الحجم فإنه قصد بذلك رد ما استكروه من ضرب المثل بالذباب والعنكبوت لأنهما أكبر من البعوضة (١) .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك موقف الناس أمام هذه الأمثال فقال :
فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم . .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١١١ وما بعدها .

أما حرف مفيد للشرط والتفصيل والتأكيد ، أما الشرط فلوقوع الفاء في جوابها ، وأما التفصيل فلوقوعها بعد مجمل مذكور أو مقدر ، وأما التأكيد فلأنك إذا قلت : زيد ذاهب ، ثم قصدت تأكيد ذلك وإفادة أن ذهابه واقع لا محالة قلت : أما زيد فذاهب .

والضمير في قوله (أنه) يعود على المثل ، أو على ضربه المفهوم من قوله (أن يضرب مثلاً) .

والحق : خلاف الباطل ، وهو الثابت الذي لا يدريغ إنكاره .
ووجه كون المثل أو ضربه حقاً ، أنه يوضح المبهم ، ويفصل المجمل ، فهو وسيلة إلى تقرير الحقائق وبيانها .

وروجه تفصيل الناس في هذه الآية إلى قسمين ، أنهم بالنسبة إلى التشريع .
والتنزيل كذلك ، فهم مؤمن أو كافر .

والمقصود من ذكر المؤمنين هنا الثناء عليهم بثبات إيمانهم ، وتثبيت الذين أرادوا تشكيكهم ببيان أن إيمانهم يحول بينهم وبين الشك .

وعبر في جانب المؤمنين بـ يعلمون تعريضاً بأن الكافرين إنما قالوا ما قالوا عناداً ومكابرة ، وأنهم يعلمون أن ذلك تمثيل أصاب الحزب .

وقال ، أنه الحق ، معرفاً بال ، ولم يقل : أنه حق للمبالغة في حقيقة المثل .

ومن المعروف في علم البيان أن الخبر قد يؤتى به معرفاً بال ، للدلالة على أن المخبر عنه بالغ في الوصف الذي أخبر به عنه مرتبة السجال .

وقوله « من ربه » ، حال من الحق ، ومن ابتدائية ، أي : إن هذا الكلام وارد من الله ، لا كما زعم الذين كفروا أنه مخالف لأصواب ، فهو مؤذن بأنه من كلام الخالق الذي لا يقع منه الخطأ .

ثم بين - سبحانه - موقف الكافرين من هذه الأمثال عندما تتلى عليهم فقال :

وأما للذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ، .

كلمة (ماذا) مركبة من ما الاستفهامية وذا اسم الإشارة ، غير أن العرب توسعوا فيها فاستعملوها اسم استفهام مركباً من كلمتين ، وذلك حيث يكون المشار إليه معبراً عنه بلفظ آخر غير الإشارة ، حتى تصير الإشارة إليه مع التعبير عنه بلفظ آخر مجرد التأكيد نحو : ماذا للتواني ؟ أو حيث لا يكون للإشارة موقع كقوله تعالى (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر) وقد يتوسعون فيها توسعاً أقوى فيجعلون ذا اسم موصول ، وذلك حين يكون المسئول عنه معروفاً للمخاطب بشئ من أحواله ، فلذلك يجرون عليه جملة أو نحوها هي صلة ويجعلون ذا موصولاً نحو (ماذا أنزل ربكم) ونحو (ماذا أراد الله بهذا مثلا) ، أى : ما الذى أراد الله بهذا المثل .

والإرادة فى أصل اللغة : نزوع النفس إلى الفعل ، وإذا أسندت إلى الله دلت على صفة له تتعلق بالممكنات ، فيترجح بها أحد وجهى المقدور ، وقد كان جائز الوقوع وعدم الوقوع .

وقوله « مثلا » واقع موقع التمييز لاسم الإشارة « هذا » كقولك لمن أجاب بجواب غير مقبول : ماذا أردت بهذا جواباً ؟

والاستفهام الذى حكاه القرآن على السنة هؤلاء الكافرين ، المقصود به الإنكار والتحقيق لهذه الأمثال ، ولأن يكون الله - تعالى - قد ضربه للناس . والمعنى : فأما المؤمنون الذين من عادتهم الإنصاف ، والنظر فى الأمور بنظر العقل واليقين ، فإنهم إذا سمعوا بمثل هذا التمثيل عدلوا أنه الحق الذى لا تمر الشبهة بإحتماله ، وأما الكافرون فإنهم لانطماس بصيرتهم ، وتغلب الاحقاد على قلوبهم فإنهم إذا سمعوا ذلك عاندوا وكابروا وقابلوه بالإنكار ثم ساق - سبحانه - جملتين بين فيهما الحكمة من ضرب الأمثال فقال : « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً » .

فقد دلت هاتان الجملتان على أن العلم بكون المثل حقاً ، مما يزداد به المؤمنون رشداً على رشدهم ، وأن إنكاره ضلال يزداد به الكافرون تحميلاً فى ظلمات جهاهم .

ووصف كلا من فريقى المؤمنين والمنكرين له بالكثرة مع أن المهديين وصفوا بالقلّة كثيراً كما فى قوله « وقليل من عبادى الشكور » ، وذلك لأزّ أهل الهدى كثيرون فى أنفسهم ، وإذا وصفوا بالقلّة فبالتقاييس إلى أهل الضلال وأيضاً فإن القليل من أهل الهدى كثير فى الحقيقة ، وإن قلوا فى الصورة : فوصفوا بالكثرة ذهاباً إلى هذه الحقيقة .

وقدم الإضلال على الهداية ، ليكون أول ما يقرع آسماع المبطلين عن الجواب أمراً فظيماً يسودهم ويفت فى أعضادهم .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - « وما يضل به إلا الفاسقين » .
 الفاسقون : جمع فاسق ، من الفسق ، وهو فى أصل اللغة : الخروج . يقال : فسقت الرطبة من قشرها . أى : خرجت منه ، وشرعاً : الخروج عن طاعة الله ، فيشمل الخروج من حدود الإيمان ، وهو الكفر ، ثم مادوز الكفر من الكبائر والصغائر ، ولكنه اختص فى العرف بارتكاب الكبيرة ، ولم يسمع الفسق فى كلام الجاهلية ، بمعنى الخروج عن الطاعة فهو بهذا المعنى من الألفاظ الإسلامية .

وقصر الإضلال بالمثل على الفاسقين ، لإيدان بأن الفسق هو الذى أعدمهم لأن يضلوا به ، حيث إن كفرهم قد صرف أظفارهم عن التدبير فيه حتى أنكروه وقالوا : ماذا أراد الله بهذا مثلاً .

ثم وصف الله - تعالى - هؤلاء الفاسقين بثلاث خصال ذميمة فقال :
 فى بيان الخصلة الأولى : « الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه » .

والنقض : فى اللغة حقيقة فى فسخ وحل ما ركب ووصل ، بفضّل يعاكس الفعل الذى كان به التركيب . وقد استعمل هنا مجازاً فى إبطال العهد بقرينة إضافته إلى عهد الله .

وعبر عن إبطال العهد بالنقض ، لأنه أبلغ فى الدلالة على الإبطال من القطع والصرم ونحوهما ، لأن فى النقض إفساداً لهيئة الخيل ، وزوال رجاها عودها وأما القطع فهو تجزئة .

والعهد : اسم للموثق الذي يلزم مراعاته وحفظه ، يقال : عهد إليه في كذا ، إذا أوصاه به ووثقه عليه .

وعهد الله : تارة يكون بما ركز في المعقول من الحجج على التوحيد ، وتارة يكون بما أوجبه الله على الناس على لسان رسله - صلوات الله عليهم - وتارة بما يلتزمه المؤمن . وليس بلازم له في أصل الشرع بما ليس بمحصية كالنذور وما يجري مجراها .

والميثاق : التوثقة ، وهي التقوية والتثبيت ، والمراد به : ما قوى الله به عهده .

وقوله « من بعد ميثاقه ، متعلق بـ«يقضون» ، ومن لا ابتداء الغاية ، وميثاقه الضمير فيه يجوز أن يعود على العهد ، وأن يعود على اسم الله - تعالى - فهو على الأول مصدر مضاف إلى المفعول ، وعلى الثاني مضاف للفاعل .

أما الصفة الثافية التي وصفهم الله بها فهي قوله : «ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل» ، وهو عام في كل قطيعة لا يرضاها الله ، كقطع الرحم ، والإعراض عن موالاته المؤمنين ، وترك الجماعات المفروضة ، وعدم وصل الأقوال الطيبة بالأعمال الصالحة ، وسائر ما فيه رفض خير أو تعاطى شر ، وأما الصفة الثالثة التي وصفهم بها فهي قوله - تعالى - : «ويفسدون في الأرض» .

والفساد في الأرض يقع بعبادة غير الله ، وبالاعتداء على حقوق الغير ، وبغير ذلك من الأمور التي حرمها الله - تعالى - .

وعبر بقوله «في الأرض» للإشعار بأن فساده لا يقتصر عليهم ، وإنما هو يتعداهم إلى غيرهم .

ثم بين - سبحانه - بعد أن وصفهم بتلك الصفات المرذولة عاقبة أمرهم فقال : «وأولئك هم الخاسرون» .

والتعجب من أحوالهم الغريبة ، لأنهم معهم ما يدعو إلى الإيمان ومع ذلك فهم منصرفون إلى الكفر .

وقوله هو كنتم أمواتاً فأحياكم ، جار مجرى التنبيه على أن كفرهم ناشى عن جهل وعدم تأمل في أدلة الإيمان القائمة أمام أعينهم .

والأموات : جمع ميت بمعنى المعدوم . والإحياء : بمعنى الخلق .

والمعنى : كيف تكفرون بالله وحوالكم أنكم كنتم معدومين فخلقكم ، وأخرجكم إلى الوجود كما قال - تعالى - :

هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً نذكوراً .

ويصح أن يفسر الأموات بمعنى فاقدى الحياة . والإحياء بنفخ الروح فيهم فيكون المعنى : وكنتم أمواتاً يوم استقراركم نطفاً في الأرحام إلى تمام الأطوار بعدها ، فنفخ فيكم الأرواح ؛ وأصبحت في طور إحساس وحركة وتفكير وبيان .

وبعد أن وبخهم على كفرهم بمن أخرجهم من الموت إلى الحياة ، أورد جملاً لاستيفاء الأطوار التي ينتقل فيها الإنسان من مبدأ الحياة إلى مقره الخالد في دار نعيم أو عذاب فقال : (ثم بعثناكم) بقبض أرواحكم عند انقضاء آجالكم (ثم يحييكم) بعثناكم بعد الموت (ثم إليه ترجعون) .

أى تصيرون إليه دون سواه ، فيجمعكم في المحشر ؛ ويتولى حسابكم ، والحسب في أمركم بمقتضى عدله فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

أما الإمامة فهم يشاهدونها بأعينهم بين الحين والحين ، وأما البحث فقد أخبر الله عنه بما يدل على صحته وينبئ استيعاده ، أو استحالاته ، بأدلة عقلية ونقلية كثيرة ، أما الأدلة العقلية ، فمنها : أن الذى قدر على إحيائهم من العدم ، قادر على إحيائهم ، فإن بدء الخلق ليس بأهون عليه من إعادته ، وأما الأدلة النقلية ، فمنها قوله - تعالى - :

(ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون) .
 وفي قوله - تعالى - د ثم إليه ترجعون ، ترهيب لمن ينزع إلى
 الشر ، ويرتكب المعاصي من غير مبالاة ، وترغيب لمن يقبل على فعل
 الخير ، ويقوم على الطاعات .

قال الجمل : د والفاء في قوله د فأحياكم ، على بابها من التعقيب ، وثم
 على بابها من التراخي ، لأن المراد بالموت الأول ، العدم السابق ، وبالحياة
 الأولى الخلق ، وبالموت الثاني الموت الممهود ، وبالحياة الثانية الحياة للبعث
 من قبضات الفناء وثم على بابيهما من التعقيب والتراخي ، على هذا التفسير وهو
 أحسن الأفعال ، ويعزى لابن عباس وابن مسعود ومجاهد ، والرجوع إلى
 الجزاء أيضاً متراخ عن البعث ، (١) .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما يشهد بقدرته ووحدانيته عن طريق الأدلة
 المتعلقة بذوات المكلفين ، أردف ذلك بالكلام عن الأدلة الكونية فقال تعالى :
 (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) .

أى : أنه خلق جميع ما في الأرض من نحو الحيوان والنبات والمعادن
 والجبال من أجلكم ، فهو المنعم عليكم لتنتفعوا بها في دنياكم ، وتستعينوا
 بها على طاعته .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية شاهداً على أن الأشياء التي فيها منافع
 - ما ذون فيها حتى يقوم دليل على حرمتها .

ثم استدل - سبحانه - على مظاهر قدرته بخلق السموات فقال :
 (ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم) .
 استوى إلى السماء : أقبل وعمد إليها بإرادته . وتسويتها معناه : تعديل
 خلقها وتقويمه . والسماء ليس المراد منها فرداً من أفراد السموات ، وإنما المراد
 منها الأجرام العلوية الشاملة لجميع السموات ، فصح أن يعود عليها ضمير

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ٣٥

(م ٨ - البقرة)

جمع الإناث في قوله (فسواهن) ، وكذلك علماء البيان يريدون أن اللفظ إذا أريد منه جنس ما وضع له صار في معنى الجمع .

فمعنى (ثم استوى إلى السماء) علا إليها وارتفع ، من غير تكيف ولا تحديد ولا تشبيه ، مع كمال التزهيه عن سمات المحدثات ، وقد سئل الإمام مالك عن الاستواء على العرش فقال : الاستواء غير مجهول ، والتكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعه .

وقدم الأرض هنا لأنها أدل لشدة الملازمة والمباشرة .

وجملة (ثم استوى) معطوفة على جملة (خالق الحكيم) ، وكان العطف بضم لعظم خلق السماء عن خلق الأرض .

وعبر بسواهن الإشعار بأنه - سبحانه - خلقهن في استقامة ، واستقامة الخلق هي انتظامه على وجه لا خلل فيه ولا اضطراب . قال - تعالى - :
(ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت) .

وجملة ه وهو بكل شيء عليم ، مقرر لما ذكر قبلها من خالق السموات والأرض وما فيهما على هذه الصورة الحكيمة ، فقد دلت على أن ترتيب أجزاء تلك المصنوعات وموافقة جميعها للمنافع المقصودة منها ، إنما حدث عن عالم بحقائق تلك الأجزاء وخواصها ، وإلاحظته بكل شيء . علماً وضع كل جزء في موضعه اللائق به .

وبعد أن بين سبحانه للناس أنه قد من عليهم بنعمة خلقه لهم ما في الأرض جميعاً ، بدأ بعد ذلك يذكرهم بنعمة أخرى هي نعمة خلقه لأبيهم آدم ، وخلق آدم مبدأ لخلق ذريته ، وتكريمه موصول بتكريمهم فقال تعالى :

وَإِذْ قَالَ

بَكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا
 مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ
 لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ
 رَضَاهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ
 نَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ
 عَلِيمٌ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ
 أَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ
 بِمَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

في هذه الآيات الكريمة عطف - سبحانه - قصة خلق آدم أبي البشر
 على قصة خلق الأنفس وخلق السموات والأرض انتقالاً في الاستدلال على
 أن الله واحد ، وجمعاً بين تعدد الأدلة وبين مختلف الحوادث وأصلها ،
 حتى يكون التدليل أجمع ، والإيمان بالله أقوى وأثبت .
 وإذ وإذا ظرفان للزمان ، الأول للماضي والثاني للمستقبل ، فإن جاء - إذ
 مع المضارع أفاد الماضي كقوله :

(وإذ تقول للذي أنعم الله عليه . . .) وإن جاء إذا مع الماضي أفاد
 الاستقبال كقوله (إذا جاء نصر الله والفتح) .
 وإذ هنا واقعة موقع المفعول به لعامل مقدر دل عليه المقام .

والمعنى : واذكر يا محمد وقت أن قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .

وقد جاء هذا المقدر هنا مصرحاً به في آيات أخرى كما قال تعالى :

(واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) .

والملائكة جمع ملك . والتاء لتأنيث الجمع ، وأصله ملك ، من ملك ، نحو شئال من شمل ، والهمزة زائدة وهو مقلوب مالك ، وقيل : إن ملاك من لأك إذا أرسل ، ومنه الألوكه ، أى : الرسالة .

والملائكة . هم جند من خلق الله ، ركز الله فيهم العقل والنفوس ، وفطرهم على الطاعة ، وأقدرهم على التشكل بأشكال مختلفة ، وعلى الأعمال العظيمة الشاقة ، ووصفهم في القرآن بأوصاف كثيرة منها أنهم « يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وأنهم ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ومنها : أنهم رسل الله أرسلهم بأمره « ومنهم رسل الوحي إلى من اصطفاهم من خلقه للنبوة والرسالة . قال تعالى :

(جاعل الملائكة رسلاً) وقال تعالى : (الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس) وقال - تعالى - : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) .

و (الخليفة) من يخلف غيره وينوب منابه ، فهو فاعيل بمعنى فاعل ، والتاء فيه للمبالغة ، والمراد به آدم - عليه السلام - لأنه كان خليفة الله في الأرض ، وكذلك سائر الأنبياء استخلفهم الله - تعالى - إني عمارة الأرض ، وسياسة الناس ، وتكميل نفوسهم ، وإجراء أحكامه عليهم ، وتنفيذ أوامره فيهم . وقيل : آدم وذريته ، لأنه يخلف بعضهم بعضاً في عمارة الأرض ، واستغنى بذلك عن ذكر ذريته لكونه الأصل .

وخطاب الله للملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة ، ليس المقصود منه المشورة ، وإنما خاطبهم بذلك من أجل ما ترتب عليه من سؤالهم عن وجه الحكمة من هذه الخليفة ، وما أجيئوا به من بعد ، أو من أجل تعليم

العباد المشاورة في أمورهم قبل أن يقدموا عليها وعرضها على نقاتهم ونصحاتهم وإن كان هو - سبحانه - بعلمه وحكمته البالغة غنياً عن المشاورة . أو الحكمة تعظيم شأن المجهول ، وإظهار فضله ، بأن بشر وجود سكان ملكوته ، ونوع بعضهم شأن المجهول ،

بذكره في الملاء الأعلى لإيجاده ، ولقبه بالخليفة .

ثم حكى - سبحانه - إجابة الملائكة فقال :

(قالوا أجمعل فيهما من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)

الفساد : الخروج عن الاعتدال والاستقامة ويضاده الصلاح . يقال فسد الشيء فساداً وفسوداً وأفسده غيره .

والسفك : الصب والإهراق ، يقال : سفكت الدم والدمع سفكاً - من

باب ضرب - صببته . والفاعل سافك وسفاك ، والمراد به حصول التقاتل بين أفراد بنى الإنسان ظليماً وعدواناً .

والتسبيح : مشتق من السبح وهو المر السريع في الماء أو في الهواء ،

فالتسبيح مسرع في تنزيهه الله وتبرئته من السوء .

والتقديس : التنظيم والتنظيم ووصفه بما يليق به من صفات الكمال .

فيكون التسبيح في ما لا يليق ، والتقديس لإثبات ما يليق ، وقدم التسبيح

على التقديس من باب تقديم التحلية على التحلية .

والمعنى : أنجعل في الأرض بالإنها من يفسد فيها ويريق الدماء والحلال

أنا نحن نزهك عما لا يليق بعظمتك ، تنزيهاً متلبساً بحمدك والثناء عليك ،

ونظهر ذكرك عما لا يليق بك تعظيماً لك وتمجيداً .

وقولهم : « أجمعل فيهما من يفسد فيها من الخ ، إنما صدر منهم على وجه

استطلاع الحكمة في خلق نوع من الكائنات يهدر منه الإفساد في الأرض

وسفك الدماء . وقطعهم بحكمة الله في كل ما يفعل لا يتأق تعجبهم من بعض

أفعاله ، لأن التعجب يهدر عن خفاء سبب الفعل ، فمن تعجب من فعل

شئ . وأحب الإطلاع على الحكمة الباعثة على فعله لا يعد مكرراً .

والملائكة لا يعلمون الغيب ، فلا بد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد في الأرض وسفك الدماء بوجه من الوجوه التي يطلع الله بها على غيبه بعض المصطفين الأخيار من خلقه .

قال الإمام ابن كثير في توضيح هذا المعنى : قوله - تعالى - : « أنجعل فيهما من يفسد فيها ويسفك الدماء وأرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص ، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية ، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون ، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم . ويردعهم عن المحارم والمآثم . . . وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهمه البعض . . وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك ، يقولون ياربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ، ويسفك الدماء ، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، ولا يصدر منا شيء من ذلك فهلا وقع الاقتصاص علينا ؟ (١) .

وقد رد الله - تعالى - على الملائكة بقوله : (قال إني أعلم ما لاتعلمون) .
أى : إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المماسد التي ذكرتموها ما لاتعلمون أنتم ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء ، وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والمحبون له - تعالى - المتبعون رسله .
فالجنة الكريمة لإرشاد لهم إلى الأمر الذي من شأنه أن يقف بهم عند حدود الأدب اللائق بمقام الخالق - عز وجل - وتفتية إلى أنه - تعالى - عالم بما لا يحيط به علم أحد من خلقه ، فله أن يفعل ما يشاء ويأمر بما يشاء ، وليس من أدب المؤمنين بأنه العلم الحكيم أن يسألوه حين يأمرهم بشيء ، أو يعلمهم بأنه سيفعل شيئاً ، عن حكمة ما أمر به أو ما سيفعله ، بل شأنهم

أن يتجهوا إلى استطلاع حكمة الأفعال والأوامر من أنفسهم ، فإذا أدركوها فقد ظفروا بأمنيتهم ، وإن وقفت عقولهم دونها ، ففي تسليمهم لقدر الله ، وامثالهم لأوامره الكفاية في القيام بحق التكليف والفوز برضا الله ، الذي هو الغاية من الإيمان به والإقبال على طاعته .

قال بعض العلماء : « وفي هذه الآية الكريمة تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم - عن تكذيب بعض الناس له ، لأنه إذا كان الملا الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون ، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين - وبالأندباء أن يعاملوهم كما عامل الله للملائكة المقربين ، أي : فعليك يا محمد أن تصبر على هؤلاء المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتى أهل الدعوة بسultan مبين (١) .

ثم أخذ - سبحانه - في بيان جانب من حكمة خلق آدم ، وجعله خليفة في الأرض ، بعد أن أجاب الملائكة على سؤالهم بالجواب المناسب الحكيم فقال - تعالى - :

(وهلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) .

علم من التعليم وهو التعريف بالشئ . وآدم : اسم لآبي البشر ، قيل إنّه عبراني مشتق من أدمه ، وهي لغة عبرانية معناها التراب ، كما أن حواء ، كلمة عبرانية معناها دحي ، وسميت بذلك لأنها تكون أم الأحياء .

و الأسماء ، جمع اسم ، والاسم ما يكون علامة على الشئ ، وتأكيد الأسماء باللفظ كلها ، ظاهر في أنه علمه لإسماء كل ما خلق من المحدثات من إنسان وحيوان ودابة ، وطير ، وغير ذلك . ويصح حمل الأسماء على خواص الأشياء ومنافعها ، فإن الخواص والمنافع علامات على ما تتعلق به من الحقائق . وقوله « ثم عرضهم على الملائكة » عرض الشئ - لإظهاره وإبانتة والضمير في (عرضهم) يعود على المسميات ، وهي مفهومة من قوله « الأسماء كلها »

إذ الأسماء لا بد لها من مسميات ، فإذا أجرى حديث عن الأسماء حضر في ذهن السامع ما هو لازم لها ، أعنى المسميات .

ودل على المسميات بضمير جمع الذكور العقلاء فقال : « عرضهم ، ولم يقل عرضها ، لأن في جملة هذه المسميات أنواعاً من العقلاء : كالملائكة ، والإنس ، ومن الأساليب المعروفة بين فصحاء العرب تغليب الكامل على الناقص ، فإذا اشتركا في نحو الجمع أو التثنية أتى بالجمع أو التثنية على ما يطلق حال الكامل منهما .

والأمر في قوله : « أنبتوني بأسماء هؤلاء » ، ليس من قبيل الأوامر التي يقصد بها التكليف ، أى : طلب الإتيان بالمأمور به ، وإنما هو وارد على جهة إقحام المخاطب بالحجة .

والمعنى : أن الله - تعالى - ألهم آدم معرفة ذوات الأشياء التي خلقها في الجنة ، ومعرفة أسمائها ومنافعها ، ثم عرض هذا المسميات على الملائكة فقال لهم على سبيل التعجيز « أنبتوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » ، فيما اختلج في خواطركم من أتى لا أخلق خلقاً إلا وأنا أعلم منه وأفضل . قال ابن جرير : « وفي هذه الآيات العبرة لمن اعتبر والذكرى لمن اذكر ، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، عما أودع الله في هذا القرآن من لطائف الحكم التي تعجز عن أوصافها الألسن ، وذلك أن الله - تعالى - احتج فيها لنبيه - صلى الله عليه وسلم - على من كان بين ظهرانيه من يهود بنى إسرائيل ، بإطلاعه إياه من علوم الغيب التي لم يكن - تعالى - أطلع عليها خلقه إلا خاصاً ، ولم يكن مدركا علمه إلا بالأنباء والأخبار ليقرر عندهم صدق نبوته ، ويعلموا أن ما أتاهم به إنما هو من عند الله . » ثم حكى - سبحانه - ما كان من الملائكة فقال :

(قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) .

سبحان : اسم مصدر بمعنى التسبيح ؛ أى التنزيه ، وهو منصوب بفعل

حاضر لا يكاد يستعمل معه .

وهذه الآية الكريمة واقعة موقع الجواب عن سؤال يخطر في ذهن السامع للجملة السابقة ، إذ الشأن أن يقال عند سماعهم قوله - تعالى - : « أنبئوني بأسماء هؤلاء ، ، ماذا كان من الملائكة ؟ هل أنبأوا بأسماء المسميات المعروضة عليهم ؟ فقال - تعالى - : « قالوا سبحانك لا علم لنا ، الخ الآية . ولو قال الملائكة : لا علم لنا بأسماء هذه المسميات لسكان جوارهم على قدر السؤال ، ولكنهم قصدوا الاعتراف بالعجز عن معرفة أسماء تلك المسميات المعروضة على أبلغ ، وجه فنفوا عن أنفسهم أن يعلموا شيئاً غير ما يعلمهم الله ، ودخل في ضمن هذا النفي العام الاعتراف بالقصور عن معرفة الأسماء المستور عنها .

ومعنى « إنك أنت العليم الحكيم ، أرى : أنت يا ربنا العليم بكل شيء ، الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء ، لك الحكمة في ذلك ، والعدل للتمام .

وقدم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة ، ليكون وصفه بالعلم متصلاً بنفيهم عن أنفسهم في قولهم : « لا علم لنا إلا ما علمتنا » .

وبعد أن بين القرآن أن الملائكة قد اعترفوا بالعجز عن معرفة ما سئلوا عنه ، وجه - سبحانه - الخطاب إلى آدم ، يأمره فيه بأن يخبر الملائكة بالأسماء التي سئلوا عنها ، ولم يكونوا على علم بها ، فقال - تعالى - :

(قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) .
ففي هذه الآية الكريمة أخبرنا الله - تعالى - أنه قد أذن لآدم في أن يخبر الملائكة بالأسماء التي فاتهم معرفتها ليظهر لهم فضل آدم ، ويزدادوا طمأنناً إلى أن إسناد الخلافة إليه ، إنما هو تدبير قائم على حكمة بالغة .

وعلم الغيب يختص به واجب الوجود - سبحانه - لأنه هو الذي يعلم المغيبات بذاته ، وأما العلم بشيء من المغيبات الحاصل من تعليم الله فلا يقال لصاحبه إنه يعلم الغيب .

وقوله - تعالى - « ألم أقل لكم إني أعلم ... الخ الآية ، استحضار
 وتأكيد لمعنى قوله قبل ذلك ، « إني أعلم ما لا تعلمون » ، وإعادة له على
 وجه من التفصيل أفاد أن علمه يشمل ما يظهِرونه بأقوالهم أو أفعالهم ، وما
 يضمرونه في أنفسهم .

وفي قوله « ألم أقل لكم ... الخ » ، تعريض بما أتيتهم على ترك الأولى ،
 حيث بادروا بالسؤال عن الحكمة ، وكان الأولى أن يأخذوا بالأدب
 المناسب لمقام الألوهية ، فيتركوا السؤال عنها إلى أن يستبين لهم أمرها بوجه
 من وجوه العلم .

ومن الفوائد التي تؤخذ من هذه الآيات ، أن الله - تعالى - قد أظهر
 فيها فضل آدم - عليه السلام - من جهة أن علمه مستمد من تعليم الله له ،
 فإن إمداد الله له بالعلم يدل على أنه محاط منه برعاية ضافية ، ثم إن العلم
 الذي يحصل عن طريق النظر والفسكر قد يعتريه الخلل ، ويحوم حواه
 الخطأ ، فيقع صاحبه في الإفساد من حيث إفنه يريد الإصلاح ، بخلاف
 العلم الذي يتلقاه الإنسان من تعليم الله ، فإنه علم مطابق للواقع قطعاً ، ولا
 يخشى من صاحبه أن يجحد عن سبيل الإصلاح ، وصاحب هذا العلم هو
 الذي يصلح للخلافة في الأرض ، ومن هنا ، كانت السياسة الشرعية أرشد
 من كل سياسة ، والأحكام النازلة من السماء أعدل من القوانين الناشئة
 في الأرض .

وبعد أن بين القرآن في الآيات السابقة بعض الكرامات التي خص الله بها
 آدم ، انتقل إلى بيان كرامة أخرى أكرم الله بها آدم - عليه السلام - وهي أمره
 للملائكة بالسجود له ، ثم بيان ما حصل بينه وبين إبليس ، فقال - تعالى - :

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾
وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَازْهَمَا
الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ
عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ
رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا
مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

وقوله - تعالى - : ، وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .. الخ. معطوف
على قوله - تعالى قبل ذلك - ، وإذا قال ربك للملائكة .. الخ ، من باب
عطف القصة على القصة . وإعادة (إذ) بعد حرف العطف المعنى عن إعادة
ظرفه ، تنبيه على أن الجملة مقصودة بذاتها ، لأنها متميزة بهذه القصة العجيبا
فجاءت على أسلوب يؤذن بالاستقلال والاهتمام .

والسجود : لغة التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره . وخصر
في الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

والعلماء في كيفية السجود الذي أمر الله به الملائكة لآدم أقوال :
 أرجحها أن السجود المأمور به في الآية يحمل على المعنى المعروف في اللغة ،
 أى : أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم يكون مظهراً من مظاهر التواضع
 والخضوع له تحية وتعظيماً ، وإقراراً له بالفضل دون وضع الجبهة أعلى
 الأرض الذي هو عبادة ، إذ عبادة غير الله شرك يتنزه الملائكة عنه .
 وعلى هذا رأى سار علماء أهل السنة . وقيل : إن السجود كان لله ،
 وآدم إنما كان كالقابلة يتوجه إليه الساجدون تحية له ، وإلى هذا رأى أتباع
 علماء المعتزلة ، وقد قالوا ذلك زهراً من أن تكون الآية للكرامة حجة
 عليهم ، فإن أهل السنة قالوا : إبليس من الملائكة ، والصالحون من البشر
 أفضل من الملائكة ، واحتجوا بسجود الملائكة لآدم ، وخالفت المعتزلة في
 ذلك ، وقالت : الملائكة أفضل من البشر ، وسجود الملائكة لآدم كان
 كالقابلة .

والذى نراه أن ما سار عليه أهل السنة أرجح ، لأن ما ذهب إليه المعتزلة
 يبعده أن المقام مقام لإظهار فضل آدم على الملائكة ، وإظهار فضله عليهم
 لا يتحقق بمجرد كونه قبلة للسجود .

وأمر الملائكة بالسجود لآدم هو لون من الابتلاء والاختبار ، ليميز
 الله الخبيث من الطيب ، وينفذ ما سبق به العلم ، واقتضته المشيئة ، والحكمة :
 ثم بين - سبحانه - ما حدث من الملائكة ومن إبليس فقال :

(فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) .

إبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشئ من شدة اليأس ،
 وفعله إبلس ، والراجح أنه اسم أعجمي ، ومنه من الصرف للعلمية والعجمة
 وهو كائن حى ، وقد أخطأ من حمله على معنى داعى الشر الذى يخطر فى
 النفوس ، إذ ليس من المعقول أن يكون كذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى
 الناس ولا يروونه . قال - تعالى - (إنه يراكم هو وقييله من حيث لا ترونهم) .
 وقوله (أبى واستكبر) الإباء : الامتناع عن الفعل أنفة مع التمكن

عنه . والاستكبار : التكبر والتعظيم والغرور ، بمعنى أن يرى الشخص في نفسه علواً على غيره ، وهو خلق مذموم .

وكان في قوله (وكان من الكافرين) بمعنى صار .

وجاء العطف في قوله وفسجدوا ... بالفاء المفيدة للتعقيب ، للإشارة إلى أن الملائكة قد بادروا بالامتثال بدون تردد ، ولم يصددهم ما كان في نفوسهم من التخوف من أن يكون هذا المخلوق ، مظهر فساد وسفك دماء لأنهم مبزوهون عن المعاصي .

والعلماء في كون إبليس من الملائكة أم لا قولان : أحدهما : أنه كان منهم لأنه - سبحانه - أمرهم بالسجود لآدم ، ولو لا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود ، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصياً ، وما استحق الحزى والنكال .

ولأن الأصل في المستثنى أن يكون داخل تحت اسم المستثنى منه حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه . وقد اختار هذا الرأي ابن عباس وابن مسعود وجمهور المفسرين .

وقيل إنه ليس منهم لقوله - تعالى - « إلا إبليس كان من الجن ، فسوّ عن أمره » ، فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة . وقد اختار هذا القول الحسن وقتادة وغيرهما .

وقد حاول ابن القيم أن يجمع بين الرأيين فقال : والصواب التفصيل في هذه المسألة ، وأن القولين في الحقيقة قول واحد ، فإن إبليس كان من الملائكة بصورته وليس منهم بمادته وأصله . كان من نار وأصل الملائكة من نور ، فالتناقض من الملائكة . والمثبت لم يتواردا على محل واحد (١) ولما كان استثناء إبليس من الساجدين لا يدل على أنه ترك السجود عاصياً ، إذ قد يكون تركه لعذر ، دل بقوله (أبى واستكبر) على أنه امتنع من السجود

أنفة ، وتماظماً ، وأردف هذا التعاضم والغرور بأعراضه على الله - تعالى -
 في تفضيل آدم ، فصار بذلك في فريق الكافرين ، ولذا ختمت الآية بقوله
 - تعالى - : « وكان من الكافرين » ، أى : صار بسبب عصيانه واستكباره من
 الكافرين بالله ، الجاحدين لنعمه ، البعيدين عن رحمته ورضوانه .

وقوله - تعالى - (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) معطوف
 قوله (وإذ قلنا للملائكة . . . الخ) أى : بعد أن أمرنا الملائكة بالسجود
 لآدم (قلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فهذه تكريمة أكرمها الله بها
 بعد أن أكرمها بكرامة الإجلال من تلقاء الملائكة .

وقوله (اسكن) أمر من السكنى بمعنى اتخاذ المسكن على وجه الاستقرار
 والزواج : يطلق على الرجل والمرأة والمراد به هنا حواء ، حيث تقول
 العرب للمرأة زوج ، ولا تكاد تقول زوجة .

والجنة : هى كل بستان ذى شجر متكاتف ، ملتف الأغصان ، يظل
 مأتمته ويستقره ، من الجن ، وهو ستر الشىء عن الحاسة .

وجمهور أهل السنة على أن المراد بها هنا دار الثواب : لئلا أعداها الله
 للمؤمنين يوم القيامة ، لأن هذا هو المتبادر إلى الذهن عند الإطلاق .
 ويرى جمهور علماء المعتزلة أن المراد بها هنا بستان بمكان مرتفع من
 الأرض ، خلقه الله لإسكان آدم وزوجه ، واختلفوا فى مكانه ، فقبل
 بفلسطين . وقيل بغيرها .

وقد ساق الإمام ابن القيم فى كتابه (حادى الأرواح) أدلة للفريقين
 دون أن يرجح شيئاً منهما . والأحوط والأسلم : السكف عن تعيينها وعن
 القطع به ، وإليه ذهب أبو حنيفة وأبو منصور الماتريدى فى التاويلات ، إذ
 ليس لهذه المسألة تأثير فى العقيدة .

والمخاطب بالأمر بسكنى الجنة آدم وحواء ، ولكن الأسلوب جاء فى
 صيغة الخطاب لآدم وعطفت عليه زوجته ، لأنه هو المقصود بالأمر وزوجه
 تبع له .

ثم بين - سبحانه - أنه قد أباح لهما أن يأكلا من ثمار الجنة أكلا
واسعا فقال :

(وكلا منها رغدا حيث شئتما) أى كلا من مطاعم الجنة وثمارها ،
أكلا هنيئاً أو واسعاً فى أى مكان من الجنة أردتم .
يقال : رغد عيش القوم أى : اتسع وطاب ، وأرغد القوم ، أى :
أخصبوا وصاروا فى رزق واسع .

والضمير فى قوله « منها » ، يعود إلى الجنة ، والمراد بالأكل منها : الأكل
من مطاعمها وثمارها ، لأن الجنة تستلزم ثماراً هى المقصودة بالأكل .
ثم بين - سبحانه - أنه نهاهم عن الأكل من شجرة معينة فقال :
(ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) .

القرب : الدنو ، والمنهى عنه هو الأكل من ثمار الشجرة ، وتعلق النهى
بالقرب منها إذ قال « ولا تقربا » المقصد منه المبالغة فى النهى عن الأكل ،
إذ فى النهى عن القرب من الشئ قطع لوسيلة التلبس به ، كما قال تعالى :
« ولا تقربوا الزنا ، فهى عن القرب من الزنا ليقطع الوسيلة إلى ارتكابه
وهى القرب منه . وأكد النهى بأن جعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة
ظلماً فقال : « فتكونا من الظالمين » ، وقد ظالما أنفسهما إذ أكلتا منها ، فقد
ترتب على أكلها منها أن أخرجا من الجنة التى كانا يعيشان فيها هيشة راضية .
وقد تكلم العلماء كثيراً عن اسم هذه الشجرة ونوعها فقيل هى التينة ،
وقيل : هى السنبلة ، وقيل هى الكرم . الخ . إلا أن القرآن لم يذكر نوعها
على عادته فى عدم التعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سوق القصة إلى بيانها .
وقد أحسن الإمام ابن جرير فى التعبير عن هذا المعنى فقال : « والصواب
فى ذلك أن يقال : إن الله - تعالى - نهى آدم وزوجه عن الأكل من شجرة
يعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى
شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك فى القرآن
ولا من السنة الصحيحة ، وقد قيل : كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة

العنب . وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به (١) .

ثم بين القرآن بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال : (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما عما كانا فيه) أى : أذهبهما وأبعدهما عن الجنة بكذبه عليهما . ومقاسمته أنه لهما من الناصحين .

وأزل من الإزال وهو الإزلاق : زل يزل زلا وزلا ، أى : زلق فى طين أو منطق . والاسم الزلة . وأزله غيره واستزله : أى أزلقه . أطلق وأريد به لازمه وهو الإذهب .

وقرىء : فأزلهما ، أى : نحاها من الإزالة ، تقول أزلت الشيء عن مكانه إزالة . أى : نحيتة وأذهيتة عنه .

ثم استعمل هذا اللفظ فى ارتكاب الخطيئة كما استعمل فى خطأ الرأى مجازاً . والضمير فى قوله «أزلهما» ، يعود إلى الشجرة ، ومعنى أزلهما عن الشجرة أوقعهما فى الزلة بسببها .

والتعبير بقوله «فأخرجهما عما كانا فيه» ، أبلغ فى الدلالة على فخامة الخيرات التى كانا يتقبلان فيها مما لو قيل : فأخرجهما من النعيم أو من الجنة لأن من أساليب البلاغة فى الدلالة على عظم الشيء أن يعبر عنه بلفظ مبهم كما هنا . لى تذهب نفس السامع فى تصور عظمته وكاله إلى أقصى ما يمكنها أن تذهب إليه .

ونسبته لإخراجهما من الجنة إلى الشيطان فى قوله «فأخرجهما من قبيل نسبة الفعل إلى ما كان سبباً فيه» ، وذلك أن أكلهما من الشجرة الذى ترتب عليه إخراجهما من الجنة إنما وقع بسبب وسوسة الشيطان لهما .

وقوله - تعالى - «وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو الخطاب فيه لآدم وحواء» ، وإبليس ، وقيل الخطاب لآدم وحواء ونسلها .

والهبوط : النزول من أعلى إلى أسفل ضد الصعود . يقال : هبط يهبط

• حويهنط أى : نزل من علو إلى سفلى .

والعداوة معناها التناكر والتنافر بالقلوب .

أى : قلنا لأدم وحواء والشيطان انزلوا إلى الأرض متفارين متباغضين ،
يعنى بعضكم على بعض .

وعداوة الشيطان لأدم نشأت عن حسد وتكبر منذ أن أمر بالسجود له
خافى وامتنع وقال : أنا خير منه .

وعداوة آدم وذريته للشيطان من جهة أنه يكيد لهم بالسوسة والإغراء
وفى هذه الجملة الكريمة إرشاد لأدم وذريته ، ونهى لهم عن اتباع خطوات
الشيطان ، لأنه عدو لهم ، ومن شأن العدو أنه يسعى لمضرة عدوه .

قال - تعالى :- : إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه
الذين كانوا من أصحاب السعير .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى :- : د ولكم فى الأرض مستقر ومتاع
إلى حين ، .

المستقر : موضع الاستقرار والثبات ، وهو مقابل القلق والاضطراب ،
والمتاع : اسم لما يستمتع به من مأكلى ومشرب وملبس وحياة وأنس وغير
ذلك ، مأخوذ من متع النهار متوعاً إذا ارتفع ، ويطلق على الانتفاع
الممتد الوقت .

والحين : الجزء من الزمان غير محدد بحد ، والمراد به هنا وقت الموت
أو يوم القيامة .

والمعنى : انزلوا إلى الأرض بعضكم لبعض عدو ؛ ولكم فيها منزل
موضع استقرار . وتمتع بالعيش إلى أن يأتيكم الموت .

ومن كان على ذكر دائم من أن استقراره فى الأرض وتمتعه بتعيمها
سيتتهى فى وقت ، لا يدرى متى يدركه ، فشأنه أن يتنفع بخيرتها ويتمتع
بجلب العيش فيها ، وهو مقبل على العمل لمراضاة الله ما استطاع ، وشاكر

لأنهمه بالقلب واللسان ، لا يشغله عن الشكر شاغل من ملذات هذه الحياة ومظاهر زينتها .

ثم حكى القرآن أن آدم قد بادر بطلب العفو والمغفرة من ربه فقال :
« فلتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم » .

التلقى في الأصل : التعرض للقاء ، ثم استعمل بمعنى أخذ الشيء . وقوله ،
تقول : تلقيت رسالة من فلان . أى : أخذتها منه وقبلتها .

والكلمات : جمع كلمة ، وهى اللفظة الموضوعية لمعنى ، وأرجح ما قيل
في تعيين هذه الكلمات ، ما أشار إليه القرآن في سورة الأعراف بقوله :
« قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

والتوبة في أصل اللغة معناها : الرجوع ، وإذا عدت بمن كان معناها
الرجوع عن المعصية إلى الطاعة ، وإذا عدت بعلى - كما في هذه الآية -
كان معناها قبول التوبة ، فالعبد يتوب عن المعصية ، والله يتوب على العبد
أى : يقبل توبته .

وجملة « إنه هو التواب الرحيم » ، وإرادة مورد التعليل لقوله : « فتاب
عليه » .

والتواب وصف له - تعالى - من تاب ، أى : قبل التوبة ، وجاء التعبير
بصيغة فعال ، للإشعار بأنه كثير القبول للتوبة من عباده ، وإيدل على أنه
يقبل توبة العبد وإن وقعت بعد ذنب يرتكبه ويتوب منه ثم يعود إليه
بعد التوبة ثم يتوب بعد العودة إليه توبة صادقة نصوحاً .

وبعد أن أخبر القرآن في الآيات السابقة أن الله - تعالى - قد أمر آدم
وحوا وإبليس بالهبوط من الجنة ، نراه بعد ذلك قد أعاد خبر الأمر
بالهبوط فقال :

« قلنا اميطوا منها جميعاً ، فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى
فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وليست هذه الإعادة من قبيل التكرار الذي يقصد منه مجرد التوكيد ، بل قصر الأمر بالهبوط أولاً ليعلق عليه معنى هو كون بعضهم لبعض عدواً . ثم قومه ثانية ليعلق عليه معنى آخر هو ما ترتب على الهبوط من تفصيل لحال المخاطبين ، وانقسامهم إلى مهتدين وضالين .
والفاء في قوله « فإما » لإفادة ترتيب انقسام المخاطبين إلى مهتدين وكافرين على الهبوط المفهوم من قوله « اهبطوا » .
و « إما » هي إن الشرطية دخلت عليها « ما » لإفادة التوكيد ، ويطلب على فعل شرطها أن يكون مؤكداً بالنون وأوجب بعضهم ذلك .
والهدى من الله معناه الدلالة على ما هو حق وخير بلسان رسول ، أو بآيات كتاب .

وقد صرح - سبحانه - بأن الهدى صادر منه بقوله : « منى هدى » ثم أضافه إلى نفسه بقوله « هداني » للإيدان بتعظيم أمر الهدى ؛ وأنه أحق بأن يتبع ، ويتخذ سبيلاً لظماً نينة النفس في الدنيا ، والفوز بالسعادة في الآخرة .
والخوف : الفرع وهو تألم النفس من مكروه يتوقع حصوله .

والحزن : الغم للحاصل لوقوع مكروه أو فقد محبوب .
ومعنى « لا خوف عليهم » أن نفوسهم آمنة مطمئنة بحيث لا يعترهم فرح ، ولا يفتأها ذعر ، كما أن قواه « ولا هم يحزنون » ينفي عنهم الاغتمام لقوات مطلوب أو فقد محبوب .

ونفي الخوف والحزن ورد في الآية على وجه الإطلاق ، وظاهره أن المهتدين لا يعترهم الخوف ولا الحزن في دنياهم ولا في آخرتهم ، ولكن قوله فيما يقابله من جزاء الكافرين « أو تلك أصحاب النار هم فيها خالدون » ، يرجح أن يكون المراد نفي الخوف والحزن في الدار الآخرة .

ونفي الخوف والحزن عن المهتدين يوم القيامة كناية عن سلامتهم من العذاب وفوزهم بالنعيم الخالد في الجنة ، فتمت المقابلة بين جزاء المهتدين وجزاء الكافرين المشار إليه بقوله - تعالى - :

«والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون». إذ هذه الآية الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - «فن تبع هداى» الخ ، واردة مرره المقابل له فى تفصيل أحوال من يأتهم الهدى من الله . ولم يقل : «والذين لم يتبعوا هداى أولئك أصحاب النار» . وإنما قال : «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك» الخ ، وذلك لأن من لم يتبع هدى الله يشمل من لم تبلغه الدعوة ، وغير المكلفين مثل الصبيان وفاقدى العقل ، وهؤلاء ليسوا من أصحاب النار . فظهر أن قوله «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا» . جىء به على قدر من يستحقون الحكم عليهم بأنهم من أصحاب النار والمجازاة بالغذاب الخالد الأليم .

والآيات : جمع آية ، وهى فى الأصل العلامة ، وتستعمل فى الطائفة من الكتاب المنزل ، وفيها يستدل به على وجود الله وتوحيده ، من نحو بدائع مصنوعاته ومظاهر عنايته بالإنسان .

وأضاف - سبحانه - الآيات إلى نفسه فقال «بآياتنا» ليكون قبج التكذيب بها أظهر ، وأتى بنون العظمة فقال (بآياتنا) دون أن يقول «بآياتى» لبعث المهابة فى نفوس السامعين ، وذلك أذعى إلى تلقى الوعيد باهتمام وخشية .

وأصحاب : جمع صاحب مأخوذ من الصحبة ، وهى الاقتران والملازمة ، ودل بقوله (هم فيها خالدون) على أن صحبتهم للنار دائمة ، وليست من الصحبة التى تستمر مدة ثم تنقطع .

هذا جانب من قصة آدم كما حكاها القرآن فى هذه السورة ، ومن الحكيم التى تؤخذ منها : أن سياسة الأمم على الطريقة المثلث إنما تقوم على أساس راسخ من العلم ، وأن فضل العلم النافع فوق فضل العبادة ، وأن روح الشر الخبيثة إذا طغت على نفس من النفوس . جعلتها لا ترى البراهين الساطعة ، ولا يوجهها إلى الخير وعد ، ولا يردعها عن الشر وعيد .

كما يستفاد منها كيف أن الرئيس يفسح المجال لمروسيه المخلصين ،

بجادلونه في أمر يريد قضاءه ، ولا يزيد عن أن يبين لهم وجهة نظره في رفق ،
وإذا تجاوزوا حدود الأدب اللائق به راعى في عتابهم ما عرفه فيهم من
سلامة القلب ، وتلقى أوامره بحسن الطاعة .

كما يؤخذ منها أن المتقلب في نعمة يجب أن يحافظ عليها بشكر الله ،
ولا يعمل عملاً فيه مخالفة لأوامر الله ؛ لأن مخالفة أوامر الله ، كثيراً ما
تؤدي إلى زوال تلك النعمة ، ومن أراد أن تزداد النعم بين يديه ، فعليه أن
يلتزم طاعة الله وشكره .

وقال بعض العلماء : « وقد يتبادر إلى الذهن أن آدم قد ارتكب ما نهى
عنه ، ارتكاب من يعتمد المخالفة ، فيكون أكله من الشجرة معصية ، مع أنه
من الأنبياء المرسلين ، والرسول معصومون من مخالفة أوامر الله .
والجواب عن ذلك أن آدم تعمد الأكل من الشجرة ، ناسياً النهى عن
الأكل منها ، وفعل المنهى عنه على وجه النسيان لا يعد من قبيل المعاصي التي
يرتكبها الشخص وهو متذكر أنه يرتكب محرماً ، إذ أن ارتكاب المحرم
عن علم وتذكر هو الذي يجعل مرتكبته مستحقاً للعقاب ، والأنبياء
معصومون من ذلك .

وإذا عاتب الله بعض الأخيار من عباده على ما صدر منهم على وجه
النسيان ، فلأن علمهم بالنهي يدعومهم إلى أن يقع النهى من نفوسهم موقع
الاهتمام ، بحيث يستفظعون مخالفته استفظاعاً يملأ نفوسهم بالنفور منها ،
وبجمعهم على حذر من الوقوع في بلائها .

فالذي وقع من آدم - عليه السلام - هو أنه غفل عن الأخذ بالحزم
في استحضار النهى وجعله نصب عينيه حتى أدركه النسيان ، ففعل ما نهى
عنه غير متعمد للمخالفة ، قال - تعالى - :

« ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً . »

هذا ، وبعد أن ذكر القرآن الكريم الناس جميعاً بنعم الله عليهم ، ليحلمهم بذلك على إخلاص العبادة له ، وتصديق رسوله - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به ، ومن بين هذه النعم خلق آدم وإظهار فضله على الملائكة ، بعد كل ذلك أتجه إلى تذكير طائفة خاصة من الكافرين المعاصرين للنبي - صلى الله عليه وسلم - وهم بنو إسرائيل ، استماله لقلوبهم نحو الإيمان بالله ، وكسرا لعنادهم ولجاجتهم ، فقال - تعالى - :

يٰۤاِبْنَیۤ اِسْرَآءِیۡلَ اذْكُرُوْا

فِعْمَتِ الَّتِیۤ اَنْعَمْتُ عَلَیْكُمْ وَاَوْفُوا۟ بِعَهْدِیۤ اَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَاِیَّیۤ
فَارْهَبُوْا ﴿٤٠﴾ وَاٰمِنُوْا بِمَاۤ اَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُوْنُوْا

اَوَّلَ كٰفِرٍۭ بِهٖ وَلَا تَشْتَرُوْا بِعَآیَتِیۤ ثَمٰنًا قَلِیْلًا وَاِیۤیَّ فَاَتَّقُوْنَ ﴿٤١﴾ وَلَا
تَلْبِسُوْا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوْا الْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴿٤٢﴾ وَاَقِمْوْهُ

اَلصَّلٰوةَ وَاَتُوْا الزَّكٰوةَ وَاَرْكَبُوْا مَعَ الرَّكٰعِیۡنَ ﴿٤٣﴾

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إسماعيل - عليهم السلام - وفي
إضافتهم إلى أبيهم إسرائيل تشریف لهم وتكريم ، وحث لهم على الامتثال
لأوامر الله ونواهيه ، فكأنه قيل : يا بنى العبد الصالح ، والنبي الكريم ،
كونوا مثل أبيكم في الطاعة والعبادة .

ويستعمل مثل هذا التعبير في مقام الترغيب والترهيب ، بناء على أن
الحسنة في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن ، والسيسة في نفسها سيسة
وهي من بيت النبوة أسوأ ، ففي هذا النداء . خير داع لذوى الفطر السليمة
منهم إلى الإقبال على ما يرد بعده من التذكير بالنعمة ، واستعمالها فيما خلقت له .
ومعنى (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) تذكروا بقول لكم وقلوبكم

تلك المنافع التي أتتكم على سبيل الإحسان مني ، وقوموا بحقوقها وأكثروا من الحديث عنها بالاستنكح ، فإن التحدث بنعم الله فيه إغراء بشكرها .
والمراد بالنعمة : المنعم بها عليهم ، وتجمع على نعم ، وقد وردت في القرآن الكريم بمعنى الجمع كما في قوله تعالى : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فإن لفظ العدد والإحصاء قرينة على أن المراد بالنعمة : النعم الكثيرة . ويبدو أن المراد بالنعمة في الآية التي معنا كذلك النعم المتعددة حيث إنه لم يزم دليل على أن المراد بها نعمة معهودة ، وعلماء البيان يعدون استعمال المفرد في معنى الجمع — اعتماداً على القرينة — من أبلغ الأساليب الكلامية .

ثم أمرهم - سبحانه - بالوفاء بما عاهدهم عليه ، فقال تعالى : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ، العهد ما من شأنه أن يراعى ويحفظ ، كاليمين والوصية وغيرهما ، ويضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً ، يقال : أوفيت بعهدي ، أي بما عاهدت غيري عليه ، وأوفيت بعهدك ، أي بما عاهدتك عليه ، وعهد الله : أوامره ونواهيه ، والوفاء به يتأني باتباع ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ؛ ويندرج فيه كل ما أخذ على بني إسرائيل في التوراة ، من اتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - متى بعث ، والإيمان بما جاء به من عند الله وتصديقه فيما يخبر عن ربه .

والمعنى : وأوفوا بما عاهدتموني عليه من الإيمان بي ، والطاعة لي ، والتصديق برسلي ، أوف بما عاهدتكم عليه من التحكين في الأرض في الدنيا والسعادة في الآخرة .

ثم أمرهم - سبحانه - بأن يجعلوا خوفهم من خالقهم وحده ، فقال - تعالى - : « وإبى فارهون ، أي : خافوني ولا تخافوا سواي ، ولا تكن قلوبكم عامرة بخشيتي وحدي ، فإن ذلك يعينكم على طاعتي ، ويبعدكم عن معصيتي .

وحذف متعلق الرهبة للمعمر ، أي ازهبوني في جميع ما تأمرون ،

وما تفردون ، حتى لا أنزل بكم من النقم مثل ما أنزلت بمن قبلكم من المسخ وغيره ، فالآيات الكريمة قد تضمنت وعداً ووعداً وترغيباً وترهيباً .

وبعد أن أمر الله - عز وجل - بنى إسرائيل ، أن يوفوا بعهده عموماً أتبع ذلك بأمرهم بأن يوفوا بأمر خاص وهو القرآن الكريم ، وفي التعبير عنه بذلك تعظيم لشأنه ، وتقدير لأمره ، وأفراد -- سبحانه -- أمرهم بأن يؤمنوا به مع إندراجهم في قوله - تعالى - (وأوفوا بعهدي) الإشارة إلى أن الوفاء بالعهود لا يحصل منهم إلا إذا صدقوا به .

والمراد بما معهم ، التوراة ، والتعبير عنها بذلك للإشعار بعلمهم بتصديقه لها . والمعنى : آمنوا يا بنى إسرائيل بالكتاب المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو القرآن الكريم المصدق لكتابكم التوراة ، ومن مظاهر هذا التصديق اشتغال دعوته على ما يحقق دعوتها ، من الأمر بتوحيد الله - تعالى - والحث على التمسك بالفضائل ، والبعد عن الرذائل ، وإخباره بما جاء به من الإشارة إلى بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، ومطابقة ما وصفه به مطابقة واضحة جلية وموافقته لها في أصول الدين الكلية ، وهيمته عليها ، ولذا قال - عليه الصلاة والسلام - : « لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي » (١) .

وفي إخبار بنى إسرائيل بأن القرآن الكريم مصدق لما معهم ، إثارة لهمهم لو كانوا يعقلون - للإقبال عليه ، متدبرين آياته ، حتى تستيقن نفوسهم أنه دعوة الحق والإصلاح المؤدية إلى السعادة في الدنيا والآخرة وحتى تطمئن قلوبهم إلى أن الإيمان به معناه الإيمان بما معهم ، والكفر به ، كفر بما بين أيديهم ، حيث إن ما بين أيديهم قد بشر ببعثة محمد - صلى الله عليه وسلم - المنزل عليه القرآن الكريم .

قال الإمام الرازي : (وهذه الجملة الكريمة تدل على صدق النبي

- صلى الله عليه وسلم - من وجهين :

أولهما : أن الكتب السابقة قد بشرت به ، وشهاداتها لا تكون إلا حقاً

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما -

وثانيمها : أفه - عليه الصلاة والسلام - قد أخبرهم عما في كتبهم بدون معرفة سابقة لها ، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق الوحي (١) .

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بالإيمان الخالص ، عرض بهم لتكذيبهم وجحومهم ، فقال - تعالى - : « ولا تكفروا أول كافرينه ، أئى : لا تكفروا أول فريق من أهل الكتاب يكفر بالقرآن الكريم ، فيقتدى بكم أناس آخرون وبهذا تصيرون أئمة للكفر مع أن من الواجب عليكم أن تسارعوا إلى الإيمان به لأنكم أدرى الناس بأنه من عند الله ، وأكثروهم علماً بأنه الرسول الذى نزل عليه هذا القرآن ، وهو الصادق الأمين فيما يبلغه عن ربه .
والمقصود من هذه الجملة السكريمة ، تبكيتم على مسارعتم فى الكفر ، واستعظام وقوع الجحود منهم ، وقوعدهم عليه بسوء المآل .

قال الإمام الرازى : (هذه الجملة خطاب لبنى إسرائيل قبل غيرهم ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : لا تكفروا بمحمد ، فإنه سيكون بعدكم كفرة ، فلا تكونوا أئمة أولهم لأن هذه الأولوية موجبة لمزيد الإثم ، وذلك لأنهم إذا سبقوا إلى الكفر ، فإما أن يقتدى بهم غيرهم أولاً ، فإن اقتدى بهم غيرهم كان عليهم وزر ، ووزر كل كافر إلى يوم القيامة ، وإن لم يقتدى بهم غيرهم ، اجتمع عليهم أمران : السابق إلى الكفر ، والتفرد به وكلاهما منقصة عظيمة ، وتؤدى إلى العاقبة الوييلة) (٢) .

ثم نهاهم عن أن يبيعوا دينهم بدنياهم ، فقال - تعالى - : « ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ، والاشترء هنا استعارة للاستبدال ، والذى استبدل به الثمن القليل هو الإيمان بالآيات ، والمراد بالآيات : البراهين المؤيدة لصدق النبي - صلى الله عليه وسلم - وفى مقدمتها القرآن الكريم والتوراة .
والمراد بالثمن القليل : حظوظ الدنيا وشهواتها من نحو الرياضة والمال .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٤٣٠

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ١ ص ٤٣٢ بتصرف وتلخيص .

والجاء ، وما إلى ذلك من الأمور التي خافوا ضياعها لو اتبعوا الرسول
— صلى الله عليه وسلم — .

والمعنى : لا تستبدلوا بالإيمان بما أنزلت مصدقاً لما معكم شيئاً من حطام الدنيا ،
ولا تختاروا على ثواب الله بديلاً من الأزمات ، فإنها مهما كثرت فهي قليلة
مستوردة بالنسبة لما يناله أولو الإيمان الخالص من رعاية ضافية في الدنيا ،
وخيرات حسان في الآخرة .

وليس وصف الثمن بالقلّة من الأوصاف المخصصة للذكريات ، بل هو
من الأوصاف اللازمة للثمن المحصل بالآيات ، إذ لا يكون إلا قليلاً وإن
بلغ ما بلغ من أعراض الدنيا بحجاب رضا الله — عز وجل — .

وقول تمكينهم من الإيمان بالآيات لوضوحها منزلة حصوله بالفعل ،
فكان الإيمان كان في حوزتهم ، واكتنهم خلفه وفيدوه ، مستبدلين الذي
هو أدنى بالذي هو خير ؛ فبأموا بغضب على غضب الكفرهم بالقرآن
السكريم وبتوراتهم التي بشرت بالرسول — عليه الصلاة والسلام — .

ثم حذرهم - سبحانه - من التهادي في الكفر بما أنزل ، مصدقاً لما معهم ،
فقال - تعالى - : *دو إياي فائقون ، الاتقاء معناه الحذر ، يقال : فلان اتقى الله*
أى حذر عقابه وبطشه ، والحذر من عقاب الله ، يستلزم امتثال أوامره ،
واجتناب نواهيه ، فعنى دو إياي فائقون ، آمنوا بي ، واتبعوا الحق وأعرضوا
عن الباطل .

وبعد أن نهى القرآن السكريم بنى إسرائيل عن الكفر والضلال ، عقب
ذلك بنهيهم عن أن يعملوا لإضلال غيرهم ، فقال - تعالى - : *دو لا تلبسوا*
الحق بالباطل ، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون .

اللبس - بفتح اللام - الخاط ، وفعله : ليس ، من باب : ضرب تقول :
لبست عليه الأمر ، ألبسه إذا مزجت بينه بمشكلة ، وحقه بياله .

ولدعاة الضلالة طريقتان في إغواء الناس :

إحداهما : طريقة خلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما عن الآخر

وهي المشار إليها بقوله تعالى : « ولا تلبسوا الحق بالباطل » .
والثانية : طريقة جحد الحق وإخفائه حتى لا يظهر ، وهي المشار إليها
بقوله تعالى : « وتكتموا الحق » .

وقد استعمل بنو إسرائيل الطريقتين لصرف الناس عن الإسلام ، فقد
كان بعضهم يؤول نصوص كتبهم الدالة على صدق النبي - ﷺ -
تأويلاً فاسداً ، يخطئون فيه الحق بالباطل ، ليوهموا العامة أنه ليس هو النبي
المنتظر ، وكان بعضهم يلقي حول الحق الظاهر شبهاً ، ليوقع ضعفاء الإيمان
في حيرة وتردد ، وكان بعضهم يخفي أو يحذف النصوص الدالة على صدق
النبي - ﷺ - ، والتي لا توافق أهواءهم وشهواتهم ، فنهامهم الله
- تعالى - عن هذه التصرفات الخبيثة .

والمعنى : لا تخطئوا الحق الواضح الذي نطقت به الكتب السماوية ،
وأيدته العقول السليمة ، بالباطل الذي تخترعونه من عند أنفسكم ، إرضاء
لأهوائكم ، ولا تكتموا الحق الذي تعرفونه ، كما تعرفون أبناءكم ، بغية
انصراف الناس عنه « لأن من جهل شيئاً عاداه » ، فالنهي الأول عن التغيير
والخبط ، والنهي الثاني عن السكتمان والإخفاء .

وقوله تعالى : « وأنتم تعلمون » جملة حالية ، أي وأنتم من ذوى العلم ،
ولا يناسب من كان كذلك أن يكتم الحق ، أو يلبسه بالباطل ، وإذا كان
هذا الفعل - وهو لبس الحق بالباطل ، أو كتماناه وإظهار الباطل وحده -
يعد من كبائر الذنوب ، فإن وقعه يكون أفصح ، وفساده أكبر ، وعاقبته أشام
مضى صدر من عالم قائم ، يميز بين الحق والباطل .

ففي هذه الجملة الكريمة بيان لحال بنى إسرائيل ، المخاطبين بهذا النهي ،
وتبكيك لهم ، لأنهم لم يفعلوا ما فعلوه عن جهالة ، وإنما عن علم وإصرار
على سلوك هذا الطريق المعوج .

قال أبو حيان في البحر : « وهذه الحال ، وإن كان ظاهرها إنها قيد في
النهي عن اللبس والتكتم ، فلا تدل بمفهومها على جواز اللبس والتكتم حالة

الجهل ، إذ الجاهل بحال الشيء لا يدري كونه حقاً أو باطلاً ، وإنما فأنتها بيان أن الإقدام على الأشياء القبيحة ، مع العلم بها ، أفحش من الإقدام عليها مع الجهل . (١) .

وبعد أن أمرهم - سبحانه - بأصل الدين الذي هو الإيمان به وبرسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) أردفه بركنين من أركانه العملية ، إذا قاموا بهما لانت قلوبهم للحق ، وانعطفت نفوسهم نحو خشية الله وحده ، فقال تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ، والمراد بإقامة الصلاة ، أدائها مستوفية لأركانها وشراطينها وآدابها ، والمراد بإيتاء الزكاة دفعها لمستحقها كاملة غير منقوصة .

والمعنى : عليكم يا معشر اليهود أن تحافظوا على أداء الصلاة ، التي هي أعظم العبادات البدنية ، وعلى إيتاء الزكاة التي هي أعظم العبادات المالية ، وأن تخضعوا لما يلزمكم في دين الله - تعالى - لأن في محافظتكم على هذه العبادات تطهيراً لقلوبكم ، وتالياً لنفوسكم ، وتركياً لمشاعركم ، ولأنكم إن لم تحافظوا عليها كما أمركم الله - تعالى - فسيلحقكم الخزي في الدنيا ، والعذاب في الآخرة .

هذا ، ونرى من المناسب أن نختم تفسير هذه الآيات الكريمة ، وبيان ما اشتملت عليه من توجيه سليم ، وتركيب بليغ ، بما قاله أبو حيان في تفسيره ، فقد قال - رحمه الله - :

« وفي هذه الجملة - وإن كانت معطوفات بالواو التي لا تقتضي في الوضع زجباً - ترتيب عجيب من الفصاحة ، وبناء الكلام بعضه على بعض ، وذلك أنه تعالى أمرهم أولاً بذكر النعمة التي أنعمها عليهم ، إذ في ذلك ما يدعو إلى محبة المنعم ووجوب طاعته : ثم أمرهم بإيتاء العهد الذي التزموه للمنعم ،

(١) تفسير البحر المحيط ، لأبي حيان ج ١ ص ١٨٠ ، مطبعة السعادة .

ثم رغبتهم بترتيب إيفائه هو تعالى بهدريهم في الإيفاء بالعهود ، ثم أمرهم بالخوف من نعمه إن لم يوفوا ، فاكتنف الأمر بالإيفاء أمر بذكر النعمة والإحسان ، وأمر بالخوف من العصيان . ثم أعقب ذلك بالأمر بإيمان خاص وهو ما أنزل من القرآن ، ورغب في ذلك بأنه مصدق لما معهم ، فليس أمراً مخالفاً لما في أيديهم ، لأن الانتقال إلى الموافق أقرب من الانتقال إلى المخالف ، ثم نهام عن استبدال الخسيس بالنفيس ، ثم أمرهم - تعالى - باتقائه ، ثم أعقب ذلك بالنهي عن لبس الحق بالباطل ، وعن كتم الحق ، فكان الأمر بالإيمان أمراً بترك الضلال ، والنهي عن لبس الحق بالباطل ، وكتمان الحق تركاً للإضلال .

ولما كان الضلال ناشئاً عن أمرين : إما تمويه الباطل حقاً ، إن كانت الدلائل قد بلغت المستتبع ، وإما عن كتمان الدلائل إن كانت لم تبلغه ، أشار إلى الأمرين بلا تلبسوا وتمكتموا ، ثم قبح عليهم هذين الوصفين مع وجود العلم ، ثم أمرهم بعد تحصيل الإيمان ، وإظهار الحق بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لأن الصلاة آكد العبادات البدنية ، والزكاة آكد العبادات المالية ، ثم ختم ذلك بالأمر بالانقياد والخضوع له - تعالى - مع جملة الخاضعين للسلطانين .

فكان افتتاح هذه الآيات بذكر النعم واختتامها بالانقياد للنعم ، وما بينهما من تكاليف اعتقادية ، وأفعال بدنية ومالية ، وبنحو ما تضمنته هذه الآيات من الافتتاح والإرداف والإختتام . يظهر فضل كلام الله - تعالى - على سائر الكلام ، وهذه الأوامر والنواهي ، وإن كانت خاصة ببنى إسرائيل في الصورة ، إلا أنها عامة في المعنى ، فيجب على كل مكلف في كل زمان ومكان أن يعمل بها ، (١) .

وبعد كل هذه الأوامر والنواهي ، وبختم الله - تعالى - وقرعهم على

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ١ ص ١٨١ مطبعة السعادة :

ارتكابهم لأمور لا تصدر عن عاقل . وهى أنهم يأمرون الناس بالخير
ولا يفعلونه ، فقال تعالى :

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ

بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُونُوا أَقْلًا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

الأمر : طلب إيجاد الفعل . والبر : اسم يتناول كل عمل من أعمال
الخير . والنسيان : ضد الذكر ، وهو السهو الحادث بعد حصول العلم .
والعقل : يطلق على قوة في النفس ، تستعد بها لقبول العلم . وإدراك الشيء .
والمعنى : كيف يليق بكم بامعشر اليهود ، وأنتم تأمرون الناس بأعمال
الفضائل ، وألوان الخيرات ، أن تنسوا أنفسكم ، فلا تأمرون بما تأمرون
به غيركم ، وأنتم مع ذلك تقرأون توراتكم ، وتدركون أى عقوبة ألهم لمن
يأمر الناس بالخير وينسى نفسه ، أفلا عقل لكم يحبسكم عن هذا السفه
الذى تردتم فيه ، ويحذركم من سوء عاقبته ؟

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - كان يهود المدينة يقول الرجل منهم
لصهره ، ولذات قرابته ، ولبن بينه وبينه صلة من المسلمين اثبت على الذى
أفت عليه ، وما يأمرك به هذا الرجل دير بدون محمد (صلى الله عليه وسلم) -
فإن أمره حق ، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلونه . (١)

والمراد بالنسيان فى الآية الكريمة ، تركهم العمل بما يأمرون به غيرهم ،
لأن الناسى حقيقة ليس مؤاخذا على ما نسيه ، فلا يستحق هذا التوبيخ الشديد
الوارد فى الآية الكريمة . وليس التوبيخ متوجه إلى كونهم كانوا يأمرون
لناس بالبر ، لأنه فعل محمود ، وإنما التوبيخ متوجه إلى كونهم تركوا العمل بما
رشدوا إليه سواهم ، فهم يداوون الناس ، وقلوبهم مليئة بالأمراض والعلل

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٦٥ : طبعة دار الكتيب سنة ١٢٤٥ هـ

وقوله تعالى (وأنتم تعلمون الكتاب) مزيد تقييح لسانهم ، ذلك أن قراءتهم لكتيبهم أبطلت اعتذارهم بالجهل الذي قد تشبث به بعض الفاسقين على أمر الله عند ما ينكر الناس عليهم فسوقهم .

وفي قوله تعالى (أفلا تعقلون) أسمى أنواع الهداية والإرشاد السليم ، فإن من أظف الأساليب في الخطاب والتوجيه ، أن يكون للدعوة إليه النصيح صفة من شأنها أن تسوقه إلى خير ، ولكنه ينساق إلى غيره من أنواع الشرور فيقع فعله من الناس موقع الدهشة والغرابة ، فيذكر له مسدى النصيح تلك الصفة في معرض الاستفهام بغية تذكيره بأن مصدر منه لا يلتقى مع ما عرف عنه وتطبيقاً لهذا المبدأ نقول : إن المخاطبين بقوله تعالى : «أفلا تعقلون» يعقلون ويدركون الأشياء ، وبهذا الإدراك توجه إليهم التكليف بالعقائد والشرائع ، ولكنهم لم يسيروا على مقتضى ما لديهم من عقول ، حيث كانوا يأمرؤن الناس بالخير ، ويصرفون أنفسهم عنه ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن ما أنتم من أفعال سقيمة . يجعل الناظر إليكم يحكم عليكم بلا أدنى تردد بأنكم لا عقول لكم ، ولا فضيلة لديكم ، وفي هذا الأسلوب ما فيه من الترغيب في فعل الخير ؛ والترهيب في فعل الشر .

ولما كانت الأمور التي كلفهم الله بها قبل ذلك فيها مشقة لا يتحملها كل أحد بسهولة . فقد أرشدهم إلى الوسائل التي تقوي عزائمهم ، وتطهر قلوبهم ، وتعالج أمراض نفوسهم فقال تعالى :

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١٥﴾

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : «واستعينوا بالصبر والصلاة» الاستعانة : طلب المعونة ، والصبر حبس النفس على ما تكره . يقال : صبر على الطاعة . أي حبس نفسه عليها مقحلاً ما يلاقه في أدائها من مشاق وصبر عن المعصية . أي

كف نفسه عما تنزع إليه من أهواء .

والمعنى : واستعينوا على ترك ما تحبون من شهوات الدنيا ، والدخول فيما تستثقله نفوسكم من قبول الإسلام ، والتقيد بتكاليفه بفضيلة الصبر التي تحجز أنفسكم من غشيان الموبقات ، وبفريضة الصلاة التي تنهاكم عن الفحشاء والمنكر .

قوله تعالى : «ولإنها لكبيرة إلا عن الخاشعين» ، كبيرة : أى صعبة شاقة . يقال كبر الشيء إذا شق وثقل ، ومنه قوله تعالى : «كبر على المشركين ما تدعوهم إليه» أى ثقل وصعب . والخاشعين : من الخشوع وهو في الأصل اللين والسهولة ، ومعناه في الآية الكريمة . الخشوع والاستكانة لله تعالى ، والضمير في - إنها - للصلاة لعظيم شأنها واستجماعها لضروب من الصبر ، والاستثناء مفرغ . أى كبيرة على كل الناس إلا على الخاشعين .

والمعنى : إن الصلاة صعبة إلا على الخاضعين المخبتين المتطامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى لأنهم موقنون أنها من أهم وسائل الفلاح في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، ولأنهم يجدون عند أدائها اغتباطاً وسروراً يجعل نفوسهم تنشط إليها كلما حل وقتها همة وإخلاص .

قال الإمام الزاوي : «فإن قيل : إن كانت ثقيلة على هؤلاء سهلة على الخاشعين ، فيجب أن يكون ثوابهم أكثر ، وثواب الخاشع أقل ، وذلك منكر من القول ؟ قلنا : ليس المراد أن الذي يلحقهم من التعب أكثر مما يلحق الخاشع . وكيف يكون ذلك ، والخاشع يستعمل في الصلاة جوارحه وقلبه ، ولا يغفل فيها ؛ وإذا كان هذا فعل الخاشع فالثقل عليه يفعل الصلاة أعظم . وإنما المراد بقوله تعالى : «ولإنها لكبيرة» . أى ثقيلة على غير الخاشع ؛ لأنه لا يعتقد في فعلها ثواباً ، ولا في تركها عقاباً ، فيصعب عليه فعلها ، فالخاص أن الملحد لا اعتقاده عدم المنفعة في أدائها ثقل عليها فعلها ، لأن الاشتغال بما لا فائدة فيه بثقل على الطبع . أما الموحد فلما اعتقد في فعلها أعظم المنافع ، وفي تركها أكبر المضار ، لم يثقل عليه أدؤها . بل أدامها

وهو سعيد بها ، ألا ترى إلى قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : (جعلت قرة عيني في الصلاة) وصفها بذلك لأنها كانت لا تثقل عليه ، ثم وصف - سبحانه - الخاشعين وصفاً يناسب المقام ، ويظهر وجه الاستعانة ، فقال - تعالى - : (الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون) .

الظن : يرد في أكثر الكلام بمعنى الاعتقاد الراجح ، وهو ما يتجاوز مرتبة الشك ، وقد يقوى حتى يصل إلى مرتبة اليقين والقطع ، وهو المراد هنا ؛ ومثل ذلك قوله - تعالى - (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم) أى ألا يعتقد أنهم مبعوثون ليوم عظيم . وقوله تعالى : (إني ظننت أنى ملاق حسابه) أى علمت أنى ملاق حسابه .

وملاقات الخاشعين لربهم معناها الحشر إليه بعد الموت ، ومجازاتهم على ما قدموا من عمل .

والمعنى : إن الصلاة ثقيلة إلا على الخاشعين ، الذين يعتقدون لقاء الله - تعالى - يوم الحساب ، وأنهم عائدون لينالوا ما يستحقونه من جزاء على حسب أعمالهم .

قال ابن جرير - مرجحاً أن المراد بالظن هنا العلم واليقين - : « إن قال لنا قائل : وكيف أخبر الله - تعالى - عن قده وصفه بالخشوع له بالطاعة أنه يظن أنه ملاقيه ، والظن شك . والشاك في لقاء الله كافر ؟ قيل له : إن العرب قد تسمى اليقين ظناً ؛ والشك ظناً ؛ نظير تسميتهم الظلمة سدفة . والضياء سدفة ، والمغيث صارخاً ، والمستغيث صارخاً ، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تسمى بها الشيء وضده ، وما يدل على أنه يسمى به اليقين ، قول دريد بن الصمة : (فقلت لهم ظنوا بالني مدجج ...) .

يعنى بذلك : تيقنوا أن ألقى مدجج تأتيكم ، ثم قال : والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصى ، (م ١٠ - البقرة)

وفيا ذكرنا لمن وفق في فهمه كفاية ، ومنه قوله تعالى : « ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ، وعن مجاهد قال : « كل ظن في القرآن فهو علم ، (١) .
والذين قالوا إن الظن هنا على معناه الحقيقي ، وهو الاعتقاد الراجح ،
فسروا ملاقات الخاشعين لربهم ، بمعنى قربهم من رضاه يوم القيامة ورجوعهم
إليه ، بمعنى حلولهم بجواره الطيب ، واستقرارهم في جناته ، أى : وإن الصلاة
لكبيرة إلا على الخاشعين الذين يتوقعون قربهم من ربهم ، ودخولهم جناته
عند رجوعهم إليه .

وإلى هذا التفسير ذهب صاحب الكشاف ، فقد قال : (فإن قلت :
ما لها لم تثقل على الخاشعين والخشوع في نفسه مما يثقل ؟ قلت : لأنهم يتوقعون
ما ادخر للصابرين على متاعها فتهون عليهم . ألا ترى إلى قوله تعالى : (الذين
يظنون أنهم ملاقوا ربهم) أى يتوقعون لقاء ثوابه ، ونيل ما عنده ويعلمون
فيه) (٢) .

ولما كان شعور الخاشعين بذلك كله ظناً لا يقيناً ، لأن خواتيم الحياة
لا يعلمها كيف تكون سوى علام الغيوب ، ففي وصفهم بأنهم (يظنون)
إشارة إلى خوفهم ، وعدم أمنهم مكرهه - تعالى - وهكذا يكون المؤمن دائماً
بين الخوف والرجاء .

ومن هذا للعرض لمعنى الآية الكريمة يتبين لنا ، أن من فسر الظن هنا
بمعنى اليقين والعلم ، يرى أن لقاء الخاشعين لله معناه الحشر بعد الموت ،
ورجوعهم إليه معناه مجازاتهم على أعمالهم . والحشر والمجازاة يقتضيهما
صاحبهما الخاشعون اعتقاداً جازماً .

أما من فسر الظن هنا بمعنى الاعتقاد الراجح ، فيرى أن لقاء الخاشعين لله
معناه توقعهم لقاء ثوابه ، ورجوعهم إليه معناه ظفرهم بجناته ، وتوقع الثواب

(١) تفسير ابن جزير ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٣٤ .

والظفر بالجنات يرجع النخاشعون حصو ولهما لأن مرجعهما إلى فضل الله وحده .
والذي نراه أن الرأي الأول أكثر اتساقاً مع ظاهر معنى الآية الكريمة
وبه قال قدماء المفسرين ، كمجاهد وأبي العالبة وغيرهما .

وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة توبيخ أحبار اليهود على نصحهم
لغيرهم وتركهم لأنفسهم وإرشادهم إلى العلاج الذي يشفيهم من هذا الخلق
الذميم ، ومن غيره متى استعلموه بصدق وإخلاص ، وهذا العلاج يتمثل
في تدرعهم بالصبر . ومداومتهم على الصلاة ، وشكرهم لله - تعالى - على
نعمه التي فصلت الآيات بعد ذلك الحديث عنها ، وهاتين نذكرها مرتبة
كما ساقها القرآن الكريم .

أولاً : نعمة تفضيهم على العالمين : قال - تعالى - :

يٰٓبَنِي

إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى

الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

أعاد القرآن الكريم نداءهم ، تأكيداً لتذكيرهم بواجب الشكر ،
واهتماماً بمضمون الخطاب وما يشتمل عليه من أوامر ومنهيات ، وتفصيلاً
لما أسبغته الله عليهم من منن بعد أن أجملها في النداء الأول ، ليكون التذكير أعمق
والتأثير أشد ، والشكر عليها أرجى .

وقد جرت سنة القرآن الكريم أن يكرر الجمل المشتملة على أمور تستوجب
المزيد من العناية كما في حال ذكر النعم ، لأن تكرارها يغري النفوس
الكريمة بطاعة مرسلها ، والسير على الطريق القويم .

وقوله تعالى : (وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ) عطف على نعمتي ، أي
واذكروا تفضيلي إياكم على العالمين ، وهذا التفضيل نعمة خاصة ، فعطافه

على (نعمتى) من عطف الخاص على العام للعناية به ، وهو - أى : التفضيل مبدأ تفصيل النعم وتعدادها ، والمقصود منه الحضر على الاتصاف بما يناسب تلك النعم ، ويستبقى ذلك القضل .

وقد ذكر الله - تعالى - بنى إسرائيل المعاصرين للهدى النبوى بهذه النعم مع أنها كانت لأبائهم . كما يدل عليه سياق الآيات ؛ لأن النعم على الآباء نعم على الأبناء لكونهم منهم ، ولأن شرف الأصول يسرى إلى الفروع ، فكان التذكير بتلك النعم فيه شرف لهم ، وحسن سمعة تعود عليهم ، وتخريهم بالإيمان والطاعة - لو كانوا يعقلون - .

ومن مظاهر ، تفضيل الله لبنى إسرائيل على عالمى زمانهم ، جمعه لهم من المحامد قبل بعثة النبى (صلى الله عليه وسلم) . ما لم يجمع لغيرهم . فقد حباهم بكثير من النعم ، وبعث فيهم عدداً كبيراً من الأنبياء ، ونجاهم من عدوهم ، ولم يجعل العقوبة عليهم رغم عصيانهم واعتدائهم ، واقترافهم شتى ألوان المنكرات عن تعمد وإصرار ، ولم ينزل بهم قارعة تستأصلهم بدنوبهم كما استأصل غيرهم كقوم عاد وثمود .

ولكن بنى إسرائيل لم يقابلوا نعم الله بالشكر والعرفان . بل قابلوها بالبحود والظنbian فسلبها الله عنهم ، ومنحها لقوم آخرين لم يكونوا أمثالهم ولقد حكى القرآن ألواناً من النعم التى منحها الله لبنى إسرائيل ولكنهم قابلوها بالبطر والكفران فأزلهما الله عنهم . من ذلك قوله تعالى :

(سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب ، (١) .

أى : سل - يا محمد - بنى إسرائيل المعاصرين لك . سؤال تقريرح وتوبيخ . كم آتاهم الله على أيدي أنبيائهم من النعم الجليلة ، والمعجزات الباهرة ، ولكنهم بعد أن جاءتهم هذه الآيات ، وتمكنوا منها وعقلوها قابلوها بالعدا والاستهزاء ، وجعلوها من أسباب ضلالهم مع أنها مسوقة لهدايتهم

وسعادتهم ، فكانت نتيجة ذلك أن ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة في الدنيا ، وتوعدهم بشديد العقاب في الآخرة .

ومن الآيات التي صرحت بأن الله - تعالى - أعطى بنى إسرائيل نعماً وفيرة ، ولسكنهم لم يحمدوه عليها . قوله تعالى :

« ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين • من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين • ولقد اخترناهم على علم على العالمين • وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين » (١) .

أى : ولقد نجينا بفضلنا ، وكرمنا بنى إسرائيل من العذاب المهين الذي كان ينزله بهم فرعون وجنده ، بأن أغرقناه . ومن معه أمام أعينهم ؛ لأنه كان ظلوماً غشوماً ، ونضلاً عن ذلك فقد اصطفينا بنى إسرائيل - عن علم منا بما يكون منهم - على العالمى زمانهم وآتيناهم من النعم والمعجزات . ما فيه اختبار لقلوبهم ، وامتحان لنفوسهم . فكانت نتيجة هذا الاختبار والامتحان أن كفروا بنعم الله ، وكذبوا برسله وقتلوه . فتوعدهم الله في الدنيا بأن يساط عليهم من يسوءهم سوء العذاب إلى يوم القيامة . أما في الآخرة فأوهم جهنم وبئس المهاد .

- وأيضاً - من الآيات التي ساقب أنواعاً من نعم الله على بنى إسرائيل ولسكنهم لم يشكروه عليها قوله تعالى :

« ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين • وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم • إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (٢) .

والمعنى : ولقد آتينا بنى إسرائيل التوراة لتكون هداية لهم ومنحناهم الحكمة والفقه في الدين ، وجعلنا النبوة في عدد كبير منهم ، ورزقناهم من

(١) سورة الدخان الآيات ٣٠ - ٣٣

(٢) سورة البجائية الآية ١٧ ، ١٨

طيبات الاغذية والاشربة ، وفضلناهم على من عاصروهم من الأمم قيل بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - وفضلا عن ذلك فقد سقنا لهم على أيدي أنبيائهم الكثير من المعجزات والدلائل التي تقوى لإيمانهم ، وتهدبهم إلى المستقيم ولكنهم لم ينتفعوا بهذه النعم . بل جعلوا عليهم بالدين الحق سبياً للخلاف والشقاق ، والسير في طريق الضلال ، وسيعاقبهم الله بما يستحقونه جزاء وجودهم وعنادهم .

والعبرة التي نستخلصها من هذه الآيات وأمثالها . أن الله - تعالى - فضل بني إسرائيل على غيرهم من الأمم السابقة على الأمة الإسلامية . ومنحهم الكثير من النعم ، ولكنهم لم يقابلوا ذلك بالشكر . بل قابلوه بالتمرد والحسد والبطر . فسأب الله عنهم ما حباهم من نعم ، ووصفهم في كتابه بأفبح الصفات وأسوأ العلياب . كقسوة القلب ، ونقض العهد ، والتمالك على شهوات الدنيا ، والتعدي على الغير . والتحايل على استحلال حارم الله ، وبذمهم للحق واتباعهم الباطل . . . إلى غير ذلك من الصفات التي توارد ذكرها في القرآن الكريم .

وهذا مصير كل أمة بدلت نعمة الله كفراً ؛ لأن الميزان عند الله للتقوى والعمل للصالح ، وليس للجنس أو اللون أو النسب .

قال الإمام الرازي ماملخصه : فإن قيل : إن تفضيلهم على العالمين يقتضي تفضيلهم على أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهذا باطل . فكيف الجواب؟ قلنا : الجواب من وجوه أقربها إلى الصواب أن المراد : فضلناكم على عالمي زمانكم وذلك لأن الشخص الذي سيوجد بعد ذلك وهو الآن ليس بوجوده لم يكن من جملة العالمين حال عدمه ، وأمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ما كانت موجودة في ذلك الوقت ، فلا يلزم من كون بني إسرائيل أفضل العالمين في ذلك الوقت . أنهم أفضل من الأمة المحمدية . وهذا هو الجواب أيضاً عن قوله - تعالى - : (إذ جعل فيكم أنبياء . وجعلكم ملوكاً وأنا كم عالم يؤت أحداً

من العالمين). وعن قوله تعالى: (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) (١). وهذا يتعين بطلان دعوى اليهود أنهم شعب الله المختار. إحتتاداً إلى هذه الآية الكريمة وأمثالها ، لأنها دعوى لا تؤيدها النصوص ، ولا يشهد لها العقل السليم . ثم قال تعالى :

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ

مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

بعد أن ذكرهم - سبحانه - في الآية السابقة بنعمة عظيمة من نعمه حذرهم في هذه الآية الكريمة من التقصير في العمل الصالح ، وذلك لأن وصفهم بالتفضيل على عالمي زمانهم قد يحملهم على الغرور ، ويحملهم بتوهمون أنهم مغفور لهم لو أذنبوا . فجاءت هذه الآية الكريمة لتقتلع من أذاهم تلك الأوهام بأحكام عبارة وأجمع بيان .

والمراد باتقا، اليوم ، وهو يوم القيامة . الحذر مما يحدث فيه من أهوال وعذاب ، والحذر منه يكون بالانزام حدود الله - تعالى - وعدم تعديها ، فهو من إطلاق الزمان على ما يقع فيه كأنقول «مكان مخيف، وتكبير النفس في الموضوعين وهو في حيز النفي يفيد عموم النفوس . أى : لا تقضى فيه نفس كائنة من كانت عن نفس أخرى شيئاً من الحقوق .

ووصف اليوم بهذا الوصف ، ولم يقل «يوم القيامة» مثلاً ، للإشعار بأن التصرف في ذلك اليوم لله وحده . فليس فيه ما اعتاد الناس في هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض .

والمعنى : احذروا - يا بني إسرائيل - يوماً عظيماً أمامكم ، سيحصل فيه من الحساب والجزاء ما لا منجاة من هوله إلا بتقوى الله في جميع الأحوال

والإخلاص له في كل الأعمال ، فهو يوم لا تقضى فيه نفس مهما كان قدرها ، عظيماً عن نفس شيئاً ما ، مهما يكن ذنباً صغيراً .

ثم وصف القرآن الكريم ذلك اليوم بوصف آخر يتناسب المقام . فقال تعالى : « ولا يقبل منها شفاعاة ، الضمير في (منها) يعود إلى النفس المحاسبة في ذلك اليوم . والشفاعة : من الشفع ضد الوتر ، وهى انضمام الغير إلى الشخص ليُدفع عنه ، أى لا يقبل منها أن تأتى يشفع ليحصل لها نقماً ، أو يدفع عنها ضرراً .

والآية الكريمة قد نفت قبول الشفاعة من أحد نفياً مطلقاً ، ولكن هنالك آيات كريمة تنفي قبول الشفاعة إلا من أذن له الرحمن في ذلك ، من هذه الآيات قوله تعالى : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) (١) وقوله تعالى : (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا) (٢) وللجمع بين هذه الآيات ، تحمل الآيات التى تنفي الشفاعة نفياً مطلقاً على أنها واردة في شأن النفوس الكافرة ، وتحمل الآيات التى تبيح الشفاعة على أنها واردة في شأن المؤمنين إذا أذن الله فيها للشافعين ، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوي في أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ستكون له شفاعاة في دفع العذاب عن أقوام المؤمنين ، وتخفيفه عن أهل الكفاثر من المسلمين ، من ذلك ما أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً وجعلت أمتى خير الأمم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة (٣) .

قال الإمام ابن جرير : (وهذه الآية وإن كان مخرجها عاماً في التلاوة ..

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٦

(٢) سورة طه الآية ٢١٠

(٣) صحيح البخارى باب التيمم ، ج ١ ص ٩١

فإن المراد بها خاص في التأوويل ، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنه قال : شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ، وأنه قال : ليس من نبي إلا وقد أعطى دعوة ، ولزى خبأت دعوتي شفاعة لأمتي ، وهي نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئاً . فقد تبين بذلك أن الله جل ثناؤه قد يصفح لعباده المؤمنين بشفاعة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) لهم عن كثير من عقوبة إجرامهم بينه وبينهم ، وأن قوله (ولا يقبل منها شفاعة) إنما هي لمن مات على كفره غير تائب إلى الله - عز وجل - اه (١) .

ثم وصف اليوم بوصف ثالث فقال تعالى : (ولا يؤخذ منها عدل) .
العدل : العوض والقضاء . سمي بالمصدر لأن القادى يعدل المفدى بمثله في القيمة أو العين ويسويه به . يقال : عدل كذا بكذا : أى سواه به .
والمعنى : لا يؤخذ منها فداء أو بدل في ذلك اليوم إن هي استطاعت إحضاره على سبيل الفرض والتقدير .

ثم وصفه بوصف رابع فقال تعالى : (ولا هم ينصرون) والنصر هو الإعانة في الحرب وغيره بقوة الناصر ، وقدم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أن انتفاء نصرهم محقق . فضلاً عما استفيد من نفي الفعل وإسناده للمجهول وجاء الضمير في قوله تعالى (ولا هم ينصرون) جمعاً مع أنه عائد على النفس وهو قوله تعالى (لا تجزى نفس) ؛ لأن النكرة إذا وقعت في سياق النفي تناولت كل فرد من أفرادها ، وبهذا صارت في معنى الجمع ، وضح أن يعود عليها ضمير الجمع وهو (هم) .

والمعنى . أنهم لا يجدون من يعينهم ويمنعهم من عذاب الله يوم القيامة . ولما كان اليهود يعتقدون أنهم شعب مميز ، وأن نسبتهم إلى الأنبياء ستجعلهم في مأمن من العقاب رغم عصيانهم وفسوقهم ، وأن آباءهم سيشفعون لهم . . . لما كانوا كذلك جاءت هذه الآية الكريمة لتبطل

ما اعتدوه ، وقطع ما أملاه ، ولتقض كل ما يحتمل أن يكون وسيلة
للنجاه يوم القيامة سوى الإيمان والعمل الصالح .

فقد نفت الآية الكريمة وجود من ينوب عنهم بقولها (لا يجزى نفس
عن نفس شيئاً) .

ونفت انتفاعهم بشفاعاة الشافعين يوم الحساب بقولها (ولا يقبل
منها شفاعاة) .

ونفت قبول البدل أو النداء عما ارتكبه من خطايا بقولها (ولا يؤخذ
منها عدل) .

ونفت وجود من ينتصر لهم أو يدافع عنهم بقولها (ولا هم ينصرون)
وهكذا سدت عليهم الآية الكريمة كل منفذ يتوهمون نجاةهم من عذاب
الله بسببه ، ماداموا مصرين على كفرهم وجحودهم .

هذا ، وقد اشتملت هاتان الآيتان على أسلوب حكيم في التوجيه ، وطريقة
فريدة في الإرشاد ، جمعت بين الترغيب والترهيب ، فإن الآية الأولى ابتدأت
بندائهم باسم أيهم إسرائيل - عليه السلام - الذي هو أصل عزهم ، ومنشأ
تفضيلهم لتحي الشعور بالكرامة في نفوسهم ، وتغرس الإحساس بالشرف
في مشاعرهم ، ولتحملهم على الترفع عن الدنيا ؛ لأن الذي يشعر أنه من
منبت كريم تعاف نفسه الحقد والكذب والصغار ، ثم جاءت الآية الثانية
فأرشدتهم إلى أن التقوى هي سبب السلامة والفوز ، وحذرتهم من أهوال يوم
القيامة وأهمتهم بأن اتسابعهم إلى أولئك الآباء لن يغنى من الله شيئاً يوم الجزاء ،
وإنما الذي ينفعهم في ذلك اليوم هو اتباع تعاليم الإسلام ، التي أتى بها النبي
- عليه الصلاة والسلام - وفي ذلك ما فيه من كبح غرورهم ؛ وإبطال ظنونهم .

فانياً : نعمة إنجائهم من عدوهم :

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة جليله الشأن ، هي نعمة إنجائهم من عدوهم

فقال تعالى :

وَإِذْ نَجَّيْنَكُمْ

مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدْحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٩﴾

الآية الكريمة معطوفة على قوله تعالى : « اذكروا نعمتى ، فى الآية السابقة ، من باب حذف المفصل على الجمل : أى : اذكروا نعمتى ، واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون .

وإذ : بمعنى وقت ، وهى مفعول به لفعل ملاحظ فى الكلام وهو اذكروا أى : اذكروا وقت أن نجيناكم ، والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث .

وآل الرجل : أهله وخاصته وأتباعه ، وبطلق غالباً على أولى الخطر والشأن من الناس ، فلا يقال آل الحجاج أو الإسكاف .

وفرعون : اسم لملك مصر كما يقال لملك الروم قيصر ، وملك اليمن تبع ويسومونكم : من سامه خسفاً إذا أذله واحتقره وكلفه مالا يطيق .

والابتلاء : الامتحان والاختبار ، ويكون فى الخير والشر ، قال - تعالى - (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) (١) .

والمعنى : اذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن نجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، ويبغونكم ما فيه إزدلال لكم واستئصال لأعقابكم ، وامتهان لكرامتكم ، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ، ويستبقون نفوس نساءكم ، وفى ذللكم العذاب ، وفى النجاة منه امتحان لىكم بالسراء لشكروا ، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بىكم إلى الإزدلال فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة .

قال الإمام الرازي - رحمه الله - ما ملخصه : واعلم أن الفائدة في ذكر هذه النعمة - أي نعمة إنجائهم من عدوهم - يتأتى من وجوه أهمها :
 ١ - أن هذه الأشياء التي ذكرها الله - تعالى - لما كانت من أعظم ما يمتحن به الناس من جهة الملوك والظلمة . صار تخليص الله - عز وجل - لهم من هذه المحن من أعظم النعم ، وذلك لأنهم عاينوا هلاك من حاول إهلاكهم ، وشاهدوا ذل من باغ في إذلالهم ، ولاشك في أن ذلك من أعظم النعم ، وعظم النعمة يوجب المبالغة في الطاعة والبعد عن المعصية ، لذا ذكر الله هذه النعمة العظيمة ليُلزمهم الحجة ، وليقطع عدوهم .

٢ - أنهم لما عرفوا أنهم كانوا في نهاية الذل . وكان عدوهم في نهاية العز ، إلا أنهم كانوا محققين ، وكان خصمهم مبطلاً ، لا جرم زال ذل المحققين ، وبطل عز المبطلين ، فكانه تعالى يقول لهم : لا تغتروا بكثرة أموالكم ولا بقوة مركزكم ، ولا تستهينوا بالمسلمين لقلة ذات يدهم ، فإن الحق إلى جانبهم . ومن كان الحق إلى جانبه ، فإن العاقبة لا بد أن تكون له (اهـ)
 وخطب بهذه النعمة اليهود الذين كانوا في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) ومع أن هذا الإجماع كان لأسلافهم ، لأن في نجات أسلافهم نجاتهم ، فإنه لو استمر عذاب فرعون للكباب لأفئام ، ولما بقى هؤلاء الأبناء ، فلذلك كانت منة التنجية تحمل في طياتها منتين ، منة على السلف لتخليصهم بما كانوا فيه من عذاب ومنة على الخلف لتعميم بالحياة بسببها ، فكان من الواجب عليهم جميعاً أن يقدرُوا هذه النعمة قدرها ، وأن يخلصوا العبادة لخالقهم الذي أنجاهم من عدوهم . ولأن الإنعام على أمة يعتبر إنعاماً شاملاً لأفرادها سواء منهم من أصابه ذلك الإنعام ومن لم يصبه . ولأن الآثار التي تترتب عليه كثيراً ما يرثها الخلف عن السلف ، ولأن في إخبارهم بذلك تصديقاً للنبي (عليه الصلاة والسلام) فيما يبلاغه عن ربه ، فقد أخبرهم بتاريخ من مضى منهم بصدق وأمانته ، وفي ذلك دليل على أنه صادق في نبوته ورسالاته .

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه الأمر بتعذيب بنى إسرائيل ، للتبنيه على أن حاشيته وبطائه كانت عوناً له في إذاقتهم سوء العذاب ، وإنزال الإذلال والاعنات بهم .

وجعلت الآية الكريمة استحياء النساء عقوبة لليهود - وهو في ظاهره خير - لأن هذا الإبقاء عليهم ، كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن واستعمالهن في الخدمة بالإسترقاق . فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل وعذاب اليم ، تأباه النفوس الكريمة ، والطباع الطيبة .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : (في ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه .

أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك يقتضى انقطاع النسل ، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن البيتة في ذلك ، وهذا يقتضى في نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعاً .

ثانيهما : أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء في أمر المعيشة ، فإن المرأة لتبتمنى الموت إذا انقطع عنها تهود الرجال . لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد . فصارت هذه الخطة عظيمة في المحن ، والنجاة في العظم منها تكون بحسبها .

ثالثها : أن قتل الولد عقب الحمل الطويل ، وتحمل التعب ، والرجاء القوي في الانتفاع به ، من أعظم العذاب ، فنعمة الله في تخليصهم من هذه المحنة كبيرة .

رابعها : أن بقاء النساء بدون الذكران من أقاربهم ، يؤدي إلى صيرورتهم مستغفرات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان (اهـ) (١) .

وقد رجح كثير من المفسرين أن المراد بالأبناء في قوله تعالى : (يذبحون أبناءكم) الأطفال دون البالغين ، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك ،

ولأن قتل جميع الرجال لا يفيدهم حيث أنهم كانوا يستعملونهم في الأعمال الشاقة والحقيرة ، ولأنه لو كان المقصود بالذبح الرجال ، لما قامت أم موسى بإيقاعه في اليم وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالأبناء الرجال لا الأطفال ، لأن لفظ الأبناء هنا جعل في مقابلة النساء ، والنساء هن البالغات .

والذي نرجحه هو القول الأول لما ذكرنا ، ولأنه آثم في إظهار نعمة الإنجاء ، حيث كان أهل فرعون يقتلون الصغار قطعاً للنسل ، ويسترون الأمهات استعداداً لهن ، ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدرج ، وبقاء الرجال على هذه الحالة أشد عليهم من الموت .

وقد جاءت جملة (يذبحون أبناءكم) في هذه الآية السكرية بدون عطف وجاءت في سورة إبراهيم معطوفة بالواو (١) . لأنها هنا بيان وتفسير لجملة (يسومونكم سوء العذاب) فيكون المراد من سوء العذاب هنا تضييع الأبناء واستحياء النساء .

وأما في سورة إبراهيم . فقد جاء سياق الآيات لتعداد المحن التي حلت ببني إسرائيل ، فكان المراد بجملة « يسومونكم سوء العذاب » نوعاً منه ، والمراد بجملة (يذبحون أبناءكم) نوعاً آخر من العذاب ، لذا وجب العطف ، لأن الجملة الثانية ليست مفسرة للأولى وإنما هي تمثل نوعاً آخر من المحن التي حلت بهم .

هذا ، وقد تكرر تكبير بنى إسرائيل بنعمة إنجائهم من عدوهم في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، وذلك لجلال شأنها ، ولحملهم على الطاعة والشكر .

١ - من ذلك قوله تعالى في سورة الأعراف : « ولإذ أنجيناكم من آل

(١) آية سورة إبراهيم هي قوله تعالى : (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) . الآية ٦

فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم
وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم .

٢ - وقوله تعالى في سورة طه : « يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم
وواعدناكم جانب الطور الايمن ووزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من
طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ، ومن يحلل عليه
غضبي فقد هوى * واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى . »
فهذه الآيات الكريمة وغيرها مما هي في معناها فيها تذكير لبني إسرائيل
بنعمة من أجل نعم الله عليهم ، حيث أنجاهم - سبحانه - من أراد لهم
السوء ، وعمل على قتلهم وإبادتهم واستئصال شأقتهم ، وفي ذلك ما يدعوهم
إلى الاجتهاد في شكر الله - عز وجل - لو كانوا ممن يحسنون شكر النعم .
ثالثاً : نعمة فرق البحر بهم .

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة ثالثة عظيمة حصل بها تمام الانجاء
وتجلى فيها لإكرام الله لهم ، وهي نعمة فرق البحر بهم فقال تعالى :

وَإِذْ فَرَقْنَا بُحْرَيْنِ

فَأَمْجَيْنَكُمُ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤١﴾

والمعنى : واذكروا يا بني إسرائيل من جملة نعمنا عليكم ، نعمة فرق
البحر بكم ، وانفصاله بعد انفصاله ، حين ضربه موسى بعصاه ، فأصبحت
فيه طريق متعددة فولجتموها ، وسرقم فيها هرباً من فرعون وجنده ، وبذلك
تمت لكم النجاة ، وحصل الفرق لأعدائكم ، وقت أن عبروا وراءكم .
وقد شاهدتموهم والبحر يلقيهم بأواجه ، مشاهدة لا لبس فيها ولا غوض .

(١) الآية ١٤١ .

(٢) الآيات ٦١ - ٨٣ .

ولقد كان فيما رأيتم ما يدعو إلى الاتعاظ، ويحمل على الشكر الجزيل لله العزيز الرحيم .

فآية الكريمة تشير إلى قصة نجاة بنى إسرائيل وغرق فرعون وقومه، وما لخصها: أن الله - عز وجل أوحى إلى نبيه - موسى - عليه السلام - أن يرحل ببنى إسرائيل ليلا من أرض مصر التي طال عذابهم فيها إلى أرض فلسطين، ونفذ موسى - عليه السلام - ما أمره به الله - تعالى - وعلم فرعون أن موسى وقومه قد خرجوا إلى أرض الشام، فتبعهم بجيش كبير، وأدركهم مع طلوع الشمس قرب ساحل البحر الأحمر، وأيقن بنو إسرائيل عندما رأوه أنه مهاكهم لا محالة. ولجأوا إلى موسى - عليه السلام - يشكون إليه خوفهم وفزعهم، ولمكنه رد عليهم بقوله: (إن معي ربي سيهدين) وأوحى الله إليه (أن اضرب بعصاك البحر) فضربه (فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) وأمر موسى - عليه السلام - بنى إسرائيل أن يعبروا فعبروا بين فرقى الماء دون أن يمسه أذى. واقف فرعون وجنوده أثرهم طعما في إدراكهم وعندما عبر بنو إسرائيل البحر ولم يبق منهم أحد بين المياه المنحسرة، كان فرعون وجنده ما زالوا بين فرقى البحر، فاطبق عليهم وعاد كما كان أولا، فغرقوا جميعا، وبنو إسرائيل ينظرون إليهم في دهشة وسرور .

وأستد - سبحانه - فرق البحر إلى ذاته الكريمة . ليدل على أن القوم عبروه وقطعوه وهم بعنايته، وقوله تعالى: (فأنجيناهم وأغرقنا آل فرعون) بيان للمنة العظمى التي امتن بها عليهم، والتي ترتبت على فرق البحر، لأن فرق البحر لهم ترتب عليه أمران . أولهما: نجاتهم : وثانيهما: إهلاك عدوهم وكلاهما نعمة عظيمة .

والإيمان الصحيح يقضى بأن تفهم واقعة انفصال البحر لموسى وقومه على أنها معجزة كونية له، وقد زعم البعض أنها كانت حادثة طبيعية منشؤها المد والجزر، وهو زعم لا سند له ولا دليل عليه .

واقصرت الآية هنا على ذكر إغراق آل فرعون أى جنده وأنصاره،

ووصرت آيات أخرى بفرقه مع آله ، من ذلك قوله تعالى : (فأغرقناه ومن معه جميعاً) (١) وقوله تعالى : (فأخذناه و جنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم) (٢) ومن تمام النعمة أن الله - تعالى - أهلك مع فرعون كل مناصره له :
 وقوله تعالى (وأنتم تنظرون) أى : أغرقنا آل فرعون وأنتم تشاهدونهم بأعينكم ، فكان ذلك أدعى لليقين بهلاك عدوكم ، وأبلغ في الشكامة به ، وأرجى لشكر النعمة - ولاشك أن مشاهدة المنعم عليه للنعمة فيها لذة كبرى ، ورؤيته هلاك عدوه فيها عبرة عظيمة ، وما ينته لا تفراق البحر فيها تقوية لإيمانه ، وتثبيت ليقينه ، إذا كانوا ممن يحسنون الانتفاع بما يشاهدون .
 قال الإمام الرازى ما ملخصه : (اعلم أن هذه الواقعة - أى واقعتنا في البحر - تضمنت نعماً كثيرة على بنى إسرائيل في الدين والدنيا ، أما نعم الدنيا فن وجوه :

أولها . أنهم لما اقتربوا من البحر أصبحوا في موقف حرج ، لأن فرعون وجنوده من وراءهم والبحر من أمامهم ، فإن هم توقفوا أدر بهم عدوهم وأهلكهم ، وإن هم تقدموا أغرقوا . فحصل لهم خوف عظيم ، جاءهم بعده الفرج بانفلاق البحر وهلاك عدوهم .
 ثانيها : أن الله - تعالى - خصهم بهذه النعمة العظيمة والمعجزة الباهرة تكريماً ورحمة لهم .

ثالثها : أنهم بإغراق فرعون وآله تخلصوا من العذاب ، وتم لهم الأمن والاطمئنان ، وذلك نعمة عظيمة ، لأنهم لو نجروا دون هلاك فرعون لبقى خوفهم على حاله ، فقد يعود لتعذيبهم مستقبلاً ، لأنهم لا يأمنون شره ، فلما تم الفرق تم الأمان والاطمئنان لبنى إسرائيل .
 أما نعم الدين فن وجوه :

(١) سورة الإسراء الآية ١٠٤ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٤١ .

أولها : أن قوم موسى لما شاهدوا تلك المعجزة الباهرة . زالت عن قلوبهم الشكوك والشبهات ، لأن دلالة مثل هذا المعجز على وجود الصانع الحكيم وعلى صدق موسى ، تقترب من العلم الضروري .
ثانيها : أنهم لما شاهدوا ذلك صار داعياً لهم على الثبات والالتقاد لأوامر نبيهم .

ثالثها : أنهم عرفوا أن الأمور كلها بيد الله ، فإنه لا عز في الدنيا أكمل مما كان لفرعون ، ولا ذل أشد مما كان لبني إسرائيل ، ثم إن الله - تعالى - في لحظة واحدة جعل العزيز ذليلاً ، والدليل عزيزاً ، والقوى ضعيفاً ، والضعيف قوياً ، وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا ، والإقبال كلية على اتباع أوامر الخالق - عز وجل - (١) .

هذا ، ونعمة فرق البحر لبني إسرائيل ، وإنجائهم من عدوهم قد تكرر ذكرها في القرآن ، من ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء : (فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلاً إن معي ربي سيهدين . فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . وأزلفنا ثم الآخرين . وأنجينا موسى ومن معه أجمعين . ثم أغرقنا الآخرين (٢)) وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت بني إسرائيل بنعمة من أجل النعم - وهي نعمة فرق البحر لهم - لكي يشكروا خالقهم عليها ، ويتبعوا نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) وليكن لهم ما قاموا بواجب الشكر لخالقهم ، فحققت عليهم اللعنة في الدنيا والعقوبة في الآخرة ، جزاء جودهم وطفيتانهم وما ربك بظلام العميد .

رابعاً : نعمة عفوه - سبحانه - عنهم بعد عبادتهم للعجل :

(١) تفسير الرازي بتصرف ج ١ ص ٣٦٠ .

(٢) الآيات من ٦٣ - ٦٧ .

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة رابعة وهي عفوهم عنهم رغم جحودهم وكفرهم وعبادتهم لغيره ، فقال تعالى :

وَإِذْ وَعَدْنَا

مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

المواعدة : مفاعلة من الجانبين ، وهي هنا على غير بابها ، لأن المراد بها هنا أمر الله - تعالى - لموسى أن ينقطع لمناجاته أربعين ليلة تمهيداً لإعطائه التوراة ، ويؤيد ذلك قراءة أبي عمرو وأبي جعفر (وعدنا) . وقيل : المفاعلة على بابها ، على معنى أن الله - تعالى - وعد نبيه موسى - عليه السلام - أن يعطيه التوراة وأمره بالحضور للمناجاة ، فوعد موسى ربه بالطاعة والامتثال فكان الوعد حاصلًا من الطرفين .

وملخص هذه القصة أن قوم موسى بعد أن نجاهم الله ، وأغرق عدوهم أمام أعينهم ، طلبوا من نبيهم موسى أن يأتيهم بكتاب من عند الله ليعملوا بأحكامه ، فوعد - سبحانه - أن يعطيه التوراة بعد أربعين ليلة ينقطع فيها لمناجاته ، وبعد انقضاء تلك الفترة وذهاب موسى لتلقى التوراة من ربه اتخذ بنو إسرائيل عجلاً جسداً له خوار فعبدوه من دون الله ، وأعلم الله موسى بما كان من قومه بعد فراقه ، فرجع لإيهم غاضباً حزيناً ، وأعلمهم بأن توبتهم لن تكون مقبولة إلا بقتل أنفسهم ، فلما فعلوا ذلك عفا الله تعالى عنهم لكي يشكروه ، ويلتزموا الصراط المستقيم .

ومعنى الآيتين الكريمتين : واذكروا يا بني لإسرائيل وقت أن وعدنا موسى أن نؤتيه التوراة بعد انقضاء أربعين ليلة من هذا الوعد ، فلما حل الوعد وجاء موسى لميقاتنا عبدتم العجل في غيبته ، ولا شك أنكم ظلمتم

أنفسكم بعبادة غير الله ، ويوضعكم الأمور في غير مواضعها ، ومع هذا فلم
نعاجلناكم بالعقوبة ، بل قبلنا توبةكم ، وعفونا عنكم ، لتتوبوا من
الشاكرين لله تعالى .

وهذا النداء كبير يحمل في طياته التعجب من حالهم ، لأنهم قابلوا نعم الله
بأقبح أنواع الكفر والجهالة ، حيث عبدوا في غيبة نبيهم ما هو مثال في
العبادة والبلادة . وهو العجل .

وفي اختيار حرف العطف (ثم) المفيد للتراخي الرتبى في جملة (ثم)
اتخذتم العجل من بعده) إشعار بأنهم انحدروا إلى دركات سحيقة من
الجحود والجهل ، وأن ما ارتكبه هو من عظام الأمور في الفجح والمعصية
وحذف المفعول الثاني لاتخاذهم وهو إلهاً أو معبوداً لشناعة ذكره ولعلمهم
بأنهم اتخذوه إلهاً .

وقوله تعالى : (من بعده) معناه : من بعد مضيه لميقات ربه إلى الطور
وغيابه عنهم . وفي ذلك زيادة تشنيع عليهم ، حيث وصفهم - سبحانه -
بعدم الوفاء ، لأنهم كان من الواجب عليهم - لو كانوا يعقلون - أن يستمروا
على توحيد الله في غيبة نبيهم لاسيما وقد رأوا من المعجزات والنعم ،
ما يطمئن النفوس ، ويقوى الإيمان ويغرس في القلوب الطاعة لله تعالى .
وجملة (وأنتم ظالمون) حالية مقيدة لاتخاذهم ، ليكون اتخاذهم العجل
معبوداً ، مقروناً بالتعدى والظلم من بدته إلى نهايته ، وللإشعار بانقطاع
هدم فيها فعلوا .

وقوله تعالى (ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلمكم تشكرون) معناه
ثم تركنا معاجلتكم بالعقوبة ، وعفونا ذنوبكم ، لتوبتكم من بعد اتخاذكم
العجل معبوداً من دون الله ، رجاء أن تشكروا خالقكم على عفو عنكم
وتستعملوا نعمه فيما خلقت له وتبعوا رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

وقد تضمنت هاتان الآيتان الكريمتان ، ما يدل على غياة بقى إسرائيل
وقصر نظرهم ، لأنهم اتخذوا العجل إلهاً بعد أن شاهدوا البراهين على صدق

فيهم ، كما تضمننا تسليمة للرسول (صلى الله عليه وسلم) عما كان يشاهده من اليهود المعاصرين للدعوة الإسلامية ، فكأنه سبحانه يقول : إن ما قام به بنو إسرائيل المعاصرون لك من أذى وحق قد فعل ما يشبهه آباؤهم الأقدمون مع نبيهم موسى - عليه السلام - فلقد اتخذوا في غيبته عجلاً جسداً له خوار دون أن يفطنوا إلى أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ، اتخذوه وكانوا ظالمين خامساً : نعمة إتياء موسى التوراة هدايتهم .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة خامسة فيها صلاح أمورهم ، وانتظام شئونهم ألا وهي إعطاء نبيهم موسى - عليه السلام - التوراة ، فقال تعالى :

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

ومعنى الآية الكريمة : اذكروا يا بني إسرائيل نعمة إعطاء نبيكم موسى - عليه السلام - التوراة ، وفيها الشرائع والأحكام ، لكي تهتدوا بها إلى طريق القلاح والرشاد في الدنيا ، وإلى الفوز بالسعادة في الآخرة .

فالمراد بالكتاب التوراة التي أوتىها موسى - عليه السلام - فاللههد - والفرقان - بضم الفاء - مأخوذ من الفرق وهو الفصل ، استعير لتمييز الحق من الباطل ؛ وقد يطلق لفظ الفرقان على الكتاب السواى المنزل من عند الله كما في قوله تعالى (تبارك الذى نزل الفرقان على عبده) (١) كما يطلق على المعجزة كما في قوله تعالى (واقم آتينا موسى وهارون الفرقان) (٢) أى المعجزات لأن هارون لم يؤت وحياً .

والمراد بالفرقان هنا التوراة نفسها ويكون المراد بالعطف التفسير . قال ابن جرير ما ملخصه : (وأولى الأقوال بتأويل الآية ما روى عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد ، من أن الفرقان الذى ذكر الله تعالى أنه آتاه موسى فى هذا الموضع ، هو الكتاب الذى فرق به بين الحق والباطل وهو نعت للتوراة وصفة لها ، فيكون تأويل الآية حينئذ .

وإذ آتينا موسى التوراة التي كتبناها له في الألواح ، وفرقنا بها بين الحق والباطل . فيكون الكتاب نعتاً للتوراة ، أقيم مقامها استغناء به عن ذكر التوراة ثم عطف عليه بالفرقان ، إذ كان من نعمنا (١) .
وقوله تعالى (لعلمكم تهتدون) بيان لثمرة المنة والنعمة بإيتاء التوراة ؛ لأن إتيان موسى الكتاب والفرقان ، المقصود منه هدايتهم ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

ولكن ماذا كان موقف بني إسرائيل من التوراة التي أنزلها الله لهدايتهم وسعادتهم ؟ كان مرفقهم منها - كما هي عادتهم - مرفق الجاحد لنعم الله فقد امتدت أيديهم الأنيمة إليها فحرفوها كما شامت لهم أهواؤهم وشهواتهم ولقد وبخهم القرآن الكريم على ذلك ، وشبههم في تركهم العمل بها وعدم انتفاعهم بما فيها ، بالحجار الذي يحمل كتب العلم ولكنه لا يدري ما فيها . فقال تعالى في سورة الجمعة : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بش مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله . والله لا يهدي القوم الظالمين » (٢) .

حملوا التوراة : أى علموها وكلفوا العمل بها ، ثم لم يحملوها : أى : لم يعملوا بها ولم يقتنعوا بما اشتملت عليه . والأسفار : جمع سفر وهو الكتاب الكبير ، لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ .

ومعنى الآية الكريمة : مثل هؤلاء اليهود الذين علموا التوراة وكلفوا العمل بأحكامها ولكنهم لم يعملوا بها ، مثلهم كمثل الحمار يحمل الكتب ولكنه لا يدري ما فيها ، ولا يناله من حملها إلا التعب ، بش مثلاً مثل هؤلاء اليهود الذين كذبوا بآيات الله التي تشهد بصدق النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وتدكر صفاته التي لا تتطابق إلا عليه ، وقد جرحه سنة الله - تعالى - في خلقه ألا يهدى إلى طريق الحق أمثال هؤلاء القوم الظالمين ، لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، وباعوا دينهم بدنياهم .

قال صاحب الكشاف : (شبه الله - تعالى - اليهود في أنهم حملة التوراة وقرأوها ، وحفاظ ما فيها ثم لأنهم غير عاملين بها ، ولا متفهمين بآياتها وذلك أن فيها نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم) والبشارة به ، ولم يؤمنوا به شبههم - بالبحار يحمل أسفاراً ، أى : كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشى بها ولا يدري منها إلا ما يمر بجنبه وظهره من السكك والتعب ، وكل من علم ولم يعتل ، فهذا بمثله وبش المثل ، (١) .

وقال الإمام ابن القيم : (شبه الله - تعالى - من حملة كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ، ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقرأه به بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ، ولا تحكيم لنصومه - شبههم - بحمار على ظهره زاملة أسفار لا يدري ما فيها ، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا ، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره ، فهذا المثل ، وإن كان قد ضرب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى ، لمن حمل القرآن فترك العمل به ولم يؤد حقه ، ولم يرعه حق رعايته) (٢) .

ومن هذا نرى أن اليهود قد أنعم الله عليهم بالتوراة ، وجعلها نوراً وهدى لهم ، ولكنهم تركوها ، ولم يعملوا بما فيها ، واستحبوا العمى على الهدى ، فباءوا بغضب على غضب وللشكافرين عذاب مهين) .

سادساً : (نعمه إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم) :

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة جليلة ، وهي إرشادهم إلى ما به يتخلصون من ذنوبهم ، وإخبارهم بقبول توبتهم ، فقال تعالى :

(١) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٧٥

(٢) أعلام الموقعين لابن القيم (نقلا عن تفسير القاسمي) ج ١ ص ٨٥٠

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ

يَتَقَوْمَ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ
عَمَّا قَتَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَثَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ

الَّتَوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

والمعنى : واذكروا يا بني إسرائيل - لتتفعلوا وتعتبروا - وقت أن قال
موسى لقومه الذين عبدوا العجل حين كان يناجى ربه بعيداً عنهم : يا قوم
إنكم ظلمتم أنفسكم وهبطتم بها إلى الخضيض بعبادتكم غير الله - تعالى -
فاذا أردتم التفكير عن خطاياكم . فتوبوا إلى ربكم توبة صادقة نصوحاً ،
واقتلوا أنفسكم لتناولوا عفو ربكم ، فذلكم خير لكم عند خالقكم من الإقامة
على المعصية ، ففعلتم ذلك فقبل الله توبتكم ؛ لأنه هو الذى يقبل التوبة
عن عباده على كثرة ما يصدر عنهم من ذنوب ؛ لأنه هو الواسع الرحمة لمن
يذهب إليه ويستقيم على صراطه الواضح .

وفى نداء موسى - عليه السلام - لهم بقوله : يا قوم، تلتطف فى الخطاب
ليجذب قلوبهم إلى سماعه ، وليحملهم على تلقى أوامره بحسن الطاعة ،
وليشعرهم بأنهم قومه فهو منهم وهم منه ، والشأن فيمن كان كذلك ألا
يكذب عليهم أو يخدعهم . وإنما يريد لهم الخير .

والبارى هو الخالق للدخولات بدون تفاوت أو اضطراب ، فهو
أخص من الخالق ، ولذا قال تعالى : هو الخالق البارى المصور .

وفى هذا التعبير الحكيم ، تحريض لهم على التوبة والاستجابة للبارى -
الذى أحسن كل شئ خلقه ، وفيه أيضاً تقرير لهم على غياوتهم ، حيث
تركوا عبادة بديع السموات والأرض ، وعبدوا عجلاً ضرب به المثل فى
الغياوة فقالوا : أبلد من نور ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : لقد

اتخذتم هذا العجل إلهاً لتشابهكم معه في البلادة وضيق الأفق .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : من أين اختصر هذا الموضوع بذكر للبارى ؟ قلت : البارى هو الذى خلق الخلق بريئاً من التفاوت ، « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، و متميزاً بفضله عن بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة ، فكان فيه تفرقة بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذى برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة ، أرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر التى هى مثل فى الغباوة والبلادة ، حتى عرضوا أنفسهم استخط الله ونزول أمره بأن يفك ماركبه من خلقهم ، ونشر ما نظم من صورهم وأشكالهم ، حين لم يشكروا النعمة فى ذلك ، وغمطوها بعبادة ما لا يقدر على شيء منها ، هـ (١) .

وقوله تعالى : « فاقتلوا أنفسكم ، أمر من موسى ، عليه السلام — لهم بقتلهم أنفسهم حتى تكون توبتهم مقبولة ، وهذا الأمر بلغه موسى لإياهم عن ربه ، إذ مثل هذا الأمر لا يصدر إلا عن وحى لأنه تشريع من الله — تعالى — .

والمراد بقتلهم أنفسهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم عابديه ، فيكون المعنى : ليقتل بعضكم بعضاً ، كما فى قوله تعالى : « فإذا دخلتم بيوتاً فسلطوا على أنفسهم تحية من عند الله مباركة طيبة ، أى فليسلم بعضكم على بعض وقيل : المراد أن يقتل كل من عبد العجل نفسه قتلاً حقيقياً حتى يكفر عن رده بعبادته لغير الله ، وقد ورد أنهم فعلوا ذلك ، وأن الله — تعالى — رفع عنهم القتل وعفا عن بقى منهم على قيد الحياة كرامته وفضلا ، وهذا هو معنى التوبة فى قوله تعالى « فتاب عليكم ، ومعنى العفو فى قوله تعالى : فى الآية السابقة « ثم عفوفا عنكم من بعد ذلك لعلمكم تشكروا ، .

وقد ساق ابن كثير وغيره من المفسرين كثيراً من الآثار التى تحدثت عن كيفية حصول هذا القتل ، من ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ،

أنه قال : « قال تعالى لموسى : إن توبة عبدة العجل أن يقتل كل واحد منهم من اقنى من والده روله فيقتله بالسيغ ولايبالى من قتل في ذلك الموطن قتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ، ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها ! وفعلوا ما أمروا به ، فغفر الله للقاتل والمقتول (١) .

وأخرج ابن جرير عن ابن شهاب الزهري أنه قال : « لما أمر بنو إسرائيل بقتل أنفسهم برزوا معهم موسى ، فقتلوا بوابا لسيوف ، وتطاعوا بالقتل بجر وموسى رافع يديه ، حتى إذا قتلوا أتاه بعضهم ، فقال له : يا نبي الله ادع الله لنا ، وأخذوا بعضديه يشدون يديه . فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيدي بعضهم عن بعض ، فألقوا السلاح ، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم ، فأوحى الله - جل ثناؤه إلى موسى « لا تحزن ، أما من قتل فحى عندى برزق ، وأما من بقى ، فقد قبلت توبته ، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل ، (٢) .

وجملة « ذلكم خير لكم عند بارئكم ، تعليلية ، جىء بها لتحريضهم على الامتثال والطاعة لما أمرهم به نبيهم - عليه السلام - وانتم الإشارة « ذلكم ، يعود إلى التوبة والقتل المفهومين مما تقدم .

وقال « عند بارئكم ، ولم يقتل عنده ، لأن في هذا التكرير حملا للمخاطبين على التفكير والتفكير والطاعة ، وإشعاراً لهم بأن عبادة من برأهم وذراهم وخلقهم في أحسن تقويم ، خير لهم في دنياهم وأخراهم .

وجملة « قتاب عليكم ، جواب لشرط محذوف للإيجاز ، أى فامتثلتم ما أمرتم به ، فقيل للبارئ توبتكم ، وهى خطاب من الله - تعالى - لبنى إسرائيل على لسان موسى ، فيه تذكير بنعمته ، وإرشاد لهم إلى موطن المنة والفضل وهو قبول توبتهم .

وعطفت هذه الجملة « قتاب عليكم ، بالفاء ، لإشعارهم بأنه - سبحانه -

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٧

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٨٦ طبعة الحلبي

لم يتركهم ليستأصلوا أنفسهم جميعاً بالقتل ، بل تداركهم بإطفاء ورحمته ،
فقبل توبتهم ، ورفع عقوبة للقتل عن بقى منهم .

وقوله تعالى : إنه هو التواب الرحيم ، إخبار وثناء على الله - تعالى -
بما هو أهله من عفو ورحمة . وأكدها - سبحانه - لتزليهم منزلة من
يشك في قبول توبته ، اعظم جريمتهم وضخامة خطيئتهم وسبهم إلى أمد
بعيد في طريق الشيطان .

وهذه الآية الكريمة قد تضمنت نعمة كبرى على بنى إسرائيل فإن الله
- تعالى - اطفأ بهم ، ورحمهم ، وقبل توبتهم ، وعفا عن قتلهم أنفسهم ،
بعد أن صدر منهم ما يدل على صدقهم في توبتهم ، كما تضمنت - أيضاً -
تذكير بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوي بنعم الله عليهم : لأنه لولا عفو
- سبحانه - عن آباؤهم لما وجدوا هم ، وفيها - كذلك - إشارة إلى سماحة
الشريعة التي أتى بها محمد (صلى الله عليه وسلم) وإغراء لليهود المعاصرين
له بالدخول في الإسلام لأنه إذا كان آباؤهم لم تقبل توبتهم إلا بقتلهم أنفسهم
فإن شريعة الإسلام تقول لهم : لقد جاءكم النبي الذي رفع عنكم إصركم
والأغلال التي كانت على أسلافكم ، فآمنوا به واتبعوه لعلكم ترحمون .
سابعاً : نعمة بعثهم من بعد موتهم :

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة جليلة ، أسبقها الله عليهم إرغام
مطالبهم المعتتة ، وهذه النعمة تتجلى في بعثهم من بعد موتهم ، فقال تعالى :

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى

اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكَ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ

مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

جهرة : في الأصل مصدر من قولك جهرت بالقراءة والخطاب واستجرت

للمعاينة لما بينها من الاتحاد في الوضوح والاكتشاف ، إلا أن الأول في المسموعات والثاني في المبهرات .

والصاعقة :- كما قال ابن جرير - (كل أمر هائل رآه الرائي أو عاينه أو أصابه ، حتى يصير من هوله وعظيم شأنه إلى هلاك وعطب وذهاب عقل . صوتاً كان ذلك أو ناراً أو زلزلة أو رجفة ، وبما يدل على أن الشخص قد يكون مصعوقاً وهو حي غير ميت ، قوله - تعالى - : « وخر موسى صعقاً » . يعني مغشياً عليه ، فقد علم أن موسى لم يكن حين غشى عليه وصعق ميتاً ، لأن الله أخبر عنه أنه لما أفاق قال : (سبحانك تبت لإياك . . .) (١) .
وأصل البعث في اللغة : إثارة الشيء من محله ، وتحريكه بعد سكون ومنه : بعث فلان الناقة : إذا أثارها من مهر كها للسير ، ويستعمل بمعنى الإيقاظ ، كما ورد في قصة أهل الكهف (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً . ثم بعثناهم . . .) أي : أيقظناهم .
ويستعمل - أيضاً - بمعنى الإحياء . وهو المراد في الآية التي معنا ، بدليل قوله تعالى : « من بعد موتكم » .

ومعنى الآيتين الكريمتين : واذكروا يا بني إسرائيل وقت أن تجاوزتم حدودكم ، وتعنتم في الطلب ، فقلتم لنبيكم موسى بجفاء وغلظة : لن نقوم لك ، ولن نقر بما جئتنا به ، حتى نرى الله عياناً وعلانية ، فيأمرنا بالإيمان بك ، وبما جئت به ، فأخذتكم العقوبة التي صعقتكم - بسبب جهلكم وتظاولكم - وأتمت تشاهدونها بعيونكم ، ثم مننا عليكم بلطفنا ورحمتنا فأحييناكم من بعد أن أخذتكم الصاعقة ، لكي تشكروا الله على نعمه التي من جملتها إعادتكم إلى الحياة من بعد موتكم .

قال الإمام ابن جرير : ذكرهم الله - تعالى - بذلك اختلاف آباؤهم . وسوء استفامة أسلافهم مع أنبيائهم ، مع كثرة معاينتهم من آيات الله وعبره .

(١) ابن جرير ج ١ ص ٢٩٠ طبعة الحلبي .

حاً تثلج بأقلها الصدور ، وتطمئن بالتصديق معها النفوس ، وذلك مع تنابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله لديهم ، وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم الهأغبر الله ، ومرة يعبدون العجل من دون الله ، ومرة يقولون : (إن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة) . وأخرى يقولون له إذا دعوا إلى القتال : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون) ومرة يقال لهم : قولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطاياكم) فيقولون حنطة في شعيرة ، ويدخلون الباب من قبل أستاذهم ، مع غير ذلك من أفعالهم الفجيحة التي يكثر إحصاؤها ، فأعلم الله - تعالى - الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بنى إسرائيل الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمداً (صلى الله عليه وسلم) ووجودهم نبوته كأبائهم وأسلافهم ، الذين فصل عليهم قصصهم في ارتدادهم عن دينهم مرة بعد أخرى ، وتوتيتهم على نبيه موسى - عليهم السلام - تارة بعد أخرى مع ابتلاء الله لهم ، وسبوغ آلائه عليهم) (١) .

والقاتلون لموسى - عليه السلام - : (إن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة) يرى جمهور المفسرين أنهم هم السبعون الذين اختارهم موسى للذهاب معه إلى ميقات ربه ، وقد وردت آثار تؤيد هذا الرأي .

من ذلك ما أخرجه ابن جرير عن الربيع بن أنس في قوله تعالى :
 (فأخذتكم الصاعقة) أنه قال : هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه . وقالوا : اطلب لنا ربك لنسمع كلامه . قال : سمعوا كلاماً ، فقالوا : (إن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قال : فسمعوا صوتاً فصعقوا . يقول : ماتوا ، فذلك قوله : ثم بعثناكم من بعد موتكم) فبعثوا من بعد موتهم ، لأن موتهم ذلك عقوبة لهم ، فبعثوا لبقية آجالهم) .

وقال ابن كثير : « الذين قالوا لموسى : (أرنا الله جهرة) المراد بهم

السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه .

وقيل: إن الذين طلبوا من موسى رؤية الله جهره هم عامة بنى إسرائيل بدون تحديد لهؤلاء السبعين ، فقد روى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه قال في تفسير هذه الآية . « قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة ، فرجدهم يعبدون العجل . فأمرهم بقتل أنفسهم ، ففعلوا ، فتاب الله عليهم ، فقال لهم موسى : « إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذي أمركم به ، ونهيكم الذي نهاكم عنه . فقالوا : « ومن يأخذ بقواك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهره ، حتى يطاع الله علينا فيقول : هذا كتابي فخذوه ، فالله لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى ؟ ! « وقرأ قول الله تعالى : « إن تؤمن لك حتى ترى الله جهره ، قال : فجات غضبة من الله - تعالى - ، فجاءتهم صاعقة ببدلتوبة . فصعدتهم فأتوا جميعاً . قال : ثم أحيأهم الله من بعد موتهم ، وقرأ قوله تعالى : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون . » فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله ، فقالوا لا ، فقال : « أي شيء أصابكم ؟ فقالوا : « أصابنا أننا متنا ثم أحيينا . قال : خذوا كتاب الله ، قالوا لا ، فبعث الله ملائكة ففتقت الجبل فوقهم (١) .

قال الإمام ابن كثير : « وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا ثم قال : وقد حكى الماوردي في ذلك قولين : أحدهما : أنهم - فقط التكليف لمعاينتهم الأمر جهره حتى صاروا مضطرين إلى التصديق ، والثاني : أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف (٢) .

وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم للأمر النظمية لا تمنع تكليفهم ، لأن بنى إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظيماً من خوارق العادات

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ص ٩٤ .

وهم مع ذلك مكلفون ؛ وهذا واضح ، وافته أعلم (١) .

وقال ابن جرير : «ولا خبر عندنا بصحة شيء مما قاله من ذكرنا قوله في سبب قيل لهم ذلك لموسى ، تقوم به حجة ، فنسلم لهم ، وجائز أن يكون ذلك بعض ما قالوه ، فإذا كان لا خبر بذلك تقوم به حجة فالصواب من القول فيه أن يقال : إن الله - جل ثناؤه - قد أخبر عن قوم مرسى أنهم قالوا له (يا موسى إن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة) كما أخبر عنهم أنهم قالوه...» (٢) وفي نداءهم لتبنيهم باسمه يا موسى ، سوء أدب منهم معه ، لأنه كان من الواجب عليهم ، أن يقولوا له : يا رسول الله أو يا نبي الله ، من الصفات التي تشهر بصفات التعظيم والتوقير ، وقد تكررت مناداتهم باسمه مجرداً في كثير من المواطن .

ومن أدب الصحابة مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) أنهم كانوا يقولون له : يا رسول الله ، استجابة لأمر الله - تعالى - في قوله : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) .

وقولهم : (إن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة) دليل على تمردهم وعصيانهم ، وقلة اكترائهم بما أوتوا من نعم ، وما شاهدوا معجزات ، إذ أنهم طلبوا منه أن يروا الله عياناً ، فإن لم يروه داخلهم الشك في صدق نبيهم . وعبر عنهم القرآن الكريم بأنهم يريدون الرؤية (جهرة) لإزالة احتمال أنهم يكتفون بالرؤية المنامية ، أو العلم القلبي ، فهم لا يعتقدون إلا بالرؤية الحسية ، لتعاطف قلوبهم ، وجفاء طباعهم .

وقوله تعالى : (فأخذهنكم الساعة) إشارة إلى أن العقوبة قد فاجأتهم بعد وقت قصير من مطالبهم المتعنتة ، لأن ألفاء تفيد التعقيب .

(١) تفسير ابن كثير ص ٩٤ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٩٣ طبعة الحلبي .

وجملة (وأتم تنظرون) تفيد أن العقوبة نزلت عليهم وهم يشاهدونها
وفي مشاهدتها رعب وخوف أخذ مجامع قلوبهم ، قبل أن يأخذ العذاب
أجسادهم ، وإن إصابتهم بهذه العقوبة كان في حالة إساءتهم وتمردهم
وطمعهم في أن ينالوا ما ليس من حقهم .

والآية الكريمة تفيد أن بنى إسرائيل طلبوا من نبيهم رؤية الله جهرة
في الدنيا ، وأنهم علقوا إيمانهم عليها ، ولم يهبوا للآيات الدالة على صدق
موسى - عليه السلام - فكان ذلك محض تعنت وعناد منهم ، فأخفتهم
الصاعقة عقوبة لهم على ذلك ، وليس على مجرد سؤالهم رؤية الله - تعالى -
ومن هنا يتبين أن الآية لا تدل على استحالة الرؤية كما يقول المعتزلة .

وجملة (ثم بعثناكم من بعد موتكم) هي محل النعمة والمنة ، وهي
معطوفة على قوله تعالى (فأخذناكم الصاعقة) ودل العطف ثم على أن بين
أخذ الصاعقة والبعث زماناً تتصور فيه المهلة والتأخير .
والمراد بعثهم : إحيائهم من بعد موتهم ، وهو معجزة لموسى - عليه
السلام - استجابة لدعائه .

وقد اشتملت الآيتان السكريمتان على تحذير اليهود المعاصرين للعهد
النبيوى ، من محاربة الدعوة الإسلامية ، حتى لا يصابوا بما أصيب به أسلافهم
من الصواعق وغيرها ؛ وفيها أيضاً تسلية للنبي (صلى الله عليه وسلم) عما
لاقاه من اليهود ، لأن ما فعلوه معه قد فعل ما يشبهه آباؤهم مع أنبيائهم ، وفيها
كذلك لون جديد من نعم الله عليهم ما أجدرهم بشكرها لو كانوا يعقلونه
ثامناً . نعمة تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم :

ثم عطف - سبحانه - على نعمة بعثهم من بعد موتهم نعمة أخرى بل
ثمنتين ، وهما يظليلهم بالغمام ومنحهم المن والسلوى ، فقال تعالى :

وَوَضَعْنَا عَلَىٰ كُفْرِكُمُ الْعِغَامَ ۖ وَاتْرَلْنَا
عَلَيْكُمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا
وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

الغمام : جمع غمامة ، وهي السحابة ، وخصه بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض .

والمن : اسم جنس لا واحد من لفظه ، وهو - على أرجح الأقوال - مادة صمغية تسقط على الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل .

والسلوى : اسم جنس جمعى ، واحده سلواة ، وهو طائر برى لذيذ اللحم ، سهل للصيد ، يسمى بالسماوى ، كانت تسوقه لهم ربح الجنوب كل مساء ، فيمسكونه قبضاً بدون تعب .

وتظليلهم بالغمام وإزال المن والسلوى عليهم ، كان في مدة نبيهم بين مصر والشام المشار إليه بقوله - تعالى - (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض) .

قال السدى : (لما دخل بنو إسرائيل النية ، قالوا لموسى - عليه السلام - كيف لنا بماها هنا ، أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجرة الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السمان أكبر منه فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمياً ذبحه وإلا أرسله ، فإذا سمع أناه فقالوا هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر الله - تعالى - موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، فشرب كل سبط من عين ، فقالوا : هذا الشراب فأين الظل ؟ فظل الله عليهم الغمام . فقالوا : هذا الظل فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم ثوب ، فذلك قوله تعالى : د وظللنا عليكم الغمام وأزلنا عليكم المن

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بني إسرائيل من بين نعمى عليكم نعمه
إظلالكم بالغيام وأنتم فى اللية ليقبكم حر الشمس ، وحرارة الجو ، ولولا
منهى إياكم الطعام اللذيذ المشتهى بدون تعب منكم فى تحصيله لهلكتم ، وقلنا لكم
كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الذى رزقكم هذه النعم ، ولكنكم كفرتم
بها ، فظلمتم أنفسكم دون أن ينالنا من ذلك شئ . لأن الخلق جميعاً إن
يظلموا ضرى فيضروا وإن يبالغوا نفى فينفعوا .

فآية الكريمة قد أشارت إلى وجودهم النعمة بقوله تعالى وما ظلمونا
ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وقوله تعالى وما ظلمونا ، معطوف على محذوف ، أى فعصوا ولم
يقابلوا النعم بالشكر . ويرى البعض أنه لاجحة إلى التقدير ، وأن جملة
«وما ظلمونا» معطوفة على ما قبلها لأنها مثلها فى أحوال بني إسرائيل .
والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة كانوا ، والفعل المضارع «يظلمون»
يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم ، لأنك لا تقول فى ذم إنسان
كان يسيء إلى الناس إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه المرة تلو الأخرى .
قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - فى تفسير قوله تعالى وما ظلمونا
ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ما ملخصه : وهذا من الذى استغنى بدلالة
ظاهره على ما ترك منه ، وذلك أن معنى الكلام : كلوا من طيبات ما رزقناكم
فخالفوا ما أمرناهم به ، وعصوا ربهم ، ثم رسولنا إليهم ، وما ظلمونا فاكفى
بما ظهر عما ترك ، وقوله «وما ظلمونا» أى : ما ظلمونا بفعلهم ذلك
ومعصيتهم ، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضره علينا
ومنقصة لنا ، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضره علينا ومنقصة لها
فإن الله - تعالى - لا تضره معصية عاص ، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم ، ولا
تنفعه طاعة مطيع ، ولا يزيد فى ملكه عدل عادل ، بل نفسه يظلم الظالم
وحظها يخس العاصى ، وإياها ينفع المطيع ، وحظها يصيب العادل (١) .

وبذلك تكون الآيات السكرية قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة من أعظم النعم وهم تظليلهم بالعمام وإزالة المن والسلوى عليهم ، ولكن بنى إسرائيل لم يشكروا الله على نعمه ، ولذا أرسل الله عليهم رجلاً من السماء بسبب ظلمهم وفسقهم .

تاسماً : نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس ونكولهم عن ذلك . ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بمنة عظيمة مكثروا بها فما أحسنوا قبولها ومارعوها حق رعايتها - وهي تخليصهم من عذاب التيه ، والإذن لهم في دخول بلدة يحدون فيها الراحة والهناء ، وإرشادهم إلى القول الذي يخلصهم مما استوجبوه من عقوبات ولكنهم خالفوه فقال تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ

فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ

نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ^{٥٨} وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا

قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ

بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

القريه : هي البلدة المشتملة على مساكن ، والمراد بها بيت المقدس على الراجح .

والرغد : الواسع من العيش الهنيء . الذي لا يتعب صاحبه ، يقال : أرغد فلان : أصاب وأسعاً من العيش الهنيء .

الحطه : من حط بمعنى وضع ، وهي مصدر مراد به طلب حط الذنوب قال صاحب الكشاف : (حطة) فعله من الحط كالجلسة . وهي خبر

مبتدأ محذوف ، أى مسألتنا حطة ، والأصل فيها النصب بمعنى : حط عنا ذنوبنا حطة ، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبات . (١) .

والمعنى : اذكروا يا بنى إسرائيل - لتتعظوا وتعتبروا - وقت أن أمرنا أسلافكم بدخول بيت المقدس بعد خروجهم من التيه ، وأبحنا لهم أن يأكلوا من خيراتها أكلاً هنيئاً ذا سعة وقلنا لهم : ادخلوا من بابها راكعين شكراً لله على ما أنعم به عليكم من نعمة فتح الأرض المقدسة متوسلين إليه - سبحانه - بأن يحط عنكم ذنوبكم ، فإن فعاتم ذلك العمل اليسير وقلتم هذا القول القليل غفرنا لكم ذنوبكم وكفرنا عنكم سيئاتكم ، وزدنا المحسن منهم خيراً جزاءً لإحسانه ، ولكنهم جحدوا نعم الله وخالفوا أوامره ، فبدلوا بالقول الذى أمرهم الله به قولاً آخر أتوا به من عند أنفسهم على وجه العناد والاستهزاء ، فأزلنا على الذين ظلموا رجماً من السماء بما كانوا يفسقون . قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : (وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون - عليه السلام - وفتحها الله عليهم عشية جمعة ، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب (باب البلد) سجداً أى شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وانقاذهم من التيه والضلال) (٢) وقوله تعالى : د فكلوا منها حيث شئتم رغداً ، فيه إشعار بكل النعمة عليهم واتساعها وكثرتها . حيث أذن لهم فى التمتع بشمرات القرية وأطعمتها من أى مكان شاموا .

وقوله تعالى : د وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ، إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم نحو خالقهم من الشكر والخضوع ، وتوجيههم إلى ما يعينهم على بلوغ غاياتهم . بأيسر الطرق وأسهل السبل ، فكل ما كلفوا به أن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله لهم خاضعين مخبتين وأن يضرعوا إليه بأن يحط عنهم آثامهم ، ويمحو سيئاتهم .

وقوله تعالى : (نغفر لكم خطاياكم) بيان للثمرة التي تترتب على طاعتهم
وخصومتهم للخالقهم ، وإغراء لهم على الامتثال والشكر ، - لو كانوا يعقلون -
لأن غاية ما يتمناه العقلاء غفران الذنوب .

قال الإمام ابن جرير : يعنى بقوله تعالى : (نغفر لكم خطاياكم) تنفهم
لكم بالرحمة خطاياكم ، ونسترها عليكم ، فلا نفضحكم بالعقوبة عليها .
وأصل الغفر : التغطية والسقم ، فكل سائر شيئاً فهو غافر . . والخطايا :
جمع خطية - بغير همز - كالمطايا جمع مطية . . (١) .

وقوله تعالى : (وستزيد المحسنين) وعد بالزيادة من خيرى الدنيا
والآخرة لمن أسلم لله وهو محسن ، أى : من كان مثكم مجسناً زيد فى إحسانه
ومن كان مخطئاً نغفر له خطيئاته .

وقد أمرم - سبحانه - أن يدخلوا باب المدينة التي فتحوها خاضعين
وأن يلمسوا منه مغفرة خطاياهم ، لأن تغليبهم على أعدائهم ، ودخولهم
الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم ، نعمة من أجل النعم ، وهي تستدعى
منهم أن يشكروا الله عليها بالقول والفعل لكي يزيدهم من فضله ، فشان
الأخيار أن يقابلوا نعم الله بالشكر .

ولهذا كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يظهر أقصى درجات الخضوع لله
تعالى عند النصر والظفر ولباوغ المطلوب ، فعندما تم له فتح مكة دخل لإيها
من الثنية العليا ، وإنه لخاضع لربه ، حتى إن رأسه الشريف ليكاد يمس عنق
ناقته شكر الله على نعمة الفتح ، وبعد دخوله مكة اغتسل وصلى ثماني ركعات
سماها بعض الفقهاء صلاة الفتح .

ومن هنا استحب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة أن يصلوا
فيها ثماني ركعات عند أول دخولها شكر الله - تعالى - وقد فعل ذلك سعد بن
أبي وقاص عندما دخل إيوان كسرى ، فقد ثبت أنه صلى بداخله ثماني ركعات .

ولكن ، ماذا كان من بنى إسرائيل بعد أن آتم الله لهم نعمة الفتح ؟
لأنهم لم يفعلوا ما أمروا بفعله ، ولم يقولوا ما كلفوا بقوله ، بل خالفوا
ما أمروا به من قول وفعل ، ولذا قال تعالى : (فبدل الذين ظلموا قولا غير
الذي قيل لهم) .

أخرج البخاري عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي (صلى الله
عليه وسلم) أنه قال : (قيل لبنى إسرائيل : ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة
فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاهم ، وقالوا : حبة في شعيرة) (١) .

قال الإمام ابن كثير : (وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه
السياق ، أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل ، فأمرُوا أن يدخلوا
الباب سجداً ، فدخلوا يزحفون على أستاهم راقعين رؤسهم ، وأمرُوا أن
يقولوا : حطة ، أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستمتهروا وقالوا : حنطة
و شعيرة ، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ، ولهذا أنزل الله بهم
بأسه وعذابه بفسقهم و خروجهم عن طاعته) (٢) .

فقوله تعالى : (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم) بيان للسبب
الذي من أجله نزل عليهم العذاب ، وتوبيخ لهم على مخالفتهم وأمر الله -
تعالى - ، لأن تبديل الشيء معناه تغييره وإزالته عما كان عليه بإعطائه صورة
تخالف التي كان عليها .

والفعل (بدل) يقتضى بدلا ومبدلا منه ، إلا أن مقام الإيجاز في الآية
استدعى الاكتفاء بذكر البديل - وهو القول الذي لم يقل لهم - دون ذكر
المبدل منه - وهو القول الذي قيل لهم - والتقدير : فاختار الذين ظلموا
بالقول الذي أمرهم الله به ، قولا آخر اخترهوه من عند أنفسهم على وجه
المخالفة والمعصيان .

(١) صحيح البخاري . باب (وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية ج ٦ ص ٢٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٩ .

قال صاحب الكشاف : « فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ، أى : وضعوا مكان «حطة» قولاً غيرها ، يعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاسْتِغْفَارُ فخالقوه إلى قول ليس معناه معن ما أمروا به ، ولم يمتثلوا أمر الله ، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه . وهو لفظ الحطة فجاءوا بلفظ آخر ، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل ، بمعنى ما أمروا به لم يؤاخذوا به كما لو قالوا مكان حطة : نستغفرك وتتوب إليك . أو اللهم أعف عنا وما أشبه ذلك ، (١) .

والعبرة التي تؤخذ من هذه الجملة الكريمة ، أن من أمره الله - تعالى - بقول أو بفعل ، ففعله وأنى بأخر لم يأذن به الله ، دخل في زمرة الظالمين ، وعرض نفسه لسوء المصير .

وقوله تعالى : « فأزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » ، تصريح بأن ما أصابهم من عذاب كان نتيجة عصيانهم وتمردهم ووجودهم لنعم الله - تعالى - والرجز في لغة العرب : هو العذاب سواء أكان بالأمراض المختلفة أو بغيرها .

وفي النص على أن الرجز قد أتاهم من جهة السماء إشعار بأنه عذاب لا يمكن دفعه وأنه لم يكن له سبب أرضي من عدوى أو نحوها ، بل رميتهم به الملائكة من جهة السماء . فأصيب به الذين ظلموا دون غيرهم ، ولم يقل القرآن « فأزلنا عليهم » ، بالإضمار ، وإنما قال « فأزلنا على الذين ظلموا » ، بالإظهار ، تأكيداً لوصفهم بأفح الذنوع وهو الظلم ، وإشعاراً بأن ما نزل عليهم كان سببه بغيهم وظلمهم .

وقد تضمنت الآياتان السكريميتان أن بنى إسرائيل مكثوا من النعمة فنفروا منها ، وفتحت لهم أبواب الخير فأبوا دخولها ، وأرشدوا إلى القول الذي يكفر سيئاتهم فخالقوا ، وأرشدوا إليه مخالفة لانقبيل التأويل ، فكانت نتيجة جحودهم ومخالفتهم لأمر الله تحريماتهم من تلك النعمة إلى حين ،

ومعاقبتهم لظلمهم بالعذاب الأليم ، وفي هذا التذكير امتنان عليهم ببذل النعمة ، لأن عدم قبولهم لها لا يمنع كونها نعمة ، وفيه إثارة لحسرة اليهود المعاصرين للعهد النبوي على ماضع من أسلافهم بسبب مخالفتهم وتمردهم وفيه أيضاً تحذير لهم من سلوك طريق آباؤهم حتى لا يصيبهم ما أصاب أسلافهم من عذاب أليم .

عاشراً : نعمة إغاثتهم بالماء بعد أن اشتد بهم العطش .

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بنعمة من أجل نعمه عليهم ، وهي

إغاثتهم في التيه بالماء بعد أن اشتد بهم العطش ، فقال تعالى :

وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا

أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ

كُلُّ أَنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

الاستسقاء : طلب السقيا عند عدم الماء أو حبس المطر ، وذلك عن طريق الدعاء لله - تعالى - في خشوع واستكانة ، وقد سأل موسى ربه أن يسقى بنى إسرائيل الماء بعد أن استبد بهم العطش ، عند ما كافرا في التيه ، فعن ابن عباس أنه قال : وكان ذلك في التيه ، ضرب لهم موسى الحجر ، فصارت منه اثنتا عشرة عينا من ماء ، لكل سبط منهم عين يشربون منها (١) ، وهذه النعمة كانت نافعة لهم في دنياهم ؛ لأنها أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء ولولاه لهلكوا ، وكانت نافعة لهم في دينهم ؛ لأنها من أظهر الأدلة على وجود الله . وعلى قدرته وعلمه ، ومن أقوى البراهين على صدق موسى - عليه السلام - في نبوته (٢) .

(١) وقيل كان الاستسقاء في البرية ولكن الأنازل التي تدل على أنه كان في التيه أصح وأكثر

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٠

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بنى إسرائيل وقت أن أصاب آباءكم العطش الشديد وهم في صحراء مجدبة ، فتوسل إلى نبيهم موسى - عليه السلام - في خشوع وقضوع أن أمدم بالماء الذى يكفيهم ، فأجبتاه إلى ما طلب ، إذ أوحينا إليه أن اضرب بعصاك الحجر . ففعل ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بمقدار عدد الأسباط ، وصار لكل سبط منهم مشرب يعرفه ولا يتعداه إلى غيره ، وقلنا لهم : تمتعوا بما من الله به عليكم من ما كول طيب ومشروب هنئاً رزقكم الله إياه من غير تعب ولا مشقة ، ولا تمنوا في الأرض مفسدين ، فتتحول النعم التى بين أيديكم إلى نقم وتصبحوا على ما فعلتم فادمين .

وقوله تعالى : « وإذ استسقى موسى لقومه ، يفيد أن الذى سأل ربه السقيا هو موسى - عليه السلام - وحده ، اتظهر كرامته عند ربه لدى قومه ، وليشاهدوا بأعينهم إكرام الله - تعالى - له ، حيث أجاب سؤاله ، وجر الماء لهم ببركة دعائه .

واللام في قوله - تعالى - « لقومه » للسببية ، أى لأجل قومه .
والفاء في قوله - تعالى - « فقلنا اضرب بعصاك الحجر » ، عطفت الجملة بعدها على محذوف ، والتقدير : فأجبتاه إلى ما طلب ، وقلنا اضرب بعصاك الحجر .

وأل في « الحجر » لتعريف الجنس أى اضرب أى حجر شئت بدون تعيين ، وقيل للهدى ، ويكون المراد حجراً معيناً معروفاً لموسى - عليه السلام - بوحى من الله تعالى . وقد أورد المفسرون في ذلك آثراً حكيم المحققون بعضها ولذلك لم نعتد بها .

والذى نرجحه أنها لتعريف الجنس ، لأن انفجار الماء من أى حجر بعد ضربه أظهر في إقامة البرهان على صدق موسى - عليه السلام - وأدعى لإيمان بنى إسرائيل وانصياعهم للحق بعد وضوحه ، وأبعد عن التشكيك في إكرام الله لنبيه موسى - عليه السلام - إذ لو كان انفجار الماء من حجر

مبين لا يمكن أن يقولوا : إن تفجير الماء كان لمعنى خاص بالحجر لا لكرامة موسى عند ربه - تعالى - .

والنماء في قوله تعالى فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، كما يقتضها للعطف على محذوف تقديره : فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وقد حذف هذه الجملة المقدره لوضوح المعنى عليها .

وكانت العيون اثنتى عشرة عينا ؛ لأن بنى إسرائيل كانوا اثنتى عشر سبطاً ، والاسباط في بنى إسرائيل كالقبائل في العرب . وهم ذرية أبناء يعقوب - عليه السلام - الاثنتى عشر ، ففي انفجار الماء من اثنتى عشرة عيناً لإكمال للنعمة عليهم ، حتى لا يقع بينهم تنازع وتشاجر :

وقال - سبحانه - « فانفجرت و » . وقال في سورة الأعراف « فانفجرت ، والانبجاس خروج الماء بقية . والانفجار خروجه بكثرة ، ولا تنافى بينهما في الواقع ؛ لأنه انبجس أولاً . ثم انفجر ثانياً ، وكذا العيون يظهر الماء منها قليلاً ثم يكثر لدوام خروجه .

وقوله تعالى : « قد علم كل أناس مشربهم ، إرشاد وتذية إلى حكمة الانقسام إلى اثنتى عشرة عينا أى : قد عرف كل سبط من أسباط بنى إسرائيل مكان شربه ، فلا يتعداه إلى غيره ، وفي ذلك ما فيه من استقرار أمورهم ، واطمئنان قلوبهم ، وعدم تعدى بعضهم على بعض .

وقوله تعالى : « كلوا واشربوا من رزق الله ، مقول لقول محذوف تقديره : وقلنا لهم : كلوا واشربوا من رزق الله .

وقد جمع - سبحانه - بين الأكل والشرب - وإن كان الحديث عن الشراب - لأنه قد تقدمه إزال المن والسلوى ، وقد قيل هنالك : « كلوا من طيبات ما رزقناكم ، فلما أتبع ذلك بنعمة تفجير الماء لهم اجتمعت المنتان وقوله تعالى : « ولا تشعروا في الأرض مفسدين » ، تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال النعمة في غير ما وضعت له ، بعد أن أذن لهم في التمتع بالطيبات ، لأن النعمة عند ما تكثر قد تنسى العبد حقوق خالقه فيهجر الشريعة ، ويعتد

في الأرض فساداً . قال تعالى : (كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .
والمعنى : ولا تسعوا في الأرض مفسدين ، وتقابلوا النعم بالعصيان
فتسلب عنكم .

قال ابن جرير - رحمه الله - : (وأصل العنا شدة الإفساد بل هو أشد
الإفساد ، يقال منه : عنى فلان في الأرض : إذ تجاوز الحد في الإفساد إلى
غايته ، يعشى ، عشاً مقصوراً ، ويقال للجماعة يعشون . . (١) .
وبذلك تكون الآية الكريمة قد ذكرت بنى إسرائيل بنعمة جليلة ، ونصحتهم
بأن يعملوا على شكرها : وحذرتهم عاقبة الإفساد في الأرض .
ججودهم النعمة واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير :
ثم ذكروهم - سبحانه - بما كان منهم من ججود النعمة واستخفافهم بها
وليثارهم - بسوء اختيارهم - ما هو أدنى على ما هو خير ، فقال تعالى :

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا
وَعَدْسِهَا وَبَصِلِهَا ^{١١٤} قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ
أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ ^{١١٥} وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ
وَبَاءَ وَبَغَضِبَ مِنَ اللَّهِ ^{١١٦} ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ^{١١٧} ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

الصبر : حبس النفس على الشيء ، بمعنى إلزامها لإياه ، ومنه الصبر على
الطاعات ، أو يطلق على حبسها بمعنى كفها . ومنه الصبر على المعاصي .

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٠٨ طبعة الحلبي .

والطعام : ما رزقوه في التيه من المن والسلوى : والبقل : ما تنبتة الأرض من الخضرا مما يأكله الناس والأنعام من نحو النعناع والسكرات وغيرهما .
والقوم : قيل هو الثوم ، وقيل هو الخنطة . والقنأ : نوع من المأكولات أكبر حجماً من (الخيار) .

قال ابن جرير : (وكان سبب مسألتهم موسى - عليه السلام - ذلك فيما بلغنا عن قتادة أنه قال : كان القوم في البرية قد ظلل عليهم للغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى : فلوا ذلك ، وذكروا عيشاً كان لهم ، مصر ، فسألوه موسى ، فقال الله تعالى (اهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم) (١) .
ثم ساق ابن جرير رواية ، فيها تصريح بأن سؤالهم لم يكن في البرية بل كان في التيه فقال : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب قال : أنبأنا ابن زيد قال :

(كان طعام بنى إسرائيل في التيه واحداً ، وشراهم واحداً . كان شراهم عسلاً ينزل لهم من السماء يقال له اللن ، وطعامهم طير يقال له السلوى ، يأكلون الطير ويشربون العسل ، لم يكونوا يعرفون خبزاً ولا غيره ، فقالوا يا موسى : إنا إن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما قنيت الأرض من بقلها - فقرأ حتى بلغ قوله تعالى (اهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم) (٢) .

وقد جرى أبو حيان وصاحب الكشاف - في تفسيرهما - على أن سؤالهم لموسى - عليه السلام كان في التيه .

قال أبو حيان عند تفسير قوله تعالى (وإذ قلتم يا موسى إن نصبر على طعام واحد ، : لما شعروا من الإقامة في التيه . والمواظبة على ما كول واحد لبعدهم عن الأرض التي ألفوها ، وعن العوائد التي عهدوها ، أخبروا عما

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٠٩ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٠٩ .

وجدوه من عدم الصبر على ذلك ، وتشوقهم إلى ما كانوا يأنفون ، وسألوا موسى أن يسأل الله لهم ، (١) .

وقال صاحب الكشف : « كانوا أهل نلاحة فزعوا إلى عكرهم (٢) فأجروا - أى ملوا وكرهوا - ما كانوا فيه من النعمة . وطلبت أنفسهم عدم البقاء (على طعام واحد) أرادوا ما رزقوه في التيه من المن والسلوى ، (٣) . ومعنى الآية الكريمة إجمالاً : « اذكروا يا بنى إسرائيل بعد أن أسبغنا عليكم نعمنا ما كان من سوء اختيار أسلافكم ، وفساد أذواقهم ، وإهانتهم لنبينهم موسى - عليه السلام - حيث قالوا له بيطر وسوء أدب : إن نصبر على طعام المن والسلوى في كل وقت ، فسل ربك أن يخرج لنا عما تنبت به الأرض من خضرها وفاكهتها ورحناتها وعدسها وبصلها ، لأن نفوسنا قد عافت المن والسلوى ، فويجهم نبينهم موسى - عليه السلام - بقوله : « أختارون الذى هو أقل فائدة وأذى لذة ، وتركون المن والسلوى وهو خير مما تطلبون لذة وفائدة ؟ انزلوا إلى مصر من الأمصار فإنكم تجدون به ما طلبتموه من البقول وأشباهاها . »

وأحاطت ببنى إسرائيل المهانة والاستكانة كما تحيط القبة بمن ضربت عليه ، وحق عليهم غضب الله .

ثم بين الله - تعالى - السبب في جحودهم للنعم وفي أنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة وأنزل عليهم غضبه بقوله : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، الخ أى : « لم يكفروا بآيات الله قد تأصل فيهم ، وقتل أنبيائهم بغير الحق قد تكرر منهم حتى صار كالأطبيعة الثانية والسجية الثابتة ، فليس غريباً على هؤلاء . أن يقولوا إن نصبر على المن والسلوى وأن ينزل بهم غضب الله ونقمته من أجل جحودهم وكفرهم . »

(١) تفسير ابن حبان ج ١ ص ٣٣١ .

(٢) فزعوا إلى عكرهم : أى حضوا إلى أصلهم وعادتهم .

(٣) تفسير الكشف ج ١ ص ٢٧١ .

وقوله تعالى : (وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد) تذكير لهم رغبة من رغباتهم الناشئة عن ذوق سقيم . لا يقدر النعمة قدرها ، وفيها انتقال من تعداد النعم عليهم إلى بيان موقفهم الجحودي منها ، وإسقاطها وراء شهواتهم وأهوائهم وحمقاتهم ، وفيه إشعار بسوء أدهم في مخاطبتهم لنبيهم موسى - عليه السلام - إذ عبروا عن عدم رغبتهم في تناول المن والسلوى بحرف د ل ، المقيد تأكيداً للنبي فقالوا : ان نصبر . . الخ فكأنهم يقولون له مهددين ، أبلغوه إلى دعاء ربه سريعاً : لأننا ابتداء من هذا الوقت الذي نخاطبك فيه إلى أن نوص ، لن نحبس أنفسنا عن كراهية على تناول طعام واحد ، لأننا قد سئمناه وللناه ، ولن نعود إليه : فالتعبير د بلن ، يشعر بشدة ضجرهم ، وبلوغ الكراهية لهذا الطعام منهم منهاها .

قال الحسن البصري - رضى الله عنه - : د بطروا طعام المن والسلوى فلم يصبروا عليه ، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه : وكانوا قوماً أهل أعداس ووصل وبقل وثوم ، (١) .

ووصفوه بالوجدة مع أن المن والسلوى نوعان ، لأنهم أرادوا من الوحدة أنه طعام متكرر في كل يوم لا يختلف بحسب الأوقات ، والعرب تقول لمن يجعل على مائدته في كل يوم من الطعام لا تتغير ، إنه يأكل من طعام واحد . وسألوا موسى - عليه السلام - أن يدعو لهم ، لأن دعاء الأنبياء أقرب إلى الإجابة من دعاء غيرهم ، وكذلك دعاء الصالحين ، حيث يصدر من قلوب عامرة بتقوى الله وجلاله ، فيلقى من الإجابة ما لا يلاقه دعاء نفوس تسهوها بالشهوات ، وتستولى عليها السيئات .

وقولهم د فادع لنا ربك ، ولم يقولوا ربنا ، لعدم رسوخ الإيمان في قلوبهم ، ولأنه سبحانه - قد اختصه بما لم يعط مثله من مناجاته وتكمله وإيتائه التوراة . وقولهم : د يخرج لنا مما تنبت الأرض من يقاتها وقتاتها وقومها وعدسها

وبصلها ، هو مضمون ما طلبوه من موسى - عليه السلام - وهو في معنى مقول قول محذوف والتقدير : أى قل لربك يخرج لنا .

وجاء التعبير بالفعل « يخرج » مجزوماً ، مع أن مقتضى الظاهر أن يقال : « أن يخرج الإيماء إلى أنهم واثقون بأنه إن دعا ربه أجابه ، حتى لسكان إخراج ما نبت الأرض متوقف على مجرد دعاء موسى ربه ، وأنه لو لم يدع لهم ، لسكان شحيحاً عليهم بما فيه نفهم (١) .

والجمل الكريمة : « استبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » من مقول موسى - عليه السلام - لهم ، وفيها توييح شديد لهم على سوء اختيارهم ، وضعف عقولهم . لإيثارهم الأدنى وهو البقل وما عطف عليه ، على ما هو خير منه وهو المن والسلوى .

قال ابن جوير عند تفسيره الآية الكريمة : « أى قال لهم موسى : أناخذون الذى هو أخس خطراً وقيمة وقدراً من العيش ، بدلاً بالذى هو خير منه خطراً وقيمة وقدراً ، وذلك كان استبدالهم ، وأصل الاستبدال : هو ترك شئ . لآخر غيره . مكان المتروك ، ومعنى قوله « أدنى » أخس وأضع وأصغر قدراً وخطراً ، وأصله من قولهم : هذا رجل دنى بين الدناءة ، وإنه ليدينى فى الأمور - بغير همز - إذا كان يتتبع خديسها . ثم قال : ولا شك أن من استبدل بالمن والسلوى : البقول والقشء والعدس والبصل والثوم ، فقد استبدل الوضيع من العيش بالرفيع منه ، (٢) .

ثم أضاف موسى - عليه السلام - إلى توييحهم السابق على بطرهم . وجودهم توييحاً آخر فقال لهم : « اهبطوا مصراً فإن لسكم ما سألتهم ،

(١) تفسير « التحرير والتنوير » ، ج ١ ، ص ٥٠٠ الشيخ محمد الطاهر ابن

هاشور طبعة عيسى البابى الحلبي سنة ١٩٦٤ .

(٢) تفسير ابن جرير - ج ١ ، ص ٣١٢ .

أى إذا كان هذا هو مرغوبكم ، فأنزروا هذا المكان ، وانزلوا إلى مصر من الأمصار ، لكي تجددوا ما سألتوني إياه من البقل والثرم وأشباههما ، لأن ما اخترتموه لا يوجد في المكان الذي حللتهم به ، وإنما يوجد في الأمصار والقرى .

وقوله تعالى : « مصرأ » .

قال ابن كثير : « هكذا هو منون مصروف مكتوب بالالف في المصاحف

الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف » (١) .

وقال ابن جرير : « فأما القراءة فإياها بالالف والتنوين « اهبطوا مصرا »

وهي القراءة التي لا يجوز عندي غيرها ، لاجتماع خطوط مصاحف المسلمين

واتفاق قراءة القراء على ذلك . . . » اه (٢) .

وقال أبو حيان في البحر : « وقرأ الحسن وطلحة والأعمش وأبان

ابن تغلب (مصر) بغير تنوين ، وقد وردت كذلك في مصحف أبي بن كعب

وعبدالله بن مسعود ، وبعض مصاحف عثمان - رضي الله عنه ، اه (٣) .

والمعنى على القراءة الأولى : اهبطوا مصرا من الأمصار لأنكم في البدو ،

والذي طلبتم لا يكون في البوادي والقيافي وإنما يكون في القرى والأمصار ،

فإن لسكم إذا هبطتموه ما سألتهم من العيش .

والمعنى على القراءة الثانية : أنزروا المكان الذي أنتم فيه ، واهبطوا

مصر التي كنتم تسامون فيها سوء العذاب فإنسكم نجدون فيها ما تبغونوه ،

لأنكم قوم لا تقدرون نعمة الحرية ، ولا ترححون للفضائل النفسية ، بل

شأنكم - دائما - أن تستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير .

ومن حجة الذين قالوا إن الله أراد بالمصر في الآية الكريمة ، مصر

فرعون ، قوله تعالى في سورة الشعراء : « فأخرجناهم من جنات وعيون .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠١ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣١٥ .

(٣) تفسير أبي حيان ج ١ ص ٢٢٣ .

وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ، (١) .
وقوله تعالى في سورة الدخان : « كم تركوا من جناتهم وعيون . وزرع
ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين » ، (٢)
قالوا : فأخبر الله - تعالى - أنه قد ورثهم ذلك ، وجعلها لهم ، فلم
يكونوا يرثونها ، ثم لا يفتغون بها ، ولا يكوفون منتفعين إلا بصير بعضهم إليها
قال ابن جرير : « ومن حجة من قال إن الله - تعالى - إنما عنى بقوله
« أهبطوا مصر ، أى : مصر من الأمصار دون مصر فرعون بعينها ، أن
الله - تعالى - جعل أرض الشام لبنى إسرائيل مساكن بعد أن أخرجهم
من مصر ، وإنما ابتلاهم بالتيه . بامتناعهم عن موسى في حرب الجبارة ،
إذ قال لهم « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا
على أديابكم فتنقلبوا خاسرين » . . . إلى قوله تعالى : « فاذهب أنت وربك
فقاتلا إنا مهنا قاعدون » . فحرم الله - تعالى - على قاتل ذلك - فيها ذكر
لنا - دخولها حتى هلكوا في التيه وابتلاهم بالتيهان في الأرض أربعين سنة .
ثم أهبط ذريتهم الشام ، فأسكنهم الأرض المقدسة ، وجعل هلاك الجبارة
على أيديهم مع « يوشع بن نون ، بعد وفاة موسى بن عمران . فرأينا أن
الله - تعالى - قد أخبر عنهم أنه كتب لهم الأرض المقدسة ، ولم يخبرنا
عنهم أنه ردهم إلى مصر بعد إخراجهم منها ، فيجوز لنا أن نقرأ
« أهبطوا مصر ، وتأوله أنه ردهم إليها . قالوا : فإن احتج محتج بقوله
تعالى : « فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك
وأورثناها بنى إسرائيل » ، قيل لهم : فإن الله - تعالى - إنما أورثهم ذلك
فأسكنهم إياها . ولم يردهم إليها وجعل مساكنهم الشام ، اه (٣) .

(١) الآيات ٥٧ - ٥٩

(٢) الآيات من ٢٥ - ٢٨

(٣) (٤ - ١٣ البقرة)

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢١٤

قال أبو حيان في البحر : (ولم يصرح أحد من المفسرين والمؤرخين أنهم هبطوا من التيه إلى مصر) اهـ (١) .

ومع أن ابن جرير - رحمه الله - قد رد على من قال ، إن المراد بالمصر مصر فرعون : استناداً إلى قراءة غير الجمهور ، إلا أنه لم يرجح أحد الرأيين . فقد قال : (والذي نقول به في ذلك ، أنه لا دلالة في كتاب الله - تعالى - على الصواب من هذين التأويلين ، ولا خبر به عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقطع بحيمته العذر ، وأهل التأويل متنازعون تأويله ، فأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب أن يقال : إن موسى سأل ربه أن يعطى قومه ما سألوه من نبات الأرض على ما بينه الله - تعالى - في كتابه وهم في الأرض تائهون فاستجاب الله لموسى دعاه وأمره أن يهبط بمن معه من قومه قراراً من الأرض التي كتبت ما سأل لهم من ذلك ، إذا صاروا إليه ، وجائز أن يكون ذلك للقرار مصر ، وجائز أن يكون الشام ...) (١) .

ومن هذا النص الذي نقلناه عن ابن جرير ، نرى أنه لم يقطع برأى في المكان الذي أمر بنو إسرائيل بالهبوط فيه وأنه يرى أن الله - تعالى - قد استجاب لموسى - عليه السلام - دعاه ، وأن موسى وقومه قد هبطوا - فعلاً - إلى قرار من الأرض التي كتبت بالقول وأشباهاها .

وقد عارض الإمام ابن كثير في تفسيره رأى ابن جرير فقال : وهذا الذي قاله - أي ابن جرير - فيه نظر ، والحق أن المراد مصر من الأمصار ، كما روى عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك ، لأن موسى - عليه السلام - يقول لهم : هذا الذي سألتكم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه ، فليس يساوى مع دناوته وكثرة في الأمصار أن أسأل الله فيه ، ولهذا قال : (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج ١ ص ٢٣٤

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢١٣

هو خير اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم (أى ما طلبتم ، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم) (١) وبذلك يظهر لنا أن ابن كثير - رحمه الله - يرى أن المراد بالمصر مكان غير معين وأن موسى - عليه السلام - لم يسأل ربه لإجابة طلبهم لأنهم كانوا متعنتين . بطرين ، والله - تعالى - يكره من كان كذلك ، وأن قول موسى - عليه السلام - لهم ، اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم ، من باب التوبيخ والتجهيل لهم ، إذ ليس حينئذ بلد قويم يستطيعون الوصول إليه . هذا ، والذي نرجحه في هذا المقام هو ما ذهب إليه الإمام ابن كثير لما يأتي :

أولاً : أن القراءة بالتنوين متواترة ، وابن جرير نفسه لم يجوز القراءة بغيرها ، وهذه القراءة المتواترة ، نص في أن المراد من مصر ، أى بلد كان لا مصر فرعون ، ثم إذا كان المراد به ذلك فليس لنا أن نقول إنه يصدق على مصر فرعون ، وذلك لأن الأمصار التى تفتت ما طلبوا من البقول والخضر أقرب إليهم من مصر ، فليس من المعقول أن يؤمروا بالذهاب إلى مصر فرعون وهى بعيدة عن مكاهم بعداً شاسعاً ، وأيتركوا الأمصار الأقرب إليهم وفيها ما يريدون .

ثانياً : لم ينقل أحد من المؤرخين أنهم رجعوا إلى مصر بعد خروجهم منها كما قال أبو حيان وغيره ، بل الثابت أن بنى إسرائيل خرجوا من مصر ، وأمروا بعد خروجهم بدخول الأرض المقدسة لقتال الجبارين ولسكنهم أبوا طاعة نبيهم - عليه السلام - فعذبوا بآتيه أربعين سنة لتخليفهم عن قتال الجبارين ، ولعصيانهم أمر نبيهم وماتوا جميعاً فى التيه ، وبقي أبناؤهم فامتثلوا أمر الله - تعالى - وهبطوا إلى الشام . وقاتلوا الجبارين ودخلوا الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن نون .

ثالثاً : ليس في الآية ما يشعر بأن موسى - عليه السلام - طلب من ربه أن يجيبهم إلى رغبتهم فكيف نقول بما لم يدل عليه القرآن الكريم ولو من طريق الإشارة ؟

رابعاً : دخولهم في التيه كان عقوبة لهم على نكوصهم عن قتال الجبارين ، ليدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم . فالتيه والحالة هذه كان بمثابة سجن لهم بماقنون فيه ، كما يشعر بذلك قوله تعالى : « فإيها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، فكيف يخرج السجن من سجنه تلبية لبعض رغباته المنكرة ، وبناء على ذلك يكون الأمر في قول موسى لهم : « اهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم ، للتهديد والتوبيخ والتجھيل .

ثم بين - سبحانه - العقوبات التي أحلت بهم جزاء ظلمهم وفجورهم فقال تعالى : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله » : ضرب الذلة والمسكنة عليهم كناية عن لزومها لهم ، وإحاطتهما بهم ، كما يحيط السرادق بمن بداخله .

قال صاحب الكشاف : (جعلت الذلة محيطة بهم ، مشتملة عليهم ، فهم فيها كمن يكرن في القبة من ضربت عليه ، أو أصدقت به حتى لزمتهم ضربة لارب كما يضرب الطين على الحائط فيلزمه ، فاليهود صاغرون أذلاً - أهل مسكنة ومدقعة) (١) .

وأصل الضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى النقاء . ظهر جسم ، بظاهر جسم آخر بشدة ، يقال : ضرب بيده الأرض إذا أصدقها بها ، وقرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى شدة اللصوق . والذلة : على وزن فعلة من قول القائل : ذل فلان يدل ذلة وذلة ، والمراد بها الصغار والهوان والحقارة .

والمسكنة : مفعلة من للسكون ، ومنها أخذ لفظ المسكين ، لأن المهم قد أنقله فجعله قليل الحركة والنهوض ، لما به من الفاقة والفقر ، والمراد

بها في الآية : الضعف النفسى ، والفقر القلبى الذى يستولى على الشخص ، فيجعله يحس بالهوان ، مهما يكن لديه من أسباب القوة .

والفرق بينها وبين الذلة . أن الذلة هوان نجى . أسبابه من الخارج ، كأن يغلب المرء على أمره نتيجة انتصار عدوه عليه فيذل لهذا العدو .

أما المسكنة فهى هوان ينشأ من داخل النفس نتيجة بعدها عن الحق واستيلاء المطامع والشهوات عليها ، وتوارث الذلة قروناً طويلاً يورث هذه المسكنة ، ويجعلها كالطبيعة الثابتة فى الشخص المستذل . ولقد عاش اليهود قروناً واحقاراً مستعبدين لمختلف الأمم ، فأكسبهم هذا الاستعباد ضعفاً نفسياً جعلهم لا يفرقون بين الحياة الذليلة والكريمة . بل لأهم ليقضون الأولى على الثانية ما دامت تجلب لهم غرضاً من أغراض الدنيا ، ومهما كثر المال فى أيديهم . فإهم لا يتحولون عن فقرهم النفسى وظهورهم أمام الناس بمظهر البائس الفقير .

وقوله تعالى : « وبأوا بغضب من الله ، يان أسوء عاقبتهم فى الآخرة ومبالغة فى إهانتهم وتحقيرهم ، فهم فى الدنيا أذلاء حقراء ، وفى الآخرة سيرجعون بغضب من الله بسبب أفعالهم القبيحة .

قال ابن جرير - رحمه الله - يعنى بقوله تعالى « وبأوا بغضب من الله » : انصرفوا ورجعوا ، ولا يقال بأوا إلا موصولاً إما بخير وإما بشر يقال منه بأ فلان بذنبه يهوى بوا وبوا ، ومنه قوله تعالى : « لئن أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ، يعنى تنصرف متحملهما ، وترجع بهما قد صار عليك دونى ، فعنى الكلام إذا . ورجعوا منصرفين متحملين غضب الله ، قد صار عليهم من الله غضب ، ووجب عليهم منه سخط » (١) .

وقال صاحب المكشاف : « وبأوا بغضب من الله ، من قولك بأ فلان

بفلان ، إذا كان حقيقياً بأن يقتل به مساواته له ومكافأته ، أى صاروا
أحقاء بغضبه ، (١) .

ثم صرح - سبحانه - بعد ذلك بسبب ما أحاط بهم من الذلة والمسكنة
واستحقاقهم غضب الله وسخطه ، فقال تعالى : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون
بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .
والجملة الكريمة استئناف بياني جواب عن سؤال تقديره : لم فعل بهم كل
ذلك ؟ فكان الجواب ، فعلنا بهم بسبب جحودهم لآيات الله ، وسبب
قتلهم لأنبيائه ، وخرجهم عن طاعته ، ومجاوزتهم حدوده والآيات تطلق
ويراد بها الأدلة الشاهدة على وحدانية الله تعالى وربوبيته ، وتطلق ويراد بها
النصوص التي تشتمل عليها الكتب السماوية ، وتطلق ويراد بها الأدلة
الشاهدة على صدق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - فيما يبلغون عن الله -
تعالى - وهي التي يسميها علماء التوحيد المعجزات ، وقد كفر اليهود بكل
هذه الضروب من الآيات ، ومردوا على ذلك كما يفيد التعبير بالفعل
المضارع « يكفرون » .

وقوله تعالى : « ويقتلون النبيين بغير الحق » ، أى ويقتلون أنبياء الله الذين
بعثهم مبشرين ومنذرين ، ولقد قتل اليهود - فيمن قتلوا من الإنبياء -
ذكرى أو آية يحيى - عليهما السلام - لأنهما أيما الانقياد وراعهما شهواتهم وأهوائهم .
وقال - سبحانه - « بغير الحق » مع أن قتل الأنبياء لا يكون بحق
أبداً ، لإفادة أن قتلهم لهم كان بغير وجه معتبر في شريعتهم لأنها تحرمه ،
« أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساداً في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » ،
فهذا القيد المقصود به الاحتجاج عليهم بأصول دينهم وتخليد مذمتهم ،
وتقبيح لجرائمهم ، حيث إنهم قتلوا أنبياءهم بدون خطأ في الفهم ، أو تناول
في الحكم ، أو شبهة في الأمر ، وإنما فعلوا ما فعلوا وهم عالمون بقبح ما
ارتكبوا ، وخالفوا شرع الله عن تعمد وإصرار .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : قتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره ؟ قلت : معناه أنهم قتلوه بغير الحق عندهم ، لأنهم لم يقتلوا ولا أفسدوا في الأرض فيقتلوا ، وإنما نصحوم ودعوم إلى ما ينفعهم فقتلوه ، فلو سئلوا وأنصفوا من أنفسهم لم يذكروا وجهاً يستحقون به القتل عندهم ، (١) .

وقال الإمام الرازي : « فإن قيل : قال هنا « ويقتلون النبيين بغير الحق » وقال في آل عمران « ويقتلون النبيين بغير حق » ، فما الفرق ؟ قلت : إن الحق المعلوم فيما بين المسلمين الذي يوجب القتل يتجلى في حديث : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : « كقر بعد إيمان ، وزناً بعد إحصان ، و قتل نفس بغير حق » ، فالحق المذكور هنا بحرف التعريف إشارة إلى هذا . وأما الحق المنكر فالمراد به تأكيد العموم ، أي لم يكن هناك أي حق يستندون إليه ، لا هذا الذي يعرفه المسلمون ولا غيره (البينة) ، (٢) .

ثم قال تعالى : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .
العصيان : الخروج عن طاعة الله . والاعتداء : تجاوز الحد الذي حده الله - تعالى - لعباده إلى غيره . وكل متجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعداه إلى ما جاوز إليه . وللمفسرين في مرجع الإشارة ذلك ، رأبان :
أحدهما : أنه يعود إلى كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ، وعليه يكون المعنى :

إن هؤلاء اليهود قد مرتوا على عصيانهم لخالقهم ، وتعدتهم حدوده بجملة . وعدم مبالاة فنشأ عن هذا التمرد والظفر أن كفروا بآيات الله - تعالى - . وامتدت أيديهم الأثيمة إلى قتل الأنبياء بقلوب كالحجارة أو أشد قسوة .
والجملة الكريمة على هذا الرأي تفيد أن الزردى في المعاصي وارتكاب

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٧ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ٣٩٠ .

المتأذى ، وتجاوز الحدود المشروعة ، يؤدي إلى الانتقال من صغير الذنوب إلى كبيرها ، ومن حقيرها إلى عظيمها ، لأن هؤلاء اليهود لما استمروا المعاصي وداوموا على تعدى الحدود ، هانت على نفوسهم الفضائل ، وانكسرت أمام شهواتهم كل المثل العليا ، فكذبوا بآيات الله تكذيباً وقتلوا من جاءهم بالهدى ودين الحق .

والثاني : يرى أصحابه أن اسم الإشارة الثاني يعود إلى نفس المشار إليه باسم الإشارة الأول ، وتكون الحكمة في تكرار الإشارة هو تمييز المشار إليه حرصاً على معرفته ويكون العصيان والاعتداء سببين آخرين لضرب الذلة والمسكنة عليهم ، واستحقاقهم غضب الله - تعالى - كما بينا ، والإشارة حينئذ من قبيل التكرير المعنى عن العطف كما في قوله تعالى : « أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » .

والمعنى أن هؤلاء اليهود قد نزلتهم الذلة والمسكنة ، وصاروا أحقاً بسخط الله بسبب كفرهم بآياتنا . وقتلهم أنبياءنا ، وخروجهم عن طاعتنا وتعددهم لحدودنا .

وعلى هذا الرأي يكون ذكر أسباب العقوبة التي حلت بهم في الدرجة العليا من حسن الترتيب ، فقد بدأ - سبحانه - بما فعلوه في حقه وهو كفرهم بآياته ، ثم أتى بما يتلوه في العظم وهو قتلهم لأنبيائه ، ثم وصحهم بعد ذلك بالعصيان والخروج عن طاعته ثم ختم أسباب العقوبة بدمغهم بالاعتداء ، ونحطى الحدود ، وعدم المبالاة باليهود ، وهذا الترتيب من لطائف أسلوب القرآن الكريم في سوق الأحكام ، مشفوعة بعلها وأسبابها .

وبهذا تكون الآية الكريمة قد وصفت بني إسرائيل بحجود النعم ، وسوء الأدب وحق التفكير ، وهوان النفس ، وبلادة الطبع ، وبطر الحق ، والبغى على أنفسهم وعلى غيرهم ، وما وصفتهم به أيديته الأيام وصدقته الأحداث في كل زمان ومكان .

وبعد أن بين القرآن الكريم ما حل باليهود من عقوبات بسبب جحودهم لنعم الله ، وكفرهم بآياته - أردف بذلك ما وعد الله به المؤمنين من جزيل الثواب .

فقال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّبِيحِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

ففي هذه الآية الكريمة حدثنا القرآن عن أربع فرق من الناس : أما الفرقة الأولى فهي فرقة الذين آمنوا ، والمراد بهم الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وصدقوه .

وابتدأ القرآن بهم للإشعار بأن دين الإسلام دين قائم على أساس أن الفوز برضا الله لا ينال إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح ، ولا فضل لأمة على أمة إلا بذلك ، كما قال - تعالى - : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وأما الفرقة الثانية فهي فرقة الذين هادوا ، أى : صاروا يهوداً ، يقال : هاد وتهود ، أى دخل في اليهودية ، وسموا يهوداً نسبة إلى يهوذا أكبر أولاد يعقوب - بقلب الذال دالا في التحريف - أو سموا يهودا حين تابوا من عبادة العجل ، من هاد يهود هودا بمعنى تاب . ومنه « إنا هدنا إليك » أى : تينا .

والفرقة الثالثة : هي فرقة النصارى ، جمع نصران بمعنى نصراني ، كندامى وندمان والياء في نصراني للمبالغة ، وهم قوم عيسى - عليه السلام - قبل سموا بذلك لأنهم كانوا أنصاراً له ، وقيل إن هذا الاسم مأخوذ من الناصرة وهي القرية التي كان عيسى - عليه السلام - قد نزلها .

وأما الفرقة الرابعة : فهي فرقة الصابئين جمع صابى . وهو الخارج من دين إلى دين ، يقال : صبأ الظلف والنباب والنجم - كمنع وكرم - إذا طلع . والمراد بهم الخارجون من الدين الحق إلى الدين الباطل ، وهم قوم يعبدون الكواكب أو الملائكة ، ويدعون أنهم على دين صابى بن شيث بن آدم . وذكر القرآن الصابئة في هذا المقام وهم من أبعد الأمم ضلالاً . لينبه على أن الإيمان الصحيح والعمل الصالح يرفعان صاحبهما إلى مرتقى الفلاح . حتى ولو سبق له أنه بلغ في الكفر والفجور أقصى غاياته .

والإيمان المشار إليه في قوله - تعالى - : « من آمن باقته واليوم الآخر » الخ . . يفسره بعض العلماء بالنسبة لليهود والنصارى بمعنى صدور الإيمان منهم على النحو الذى قرره الدين الحق ، فمن لم تبلغه منهم دعوة الإسلام ، وكان ينتمى إلى دين صحيح فى أصله بحيث يؤمن بالله واليوم الآخر ويقدم العمل الصالح على الوجه الذى يرشده إليه دينه ، فله أجره على ذلك عند ربه .

أما الذين بلغتهم دعوة الإسلام من تلك الفرق ولستكنهم لم يقبلوها ، فإنهم لا يكونون ناجين من عذاب الله مهما ادعوا بأنهم يؤمنون بغيرها ، لأن الشريعة الإسلامية قد نسخت ما قبلها . والرسول (صلى الله عليه وسلم) يقول : « لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعى » .

ويفسرونه - أى الإيمان - بالنسبة للمؤمنين المشار إليهم بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا . . .) على أنه بمعنى الثبات والدرام والإذعان ، وبذلك ينتظم عطف قوله - تعالى - (وعمل صالحاً) على قوله (آمن) مع مشاركة هؤلاء المؤمنين لتلك الفرق الثلاث فيما يترتب على الإيمان والعمل الصالح من ثواب جزيل ، وعاقبة حميدة .

وبعض العلماء يرى أن معنى « من آمن ، أى : من أحدث من هذه الفرق إيماناً بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وبما جاء من عنده ، قالوا : لأن

مقتضى المقام هو الرغيب في دين الإسلام ، وأما بيان من مضى على دين آخر قبل نسخه فلا ملازمة له بالمقام ، فضلا عن أن الصابئين ليس لهم دين تجوز رعايته في وقت من الأوقات .

ثم بين - سبحانه - عاقبتهم فقال : فلم أجرحهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، .

الأجر : الجزاء على العمل ، وسمى الله ما يعطيه للمؤمن العامل أجراً على سبيل التفضل منه .

وقال : « عند ربهم ، ليدل على عظم الثواب ، لأن ما يكون عند الله من الجزاء على العمل لا يكون إلا عظيماً ، ولأن المجازى لهم هو ربهم المنعوت بصفات الكرم والرحمة وسعة العطاء .

والمعنى : إن هؤلاء الذين آمنوا بالله عن تصديق وإذعان ، وقدموا العمل الصالح الذي ينفعهم يوم لقائه ، هؤلاء لهم أجرهم العظيم عند ربهم ، ولا يفزعون من هول يوم القيامة كما يفزع الكافرون ، ولا يفوتهم نعم ، فيحزنون عليه كما يحزن المقصرون .

ثم واصل القرآن حديثه مع نبي إسرائيل ، فذكرهم بنعمة شمول الله إياهم برحمته وفضله رغم توابهم عن طاعته وتقضهم لميثاقه فقال تعالى :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ

الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنِكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٣﴾

ثم توليتهم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من

الخاسرين ﴿١٤﴾

قال ابن جرير : « وكان سبب أخذ الميثاق عليهم فيما ذكره ابن زيد ،

ما حدثني به يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال ابن زيد :
لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لقومه بني إسرائيل : إن هذد الألواح
فيها كتاب الله ، وأمره الذي أمركم به ونهيه الذي نهاكم عنه . فقالوا : ومن
ياخذ بقولك أنت ، لا والله حتى يرى الله جهره ، حتى يطلع الله علينا فيقول :
هذا كتابي فخذوه ، فما له لا يكافئ كما كذلك أنت يا موسى فيقول :
هذا كتابي فخذوه ؟ قال جفأت غضبة من الله ، فجاءتهم صاعقة فصعقتهم
فأتوا جميعاً ، قال : ثم أحياهم الله بعد موتهم فقال لهم موسى : خذوا
كتاب الله . فقالوا : لا . قال : أي شيء أصابكم ؟ قالوا : متنا جميعاً ، ثم
حييننا ؛ قال : خذوا كتاب الله . قالوا : لا . فبعث الله ملائكة فتفتحت الجبل
فوقهم ، فقيل لهم : أتعرفون هذا ؟ قالوا نعم ، هذا الطور . قال : خذوا
الكتاب وإلا طرحناه عليكم ، قال : فأخذوا بالميثاق . قال : ولو كانوا
أخذوه أول مرة لأخذوه بغير ميثاق ، (١) .

ومعنى الآيتين الكريمتين : واذكروا - يا بني إسرائيل - لتعبروا وتنتفعوا
وقت أن أخذنا عليكم جميعاً العهد بأن تعبدوا الله وحده ، وتطيعوا ما جاءكم
به رسله ، وتعملوا بما في التوراة ، واذكروا كذلك وقت أن رفعنا فوق
أسلافكم الطور تهديداً لهم بالعقوبة إذا لم يطيعوا أوامر الله ، ويشهدوا آية
من آيات الله الدالة على قدرته ، وقلنا لكم جميعاً . خذوا ما آتيناكم في كتابكم
من تكاليف بجد وعزم واجتهاد ، واذكروا ما فيه وتدرسه وسيروا على هديه
لتتقوا الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة ، ولكن الذي حصل منكم جميعاً
أنسكم أعرضتم عن العمل بما أخذ عليكم ، فركتم تعاليم كتابكم وأذيتم
أنبياءكم ، ولولا أن الله - تعالى - رأف بكم ، وودقكم للتوبة ، وعفا عن
ذلاتكم ، لكنتم من الهالكين في دنياكم وآخرتكم .
وقوله تعالى : . وإذ أخذنا ميثاقكم ، فدعوا لبينى إسرائيل بنعمة من
أمثال النعم الواردة في الآيات السابقة ، لأن أخذ الميثاق عليهم ليعملوا بما
في التوراة من الأمور العائد عليهم نفعها .

وقوله تعالى : د ورفعنا فوقكم الطور ، أى : أعليناه ، وجعلناه فوق رؤسكم كالمظلة .

والطور : اسم للجبل الذى ناجى عليه موسى ربه - تعالى - كان بنو إسرائيل بأسفله فرجع فوق رؤسهم .

وقوله تعالى : د خذوا ما آتيناكم بقوة ، مقول لقول محذوف ، دل عليه المعنى ، والتقدير : وقلنا لهم : خذوا ما آتيناكم بقوة ، أى : تمسكوا به ، واعملوا بما فيه بجد ونشاط ، وتقبلوه ، واجتنبوا نواهيه ، واهملوا ما جاء به بدون تردد .

والمراد د بما آتيناكم ، التبراة التى أمرها الله تعالى على موسى لتكون هدى ونوراً لهم . وقوله تعالى : د واذكروا ما فيه ، أى احفظوه وتدبروه وتدارسوه ، وامثلوا أمره ، واجتنبوا نواهيه ، واعملوا بكل ما جاء فيه بلا تعطيل لشيء منه .

قال الإمام القرطبي : د وهذا هو المقصود من الكتب ، العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان - فحسب - ، فقد روى النسائي عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، قال : د إن من أشر الناس رجلاً فاسقاً يقرأ القرآن ، لا يعوى إلى شيء منه ، (١) .

و د لعل ، فى قوله تعالى : د لعلكم تتقون ، إما للتعليل ، فيكون المعنى : خذوا الكتاب بجد وعزم ، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة ، لتتقوا الهلاك فى عاجلتكم وأجالتكم ، وإما للترجى ، وهو منصرف إلى المخاطبين ، فيكون المعنى : خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه ولا تنسوه ، وأتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين .

وقوله تعالى د ثم توليتهم من بعد ذلك ، بيان لتقصيرهم وإعراضهم عن العمل بالميثاق الذى أخذ عليهم ، ونبذوه خلف ظهورهم .

والمشار إليه بقوله تعالى : « ذلك ، أخذ الميثاق عليهم ، وقبول ما أتوه من الكتاب ، والمعنى : ثم أعرضتم وانصرفتم عن طاعتي بعد أخذ الميثاق عليكم ، ومشاهدتكم الآيات التي تستكين لها القلوب ؛ لأن قلوبكم كالحجارة أو أشد قسوة .

وقوله تعالى : « فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين . تصريح بما جباهم به - سبحانه - من رافة بهم ، وقبول لتوبتهم ، وغفر عن خطيئاتهم ، فداناه - سبحانه - يقول لهم : إنكم يا عراضكم عن طاعتي ، ونقضكم امهدى ، وإهمالكم العمل بكتابي ، وعدم تأثركم بآياتي ونذري ، قد استحققتم غضبي وعذابي ، ولكن حال دون حلولها بكم . فضلى الذى تدار ككم ورحمتى التى وسعتكم ، ولطفى وإمهالى لكم ، ولولا ذلك لكنتم من الخاسرين فى دنياكم وآخرتكم ، بسبب ما اجترحتم من نقض ميثاقكم . وبذلك تكون الآياتان قد ذكرتا بنى إسرائيل المعاصرين للعهد النبوى بما كان من أسلافهم من ججود النعمة ، ونقض للعهد ، وفى هذا التذكير تحذير لهم من السير على طريقةهم ، ودعوة لهم إلى الدخول فى الإسلام واتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) .

ثم ذكرهم - سبحانه - بسوء هاقبة الذين اعتدوا منهم فى السبت ، وحذرهم من أن ينهجوا نهجهم فقال - تعالى - :

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا

لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فجعلناها نكالا لما بين يديها وما

خلفها وموعظة للمتقين ﴿٦٦﴾

الاعتداء : مجاوزة الحد ، يقال : اعتدى فلان وتعدى إذا ظلم .
والسبت : المراد به اليوم المسمى بهذا الاسم ، وأصل السبت - كما

قال ابن جرير - الهدوء والسكون في راحة ودعة ، ولذلك قيل للنائم: مسبوت
 لهدوئه وسكون جسده واستراحته . كما قال - جل ثناؤه - وجعلنا نومكم سباتاً ،
 أى راحة لأبدانكم ، وهو مصدر ، من قول القائل سبت فلان يهت سبتاً (١) .
 وملخص قصة اعتداء بنى إسرائيل في يوم السبت ، أن الله - تعالى -
 أخذ عليهم عهداً بأن يتفرغوا لعبادته في ذلك اليوم ، وحرم عليهم الاصطياد
 فيه دون سائر الأيام ، وقد أراد - سبحانه - أن يختبر استعدادهم للقيام به وهدم ،
 فابتلام بتكاثر الحيتان في يوم السبت دون غيره ، فكانت آتراءى لهم على
 الساحل في ذلك اليوم قربة المأخذ سهلة الاصطياد فقالوا : لو حفرنا إلى جانب
 ذلك البحر الذي يزخر بالأسماك يوم السبت حياًضاً تنساب إليها المياه في
 ذلك اليوم ثم نصطادها من تلك الحياض في يوم الأحد وما بعده ، وبذلك
 نجتمع بين احترام ما عهد إلينا في يوم السبت ، وبين ما تشتميه أنفسنا من
 الحصول على تلك الأسماك ، فنصحهم فريق منهم بأن عملهم هذا إنما هو
 امتثال ظاهري لأمر الله ، ولكنه في حقيقته خروج عن أمره من ترك الصيد
 في يوم السبت ، فلم يعبأ أكثرهم بذلك ، بل نفذ تلك الحيلة ، فغضب الله عليهم
 ومسخرهم قردة ، وجعلهم عبرة لمن طعروهم ولمن أتى بعدهم .
 والحديث عن أصحاب السبت قد جاء ذكره مفصلاً في سورة الأعراف
 كما جاءت الإشارة إليه في سورتي النحل والنساء .

ثم بين - سبحانه - العقوبة التي حلت بهم بسبب اعتدائهم في يوم
 السبت ، وتحاييلهم على استحلال مصادر الله فقال - تعالى - :
 د فقلنا لهم كونوا قردة خاشمين .

أى : صاغرين مطرودين مبعدين عن الخير أذلاء .
 والخسوء : الطرد والإبعاد . يقال : خسأت السكب خساً وخسوءاً
 - من باب منح - طردته وزجرته ، وذلك إذا قلت له : احسأ .

وجمهور المفسرين على أنهم مسخوا على الحقيقة ثم ماتوا بعد ذلك
بوقت قصير .

ويرى مجاهد أنهم لم تمسخ صورهم ولكن مسخت قلوبهم ، أى : لأنهم
مسخوا مسخاً نفسياً فصاروا كالقردة في شرورها وإفسادها لما تصل إليها أيديها
وتلك العقوبة كانت بسبب إمعانهم في المعاصي ، وتأبيهم عن قبول
الإنصحة ، وضعف إرادتهم أمام مقاومة أطماهم ، وانتكاسهم إلى عالم
الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان ، فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم
من الصغار والهران .

والضمير في قوله « فجعلناها » يعود إلى العقوبة التي هي مسخهم قردة
ود نكالا ، أى عبرة تتكل المتبر بها بحيث تمنه وتردعه من ارتكاب الشر .
يقال : نكل به تنكيلا إذا صنع به صنعا يردعه ويجعل غيره يخاف
ويحذر . والاسم النكال وهو ما نكلت به غيرك ، وأصله من النكس
— بالكسر — وهو القيد الشديد وجمعه أنكال .

وقوله : « لما بين يديها وما خلفها » أى : للذين كانوا قبل هذه العقوبة
وعاشوا حتى شاهدوها ، وللذين أتوا بعدها وعرفوا عن يقين خبرها .
والمعنى : فجعلنا هذه العقوبة عبرة زاجرة لمن كان قبلها وعاش حتى
رآها ولمن أتى بعدها وعلم يقيناً بحال العادين في السبب الذين مسخوا
بسبب عصيانهم تحذيراً له من أن يعمل عملهم ، فيمسخ كما مسخوا ، ويجل
به العذاب الذى حل بهم . كما جعلناها أيضاً دموعاً عظيمة للذين يسمعون
قصتها فهم الذين من شأنهم أن ينتفعوا بالعظات ، ويعتبروا بالمثلات .
ثم ساق القرآن بعد ذلك قصة من قصص بنى إسرائيل تدل على تنطعهم
في الدين ، ومحاواتهم تضيق ما ربه الله عليهم ، وتوهمهم من الانصياع لكلمة
الحق ، وتشككهم في صدق أنبيائهم ، وتعنتهم في السؤال . وهذه القصة هي
قصة أمرهم على لسان نبيهم موسى - عليه السلام - بذبح بقرة . استمع إلى
القرآن الكريم ، وهو يحكى هذه القصة بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ
 يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۗ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُرُوجًا ۗ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ
 أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ
 إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا
 مَا تُمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ
 يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ
 لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ
 لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا
 تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيبَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا أَلَعَنْ جِثَّتْ بِالْحَقِّ فذبحوها
 وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْتُمْ فِيهَا ۗ وَاللَّهُ مُخْرِجُ
 مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۗ كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ
 الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ
 مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ
 لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ
 ۗ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

روى المفسرون أنه كان في بني إسرائيل رجل غني ، وله ان هم ا
لا وارث له سواه ، فلما طال عليه موته قتله ايرته ، وحمله إلى قرية أخرى
فألقوه فيها ، ثم أصبح يطلب ثأره وجاء بناس إلى نبيهم موسى -
السلام- يدعى عليهم القتل ، فسألهم موسى - عليه السلام - فوجدوا
فسألوه أن يدعو الله ليبين لهم بدعائه القاتل الحقيقي ، فدعا موسى
فأوحى الله - تعالى - إليه أن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة ، فقال لهم موسى
(إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ...) (١) .

وقد ساق القرآن الكريم هذه القصة بأسلوبه البديع الذي يأخذ بمجا
القلوب ، ويحرك النفوس إلى النظر والاعتبار ، فقال تعالى :
(وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا ألتخذ
هزواً ، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) .

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا يا بني إسرائيل - لتعتبروا وتمتظوا وقد
أن حدث في أسلافكم قتيل ولم يعرف الجاني ، فطلب بعض أهله وغيره
من يهمة الأمر من موسى - عليه السلام - أن يدعو الله - تعالى - ليكشف
لهم عن القاتل الحقيقي ، فقال لهم (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فدهشوا
وقالوا بسفاهة وحمافة (ألتخذنا هزواً) ؟ أي أجمعلنا موضع سخريتك
(قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) الذين يخبرون عنه بما لم يأمر به
والذي عليه جمهور المفسرين أن أمرهم بذبح البقرة كان بعد تنازعهم
في شأن القاتل من هو ؟ وذلك ليعرف القاتل الحقيقي إذا ضرب القاتل ببعضها
كما سيأتي في قوله تعالى : (وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم
تسكتون) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٧ بتصرف وتلخيص وهناك روايات
أخرى في شأن هذه القصة ذكرها ابن جرير وأبو حيان وغيرهما لم
قد كرها لأنها لا تختلف عن النص الذي سقناه إلا في التفاصيل .

وقد أمرم الله - تعالى - بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات ؛ لأنها من جنس ما عبده وهو العجل ، وفي أمرم بذلك تهوين لشأن هذا الحيوان الذى عظموه وعبده وأحبوه فكأنه - سبحانه - يقول لهم : إن هذا البقر الذى يضرب به المثل فى البلادة ، لا يصلح أن يكون معبوداً من دون الله ، وإنما يصلح للحرث والسقى والعمل والذبح .

وقولهم (أنتخذوا حزوا) ؟ يدل على سفههم وسوء ظنهم بنبيهم وعدم توقيرهم له وجهلهم بعظمة الله - تعالى - وما يجب أن يقابل به أمره من الاقبياد والامثال ، لأنهم لو كانوا عقلاء لامثالوا أمر نبيهم ، وانتظروا النتيجة بعد ذلك . ولكنهم قوم لا يعقلون .

ولما كان قولهم هذا القول يدل على اعتقادهم بأن موسى - عليه السلام - قد أخبر عن الله بما لم يؤمر به ، أجابهم موسى بقوله : (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) : أى أتجىء إلى الله وأبرأ إليه من أن أكون من السفهاء الذين روون عنه الكذب والباطل ، وفى هذا الجواب تبرؤ وتنزه عن الهزء ، وهو المزاح الذى يخالفه احتقار واستخفاف بالمزاح معه - لأنه لا يليق بعقلاء الناس فضلاً عن رسل الله - عليهم السلام - كما أن فيه - أيضاً - ردأ لهم - عن طريق التعريض بهم - إلى جادة الأدب الواجب فى جانب الخالق ، حيث بين لهم أن ما ظنوه به لا يليق إلا بمن يجهل عظمة الله - تعالى - .

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين عند تفسيره الآية الكريمة :

(وقد نبت الآية الكريمة ، على أن الاستهزاء بأمر من أمور الدين جهل كبير ، ومن الجهل ما يلقى صاحبه فى أسوأ العواقب ، ويقذف به فى عذاب الحريق ، ومن هنا منع المحققون من أهل العلم استعمال الآيات كأمثال يضربونها فى مقام المزح والهزل ، وقالوا : إنما أنزل القرآن الكريم ليتلى

بتدبر وخضوع ، وليعمل به بتقبل وخضوع (١) .

هذا وما أرشدهم إليه نبيهم - عليه السلام - كان كافياً لمعلمهم على
 يقبحوا أى بقرة تنفيذاً لأمر ربهم ، ولكن طبيعتهم الملتوية المعقدة لم تفارقهم
 فأخذوا يسألون كما أخبر القرآن عنهم بقوله : قالوا ادع لنا ربك يبين
 ما هي ؟

أى : قال بنو إسرائيل لموسى اطلب لنا من ربك أن يبين لنا حيا
 وصفاتها (٢) . وسبب سؤالهم عن صفتها ، تعجبهم من بقرة مذبوحة بأيديهم
 يضرب ببعضها ميت لتعود إليه الحياة ، وكأنهم - لقلة فهمهم - قد توقعوا
 أن البقرة التى يكون لها أثر فى معرفة قاتل القاتيل ، لا بد أن تكون لها ص
 متميزة عن سائر جنسها .

وسؤالهم بهذه الطريقة يوحى بسوء أدبهم مع الله - تعالى - ومع نبي
 موسى - عليه السلام - لأنهم قالوا ادع لنا ربك ، فكأنما هو رب موسى
 وحده ، لا ربهم كذلك ، وكان المسألة لا تعنيهم هم إنما تعنى موسى ور
 ومع هذا فقد أجابهم لإجابة المربي الحكيم للأنياع السفهاء الذين ابتلى :-
 فقال : (قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض (٣) ولا بكر عوان بين ذلك فأنعم
 ما تؤمرون) .

(١) مجلة لواء الإسلام العدد السابع السنة الثانية ص ٨ .

(٢) (ما) هنا مراد بها السؤال عن الصفة كما يقول من يسمع الناء
 يتكلمون عن حاتم أو الأحنف وقد علم أنهما رجلان ، ولم يعلم صفتيه
 ما حاتم ؟ أو ما الأحنف ؟ فيقال : كريم أو حلیم .

(٣) الفارض المسنة اسم البقرة التى أقطع ولادتها من السكر ، وسمي
 بذلك لأنها فرضت سننها أى قطعها وبلغت آخرها . والبكر هى الفتية مشة
 من البكرة - بالضم - وهى أول النهار ، والمراد بها هنا التى لم تلد . قال
 جرير (البكر من إناث البهائم وبنى آدم ما لم يفتح له الفحل) والعوان هى

أى : قال لهم موسى بعد أن أخبره الله بصفتهما : إنه - تعالى - يقول : إن البقرة التى أمركم بذبجها لا مسنة ولا صغيرة ، بل نصف بينهما ، فأنكروا الإلحاح فى الأسئلة ، وسارعوا إلى امتثال ما أمرتم به .

وقد أكد - سبحانه - جملة (قال إنه يقول إنها بقرة) تزيلاً لهم منزلة المنكرين لتعنتهم فى السؤال ومحاولتهم التوصل بما أمروا به .

ولم يقل القرآن الكريم من أول الأمر : أنها بقرة عوان بل جاء بالوصفين السابقين (لا فارض ولا بكر) للتعريض بغباوتهم ، والتلبيح بعدم فهمهم للأساليب الموجزة ، لذا لجأ فى جوابهم إلى تكثير التوضيف حتى لا يعودوا إلى تكرار الأسئلة .

وقوله تعالى : فافعلوا ما تؤمرون ، يقصد به قطع العذر مع الحض على الطاعة والامتثال . وما موصولة ، والعائد محذوف بعد حذف جاره ، على طريقة التوسع ، أى : إذا كان الأمر كذلك ، فبادروا إلى تنفيذ ما تؤمرون به ، لتصلوا إلى معرفة القائل الحقيقى بأيسر طريق ، ولا تضيقوا على أنفسكم ما وسعه الله لكم ، ولا تكثروا من المراجعة ، فإنها ليست فى مصاحبتكم .

ومع ذلك فقد أبوا إلا تنطعماً ، واستقصاء فى السؤال ، فأخذوا يسألون عن لونها بعد أن عرفوا سننها ، فقالوا كما حكى القرآن عنهم :

(قالوا ادع لنا ربك يبين ما لونها . قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقم لونها تسر الناظرين) .

= المتوسطة فى السن : وصح إضافة (بين) إلى اسم الإشارة (ذلك) لأنه أشير إلى الفارض والبكر . قال ابن جرير : (العوان النصف التى قد ولدت بطناً من بطن . . . وجمعها عون . يقال : امرأة عوان من نسوة عون ، وحره عوان إذا كانت حرباً قد قوتل فيها مرة بعد أخرى) .

والمعنى : قال بنو إسرائيل لئيبهم ، مشددين على أنفسهم بعد أن صفة البقرة من جهة سنها : سل لنا ربك يدين لنا ما لوئها ، لكي يسما الحصول عليها ، فأجابهم بقوله : إنه - تعالى - يقول إن البقرة التي أم بذبحها صفراء فافع لوئها د تعجب في هيئتها ومنظرها وحسن شكلها الذ إليها . . .

قال ابن جرير : د والفقوع في الصفرة فظير النضوع في البياض شدته وصفائه ، (١) .

وقال صاحب الكشاف : د الفقوع أشد ما يكون مع الصفرة ، و يقال في التوكيد أصفر فافع ووارس ، كما يقال : أسود حالك ، . . . فإن قلت : فهلا قيل : صفراء فاقعة ، وأي فائدة في ذكر اللون ؟ قلت : فيه التوكيد ، لأن اللون اسم للهيئة وهي الصفرة ، فكأنه قيل : صفرتها فهو من قولك : جد جده ، (٢) .

وإلى هنا يكونون قد عرفوا وصف البقرة من حيث سنها ووص حيث لوئها ، فهل أغنتهم هذه الأوصاف ؟ ، كلا ! ما أغنتهم . فقد يسألون للمرة الثالثة عما هم في غنى عنه فقالوا كما حكى القرآن عنهم : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا . وإنا إن شاء الله لآهتا قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ، تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، لا شية فيها : قالوا الآن جئت بالحق فذبجوها وما كادوا يفعلون .

ومعنى الآيتين الكریمتين : قال بنو إسرائيل لموسى بعد أن عرفوا البقرة ولوئها : سل من أجلنا ربك أن يزيد لبضاحاً لحال البقرة التي بذبحها . حيث إن البقر الموصوف بالوصفين السابقين كثير ، فاشتبهت أيها فذبح ، وإنا إن شاء الله بعد هذا البيان منك لمهتدون إليها ، ومنفرد

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٣٥ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٩ .

تتكافنا به ، فأجابهم موسى بقوله : وإنما بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى
الجرث ، مسلة لاشية فيها ، أى قال إنه - سبحانه - يقول : إنها بقرة بما تمه
لست مذلة بالعمل في الحراثة ولا في السقى ، وهى بعد ذلك سليمة من
كل عيب ، ليس فيها لون يخالف لونها الذى هو الصفرة الفاقعة ، فلما وجدوا
أن جميع مشخصاتها وميزاتها قد اكتملت ، قالوا الآن جئت بالحق ،
الواضح ، ولم يبق إشكال فى أمرها ، وبجشوا عنها ، وحصلوها ، فذبحوها
وما كادوا يفعلون ، لسكرة أسئلتهم وترددهم .

فقوله - تعالى - : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، حكاية لسؤالهم
الثالث النبى وجهوه إلى نبيهم - عليه السلام - ليزدادوا معرفة بحال البقرة
وصفتها من حيث نفاسها ، بعد أن عرفوا سننها ولونها .

فكأنهم يقولون له : إن فى أجوبتك السابقة عنها تقصيراً يشق معه
تمييزها ، فسل من أجلنا ربك ليزيدنا بياناً لحالها ، وكأنما أحسوا بأنهم قد
أنقلوا عليه وتجاوزوا الحدود المعقولة فى الطلب ، فعملوا ذلك بقولهم .
« إن البقر تشابه علينا ، أى : لانتضايق من كثرة أسئلتنا ، فإن لنا
عذرنا فى هذا التكرار . لأن البقر الموصوف بالعوان وبالصفرة الفاقعة
كثير ، فاستببه علينا أمر تلك البقرة التى تريدنا أن نذبحها .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : دولما لم يعتذروا فى المرتين الأولىين
واعتذروا فى الثالثة ، لأن للثلاثة فى التكرير وقعاً من النفس فى التأكيد
والسأمة وغير ذلك ، ولذا كثر فى أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة ، (١)
وقولهم : دولانا إن شاء الله لمهدون ، حصص لنبيهم موسى - عليه السلام -
على الدعاء ، ووعده بالاطاعة والامتثال ، ودفع للسأمة عن نفسه من كثرة
أسئلتهم ، وتبرير لمسئلتهم فى كثرة المراجعة حتى يتفادوا غضبه ، فكأنهم
يقولون له .

اجتهد فى الدعاء من أجل أن يزيدنا ربك إيضاحاً ، وكشفة لحال تلك

البقرة التي تريد منا أن نذبحها ، وإنا - إن شاء الله - بسبب هذا الإيضاح سنهتدى إليها ، ثم إلى القائل الحقيقي ، وبذلك ندرك الحكمة ، التي أمرنا بها .

قال ابن جرير : وأما قوله تعالى : « وإنا إن شاء الله لمتدون ، فإنهم عنوا وإفان شاء الله لمبين لنا ما التبس علينا وتشابه من أمر البقرة التي أمرنا بذبحها . ومعنى امتدائهم في هذا الموضوع تبينهم أن ذلك الذي لزمهم ذبحه : سواء من أجناس البقر ، (١) .

وفي قوله تعالى : « قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تشير الأرض ، وإنا نرى الحث مسلة لاشية فيها ، إضافة أوصاف جديدة للبقرة المطلوبة كانوا في غنى عنها لو أطاعوا نبيهم من أول الأمر ، ولسكنهم للجاجتهم وسوء اختيارهم ، وبعد أفهامهم عن مقاصد الشريعة ، ضيقوا على أنفسهم دائرة الاختيار ، فأصبحوا مكلفين بالبحث عن بقرة موصوفة بأنها متوسط السن ، لونها أصفر فاقح ، تبهج الناظرين إليها ، وهي ، بعد ذلك ، سائمة نفيسة غير مذلة ولا مدربة على حرث الأرض أو سقى الزرع ، سليمة من العيوب ، ليس فيها لون يخالف لونها الذي هو الصفرة الفاقحة .

وقوله تعالى « لا ذلول » (٢) صفة لبقرة ، يقال : بقرة ذلول ، أي ربيضة زالت صعوبتها ، وإثارة الأرض : تحريكها وقلبها بالحرث والزرع والحرث : شقها لإلقاء البذور فيها .

والمراد : نقي الذل ونقي إثارة الأرض وسقى الزرع عن البقرة المطلوبة . أي : هي بقرة صعبة لم يذلها العمل في حرث الأرض ، ولا في سقى الزرع ، فهي معفاة من العمل في هذه الأشياء . و « لا » في قوله تعالى

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٥٨

(٢) الذلول - بفتح الذال - فعول من ذل ذلا - بكسر الذال - في المصدر بمعنى لان وسهل ، وأما الذل - بضم الذال - فهو ضد العز ، وهما مصدران لفعل واحد خص في الاستعمال أحد المصدرين بأحد المعنيين .

« لا ذلول ، للنبي ، وفي قوله تعالى : « ولا تسقى الحرث » ، مزيدة لتوكيد الأولى ، لأن المعنى : لا ذلول تنير وتسقى ، وأعيد في قوله تعالى « ولا تسقى الحرث » ، مراعاة للاستعمال الفصيح .

وقوله - تعالى - « مسلة لاشية فيها » ، صفتان للبقرة ، « مسلة مفعلة من السلامة .

والشية : اللون المخالف لبقية لون الشيء ، وأصله من وشى الشيء ، وهو تحسين عيوبه التي تكون فيه بضروب مختلفة من ألوان سداه ولخته . والمعنى : إن هذه البقرة سليمة من العيوب المختلفة ، وليس فيها لون يخالف لون جلدها من بياض أو سواد أو غيرهما ، بل هي صفراء كلها .

وأرادوا بالحق في قوله تعالى : « قالوا الآن جئت بالحق » ، الوصف الواضح الذي لا اشتباه فيه ولا احتمال ، فكأنهم يقولون له : الآن فقط - جئنا بحقيقة وصف البقرة ، فقد ميزتها عن جميع ما عداها ، من جهة اللون وكونها من السوائم لا العوامل ، وبذلك لم يبق لنا في شأنها اشتباه أصلاً .

والفاء في قوله تعالى : « فذبحوها وما كادوا يفعلون » ، قد عطفت ما بعدها على محذوف يدل عليه المقام ، والتقدير : فذبحوها فذبحوها ، أي : فذبح قوم موسى البقرة التي وصفها الله - تعالى - لهم ، بعد ما قاربوا أن يتركوا ذبحها ، ويدعوا ما أمروا به ، لنشكركم في صحة ما بوجه لإيهم من إرشادات والكرثة مما طلتهم .

قال صاحب الكشاف : وقوله تعالى : « وما كادوا يفعلون » ، استئصال لاستقصائهم ، وأنهم لتطويلهم المفرط . وكثرة استكشافهم ، ما كادوا يذبحونها وما كادت تنتهي سؤالاتهم ، وما كاد ينقطع خيط إسهابهم فيها وتمتعهم ، وقيل : ما كادوا يذبحونها اغلاء ثمنها ، وقيل لخوف الفضيحة في ظهور القاتل ، (١) .

ثم كشف الله - تعالى - بعد ذلك عن الغاية التي من أجلها أمروا بهذ
البقرة فقال تعالى : « واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمه
فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون
المعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل إذ قتلتم نفساً ، فاختلفتم وتنازعتم
فانزلنا ، ودفع كل واحد منكم التهمة عن نفسه ، والله - عز وجل - مخبر
لا محالة ما كنتم من أمر القاتل ، فقد بين - سبحانه - الحق في ذا
فقال على لسان رسوله موسى - عليه السلام - اضربوا القاتل بأى جزء
أجزاء البقرة ، فضربتموه ببعضها فعادت إليه الحياة - بإذن الله - وأخ
عن قاتله ، وبمثل هذا الإحياء لذلك القاتل بعد موته ، يحيى الله - المو
للحساب والجزاء يوم القيامة ، وبين لكم الدلائل الدالة على أنه قد يرد
كل شيء رجاء أن تعقلوا الأمور على وجهها السليم .

وجهور المفسرين على أن واقعة قتل النفس وتنازعهم فيها ، حصل
قبل الأمر بذبح البقرة ، إلا أن القرآن الكريم أخرها في الذكر ليعا
هلى بنى إسرائيل جناباتهم وليشوق النفوس إلى معرفة الحكمة من ور
الأمر بذبحها ، فتنقلها بشغف واهتمام .

قال صاحب الكشاف . فإن قلت فما للقصة لم تقصر على ترتيبها ، وك
حقها أن يقدم ذكر القتل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ، و
يقال : إذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها
قلت : كل ما قص من قصص بنى إسرائيل إنما قص تعدد ما وجد منهم
الجنايات ، وتقريراً لهم عليها ، ولما جدد فيهم من الآيات العظام ، وهات
قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التفرع وإن كانتا متصلتين متحدثين
فالأولى لتقريبهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال وما يتبع ذلك
والثانية : للتفرع على قتل النفس المحرمة وما تبعه من الآية العظيمة
ولما قدم قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتل ، لأنه لو عمل
هكذا لكانت القصة واحدة ، ولذهب الغرض من تثنية التفرع ، ولا

روعت نكتة بعد ما استوفت الثانية استئناف قصة برأسها ، أن وصلت
بالأولى ، دلالة على اتحادهما ، بضمير البقرة لا باسمها الصريح في قوله :
« اضربوه ببعضها » ، حتى تبين أنهما قصتان فيها يرجع إلى التفرع ونيته ،
ياخراج الثانية مخرج الاستئناف مع تأخيرها ، وأنها قصة واحدة بالضمير
الراجع إلى البقرة ، (١) .

وقد أسند القرآن الكريم القتل إلى جميعهم في قوله تعالى « وإذ قتلتم » مع أن
القاتل بعضهم ، للإشعار بأن الأمة في مجمرها وتكافلها كالشخص الواحد .
وأسند القتل - أيضاً - إلى اليهود المعاصرين للعهد النبوي ، لأنهم
من سلالات أولئك الذين حدث فيهم القتل ، وكثيراً ما يستعمل القرآن
الكريم هذا الأسلوب للتنبية على أن الخلف قد سار على طريقة السلف
في الإحراف والضلال .

وقوله تعالى « فادارأتم فيها » بيان لما حصل منهم بعد قتل النفس التي
ذكرنا قصتها ومعنى ادارأتم فيها : اختلفتم وتخاصمتم في شأنها لأن المتخاصمين
يدزأ بعضهم بعضاً أي يدفعه ويضحه ، أي تدافعتم بمعنى طرح قتالها بعضهم
على بعض فدفع المطروح عليه الطارح ، ليدفع الجناية عن نفسه ويثم غيره .
وقوله تعالى : « والله مخرج ما كنتم تكتمون » معناه : والله - تعالى -
مظهر ومعلن ما كنتم تسترونه من أمر القتل الذي قتلتموه ، ثم تنازعتم في
شأن قاتله ، وذلك ليتبين القاتل الحقيقي بدون أن يظلم غيره .

وهذه الجملة الكريمة « والله مخرج ما كنتم تكتمون » معترضة بين
قوله تعالى « فادارأتم » وبين قوله تعالى : « فقلنا اضربوه ببعضها » .
وفائدته إشعار المخاطبين قبل أن يسمعوها ما أمروا بفعله ، بأن القاتل
الحقيقي سينكشف أمره لا محالة .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : (وإنما تعلق إرادة الله بكشف حال

من قتل هذا القتيل - مع أنه ، ليس أول قتيل ظل دمه في الأمم -
 لإكراماً لموسى - عليه السلام - أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم ،
 وبمراى ومسمع منه ، لا سيما وقد قصد القاتلون استغفاله ودبروا المكيدة في
 إظهار المطالبة بدمه ، فلم يظهر الله - تعالى - هذا الدم وبين سافكه -
 لضعف يقين القوم برسولهم موسى - عليه السلام - ولما كان ذلك مما يزيد
 شكهم في صدقه فينقلبوا كافرين ، فكان إظهار القاتل الحقيقي لإكراماً
 من الله تعالى - لموسى ، ورحمة بالقوم لثلاثاً بصلوا ، (١) .

وقوله تعالى : (فقلنا اضربوه ببعضها) إرشاد لهم إلى الوسيلة التي عن
 طريقها سيهدون إلى القاتل الحقيقي ، والضمير في قوله (اضربوه) يعود
 على النفس ، وقد كبره داعى فيه معناها هو الشخص أو القتيل .

وضرب القتيل ببعضها - أي كان ذلك البعض - دليل على كمال قدرة الله
 تعالى . وفيه تيسير عليهم . وإسم الإشارة في قوله تعالى : (كذلك يحيى الله
 الموتى) مشار به إلى محذوف دل عليه سياق الكلام .

والتقدير : فقلنا لقوم موسى الذين تنازعوا في شأن القتيل اضربوه
 ببعض البقرة ليحيها ، فضره ودفأه - أي الله ، وأخبر القتيل عن قاتله ، وكمثل
 لإحيائه يحيى الله الموتى في الآخرة لأشواب والعقاب .

وبذلك تكون الآية ظاهرة في أن الذي ضرب يبيض البقرة قد صار
 حياً بعد موته .

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - : فإن قيل : وما كان معنى الأمر
 بضرب القتيل ببعضها ؟ قيل : ليحيها فينبى . نبى الله والذين أداروا فيه
 من قاتله .

فإن قال : وأين الخبر عن أن الله - تعالى - أمرهم بذلك ؟ قيل :
 ترك ذلك إكتفاءً بدلالة ما ذكر من الكلام الدال عليه ، والمعنى : فقلنا

أضربوه ببعضها ليحييا فضربوه فحيى ، يدل على ذلك قوله تعالى : (كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون) (١) .

والمقصود بالآيات في قوله تعالى : (ويريكم آياته لعلكم تعقلون) الدلائل الدالة على أن الله على كل شيء قدير والى منها ما شاهدوه بأعينهم من قراب الحياة على ضرب القتل بمصوميت ، وأخباره عن قاتله ، واهتدائهم بسبب ذلك إلى القاتل الحقيقي . وذلك لكل تستعملوا عقولكم في الخبر . وتوفروا بأن من قدر على إحياء نفس ، واحدة فهو قادر على إحياء الألفس جميعا لأنه - سبحانه - لا يصعب عليه شيء .

هذا ولصاحب المنار - رحمه الله - رأى في تفسير الآية الكريمة ، فهو يرى أن المراد بالإحياء في قوله تعالى (كذلك يحيى الله الموتى) حفظ الدماء واستبقاؤها وليس المراد به عنده الإحياء الحقيقي بعد الموت .

فقد قال في تفسيره : (وأما قوله تعالى : (فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى) فهو بيان لإخراج ما يكتمون ، ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة . قيل : إن المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بمخاضها وقيل بذنبها ، وقالوا : أهم ضربوه فعادت إليه الحياة ، وقال قتلى أخى أو ابن فلان ، الخ ما قالوه ، والآية ليست أيضاً نصاً في مجمله فكيف بتفصيله ، والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القاتل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجاني من غيره فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برى من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية .

ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس ، أى يحييها بمثل هذه الأحكام ، وهذا الإحياء على حد قوله تعالى (ومن أحيياها فكأنما أحييا الناس جميعاً) وقوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) .

فالإحياء هنا معناه الاستيقاظ كما هو المعنى في اليتين (١) . . .
والذى نراه أن المراد بالإحياء في قوله تعالى ، كذلك يحيى الله الموتى ،
الإحياء الحقيقي للميت بعد موته ، وأن تفسيره بحفظ الدماء واستبقائها
ضعيف لما يأتي :

أولاً : مخالفته لما ورد عن السلف في تفسير الآية الكريمة فقد أخرج
ابن جرير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « لما ضرب المقنول
بعضها - يعنى ببعض البقرة - جلس حياً ، فقيل له من قتلك ؟ قاله : بنو
أخي فنلوني ثم قبض (٢) . . »

ثانياً : ما ذهب إليه صاحب المنار لا يدل عليه القرآن الكريم لا إجمالاً
ولا تفصيلاً ، ولا تصريحاً ولا تلميحاً ، لأن قوله تعالى ، كذلك يحيى الله
الموتى ، ظاهر كل الظهور ، في أن المراد بالإحياء رد الحياة إليهم بعد ذهابها
عنهم ، إذ الموتى هم الذين ماتوا بالفعل ، وإحيائهم رد أرواحهم بعد موتهم
وليس هناك نص صحيح يعتمد عليه في مخالفة هذا الظاهر ، ولا توجد أيضاً
قرينة مانعة من إرادة هذا المعنى المتبادر من الآية بأدنى تأمل وما دام الأمر
كذلك فلا يجوز تأويله بما يخالف ما يدل عليه اللفظ دلالة واضحة ، ومن
التعسف الظاهر أن يراد من الموتى الأحياء من الناس ، وإحياء الموتى تشريع
العقوبات صوتاً لدماء الأحياء منهم والله تعالى حينما أراد أن يدل على هذا
المعنى قال (واكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون) .
فهذه الآية الكريمة تدل على أن القصاص من الجناة يحفظ على الناس
حياتهم بدون التواء أو تعمية .

ثالثاً : تفسير الإحياء برد الحياة إلى الموتى ، كما قال المفسرون ، يؤدي
إلى غرس الإيمان بصحة البعث في القلوب ، لأن المعنى عليه ، كهذا الإحياء

(١) تفسير المنار ج ١ ص ١٥١ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٤٢ .

العجيب - وهو إحياء القتيل بضربه ببعض البقرة ليخبر عن قاتله - يحيى الله الموتى بأن يبعثهم من قبورهم يوم القيامة ، ليحاسبهم على أعمالهم ، فيكون إثباتاً للبعث عن طريق المشاهدة حتى لا ينسكروا منكم .

رابعاً : قوله تعالى بعد ذلك « ويريكم آياته لعلكم تعقلون » ، قرينة قوية على أن المراد بالإحياء ، رد الحياة إلى الموتى بعد موتهم لأن المراد (بآياته) في هذا الموضع ، - كما قال المفسرون - الدلائل الدالة على عظم قدرته - تعالى - وذلك إنما يكون في خالق الأمور العجيبة الخارقة للعادة ، والتي ليست في طاقة البشر ، كإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم للحساب والجزاء . . .

ثم بين القرآن الكريم ، بعد ذلك أن هذه المعجزات الباهرة التي تزلزل المشاعر ، وتمز القلوب ، وتبعث في النفوس الإيمان ، لم تؤثر في قلوب بني إسرائيل الصلدة لانه قد طرأ عليهم بعد رؤيتها ما أزال آثارها من قلوبهم ، وبما الاعتبار بها من عقولهم ، فقال تعالى : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون) .

والمعنى : ثم صلبت قلوبكم - يا بني إسرائيل - وغلظت من بعد أن رأيتم ما رأيتم من معجزات منها لإحياء القتيل أمام أعينكم ، فهي كالحجارة في صلابتها وبيوستها ، بل هي أشد صلابة منها ، لأن من الحجارة ما فيه ثقب متعدد ، وخروق متسعة ، فتندفق منه مياه الأنهار التي تعود بالمنافع على المخاوقات ، ولأن من بينها ما يتصدع تصدعاً قليلاً فيخرج منه ماء العيون والآبار ولأن منها ما يردى من رأس الجبل إلى الأرض والسفح من خوف الله وخشيته . أما أنتم - يا بني إسرائيل - فإن قلوبكم لا تتأثر بالمواعظ ولا تنقاد للخير ، ولا تفعل ما تؤمر به ، مهما تعاقبت عليكم النعم والنقم والآيات ، وما الله بغافل عما تعملون :

وقوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » ، بيان لما طرأ على قلوب بني إسرائيل من بُعد عن الاعتبار ، وعدم تأثر بالعظات وإعراض عن الإنابة والإذعان لآيات الله وتحلل من الموائيق التي أقروا بها على أنفسهم .

وجيء (بثم) التي هي للترتيب والعراخي ، لإستيماد استيلاء الغلظة والقسوة على قلوبهم بعد أن رأوا الكثير من المعجزات ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم - بعد أن ساق لهم قصة البقرة وما ترتب عليها من منافع وعبر : ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم - يا بني إسرائيل - ولم تفدكم المعجزات : فقست قلوبكم وكان من المسبب أن تقسوا .

وقوله تعالى : (من بعد ذلك) فيه زيادة تعجيب من إحاطة القسوة بقلوبهم ، بعد توالي النعم ، وتكاثر المعجزات التي أشار القرآن الكريم إلى بعضها في الآيات السابقة .

واسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى إحياء القتيل بعد ضربه بجزء من البقرة أو إلى جميع النعم والمعجزات الواردة في الآيات السابقة .

(أو) في قوله تعالى : « فهي كالحجارة أو أشد قسوة » قيل : للتنويع ، فإن قلوبهم متفاوتة في القسوة ، فمنها ما هو قاس كالحجارة ، ومنها ما هو أشد منها قسوة ، أي : فبعض قلوبكم كالحجارة في صلابتها وبعضها أشد من الحجارة في صلابتها .

وقيل : التشكيك بالنسبة للمخاطبين ، لا إلى المنكلم ، كأن يقول أحد الناس لآخر ، إن هذه القلوب قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها . والأظهر أن تكون للإضراب على طريقة المبالغة والمعنى : ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة بل هي أشد منها قسوة ، إذ لا شعور فيها يأتي بخير ، والحجارة ليست كذلك .

وشبهه - سبحانه - قلوبهم بالحجارة في القسوة ، لأن صلابة الحجر أعرف
للناس وأشهر ، حيث إنها محسوسة لديهم ومتعارفة بينهم ولذلك جاء التشبيه بها .
قال صاحب الكشف : فإن قلت لم قيل أشد قسوة ، وفعل القسوة بما
يخرج منه أفعال التفضيل وفعل التعجب ؟ قلت : لسكونه أبين وأدل على
فرط القسوة ، ووجه آخر ، وهو أن لا يقصد معنى الأقسى ولكن قصد
وصف القسوة بالشدّة . كأنه قيل اشتدت قسوة الحجارة ، وقلوبهم أشد
قسوة . .

وقوله تعالى : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما
يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، بيان لفضل الحجارة
على قلوبهم القاسية ، قصد به إظهار زيادة قسوة قلوبهم عن الحجارة ، لأن
هذا الأمر لغرابته يحتاج إلى بيان سببه .

فكأنه - سبحانه - يقول لهم . إن هذه الحجارة على صلابتها وببوستها منها
ما تحدث فيه المياه خروفاً واسعة تندفق منها الأنهار الجارية النافعة ، ومنها
ما تحدث فيه المياه شقوقاً مختلفة تنجم عنها العيون النافعة ، والآبار الجوفية
المفيدة . ومنها ما ينقاد لأوامر الله عن طواعية وامتثال . أما قلوبكم أنتم فلا
يصدر عنها نفع ، ولا تتأثر بالعظات والعبر ، ولا تنقاد للحكم التي من شأنها
هداية النفوس .

وقوله تعالى : « وما الله بغافل عما تعملون » تهديد وتخويف ، حيث
إنه - سبحانه - سبحانه على أعمالهم ، وسيدينهم ما يستحقونه من عقاب
جزاء وجودهم لنعمه ، وعصيانهم لأمره .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت بني إسرائيل بما هم أهل . من
قساوة القلب وانطماس البصيرة ، وعدم التأثر بالعظات مهما كثرت .
وبالآيات مهما توالى .

ما يؤخذ من هذه القصة من العظات والعبر :

اشتملت هذه القصة على كثير من العظات والتوجيهات الإلهية من ذلك .

١ - دلالتها على ما جبل عليه بنو إسرائيل من نظافة وغلظة ، وسوء أدب مع مرشديهم ، وإحفاء في الأسئلة بلا موجب ، وعدم استعداد للتسليم بما يأتيهم به الرسل ، ومعاملة في الانصياع للتكاليف ، وانحراف عن الطريق المستقيم .

٢ - دلالتها على صدق النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما يبلغه عن ربه ، فقد أخبر في هذه القصة الواقعية التي لم يشهد حوادثها بما أوحاه الله إليه وهذا الإخبار من أعلام نبوته (صلى الله عليه وسلم) كما أنها تدل على صدق نبوة موسى - عليه السلام - وأنه رسول من رب العالمين .

٣ - دلالتها على أن التنطع في الدين ، والإلحاف في المسألة يؤديان إلى التشديد في الأحكام ، لأن بنى إسرائيل لو أنهم أول الأمر عمدوا إلى ذبح أى بقرة لأجزأتهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشد الله عليهم .
أخرج ابن جرير - رحمه الله - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : لو أن القوم أخذوا أدنى بقرة لأجزأتهم . لكنهم شددوا فشد الله عليهم ، (١) .

وقد أدى بهم هذا التنطع والتشديد إلى تضيق دائرة اختيارهم ، وتكثير الشروط التي يجب توفرها في البقرة المطلوبة ، وذلك لتأديبهم على معاملتهم وبلادة عقولهم ، وسوء تلقينهم للشريعة بأنواع من التقصير عملا وشكرا وفهما ، وبذلك يعلم أن ما كلفهم الله به أولا هو ذبح بقرة ما ، وأن ما أمروا به بعد ذلك من كونها صفراء مسالمة من آثار الخدمة ليس من باب تأخير البيان عن وقت الخطاب ، وإنما هو تشريع طارئ . قصد منه تأديبهم على تعنتهم ولجاجهم وكثرة أسئلتهم .

وقد جاءت تعاليم الإسلام بالنهي عن كثرة السؤال قال تعالى :
«يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسوكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم عفاً عنها والله غفور رحيم قد سأها قوم

من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين .

وفي الحديث الشريف : ذروني ما تركنكم ، فإنما أملك من كان قبلكم بكثرة أسئلتهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوه ، وإذا نهيتكم عن شيء فانهوا عنه ما استطعتم ، (١) .

قال صاحب المنار : وقد امتثل سلفنا لأمر الله فلم يشددوا على أنفسهم ، فكان الدين عندهم فطرياً وحنيفياً سمحاً ، واسكن من خلفهم عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكاماً استنبطها باجتهاده ، حتى صار الدين حملات ثقيلاً على الأمة فستمته وملت وأثقت وتخلت ، (٢) .

٤ - قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : وفي هذه القصة أنواع

من العبر منها .

(أ) أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه إلا بتفكير ، فإن القوم لما قال لهم نبيهم (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قبلوا هذا الأمر بقولهم : (أنتخذنا هزواً) فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سألوا عنه قالوا : أنتخذنا هزواً ، وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله ، فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك ، ولم يكن هو الأمر به ، ولو كان هو الأمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك فلما قال لهم : دأعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، وتيقنوا أن الله تعالى أمره بذلك ، أخذوا في التمتع بسؤالهم عن عينها ولونها ، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة ، فلما نعتت لهم ولم يبق لإشكال توقفوا في الامتثال ، ولم يكادوا يفعلون .

ثم من أقيح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم : (الآن جئت بالحق) فإن أراذوا بذلك : أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة ، فتلك ردة وكفر

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٤٧ .

(٢) تفسير المنار ج ١ ص ٣٤٦ .

ظاهر ، وإن أرادوا : أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور
بذبحها فذلك جهل ظاهر ، فإن البيان قد حصل بقوله : (إن الله يأمركم
أن تذبحوا بقرة) فإنه لا إجمال في الأمر ولا في الفعل ولا في المذبح فقد
جاء رسول الله بالحق من أول مرة .

قال الإمام بن جرير : « وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا
عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى « الآن جئت بالحق » وزعم أن ذلك نبي
منهم أن يكون موسى - عليه السلام - أتاهم بالحق في أمر البقرة قبل ذلك ،
وأن ذلك كفر منهم ، وليس الأمر كما قال عندنا ، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة
بذبحها ، وإن كان قولهم الذي قالوه لموسى يعد من جهالاتهم وهفوة من
هفواتهم ، »

(ب) ومنها : الدلالة على صحة ما انفقت عليه الرسل من أولهم إلى
خاتمهم من معاد الأبدان ، وقيام الموتى من قبورهم .

(ج) ومنها : إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق
المتنوعات ، وزيادة في هداية المهتدي ، وإعذارا وإنذارا للضال :
(د) ومنها : الإخبار عن مساواة هذه الأمة وعاظها ، وعدم تمكن
الإيمان فيها .

قال عبد الصمد بن معقل عن وهب : كان ابن عباس يقول (إن القوم
بعد أن أحيا الله - تعالى - الميت فأخبرهم بقائه ، أنسكروا قتله ، وقالوا :
والله ما قتلناه بعد أن رأوا الآيات الحق ، »

(هـ) ومنها : مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدرأ ، فإن
القاتل قصد ميراث المقتول ، ودفع القاتل عن نفسه ، ففضحة الله - تعالى -
وهتكه ، وحرمه ميراث المقتول .

(و) ومنها : أن نبي إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من سائر الدواب ففتنوا
بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة ، والبقرة من أبلد الحيوان حتى
ليضرب به المثل في البلادة .

ثم قال الامام ابن القيم في ختام حديثه عن هذه القصة : والظاهر أن هذه كانت بعد قصة العجل ؛ ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمنع من الذبح والحرق والسقى ، لا يصلح أن يكون لها معبوداً من دون الله ، وأنه إنما يصلح للذبح والحرق والسقى والعمل ، (١)

هـ - دلالتها على قدرة الله - تعالى - فإن إحياء الميت عن طريق الضرب بقطعة من جسم بقرة مذبوحة - دليل على قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة وما هذا الضرب إلا وسيلة كشفت للناس عن طريق المشاهدة عن آثار قدرته - تعالى - التي لا يدرون كيف تعمل ، فهم يرون آثارها الخارقة ولكنهم لا يعرفون كتبها ، وصدق الله حيث يقول : « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون » .

وإلى هنا تكون هذه القصة قد دمغت بنى إسرائيل برذيلة التنطع في الدين ، والتعننت في الأسئلة ، والإسائة إلى نبيهم - عليه السلام - وعدم اعتبارهم بالعضات والمثلات . لتساوة قلوبهم ، وسوء طباعهم ، وانطماس بصيرتهم ، ومن يضلل الله فما له من هاد .

ثم ساق القرآن بعد ذلك لونا آخر من ألوان رذائلهم . ويتمثل هذا اللون في تحريفهم للحكم عن مواضعه ، واشترائهم بأيات الله ثمناً قليلاً ، وذلك لتسوية قلوبهم ، وانطماس بصيرتهم ، وبيعهم الدين بالقليل من حطام الدنيا ، قال - تعالى - .

(١) إغاثة اللامهان ج ٢ ص ٣٠ لابن القيم .

أَفْتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ
 اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا
 بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾
 أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ
 لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ قَوْلٌ لِلَّذِينَ
 يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ
 ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لِمَنْ كَتَبَ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

والآيات الكريمة التي معنا قد افتتحت بتبشيس المؤمنين من دخول اليهود
 في الإسلام ولكن هذا التبشيس قد سبق بما يدعوه ويؤيده ، فقد بينت الآيات
 السابقة عليها موقف اليهود الجحودى من نعم الله - عز وجل - كما بينت
 تنظهم في الدين ، وسوء إدراكهم لمقاصد الشريعة ، وقساوة قلوبهم من بعد أن
 رأوا من الآيات البينات ما رأوا ، وبعد هذا البيان الموحى بالقنوط من استجابتهم
 للحق ، خاطب الله المؤمنين بقوله :

أفطمعون (١) أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله
 ثم يحرفونه (٢) من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

(١) الطمع تعلق النفس بالحصول على شيء مرغوب تعلقاً قوياً .

(٢) التحريف أصله مصدر حرف الشيء يحرفه إذا مال به إلى الحرف ، وهو
 يقتضى الخروج عن جادة الطريق ، ولما شاع تشبيه الحق والصواب بالجادة
 وبالصراط المستقيم ، شاع في تشبيهه ما خالف ذلك بالانحراف .

ومعنى الآية الكريمة : أفتظنون - أيها المؤمنون - بعد أن وصفت لكم حال اليهود ما وصفت من جحود ونكران ، أن يدخلوا في الإسلام . والحال كان فريق من علمائهم وأخبارهم يسمعون كلام الله ثم يميلونه عن وجه الصحيح من بعد ما فهموه ، وهم يعلمون أنهم كاذبون بهذا التحريف على تعالى ، أو يعلمون ما يستحقه محرفه من الخزي والعذاب الأليم .

فالخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين ، والاستفهام يقصد به الإنذار عليهم ، إذ ظمعوا في استجابة اليهود لدعوة الحق ، بعد أن علموا - أحوالهم ، وفساد نفوسهم . والنهي عن الطمع في إيمانهم لا يقتضى دعوتهم إلى الإيمان ، فالؤمنون مأمورون بدعوتهم إليه ، لإقامة الله عليهم في الدنيا عند إجراء أحكام الكفر عليهم ، ولقطع عندهم في الآخرة . وقد تصادف الدعوة إلى الإسلام نفوساً منصفه تستجيب لدعوة الحق ، وتتها إلى الطريق المستقيم ، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم وأصحابه من بعده . ولكن اليهود صموا آذانهم عن الحق بعد ما عرفوا فأصبحت دعوتهم إلى الإسلام غير مجدية ، وهنا يأتي النهي عن الطمع في إيمانهم بهذه الآية وأمثالها ،

وجملة « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، حالية ، مشتملة على بيان أحد الأسباب الداعية إلى القنوط من إيمانهم ، وبذلك يكون التقني من إيمانهم قد علل بعلمتين :

إحداهما ، ما سبق هذه الآية من تصوير لأحوالهم السيئة .

والثانية : ما تضمنته هذه الجملة الكريمة من تحريفهم لكلام الله ،

علم وتعمد .

والمراد بالفريق في قوله تعالى : « وقد كان فريق منهم ، أخبار

وعلمائهم الذين عاصروا الرسل الكرام ، فسمعوا منهم ، أو الذين أتوا بعدهم فنقلوا عنهم .

والتحريف أصله انحراف الشيء عن جهته وميله عنها إلى غيره

والمراد به هنا : إخراج الوحي والشريعة عما جاءت به ، بالتغيير والتبديل في الألفاظ ، أو بالكتمان والتأويل الفاسد ، والتفسير الباطل .

وقوله تعالى : **د** ثم يحرفونه من بعد عقولهم وهم يعلمون ، زيادته تشنيع عليهم ، حيث إنهم حرفوا كلام الله بعد فهمهم له عن تعمد وسوء نية ، وارتكبوا هذا الفعل الشنيع ، رغم علمهم بما يستحقه مرتكبه من عقوبة دينية وأخرية .

ففي هذين القيد من النعمى عليهم ما لا مزيد عليه ، حيث أبطل بهما عذر الجهل والنسيان ، وسجل عليهم تعمد الفسوق والعصيان .
ولما كان قيام الفريق من أحبار اليهود بتحريف الكتاب سبباً في اليأس من إيمان عامتهم ، لأن هؤلاء العامة المقلدون ، قد تلقوا دينهم عن قوم فاسقين ، دون أن يلتفتوا إلى الحق ، أو يتجهوا إلى النظر في الأدلة الموصلة إليه ، وأمثال هؤلاء الذين شبوا على عمية التقليد ، وغواية الشيطان ، لا يرجى منهم الوصول إلى نور الحق ، وجلال الصدق ، ولأن أمة بلغ الحال بعلمائها — وهم مظهر عمادها — أن يحرفوا على كلام الله فيحرفوه لا تفتقر من دهراتها أن يكونوا خير أئمتهم حالاً أو أسعد مآلاً .

ثم أخبر القرآن الكريم عن بعضهم ، بأنهم قد ضموا إلى رذيلة التحريف رذيلة النفاق والتدليس فقال تعالى : **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتوح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون .** أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون .

والمعنى : وإذا ما اتلافى المنافقون من اليهود مع المؤمنين ، قالوا لهم نفاقاً وخداعاً . صدقنا أن ما أنتم عليه هو الحق . وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) رسول من عند الله ، وإذا ما انفرد بعض اليهود ببعض قال الذين لم ينافقوا لإخراهم الذين نافقوا معاتبين : أنتخرون المؤمنين بما بينه لكم في كتابكم بما يشهد بحقية ما هم عليه ، لتسكون لهم الحجة عليكم يوم القيامة ، أفلا تعقلون أن هذا التحديث يقيم الحجة لهم عليكم ؟

قآلآة الكريمة فيها بآار لنوع آخر من مساوىء اليهود ومخازيمهم التي تدعو الى اليبأس من إيمانهم وتكشف النقاب عما كانوا يضمرونه من قديس (١) قال الإمام الرازى : وما عاذلوهم على ذلك لأن اليهودى اذا اعترف بصحة التوراة ، واعترف بشهادتها على صدق النبى (صلى الله عليه وسلم) كانت الحججة قوية عليه ، فلا جرم كان بعضهم يمنع بعضاً من الاعتراف بذلك أمام المؤمنين ، (٢) .

والاستفهام فى قوله تعالى : ءأتحدثونهم بما فتح الله عليكم ، للإنكار والتوبيخ والفتح يطلق على القضاء ومنه قوله تعالى : دربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ، أى : افض بيننا وبين قومنا بالحق .

قال ابن جرير : (أصل الفتح فى كلام العرب القضاء والحكم والمعنى أتحدثونهم بما حكم الله به عليكم وقضاء فيكم ؟ ومن حكمه - تعالى - وقضائه فيهم أخذه ميثاقهم بأن يؤمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) فقد بشرت به التوراة ، (٣) .

وقوله تعالى : ءليحاجوكم به عند ربكم ، متعلق بالتحديث ومرادهم تأكيد النكير على إخوانهم الذين أظهروا لإيمانهم نفاقاً ، فكأنهم يقولون لهم : أتحدثون المؤمنين بما يفضحكم يوم القيامة أمام الخالق - عز وجل - وفى حكمه وقضائه ، لأنهم سيقولون لكم . ألم تحدثونا فى الدنيا بما فى كتابكم من حقيقة ديننا وصدق نبينا؟ فيكون ذلك زائداً فى ظهور فضيحتكم .

(١) والضمير فى (لقوا) الأولى يعود الى فريق اليهود الذين أظهروا الإسلام نفاقاً ، وفى (قالوا) الثانية يعود الى فريق اليهود الذين بقوا على يهوديتهم ، والذين كانوا يلومون من نافقوا منهم لتحديثه المؤمنين بما يشهد بصدق محمد (صلى الله عليه وسلم) .

(٢) تفسير الرازى ج ١ ص ٤٠٠

(٣) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٨٠

وتوييخكم على رموس الخلائق يوم الموقف العظيم ، لأنه ليس من اعترف
بالحق ثم كتم كمن ثبت على الإنكار .

وجملة « أفلا تعلمون » ، من بقية مقولهم لمن نافق منهم . وقد أتوا بها
لزيادة توييخهم لهم حتى لا يعودوا إلى التحدث مع المؤمنين .
والمعنى : أليست لكم عقول تهجزكم عن أن تحدثوا المؤمنين بما يقيم
لهم الحجة عابكم يوم القيامة ؟

ثم ونهضهم الله على جهلهم بحقيقة علمه فقال تعالى : « أولاً يعلمون أن الله
يعلم ما يسرون وما يعلنون . أى : أيقول الذين لم ينافقوا من اليهود لإخوانهم
الذين نافقوا ما قالوا ، ويكتمون من صفات النبي صلى الله عليه وسلم ،
ما كتموا ، ويحرفون من كتاب الله ما حرفوا ، ولا يعلمون أن الله يعلم
ما يخفون من كفر وحقد ، وما يظهرون من إيمان وود ؟ »

فالآية الكريمة فيها توييخ وتجهيل لليهود الذين عاقبوا المنافقين منهم على تحديث
المؤمنين بما في توراتهم مما يؤيد صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنهم لو
كانوا مؤمنين إيماناً صادقاً باحاطة علمه بسرهم وعلائقهم ، لما نهبوا حوائجهم
عن تحديث المؤمنين بما فيها فإن ما فيها من صفات للنبي صلى الله عليه
وسلم ، من الحقائق التي أمرهم الله ببيائها ونهاهم عن كتابها .

ثم بين القرآن الكريم بعد ذلك حال عوام اليهود ومقلديهم ، بعد أن بين
حال علمائهم ومنافقيهم فقال تعالى : « ومنهم أميون لا يعملون الكتاب
إلا أمانى وإن هم إلا يظنون . (١) أى : ومن اليهود قوم أميون لا يحسنون
الكتابة ، ولا يعلمون من كتابهم التوراة سداً أكاذيب اختلقها لهم علماءهم
أو أمانيات باطلة يقدرونها في أنفسهم بدون حق ، أو قراءات عارية عن
التدبر والفهم ، وقصارى أمرهم الظن من غير أن يصلوا إلى مرتبة اليقين
المبنى على البرهان القاطع والدليل الساطع .

(١) الأميون جمع أمى ، وهو الذى لا يحسن الكتابة والقراءة .

فألا، الكريمة فيها زيادة تبيس للمؤمنين من إيمان كافة اليهود بفرقهم المختلفة . فإنهم قد وصلوا إلى حال من الشناعة لا مطمع معها في هداية ، فمعلمائهم يعرفون لكتاب الله على حسب أهوائهم وشهواتهم ، وعوامهم لا يعرفون من كتابهم إلا الأكاذيب والأوهام التي وضعها لهم أحبارهم ، وأمة هذا شأن علمائها وعوامها لا ينتظر منها أن تستجيب للحق أو أن تقبل على الصراط المستقيم .

و « الأمانى » - بالتشديد - جمع أمنية ، مأخوذة من تمنى الشيء - أى أحب أن يحصل عليه ، أو من تمنى إذا كذب ، أو من تمنى الكتاب أى قرأه فإن فسرنا الأمانى بالأول كان قوله تعالى « إلا أمانى » معناه : إلا ما هم عليه من أمانيتهم فى أن الله لا يؤاخذهم بخطاياهم ، وأن آباؤهم الأنبياء يشفعون لهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات .

وإن فسرناها بالكذب ، كان قوله تعالى « إلا أمانى » معناه : إلا أكاذيب مختلفة ، سمعوا من أحبارهم فقبلوها على التقليد .

وإن فسرنا الأمنية بالقراءة كان قوله تعالى « إلا أمانى » معناه : إلا يقرءونه من قراءات خالية من التدبر ، وعارية عن الفهم . من قوله تمنى كتاب الله أول ليله . . . أى قرأ .

هذا ، وقد رجح ابن جرير تفسير « الأمانى » بالأكاذيب فقال : ما ملأنا من أولى ما روينا فى تأويل قوله تعالى : « إلا أمانى » بالصواب ، أن هؤلاء الأميين لا يفقهون من الكتاب الذى أنزله على موسى شيئاً ، ولكنهم يتخرصون الكذب ، ويتقولون الأباطيل كذباً وزوراً ، والتمنى فى هذا الموضع هو تخالفاً للكذب وتخرصه وافتعاله بدليل قوله تعالى بعد « وإن هم إلا يظنون فأخبر عنهم أنهم يتمنون ما يتمنون من الأكاذيب ظناً منهم لا يقيناً ، (١) » والذى نراه أن المعانى الثلاثة للأمانى تنطبق على اليهود ، وكلها حصلاً

منهم ، وما دام يصدق على المعاني الثلاثة لغة فجميعها مرادة من الآية ، ولا معنى لأن نشغل بترجيح بعضها على بعض كما فعل ابن جرير وغيره . وعلى أى تفسير من هذه التفسير الأمامي ، فالاستثناء منقطع ، لأن أى واحد من هذه المعاني ليس من علم الكتاب الحقيقي فى شىء .

وفى قوله تعالى : «ولأنهم إلا يظنون ، زيادة تجهيل لهم ، لأن أمنياتهم هذه من باب الأوهام التى لا تستند إلى دليل أو شبه دليل ، أو من باب الظن الذى هو ركون النفس إلى وجهه من وجهين يحتملهما الأمر دون أن تبلغ فى ذلك مرتبة القطع واليقين . وهذا النوع من العلم لا يكفي فى معرفة أصول الدين التى يقوم عليها الإيمان العميق ، فهم ليسوا على علم يقينى من أمور دينهم ، وإنما هم يظنونها ظناً بدون استيقان ، والظن لا يغنى عن الحق شيئاً . وبعد أن بين القرآن الكريم فرق اليهود ، توعد الذين يحرفون الكلم عن مواضعه بسوء المصير فقال تعالى : «فويل (١) للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون ، :

والمعنى : فهلاك وفضيحة وخزى لأولئك الأخبار من اليهود الذين يكتبون الكتابات المحرفة والتأويلات الفاسدة بأيديهم ، بدلا مما اشتملت عليه الكتب من حقائق ، ثم يقولون لجهالهم ومقلديهم كذباً وبهتاناً هذا من عند الله . ومن نصوص التوراة التى أرلها الله على موسى ، ليأخذوا فى نظير ذلك عوضاً يسيراً من حطام الدنيا ، فعقوبة عظيمة لهم بسبب ما قاموا به من تحريف وتبديل لكلام الله ، وخزى كبير لهم من أجل ما كتبوه من أموال بغير حق .

(١) الويل لفظ دال على الشر أو الهلاك ، وهو مصدر لا فعل له من

أفضله وقد يستعمل بدون حرف نداء كما هنا ، وقد يستعمل مع حرف النداء كما فى قوله تعالى : «يا ويلنا من بعثنا من مردنا ، .

فآية الكريمة فيها تهديد شديد لأحبار اليهود الذين تجرؤوا على كتاب الله بالتحريف والتبديل ، وباعوا دينهم بدنياهم ، وزعموا أن ما كتبوه هو من عند الله .

وصرح - سبحانه - بأن الكتابة بأيديهم ، ليؤكد أنهم قد باسروها عن تعمد وقصد ، وليدفع قوم أنهم أمروا غيرهم بكتابتها ، ولتصور حالتهم في النفوس كما وقعت ، حتى ليكاد السامع لذلك أن يكرن مشاهداً لهيئتهم . وقوله تعالى : « ثم يقولون هذا من عند الله » كشف عن كذبهم وفجورهم ، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ثم يزعمون أنه من عند الله ليقبله أتباعهم بقوة واطمئنان .

ثم بين - سبحانه - العلة التي حملتهم على التحريف والكذب فقال تعالى : « ليسئروا به تمناً قليلاً . أى كتبوا الكتابة بأيديهم ، ونسبوا إلى الله زوراً وبهتاناً ؛ ليحصلوا على عرض قليل من أعراض الدنيا ، كاجتلاب الأموال الحرام ، وانتحال العلم لأنفسهم والطمع في الرئاسة والجاه ، وإرضاء العامة بما يوافق أهواءهم .

وعبر - سبحانه - عن الثمن بأنه قليل ، لأنه مهما كثر فهو قليل بالنسبة إلى ما استوجبه من العذاب ، وحرموه من الثواب المقيم .

وقوله تعالى : « فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون تهديد لهم مرتب على كتابة الكتاب المحرف ، وعلى أكلهم أموال الناصر بالباطل ، فهو وعيد لهم على الوسيلة - وهي الكتابة - وعلى الغاية - وهو أخذ المال بغير حق -

قال الشيخ القاسمي : قال الرغب : فإن قيل : لم ذكر (يكسبون بلفظ المستقبل ، و (كتبت) بلفظ الماضي ؟ قيل : تنبيهاً على ما قاله النبي (صلى الله عليه وسلم) ، « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل به إلى يوم القيامة » ، فنبه بالآية إلى أن ما أنبتوه من التأويلات الفاسدة التي يعتمد عليها لجهة هراكتساب وزر يكسبون حالاً فحالاً ، وعبر بالكتابة دون القول لأن

متضمنة له وزيادة ، فهي كذب بالآلة ان واليد . وكلام اليد يبقى رسمه ،
أما القول فقد يضمحل أثره ، (١) .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دعت اليهود برذيلة التحريف لكلام
الله عن تعمد وإصرار ووصفهم بالنفاق والخداع ، وبمخترتهم على بلاده
أذهانهم وسوء تصورهم لعلم الله - تعالى - وتوعدهم بسوء العسير جزاء
كذبهم على الله .

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونا من ألوان دعاوهم الباطلة ، وأقاويلهم
الفاصلة ، ورد عليهم بما يخرس ألسنتهم ويقطع حججهم ، فقال تعالى :

نَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا
نَ يُخْلِفُ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ بَلَى مَنْ
سَبَّ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
بِأَخْلَادُونَ ﴿٨٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٨﴾

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآيات آثاراً ، منها ما روى عن
ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : (إن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا
سبعة آلاف سنة ، وإنما نعتب بكل ألف سنة يوماً في النار ، وإنما هي سبعة
أيام معدودة ، فأنزل الله تعالى : وقالوا لن نمسنا النار . . . الآيات (٢) .
وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : د ح دثنى أبي أن الرسول
(صلى الله عليه وسلم) قال لليهود أنشدكم بالله وبالتوراة التي أنزلها الله على موسى

(١) تفسير القاسمي ج ١ ص ١٧٤

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٨

م طور سيناء ، من أهل النار الذين أنزلهم الله في التوراة ؟ قالوا : إن ربنا
 نسب علينا غضبية ، فتمسك في النار أربعين ليلة ، ثم نخرج فتخلفونا
 بها ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كذبتم والله لا تخلفكم فيها .
 آ ، فنزل القرآن تصديقاً لقول النسي (صلى الله عليه وسلم) وتكذباً لهم
 فنزل قوله تعالى - وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . إلى قوله
 نالي : وهم فيها خالدون ، (١) .

وأخرج ابن جرير - أيضاً - عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى :
 وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . ، ذلك أهداه الله لليهود ، قالوا :
 لن يدخلنا الله النار إلا لثمة لنقسم الأيام التي أصبنا فيها العجل أربعين
 يوماً ، فإذا انقضت عنا تلك الأيام انقطع عنا العذاب والقسم (٢) .

هذه بعض الآثار التي وردت في سبب نزول الآيات الكريمة ، والمعنى :
 وقالت اليهود - يا محمد - إن النار لن تصيبنا ، ولن نذوق حرها ، إلا
 بأمأ فلاتل . قل لهم - يا محمد - ردأ على دعواهم الكاذبة هل اتخذتم من
 نه عهدأ بذلك حتى يكون الوفاء به متحققاً ؟ أم تقولون على الله الباطل
 جهلا وجراءة عليه ؟

ثم أبطل القرآن الكريم دعواهم بأصل عام يشملهم ويشمل غيرهم .
 قال . ليس الأمر كما تدعون ، بل الحق أنه من كسب سيئة وأحاطت به
 دليته ومات عليها دون أن يتوب إلى الله - تعالى - منها ، فأولئك أصحاب
 نار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب
 الجنة هم فيها خالدون . .

وقوله تعالى : وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة . بيان لضرب من
 شروب غرورهم وكذبهم ، معطوف على رذائلهم السابقة التي حكاها القرآن

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٨٢ طبعة الحلبي .

(٢) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ص ١١

الضمير في قوله تعالى (وقالوا) يعود على اليهود الذين مر
الحديث عنهم ولما ينتهى بعد .

والمس : اتصال أحد الشيشين بأخر على وجه الإحساس والإصابة . .
والمراد من النار : نار الآخرة . والمراد من المعدودة : المحصورة
القليلة ، يقال : شىء معدود أى قليل . وشىء غير معدود أى كثير فهم
يدعون أن النار لن تمسهم إلا مدة يسيرة قد تكون سبعة أيام ، وقد تكون
أربعين يوماً ، وبعدها يخرجون إلى الجنة لأن كل معدود منقض .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يرد عليهم فيما زعموه
فقال تعالى : قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله
مالا تعلمون أى : قل لهم - يا محمد - إن مثل هذا الإخبار الجازم بأن
النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة ، لا يكون إلا من اتخذ عهداً من الله بذلك ،
فهل تقدم لكم من الله عهد بأن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة ، فكان
الوفاء متحققاً ، لأن الله - تعالى - لا يخلف وعده ، أم تقولون على الله
شيئاً لا علم لكم به .

فلاستفهام للإنكار ، وهو متوجه إلى زعمهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً
معدودة ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم . إن قولكم هذا يحتمل أمرين
لانثالث لهما : إما اتخاذ عهد عند الله به ، وإما القول عليه - سبحانه -
بدون علم ، ومادام قد ثبت أن اتخاذ العهد لم يحصل ، إذا أتم - يا معشر
اليهود - كاذبون فيما تدعون من أن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة .

قال الإمام الرازى : قوله تعالى : « اتخذتم » ليس باستفهام بل هو
إنكار ؛ لأنه لا يجوز أن يجعل الله - تعالى - حجة رسوله في إبطال قولهم أن
يستفهمهم بل المراد التنبيه على طريقة الاستدلال ، وهى أنه لا سبيل إلى
معرفة هذا التقدير إلا بالسمع ، فلما لم يوجد الدليل السمعى وجب ألا
يجوز الجزم بهذا التقدير (١) .

وإنما ساق القرآن الكريم الرد عليهم في صورة الاستفهام ، لما فيه من ظهور القصد إلى تقريرهم بأنهم قالوا على الله ما لا يعلمون ، إذ هم لا يستطيعون أن يثبتوا أن الله وعدهم بما ادعوه من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، ولا يوجد عندهم نص صحيح من كتابهم يؤيد مدعاهم .
وبذلك تكون الآية الكريمة قد أبطلت مدعاهم إبطالاً يحمل طابع الإنكار والتوبيخ .

ثم ساق - سبحانه - آية أبطلت مدعاهم عن طريق إثبات ما نفوه ، فقال تعالى : « بلى من كذب سيئة وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

بلى حرف جواب يحمي لإثبات فعل ورد قبلها منفيًا ، والفعل المنفي هنا هو قول اليهود « لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة » فجاءت « بلى » لإثبات أن النار تمسهم أكثر مما زعموا فهم فيها خالدون جزاء كفرهم وكذبهم . ومعنى الآية الكريمة : ليس الأمر كما تدعون أيها اليهود ، من أن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودة ، بل الحق أنكم ستخلدون فيها . فكل من كسب شركاً مثلكم ، واستوات عليه خطاياها ، وأحاطت به كما يحيط السرادق بمن في داخله ، ومات على ذلك دون أن يدخل الإيمان قلبه ويتوب إلى ربه فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

فالآية الكريمة فيها إبطال لمدعاهم ، وإثبات لما نفوه ، على وجه يشملهم ويشمل جميع من يقول قولهم ، ويكفر كفرهم .
هذا والمراد بالسيئة هنا الشرك بالله كما قال جمهور المفسرين لورود الآثار عن السلف بذلك ، وفائدة الإتيان بقوله تعالى « وأحاطت به خطيئته » بعد ذلك ، الإشعار بأن الخطيئة إذا أحاطت بصاحبها أخذت بمجامع قلبه فحرمته الإيمان ، وأخذت بلسانه فتمتعه عن أن ينطق به .

وقوله تعالى « فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » بيان لما أهد لهم من عقوبات جزاء كفرهم وكذبهم على الله ، فهم يوم القيامة سيكونون

أصحاباً للنار ملازمين لها على التأييد لإيثارهم في الحياة الدنيا ما يوردهم سعيها ، وهو الكفر وسوء الأفعال على ما يدخلهم الجنة وهو الإيمان وصالح الأعمال .

وبعد أن ذكر - سبحانه - ما أعد لهؤلاء اليهود وأمثالهم من الكافرين الذين يقفرون على الله الكذب ، عقب ذلك ببيان ما أعد - سبحانه - لأهل الإيمان والتقوى فقال تعالى : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، أي : والذين آمنوا بالله ورسوله ، وأطاعوا الله فأقاموا حدوده ، وأدوا فرائضه ، واجتنبوا محارمه ، فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون خلوداً أبدياً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ردت على اليهود بأبلغ رد . حيث كذبتهم في دعواهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة ، وأهم صائرون بعد ذلك إلى الجنة ، وأخبرتهم بخلودهم وخلود كل كافر في النار ، وأما الجنة فهي لمن آمن وعمل صالحاً واتبع سبيل المرسلين فهوؤلاء أصحابها وهم فيها خالدون .

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن رذيلة من أرز الرذائل التي طبع عليها بنو إسرائيل ، وهي رذيلة تقضمهم لليهود والمواثيق فقال تعالى :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ

قُولْتُمْ ^{مَرَّةً} إِلَّا قَلِيلًا ^{مَرَّةً} مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ ^{مَرَّةً} مُّعْرِضُونَ ﴿٨٢﴾

ومعنى الآية إجمالاً : واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتستجيروا للحق

- وليفكر معكم كل من يتنفع بالذكرى - وقت أن أخذنا عليكم العهد ، وأمرناكم بالعمل به على لسان رسلنا - عليهم السلام - وأمرناكم فيه بالألّا تعبدوا سوى الله ، وأمرناكم فيه كذلك ، بأن تحسنوا إلى آباءكم وتقوموا بأداء ما أوجبه الله لهما من حقوق ، وأن تصلوا أقرباءكم وتعطفوا على اليتامى الذين فقدوا آباءهم ، وعلى المساكين الذين لا يملكون ما يكفيهم في حياتهم ، وأمرناكم فيه - أيضاً - بأن تقولوا للناس قولا حسنا فيه صلاحهم ونفعهم ، وأن تحافظوا على فريضة الصلاة ، وتؤدوا بإخلاص ما أوجبه الله عليكم من زكاة ، وليكنسكم نقضتم أتم وأسلافكم الميثاق ، وأعرضتم عنه ، إلا قليلا منكم استمروا على رعايته والعمل بموجبه .

والمراد بنى إسرائيل في الآية الكريمة ، سلفهم وخلفهم ، لأن هذه الأوامر والنواهي التي تناولتها الآية الكريمة ، والتي هي مضمون العهد المأخوذ عليهم ، قد أخذت عليهم جميعاً على لسان أنبيائهم ورسلهم . والدليل على أن المقصود بنى إسرائيل ما يتناول الخلف المعاصرين منهم للعهد النبوي ، قوله تعالى في ختام هذه الآية ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ، فإنه قد أسند إليهم فيه أنهم تولوا عن الميثاق معرضين ، الإعراض عنه لا يكون إلا بعد أخذه عليهم كما سيأتي .

وقوله تعالى لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا . . . إلى قوله تعالى ثم توليتم . . . بيان للميثاق وتفصيل له . وجاء التعبير بقوله تعالى لا تعبدون إلا الله ، في صورة الخبر المنفي والمراد منه النهي عن عبادة غير الله ، لإفادة المبالغة والتأكيد ، فكأن الأمر والنهي قد امتثلا فيخبر وقوعهما ، أو أنهما لأهميتهما يخبر عنهما بأنهما سيتلقيان بحسن الطاعة منهما ، فينزل ما يجب وقوعه منزلة الواقع ، ويخبر عن المأمور بأنه فاعل لما مر به ويحتمل لما نهى عنه في الحال ، وفي ذلك ما فيه من إفادة المبالغة في جوب امتثال الأمر والنهي .

وقد تضمنت الآية الكريمة لونا فريداً من التوجيه المحكم الذي لو

اتبعوه لحسنت صلتهم مع الخالق والمخلوق ، لأنها ابتدأت بأمرهم بأعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله - تعالى - عليهم ، بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، ثم نزلت ببيان حقوق الناس فبدأت بأحقهم بالإحسان وهما الوالدان لما لهما من فضل الولادة والعطف والغريبة ، ثم الأقارب الذين تجمع الناس بهم صلة قرابة من جهة الأب والام ، ورعايتهم تكون بالقيام بما يحتاجون إليه على قدر الاستطاعة ، ثم باليتامى لأنهم في حاجة إلى العون بعد أن فقدوا الأب الحاني ، ثم بالمساكين لعجزهم عن كسب ما يكفيهم ، ثم بالإحسان إلى سائر الناس عن طريق الكلمة الطيبة ، والمعاملة الحسنة ، لأن الناس إن لم يكونوا في حاجة إلى المال ، فهم في حاجة إلى حسن المقال ، ثم أرشدتهم إلى العبادات التي تعينهم على إحسان صلتهم بالخالق والمخلوق فأمرتهم بالمداومة على الصلاة بخشوع وإخلاص ، وبالمحافظة على أداء الزكاة بسخاء وطيب خاطر ، ولعظم شأنهم هاتين العبادتين البدئية والمالية ذكرتا على وجه خاص بعد الأمر بعبادة الله ، تفخيماً لشأهما وتوكيداً لأمرهما ، وكان من الواجب على بنى إسرائيل أن ينفذوا هذه الأوامر الحكيمة ، لكنهم عموا وصموا عنها فربخهم القرآن الكريم بقوله : **دثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون** ،

أى : ثم توليتهم - أيها اليهود - عن جميع ما أخذ عليكم من موثيق فأشركتم بالله وعققتم الوالدين ، وأسأنتم إلى الأقارب واليتامى والمساكين وقتلتهم للناس أفحش الأقوال ، وتركتم الصلاة ، ومنعتم الزكاة ، وقطعتم ما أمر الله به أن يوصل .

وقوله تعالى : **د إلا قليلاً منكم** ، إنصاف لمن حافظ على العهد منهم ، حيث أنه لا تخلو أمة من المخاضين الذين يراعون العمود ، ويتبعون الحق ، وإرشاد للناس إلى أن وجود عدد قليل من المخلصين في الأمة ، لا يمنع نزول العقاب بها متى فشا المنكر في الأكثرين منها .

وقوله تعالى : **د وأنتم معرضون** ، جملة حالية تفيد أن الأعراض عن

الطاعة ، وعدم التقيد بالموثيق التي أقروا بها ، عادة متأصلة فيهم ووصف ثابت لهم ، وسجية معروفة منهم .

قال صاحب المنار . (قد يتولى الإنسان منصرفاً عن شيء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه ، فليس كل متول عن شيء معرضاً عنه ومهملاً له على طول الدوام ، لذلك كان ذكر هذا القيد وأنتم معرضون ، لازماً لا بد منه ، وليس تكراراً كما يتوهم ، ثم قال : وقد كان سبب ذلك التولى مع الإعراض أن الله أمرهم ألا يأخذوا الدين إلا من كتابه فاتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله ، يحلون برأيهم ويحرمون ، ويبيحون باجتهادهم ويحظرون وينيدون في الشرائع والأحكام ويضعون ما شاءوا من الشعائر فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ، فإن الله هو الذي يضح الدين وحده وإمام العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه ، وما شرع على السنة رسوله . . .) (١)

وخلاصة الفرق بين التفسير الذي بدأنا به وبين تفسير صاحب المنار ، لقوله تعالى : وأنتم معرضون ، أن هذه الجملة على التفسير الأول تبين عادة في القوم تأصلت فيهم حتى كأنها سجية ، والمعنى : دئم توليتم ، أي أعرضتم وأنتم قوم عادتكم الإعراض . وعلى تفسير صاحب المنار تكون هذه الجملة مبينة . لنوع التولى و متممة لمعناه : والتفسير الأول - الذي سقناه - أدخل في باب الذم ، وأوفى ببيان ما عليه حال اليهود .

ثم قال تعالى :

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا
تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَبْتُمْ وَأَنْتُمْ
تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَالِكَ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ
مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهِرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى
تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُونُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ
وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا
يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

بعد أن بين - سبحانه - في الآية السابقة أن الله - تعالى - قد أخذ على
بنى إسرائيل عهداً بأن يعبدوه ويؤدوا فرائض الله ، إلا أنهم نقضوا هذا العهد
وتولوا عنه سوى قليل منهم بعد ذلك بين هذه الآيات الكريمة أنه
- سبحانه - أخذ عليهم عهداً آخر واسكنهم نقضوه كما هو دأبهم .

وملخص هذا العهد الذى ذكرته الآيات الكريمة ، أن الله تعالى أخذ
عليهم الميثاق ألا يقتل بعضهم بعضاً ، وألا يخرج بعضهم بعضاً من داره ،
وأنتهم إذا وجدوا أسيراً منهم فى يد غيرهم فإن عليهم أن يبدلوا أموالهم لفدائه
من الأسر ، وتخليصه من أيدى أعدائهم ، ثم لما نشبت الحرب بين قبيلتى

الأوس والحزرج ، انضمت قبيلة بنى قريظة إلى الأوس ، وانضمت قبيلة بنى قينقاع وبنى النضير إلى الحزرج ، وصارت كل طائفة من طوائف اليهود تتقاتل بجانب أبناء ملتهم المنضمين إلى حلفائهم الآخرين فإذا وضعت الحرب أوزارها ، بذل جميع اليهود أموالهم لتخليص الأسرى من أعدائهم كما أمرهم - تعالى - وهذا يكونون قد آمنوا ببعض الكتاب وهو بذل الفداء لتخليص الأسرى ، وكفروا ببعضه وهو تحريم سفك دماء إخوانهم وإخراجهم عن ديارهم ، ويحكى التاريخ أن العرب كانوا يعيدونهم فيقولون لهم : كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم ؟ فكان اليهود يقولون : قد حرم علينا قتالهم ولو سكتنا نستحي أن نخذل حلفاءنا وقد أمرنا أن نفتدى أسرانا .
وقد توقعدهم - سبحانه - بالحزى في الدنيا والآخرة ، جزاء نقضهم لعهوده ، وتفريقهم بين أحكامه .

والمعنى الإجمالي للآيات السكرية : واذكروا - أيضاً - يا بنى إسرائيل - وقت أن أخذنا عليكم العهد ، وأوصيناكم فيه بالألا يتعرض بعضكم لبعض بالقتل ، وبالألا يخرج بعضكم بعضاً من مساكنهم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون على الوفاء بهذا العهد ، والالتزام بما جاء فيه ، ثم أنتم هؤلاء - يا معشر اليهود - بعد إقراركم بالميثاق ، وبعد شهادتكم المؤكدة على أنفسكم بأنكم قد قبلتموه ، خرجتم على تعاليم التوراة ، فنقضتم عهودكم ، وأراق بعضكم دماء بعضكم ، وأخرجتم إخوانكم في الملة والدم من ديارهم ظلماً وعدواناً ، وتماوتتم على قتلهم وإخراجهم مع من يسوا من ملتكم أو قرابتكم ، ومع ذلك فإذا وقع إخوانكم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم من ديارهم في الأسر فاديتموهم ، فلم لم تتبعوا حكم التوراة في النهي عن قتالهم وإخراجهم كما اتبعتم حكمها في مفاداتهم ؟ وكيف تستبجحون القتل والإخراج من الديار ، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم ؟ إن هذا التفريق بين أحكام الله جزاء فاعله الهوان في الدنيا . والعذاب الدائم في الآخرة ، وما الله بغافل عما تعملون . ولا شك أن أولئك اليهود الذين نقضوا عهودهم ، وقطعوا

ما أمر الله به أن يوصل ، قد باعوا دينهم بديناهم ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

وقوله تعالى : (وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) معناه : اذكروا حين أخذنا العهد عليكم يا بني إسرائيل ألا يسفك أحد منكم دم غيره ، وألا يخرج من دياره . على حد قوله : « فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم » (١) أي فليسلم بعضكم على بعض . وقائدة هذا التعبير ، التنبيه إلى أن الأمة المتواصلة بالدين ، يجب أن يكون شعورها بالوحدة قوياً وعميقاً ، بحيث يكون قتل الرجل لغيره قتلاً لنفسه ، وإخراجه له من داره لإخراجاً لها .

قال صاحب المنار : (وقد أورد - سبحانه - النهي عن سفك بعضهم دم بعض ، وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم ، بعبارة تؤكده وحدة الأمة ، وتحدث في النفس أثراً شريفاً ، يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر ، ووجدان يتأثر فقال تعالى :

« لا تسفكون دماءكم » فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه يخع نفسه وانتجر بيده ، وقال تعالى : (ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) على هذا النسق ، وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن الكريم ، (٢) ،

وقوله تعالى : (ثم أقرتكم وأتمت تشهدون) تسجيل عليهم بأنهم قد قبلوا العمل بالميثاق والتزموا به ، إذ المعنى . ثم اعترفتكم بهذا الميثاق - أيها اليهود - ولم تنكروه ، فكان من الواجب عليكم أن تفوا به ، فإذا كان موقفهم بعد هذا الاقرار والإشهاد ؟

لقد بين القرآن الكريم بعد ذلك أنهم نقضوا عهدهم ، وارتكبوا له

(١) سورة النور الآية ٦١ .

(٢) تفسير المنار ج ١ ص ٣٧٢ .

نہوا عن ارتکابه ، فقال تعالى : دثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسکم وتخرجون
فريقاً منکم من ديارهم .. ، أى : ثم أنتم - يامعشر اليهود - بعد اذ افکم
بالميثاق ، والتزامکم به ، نقضتم عهدکم ، وارتکبتم فى حق إخوانکم
ما نهيتهم عنه ، من القتل والإخراج ، وفعلتم ما لا یليق بالعقلاء ، ويحترق
المسوايق .

ولما کان قتل بعضهم لبعض ، وإخراجهم من أمانتهم يحتاج إلى قوة
وغلبة ، بین - سبحانه - أنهم يرتكبون ذلك وهم متعاونون عليه بالشروع
ومجاوزة الحدود ، فقال تعالى : د تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ،
تظاهرون : من التظاهر وهو التعاون ، وأصله من الظهر ، كأن المتعاونين
يسند كل واحد منهم ظهره إلى الآخر . والمعنى : تتعاونون على قتل
إخوانکم وإخراجهم من ديارهم مع من ليسوا من أقاربکم وليسوا من
دينکم ، وأنتم ترتكبون ذلك الإثم والعدوان .
وقوله تعالى : وإن یأتوكم أسارى فتادوهم ، وهو محرم علیکم إخراجهم ،
بیان لتناقضهم وتفريقهم لأحكام الله تعالى .

وأسارى : جمع أسير بمعنى مأسور ، وهو من یؤخذ على سبيل القهر
فیشد بالإسار وهو القيد - بكسر القاف - ، والقيد : سیر یقيد من جلد غیر
مدبوغ . وتنادوهم : تنقذوهم من الأسر بالفداء ، يقال : فاداه وفداه :
أعطى فداءه فأنقذه .

أى : أنتم - يامعشر اليهود - إن وجدتم الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم
من ديارهم أسرى تسعون فى فکاکم ، وتبذلون عرضاً لإطلاقهم ، والشأن
أن قتلهم وإخراجهم محرم علیکم کثر کم أسرى فى أیدى أعدائکم ،
فلماذا لم تتبعوا حکم التوراة فى النهى عن قتالهم وإخراجهم كما اتبعتم حکمها
فى مفاداتهم ؟

وصدرت الجملة الکریمة د وهو محرم علیکم إخراجهم ، بضمیر الشأن
للاهتمام بها . والعناية بشأنها ، وإظهار أن هذا التحريم أمر مقرر مشهور

لديهم ، وليس خافياً عليهم .

وقوله تعالى : « أفترى منون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، توبخ وتقرع لهم على تفريقهم بين أحكام الله .

والمعنى : أفتتبعون أحكام كتابكم في فداء الأسرى ، ولا تتبعونها في نهيككم عن قتال إخوانكم وإخراجهم من ديارهم ؟ فالاستفهام للإنكار والتوبيخ على التفريق بين أحكامه - تعالى - بالإيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر .

وبعض الكتاب الذي آمنوا به هو ما حرم عليهم من ترك الأسرى في أيدي عدوهم ، وبعضه الذي كفروا به ما حرم عليهم من القتل والإخراج من الديار ، فالإنكار منصب على جمعهم بين الكفر والإيمان .

قال فضيلة المرحوم للشيخ محمد الخضر حسين : (وإنما سمي - سبحانه - عصيانهم بالقتل والإخراج من الديار كقراً ؛ لأن من عصى أمر الله - تعالى - يحكم على معتقداً أن الحكمة والصلاح فيها فعله ، بحيث يتعاطاه دون أن يكون في قلبه أثر من التخرج ، ودون أن يأخذه ندم وحزن من أجل ما ارتكب ، فقد خرج بهذه الحالة النفسية عن سبيل المؤمنين ، وفي الآية الكريمة دليل واضح على أن الذي يؤمن ببعض ما تقرر في الدين بالدليل القاطع ويكفر ببعضه ، يدخل في زمرة الكافرين لأن الإيمان كل لا يتجزأ ، (١) .

ثم بين - سبحانه - العقاب النبوي والأخروي الذي استحققه أولئك المارقون لأحكامه فقال تعالى : « وما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ، اسم الإشارة (ذلك) مشار به إلى القتل والإخراج من الديار ، اللذين نقضوا بهما عهد الله بغيراً وكفراً والخزي في الدنيا هو الطهران والمقت والعقوبة ومن مظاهره : ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من المفلة بإجلاء بني قينقاع

والنضير عن ديارهم ، وقتل بنى قريظة وفتح خيبر ، وما لحقهم بعد ذلك من هوان وصغار ، وتلك سنة الله في كل أمة لا تتمسك بدينها ولا تترسشونها بأحكام شريعته وآدابها .

ولما كان للبعض قد يتوهم أن خزيهم في الدنيا قد يكون سبباً في تخفيف العذاب عنهم في الآخرة ، ففي - سبحانه - هذا التوهم ، وبين أنهم ير القيامه سيصيرون إلى ما هو أشد منه . لأن الله - تعالى - ليس سيأ عن أعمالهم حتى يترك مجازاتهم عليها .

فالماد من نفي الغفلة نفي ما يتسبب عنها من ترك المجازاة لهم على شروا

وفي ذلك دليل على أن الله - تعالى - يعاقب الخائدين عن طر المستقيم ، بمقوبات في الدنيا ، وفي الآخرة ، جزاء طغيانهم ، وإصرار على السيئات .

ثم أكد - سبحانه - هذا الوعيد الشديد وبين علته فقال تعالى : وأولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرو والمعنى : أولئك اليهود الذين فرقوا أحكام الله ، وباعوا دينهم بدنياه وآثروا متاع الدنيا على نعيم الآخرة قد استحقوا غضب الله فلا يخفف عنهم العذاب يوم القيامة ، ولا يجدون من دون الله ولياً ولا نصيراً .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد دمغت اليهود بنقضهم للعهد ، وإيمان ببعض الكتاب وكفرهم ببعض ، فبأوا بغضب على غضب ولا كافر عذاب مهين .

ثم ذكرهم - سبحانه - بعد ذلك بلون آخر من ألوان جنائيات فقال تعالى :

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ

الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
 وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ
 لَأَسْتَكْبِرْتُمْ فَفِرِّيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِّيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُنَزِّلُ
 لَعْنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرْهُمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

ففي هاتين الآيتين نذكر لبنى إسرائيل بضرب من النعم التي أمدتهم
 الله بها ثم قابلوها بالكفر والإجرام .

والمراد بالكتاب الذي أعطاه الله لموسى التوراة ، فقد أنزلها عليه لهدايتهم
 ولكنهم حرفوها وبدلوها وأخالفوا أوامره وأولوها تأريلا سقيا .

ومعنى وقفينا من بعده بالرسول ، أردفنا وأرسلنا من بعد موسى رسلا
 كثيرين متتابعين ، لإرشاد بنى إسرائيل ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .
 يقال : قفا أثره يقفوه قفوا وقفوا ، إذا تبعه . وبقى على أثره بفلان إذا
 أتبعه إياه . وقفيته زيدا وبه : أتبعته إياه . واشتقاقه من : قفونه إذا
 أتبعته قفاه ، والقفا ، وآخر العنق ، ثم أطلق على كل تابع ولو بعد الزمن
 بينه وبين متبوعه .

والرسول : جمع رسول بمعنى مرسل ، وقد أرسل الله - تعالى - رسلا
 بعد موسى - عليه السلام - : داود ، وسليمان ، وإلياس ،
 وإيسع ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى - عليهم الصلاة والسلام - .

فمن مظاهر نعم الله على بنى إسرائيل ، أنه لم يكتف بإنزال الكتاب
 لهدايتهم ، وإنما أرسل فيهم بجانب ذلك رسلا متعددين ، لكي يبدشروهم
 وينفدروهم ، ولكن بنى إسرائيل قابلوا نعم الله بالاجحود والكفران ،

فقد حرفوا كتب الله ، وقتلوا بعض أنبيائه .

والمراد بالبينات في قوله : د وآيتنا عيسى بن مريم اللينات ، الخ
والبراهين والآيات الدالة على صدقه وصحة نبوته ، فتشمل كل معجزة أعطا
الله لعيسى كإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، والإخبار بيه
المغيبات ، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها عيسى - عليه السلام -
وخص القرآن عيسى بالذكر لكونه صاحب كتاب هو الإنجيا
ولأن شرعه نسخ أحكاما من شريعة موسى - عليه السلام -
وفي إضافة عيسى إلى أمه لإبطال لما يزعمه اليهود من أن له أباً من البشر
وقوله : د وأيدناه بروح القدس ، أي : قويناه مأخوذ من الأ
وهو القوة .

وروح القدس هو جبريل - عليه السلام - ، قال - تعالى -

د قل نزله روح القدس من ربك بالحق ، ، والإضافة فيه من إضافة
الموصوف إلى الصفة ، أي : الروح المقدس . ووصف بالقدس لظهاد
وبركته . وسمى روحاً لمشابهته الروح الحقيقي في أن كلا منهما مادة الحي
اللبشر . فجبريل من حيث ما يحمل من الرسالة الإلهية تحيا به القلوب
والروح تحيا به الأجسام .

أي : أننا أعطينا عيسى بن مريم الحجج الدالة على صدقه في نبو
وقويناه على ذلك كله بوحينا الذي أوحيناه إليه عن طريق جبر
- عليه السلام - .

ثم ويخ الله اليهود على أفعالهم القبيحة فقال : د أفكلما جاءكم رسو
بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ، .
أي : أفكلما جاءكم يا بني إسرائيل رسول بما لا تحبه أنفسكم الشرير
لأستكبرتم عن اتباعه والإيمان به وأقبلتم على هؤلاء الرسل ففريقاً منهم
كذبتم ، وفريقاً آخر منهم تقتلون غير مكتفين بالكذب :

وتحرى : من هوى إذا أحب ، والهوى يكون في الحق ويكون في الباطل كما في هذه الآية .

واستكبرتم : تكبرتم ، والتكبر ينشأ عن الاعجاب بالانفس الذي هو أثر الجهل بها . وهو من الصفات التي قد تتمكن في النفوس أوردتها الممالك ، وساقها إلى سوء المصير .

وقدم تكذيبهم للرسول على قتالهم إياهم ، لأن التكذيب أول ما يصدر عنهم من الشر .

وعمر في جانب القتل بالفعل المضارع فقال : تقتلون ، ولم يقل قتلتم كما قال كذبتم ، لأن الفعل المضارع كما هو المألوف في أساليب البلاغة . يستعمل في الأفعال الماضية التي بلغت من الفطاعة مبلغاً عظيماً . ووجهه أن المتكلم يعمد بذلك الفعل القبيح كقتل الأنبياء ، ويعبر عنه بالفعل المضارع الذي يدل بحسب وضعه على الفعل الواقع في الحال . فتدأ أنه أحضر صورة قتل الأنبياء أمام السامع ، وجعله ينظر إليها بعينه ، فيكون إنكاره لها أبلغ ، واستفظاه لها أعظم .

ثم حكى القرآن بهنر الدعاوى الباطلة التي كان يدعيها اليهود في الدهر النبوي ورد عليها بما يدحضها فقال :

« وقالوا قلوبنا غلف ، أى : قال اليهود الذين كانوا في العهد النبوي : قلوبنا يا محمد مغطاة بأغشية حسية مانعة من نفوذ ما جئت به فيها . ومقصدهم من ذلك ، إقناطه - صلى الله عليه وسلم - من إجابتهم لدعوته حتى لا يبيد عليهم الدعوة من بعد .

والغلاف : جمع أغلاف ، وهو الذي جعل له غلاف ، ومنه قيل للغلاب الذي لا يعى ولا يفهم ، قلب أغلاف ، كأنه حجب عن الفهم بالغلاف . قال ابن كثير : وقرأ ابن عباس - بضم اللام - وهو جمع غلاف له . أى : قلوبنا أوعية لسلك علم فلا نحتاج إلى علمك .

وقد رد الله - تعالى - على كذبهم هذا بما يدحضه ويفضحه فقال :

« بل لعنهم الله بكفرهم ، أى : أن قلوبهم ليست غلفاً بحيث لا تصل إليها دعوة الحق بل هي متمكنة بأصل فطرتها من قبول الحق ، ولكن الله أبعدهم من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء واستجابهم العمى على الهدى .
والفاء في قوله : « فقليلاً ما يؤمنون » للدلالة على أن ما بعدها متسبب عما قبلها و « ما » في قوله « فقليلاً ما » لنا كيد معنى القلة .

والمعنى أن الله لعنهم وكان هذا اللعن سبباً لقلة إيمانهم فـ « لا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً » ، وقلة الإيمان ترجع إلى معنى أنهم لا يؤمنون إلا بقليل مما يجب عليهم الإيمان به . وقد وصفهم الله - تعالى - فيما سبق بانهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

ثم نبه القرآن المؤمنين إلى نوع آخر من ردائل البهرد ، ويتجلى هذا النوع في جحودهم الحق عن معرفة وعناد ، وكرهاتهم الخير لغيرهم بدافع الأنانية والحسد ، ونحو لهم إلى أناس يتميزون من الغيظ إذا ما رأوا نعمة تساق لغير أبناء ملتهم .

استمع إلى القرآن وهو يصور كل ذلك بأسلوبه البليغ الحكيم فيقول :

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ

مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلٍ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى

الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۗ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بئسما أشروا به ۗ أنفسهم أن يكفروا بما أنزل

الله بغيا ۗ أن ينزل الله من فضله ۗ على من يشاء من عباده ۗ فبئسوا

بِعُضْبٍ عَلَى غَضَبٍ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

روى المفسرون في سبب نزول الآية الأولى من هاتين الآيتين آثاراً متعددة من ذلك ما جاء عن عاصم بن عمرو بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه قالوا : بما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه ، أنا كنا نسمع من رجال يهود حين كنا أهل شرك وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فكنا إذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يبعث الآن ، ننبئه فنتقلسكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - رسولاً من عند الله أجبنا حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه ، فأما به وكفروا به ، فمينا وفيهم نزل قوله - تعالى - ولما جاءهم كتاب من عند الله . . الخ الآية ، (١) .

ومعنى الآيتين الكريمتين : ولما جاء إلى اليهود محمد - صلى الله عليه وسلم - ومعه القرآن الكريم وهو الكتاب الذي أرحاه الله لإيه ، مصداقاً لما معهم من التوراة فيما يختص ببعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - ونعته ، وكانوا قبل ذلك يستنصرون به على أعدائهم ، لما جاءهم النبي المرتقب ومعه القرآن الكريم جحدوا نبوته ، وكذبوا كتابه (فلعن الله على الكافرين) . بشر الشيء الذي باعوا به أنفسهم . الكفر بما أنزل الله على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وكفرهم هذا كان من أجل البغى الذي استولى على نفوسهم ، والحسد الذي خالط قلوبهم ، وكرهية لأن ينزل الله وحيه على محمد العربي - صلى الله عليه وسلم - فباءوا بسبب هذا الخلق اللذيم ، بغضب مترادف متكاثر من الله - تعالى - (وللشكافرين عذاب مهين) جزاء كفرهم وحسدتهم .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢٢ .

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ج ٣ ص ٢٨٢ الإمام ابن

تيمية وقد ساق - رحمه الله - أكثر من عشرة آثار في هذا المعنى عند حديثه عن هذه الآية .

والمراد بالكتاب في قوله تعالى (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما سمعهم) القرآن الكريم ، وفي تكبيره زيادة تعظيم وتشريف له ، وفي الأخبار عنه بأنه من عند الله ، إشارة إلى أن ما يوحى به - سبحانه - جدير بأن يتلقى بالقبول وحسن الطاعة لأنه صادر من الحكيم الخبير ، والذي مع اليهود هو التوراة ، ومعنى قول القرآن مصدقاً لها ، أنه يؤيدها ويوافقها في أصولها الدين ، وفيها يختص ببعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - وصفته .

وفي وصف القرآن الكريم بأنه مصدق لما معهم ، زيادة تسجيل عليهم بالمذمة لأنهم لم يكفروا بشيء يخالف أصول كتابهم وإنما كفروا بالكتاب الذي يصدق كتابهم .

وقوله تعالى : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) .

بيان لحالتهم قبل البعثة المحمدية ، فإن اليهود كانوا عندما يحصل بينهم وبين أعدائهم نزاع ، يستنصرون عليهم بالنبي - صلى الله عليه وسلم - قبل بعثته فيقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبي الذي نجد نفعه في التوراة ،

والاستفتاح معناه : طلب الفتح وهو الفصل في الشيء والحكم فيه ، كما في قوله تعالى : (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق) . ويستعمل بمعنى النصر لأن فيه فصلاً بين الناس قال تعالى : (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أي : إن تستنصروا فقد جاءكم النصر ، فالمراد به في الآية الاستنصار .

ثم بين - سبحانه - حقيقة حالهم بعد أن جاءهم الكتاب والرسول فقال تعالى :

(فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به) أي : فلما جاءهم ما كانوا يستفتحون به على أعدائهم ويرتقبونه جحدوه وكفروا به .

وقال - سبحانه - (فلما جاءهم ما عرفوا) ولم يقل فلما جاءهم الكتاب أو الرسول ، ليكون اللفظ أشمل ، فيتناول الكتاب والرسول الذي جاء به لأنه لا يجيء الكتاب إلا عن طريق رسول .

ومعرفة تم بصدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما أنزل عليه حاصراً
بأنطابق العلامات والصفات الواردة في التوراة عن النبي (صلى الله عليه وسلم)
فكان من الواجب عليهم أن يؤيدوا هذه المعرفة بالإيمان به ، ولكن خوفهم
على زوال رياستهم وأموالهم ، وفوات ما كانوا يحرصون عليه من أن يكون
النبي المبعوث منهم لا من العرب ، إلا قلوبهم غيظاً وحسداً ، وأخذ هذه
الغبيظ والحسد يغالب تلك المعرفة حق عليها ، وحال بينها وبين أن يكون
لها أثر نافع لهم لعدم اقترانها بالقبول والتصديق .

ولقد حاول رئيسهم (عبدالله بن سلام) - رضى الله عنه - أن يصرّفهم
عن العناد وأقدم لهم بأن ما جاء به النبي (صلى الله عليه وسلم) هو الحق
المصدق لما معهم أن يتبعوه ولكنهم عموا وصبوا وتمتصوه ولذا لعنهم الله
تعالى ، وأبعدهم عن رحمته كما قال تعالى : « فلعنة الله على الكافرين » .
وقال - سبحانه - (على الكافرين) ولم يقل عليهم ، للإشارة بأن
حلول اللعنة عليهم كان سبب كفرهم .

ثم ذكر - سبحانه - أنهم بكفّرهم قد باعوا أنفسهم بشئ بئس . فقال
تعالى : « بشئما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ، أى : بشئ
الشيء الذى باع به اليهود أنفسهم كفرهم بما أنزل الله بغياً وحسداً أن ينزل
الله من فضله على من يشاء من عباده .

وجدهور المفسرين على أن (اشتروا) هنا بمعنى باعوا ، لأن أولئك
اليهود ، لما كانوا متمكنين من الإيمان الذى يقضى بهم إلى السعادة الأبدية
بعد أن جاءهم ما عرفوا من الحق فتركوه ، واستمروا على كفرهم بغياً
وحسداً وحباً في الرياسة وتعصباً لجنسيتهم لما كانوا كذلك ، صار اختيارهم
للكفر على الإيمان ، بمنزلة اختيار صاحب السلعة ثمنها على سلعته ، فكأنهم
بذلوا أنفسهم التى كان باستطاعتهم الانتفاع بإيمانها ، وقبضوا الكفر عوضاً
عنها فأنفسهم بمنزلة السلعة المبيعة وكفّرهم بمنزلة ثمنها المقبوض ، فبئس هذا
التمن الذى أوردتهم العذاب الأليم .

وعر - سبحانه - عن كفرهم بصيغة المضارع (أن يكفروا) وعن بيعهم لأنفسهم بالمعاصي ، (اشتروا) لل دلالة على أنهم صرحوا بكفرهم بالقرآن الكريم من قبل نزول الآية ، وإن بيعهم أنفسهم بالكفر طبيعة فيهم مستقرة منذ وقت بعيد ، وأنهم ما زالوا مستمرين على تلك الطبيعة المنحرفة .

وقوله تعالى (بقيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) ، تعليل لكفرهم وبيان للياعث عليه ، أى كفروا بما أنزل الله على عبده ورسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) بدافع من البغى والحقد ، وكرهة لأن ينزل الله الوحي من فضله على من يشاء من عباده ، فالبغى هنا مصدر بغى يبغى إذا ظلم . والمراد به ظلم خاص هو الحسد ، وإنما عد الحسد ظلما ، لأن الظلم معناه المعاملة التي تبعد عن الحق وتجافيها . والحسد معناه تمنى زوال النعمة عن الغير والظالم والحاسد قد جازب كل منهما الحق فيها صنع ، والحاسد ان يناله نفع من زوال نعمة المحسود ، كما أنه ان يناله ضرر من بقائها ، وما دام الأمر كذلك فالحاسد ظالم للمحسود بتمنى زوال النعمة وصدق الشاعر في قوله .

وأظلم خلق الله من بات حاسداً - لمن بات في نعمائه يتقلب - .

فاليهود قد كفروا بما أنزل الله ، من أجل حسدهم للنبي (صلى الله عليه وسلم) على النبوة ولأنه لم يكن منهم وكان من العرب ، وكرهية لأن ينزل الله الوحي على من يصطفيه للرسالة من غيرهم ، فعدم إيمانهم بما عرفوه وارتقبوه سببه أنانيتهم البغيضة ، وأثرتم الذميمة التي حملتهم على أن يحسدوا الناس على ما أتاهم الله من فضله ، وأن يتوهموا أن النبوة مقصورة عليهم ، فليس لله - تعالى - في زعمهم - أن ينزعها من ذرية إسحاق ليجعلها في ذرية إسماعيل عليهما السلام -

ولم يصرح - سبحانه - بأن المحسود هو النبي (صلى الله عليه وسلم) لعلم ذلك من سياق الآيات الكريمة وللتنبيه على أن الحسد في ذاته مذموم كيفما كان حال المحسود .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ما آل إليه أمرهم من خسران مبين فقال تعالى :

(فباءوا بغضب على غضب وللشكافرين عذاب مهين) : باء بإثمه يبر
 أى : رجع أى : فرجعوا من أجل كفرهم وحسدهم للنبي (صلى الله عليه
 وسلم) بغضب مضموم إلى غضب آخر كانوا قد استحقوه بسبب كفرهم
 بعيسى - عليه السلام - وبسبب تحريفهم للكلم عن مواضعه ، وتضييعهم
 لأحكام التوراة . فهم بسبب كفرهم المستمر الذى تعددت أسبابه ، يهيبون
 غضب كثير متعاقب من الله - تعالى - .

ويصح أن يكون معنى قوله : (فباءوا بغضب على غضب) أنه
 رجعوا بغضب شديد مؤكد ، لصدوره من الله - تعالى - .

والمراد بالشكافرين ، اليهود الذين تحدث عنهم فيما سبق ، فهم الذين
 عرفوا صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) فى نبوته بما نطق به التوراة ، وما
 ذلك كفرؤا به فاستحبوا العمى على الهدى .

وعبر عنهم بهذا العنوان للتنبيه على أن ما أصابهم من عذاب مثل
 كان بسبب كفرهم ، وبصح أن يراد بالكافرين : كل كافروهم يدخلون فيه
 دخولاً أولياً ؛ وإنما كان لهم العذاب المهين لأن كفرهم لما كان سببه البغى
 والحسد والتكبر والانانية ، قوبلوا بالإهانة والصغار .

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد كشفتنا عن لون من صفات اليهود
 القديمة وهو إعراضهم عن الإيمان بمحمد (صلى الله عليه وسلم) الذى كانوا
 يستنصرون به على أعدائهم قبل بعثته ، وبيعهم الإيمان الذى كان فى مكنتهم
 الظفر به بالكفر بما أنزل الله من دين قويم ، وكتاب كريم لإرضاء الغريزة
 الحقد الذى استحوذ على قلوبهم ، وتمشياً مع أثرتهم التى أبت عليهم أن
 يؤمنوا بنبي ليس من نسل إسرائيل ولو جاءهم بالحق المبين ، فحق عليهم
 قول الله - تعالى - (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)
 ثم حكى القرآن بعد ذلك بعض المعاذير الكاذبة التى كان اليهود يعتذرون
 بها عندما يدعون إلى الدخول فى الإسلام ، فقد كانوا يقولون إننا مكلفين
 ألا نؤمن إلا بكتابنا التوراة ، فنحن نكتفى بالإيمان به دون غيره . استمع إلى

القرآن - وهو يعرض دعواهم الكاذبة ثم يقذفها بحججه فيد مغها - حيث يقول:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
 ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ
 وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ
 بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ
 الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا
 فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

ومعنى الآيات الكريمة . أن اليهود المعاصرين للعهد النبوي كانوا إذا
 عرض عليهم الإيمان بما أنزل الله من القرآن على محمد (صلى الله عليه وسلم)
 أجابوا بقولهم : نؤمن بما أنزل علينا وهو التوراة التي أنزلها الله - تعالى -
 على موسى ، ويجحدون غيرها وهو القرآن الكريم المصدق لها في الأمر بإتباع
 محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم أمر الله - تعالى - رسوله (صلى الله عليه وسلم)
 أن يذهبهم في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم فقال : (قل فلم تقتلون أنبياء
 الله من قبل إن كنتم مؤمنين) بالتوراة فإنها تنهاكم عن قتلهم . ثم كذبهم القرآن
 الكريم مرة أخرى فقال : (ولقد جاءكم موسى بالبينات) أى : بالآيات
 الواضحات الدالة على صدقه ، ولما كنتم (اتخذتم العجل من بعد) ذهابه
 لميقات ربه (وأنتم ظالمون) لعبادتكم غير الله تعالى .

ثم كتبهم القرآن الكريم في دعواتهم الإيمان بما أنزل عليهم بصورة أخرى سوى ما سبقها فقال تعالى : «وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور» وقلنا لكم «خذوا ما آتيناكم - من التوراة - بقوة، أرى يجدو حزم (واسمعوا) ما أمرتم به فيها سماع تدبر وطاعة . ولكن أسلافكم الذين أنتم على شاكلتهم قالوا لنبيهم : «سمنا، قولك د وعصينا، أمرك . وخالط حب العجل قلوبهم كما يخالط الماء أعماق البدن ، وكل هذه الأفاعيل منكم لا تناسب دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم ، وإذا فبشما يأمركم به لإيمانكم إن كنتم مؤمنين بالتوراة كما تزعمون . فالواقع أن التوراة بريئة من أعمالكم ، وأنتم بعيدون عن الإيمان بها .

وقوله تعالى : «وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا» تصوير لنوع آخر من قبائح اليهود ، وإخبار عن إعراضهم عن الحق بدعوى أنهم مكلفون بعدم الإيمان إلا بما أنزله الله على موسى وهو التوراة والمقصود (بما أنزل الله) القرآن الكريم . ولم يذكر المنزل عليه وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) للعالم به أول النبيه على أن وجوب الإيمان بالكتاب ، يكفي فيه العلم بأنه منزل من عند الله - تعالى - ومتى استقر في النفس أن القرآن الكريم من عند الله ، استتبع ذلك استحضار أنه أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقولهم (نؤمن بما أنزل علينا) معناه : نؤمن بالتوراة التي أنزلها الله على غيبنا موسى دون غيرها بما أنزله الله عليك - يا محمد - ، وجوابهم هذا يدل على غباهم وعنادهم . لأن الداعي لهم إلى الإيمان ، يطلب منهم أن يؤمنوا بكل ما أنزل الله من الكتب السماوية ، ولكنهم قيدوا أنفسهم بالإيمان ببعض ما أنزل الله وهو ما أنزل عليهم ، فلم يكن إيمانهم مطاباً لما أمر الله به وهو التصديق بجميع الكتب السماوية ، ولا شك أن من آمن ببعض الكتب السماوية وكفر ببعضها يكون كافراً بجميعها .

وقوله تعالى : (ويكفرون بما وراه) قصد به بيان التصريح بكفرهم

بـالقرآن الكريم بعد أن لمحو بذلك في قولهم : « تؤمن بما أنزل علينا » .
والضمير في « وراه » يعود على « ما أنزل علينا » المكتنى به عن التوراة ، أى :
« قالوا تؤمن بما أنزل علينا والحال أنهم يكفرون بما سوى التوراة أو بما
بعدها وهو القرآن الكريم .

قال ابن جرير - رحمه الله - : « وتأويل وراه في هذا الموضع : سوى ،
كما يقال للرجل المتكلم بالحسن ، ما وراه هذا الكلام الحسن شئ . يراد به
ليس من عند المتكلم به شئ سوى ذلك الكلام ، فكذلك معنى قوله تعالى
« ويكفرون بما وراه » ، أى بما سوى التوراة ، وبما بعده من كتب الله التي
أنزلها على رسله » (١) .

والضمير « هو » في قوله تعالى « وهو الحق مصداقاً لما معهم » يعود إلى
« القرآن الكريم المكتنى عنه بقوله « بما وراه » . والحق : الحكم المطابق
للواقع ، ووصف به القرآن الكريم لاشتغاله على الأحكام المطابقة للواقع .
ومعنى كون القرآن مصداقاً لما مع اليهود وهو التوراة ، أنه يدل على
نبوة النبي (صلى الله عليه وسلم) . وبهذا كان مؤيداً للتوراة التي بشرت بالنبي
(صلى الله عليه وسلم) وذكرت له نعموناً لا تنطبق إلا عليه ، وبذلك يكون
اليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم كاذبين في دعواهم ، لأنهم لم يؤمنوا
بمحمد (صلى الله عليه وسلم) الذي بشرت به توراتهم وأمرتهم بالإيمان به
وأيدها القرآن الكريم في ذلك .

قال صاحب الكشاف : وفي قوله تعالى : « وهو الحق مصداقاً لما معهم »
رد لمقاتلهم « تؤمن بما أنزل علينا » لأنهم إذ كفروا بما يوافق النوراة
« فقد كفروا بها » (٢) .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يؤمهم ويبطل

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤١٨ :

(٢) تفسير الكشاف بتصريف ج ١ ص ٢٢٤ .

دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم بدليل إلزامي فقال تعالى : (قل فلم تقتلونهم
أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) .

والمعنى : قل يا محمد طوؤا اليهود الذين إذا دعوتهم إلى الإيمان بك
قالوا : دؤمن بما أنزل علينا ، قل لهم : إن كنتم حقاً مؤمنين بما أنزل عليكم
وهو التوراة ، فلاى شيء تقتلون أنبياء الله مع أن التوراة تحرم عليكم قتلهم ،
بل هى تأمركم باتباعهم وتصديقهم وطاعتهم لأنه أرسلهم لهدايتكم وسعادتكم .
إن قتلتكم لهم أكبر دليل على أنكم لم تؤمنوا لا بما أنزل عليكم
ولا بغيره وأنكم كاذبون فى مدعاكم لأن جميع ما أنزل الله من وحى
يحرم قتل الأنبياء ، وأمر الناس باتباعهم وطاعتهم .

ويرجع معنى الآية إلى نفي فعل الشرط وهو كونهم مؤمنين ، إذ لا وجه
لقتلهم الأنبياء إلا عدم إيمانهم بالتوراة ، وهذا كما تريد أن تنفى عن رجل
العقل لفعله ما ليس من شأنه أن يصدر من عاقل ، فتقول له : إن كنت
عاقلاً فلم فعلت كذا ؟ أى أنت لست بعاقل .

والفاء فى قوله تعالى د فلم تقتلون ، واقعة فى جواب محذوف دل عليه
ما بعده ، والتقدير إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم فلم تقتلون أنبياء الله - تعالى -
والإيمان بالمضارع فى قوله - تعالى - ، تقتلون ، مع أرقن للأنبياء وقع
من أسلافهم بقريئة قوله تعالى : د من قبل ، لقصد استحضار تلك الجناية
الشنعية ، وللتنبية على أن ارتكابهم لتلك الجريمة البشعة يتجدد ويقع منهم
المررة تلو الأخرى ، وللإشعار بأن الخلف يمشون على عمية السلف فى التعدى
والعصيان ، فلقد حارل اليهود المعاصرون للعهد النبوى قتل الرسول صلى الله عليه وسلم
وإكن الله - تعالى - عصمه منهم ، ونجاه من مكرهم .

وأضاف سبحانه - الأنبياء إليه فقال : د أنبياء الله ، لتنبية على شرفهم
العظيم ، وللدلالة على فظاعة عصيان اليهود واجترأهم المنكر ، إذ قابلوا
بالقتل من يجب عليهم أن يقابلوه بالتصديق والتوقير والطاعة .
ثم ذكر القرآن المكرم لهم جنائيات أخرى تدل على أنهم لم يؤمنوا بملك

أنزل عليهم كما يدعون . ومن تلك الجنايات عبادتهم العجل ، فقال تعالى :
 « ولقد جاءكم موسى بالبينات ، ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون » .
 البينات : جمع بينة وهي الآيات والمعجزات الدالة على صدقه وحقية
 نبوته ، كإفلاق العصاة ثعباناً ، وفلق البحر ، وانفجار العيون من الحجر
 . . . الخ

وإنما سماها الله بينات ، لأنها لما كانت لا يقدر على أن يأتي بها شر
 بتسخير الله ذلك له دلت على صدق موسى - عليه السلام - في نبوته
 ورسالته .

والمعنى : ولقد جاءكم - يا بني إسرائيل - بيننا موسى بالآيات الواضحات
 الدالة على صدقه ، وحقية نبوته ، وكان من الواجب عليكم أن تتبعوه
 وتطيعوه ولكنكم لم تفعلوا فقد اتخذتم العجل لها من بعد مفارقة نبيكم موسى
 لكم لمناجاة ربه ، ومن بعد مشاهدتكم لتلك المعجزات ، التي استبان بها
 صدقه فيما يبلغكم عن ربه فأنتم ظالمون بذلك ، لأنكم تركتم عبادة من يستحق
 العبادة وهو الله - تعالى - وعبدتم العجل الذي لا يملك ضرراً ولا نفعاً .

فالآية الكريمة فيها أبطال لدعوات الإيمان بما أنزل عليهم ، لأنهم لو كانوا
 مؤمنين حقاً بنبيهم الذي جاءهم بالبينات ، لما تركوا ما أمرهم به وهو عبادة
 الله ، وفعلوا ما نهام عنه وهو عبادة العجل .

ثم ذكر القرآن الكريم جنابة أخرى تكذبهم في دعواتهم « أنهم يؤمنون
 بما أنزل عليهم ، وهي إياؤهم التوراة عناداً واستكباراً فقال تعالى :
 (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور ، خذوا ما آتيناكم بقوة
 واسمعوا ، قالوا سمعنا وعصينا ، وأشر بوا في قلوبهم العجل بكفرهم ، قل
 بسماء يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين) .

ومعنى الآية الكريمة : واذكروا - يا بني إسرائيل - وقت أن أخذنا الميثاق
 عليكم بأن تعملوا بما في التوراة ، وتلقوا أحكامها بالتقبل والطاعة ورفعنا

فوقكم الطور لزيكم آية من آياتنا العظمى التي تقوى قلوبكم ، وتجعلكم
تقبلون على تعاليم التوراة برغبة واستجابة ، وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم بجد
وحزم ، واسمعوا ما أمرناكم به سماع تدر و طاعة ، ولكنكم - يابني إسرائيل -
يامن تدعون الإيمان بما أنزل عليكم - أعرضتم عما أمرتم به من قبول التوراة
وقائم لنيكم سمعنا قولك وعصينا أمرك ، وخاطب حب عبادة العجل قلوبكم
كما يخاطب الماء أعماق البدن ولم تأبهوا بما جاءكم في التوراة من الهدى والنور
بما صحب عرضها عليكم من الآية البينة وهي رفع الجبل فوقكم حتى ظننتم
أنه وافع بكم فكفرتم بذلك كله ولا زالت نفوسكم تحن إلى عبادة العجل
ولقد سرتهم على منهج أسلافكم في العناد والجحود والإعراض عما ينزله الله
من الحق ، وإذا كان هذا شأنكم فكيف تدعون الإيمان بما أنزل عليكم ؟
ثم أمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يوجههم على تخير صاتهم فقال
تعالى : (قل بشما يأمركم به لا يما فكم إن كنتم مؤمنين) .

وقوله تعالى : (ورفعنا فوقكم الطور) معناه : أننا حر كناه ونقلناه
معلقاً فوقكم في الهواء ، لتروا بأعينكم آية كونية من شأنها أنها تحملكم
على الإيمان والطاعة إن كانت أكم عقول تعقل .

ومعنى قوله تعالى : (خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) : قلنا لكم
خذوا ما أمرناكم به في التوراة بجد واجتهاد في تأديته ، واسمعوا ما تؤمرون
به سماع طاعة وتفهم . فقوله تعالى (واسمعوا) ليس المراد به مجرد السماع
للقول فقط ، بل المقصود منه السماع الذي يصحبه التدبر والاستجابة
للأمر : فهو مؤكد ومقرر لقوله تعالى : (خذوا ما آتيناكم بقوة) .

ثم حكى - سبحانه - جوابهم الذي يدل على عنادهم فقال : (قالوا
سمعنا وعصينا) .

قال صاحب الكشاف : (فإن قلت : كيف طابق قوله جوابهم ؟ قلت
طابقه من حيث إنه قال لهم اسمعوا : وليكن سماعكم سماع تقبل وطاعة ،
فقالوا سمعنا وليكن لاسماع طاعة) .

وقد اختلف المفسرون هل صدر متهم هذا اللفظ حقيقة باللسان نطقاً
أو أنهم فعلوا فعلاً مقام القول فيكون مجازاً ؟

قال الفخر الرازي : (الأكثر من المفسرين على أنهم قالوا هذا القول
حقيقة . وقال أبو مسلم : وجائز أن يكون المعنى سمعوه فتلقوه بالعصيان
فعبّر عن ذلك بالقول ولم يقوله ، كقوله تعالى (فقال لها وللأرض إنتما
طوعاً أو كرهاً قالنا أتينا طائعين) . قال : والأول أولى لأن صرف
الكلام عن ظاهره بغير الدليل لا يجوز (٢) .

وقوله تعالى : (وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) عطف على قولهم
سمعنا وعصينا) والإشراب : السقى وجعل الشيء شارباً ، واستعمل على
وجه التجوز في خالط لون بأخر كأن أحد اللونين سقى الآخر ، يقال :
يباض مشرب بجمرة أى مختلط ، وفلان أشرب قلبه حب كذا بمعنى خالط
حبه قلبه .

قال الإمام الرازي : قوله تعالى (وأشربوا في قلوبهم العجل) في وجه
هذه الاستعارة وجهان : الأول : معناه تداخلهم حبه والحرص على عبادته
كما يتداخل الصبيغ الثوب ، وقوله في قلوبهم بيان لمكان الإشراب كقوله :
(إنما يأكلون في بطونهم ناراً) ، الثاني : كما أن الشرب مادة لحياة ما يخرج
الأرض ، فكذا تلك المحبة كانت مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال (٣) .
وفي الجملة السكريمة (وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم) مضاف
مخذوف وهو لفظ (حب) لدلالة المعنى عليه .

والمعنى : إن هؤلاء اليهود للذين مردوا على العصيان قد خالط حب
العجل نفوسهم حتى استقر في قلوبهم كما يخالط الماء أعماق الجسد . وحذف

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٥

(٢) الفخر الرازي ج ١ ص ٤٣٢

(٣) تفسير الرازي ج ١ ص ٤٣٢

لفظ الحب من الجملة الكريمة ، يشعر بشدة تعلق قلوبهم بالعجل حتى
لكأنهم أشربوا ذاته .

والتعبير بقوله : (أشربوا) يشير إلى أنه بلغ حبهم العجل مبلغ الأمر
الذي لا اختيار لهم فيه كان غيرهم أشربهم لإياه .

وقوله تعالى (بكفرهم) دليل على أن محبتهم للعجل ناشئة عن كفر
سابق ، وجحود متأصل فكفرهم الذي ترتب على عبادتهم للعجل ، قد
سبقه كفر آخر ، فهو كفر على كفر .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه في ختام الآية الكريمة بتوبيخهم فقال تعالى :-
« قل بشما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ، أى : قل - يا محمد -
هؤلاء لليهود الذين يدعون الإيمان بما أنزل عليهم - قل لهم - بتس الشيء
الذى يأمركم به إيمانكم قتل الأنبياء وعبادة العجل والعصيان إن كنتم مصدقين
- كما زعمتم - بالتوراة ، والحق أن التوراة ما أمرتكم بشيء من ذلك فلا
أنتم بمؤمنين بها ولا بغيرها من كتب الله ، لأنها لا تأمر بالفحشاء .

فإن جملة الكريمة خلاصة لإبطال قولهم « نؤمن بما أنزل علينا ، بعد أن
أبطله الله - تعالى - فيما سبق بشواهد متعددة ، لأنهم لما زعموا ذلك ،
وكانوا مع هذا يفعلون أفعالاً قبيحة تناقض الإيمان بأى كتاب سماوى ،
أمر الله - تعالى - رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يذمهم على هذه
الأفعال التى تناقض الإيمان بما أنزل عليهم لكي يعلم الناس جميعاً أن
دعواهم لا أساس لها من الصحة .

وأضاف - سبحانه - الإيمان إليهم فقال (إيمانكم) ولم يقل الإيمان ،
لأنه ليس إيماناً صحيحاً وإنما هو إيمان مزعوم ، فإضافة الإيمان إليهم
من باب التوكيد بهم ، والاستهزاء بعقولهم .

وقوله تعالى « إن كنتم مؤمنين ، تشكيك في إيمانهم بالتوراة ، وقدح في
صحة دعواهم فإن الإيمان الحق إنما يأمر بعبادة الله وحده ، وينهى عن عبادة
سواه وعن ارتكاب السوء والفحشاء .

فأجلحة للكريمة في معنى النفي لادعائهم الإيمان بالتوراة لأنها ما أمرت بشئ. يبغضه الله تعالى .

قال الإمام ابن جرير : وقوله وإن كنتم مؤمنين، أى إن كنتم مصدقين كما زعمتم بما أنزل الله عليكم . وإنما كذبهم الله بذلك لأن التوراة تنهى عن ذلك كله ، وتأمّر بخلافه ، فأخبرهم أن تصديقهم بالتوراة إن كان بإمرهم بذلك ، فيش الأمر تأمر به . وإنما ذلك نفي من الله - تعالى - عن التوراة أن تكون تأمر بشئ مما يكرهه الله من أفعالهم وأن يكون التصديق بها يدل على شيء من مخالفة أمر الله ، وإعلام منه - جل ثناؤه - أن الذى يأمرهم بذلك أهواؤهم ، والذى يحملهم عليه البغى والدوان ، (١) وبذلك تكون الآيات الكريمة قد أقامت الأدلة المتعددة ، والبراهين القاطعة على كذب اليهود في دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ، ووبخهم على مزاعمهم الباطلة . وأقروا لهم الفاسدة .

هذا ، ولفضيلة أستاذنا الدكتور محمد عبد الله دراز كلام رصين عند حديثه عن هذه الآيات ، فقد قال - رحمه الله - :
يقول الله تعالى في ذكر حجاج اليهود : وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟
هذا قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل ، والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تلخص فيما بلى :

- ١ - مقالة ينصح بها الناصح لليهود : إذ يدعروهم إلى الإيمان بالقرآن
 - ٢ - إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين .
 - ٣ - الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه .
- وأقسم لو أن محامياً بليغاً وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في هذه القضية ، ثم هدى إلى استنباط دنما المعانى التى تحتلج في نفس الداعى والمدعو

لما وسعة في أديانها أضعاف أضعاف هذه السمكيات ، وعلله بعد ذلك لا يفي بما حولها من إشارات واحتراسات وآداب وأخلاق .

قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة ، ألستم قد آمنتم بالتوراة التي جاء بها موسى لأنها أنزلها الله ؟ فالقرآن الذي جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) أنزله الله ، فأمنوا به كما آمنتم بها .

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير في هذا اللفظ الوجيز (آمنوا بما أنزل الله) . وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كناية ، فجعل دعاهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشيء بحجته ، وبذلك أخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد .

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله (على محمد) ، مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة . أتدري لم ذلك ؟ لأنه لو ذكر لكان في نظر الحكمة البيانية زائداً ، وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسداً .

أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا تدخل لها في الإلزام ، فأدير الأمر على القدر المشترك وعلى الحد الأوسط الذي هو عمود الدلائل .
وأما الثاني فلأن إلقاء هذا الإسم على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج أضعافهم ويشير أحقادهم فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعي من التأليف والإصلاح . . .

كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذي دعانا الإيمان بالتوراة ليس هو كونها أنزلها الله فحسب ، بل إننا آمننا بها لأن الله أنزلها علينا . والقرآن لم ينزله علينا ، فلنكم قرآنكم ولنا توراتنا ، ولكل أمة شرعة ومنهاج .
هذا هو المعنى الذي أوجزه القرآن في قوله : : تؤمن بما أنزل علينا ، وهذا هو المقصد الأول ، وقد زاد لإيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال وهو لفظ الجلالة ، لأنه تقدم ذكره في نظيرتها .

ومن البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم يومئذ إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم ، وهذا هو المقصد الثاني ، ولكنهم تماشوا التصريح به لما فيه من شناعة التسجيل على أنفسهم بالكفر ، فأراد القرآن أن يبرزه ، أنظر كيف أبرزه ؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهباً له ، ولم يدخل مضمون قولهم في جملة ما نقله من كلامهم ، بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقاتلهم فقال :

« وبكفرون بما وراه ، أليس ذلك هو عاية الأمانة في النقل ؟ . . ثم جاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه .

فتراه لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابتهم ، بل يتركها مؤقتاً كأنها مسلمة ليس عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتاب فيقول : كيف يكون الإيمان بكتابتهم باعناً على الكافر بما هو حق مثله ؟ لا بل هو الحق كله ، وهل يعارض الحق الحق حتى يكون الإيمان بأحدهما موجبا للكفر بالآخر . ؟

ثم يترقى فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتاب السالفة عليهم كالأمر بين كل حق وحق ، فقد يكون الشيء حقاً وغيره حقاً فلا يتكاذبان ، ولكنهما في شأنين مختلفين ، فلا يشهد بعضهما لبعض ، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً ومصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، فكيف يكذب به من يؤمن بها .

فانظر إلى الإحكام في صنعة البيان : إنما هي كلمة رفعت وأخرى وضعت في مكانها عند الحاجة إليها ، فكانت هذه الكلمة حسياً لكل دذر ، وسداً لكل باب من أبواب الحرب ، بل كانت هذه الكلمة وحدها بمثابة حركة تطويق للخصم تمت خطوة واحدة ، وفي غير ما جلبة ولا طنطنة .

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوى الذي ساقه مساق الاعتراض والاستطراد ، استوى إلى الرد على المقصد الأصلي الذي تبجحوا بإعلانه-

والافتخار به ، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ، فأوسعهم إكذاباً وتفنيداً . وبيّن أن داء الجحود فيهم داء قديم ، قد أشرب به قلوبهم ومضت عليه القرون حتى أصبح مرضاً مزمناً وأن الذي أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمداً هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم ، وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفضعة التي لا سبيل لإنكارها في جهلهم بالله ، واتها كهم لحرمة أنبيائه ، وتمردهم على أوامره ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين .

تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له في آخر المرحلة السابقة ، إذ يفهم السامع من تكذيبهم لما يصدق كتابهم أنهم صاروا مكذابين لكتابهم نفسه ، وهل الذي يكذب من يصدقك يبقى مصداقاً لك ؟ . . . ثم انظر بعد أن سجل القرآن على بنى إسرائيل أفحش الفحش وهو وضعهم البقر الذي هو مثل في البلادة موضع المعبود الأقدس ، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم في تأييدهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الزهية . بعد كل ذلك تراه لا يزيد على أن يقول في الأمر : إن هذا (ظلم) ، وفي الثانية (بسما) صنعتهم ، أذلك كل ما تقابل به هذه الشناعات ؟ نعم لأنها كلمتان وافتتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجهها ، وليكن ابن حدة الألم وحرارة الاندفاع في الانتقام ؟ بل أين الاندفاع والالتشجيع ؟ وأين الإسراف والفجور الذي تراه في كلام الناس ، إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم .

الله ما أعف هذه الخصومة وما أعز هذا الجناب ، وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ، وتالله أن هذا الكلام لا يصدر عن نفس بشر ، (١) . ثم أمر الله - تعالى - نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يرد على اليهود في دعواهم أن الجنة لن يدخلها إلا من كان على ملتهم فقال - تعالى -

(١) عن كتاب (النبأ العظيم) من ص ١١٤ : ص ١٢٢ لفضيلة

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ
 دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا
 بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَحْرَصَ
 النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمِرُ اللَّهُ
 سِنَةً وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمِرَهُ ۗ وَاللَّهُ بِصِيرِهِمْ
 يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

ومعنى الآيات الكريمة لإجمالاً :

قل - يا محمد - لأولئك اليهود الذين ادعوا أن الجنة لن يدخلها إلا
 من كان هوداً : إن كانت الجنة مختصة بكم ، وسألمة لكم دون غيركم ،
 وليس لأحد سواكم فيها حق . فتمنوا الموت إن كنتم صادقين في دعواكم ،
 لأن من أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها وأحب الوصول إليها .

ثم أخبر الله أن هذا التمني لن يحصل منهم فقال : « ولن يتمنوه أبداً ،
 أي الموت بما قدمت أيديهم ، أي بسبب ما ارتكبه من كفر ومعصية
 - والله عليم بالظالمين ، الذين وضعوا الأمور في غير موضعها ، فادعوا
 ما ليس لهم ، ونفوسهم عن هو لهم .

ثم أخبر القرآن بأن حرصهم على الحياة لا فظير له ولا مثيل فقال :
 « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، متطاولة « ومن الذين أشركوا ، أي :
 « وأحرص عليها - أيضاً - من الذين أشركوا الذين لا يعرفون إلا الحياة الدنيا
 - يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، أي يتمنى الواحد من هؤلاء اليهود أن
 يعيش السنين الكثيرة ولو تجاوزت الحدود المعقولة لعمر الإنسان والحال

أنه ما أحد منهم يمزحزحه ومنجيه تعميره من العذاب ، والله بصير بما يعملون .
 أي : لا تخفى عليه أعمالهم ، فهو محاسبهم عليها ، ومجازيهم بما يستحقونه
 من عقاب .

وقوله تعالى : « قل إن كانت الدار الآخرة عند الله خالصة من دون
 الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، رد على زعمهم الباطل أن الجنة لا يدخلها
 إلا من كان هوداً ، والمراد بالدار الآخرة : الجنة ونعيمها ، ومعنى خالصة
 سالمة لكم مخصصة بكم ، لا يشار كحكم فيها أحد من الناس .

قال الإمام ابن جرير : « يقال : خلص لى فلان بمعنى صار لى وحدى
 وصفاً ، ويقال منه خلص هذا الشيء ، فهو يخلص خلوصاً وخالصة ،
 والخالصة مصدر مثل العافية . . . » (١) .

وقوله تعالى : « فتمنوا الموت ، التمنى هو ارتياح النفس ورغبة القوية
 فى الشيء . بحيث توده وتحب المصير إليه ، وهو يستعمل فى المعنى القائم
 بالقلب كما بينا ، ويستعمل فى اللفظ الدال على هذا المعنى ، كأن يقول
 الإنسان بلسانه ، ليتنى أحصل على كذا .

والاستعمال الثانى هو المراد بقوله تعالى « فتمنوا الموت ، أى اذكروا
 بالستكم لفظاً يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه . وإنما قلنا أن ذلك
 هو المراد من الآية لأن المعنى الكائن بالقلب لا يعرفه أحد سوى الله تعالى .
 والتحدى لا يقع بتحصيل المعانى القائمة بالاضائر والقلوب .

ومعنى الآية السكريمه . قل يا محمد لليهود : إن كانت الجنة خاصة بكم ،
 ولا منازع لكم فيها ولا مزاحم كما تزعمون ، فتمنوا الموت بالستكم لى
 تظفروا بنعيمها الدائم ، إن كنتم صادقين فى دعواكم أنها خالصة لكم ،
 وإلا فإنكم لا تكونون صادقين فى دعواكم ، إذ لا يعقل أن يرغب
 الإنسان عن السعادة المحضه الدائمة المضمونه له فى الآخرة ، إلى سعادة .

مزوجة بالشقاء في الدنيا .

قال الإمام الرازي : (وبيان هذه الملازمة أن نعم الدنيا قليلة حقيرة بالقياس إلى نعم الآخرة . ثم إن نعم الدنيا على قلة ما كانت منغصة عليهم بسبب ظهور محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنازعتهم معهم ، بالجدال والقتال ، ومن كان في النعم القليلة المنغصة . ثم يتيقن أنه بعد الموت لا بد أن ينتقل إلى تلك النعم العظيمة ، فإنه لا بد أن يكون راعياً في الموت ، لأن تلك النعم العظيمة مطلوبة ولا سبيل إليها إلا بالموت وحيث كان الموت يتوقف عليه المطلوب وجب أن يكون هذا الإنسان راضياً بالموت متمنياً له ، فثبت أن الدار الآخرة لو كانت خاصة لهم ، لوجب أن يتمنوا الموت . ثم إن الله - تعالى - أخبر أنهم ما يتمنوا الموت ، بل إن يتمنوه أبداً ، وحينئذ يلزم قطعاً بطلان ادعائهم في قولهم : إن الدار الآخرة خاصة لهم من دون الناس (١) .

وتحديدهم بتعني الموت يكون بأن يقولوا بالسنتهم ليتنا نموت ، أو يقولوا ما في معنى هذه الكلمة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً ، وهذا رأى جمهور المفسرين . وروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن ذلك يكون عن طريق المباهلة ، بأن يحضروا مع المؤمنين في صعيد واحد ، ثم يدعو الفريقان بالموت على الكاذب منهما .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أرجح لأنه أقرب إلى موافقة اللفظ الذي نطقت به الآية وأقرب أيضاً إلى معناها . إذ ليس في الآية إشارة ما إلى طلب المباهلة ، والقرآن حينما دعا إليها نصارى نجران ، جاء اللفظ بها صريحاً في قوله تعالى : **« ومن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين »** (٢) .

(١) تفسير الرازي ج ١ ص ٤٢٣ .

ثم أخبر - سبحانه - بأن هؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت أبداً بسبب ما فعلوا من شرور فقال تعالى : « ولئن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » .

أى : لا يتمنى اليهود الموت أبداً بسبب ما قدمت أيديهم من آثام ، وافتة - عز وجل - لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتدائهم بل هو سيسجلها عليهم ، ويجازيهم عليها الجزاء الذى يستحقونه ، والآية الكريمة خير من الله تعالى - عن اليهود بأنهم يكرهون الموت ، ويمتنعون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه من تمنييه ، لعلمهم بأنهم إن فعلوا فالموت نازل بهم ، وذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يخبرهم خيراً إلا كان حقاً كما أخبر فهم يحذرون أن يتمنوا الموت ، خوفاً من أن يحل بهم عقاب الله بما كسبت من الذنوب . وقد صح من عدة طريق عن ابن عباس أنه قال : « لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه » .

وقال ابن جرير فى تفسيره : « وبلغنا أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : « لو أن اليهود تمنوا الموت لما تواروا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالا ، قال حدثنا بذلك أبو كريب ، حدثنا زكريا بن عدى ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (١) .

وقال الإمام ابن كثير : ورواه الإمام أحمد عن اسماعيل بن يزيد الرقى حدثنا فرات عن عبد الكريم به ، (٢) :

وقال صاحب السكشاف : قوله (ولئن يتمنوه أبداً) من المعجزات لأنه لإخبار بالغييب وكان كما أخبر به ، كقوله تعالى (ولئن فعلوا) فإن

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢٧ .

قلت : ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت : قلت لو تمنوا لنقل ذلك عنهم كما نقلت سائر الحوادث ، ولسكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام أكثر من الذر وليس أحد منهم نقل عنه ذلك ، (١).

ويكفي في تحقيق هذه المعجزة ، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين تحداهم النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك ، وهم الذين كانوا يضعون المراقيل في طريق دعوته ، ويضرون على جحود نبوته ؛ فلا يقدر في هذه المعجزة أن ينطق يهودى بعد العهد النبوى بتمنى الموت وهو حريص على الحياة ، لأن المعنيين بالتحدى هم اليهود المعاصرون للعهد النبوى .

وقوله تعالى : (والله عليم بالظالمين) وارد مورد التهديد والوعيد لهم وكان اليهود ظالمين بسبب ما قدمت أيديهم وبسبب كونهم قد كذبوا على الله في دعواهم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان منهم .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك بأن هؤلاء اليهود الذين يزعمون أن الجنة خالصة لهم في غاية الحرص على الحياة فقال تعالى : ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمنزلة من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون .

ومعنى الآية الكريمة : ولتجدن - يا محمد - أولئك اليهود - الذين يزعمون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس - لتجدنهم أحب الناس للحياة ، وأحرصهم عليها ، وأشدهم كراهية للموت وليس ذلك عندما يكونون منتهين بالظمانينة والعافية فقط بل هم كذلك حتى ولو زالت عنها كل معاني الراحة والظمانينة ، فهم أحرص عليها حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث ، والذين يعتبرون نعيمهم الأكبر هو ما يتمتعون به من اللذات في هذه الدنيا ، وهم في حرصهم على الحياة يتمنون أن تطول أعمارهم دهوراً طويلة ، لا يصل إليها خيال أحد ممن يحرصون عليها كما قال تعالى :

« يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وبذلك تكون الآية الكريمة قد كذبتم في دعواهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس لأن الأمر لو كان كما يزعمون لرحبوا بالانتقال إليها ، ولكنهم لا يحبون الموت ولا يكاد يحظر بياهم ، ويحرصون كل الحرص على البقاء حتى مع سوء الحالة ورذالة العيش ، كما يشعر بذلك التنسكير في قوله تعالى « على حياة » .

والمراد بالناس جميعهم ، وأفضل التفضيل في « أحرص » على بابه ، لأن الحرص على الحياة غريزة في البشر إلا أنهم متفاوتون فيه قوة وكيفية وأسباباً ، كما قال الشاعر :

أرى كلنا يهوى الحياة بسعيه - حريصاً عليها مستهماً بها صبا
فحب الجبان النفس أوردته التقى - وحب الشجاع النفس أوردته الحربا .
فالناس جميعاً وإن كانوا يشتركون مع اليهود في الحرص على الحياة ، إلا أن اليهود يزيدون على سائر الناس أنهم أحرصهم ، وأنهم من أجل حرصهم عليها يضحون بدينهم وبكرامتهم وبكل شيء .

ونسكر - سبحانه - الحياة التي يحرصون عليها ، زيادة في تحقيرهم ، فكأنه - سبحانه - يقول : إنهم شديدو الحرص على الحياة ، ولو كانت حياة يؤس وشقاء ، وللإشعار بأن ما يهمهم هو مطلق حياة كيفما كانت ، بصرف النظر عن العزة والكرامة ، فمن أمثال اليهود المشهورة « الحياة وكفى » .
ولا شك أن شدة التمسك على الحياة ، تؤدي إلى الجبن ، واحتمال الضيم ، وتجعل الأمة التي تنتشر فيها هذه الرذيلة لا تفرق بين الحياة الكريمة والحياة الذليلة .

وقوله تعالى : « ومن الذين أشركوا ، هطف على الناس ، لأنه لما كان قوله تعالى : « أحرص الناس » في معنى : أحرص من جميع الناس صح أن يراعى المعنى ، فيكون قوله : « ومن الذين أشركوا ، معطوف عليه ، فيكون للمعنى : أحرص من جميع الناس ، وأحرص من الذين أشركوا على الحياة .

والذين أشركوا ، هم الذين جعلوا لله شركاء وإنهم أقردوا بالذكركم
 عنهم من الناس ، مبالغة في توبيخ اليهود وضمهم ، لأنهم إذا زاد حرصهم
 على الحياة - وهم أهل كتاب - على المشركين الذين لا كتاب لهم ولا
 يدينون ببعث أو نشور كان ذلك دليلاً على هوان نفوسهم ، وابتدال كرامتهم
 وعدم اعتدادهم بوصايا كتبهم التي تنهاهم عن الحرص على الحياة الذليلة .
 قال صاحب الكشاف : وفيه توبيخ عظيم ، لأن الذين أشركوا
 لا يؤمنون بعاقبة ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، فحرصهم عليها لا يستبعد
 لأنها جنتهم ، فإذا زاد عليها في الحرص من له كتاب وهو مقر بالجزاء ،
 كان حقيقاً بأعظم التوبيخ ، فإن قلت : لم زاد حرصهم على حرص المشركين ؟
 قلت : لأنهم علموا أنهم صائرُونَ إلى النار لا محالة والمشركون لا يعلمون
 ذلك ، (١) .

ثم بين - سبحانه - مظهر من مظاهر حرصهم على الحياة فقال تعالى
 : « يود أحدهم لو يعمر ألف سنة » ، أى يتمنى الواحد منهم أن يعيش دهوراً
 كثيرة ، ليس من عادة الناس أن يحبوا بلوغها ، لأنها تؤدى بهم إلى أرذل
 العمر ، وعدم طيب العيش .

فالجملة السكرية مستأنفة لإظهار مغالاتهم في التهاك على الدنيا ولتحقيق
 عموم النوعية في الحياة المنكرة ، ولدفع ما يظنه بعض الناس من أن حرصهم
 على الحياة مهما اشتد فلن يصل بها إلى تمنى أن يعيش الواحد منهم ألف عام ،
 أو أكثر ، فجىء بهذه الجملة السكرية . لتحقيق أن تعلقهم بالدنيا يشمل
 حتى هذه السن المتطاولة ، التي لا هناء فيها ولا راحة ، والتي استعاذ من
 بلوغها المؤمنون .

ثم بين - سبحانه - أن تعميرهم الطويل ان ينجيهم من العقوبة ، لأن
 الموت لا يتركهم مهما طال عمرهم ، فقال تعالى : « وما هر بمرحزحه من

العذاب أن يعمر) أى : وما أحد منهم بمبعده تعميره عن العذاب المعد له .
ولا يمنحيه عنه .

والجملة الكريمة فيها بيان مصيرهم المحتوم ، وقطع لحبال مطامعهم ، لأن الموت سيلحقهم مهما بلغ عمرهم ، وسيلقون جزاءهم على سوء صنيعهم .
وفى التعبير (بمزحزحه) إشارة إلى أن طول عمرهم ، ليس له أى أثر فى تخفيف العذاب عنهم ، وقوله والله بصير بما يعملون ، تهديد ووعد لهم لأنه - سبحانه - عليم بأعمالهم ، محيط بما يخفون وما يعلنون ، وسيجازيهم على كل ذلك بما يستحقون .

ومن هذا العرض للآيات الكريمة نرى أنها قد ردت على اليهود فى دعواهم أن الجنة خالصة لهم ، رداً يبطل حججهم ، ويفضح مزاعمهم ، ويكبت نفوسهم ، ويخرس ألسنتهم ، ويعلن أن الجنة إنما هى لمن أسلم وجهه لله وهو محسن ، وهم ليسوا من هذا النوع من الناس ولذا حرصوا على الحياة وفزعوا من الموت ، لأنهم يعلون أن من ورائهم النار وبئس القرار بسبب ما ارتكبوا من سيئات ، واقترفوا من آثام ، وافتروا من أكاذيب .
ثم ساق القرآن بعد ذلك لوناً عجبياً من ألوان رذائل اليهود وهو مجاهرهم بالعداوة لآمين الوحي جبريل - عليه السلام - فقال - تعالى - :

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ وَعَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ

اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ

لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

فهاتان الآيتان تكشفان عن رذيلة غريبة حقاً من رذائل اليهود وهى

عداوتهم لملك من ملائكة الله ، لا يأكل مما يأكلون ، ولا يشرب مما يشربون وإنما هو من الملائكة المقربين ، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإذا فليس هناك أى مقتضى لعداوته ، فلماذا هذا التصريح منهم ببغضه وكرهيته ؟

لقد سمعوا أن جبريل - عليه السلام - ينزل بالوحى من عند الله على محمد (صلى الله عليه وسلم) وهم يحسدونه على النبوة ، فلج بهم الحقد والغیظ إلى أن أعلنوا عن عداوتهم لجبريل - أيضاً - وهذه حماقة وجهالة منهم ، لأن جبريل - عليه السلام - نزل بالخير لهم فى دينهم وفى دنياهم . ولكن الحقد والحسد إذا استوليا على النفوس جعلها لا تفرق بين الخير والشر . ومعنى الآيتين الكریمین ، قل - يا محمد - هؤلاء اليهود الذين أعلنوا هدامهم لجبريل أنه لا وجه لعداوته لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه وإنما نزل على قلبك بأمر الله ليكون مؤيداً لما نزل قبلة من الكتب السماوية وليكون هداية إلى طريق السعادة وبشارة للمؤمنين بالجنة ، وقل لهم كذلك من كان معادياً لله أو لملك من ملائكته أو لرسول من رسله ، فقد كفر وباه بغضب من الله ، ومن غضب الله عليه ، فجزؤه الخزي وسوء المصير . قال الإمام ابن جرير : (أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً ، على أن هذه نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وميكائيل ولى لهم ، (١) .

وروى البخارى فى صحيحه - عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال (سمع عبد الله بن سلام بقدم النبى (صلى الله عليه وسلم) وهو فى أرض يخرنف - أى يحنى ثمارها - فأتى النبى (صلى الله عليه وسلم) فقال له : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمن إلا نبى ، فما أول أشرط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ، وما ينزع الولد إلى أبيه وأولى أمه ؟ قال : أخبرنى بهن جبريل آنفاً) قال : جبريل ؟ قال : نعم قال ذلك عدو اليهود من الملائكة - فقراً

النبي (صلى الله عليه وسلم) هذه الآية : « قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك . . . الآية ثم قال : أما أول أشرار الساعة ، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعته) فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله . يارسول الله : إن اليهود قوم بهت ، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قيل أن تسألهم يبهتوني ، فجاءت اليهود فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : أي رجل فيكم عبد الله ؟ قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا : قال : وأرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟ فقالوا : أعاذة الله من ذلك ؟ فخرج عبد الله فقال : (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ، فقالوا : شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه ، قال : فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله (١) .

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس : (أن اليهود بعد أن سألوا النبي (صلى الله عليه وسلم) أسئلة أجابهم عنها ، قالوا صدقت فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجممك أو نفارقك . قال : ولي جبريل ، لم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليه ، قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواهم من الملائكة لتابعناك وصدقناك ، قال : فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ قالوا : إنه عدونا ، فأ نزل الله - تعالى - قوله : (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن مصدقاً لما بين يديه . . . الآيات) .

وفي حديث الإمام أحمد والترمذي والنسائي وقال اليهود للنبي (صلى الله عليه وسلم) بعد أن سأله عن أشياء أجابهم عنها لما بقيت واحدة وهي التي تنابك إن أخبرتنا بها ، إنه ليس من نبي إلا وله ملك يأنيه بالخير ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال جبريل - عليه السلام - . قالوا : جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا ، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر

(١) صحيح البخارى كتاب التفسير باب قوله تعالى : « قل من كان عدو

والنبات لكان. فأقول الله - تعالى - : (قل من كان عدواً لجبريل ، الآية) (١)
فيؤخذ من هذه الأحاديث وما في معناها أن اليهود في عهد النبي
(صلى الله عليه وسلم) كانوا يجاهرون بعداوتهم لجبريل - عليه السلام -
وأن هذه المجاهرة بالعداوة ، قد تكررت منهم في مواقف متعددة بينهم وبين
النبي (صلى الله عليه وسلم) وأن الذي حماهم على ذلك هو حسدهم له ،
وغيظهم من جبريل ، لأنه ينزل بالوحي عليه .

قال الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : (ومن عجيب تهافت اعتقادهم
أنهم يثبتون أنه ملك مرسل من عند الله ، ومع ذلك يبغضونه ، وهذا أحط
درجات الانحطاط في العقل والعقيدة ، ولاشك أن اضطراب العقيدة من
أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبي عن تضافر آرائهم على الخطأ والأوهام) (١)
وفي أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم) بلغظ. (قل) كي يرد على اليهود ،
تثبيت له ، وتطمين لنفسه وتوبيخ لهم على معاداتهم لأمين الوحي ، وهو
جبريل - عليه السلام - .

وقوله تعالى : من كان عدواً لجبريل ، شرط عام قصد الإتيان به ليعلموا
أن الله - تعالى - لا يعبأ بهم ولا يغيرهم عن يعادى جبريل ، إن وجد معاد
آخر له سواهم .

وقوله تعالى : دهلى قلبك ، زيادة تقرير للتنزيل ، ببيان محل الوحي ،
وإشارة إلى أن السبب في تمكنه (صلى الله عليه وسلم) من تلاوة القرآن
المكريم ، وإبلاغه للناس ، ثباته في قلبه .

وقوله تعالى : دفايته نزله على قلبك بإذن الله ، معناه : فلا موجب
لعداوته . لأنه نزل القرآن على قلبك يا محمد بإذن الله وأمره . وإذ وعداوته
هداوة لله في الحقيقة والواقع ، ومن هنا يتبين أن هذه الجملة تعليل لجواب
الشرط وقائمة مقامه .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢٩

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج ١ ص ٢٢٦

قال صاحب الكشف: فإن قلت: كيف استقام قوله تعالى فإنه نزل على قلبك، جزاء للشرط؟ قلت: فيه وجهان أحدهما: إن عادى جبريل أحد من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته، حيث نزل كتاباً مصدقاً للكتب التي بين يديه، فلو أنصفوا لأحبوه وشكروا له صنيعه في إنزاله ما ينفعهم. وبصحح المنزل عليهم، والثاني: إن عاداه أحد فالسبب في عداوته أنه نزل عليك القرآن مصدقاً لكتبهم، وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن ولموافقتهم لكتبهم، ولذلك يحرفونه ويجحدون موافقته له. كقولك: إن عاداك فلان فقد آذيتَه وأسات إليه (١).

وقوله - تعالى - د بإذن الله، أي بأمره، وهو توبيخ لهم على عداوتهم لجبريل، الذي نزل بالقرآن بإذن الله، لا من تلقاء نفسه، وحجة أولى عليهم. وقوله تعالى: د مصدقاً، حال من الضمير العائد على القرآن الكريم، في قوله د نزل، أي أنزله حاله كونه مؤيداً للكتب السماوية التي قبله ومن بينها التوراة، وهذه حجة ثانية عليهم.

ثم عززهما بثالثة ورابعة - فقال تعالى: د وهدى وبشرى للمؤمنين، أي هذا القرآن الذي نزل مصدقاً لكتبكم، هو هادٍ إلى طريق الفلاح والنجاح، والمعاقل لا يرضى الهداية التي تأتيه وتنفذه مما هو فيه من ضلالات ولو كان الوسطة في مجيئها عدراً له، وهو - أيضاً - مبشر للمؤمنين برضا الله تعالى عنهم في الدنيا والآخرة، أما الضالون فقد أنذرهم بسوء العقبي فعليكم أن تتبعوا طريق الإيمان لتكونوا من المفاهيم وبذلك يكون القرآن قد أقام حججاً متعددة على حماقتهم وعنادهم وجحودهم للحق بعد ما تبين. وتمكون الآية الكريمة قد مدحت القرآن بخمس صفات.

أولها: أنه منزل من عند الله وإذنه. وثانيها: أنه منزل على قلب النبي (صلى الله عليه وسلم)، وثالثها: أنه مصدق لما نزل قبله من الكتب السماوية.

فإن الله عدو له وأنه من الكافرين ، فنصر عليه باسمه وعلى ميكائيل باسمه ،
 اثلا يقول منهم قائل : إنما قال الله : من كان عدواً لله وملائكته ورسله ، واستنأ
 الله ولا للملائكته ولا لرسله أعداء ، لأن الملائكة اسم عام محتمل خاصاً ،
 وجبريل وميكائيل غير داخلين فيه ، وكذلك قوله ورسله فاست يا محمد
 داخلاً فيهم ، فنصر الله - تعالى - على أسماء من زعموا أنهم أعداؤه بأعيانهم
 ليقطع بذلك تلبيسهم على أهل الضعف منهم ، ويحسم تمويههم أوورهم على
 ضعاف الإيمان ، (١) .

وقال - سبحانه - في ختام الآية الكريمة : فإن الله عدو للكافرين ،
 ولم يقل فإن الله عدو له أو لهم ، ليدل على أن عداوة كل واحد من اشتملت
 الآية الكريمة على ذكرهم كفر وجحود ، وليكون اندراجهم تحت هذا الحكم
 العام من باب إثبات الحكم بالدليل ، وللإشعار بأن عداوة الله - تعالى - لهم
 سببها كفرهم فإن الله لن يعادى قوماً لذواتهم ولا لأنسابهم ، وإنما يكفر
 لهم الكفر ويعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو .

قال صاحب المنار : فهذه الآية الكريمة وعيد لهم بعد بيان فساد العلة
 التي جاؤا بها ، فهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم ، لكنهم كذلك في نفس
 الأمر ، فأراد أن يبين حقيقة حالهم في الواقع ، وهي أنهم أعداء الحق وأعداء
 كل من يمثله ويدعو إليه ، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة
 ميكائيل الذي يزعمون أنهم يحبونه . وأهم كانوا يؤمنون بالنبي (صلى الله
 عليه وسلم) لو كان هو الذي ينزل بالوحي عليه ، ومعاداة القرآن الكريم
 كمعاداة سائر الكتب الإلهية لأن المقصود من الجميع واحد فقوله السابق
 وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكر ، وهذا من ضرور إيجاز القرآن
 الكريم التي انفرد بها ، (٢) .

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٤٩ .

(٢) تفسير المنار ج ١ ص ٣٩٤ .

وهذا تكون الآياتان الكرمتان قد دمغتا اليهود بالكفر والجحالة، لمعاداتهم
لجبريل وتمكديهم لمحمد ﷺ وبيننا ما عليه أمرهم من خزي وهوان
بسبب هذه العداوة التي لا باعث عليها إلا الحسد، وكرامية أن ينزل الله
من فضله على من يشاء من عباده .
ثم أخذ القرآن في تثبيت فؤاد النبي (صلى الله عليه وسلم) وتسلية عما
يفعله معه اليهود فقال تعالى :

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا
الْفٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَا عَنْهُدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلَّ
أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

أى : لقد أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالة على معانيها وعلى
كونها من عند الله ، وبيننا لك فيها علوم اليهود ، ومكتوبات شرائعهم
وأخبارهم ، وما حرفة أدابهم وأواخزهم من كتبهم ، وما يدلوه من
أحكامهم قال تعالى :

« إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ،
وإن هذه الآيات التي أنزلها الله إليك يا محمد ، ما يكفر بها ، ويجحد
صدقها إلا المتمردون من الكفرة ، الخارجون على حدود الله المنتهكون لحرمانه .
والهزيمة في قوله « أو كلمنا » للإنكار ، والواو للعطف على محذوف
يقضية المقام : أى أكفروا بالآيات البينات ، وهكلمنا عامدوا عهداً نبذه
فريق منهم ، أى : طرحوه ونقضوه من النبذ وهو إلقاء الشيء وطرحه أفلته
الاعتداد به ومنه سمي التنبذ وهو التمر والزبيب ، إذا طرحا في الماء وهو
حقيقة في الأجرام وإسناده إلى العهد مجاز .

والضمير في قوله « منهم » يعود لليهود الذين اشتهروا بنقض العمود وقوله : « بل أكثرهم لا يؤمنون » يفيد الترقى إلى الأغلظ فالأغلظ ، أي أن فريقاً منهم عرف بنقضه للعمود ، وأكثرهم عرف بكفره وجحده للحق قال صاحب الكشاف ، واليهود موسومون بالخذل ونقض العمود ، و أخذ الله الميثاق منهم ومن آباؤهم فنقضوا ، ولم عاهدوا رسول الله فلم يفرو « الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون » .

وقال الرازي : « والمقصود من هذا الاستهزام الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التوبيخ والتبكيك ودل بقوله « أو كلما عاهدوا ، على عهد بعد عهد نبذوه ونقضوه ، بل يدل على أن ذلك كالعادة منهم ، فكأنه - تعالى - أراد تسليمة النبي (ﷺ) عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات ، بأن بين له أن ذلك ليس ببدع منهم ، بل هو سجيتهم وعادتهم وعادة سلفهم . . . »

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن فيذ اليهود لسكتاب الله ، واتباعهم في السحر والأوهام ، فقال - تعالى -

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) تفسير المفخر الرازي ج ١ ص ٤١٧ .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ
 لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ
 ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ
 سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ
 السَّحَرَاءُ وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَابِلَ هَرُوتَ وَمَرْوَتَ ۗ وَمَا يَعْلَمَانِ
 مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا
 مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۗ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ
 إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ
 مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا
 يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو

كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

والمعنى : وحين جاء اليهود وأخبارهم رسول من عند الله ، وهو محمد
 (صلى الله عليه وسلم) الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، طرح فريق
 كبير منهم تعاليم التوراة التي تشهد بصدقه ، وراء ظهورهم ، حتى ليكأنهم
 يجهلون أنها من عنده ، واتبعوا ما قصته واختلقته الشياطين من السحر
 والأوهام والمفتريات هللى عهد سليمان - عليه السلام - ومن هذه المفتريات
 حوالا كاذب زعمهم أن سليمان - عليه السلام - كان ساحراً ، وما تم له ملكه

العريض ، ولا ظهرت على يديه المعجزات الباهرة من تسخير الجن والريح إلا هذا .

وقد أكفهم الله - تعالى - في هذا الزعم بقوله : وما كفر سليمان ، أي : بتعلم السحر والعمل به ، كما يزعم هؤلاء . ولكن الشياطين ، هم الذين كفروا ، بتعلم السحر وتعاليمه للناس ، وتعليمهم - أيضاً - ضرباً آخر منه وهو : ما أنزل على الملكين 'ببابل هاروت وماروت ، من وصف السحر وما هيته وكيفية الاحتيال به ، واقد كان الملكان لا يعلمان أحداً من الناس السحر حتى ينصحاء بقولهما : إن السحر الذي نملكك إياه . القصد منه التمييز بين المطيع والمعاصي ، وبين السحر والمعجزة ، فحذار أن تستعمله فيما نهيت عنه فتكون من الكافرين ، بخلاف الشياطين فإنهم تعلموه وعلموه لغيرهم لاستعماله في الشرور والآثام ، ولإحداث التفرقة بين الزوجين ، ولكن هذا السحر الذي يتعاطاه الشياطين وأتباعهم إن يضر أحداً بذاته ، وإنما ضرره يتأق إذا أراد الله تعالى - ذلك وشاءه ، ولقد علم أولئك النابذون لكتاب الله المؤثرون عليه اتباع السحر ، أن من استبدل السحر بكتاب الله ، فليس له نصيب من نعم الجنة ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ، علماً نافعاً . ولو أنهم آمنوا ، بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، كما أرشدتهم إليه التوراة ، واتقوا ، المعاصي والآثام لا يئبوا مشوبة من عند الله هي خير لهم مما آثروه واختاروه على كتاب الله لو كانوا يعلمون .

وقوله تعالى : ولما جاءهم رسول من عند الله صدق لما معهم نبذ فريق من الذين أتوا بالكتاب كتاب الله وراء ظهورهم .. الخ الآية .

بيان لما صدر عن اليهود من تكذيب الرسول (صلى الله عليه وسلم) وطرح لتعاليم كتابهم التي أمرتهم باتباعه .

أخرج ابن جرير عن السدي قال في قوله تعالى : ولما جاءهم رسول من عند الله صدق لما معهم نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب : كتاب الله

رراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتبعوا ما تنلو الشياطين على ملك سايمان . .
 أى لما جاءهم محمد (صلى الله عليه وسلم) عارضوه بالتوراة فخاصموه بها .
 فانفقت التوراة والقرآن ، فبذوا التوراة والقرآن وأخذوا بكتاب آسف
 وسحر هاروت ، فذلك قول الله د كأنهم لا يعلمون ، أى كأن هؤلاء الذين
 فبذوا كتاب الله من علماء اليهود ، فنةضوا عهد الله ، لا يعلمون ما في التوراة
 من الأمر باتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - وتصديقه (١) .

وفى وصف الرسول بأنه آت من عند الله تعظيم له ، ومبالغة فى انكار
 عدم إيمانهم به ، وإغراء للناس جميعاً بالدخول فى دعوته ، لأنه ليس رسولا
 من تلقاء نفسه ، وإنما هو رسول من عند الله - تعالى - .

والمراد د بما معهم ، التوراة . وتصديق الرسول - صلى الله عليه وسلم -
 لها ، معناه أن ما جاء به من تعاليم موافق لها فى أصول الدين ، وأن
 ما جاءت به من صفات للرسول المنتظر بعد عيسى - عليه السلام - لا تنطبق
 إلا عليه (صلى الله عليه وسلم) .

وعبر - سبحانه - عن تركهم العمل بالكتاب الذى نزل لهدايتهم بالنبذ ،
 مبالغة فى عدم اعتدادهم ، وتناسبهم إياه ، لأن أصل النبذ طرح وإلقاء
 ما لا يعتد به .

وفى إسناد النبذ إلى فريق من الذين أتوا الكتاب ، تمخيرية بهم ، واستعمال
 لهم ، لأن الذين أتوه هم الذين نبذوه ، ولو كان النابذون من المشركين
 لكان لهم بعض العذر اجهلهم ، ولسكن أن يكون النار كون للنور هم الذين
 أتوه وأكرموا به ، فذلك هو الضلال المبين .

والمراد من (كتاب الله) الذى نبذوه لما جاءهم رسول الله - ﷺ -
 التوراة ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها حقاً ، لا تبعوا الرسول - صلى الله
 عليه وسلم - الذى ذكرت صفاته فيها ، والذى وجب عليهم بمقتضى كتابهم

(التوراة) الإيماني به ، فهم بجحودهم لنبوته ، يكرهون جاحدين لتوراتهم التي شهدت له بالصدق .

وقيل المراد بكتاب الله الذي نبذوه القرآن ، لأنهم لم يؤمنوا به ، بل تركوه بعد سماعه ، وتناسوا ما اشتمل عليه من هداية وإرشاد ، مع أنه كان من المحتمل عليهم أن يتلقوه بالقبول .

والذي نراه أن الرأي الأول أرجح ، لأن النبي يقتضى سابقه الأخذ ، في الجملة . وهو متحقق بالنسبة للتوراة ، بخلاف القرآن الكريم فإنهم لم يسبق لهم أن تمسكوا به ، ولأن مذمتهم تكون أشد وجحودهم أكثر ، إذا كان المراد بالكتاب الذي نبذوه ، هو عين الكتاب الذي نزل لهدايتهم وآمنوا به وهو التوراة .

وقوله تعالى : (وراه ظهورهم) كناية عن إعراضهم الشديد عنه ، وتوليهم عن تعاليمه .

تقول العرب : جهل هذا الأمر وراه ظهره ، أي تولى عنه معرضاً ، لأن ما يجعل وراه الظهر لا ينظر إليه ، ففي هذه الجملة الكريمة تصوير صادق لإعراضهم عن كتاب الله - تعالى - حيث شبه - سبحانه - تركهم لكتابه ، بحالة شيء يرمى به وراه الظهر استهانة به . وفي إضافة الورا إلى الظهر ، تأكيداً لنفي ما ترك بحيث لا يؤخذ بعد ذلك .

قال الأستاذ الإمام : ليس المراد بنبي الكتاب وراه ظهورهم أنهم طرحوه برمته ، وتركوا التصديق به في جملته وتفصيله . وإنما المراد أنهم طرحوه أجزاء منه وهو ما يبشر بالنبي (صلى الله عليه وسلم) وبين صفاته ، ويأمرهم بالإيمان به واتباعه . فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره ، بمن يلقى الشيء وراه ظهره حتى لا يراه فيتذكره ، وترك الجزء منه كتركه كله ، لأن ترك البعض يذهب بحرمة الوحي من النفس ، ويجرى على ترك الباقي (١) (١٠٠)

وقوله تعالى : « كانوا لا يعلمون ، جملة -الية ، أى طرحوه وراهظهورهم مشبهين بحال من لا يعلم منه شيئاً ، ومن لا يعرف أنه كتاب الله .
 وشبههم بمن لا يعلمون مع أنهم فى الواقع يعلمون أنه من عند الله -
 حق العلم - لأنهم نيزوه مكابرة وعناداً ، ولأنهم لم يعملوا بمقتضى علمهم
 ومن كان هذا شأنه فهو والجاهل سوله ، فى وجود الحق والانغماس
 فى الآثام .

وقال - سبحانه - (كانوا لا يعلمون) بنفى الحال والاستقبال الإشعار
 بأنهم قوم لا أمل فى توبتهم وإفابتهم ، بل هم تمر بهم الأيام ، وتوالى عليهم
 العظات ، ومع ذلك لا يتوبون ولا يرجعون إلى الحق ، فهم مستمرزون على
 طرح كتاب الله فى كل وقت وآن ، ومصممون على ذلك .

ثم حكى - سبحانه - لونا آخر من زيغهم وضلالهم واتباعهم للأباطيل
 بعد أن ونجهم على نبتهم لكتابه فقال تعالى : واتبعوا ما تلو الشياطين على
 ملك سليمان .

اتبعوا : من الاتباع وهو الاقتداء ، والضمير فيه يعود على اليهود
 المعاصرين للنبي (صلى الله عليه وسلم) .

وتلو : من التلاوة بمعنى الاتباع أو القراءة ، وقال الراغب : تلا عليه
 كذب عليه .

والشياطين : جمع شيطان ، وهو كائن حى خلق من النار ، ويطلق على
 الممثلة شرأ من الأنس .

والمعنى : إن هؤلاء اليهود نبتوا كتاب الله ، واتبعوا الذى كانت تلوه
 وتقصه الشياطين على عهد ملك سليمان ، وفى زمانه ، من الأكاذيب والكفر
 ومن ذلك زعمهم أن ملكه قام على أساس السحر ، وأنه ارتد فى أواخر حياته ،
 وعبد الأصنام لإرضاء انفسائه الوثنيات إلى غير ذلك من الأكاذيب التى
 ألصقوها به - عليه السلام - وهو برىء منها .

قال صاحب الكشف : « وقوله تعالى : (على ملك سليمان) أى على عهد ملكه وفى زمانه ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلقونها ويلقونها إلى الكهنة ، وقد دونوها فى كتب يقرؤونها ويعلمونها للناس ، وقتها ذلك فى زمان سليمان - عليه السلام - حتى قالوا : إن الجن تعلم الغيب ، وكانوا يقولون : ماتم سليمان ملكه إلا بهذا العلم وبه يسخر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره (١) . وقوله تعالى : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، معناه : وما كفر سليمان ولكن الشياطين هم الذين كفروا إذ تعلموا السحر وعلومه لغيرهم بقصد إضلالهم ، وصرّفهم عن عبادة الله - تعالى - إلى عبادة غيره من المخلوقات .

فى الجملة الكريمة تنزهه لسليمان - عليه السلام - عن الردة والشرك وتبرئة له من عمل السحر الذى كان يتعاطاه أولئك الشياطين وينسوه إليه زورا وبهتلا ودلالة على أن ذلك السحر الذى نسبوه إليه وبشرته الشياطين نوع من الكفر . وقد كان اليهود يعتقدون كفر سليمان ، وأنه ارتد فى آخر عمره ، وعبد الأصنام وبنى لها المعابد ، وكانوا عندما يذكر النبى (صلى الله عليه وسلم) سليمان بين الأنبياء يقولون : انظروا إلى محمد يخطئ الحق بالباطل ، يذكر سليمان مع الأنبياء ، وإنما كان ساحراً يركب الريح .

فإن قال قائل : ما الحكمة فى نفي الكفر عن سليمان مع أن صدر الآية لا يفيد أن أحداً نسب إليه ذلك .

فالجواب : أن اليهود الذين نبذوا كتاب الله ، واتبعوا ما تلتته الشياطين من السحر أضافوا هذا السحر إلى سليمان ، وقالوا إنه كان يسخر به الجن والإنس والريح ، فأكفروهم الله - تعالى - بقوله : « وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، كما بينا .

والضمير في قوله تعالى : « يعلمون الناس السحر » يعود على الشياطين
الذين افتروا الأكاذيب على سليمان - عليه السلام - .
ويجوز أن يعود على اليهود الذين نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تله
الشياطين على سليمان .

قال الأستاذ الإمام : في قوله تعالى « يعلمون الناس السحر » : وجهان :
أحدهما : أنه متصل بقوله تعالى : « ولكن الشياطين كفروا ، أي : أن
الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر .

والثاني : وهو الأظهر أنه متصل بالكلام عن اليهود وأن الكلام في الشياطين
قد انتهى عند قوله تعالى « كفروا » ، وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان
مشهوراً في زمن التنزيل ولا يزالون ينتحلون ذلك إلى اليوم ، أي أن فريقاً
من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تنلوا الشياطين على ملك سليمان وهما
يقول القائل : بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان في رميته
بالكفر وزعمهم أن السحر استخراج من كتبه التي كانت تحت كرسيه ؟
فأجاب على طريق الاستئناف البياني « يعلمون الناس السحر . . . » .

ونفي الكفر عن سليمان وإصاغه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض ،
فعل - أيضاً - أنهم اتبعوا الشياطين بهذه القرية ، وإنما كان القصد إلى
وصف اليهود بتعلم السحر ، لأنه من السيئات التي كانوا متلبسين بها ،
ويضرون بها الناس خداعاً وتمويهاً وتلبساً (١) .

وإنما أضاف الله - تعالى - إلى اليهود أنهم اتبعوا ما تنلوا الشياطين على
ملك سليمان خاصة مع أنه كان معروفاً قبل سليمان - عليه السلام - كما أخبر به
القرآن عن سحرة فرعون ، وإنما أضاف ذلك إليهم ، لأن هذا كان هو
الواقع منهم ، ولأن سحر هؤلاء للشياطين للذين كانوا على عهد سليمان ، كان

مدوناً في صحف اليهود من قديم ، وتوارثه خلفهم من سلفهم إلى أن وصل إلى من عاصر النبي (صلى الله عليه وسلم) منهم ولأن سليمان - عليه السلام - أعطاه الله تعالى ملكاً واسعاً ، وسخر له الإنس والجن والريح ، فعزت الشياطين ذلك كله إلى تعلمه السحر .

و ما ، في قوله تعالى : « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت » موصولة ، وهي معطوفة على السحر في قوله تعالى (يعلمون الناس السحر) أي يعلمون الناس السحر ، ويعلمونهم الذي أنزل على الملكين .
والذي أنزل عليهما هو وصف السحر وماهيته وكيفية الاحتيال به .
ليعرفاه الناس فيجتنبوه ، على حد قول الشاعر :

عرفت الشر لا الشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه
فالشياطين عرفوه فعملوا به ، وعلموه للناس ليستعملوه في الشرور والمآثم
بينما المؤمنون عرفوه واستفادوا من الاطلاع عليه فتجنبوه (١) ،

هذا ، واختصت بابل (٢) بالانزال ، لأنها كانت أكثر البلاد عملاً بالسحر ، وكان سحرتها قد اتخذوا السحر وسيلة لتسخير العامة لهم في أبدانهم وعقولهم وأمواهم ، ثم جروهم إلى عبادة الأصنام والكواكب فحدث

(١) ويحوز أن تكون (ما) معطوفة على قوله تعالى (ماتلو الشياطين) والمعنى على هذا الرأي . واتبع اليهود بعد أن نبذوا كتاب الله السحر الذي تلتته الشياطين على عهد سليمان ، واتبعوا كذلك السحر الذي أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وعلى هذا الرأي يكون قوله تعالى : ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر جملة معترضة بين المتعاطفين قصد بها تهمته سليمان من السحر وإضافته إلى الشياطين ، وبيان أهمهم الذين تعاموه وعلموه الناس بقصد إضلالهم .
هذا ، وفي إعراب (ما) في قوله تعالى : (وما أنزل على الملكين) أرام أخرى إكتفينا عنها بما ذكرناه لوفائه بالقرض .
(٢) بابل : مدينة بالعراق ينسب إليها السحر والخمر .

فساد عظيم ، وعمت الأباطيل فألهم الله - تعالى - هاروت وماروت أن يكشفوا للناس حقيقة السحر ودقائقه ، حتى يعلموا أن السحرة الذين صرفوهم عن عبادة الله إلى عبادة الكواكب وغيرها قد خدعهم وأضلوا ، وبذلك يعودون إلى الصراط المستقيم .

واللام في « الملئكين » مفتوحة في القراءات العشرة المتواترة ، وقرئ « شاذأ » الملئكين ، بكسر اللام .

قال بعض المفسرين : المراد بالملئكين - بفتح اللام - رجلان صالحان اطلعا على أسرار السحر التي كانت تفعلها السحرة ، فعلاهما للناس ليحذروا من الانقياد لتبليغات الشياطين ، وسميا ملكين مع أنهما من البشر لصلاحهما وتقواهما ، ويؤيد هذا الرأي قراءة الملئكين - بكسر اللام - وإن كانت شاذة . وقال جمهور المفسرين : لانهما ملكان على الحقيقة أنزلها الله - تعالى -

ليعلمنا الناس السحر ابتلاء لهم ، ليفضحا مزاعم السحرة الذين كانوا يدعون النبوة كذبا ، ويسخرون العامة لهم ويخرجونهم إلى عبادة غير الله ، وهاروت وماروت (اسمان للملكين الذين أنزل عليهما السحر ، وهما بدل أو عطف بيان للملكين .

وقوله تعالى : (وما يعلمان من أحد حتى بقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) .

بيان لما كان ينصح به الملئكان من يريد تعلم السحر عنهما . والجملة حالية من هاروت وماروت .

والفتنة ، المراد بها هنا الابتلاء والاختبار ، تقول : فتنت الذهب في النار ، أي : اختبرته لتعرف جودته وورداته .

والمعنى : أن الملئكين لا يعلمان أحداً من الناس السحر إلا وينصحانه بقولهما إن ما نعلمك إياه من فنون السحر ، الغرض منه الابتلاء والاختبار لتعيين المطيع من العاصي . فمن عمل به ضل وغوى ، ومن تركه فهو على هدى ونور من الله ، ولإظهار الفرق بين المعجزة والسحر . فحذار أن تستعمل ما تعلمته - فيما نهيته عنه فتكون من الكافرين . كما كفر السحرة بنسبتهم للتأثيرات إلى

اللكواكب وغيرها من المخلوقات .

فالمقصود من تطليم الملوك للناس السحر ، فضح أمر السحرة الذين كثروا في تلك الأيام ، وادعوا ما لم يأذن به الله ، وإظهار الفرق بين المعجزة والسحر حتى يعلم الناس أن هؤلاء السحرة الذين قد يزعمون بمرور الأيام أنهم أنبياء ليسوا كذلك ، وإنما هم أفاكون ، وأخبروا على أنفسهم بطريق القصر بأنهم فتنة للمبالغة في الاقرا بأنهما لا يمكنان ففعماً ولا ضراً لأحد ، وإنما هما فتنة محضة ، وابتلاء من الله لعباده لتمييز المطيع من العاصي .

ثم بين - سبحانه - لونا من السحر البغيض الذي استعمله أولئك السحرة في الأذى فقال تعالى : (فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أى فيتعلم بعض الناس من الملوك ما يحصل به الفراق بين المرء وزوجه . فالجمل الكريمة تفريع عما دل عليه قوله تعالى قبل ذلك (وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنة) لأنه يقتضى أن للتعليم حاصل ، وأن بعض المتعلمين قد استعملوه في التفريق بين الزوجين .

وخصص سبحانه هذا اللون من السحر بالنص عليه . للتنبيه على شدة فسادة . وعلى شناعة ذنب من يقوم به . لأنه تسبب عنه التفريق بين الزوجين اللذين جمعت بينهما أواصر المودة والرحمة .

والضمير في قوله تعالى (فيتعلمون) راجع لأحد ، وصح عود ضمير الجمع عليه مع أنه مفرد ، لوقوعه في سياق التثنية ، والنكرة إذا وردت بعد نفي كانت في معنى أفراد كثيرة ، فصح أن يعود ضمير الجمع إليه كذلك .

ثم نفي - سبحانه - أن يكون السحر مؤثراً بذاته فقال تعالى : (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) أى : أن أولئك السحرة لن يضرروا أو ينفعوا أحداً بسحرم إلا بإذن الله وقدرته ، فالسحر سبب عادى لما ينشأ عنه من الأضرار ويجوز أن يتخلف عنه مسببه إذا أذن الله بذلك .

والجمل الكريمة معترضة لدفع توهم أن يكون السحر مضرأ بذاته ، بحيث لا يتخلف عنه الضرر متى تباطاه الساحر .

والمراد (ياذن الله) هنا . تخليته - سبحانه - بين المسحور وضرر السحر ،
أى : إن شاء حصل الضرر بسبب السحر ، وإن شاء منعه فلا يصيب
المسحور منه شيء من الأذى .

وعبر - سبحانه - عن هذا المعنى بطريق القصر ، مبالغة في نفي أى تأثير
للسحر بذاته ، وإغراء للتفاس بتكذيب ما يزعمه السحرة من أن لهم قوى
غيبية سوى الأسباب التى ربط الله بها المسببات ، وإرشاداً لهم إلى حسن
الاعتقاد ، وسلامة اليقين .

ثم بين - سبحانه - أن أولئك المتعلمين السحر للأذى والتفرقة بين المنتحابين
يتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، فقال تعالى (ويتعلمون ما يضرهم ولا
ينفعهم) أى : أن أولئك الذين تعلموا السحر ليضروا به غيرهم ، ولم يتعلموه
ليفرقوا به بين الحق والباطل ، أو ليدفعوا به الشر عن أنفسهم ، قد سلكوا
بهذا التعليم الطريق الذى يضرهم ولا ينفعهم ، وأصبحوا بذلك عاصين لما
نصحهم به الملائكة عند تعليم السحر .

وفى هذه الجملة الكريمة زيادة تنبيه على تفاهة عقول المشتغلين بالسحر
للأذى ومبالغة فى تجهيل المصدقين لهم ، لأن الساحر - مهما بلغت براعته -
فإن يستطيع أن يمنع شيئاً أرادته الله ، ولا إن يأتى بشيء منعه الله وما دام
الامر كذلك فالمشتغل به ، والمصدق له كلاهما وقع فى ضلال مبين .

وقد أفادته الجملة الكريمة بجمعها بين إنبات الضر ونفي النفع مفاد الحصر
فكانه - سبحانه - يقول : ويتعلمون ما ليس إلا ضرراً بحتاً .

ثم بين - سبحانه - مآل أولئك اليهود التاركين للحق ، والمتبعين للباطل
فقال تعالى : (ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق) أى :
ولقد علم أولئك اليهود الذين نبدوا تعاليم كتابهم واتبعوا السحر ، أن من
استبدل السحر بكتاب الله ليس له من حظ فى الجنة ، لأنه قد اختار الضلال
وترك الهدى ، وعلمهم مرجعه إلى أن التوراة قد حرمت عليهم تعلم السحر
أو تعليمه للأذى والضرر ، وشدت العقوبة على مرتكبه ، وهى متبع الجن

والشياطين والكهان .

فالضمير في (علموا) يعود إلى أولئك اليهود الذي تركوا كتاب الله واستبدلوا به السحر .

والاشتراء هو اكتساب شيء ببدل غيره ، والمراد أهم الكتب السحرية التي تتلوها الشياطين بعد أن بذلوا في سبيل ذلك إيمانهم ونصيحتهم من الجنة ، وغدوا مفلسين من حظوظ الآخرة ، لإقبالهم على الغيوب ، والكذب ، واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير .

وأكد - سبحانه - علمهم بضرر السحر بقوله (واقدم علموا . . .) الإشارة إلى أن اختيارهم للسحر لم ينشأ عن جهلهم بضرره ، وإيمانهم الذين اختاروه ولم يولوا إليه متعمدين وطلين بما قبله السيئة .

ثم قال تعالى : (وليبس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون) .
شروا : بمعنى باعوا ، وبيع الأنفس هنا معناه بيع نصيبها من الجنة ونعيمها .

والمعنى : وليبس شيئاً باع به أولئك السحرة حظوظ أنفسهم تعلم ما يضر من السحر والعمل به ، ولو كانوا ممن ينتفعون بعلمهم لما فعلوا ذلك .

وأثبت لهم العلم في قوله تعالى (واقدم علموا لمن اشتراه . .) ثم نفاه عنهم في قوله تعالى : (لو كانوا يعلمون) جرياً على الأسلوب المعروف في فنون البلاغة من أن العالم بالشيء إذا لم يعمل بموجب علمه نزل منزلة الجاهل ونفى عنه العلم كما ينفي عن الجاهلين .

وإلى هذا المعنى الذي قرناه أشار صاحب الكشف بقوله .

فإن قلت كيف أثبت لهم العلم أولاً في قوله (واقدم علموا لمن اشتراه) .
على سبيل التوكيد القسمي ، ثم نفاه عنهم في قوله (لو كانوا يعلمون) ؟
قلت : معناه : لو كانوا يعملون بعلمهم . جهلهم حين لم يعملوا به كأنهم

حنسليخون عنه (١) .

ثم بين - سبحانه - المنافع التي تعود عليهم لو اتبعوا الحق ، بعد أن بين الأضرار التي ترتبت على اتباعهم للباطل فقال تعالى : (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) أى : لو أن أولئك اليهود النابذين لكتاب الله المتبعين للوهام والباطل ، آمنوا بمحمد (صلى الله عليه وسلم) أو بالتوراة إيماناً حقاً ، واتقوا الله ، فاجتنبوا ما يؤثمهم ومنه السحر والتقية ، لكانت لهم مثوبة من عند الله ، هي خير لهم من للسحر وغيره ، ولو كانوا من أولى العلم النافع لفهموا ذلك ، واستبدلوا السحر بالإيمان والتقوى ، ولكنهم قوم لا يعقلون .

فقوله تعالى : (لمثوبة من عند الله خير) جواب للشرطية ، وأصل التركيب ، لأنبوا مثوبة من عند الله خيراً مما شروا به أنفسهم ، فحذف الفعل ، وغير السبب إلى ما عليه النظم الكريم ، للدلالة على ثبوت المثوبة لهم والمجزم بخيريتها .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : (فإن قلت : كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو ؟ قلت : لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها ، كما عدل هن النصب إلى الرفع في سلام عليكم لذلك .

وقال الإمام الألوسي : (المثوبة : اسم مصدر أتاب إذا أعطى الثواب ، والثواب الجزاء الذي يعطى للغير . ولم يقل - سبحانه - لمثوبة الله مع أنه أخصر ، يشعر التنكير بالتقليل فيفيد أن شيئاً قليلاً من ثواب الله - تعالى - في الآخرة الدائمة ، خير من منافع كثير في الدنيا الفانية ، فكيف وثواب الله - تعالى -

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) المثوبة : اسم مصدر أتاب أعطى الثواب ، والثواب الجزاء الذي

يعطى للغير . (٣) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٨ .

كثير دائم ، وفيه من الغريب المناسين للمقام مالا يخفى (١) .
 وقوله تعالى « لو كانوا يعلمون » ، شرط آخر محذوف الجواب لدلالة
 ما تقدم عليه ، وحذف مفعول « يعلمون » لدلالة « مثوبة من عند الله خير »
 عليه . أي : لو كانوا يعلمون مثوبة الله لما اشعروا السحر بالإيمان .
 وبذلك تكون الآيات الكريمة التي سقناها في هذا المبحث قد دمغت بني
 إسرائيل بجمود الحق ، وتبذم لتعاليم كتابهم وإيثارهم عليها الأكاذيب
 والباطل ، وسيرهم في طريق الشر عن تعمد وإصرار ، وعدم علمهم بما
 يعلمون لا بحرف طباعهم ، وحقافة تفكيرهم وسوء تدبيرهم . واستحواذ
 الشيطان عليهم . . فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب أليم .
 هذا ، ويحسن بنا قبل أن نختم هذا المبحث ، أن نذكر كلمة موجزة عن
 السحر فنقول :

السحر: في أصل اللغة معناه : الصرف ، ومنه قوله تعالى « فأتى تسحرين » .
 أي : فكيف تصرفون عن الحق إلى الباطل .
 وقد ذكر السحر في القرآن والسنة ، وافق علماء المسلمين على أن هناك
 شيئاً يسمى سحراً ، إلا أنهم اختلفوا في تصويره .
 فجمهور أهل السنة ذهب إلى أن لا حر آثاراً حقيقية ، وأن الساحر قد
 يأتي بأشياء غير عادية ، إلا أن الفاعل الحقيقي في كل ذلك هو الله - تعالى -
 واستدلوا على ذلك بأدلة منها .

أولاً : أن الله - تعالى - قد أمر نبيه (صلى الله عليه وسلم) ، أن يستعين به
 « من شر النفاثات في العقد » ، وهم السحرة - على أرجح الأقوال .
 قال الإمام ابن كثير : قوله تعالى « ومن شر النفاثات في العقد » ، قال
 مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك ، يعني السواحر قال مجاهد « إذا
 رقين ونفثن في العقد » ، (٢) .

(١) تفسير الألوسي ج ١ ص ٣٨٤ . (٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٧٣ .

فآية الكريمة تدل على أن للسحر آثارا حقيقية، وإلا لما أمر الله تعالى -
 نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يستعين من شرور السحرة .
 ثانياً : قال الإمام البخاري : - في باب هل يستخرج السحر - : حدثني
 عبد الله بن محمد ، قال : سمعت سفیان بن عيينة يقول : أول من حدثنا به
 ابن جريج يقول : حدثني آل عروة عن عروة ، فسألت هشاماً عنه فحدثنا عن
 أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان
 يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن ، قال سفیان : وهذا أشد ما يكون من السحر
 إذا كان كذلك . فقال : يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه ؟
 أفتاني رجلان فقعدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ، فقال الذي عند رأسي
 للآخر ، ما بال الرجل : قال مطبوب ، قال ومن طبه ؟ قال : لي يد بن الأعصم .
 - رجل من بنى زريق حليف اليهود كان منافقاً - قال ، وفيم : قال : فم
 مشط ومشاطه ، قال : وأين ؟ قال في جف طلعة ذكر تحت راعوفة في بئر
 ذروان . قالت : فأتى البئر حتى استخرجه ، فقال : هذه البئر التي أريتها
 وكان يخلها روس الشياطين ، قال فاستخرج - أي السحر - قالت : فقالت -
 أفلا - أي - تنشرت ؟ فقال : إن الله قد شفاني وأكره أن أتير على أحد
 من الناس شراً ، (١) .

(١) فتح الباري : لابن حجر ج ١٢ ص ٢٤٥ طبعة الحلبي .

وهذا تفسير موجز لمفردات الحديث : هشام ، هو ابن عروة بن الزبير أتابيه
 ومعنى : دأفتاني فيما استفتيته فيه ، : أجا بنى في بادعوته من أن يطلعني على حقيقة ما
 دمطبوب ، أي - محور يقال : طب الرجل - بالضم - إذا سحر . والمشط : الآلة
 التي يسرح بها شعر الرأس واللحية . والمشاطه : ما يخرج من الشعر إذا مشط
 وجف طلع نخلة ذكر ، هو الغشاء الذي يكون على الطلع ويطلق على الذكر
 والأنثى فلهذا قيده بالذكر . والراعوفة : حجر يوضع على رأس البئر يقوم
 عليه المستقي وقد يكون في أسفلها ، وبئر ذروان : اسم لموضع البئر ، كأن ما ها =

فهذا الحديث الصحيح يفيد أن السحر قد أثر في جسم الرسول ﷺ جنوع من المرضى أو الثقل ، دون أن يكون لذلك أدنى تأثير في عقله .

قال الإمام ابن القيم : هذا هو الحديث الذي رواه البخاري ، وهو ثابت عند أهل العلم بالحديث لا يختلفون في صحته ، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيحه ، ولم يتكلم فيه أهل الحديث بكلمة واحدة ، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنة والحديث والتاريخ والفقهاء ، وهو لاء أعلم بأحوال الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وأيامه ، (١) .

وقال الإمام القرطبي ، الأدلة متوفرة على أن للسحر حقيقة ، فهو مقطوع به بإخبار الله - تعالى - ورسوله على وجوده ووقوعه ، وعلى هذا أهل الحل والعقد الذين ينعقد بهم الإجماع ولا عبرة مع انفاقهم بمخالفة المعتولة ومخالفتهم أهل الحق ، ولقد شاع السحر وذاع في سابق الزمان ، وتكلم الناس فيه ، ولم يبد من الصحابة ولا من التابعين إنكار لأصله (٢) .

وقال الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي . قال المازري : مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة . خلافاً لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها . وقد ذكره الله - تعالى - في كتابه وذكر أنه مما يتعلم . وذكر فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به . وأنه يفرق بين المرء وزوجه . وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له ، وهذا الحديث أيضاً مصرح بإثباته . وأنه أشياء دفنت وأخرجت ولا يستنكر في العقل أن الله - سبحانه - يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام ، أو المزج بين قوى على ترتيب

= نقاعة الحناء ، : يعنى أحمر اللون . أفلا أى تنشرت ، : النشرة - بالضم - ضرب من العلاج يعالج به من يقطن أن به سحراً أو مسا من الجن قيل لها ذلك : لأنه يكشف بها عما خالطه من الداء .

(١) التفسير القيم لابن القيم - تفسير سورة الفلق (٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٦٤

لا يعرفه إلا الساحر . قال : وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث لسبب آخر .
 خرجم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها ، وأن تجوزة يمنع الثقة بالشرع
 وهذا الذي ادعاه بعض المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقة
 وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك . قال القاضي
 عياض : وقد جاءت روايات مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر
 جوارحه ، لا على قوله وقلبه واعتقاده ، ويكون معنى قوله في الحديث :
 « حتى يظن أنه يأكل أهله ولا يأتين » أن يظهر من نشاطه ومتقدم عاداته
 القادرة عليهن ، فإذا دنا منهن أخذته السحر فلم يأتين ولم يتمكن من
 ذلك كما يعتري المسحور (١) .

أما المعتزلة فقد ذهبوا إلى أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو تخييل وتمويه
 كما قال تعالى في سحرة فرعون : فإذا جباههم وعصمهم يخيّل إليه من سحرهم
 أنها تسعى ، فأخبر - سبحانه - أن ما ظنوه سمياً منها لم يكن سمياً على الحقيقة
 وإنما كان تخيلاً وتمويهاً . وقال تعالى في سحرة فرعون أيضاً : فلما ألقوا سحروا
 أعين الناس واسترهبوهم وجأوا . وسحر عظيم ، أي فلما ألقوا عصمهم موهوا
 على الناس حتى ظنوا أن جباههم وعصمهم تسعى ، وأرهبوهم بما فعلوه ، وجأوا
 بسحر عظيم في فنه .

والذي نراه أن السحر على أضرب منها :

أولاً : ضرب يترتب على مزاولته قلب الحقائق كقلب الإنسان حيواناً
 وعكسه ، وهذا قد منعه المعتزلة بحجة أن الساحر لو أمكنه ذلك لا لتلبس
 فعله هذا بمعجزات الأنبياء . وأهل السنة أجازوا وقوعه وإن كان لم يقع فعلاً .
 ويفرقون بينه وبين المعجزة إن وقع ، بأن المعجزة خارق يظهر على يد من
 يدعى النبوة على سبيل التحدى والمعارضة ، والسحر ليس فيه دعوى نبوة
 ولا معارضة .

(١) صحيح مسلم كتاب السلام ، باب السحر ج ٤ ص ١٧١٩ شرح

ومحقق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي .

هذا ، مع ملاحظة أن السحر يمكن تعلمه وتعليمه ، ولا يظهر إلا على يد شيرير بخلاف المعجزة .

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين : وهذا النوع لم يقع لنا دليل في الشريعة على وقوعه ، وربما كانت الحاجة إلى الفرق بين المعجزة والسحر فرقا واضحا تقتضى عدم وقوعه ، فالساحر لا يبلغ أن يقلب العصا ثعبانا ، ولا أن يخلق البحر فتمر بين فرقيه الجيوش ولا أن يجعل الماء ينبع بين الأصابع فتروى منه العطاش ، أعنى أنه لا يجرى على يده من خوارق العادات ، مثل ما يجرى على أيدي الأنبياء الإعجاز (١) .

ثانياً : أن يزاول بعض أرباب النفوس الخبيثة أفعالا يترتب عليها الضرر بدون مماسة ولا ملاسة لمن وقع عليه الضرر ، وهذا الضرب قد أجازة أهل السنة ومنه المعتزلة ، ومن أمثلته ما يفعله السحرة للتفريق بين المرء وزوجه والظاهر في هذا الضرب قول أهل السنة لأن القرآن الكريم قد حكى عن السحرة أنهم يتعلمون من السحر ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وقد صح الحديث أن لبيد بن الأعمس اليهودي سحر رسول الله ﷺ وأنه حينما استخرج السحر خف جسمه (صلى الله عليه وسلم) كأنما نشط من عقاب .

ثالثاً : مزاولة أسباب يترتب عليها آثار ظاهرية لاحتمالية وهذا الضرب واقع باتفاق بين أهل السنة والمعتزلة ، وقد حكاه القرآن الكريم عن سحرة فرعون في قوله تعالى : « فلما ألقوا سحروا أميين للناس واسترهبوم » وفي قوله تعالى : « فإذا جباههم وعصمهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعى » .

هذا ، وقد حذر الإسلام من تعاطى السحر للآذى ، وجاءت تعاليمه بدمه وتحريمه ، وتوعدت تركبه بالعقوبات الأليمة ، ففي الحديث الشريف « حد الساحر ضربه بالسيف » .

وقد أفتى بعض الفقهاء بقتل الساحر لأنه زنديق ، وبعضهم أفتى بأن الساحر إذا كان قد أحدث في المسحور جنابة توجب القصاص انتص منه به .

وإن كان قد أحدث به ما لا قصاص فيه ، حكم عليه بدية مناسبة .
وبعد : فهذه كلمة ذكرناها عن السحر ، لم نقصد بها الخوض في تفصيلاته .
وإنما قصدنا بها إعطاء القارى فكرة مختصرة عنه بمناسبة حديثنا عن رذائل
اليهود التي منها نبذم لكتاب الله واتباعهم الاوهام والباطيل والاكاذيب .
ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين نهام فيه عن مخاطبة النبي ، صلى الله
عليه وسلم ، - بالفاظ معينة حتى لا يتخذها اليهود ذريعة للإساءة إلى النبي
(صلى الله عليه وسلم) فقال تعالى :

يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا لَا تَقُوْلُوْا رَاعِنَا وَقُوْلُوْا اَنْظُرْنَا
وَأَسْمِعُوْا ۗ وَلِلْكَافِرِيْنَ عَذَابٌ اَلِيْمٌ ﴿٤١﴾

(راعنا) من المراعاة ، وهى المبالغة فى الرعى ، بمعنى حفظ الغير ،
وإمهاله ، وتديير أموره ، وتداركه صالحه ، وكان المؤمنون يقولون لرسول
الله ، صلى الله عليه وسلم ، إذا حدثهم بحديث راعنا يا رسول الله ، أى :
راقبنا وانتظرنا حتى نفهم كلامك ونحفظه ، فتلذف اليهود هذه الكلمة موافقتها
كلمة سيئة عندهم ، وأخذوا يلون بها ألسنتهم ، ويقولون راعنا ، يا أبا القاسم ،
يظرون أنهم يريدون طلب المراعاة والانتظار ، وهم يريدون فى الحقيقة
الإساءة إليه - ﷺ إذ أن هذه الكلمة معناها : اسمع لا سمعت
أو يا أحمق ، أو من الرعوناة التى هى الحق والخفة ، فهى الله - تعالى -
المسلمين عن استعمال هذه الكلمة حتى لا يتخذها اليهود وسيلة إلى إيذاء
النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والتنقيص من شأنه .

قال قتادة : وكانت اليهود تقول للنبي ، صلى الله عليه وسلم ، راعنا سمعك ،
يستزنون بذلك ، وكانت - هذه الكلمة - فى اليهود قبيحة .

وقال الإمام ابن كثير: «نهى الله - تعالى - عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقاتلهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعانقون أمن الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولوا راعنا يورون بالرعونة كما قال تعالى:

(من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا، واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعناً في الدين، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم، فلا يؤمنون إلا قليلاً). وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلوا، إنما يقولون السام عليكم والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بقولنا وعليكم، وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً، (١).

وقال الإمام ابن تيمية: «كان المسلمون يقولون راعنا يارسول الله وأرعنا سمعك، يعنون المراعاة، وكانت هذه اللفظة سباً قبيحاً بلغة اليهود فلما سمعتها اليهود اغتموها وقالوا فيما بينهم: كنا نسب محمداً سراً فأعلنوا له الآن بالشتم، وكانوا يأتونه ويقولون: راعنا يا محمد ويضحكون فيما بينهم، فسمعها سعد بن معاذ، فظن لهم، - وكان يعرف لغتهم - فقال لليهود: عليكم لعنة الله، والذي نفسى بيده يا معشر اليهود لئن سمعتها من رجل منكم يقولها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لأضربن عنقه، فقالوا: أو لستم تقولونها، فأنزل الله - تعالى - دأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا، لسكى لا يتخذ اليهود ذلك سبيلاً إلى شتم الرسول صلى الله عليه وسلم، (٢).

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى ما يقولونه بدل هذه الكلمة فقال

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٤٨.

(٢) كتاب الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص ١٤١ للإمام

تعالى : « وقولوا انظرونا ، أى : لا تقولوا تلك الكلمة - وهى راعنا ، أيها المؤمنون لئلا يتخذها اليهود ذريعة لسب نبيكم صلى الله عليه وسلم ، وقولوا مكانها « انظرونا ، أى : انتظرونا وتأن معنا حتى نفهم عنك ، من نظر بمعنى انتظر تقول نظرت الرجل انظره إذا انتظرته وارتقبته ، وبهذا المعنى ورد قوله تعالى (انظرونا نفتبس من نوركم) أى : انتظرونا نفتبس من نوركم .
 فالآية السكريمة تنبيه وإرشاد إلى الأدب الجميل ، وهو أن يتجنب الإنسان في مخاطباته الألفاظ التى توهم جفاء أو تنقيصاً فى مقام يقتضى إظهار مودة أو تعظيم .

تم بين - سبحانه - مصير اليهود المولم جزاء نعتهم على رسول الله ﷺ فقال : « وللسكافرين عذاب أليم ، أى : هؤلاء اليهود الذين اتخذوا كلمة « راعنا ، وسيلة إلى سب الرسول (صلى الله عليه وسلم) عذاب أليم جزاء كفرهم وتظاولهم وسفاهتهم .
 هذا ، وقد وردت أحاديث صحيحة صرحت بأن اليهود كانوا يحيون رسول الله ﷺ بكلام محرف لا يفتن له أكثر الناس يقصدون به الدعاء عليه بالموت ، فكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يرد عليهم بما يكبتهم ويخزبهم ومن هذه الأحاديث ما أخرجه البخارى عن أنس بن مالك قال : « مر يهودى برسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال السام عليك ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، (وعليك) ، ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) - لأصحابه - أتدرون ما يقولون قالوا : لا ، قال يقول السام عليك ، قالوا يا رسول الله ألا نقتله . قال : (لا ، إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا وعليكم) ، (١) .

٢ - وأخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت :
 دخل ردهط من اليهود على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا :

(١) صحيح البخارى ، باب « إذا عرض الذمى وغيره بسبب النبى » من كتاب « أستتابه المتدين ، ج ٩ ص ٢٠ .

السام عليك قالت عائشة : ففهمتها ، فقلت : عليكم السام واللعنة ، قالت : فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله ، فقلت يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا ؟ قال ولقد قلت وعليكم ، (١)
 ٣ - وروى مسلم عن جابر بن عبد الله قال : دخلت ناس من اليهود على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا السام عليك يا أبا القاسم فقال : « وعليكم ، فقالت عائشة وغضبت : ألم تسمع ما قالوا : قال بلى قد سمعت فرددت عليهم ، وإنما نجاب ولا يجابون علينا ، (٢) .

وإذن فالآية الكريمة وهي قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا أخ ، وهذه الأحاديث الشريفة ، تثبت أن اليهود كانوا يستعملون من بين مسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية القول الملتوي القبيح ، والحطاب المحرف السيء ، ولكن الله - تعالى - أحبط خطتهم ، ونهى المؤمنين عن استعمال الألفاظ التي كان يتخذها اليهود ذريعة لبلوغ آرائهم ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ، يرد عليهم بما يغيظهم ويخزيهم ، وبذلك ذهبت مكابد اليهود أدراج الرياح وأيد الله - تعالى - رسوله والمؤمنين بقوته ونصره .

ثم فيه القرآن المؤمنين إلى ما يضمه لهم المشركون وأهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود - من شرور وأحقاد فقال - تعالى - :

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في باب « كيف يرد على أهل الذمة السلام ، ج ٨ ص ٧٠ وأخرجه مسلم في كتاب السلام ، ج ٤ ص ١٨٠٦ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(٢) صحيح مسلم : باب « النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم من » كتاب السلام ، ج ٤ ص ١٧٠٧ .

مَا يَؤُدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ
 وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥٥﴾

« ما يؤد ، أى : ما يحب ، إذ الود محبة الشيء مع تمنييه ، يقال : ود فلان كذا يؤده وداً ومودة بمعنى أحبه وتمناه .

قال صاحب الكشاف : « ومن الأولى فى الآية للبيان ، لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان ، أهل الكتاب والمشركون ، والثانية مزيدة لا ستغراق الخير ، والثالثة لا ابتداء الغاية ، (١) .

وقوله - تعالى - « ما يؤد . . . الخ الآية ، يبان لما بيده الكافرون - خصوصاً اليهود - للمسلمين من حقد وكرهية ، وتحذير لهم من الاطمئنان إليهم ، والثقة بهم .

وفى التعبير بقوله تعالى « ما يؤد الذين كفروا من أهل الكتاب ، دون ما يؤد أهل الكتاب تنبيه إلى أنهم قد كفروا بكتبتهم ، لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لصدقوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) الذى أمرتهم كتبهم بتصديقه واتباعه . وعطف عليهم المشركين ليدل على أن عبدة الأصنام - أيضاً - يضاھون كفرة أهل الكتاب ، فى كراهة نزول أى خير على المؤمنين ، وأن الجميع يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله عن طريق نبيه « صلى الله عليه وسلم » من دين قويم ، وقرآن كريم ، وهداية عظمى ، وأخوة شاملة ، وأمن بعد خوف ، وقوة بعد ضعف .

والخير : النعمة والفضل ، والمراد به فى الآية المكرمة النبوة وما تبعها .

من الوحي الصادق ، والقرآن العظيم المشتمل على الحكمة الرائعة . والحجة البالغة ، والبلاغة الباهرة والتوجيه النافع .

وأهل الكتاب قد كرهوا ذلك للمؤمنين اعنادهم وحسدتهم ، وكرهتهم أن تكون النبوة في رجل عربي ليس منهم .

والمشركون كرهوا ذلك - أيضاً - لأن في انتشار الإسلام ، وفي تنزيل

الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ما يخيب آمالهم في إبطال الدعوة الإسلامية ، وإضعاف شوكتها ، والنصر على أتباعها .

وقوله تعالى : والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ..

رد عليهم بما يكشف عن جملهم وجمل جميع الحاسدين ، لأن الحاسد

لغباوته يسخط على قدر الله ، ويعترض عليه لإنعائه - سبحانه - على المحسود

والله - تعالى - هو صاحب التصرف المطلق في الإعطاء والمنع فكان من

الواجب على هؤلاء الذين لا يودون أن ينزل أى خير على المؤمنين أن

يرىحوا أنفسهم من هذا العناء ، وأن يتحولوا عن ذلك الغباء ، لأن الله

- تعالى - يهب خيره لمن يشاء .

والاختصاص بالشئ : الانفراد به ، تقول : اختص فلاناً بكذا أى

أفرد به ، ويستعمل متعدياً إلى المفعول به ، فتقول : اخصصت فلاناً بكذا

أى أفردته به وجعلته مقصوراً عليه . وعلى هذا الوجه ورد الاختصاص

في الآية الكريمة .

وقيد - سبحانه - اختصاص رحمته بمن يشاء ، ليعلم الناس جميعاً ،

أن لأفراد بعض عباده بالرحمة منوط بمشيئته وحدها ، وليس لأحد كائنات

من كان أى تأثير في ذلك .

ومفعول المشيئة محذوف كما هو الشأن فيه إذا تقدم عليه كلام أو فاعل

عنه . أى : يختص برحمته من يشاء اختصاصه بها ، وهى تناول النبوة -

والقرآن ، والنصر ، وكل ذلك مما لا يود الكافرون إنزاله على المؤمنين .

وقوله تعالى (واثقه ذو الفضل العظيم) تذييل لما سبق أى كل خير يناله العباد فى دينهم أو دنياهم إنما هو من عنده - تعالى - يتفضل به عليهم ، وفى ذلك إشعار للحاسدين بأن يقلعوا عن حسدهم ، وتعريض لليهود وغيرهم من حسدوا محمداً ﷺ على أن آتاه الله النبوة ، فسكانه - سبحانه - يقول لهم : لئن أصطفى للنبوة من أشياء من عبادى وهى لا تدرك بالأماني ، ولسكنى أهبا لمن هو أهل لها .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد حذرت المؤمنين عما يبيته لهم الكافرون من حقد وبغضاء وبشرتهم بأن ما يبيتونه لن يضرهم ما داموا معتمدين بكتاب ربهم ، وسنة نبيهم .

ثم انتقل القرآن إلى الحديث عن موضوع النسخ الذى أثار اليهود حوله الشبهات ، وجادلوا فيه النبى - (صلى الله عليه وسلم) .

لقد استنكر اليهود أن يبدل الله آية بآية ، أو حكماً بحكم ، وقالوا : ألا ترون إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمر بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ، ما هذا من شأن الأنبياء وما هذا القرآن إلا من كلام محمد ، يقوله من تلقاء نفسه ، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً .

ولم يترك القرآن الكريم تلك الشبهات التى أثارها اليهود حول شريعة الإسلام بدون جواب ، بل أنزل الله - تعالى - آيات كريمة لدحضها وإزالتها من الصدور ، ليزداد المؤمنون إيماناً ، وهذه الآيات هى قوله تعالى :

مَا نَسَخَ

مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا نَاتٍ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

والنسخ في اللغة الإبطال والإزالة ، يقال : نسخت الشمس الظل
تنسخه ، إذا أذهبته وأبطلته .

وفي عرف الشرع : بيان انتهاء مدة الحكم بخطاب لولا هذا الخطاب
لا استمرار الحكم على مشروعيته ، بمقتضى النص الذي تقرر به أولاً .
ونسها من أنسى الشيء . جعله منسياً .

فمعنى نسخ الآية في قوله تعالى (ما ننسخ من آية) رفع حكمها مع بقائها
ومعنى إنسائها في قوله - تعالى - (ننسها) رفع الآية من نظم القرآن جملة .
وسمى رفع الآية من نظم القرآن جملة لإنساء ، لأن من شأن ما لا يبقى
في النظم أن ينسأه الناس لفقده جريانه على الألسنة بالتلاوة والاحتجاج به .
ويصح إبقاء الإنساء على حقيقته ، وهو إذهاب الآية من القلوب وإزالتها
من الحافظة ، بعد أن يقضى الله بنسخها .

وإنما قلنا بعد أن يقضى الله بنسخها ، لأن إنساء الناس آية لم تنسخ إذاعة
لشيء من القرآن ، والله يقول : إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، (١) .
وما يدل على نسخ الآية المنسأة ، أي : انتهاء مدة التكليف بها قوله تعالى :

(١) - سورة الحجر الآية رقم ٩ .

«نأت بخير منها أو مثلها، أى نأت بخير من المنسية المفسوخة أو مثلها ، فيكون قوله تعالى «أو ننسها» معبراً عن حالة تعرض في بعض ما سيرفع من القرآن وهي أن ينسأ الناس لذهابها من قلوبهم ، بعد أن يقضى الله بنسخه كما ذكرنا - ووجه ذكر هذه الحال بوجه خاص ، أن ما ينسى لعدم حضوره في الذهن لا تعرف الآيات التي تقوم مقامه ، فربما يقع في الوم أنه ذهب من غير أن ينزل من الآيات ما يعنى غناه .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «ننساها» بالهمزة ، من النساء وهو التأخير وعلى هذه القراءة يحمل النسخ في قوله تعالى : ما ننسخ من آية على النوعين السابقين وهما : نسخ الآية حكماً فقط ، ونسخها حكماً وتلاوة .
ومعنى «ننساها» تؤخر إنزالها إلى وقت ثان فلا تنزلها ، وتنزل ما يقوم مقامها في القيام بالمصلحة .

والخيرية والمماثلة في قوله تعالى : «نأت بخير منها أو مثلها» ترجع إلى ثواب العمل بها . فقد يكون ثواب العمل بالناسخة أوفر من ثواب العمل بالمنسوخة قبل نسخها ، وقد يكون مائثلاً له ، وإن كانت كل واحدة من الآيتين الناسخة والمنسوخة بالنظر إلى الوقت المقدر للعمل بها ، أقوم على المصلحة من الأخرى .

وبعد أن أثبت - سبحانه - أن النسخ جائز وواقع بقوله : «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها» ساق جملة كريمة في صورة الاستفهام التقريري ، مخاطباً بها الأمة الإسلامية في شخص نبيها (صلى الله عليه وسلم) لتكون دليلاً على هذا الثبوت ، وهذه الجملة هي قوله تعالى :

« ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ، والمعنى أن الله - تعالى - متمكن من أن يفعل ما يشاء على الوجه الذي تقتضيه حكمته وإرادته ، ومن كان هذا شأنه فله أن يأمر في وقت بأمر ، ثم ينسخه أو يستبدله بأخر تبعاً لمقتضيات الظروف والأحوال .

ثم أقام - سبحانه - الدليل على كمال قدرته وشمولها لكل شيء فقال :

« ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ، .

والمعنى : أنه - سبحانه - مالك لجميع الكائنات العلوية والسفلية ، وأنه هو المنصرف كما يشاء في ذواتها وأحوالها ، وأنه ينصرف في أمورهم ويجريها على حسب ما يصلحهم ، وهو أعلم بما يتعبد لهم به من ناسخ ومنسوخ وليس للناس من أحد يتولى أمورهم ، ويعينهم على أعبادهم سواء ، ومن كان الله وليه ونصيره علم يقيناً أنه لا يفعل به إلا ما هو خير له في دينه وأخراه .
وإذن فأنتم - أيها اليهود - ما قدرتم الله حق قدره ، لضعفكم أن النسخ محال على الله لأن المالك لكل شيء ، من حقه أن يمحو ما يشاء ، ويثبت ما يريد على حسب ما تقتضيه حكمته ومشيبته .

فالآية واقعة موقع الدليل على ما تضمنته الجملة السابقة من إحاطة قدرته - سبحانه - بكل شيء .

ثم حذر القرآن الكريم المؤمنين من الاستماع إلى وساوس اليهود ، تنبيهاً لقلوبهم ، وتقوية لإيمانهم ، فقال تعالى : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » .
والمعنى : لا يصح لكم أيها المؤمنون أن تقترحوا على رسولكم (صلى الله عليه وسلم) مقترحات تتنافى مع الإيمان الحق ، كأن تسألوه أسئلة لا خير من وراءهم لأنكم لو فعلتم ذلك لصرتم كبنى إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم موسى - عليه السلام - بعد أن جاءهم بالبينات - مطالب تدل على تعنتهم وجهالهم فقالوا له « أرنا الله جهرة » ، (١) وقالوا له « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » ، (٢) - ولو صرتم مثاهم لضعفتم عن إيمانكم على الإيمان ، ولخرجتم على صراط المستقيم الذي يدعوكم إليه نبيكم (صلى الله عليه وسلم) .

(١) سورة البقرة الآية ٥٦

(٢) الأعراف الآية ١٣٨

والاستفهام في الآية الكريمة للإنكار ، وفي أسلوبها مبالغة في التحذير من الوقوع فيها وقع فيه اليهود من تعنت مع رسولهم ، إذ جعل محط الإنكار إرادتهم للسؤال ، وفي النهي عن الشيء ، نهي عن فعل بأبلغ عبادة .
ثم نبه الله تعالى على عباده المؤمنين إلى ما يضرهم لهم اليهود من أحقاد وشور فقال - تعالى - :

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ
إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَصُوا
وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

ومعنى الآية الكريمة : أحب وتمنى عدد كثير من اليهود الذين هم أهل كتاب ، أن يتقاولكم أيها المؤمنون من الإيمان إلى الكفر ، حسداً لكم وبفضاً لدينكم ، من بعد ما ظهر لهم أنكم على الحق بإتباعكم محمد (صلى الله عليه وسلم) فلا تهتموا بها ، بل قابلوها أحقادهم وشورهم بتك عاقبهم ، والإعراض عن أذاهم ، حتى يأذن الله لكم فيهم بما فيه خيركم ونصركم ، فإنه - سبحانه - على كل شيء قدير .

وقوله تعالى : دود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، بيان للون من ألوان الشرور التي يضرها أهل الكتاب وعلى رأسهم اليهود ، وهو تمنيم ارتداد المسلمين عن دينهم الحق ، إلى الكفر الذي أنقذهم الله - تعالى - منه .

ولما أسند - سبحانه - هذا التمني الذميمة إلى الكثرة منهم ، اتصافاً للقلّة المؤمنة التي لم ترتض أن ينتقل المسلمون إلى الكفر بعد أن هداهم الله إلى الإسلام .
وقوله تعالى : من بعد إيمانكم ، مبالغة في ذمهم بسبب ما تمنوه وأحبووه إذ ودوا - وهم أهل كتاب - أن يحل الكفر محل الإيمان ، وفيه إشعار بأن

ما تمنوه بعد الحصول ؛ لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب ، منع صاحبه من الانتقال إلى الكفر .

ثم بين - سبحانه - أن الذي همهم على هذا التمني الذميمة هو الحقد والحسد ، فقال تعالى : (حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) أى : أن هذا التمني لم يكن له من سبب أو علة سوى الحسد الذى استولى على نفوسهم ، واستحوذ على قلوبهم فجعلهم يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان ويتمنون التحول منه إلى الكفر ، فالجملة السكريمة علة لما تضمنته الجملة السابقة من محبتهم نقل المؤمنين إلى الكفر .

قال فضيلة المرحوم الشيخ محمد الحضر حسين : (والحسد : قلق النفس من رؤية نعمة يصيبها إنسان ، وينشأ عن هذا القلق تمنى زوال تلك النعمة عن الغير وتمنى زوال النعم مذموم بكل لسان ، إلا نعمة أصابها فاجر أو جائر يستعين بها عن الشر والفساد ، فإن تمنى زوالها كراهية للجور والفساد لا يدخل في قبيل الحسد المذموم فإن لم تمن زوال النعمة عن شخص وإنما تمنيت لنفسك مثلها فهي الغبطة والمنافسة ، وهى محمودة لأنها قد تنتهى بالشخص إلى اكتساب محامد أو لا المنافسة اظل فى غفلة عنها ، والحسد قد يهجم على الإنسان ولا يكون فى وسعه دفعه لشدة النفرة بينه وبين المحسود ، وإنما يؤخذ الإنسان على رضاه به ، وإظهار ما يستدعيه من القبح فى المحسود ، والقصد إلى إزالة النعمة عنه ، (١) .

وقوله تعالى (من عند أنفسهم) إعلام للمؤمنين ، بأن هؤلاء اليهود لم يؤمروا بذلك فى كتابهم ، بل إن كتابهم لينهاهم عن هذا الخلق الذميمة ولكنهم لحبث نفوسهم وسوء طباعهم ، رسخ الحسد فى قلوبهم لدرجة يعسر معها صرفه عنهم ، أو صرفهم عنه .

والجملة السكريمة (حسداً من عند أنفسهم) تدل على أن أولئك اليهود يعتقدون صحة دين الإسلام ، إذ الإنسان لا يحسد غيره على دين إلا إذا

عرف في نفسه صحته ، وأنه طريق الفوز والفلاح .

وقوله تعالى : « ومن بعد ما تبين لهم الحق ، يدل على أن محبة اليهود لتحويل المؤمنين من الكفر إلى الإيمان رقت ، بعد أن ظهر لهم صدق النبي (صلى الله عليه وسلم) وبعد أن تبين لهم الصفات التي وردت في التوراة بشأن المبدى به ، لا تنطبق إلا عليه ، وإذا فكفروهم به لم يكن عن جهل وإنما كان عن عناد وجمود على الباطل ، وذلك هو شأن أحبارهم الذين كانوا على علم بالتوراة ، وبتبشيرها بالنبي (صلى الله عليه وسلم) .

ثم أمر الله تعالى المؤمنين في ختام الآية أن يقبلوا شرور اليهود بالعفو والصفح ، وأن يوادعوهم إلى حين فقال تعالى : « فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره على كل شيء قدير . »

للعفو : ترك العقاب على الذنب . والصفح : ترك المؤاخفة عليه ، فمكل صفح عفو ولا عكس .

والمعنى : عليكم أيها المؤمنون أن تتركوا معاقبة أولئك اليهود الحاسدين وأن تمرضوا عن رفع السيف في وجوههم حتى يأذن الله لكم في أن تشفوا صدوركم منهم ، ويبيح قتالهم الذي يترتب عليه نصركم ، إذ أن كل شيء داخل تحت سلطان قدرته - تعالى - .

فالمراد بالأمر في قوله تعالى : « حتى يأتي الله بأمره » الإذن للمسلمين بقتالهم في الوقت الذي يختاره الله - تعالى - لهم ، عندما تكون لهم القوة التي يتمكنون بها من جهاد أعدائهم .

قال صاحب المنار : قال الأستاذ الإمام : « وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة لأن الصفح إنما يطلب من المقادر على خلافه كما أنه يقول : لا يفرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم ، فإنكم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه الحق ، فعاملوهم معاملة القوى العادل ، للقوى الجاهل وفي إنزال المؤمنين على ضعفهم منزلة الأقوياء ، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع

الضعفاء ، إيدان بأن أهل الحق هم المؤيدين بالعناية الإلهية ، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم ، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذي يصرع الباطل كما قلنا غير مرة ، وإنما بقاء الباطل في غفلة لاحق عنه ، (١) . وقد أكد الله - تعالى - وعده بقوله : « إن الله هلى كل شىء قدير ، أى أن كل شىء داخل تحت قدرته النافذة التى لا يعجزها شىء . »

وقد أنجز الله - تعالى - وعده ، فأذن للمؤمنين فى الوقت المناسب بقتال اليهود وتآديبهم ، وقد ترتب على ذلك النصر للمؤمنين ، والطرده والقتل لليهود لاحقين .

وبعد أن أمر القرآن المؤمنين فى الآية السابقة بالعفو والصفح عن أعدائهم ، الحكمة تجمل العفو والصفح خيراً من العقوبة والتأنيب ، انتقل بعد ذلك إلى أمرهم بالمحافظة على الشعائر التى تظهر قلوبهم ، وزكى نفوسهم فقال - تعالى - :

وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ
عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾

فقد أمرهم - سبحانه - فى هذه الآية بالمواظبة على عمودى الإسلام وهما العبادة البدنية التى تؤكد حسن صلة العبد بمخالقه وهى الصلاة والعبادة المالية التى تؤلف بين قلوب المؤسرين والممسرين وهى الزكاة . وجاءت جملة « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » بعد ذلك ، لترغيبهم فى فعل الخير على وجه عام ، ولتحشيمهم على النزود من الأعمال للصالحه سواء أكانت فرضاً أم نفلاً .

وقال « لأنفسكم » للإشمار بأن ما يقدمه المؤمن من خير إنما يعود نفعه إليه ، وأنه سيجد عند الله نظير ذلك الثواب الجزيل ، والأجر العظيم ،

حوق قوله وعند الله، إشارة إلى ضخامة الثواب، لأنه صادر من الغنى الحميد. وجاءت جملة، إن الله بما تعلمون بصير، لتأكيد ذلك الوعد، فقد دخلت على أن الله - تعالى - لا يخفى عليه عمل عامل قليلاً كان أو كثيراً. وإذا كان عالماً عموماً بكل عمل يصدر من الإنسان، كانت الأعمال محفوظاً عنده - تعالى -، فلا يضيع منها عمل دون أن يلقي العامل جزاءه يوم الدين.

وفي إعادة ذكر اسم الجلالة في هذه الجملة مع تقدم ذكره في قوله: «تجدوه عند الله»، إشعار باستقلال هذه الجملة، وبشدة الاهتمام بالمعنى الذي تضمنته.

كذلك من فوائد إظهار اسم الجلالة في مقام يجوز فيه الإضمار، أن تكون الجملة كحكمة تقال عند كل مناسبة، بخلاف ما لو أتى بدل الاسم بظواهر بالضمير فإن إلقاءه عند المناسبة يستدعي أن تذكر الجملة السابقة معها حتى يعرف المراد من الضمير.

ثم حكى القرآن لونا من ألوان المزامع الباطلة التي درج عليها أهل الكتاب، ورد عليها بما يبطلها فقال:

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ

إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيهِمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٦﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ

عِنْدَ رَبِّهِ ۖ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٧﴾

الضمير في «قالوا»، يعود على أهل الكتاب من الفريقين.

والهود : جمع هائد أى متبع اليهودية وقدمهم القرآن الكريم على النصارى لتقدمهم فى الزمان .

والمعنى : وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى لن يدخلها إلا من كان نصرانياً ، إلا أن الآية الكريمة سلكت فى طريق الإخبار عما زعموه مسلك الإيجاز ، فسكت القواين فى جملة واحدة ، وعطفت أحد الفريقين على الآخر بحرف « أو » ثقة بفهم السامع ، وأمننا من اللبس ، لما عرف من التعادى بين الفريقين ، وقضيل كل واحد منهما لصاحبه ، ونظير هذه الآية قوله تعالى حكاية عنهم « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا - أى : قالت اليهود : كونوا هوداً تهتدوا ، وقالت النصارى : كونوا نصارى تهتدوا .

ولذا قال الإمام ابن جرير : « فإن قال قائل : وكيف جمع اليهود والنصارى فى هذا الخبر مع اختلاف مقالة الفريقين ، ولليهود تدفع النصارى عن أن يكون لها فى ثواب الله نصيب ، والنصارى تدفع اليهود عن مثل ذلك ؟ قيل : إن معنى ذلك بخلاف الذى ذهبت إليه ، وإنما عنى به وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى ، ولسكن معنى الكلام لما كان مفهوماً عند المخاطبين به - جمع الفريقان فى الخبر عنهما فقيل : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » (١) .

وقوله تعالى : « تلك أمانتهم » جملة معترضة قصد بها بيان أن ما يدعونه من أن الجنة خاصة بهم ، ما هو إلا أمانى منهم يتمنونها على الله بغير حق ولا برهان . سولتها لهم أنفسهم التى استحوذ عليها الشيطان فخدعها بالباطل والكاذب .

واسم الإشارة « تلك » ، مشار به إلى ما تضمنته قوله تعالى « وقالوا لن

يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، وهو يتضمن أمانى كثيرة :
 منها ، أن اليهود أمنيتهم أنه إن يدخل الجنة غيرهم ، والنصارى كذلك
 أمنيتهم أنهم هم وحدهم أصحاب الجنة ، وكلا الفريقين يعتقد أن المسلمين
 ليسوا أهلا لها ، ولهذا جاء خبر اسم الإشارة جمعاً فقال تعالى . ذلك أمانيتهم ،
 ويرى صاحب الكشاف أن المشار إليه أمور قد تعددت لفظاً وحكاها
 القرآن عنهم في قوله « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن
 ينزل عليكم من خير من ربكم » ، وفي قوله : « ود كثير من أهل الكتاب
 لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسداً من عند أنفسهم » ، وفي قوله
 « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » ، وعبارته :

فإن قلت : لم قيل « تلك أمانيتهم » وقولهم ان يدخل الجنة أمنية واحدة ؟
 قلت : أشير بها إلى الأمانى المدكورة وهو أمنيتهم أن لا ينزل على المؤمنين
 خير من ربهم ، وأمنيتهم أن يردوهم كفاراً ، وأمنيتهم ألا يدخل الجنة
 غيرهم . أى تلك الأمانى الباطلة أمانيتهم (١) .

ويرى صاحب الانصاف : أن المشار إليه واحد وهو قولهم « لن يدخل
 الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » ، وجمع لإفادة أن تلك الأمنية قد تمكنت
 من نفوسهم وأشربتها قلوبهم . فقال : والجواب القريب أنهم أشد تمنيهم لهذه
 الأمنية ، ومعاودتهم لها ، وتأكد هاتى نفوسهم جمعتم ليفيد جمعها أماناً كدة
 فى قلوبهم بالغة منهم كل مبلغ ، والجمع يفيد ذلك ، وإن كان مؤداً واحداً
 ونظيره قولهم : معى جباع ، فجمعوا الصفة ومؤداها واحد ، لأن موصوفها
 واحد ، تأكيذاً لشبوتها وتمكنها ، وهذا المعنى أحد ما روى فى قوله تعالى « إن
 هؤلاء لشذمة قليلون ، (٢) فإنه جمع « قليلاً » ، وقد كان الأصل لإفراذه فيقال
 « لشذمة قليلة » . كقوله تعالى « كم من فئة قليلة ، لولا ما قصد إليه من

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٢٠ .

(٢) سورة الشعراء الآية ٥٤ .

تأكيد القلة بجمعها، ووجه إفادة الجمع في مثل هذا التأكيد، أن الجمع يفيد بوضعه الزيادة في الأحاد فنقل إلى تأكيد الواحد، وإبانهته زيادة على نظرائه. نقلاً مجازياً بديعاً فقد بر هذا الفصل فإنه من فوائده صناعة البيان والله الموفق، (١).

ثم أمر الله - تعالى - رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يطالبهم بالدليل على صحة ما يدعون، فقال تعالى « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .
 أي قل - يا محمد - لهؤلاء الزاعمين أن الجنة لهم خاصة من دون الناس، هاتوا حجتكم على خلوص الجنة لكم، إن كنتم صادقين في دعواكم، لأنه لما كانت دعواهم الاختصاص بدخول الجنة لا تثبت إلا بوحي من الله وليس لمجرد التمني، أمر الله - تعالى - نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يطالبهم بالدليل من كتبهم على صحة دعواهم، وهذه المطالبة من قبيل التعجيز لأن كتبهم خالية مما يدل على صحتها.

قال الإمام ابن جرير: « وهذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين « إن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، إلى إحصار حجة على دعواهم، فإنه بمعنى التكذيب من الله لهم في دعواهم وقيلهم، لأنهم ليسوا بقادرين على إحصار برهان على دعواهم تلك أبدأ، (٢) » .

هذا، ويؤخذ من الآية الكريمة بطلان التقليد في أمور الدين، وهو قبول قول الغير مجرداً من الدليل، فلا ينبغي للإنسان أن يقرر رأياً في الدين إلا أن يستند إلى دليل، كما أنه لا يقبل من غيره قولاً إلا أن يكون مؤيداً بدليل.

أما عدم صحة التقليد في أصول الدين: أي فيما يرجع إلى حقيقة الإيمان فالأمر فيه جلي، لأنه يكتفى في إيمان الشخص بأى دليل ينشر به صدره

(١) هامش تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٣٠.

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٦٤٩.

للإسلام ، وتحصل له به الطمأنينة ، كأن يستمد إيمانه بالله من التنبيه لحكمة الله في إتيان المخلوقات ، أو في رعاية اللذات والرفق بالإنسان ، ويستمد إيمانه بصدق الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الاستماع إلى القرآن الكريم ، أو من سيرته التي لم يظهر بمثلها أو بما يقرب منها بشر غير رسول ، والغصد أن لا يكون إسلامه مجرد أنه في بيعة إسلامية أو ولد من أب وأم مسلمين .
وأما التقليد في الفروع أي في الأحكام العملية ، فالناس بالنظر إلى القدرة على تمييز الخطأ من الصواب درجات ، فمن له قدرة على فهم الأدلة ومعرفة الراجح من الأحكام ، لا يجوز أن يتلقى الحكم من غيره إلا مقروناً بأدليل ، وإن كان فاصراً على هذه الدرجة أخذ بما يقتضيه به العالم المشهود له بالروح في علم الشريعة ، والمعروف بالمحافظة على لباس التقوى ما استطاع ، (١) .
ثم أبطل القرآن الكريم مدعاهم بطريق آخر وهو إيراد قاعدة كلية رتب دخول الجنة على الإيمان والعمل الصالح بلا محاباة لامة أو لجنس أو لطائفة فقال تعالى :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

« بلى » حرف يذكّر في الجواب لإثبات المنفي في كلام سابق ، وقد صدرت الآية التي معنا بحرف « بلى » لإثبات ما نفوه وهو دخول غيرهم الجنة ممن لم يكن لا من اليهود ولا من النصارى ، ما دام قد أسلم وجهه لله وهو محسن .

وقوله تعالى « أسلم وجهه لله » المراد به اتجه إليه ، وأذعن لأمره ، وأخلص له العبادة ، وأصل معناه الاستسلام والخضوع .
وخص الله - تعالى - الوجه دون سائر الجوارح بذلك ، لأنه أكرم

(١) تفسير الآية الكريمة للمرحوم الشيخ محمد الخضر حسين : مجلة

الأعضاء. وأعظمها حرمة ، فإذا خضع الوجه الذي هو أكرم أعضاء الجسد فغيره من أجزاء الجسد أكثر خضوعاً .

وقوله تعالى : « وهو محسن » من الإحسان ، وهو أداء العمل على وجه حسن أى : مطابق للصواب وهو ما جاء به الشرع الشريف .
والمعنى : ليس الحق فيما زعمه كل فريق منكم يامعشر اليهود والنصارى من أن الجنة لكم دون غيركم ، وإنما الحق أن كل من أخلص نفسه لله ، وأتى بالعمل الصالح على وجه حسن ، فإنه يدخل الجنة ، كما قال تعالى :
« فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .
وقد أفادت الآية الكريمة ما يأتي :

(ا) إثبات ما نفوه من دخول غيرهم الجنة .

(ب) بيان أهم ليسوا من أهل الجنة ، إلا إذا أسلموا وجوههم لله ، وأحسنوا له العمل فيكون ذلك ترغيباً لهم في الإسلام ، وبياناً للمفارقة حالهم لحال من يدخل الجنة ، لكي يقطعوا عما هم عليه ، ويعدلوا عن طريقتهن المعروجة .

(ج) بيان أن العمل المقبول عند الله - تعالى - يجب أن يتوفر فيه أمران :
أولهما . أن يكون خالصاً لله وحده . ثانيهما : أن يكون مطابقاً
للشريعة التي ارتضاها الله تعالى وهي شريعة الإسلام .

قال الإمام ابن كثير : « فتنى كان العمل خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ، فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول (صلى الله عليه وسلم) المبعوث فيهم وإلى الناس كافة ، وفي أمثالهم قال الله - تعالى - ، « وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ، وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله ، وهذا حال المرابين والمنافقين ولهذا قال تعالى : « فمن كان يرجو

لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا، (١) .
 وبذلك تكون الآياتان السكريمتان قد أبطلتا دعوى اليهود أن الجنة
 لحم دون غيرهم ، وأثبتتا أن مزاعمهم هذه ما هي إلا من قبيل الأمانى
 والأوهام وكذبتهم في أن يكون عندهم أى برهان أو دليل على ما يدعون ،
 ثم أصدرتا حكما عاما وهو أن الجنة ليست خاصة لطائفة بدون أخرى ،
 وإنما هي لكل من أسلم وجهه لله وهو محسن .
 ثم بين القرآن بعد ذلك أن أهل الكتاب قد دأبوا على تضليل بعضهم
 البعض ، وأن الخلاف بينهم قد أدى إلى التنازع والتخاصم فقال :

وَقَالَتِ الْيَهُودُ

لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ
 وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَ اللَّهُ

يُحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣٣﴾

فآية السكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : وقالوا ان
 يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى . الخ ، لزيادة بيان طبيعة أهل
 الكتاب ، الموهوجة ، وأن رمى المخالف لهم بأنه ضال شاذة فيهم .
 ولغشى : يطلق على المارحود ، أو ما يصح أن يعلم ويخبر عنه ، وقد ينق
 مبالغة في عدم الاعتداد به واليهود كفرت بعيسى - عليه السلام - وما زالوا
 يزعمون أن المسيح المبشر به في التوراة لم يأت ، وسيأتى بعد ، فهم يعتقدون
 أن النصارى بأنبا عنهم له ليسوا على أمر حقيقى من للتدين ، والنصارى
 فكفر اليهود لعدم إيمانهم بالمسيح الذى جاء لإتمام شريعتهم ، ونشأ عن
 هذا النزاع عداوة اشتدت بها الأهواء والنمصب حتى صار كل فريق منهم

يطعن في دين الآخر ، وينفي عنه أن يكون له أصل من الحق .
 وجملة : وهم يتلون الكتاب ، حالية ، والكتاب للجنس . أى : قالوا
 ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والتلاوة للكتب ، إذ اليهود يقرءون
 التوراة والنصارى يقرءون الإنجيل ، وحق من حمل التوراة والإنجيل
 وغيرهما من كتب الله وآمن به ألا يكفر بالباقي ، لأن كل واحد من
 الكتابين مصدق للثاني ، شاهد بصحته وكذلك كتب الله جميعاً متواردة
 على تصديق بعضها البعض .

وقوله : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، . معناه : كما أن
 أهل الكتاب قد قال كل فريق منهم فيمن خالفه إنه ليس على شيء من الدين
 الحق . فكذلك قال الذين لا يعلمون ، وهم مشركو العرب ، في شأن
 المسلمين : إنهم ليسوا على شيء من الدين الحق ، فتشابهت قلوب هؤلاء
 قلوب أولئك في الزيغ والضلال .

والهدف الذي ترمى إليه هذه الجملة ، هو أن إنكار اليهود والنصارى
 لرسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) لا ينبغي أن يشير شبهة على عدم صحتها ،
 حيث يسبق إلى أذهان الضعفاء من الناس أن تلاوتهم للكتاب تجعلهم
 أعرف بالنبوة الصادقة من غيرها . فكان القرآن يقول : إن تلاوتهم
 للكتاب وحدها لا ينبغي أن تكون شبهة .

ألا ترون اليهود والنصارى وهم يتلون الكتاب كيف أنكروا كل فريق
 منهما أن يكون الآخر على شيء حقيقى من التدين ، فسبيلهم في إنكار دين
 الإسلام كسبيل المشركين الذين أنكروه عن جهالة به .

وفي هذه الجملة تويخ شديد لأهل الكتاب ، حيث نظموا أنفسهم ، مع
 علمهم في سلك من لا يعلم .

وقوله : « فآله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، .
 صدر بالقاء ، لأن التواعد بالحكم بينهم يوم القيامة ، وإظهار
 ما أكتنه ضمائرهم من الهوى والضلال ، متفرع عن هذه المقالات

ومسبب عنها ، وهو خبر المقصود منه التوبيخ والوعيد .
والضمير المجرور بإضافة بين إليه راجع إلى الفرق الثلاث ، وما كانوا
فيه يختلفون بعم ماذكره وغيره وقيل الضمير يعود على اليهود والنصارى .
والاختلاف : تقابل رأيين فيها يبغي انفراد الرأي فيه .
ولم تصرح الآية للكرامة بماذا يحكم الله بينهم ، لانه من المعلوم أن من
مظاهر حكم الله يوم القيامة إثابة من كان على حق ، وعقاب من كان
على باطل .

وبذلك تكون الآية للكرامة قد فضحت أهل الكتاب ، حيث بينت
كيف أن كل فريق منهم قد رمى صاحبه بالضلال ، وفي هذا تثبيت للمؤمنين
وسمى لهم عن أن ينهجوا نهجهم .
ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة من يسعى في خراب بيوت الله ، فقال :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن
مَنَّ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا
كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

يرى بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن الرومانيين ، الذين
غزوا بيت المقدس وخرّبوه . ويرى آخرون أنها نزلت في كفار قريش حين
منعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يدخل المسجد الحرام عام الحديبية .
وكيفما كان سبب النزول ، فالآية تشمل بذهها ووعيدها ، كل من منع
مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها .
ومن اسم استفهام يراد منه النفي ، أى : لا أظلم . والمساجد : جمع

مسجد ، وهو المسكن الخاص للعبادة ، مأخوذ من السجود ، وهو وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله وتعظيماً .
والظلم : الاعتداء على حق الغير ، بالتصرف فيه بما لا يرضى به ، ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه ، والمعنيان واضحان هنا .
وذكر اسم الله ، كناية عما يؤدي فيها من العبادات ، إذ لا تكاد عبادة تخلو من ذكر اسمه - تعالى - :

والسعى في الأصل : المشى بسرعة في معنى الطلب والعمل .
والخراب : ضد النعمير ، ويستعمل بمعنى تعطيل المكان وحلوه بما وضع له .
قال القرطبي : « وخراب المساجد قد يكون حقيقياً ، كتشريب بختصر والرومان لبيت المقدس حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه . ويكون مجازاً كمنع المشركين ، حين صدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن المسجد الحرام ، وعلى الجملة ، فتعطيل المساجد عن الصلاة وإظهار شعائر الإسلام فيها خراب لها ، (١) .

والمعنى : لا أحد أظلم من حال بين المساجد وبين أن يعبد فيها الله ، وعمل في خرابها بالهدم كما فعل الرومان وغيرهم ببيت المقدس . أو بتعطيلها عن العبادة كما فعل كفار قريش ، فهو مفرط في الظلم بالغ فيه أقصى غاية .
قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : فكيف قيل مساجد الله ، وإنما وقع المنع والتشريب على مسجد واحد هو بيت المقدس أو المسجد الحرام؟ قلت لا بأس أن يجيء الحكم عاماً ، وإن كان السبب خاصاً ، كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً : ومن أظلم من آذى للصالحين ، كما قال - عز وجل -
« ويل لكل همزة ، والمنزول فيه هو الأخنس به شريق » (٢) .
وقوله - تعالى - « أو أهلك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ، معناه :

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٧٩ .

ما ينبغى لأولئك الذين يحولون بين المساجد وذكر الله ويسعون في خرابها أن يدخلوها إلا خائفين من الله - تعالى - لمكانها من الشرف والكرامة بإضافتها إليه - تعالى - أو إلا خائفين من المؤمنين أن يبطشوا بهم ، فضلاً عن أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها .

قال ابن كثير : د وفي هذا بشارة من الله للمسلمين بأنه سيظهرهم على المسجد الحرام ، ويدل لهم المشركين حتى لا يدخل المسجد الحرام واحدهمهم إلا خائفاً ، يخاف أن يؤخذ فيعاقب ، أو يقتل إن لم يسلم . وقد أنجز الله هذا الوعد فنع المشركين من دخول المسجد الحرام ، وذلك أنه بعد أن تم فتح مكة للمسلمين أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) من العام القابل متادياً بتأدي بزحاب مني د ألا لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوفن البيت عريان ، ومن كان له أجل فأجله إلى مدته . . . وعندما حج النبي (صلى الله عليه وسلم) عام حجة الوداع لم يحجهم أحد من المشركين أن يحج أو أن يدخل المسجد الحرام . وهذا هو الخزي في الدنيا لهم ، المشار إليه بقوله - تعالى - د لهم في الدنيا خزي ، لأن الجزء من جنس العمل (١) . . .

ثم ختمت الآية الكريمة ببيان عاقبة هؤلاء الساعين في خراب مساجد الله فقال - تعالى - :

لهم في الدنيا خزي ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم . . . أي : لهم في الدنيا هوان وذلة بسبب ظلمهم وبغيهم ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم يخلدون معه في النار . وليس هناك أشقى ممن يعيش دنياه في هوان وذلة ، ثم ينتقل إلى آخره فيجد مصيره العذاب الأليم الذي لا يموت فيه ولا يحيا . ثم أخذ القرآن في تسليمة المسلمين الذين أخرجوا من مكة وفارقوا المسجد الحرام ، مبيّناً لهم أن الجهات كلها لله - تعالى - فقال :

د والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم ،

المشرق والمغرب : مكان شروق الشمس وغروبها ، والمراد بهما هنا جميع جهات الأرض . واللام في قوله ، والله ، تفيد معنى الملك .
 والتولية : التوجه من جهة إلى أخرى . و (ثم) إسم إشارة للمكان .
 والوجه : الجهة ، فوجه الله الجهة التي ارتضاها وأمر بالتوجه إليها وهي القبلة .

والمعنى : أن جميع الأرض ملك لله وحده ، ففي أى مكان من المشرق والمغرب توليتم شطر القبلة التي أمركم الله بها ورضيها لكم ، فهناك جهته - سبحانه - التي أمرتم بها ، والتي تبرأ ذمكم باستقبالها .

ومعنى هذا : الإذن باقامة الصلاة في أى مكان من الأرض دون أن تخصص بها المساجد ، ففي الحديث الشريف ؛ (جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً) .

وكان الآية تومى إلى أن سعى أولئك الظالمين في منع المساجد من ذكره - تعالى - وتخريبها ، لا يمنع من أداء العبادة لله - تعالى - : لأن له للمشرق والمغرب وما بينهما ، فأينما حل الإنسان وتحرى القبلة المأمور بالتوجه إليها فهناك جهة الله المطلوب منه استقبالها .

وذلك الآية بقوله (إن الله واسع عليم) لإفادة سعة ملكه أو سعة تفسيره على عباده في أمر الدين . أى : إن الله يسع خلقه جميعاً برحمته وتيسيره وجوده وهو عليهم بأعمالهم لا يخفى عليه عمل عامل أينما كان وكيفما كان .

ثم حكى القرآن بعض الأقاويل الباطلة التي اقترأها أصحاب القلوب المريضة فقال - تعالى - :

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ۗ بَلْ لَو

مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ كُلُّ لَهٗ قٰنِتُوْنَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ

وَالْاَرْضِ ۗ وَاِذَا قَضٰى اَمْرًا فَاِنَّمَا يَقُوْلُ لَهٗ كُنْ فَيَكُوْنُ ﴿١١٧﴾

قوله - تعالى - (وقالوا اتخذ الله ولداً) معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك وقالت اليهود ليست النصارى على شيء الخ . ،
واتخذ : من الاتخاذ وهو الصنع والجعل والعمل . والولد : يطلق على الذكر والأنثى ، والواحد والجمع .

والذين قالوا اتخذ الله ولداً هم اليهود والنصارى والمشركون ، فقد حكى الله عن اليهود أنهم قالوا د عزير ابن افة ، وحكى عن النصارى .
د المسيح ابن الله ، وحكى عن المشركين أنهم قالوا الملائكة بنات الله ، فيصح أن يكون الضمير في قالوا عائداً على الفرق الثلاث أو على بعضهم . فمن المعروف أن القرآن يجرى على الأسلوب المعروف في المخاطبات حيث يستند إلى القوم ما صدر من بعضهم فحين قال : (وقالت اليهود عزير بن الله) أصبح من السائق في صحة المعنى أن يكون هذا القول قد صدر من طائفة منهم :

وقوله د سبحانه ، تنزيهاً له عما هو نقص في حقه ومحال عليه من اتخاذ الولد ، لا اقتضاء زوالدية : النوعية والجنسية والتناسل والافتقار ، والتشبيه والحدوث وفي الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافهم) .

وسبحان : مصدر لمسح بمعنى نزه ، وهو منصوب بفعل لم يسمع من

العرب التصريح به معه ، والأصل : أسبجه سبحانه ، فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه ، وأضيف إلى ضمير المنزه :

وقوله : د بل له ما في السموات والأرض ، لإضراب عن مقالاتهم التي نسبوا بها إلى الله اتخاذ الولد ، وشروع في الاستدلال على بطلانها .

واللام في قوله (له) للاختصاص الكامل وهو الملك الحقيقي ، و (ما) اسم موصول يراد منه الكائنات : ما يعقل وما لا يعقل ومن جملة هذه الكائنات من ادعوا أنه ولد لله .

والمقصود إثبات أن قولهم (اتخذ الله ولداً) زعم باطل ، فإن جميع ما احتوت عليه السموات والأرض مملوك لله يتصرف فيه كيف يشاء ، فلا حاجة له إلى اتخاذ الولد ، إذ الولد إنما يسمى إليه الوالد ، أو يرغب فيه ليعتربه أو ليحيى ذكره ، أو ليستعين به على القيام بأعباء الحياة . والله - تعالى - منزّه عن أمثال هذه الأغراض التي لا تليق إلا بمن خلق ضعيفاً كالإنسان . ثم إن الحكمة من التوالد بقاء النوع محفوظاً بتوارد أمثال الوالد حيث لا سبيل إلى بقائه بعينه ، أما الخالق - تعالى - فهو الواحد في ذاته وصفاته ، الباقى على الدوام ، كما قال تعالى :

(كل من عليها فإن . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) .

وقوله - تعالى - (كل له قانتون) .

معناه : كل له مطيعون طاعة تسخير وانقياد ، خاضعون لا يستعصى منهم شيء على مشيئته وإرادته : شاهدون بلسان الحال والمقال على وحدانيته من القنوت وهو لزوم الطاعة مع الخضوع ، وإنما جاء (قانتون) بجمع المذكر المختص بالعقلاء ، مع أن الخضوع لله يكون من العقلاء وغيرهم تغليباً للعقلاء على غيرهم ، لأنهم أهل القنوت عن إرادة وبصيرة ، ولأن ظهوره فيهم أكمل من ظهوره في غيرهم .

وفصلت جملة وكل له قانتون ، عن سابقتها ، لقصد استقلالها بالاستدلال

على نفي أن يكون لله ولد ، حتى لا يظن السامع أنها مكلمة للدليل المسوق له قوله - تعالى - له ما في السموات والأرض .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر قدرته فقال : **بديع السموات والأرض** ، أى : **مبدعها ومنشئها بلا احتذاء ولا اقتداء . وبلا آلة ولا مادة ، صفة مشبهة من أبداع ، والذي ابتدئها من غير أصل ولا مثال هو الله - تعالى - .** وخص السموات والأرض بالإبداع ، لأنهما أعظم ما يشاهد من المخلوقات قال القرطبي : **دقوله - تعالى - بديع السموات والأرض ، فعمل للمبالغة .** وارتفع على أنه خير ابتداء محذوف ، واسم الفاعل **مبدع** ك**بصير** من **مبصر** . أبدعت الشيء لا عن مثال ، فأنه - تعالى - **بديع السموات والأرض** ، أى منشئها وموجدتها ، ومخترعها ، على غير حد ولا مثال ، وكل من أنشأ ما لم يسبق إليه قيل له **مبدع** ، ومنه **أصحاب البديع** ؛ وسميت **البديعة** **بديعة** لأن قائمها ابتدئها من غير فعل أو مقال لإمام

وقوله : **وإذا قضى أمراً** فإنما يقول له **كن فيكون** ، معناه : **وإذا أراد سبحانه - إحداث أمر من الأمور حدث فوراً .** و **كن فيكون** ، فعلان من **الكون** بمعنى **الحدوث** . ويرى كثير من أهل السنة أن الجملة **واردة على وجه التمثيل** ، لحدوث ما تتعلق به إرادته - سبحانه - **بلا مهلة وبلا توقف** . وليس المراد أنه إذا أراد إحداث أمر أتى بالكاف والنون ، ففي التكلام استعارة تمثيلية .

ويرى آخرون أن الأمر **يكن محمول على حقيقته** ، وأنه - تعالى - أجرى سنته في تكوين الأشياء أن يكونها بكلمة **كن** أولاً .

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد حكنا بعض الشبهات الباطلة التي أوردتها الضالون حول وحدانية الله ورد عليها بما يدحضها ويثبت كذبها ثم أود القرآن بعد ذلك للشبهات التي أناروها حول نبوة محمد (صلى

الله عليه وسلم) وأجاب عنها بما يبطلها فقال تعالى :

وَقَالَ

كَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِلُنَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

عن ابن عباس قال : قال رافع بن حريملة اليهودي لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يا محمد ، إن كنت رسولا من الله كما تقول ، فقل لله يكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله هذه الآية (١) .

فآية الكريمة معطوفة على قوله : وقالوا اتخذ الله ولداً
ومعنى الآية الكريمة . (وقال الذين لا يعلمون) علماً نافماً أمثال هؤلاء اليهود الذين طالبوك بالمطالب المتعنتة - يا محمد - (لولا يكلمنا الله) إما مشافهة ، أو بواسطة الوحي إلينا لا إليك ، أو برينا حجة تقوم على صدق رسالتك ، قالوا هذا على وجه العناد والجحود لأن تكون الآيات التي أقامها الله على صدق رسالته آيات حقاً .

وقد رد الله تعالى عليهم بقوله (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) أي . مثل هذا القول المتعنت ، قال الجاحدون من أسلافهم الذين أرسل الله إليهم الرسل ليخبروهم من الظلمات إلى النور وفي هذه الجملة تسليمة للرسول (صلى الله عليه وسلم) بأن ما لاقاه من قومه مثل ما لقيه الرسل من قبله . (تشابهت قلوبهم) أي تشابهت قلوب هؤلاء وأولئك في العناد والضلال . (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) أي : جعلناها بينة واضحة في ذاتها لمن

شأنهم الإخلاص في طلب الحق أينما كان ، فينتخبون إليه عن طريق الأدلة الصحيحة بقلوب نقية من الأهواء موقنة بجلال الحق ووجوب الطاعة .
قال الإمام الرازي : وتقرير شبهتهم أن الحكم إذا أراد تحصيل شيء ، اختار أقرب الطرق إليه ، وبما أن الله قد كلم موسى وكلمك يا محمد فلم لا يكلمنا مشافهة ، أو يخصك بمعجزة يتجلى من ورائها صدق نبوتك ، وهذا منهم طعن في أن القرآن معجزة ، لأنهم لو أفرؤا بذلك لاستحال أن يقولوا ما قالوه .

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قوطم) وحاصل هذا الجواب : أنا قد أيدنا قول محمد بالمعجزات ، وبيننا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج ، فكان طلب هذه الزوائد من باب التلذذ . وعليه فلن تجاب مطالبكم لوجوه منها :

١ - لو كان في معلوم الله أنهم يؤمنون عند إنزال هذه الآيات لفعلموا واسكنه عم أنه لو أعطاهم ما سألوه لازدادوا لجأجا .

٢ - أن حصول الدلالة الواحدة تمكن المكلف من الوصول إلى المطلوب ، فإذا لم يكتف بها ، كان طلبه من باب المعاندة .

٣ - ربما كانت كثرة المعجزات وتعاقبها تفدح في كونها معجزة لأن الخوارق متى توالفت كان انخراق العادة عادة . فثبت أن عدم إسعافهم بهذه الآيات لا يقدح في النبوة (١) .

هذا ، وبعض المفسرين يرى أن المراد بالذين لا يعلمون ، اليهود ، وبعضهم يرى أن المراد بهم مشركو العرب وبعضهم يرى أن المراد بهم الصابري ، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف - فضاء لحق الموصول للميد للتعميم ، ولكننا نختار أن اليهود هم المقصودون قصداً أولياً من هذه الآية للأسباب الآتية :

(١) تفسير الرازي ج ١ ص ٤١٦

(م ٢٢ - سورة البقرة)

١ - الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها ، وكلها تتحدث عن بني إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم .

٢ - جملة « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، قرينة على أنه المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوي ، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب ، لقد قالوا له : « لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، وقالوا « أرنا الله جهرة ، وطلبوا منه كثيراً من المطالب المنعته .

٣ - الآية مدنية ومن سورة البقرة التي هي من أوائل ما نزل على الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة ، ومن المعروف أن حديث القرآن للذني عن أهل الكتاب بصفة عامة ، وعن اليهود بصفة خاصة ، أكثر من حديثه عن مشركي العرب ، لأن البيئة المدنية صلتها بأهل الكتاب أشد وألصق .

٤ - سبب نزول الآية الذي ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصداً أولاً في هذه الآية .

• - القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركو العرب ، دعوا قولهم بأن آيات القرآن التي تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفيضة . وكانهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود .

وردنا عليهم أن القرآن الكريم قد حكى عن اليهود أمثال هذه الأسئلة يدلل قوله تعالى : (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة - يظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً (١) .

٦ - الإمام ابن جرير رجح أن المراد بالذين لا يعلمون (النصارى) - مستدلاً بأن ذلك في سياق خبر الله عنهم ، فالآية السابقة على هذه الآية تقول -

« وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ، بل له ما في السموات والأرض كل له قاتون ، والنصارى هم الذين قالوا ذلك .

وهذا الاستدلال لا نوافقه عليه لما يأتي :

(أ) لأن الآية ليست في سياق خبر الله عن النصارى ، وإنما هي في سياق خبر الله عن اليهود ، الذين زخرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحقباهم وأخلافهم في أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة .

(ب) ليس النصارى وخدمهم هم الذين قالوا اتخذ الله ولداً ، وإنما اليهود أيضاً قالوا ذلك ، قال تعالى . وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله (١) .

(ج) لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود ، ولم يتعرض للنص الذي أورده ابن عباس في سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإلغال ، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب (بأنه قول لأبرهان على حقيقته في ظاهر الكتاب) .

هذا وبعد تلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى : إننا لا نمانع في أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشتركة وإن كنا نرجح أن اليهود هم المقصودون قصداً أولاً مهما دخل غيرهم معهم في السياق ، وإن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحهم التي لا خير من ورائها ، ومحاوالاتهم الطعن في نبوة النبي (صلى الله عليه وسلم) . ثم ساق القرآن للنبي (صلى الله عليه وسلم) ما يسلبه ويثبتته فقال :

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ
 الْجَحِيمِ ﴿١١٥﴾ وَلَنْ رَضِيَ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ
 قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ فَمَا لَوْ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي
 جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
 الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
 فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١٧﴾

وقوله «إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً» . معناه : إنا أرسلناك يا محمد
 بالدين الصحيح المشتمل على الأحكام الصادقة ، لتبشر بالثواب من آمن
 وعمل صالحاً ، وتنفذ بالعقاب من كفر وعصى .

وصدرت الآية للكرامة بحرف التأكيد ، لمزيد الاهتمام بهذا الخبر ،
 وللتنويه بشأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وجميء بالمسند إليه ضمير الجلالة ، تشریفاً للنبي - صلى الله عليه وسلم -
 فكأن الله - تعالى - يشافقه بهذا الكلام بدون واسطة ، ولذا لم يقل له
 إن الله أرسلك .

وقوله «بالحق» متعلق بأرسلناك . والحق : مأخوذ من حق الشيء ،
 أي : وجب وثبت ، ويطلق الحق على الحكم الصادق المطابق للواقع ،
 ويسمى الدين الصحيح حقاً لاشتماله على الأحكام الصادقة .

وقوله «بشيراً ونذيراً» ، حالان ، والبشير : المذبح ، وهو المذبح بالأمم .

الساير للمخبر به الذي لم يسبق له علم به . والنفير : المنذر ، وهو المخبر
بالأمر المخوف ليحذر منه .

وجملة ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ، معطوف على جملة ، إنا
أرسلناك

والجحيم : المتأجج من النار . وأصحابها : الملازمون لها . والسؤال :
كناية عن المؤاخظة واللوم .

والمعنى : لا تذهب نفسك عليهم حسرات يا محمد ، فإن وظيفتك أن
تبشر وتنذر ولست بعد ذلك مؤاخذاً ببقاء الكافرين على كفرهم ، ولست
مسئولاً عن عدم اهتدائهم ، وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ، .

وفي وصفهم بأنهم أصحاب الجحيم ، إشعار بأنهم قد طبع على قلوبهم ،
فصاروا لا يرجى منها الرجوع عن الكفر .

وفي هذه الجملة مع قوله « بشيراً ونذيراً ، تسفيه للرسول - صلى الله عليه
وسلم - حيث لم يؤمن به أولئك الجاحدون المنعنون .

ثم بين القرآن موقف أهل الكتاب من الدعوة الإسلامية فقال : « وان
ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » .

الملة : الطريقة المسلوكة ، ثم جعلت اسماً لما شرعه الله لعباده على
لسان نبيه ليتوصلوا إلى السعادة الدائمة ، وقد تطلق على ما ليس حقاً من
الاديان المنحرفة أو الباطلة ، كما حكى القرآن عن يوسف - عليه السلام -
أفة قال :

« إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون) .

وأفرد القرآن الملة فقال - تعالى - ملتهم - مع أن اكمل من اليهود والنصارى
ملة خاصة ، لأن الملتين بالنظر إلى مخالفتهما لدين الإسلام وما طرأ عليهما
من التحريف بمنزلة واحدة ، فاتباع إحداهما كاتباع الأخرى في قلة
الانتفاع به .

ومعنى للغاية فى قوله ، حتى تتبع ملتهم ، الكتابية عن اليأس من اتباع أهل الكتاب لشريعة الإسلام ، لأنهم لما كانوا لا يرضون إلا باتباعه - صلى الله عليه وسلم - ملتهم وكان اتباع النبى - صلى الله عليه وسلم - ملتهم مستحيلاً ، فقد صار رضاهم عنه كذلك مستحيلاً ، فالجملة الكريمة مبالغة فى الإقنات من إسلامهم ، وتنبية على أنه لا يرضيهم إلا ما لا يجوز وقوعه منه . ثم لعن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الجواب فقال :

(قل إن هدى الله هو الهدى) .

وهدى الله : دينه ، والهدى ، بمعنى الهادى إلى طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة . أى : ما أنت عليه يا محمد من هدى الله الحق الذى يضعه فى قلب من يشاء هو الهدى الحقيقى لا ما يدعيه هؤلاء من الأهواء .

وإيراد الهدى معرفاً بأل مع اقتراحه بضمير الفصل ، هو ، يفيد قصر الهداية على دين الله ، وينبى أن يكون فى دين غير دين الله هدى . وإذا كانت الهداية مقصورة على الدين الذى جاء به محمد - ﷺ - فكيف يطمع أهل الكتاب فى أن يتبع ملتهم ؟

ثم حذر القرآن من اتباع أهل الكتاب فقال : (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ، ما لك من الله من ولى ولا نصير) .

اللام فى قوله ، ولئن ، تشعر بأن فى الجملة قسماً مقدراً روعى فى صدرها ليفيد تأكيد ما تضمنته من أن متبع أهواء أهل الكتاب لا يجدمن الله ولياً ولا نصيراً .

والأهواء : جمع هوى ، والمراد بها آراؤهم المنحرفة عن الحق الصادرة من شهوات فى أنفسهم . والعلم : الدين : وسمى علماً لأنه يعلم بالأدلة القاطعة والمولى : القريب والحليف . والنصير : كل من يعين غيره على من يناوئه ويبسط إليه يده بسوء .

والمعنى : ولئن اتبعت - يا محمد - آراءهم الزائفة ، بعد الذى جاءك

عن العلم بأن دين الله هو الإسلام ، أو من الدين المعلوم صحته بالبراهين الواضحة ، مالك من الله من ولي يلي أمرك ولا نصير يدفع عنك عقابه . وإنما أوتر خطابه (صلى الله عليه وسلم) ليدخل دخولا أولياً من اتبع أهواءهم بعد الإسلام من المنافقين تمسكاً بولايتهم ، طمعاً في نصرتهم . وبعد أن ذكر القرآن في الآيات السابقة أحوال الكافرين من أهل الكتاب أخذ في بيان حال المؤمنين ، فقال :

« الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، » .

أى : يقرءونه قراءة حقة ، مصحوبة بضبط لفظه ، وتدبر معانيه ، ولا شك أن ضبط لفظه يقتضى عدم تحريف مالا يوافق أهواء أهل الكتاب ، كاجل الواردة في نعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأن تدبره يستدعى اتباعه والعمل به .

وجملة : « يتلونه حق تلاوته ، حال من الضمير هم ، أو من الكتاب . وهذه الحال من قبيل الأحوال التي تلابس صاحبها بعد وقوع عاملها ، فإنهم لما يتلون الكتاب بعد أن يؤتوه . وهى التي تسمى بالحال المقدرة أى : مقدراً وقوعها بعد وقوع عاملها .

والمراد بالذين أوتوا الكتاب ، مؤمنو أهل الكتاب . والمراد بالكتاب : للتوراة والإنجيل . أو هم أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) ، والكتاب : القرآن .

وأجاز بعضهم أن تكون الآية سيقت مدحاً لمن آمن من أهل الكتاب بالقرآن ، فيكون الضمير في يتلونه القرآن .

وقوله « أولئك يؤمنون به ، خبر عن قوله « الذين آتيناهم الكتاب ، » . وفي ذكر الإشارة ووضعها في صدر الجملة المخبر بها ، زيادة تأكيد لإثبات إيمانهم .

وفي هذه الجملة تعريض بأولئك المعاندين الذين كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه ، فكان الآية التي معنا تقول : « الذين آتيناهم

الكتاب ، وكان من حالهم أن قرءوه حق قرأته ، يؤمنون به إيماناً لاربية فيه ، بخلاف المعاندين المحرفين للسكلم عن مواضعه .

(ثم بين - سبحانه - عاقبة الكافرين يكتبه فقال : « ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون » .

والسكفر بالكتاب يتحقق بتحريره وإنكار بعض ما جاء فيه . أى ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون فى الدنيا حيث لا يعيشون فيها عيش المؤمنين وهم الخاسرون فى الآخرة ، إذ سيفوتهم ما أعد الله لعباده من نعيم دائم ، ومقام كريم .

وكما بدأ القرآن حديثه مع اليهود بندايم بأحب أسماهم إليهم ، فقد اختتمه - أيضاً - بهذا النداء فقال :

يٰۤاِبْنِي إِسْرٰٓءِيْلَ اذْكُرُوْا نِعْمَتِيْ الَّتِي

اٰنَعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاِنِّيْ فَضَّلْتُكُمْ عَلَي الْعٰلَمِيْنَ ﴿١١٢﴾ وَاَتَّقُوا يَوْمًا لَا

يُجْزٰٓى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ

وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

ففى هاتين الآيتين تكبير لتذكير بنى إسرائيل بما سبق أن ذكروا به فى صدر الحديث معهم فى هذه السورة ، وذلك لأهمية ما ناداهم من أجله وأهمية الشئ . تقتضى تكرار الأمر به إبلافاً فى الحجية وتأكيذاً للتذكرة .

قال القاضى : ولما صدر القرآن قصة بنى إسرائيل بذكر النعم والقيام بحقوقها والحذر من إضاعته ، وللخوف من الساعة وأهوالها ، كرر ذلك وختم به الكلام معهم ، مبالفاً فى النصيح وإبذاناً بأنه فذللكة القضية . والمقصود من القصة .

هذا ، وبعد أن ذكر الله - تعالى - في الآيات السابقة نعمه على بنى إسرائيل ، وبين كيف كانوا يقابلون النعم ب كفر وعناد ، ويأتون منكرات في الأقوال والأعمال ، وختم الحديث معهم بإنذار بالغ . وتذكير بيوم لا يغنى فيه أحد عن أحد شيئاً ، بعد كل ذلك واصل القرآن حديثه عن قصة إبراهيم - عليه السلام - لأنهم هم والمشركون ينتمون إليه ويقرون بفضله ، فقال - تعالى - :

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ

لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ^{١٢٤} قَالَ لَا يَنْبَأُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ

والإبتلاء : الاختبار . أى . اختبره ربه - تعالى - بما كلفه به من الأوامر والنواهي ، ومعنى اختبار الله - تعالى - لعبده ، أن يعامله معاملة المختبر مجازاً ، إذ حقيقة الاختبار محالة عليه - تعالى - لعلمه المحيط بالأشياء والله - تعالى - قارة يختبر عباده بالضراء ليصيروا . وتارة بالسراء . وفى كلتا الحالتين تبدو النفس البشرية على حقيقتها .

وفى إسناد الإبتلاء إلى الرب إشعار للتالى أو للسامع بأنه إبتلاء بما ابتلاه به تربية له ، وتقوية لعزمه ، حتى يستطيع النهوض بعظام الأمور . وقد اختلف المفسرون فى تعيين المراد بالكلمات التى اختبر الله بها نبيه إبراهيم - عليه السلام - على أقوال كثيرة .

قال ابن جرير : د ولا يجوز الجزم بشئ . ما ذكره منها أنه المراد على التعمين لإلجديت أو لإجماع . قال : ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد . ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له ، . ولعل أرجح الآراء فى المراد بهذه الكلمات ، أنها الأوامر التى كلفه الله بها ، فأتى بها على أتم وجه . ، وقوله د فأتهم ، أى أتى بهم على الوجه الأكمل ، وأداهن أداء تاماً .

يليق به - عليه السلام - ولذا مدحه الله بقوله « وإبراهيم الذي وفى » .
 وحجى بالفاء فى (فآتمن) للدلالة على الفور والامتثال . وذلك من
 شدة العزم ، وقوة اليقين .

وفى إجمال القرآن لتلك الكلمات التى امتحن الله بها إبراهيم ، وفى
 وصفه له بأنه آتمن ، إشعار بأنها من الأعمال التى لا ينمض بها إلا ذو عزم
 قوى يتلقى أوامره بحسن الطاعة ، وسرعة الامتثال .

وقدم المفعول وهو لفظ إبراهيم ؛ لأن المقصود تشريف إبراهيم بإضافة
 اسم الرب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز ، فلذلك لم يقل وإذا ابتلى الله إبراهيم .
 وجملة (قال إني جاعلك للناس إماماً) مستأنفة لبيان مامن الله به على
 إبراهيم من الكرامة ورفعة المقام ، بعد أن ذكر - سبحانه - أنه عامله
 معاملة المختبر له ، إذ كلفه بأمر شاق فأحسن القيام بها .

جاعلك : من جعل بمعنى صبر . والإمام : القدرة الذى يؤتم به فى
 أقواله وأفعاله .

والمراد بالإمامة هنا : الرسالة والنبوته ، فإنهما أكمل أنواع الإمامة ،
 والرسول أكمل أفران هذا النوع . وقد كان إبراهيم - عليه السلام - رسولا
 يقتدى به الناس فى أصول الدين ومكارم الأخلاق .

وقال « إني جاعلك للناس إماماً » ، ولم يقل : « إني جاعلك للناس
 رسولا » ، ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق
 التبليغ ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء ، فإن إبراهيم - عليه
 السلام - قد رحل إلى آفاق كثيرة ، فتنقل من بلاد الكلدان إلى العراق ، وإلى
 الشام ، وإلى الحجاز ، وإلى مصر ، وكان فى جميع منازل أسوة حسنة لغيره
 وقد مدح القرآن إبراهيم فى كثير من آياته ، ومن ذلك قوله تعالى :
 « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً » .

وجملة (قال ومن ذريتى) واقعة موقع الجواب عما من شأنه أن يخطر
 فى نفس السامع ، فكأنه قال : وماذا كان من إبراهيم عندما تلقى من ربه تلك

البشارة العظمى ؟ فكان الجواب أن إبراهيم قد التمس الإمامة لبعض ذريته أيضاً .

أى : قال إبراهيم : واجعل يارب من ذريتي أئمة يقتدى بهم .
وقدر الله - تعالى - على قول إبراهيم بقوله : « قال لا ينال عهدى الظالمين ، » .

وإنما قال إبراهيم ومن ذريتي ولم يقل وذريتي ، لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجز بأن يكون جميع نسل أحد عن يصلحون لأن يقتدى بهم فلم يسأل ما هو غير مالوف عادة ، لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء .

أى : قال الله لإبراهيم : قد أجبتك وعاهدتك بأن أحسن إلى ذريتك لكن لا يصيب عهدى الذى عهدته إليك بالإمامة الذين ظلموا منهم ، فالعهد هنا بمعنى الإمامة المشار إليها فى قوله « جاعلك للناس إماماً ، » .

وفى هذه الجملة الكريمة إيجاز بديع ، إذ المراد منها إجابة طلب إبراهيم من الإتمام على بعض ذريته بالإمامة كما قال - تعالى - :

« وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ، ولاكنها تدل صراحة على أن الظالمين من ذريته ليسوا أهلاً لأن يكونوا أئمة يقتدى بهم ، وتشير إلى أن غير الظالمين منهم قد تناولهم النبوة ، وقد نالت من ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء . »

قال - تعالى - « وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ، » .

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن مكانة البيت الحرام ، وعن قصة بنائه ، وعن الدعوات الخاشعات التى كان إبراهيم يتضرع بها إلى الله عند رفعه البيت فقال :

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن
مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ
لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ
رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ
مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ
إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ
مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾
رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا
وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا
مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

وقوله - تعالى - « وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ، معطوف على
قوله - تعالى - « وإذ ابتلى إبراهيم ربه . . . » .

وجعلنا : بمعنى صيرنا . والبيت : المقصود به الكعبة ، إذ غلب استعمال
البيت فيها حتى صار اسماً لها .

ومثابة للناس : مرجعاً للناس يرجعون إليه من كل جانب ، وهو مصدر
مبني من ثاب القوم إلى المكان رجعوا إليه . فهم يشوبون إليه . ثوباً

وثوباً ، أو معاذ لهم يلجأون إليه أو موضع ثواب يثابون بحجة و اعتباره
والأمن : السلامة من الخوف ، وأمن المكان : اطمئنان أهله به ،
وعدم خوفهم من أن يناههم فيه مكروه فالبيت مأمّن ، أى موضع أمن .
وأخبر - سبحانه - بأنه جعله أمناً ليدل على كثرة ما يقع به من الأمن
حتى صار كأنه نفس الأمن .

وكذلك صار للبيت الحرام محظوظاً بالأمن من كل ناحية ، فقد كان
الناس في الجاهلية يقتتلون ويعتدى بعضهم على بعض من حوله ، أما أهله
فكانوا في أمان واطمئنان . قال تعالى :

« أولم يروا أننا جعلنا جرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ، وقال
تعالى - « فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً » .

وقد أقرت تعاليم الإسلام هذه الحرمة للبيت الحرام على وجه لا يضيع
حقاً ولا يعطل حداً ، وزادت في تكريمه وتشريفه بأن جعلت الحج إليه
فريضة على كل قادر عليها .

قال الإمام ابن كثير : « ومضمون ما فسر به العلماء هذه الآية أن الله
تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً من كونه مثابة
للناس . أى : جعله محلاً تشناق إليه الأرواح ونحن إليه ولا تقضى منه
وطراً ولو ترددت إليه في كل عام استجابة من الله - تعالى - لدعاء خليله
إبراهيم في قوله « فاجعل أئمة من الناس تهوى إليهم » ، ويصفه - تعالى -
بأنه جعله أمناً من دخله أمن ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً ،
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان للرجل يلقي قاتل أبيه أو أخيه فيه
فلا يعرض له . . . » :

« واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، الاتخاذ : الجعل ، تقول اتخذت
خلاناً صديقاً أى : جعلته صديقاً . والمقام في اللغة : موضع القدمين من قام
يقوم ، ومقام إبراهيم : هو الحجر الذي كان إبراهيم يقوم عليه عند بناءه

الكعبة لما ارتفع الجدار ، وهو - على المشهور - تحت المصلى المعروف الآن بهذا الاسم .

ومعنى اتخاذ مصلى منه : القصد إلى الصلاة عنده . فقد ورد في الحديث الصحيح الذى رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول - ﷺ - طاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين .

ومن العلماء من فسر مقام إبراهيم بالمسجد الحرام ، ومنهم من أطلقه على الكعبة لأن إبراهيم كان يقوم عندها لعبادة الله تعالى .

قال الإمام ابن كثير : « وقد كان هذا المقام - أى الحجر الذى يسمى مقام إبراهيم - ملتصقاً بجدار الكعبة قديماً ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر على يمين الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل - عليه السلام - لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة .. ثم قال : وإنما أخره عن جدار الكعبة إلى موضعه الآن عمر - رضى الله عنه - ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة (١) :

ثم قال - تعالى - « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

عهدنا : أمرنا وأوحينا ، و « أن » مفسرة المأمور به أو الموصى به . المشار إليه بقوله « عهدنا » أى : أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى .. وأضاف - سبحانه - البيت إليه للتشريف والتكريم ، ومعنى تطهيره : صيانته من كل ما لا يليق ببيوت الله من الأنداز والأرجاس والأوثان وكل ما كان مظنة للشرك ، فالقصد تطهيره من كل رجس حسى ومعنوى .

والطائفين : جمع طائف من طاف يطوف طوفاً وطوفاً إذا دار حول الشيء ، والمراد بهم : المتقربون إلى الله بالطواف حول الكعبة .

والعاكفين : جمع عاكف ، من عكف على الشيء . عكفوا إذا أقام عليه

ملازماً له ، والمراد بهم : المقيمون في الحرم بقصد العبادة ، ويدخل في العبادة .
مدارسة العلوم الدينية وما يساعد على فهمها .
والركع السجود : الركع جمع راعع ، والسجود : جمع ساجد .
والركع والسجود من هيئات الصلاة وأركانها ، فمعنى « وركع
السجود ، المصلون .

فآية الكريمة جمعت أصناف العابدين في البيت الحرام : وهم الطائفون
وإن لم يكونوا مقيمين ، كمن يأتون لحج وعمره ثم ينصرفون .
والعاكفون الذين يقيمون في الحرم بقصد الإكثار من العبادة في المسجد
الحرام . والمصلون يتقربون إلى الله بالصلوات سواء أكانت فرائض أم نوافل .
ولم يعطف السجود على الركع ، لأن الوصفين متلازمان ولو عطف
لتوهم أحدهما وصفان مفترقان .

ثم ساق القرآن بعد ذلك تماذج من الدعوات التي تضرع بها إبراهيم
إلى ربه فقال :

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً / أى : أضرع إليك يا إلهي
أن تجعل الموضع الذي فيه بيتك مكاناً يأنس إليه الناس ، ويأمنون فيه من
الخوف ، ويجدون فيه كل ما يرجون من أمان واطمئنان .
والمشار إليه بقوله « هذا » مكة المكرمة . والبلد كل قطعة من الأرض
طامة أو غامرة .

والمقصود بالدعاء إنما هو أمن أهله لأن الأمان والخوف لا يلحقان
البلد ، وإنما يلحقان أهل البلد .

قال الإمام الرازي : وإنما قال هذا « بلداً آمناً » على التنكير ، وقال في
سورة إبراهيم « رب اجعل هذا البلداً آمناً » على التعريف لوجهين الأول
أن الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلداً ، كأنه قال : اجعل
هذا الوادي بلداً آمناً . والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً ، فكأنه قال :

اجعل هذا المكان الذي صيرته بلداً آمناً وسلاماً . الثاني : أن تكون الدعوة تان
وقعتا بعد ما صار المكان بلداً ، فقوله « اجعل هذا بلداً آمناً ، تقديره : اجعل
هذا البلد بلداً آمناً كقولك : كان اليوم يوماً حاراً ، وهذا إيماناً كرم للمبالغة
في وصفه بالحرارة ، لأن التذكير يدل على المبالغة ، فقوله : رب اجعل هذا
البلد بلداً آمناً معناه : اجعله من البلدان الكاملة في الأمن . وأما قوله : رب
اجعل هذا البلد آمناً فليس فيه إلا طلب الأمن لا طلب المبالغة ، (١) .

أما الدعوة الثانية التله توجه بها لإبراهيم إلى ربه من أجل أهل مكة فقد
حكاهما القرآن في قوله :

(وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) .

أى : كما أسألك يا إلهي أن تجعل هذا البلد بلداً آمناً ، أسألك كذلك
أن ترزق المؤمنين من أهله من الثمرات ما يسد حاجاتهم ، ويغنيهم عن
الاحتياج إلى غيرك ،

وقوله « وارزق » مأخوذ من رزقه يرزقه إذا أعطاه ما ينتفع به من
ما كول وغيره .

والثمرات : جمع ثمرة ، وهى ما يحملها شجر أو زرع أو غيره من النبات .
وإنما طلب إبراهيم - عليه السلام - من الله أن يجعل مكة بلداً آمناً ،
وأن يرزق أهلها من الثمرات بما يغنيهم ، لأن البلد إذا امتدت إليه ظلال
الأمن ، وكانت مطالب الحياة فيه ميسرة ، أقبل أهله على طاعة الله بقلوب
مطمئنة ، وترفخوا لذلك بنفوس مستقرة .

وقال في دعائه : « من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، لأن أهل مكة قد
يكون من بينهم كفرون ، فأراد تخصيص المؤمنين منهم بدعائه ، لذا أتبع
قوله : « وارزق أهله » بقوله « من آمن منهم » . . . على وجه البديل فصار

المعنى وارزق المؤمنين من أهله على ما تقتضيه القاعدة العربية من أن البدل وهو هنا « من آمن » هو المقصود بطلب الرزق .

وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على شيوع الإيمان بين سكان مكة ، لأنهم إذا عدوا أن دعوة إبراهيم إنما هي خاصة بالمؤمنين تجنبوا ما يبعدهم عن الإيمان ، أو أنه خص المؤمنين بذلك تأديباً مع الله - تعالى - إذ سأله سؤالاً أقرب إلى الإجابة ، ولعله استشعر من رداقه عليه عموم دعائه السابق إذ قال : « ومن ذريتي » فقال : « لا ينال عهدي الظالمين » ، أن غير المؤمنين ليسوا أهلاً لإجراء رزق الله عليهم .

واقصر على ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر في التعبير عن المؤمن ، لأن الإيمان بالله واليوم الآخر لا يقع على الوجه الحق إلا إذا صاحبه الإيمان بكتب الله ورسوله وملائكته .

ثم بين - سبحانه - مصير الكافرين فقال : (قال ومن كفر فأمته قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار ويشس المصير) .
الضمير في « قال » يعود إلى الله - تعالى - ومن في قوله « ومن كفر » منصوب بفعل مقدر دل عليه فأمته . والمعنى : قال الله وأرزق من كفر . وإيراد المتكلم قولاً من عنده معطوفاً على قول متكلم آخر مألوف في اللغة العربية ، ويحسن موقعه عند ما يقتضى المقام إيجازاً في القول ، ولولا هذا لكان المعنى متطالماً لأن يقال : قال الله : أرزق من آمن ومن كفر . و « أمته » : من التمتع وهو إعطاء ما ينتفع به . و « قليلاً » : وصف لمصدر محذوف في النظم . والمعنى : أمته تميمياً قليلاً . و وصف التمتع في الدنيا بالقلة ، لأنه صائر إلى فساد وانقطاع .

و « أضطره » أي أجهته وأسوقه بعد متاعه في الدنيا إلى عذاب لا يمكنه الانفكاك عنه وجملة « ثم أضطره إلى عذاب النار » احتراص من أن يفتر الكافر بأن تخويله النعم في الدنيا يؤذن برضا الله فلذلك ذكر العذاب هنا .

(وبش) فعل يستعمل لذم المرفوع بعده ، وهو ما يسميه النحاة بالمختصوص بالذم ، ووردت هنا لذم النار المقدرة في الجملة ، والمعنى : بش المصير النار . أى أنها مصير من . كما قال تعالى في آية أخرى .
« أنها ساءت مستقراً ومقاماً » .

وقد أفادت الآية الكريمة أن الله يرزق الكافر في الدنيا كما يرزق المؤمن . وإذا كان إمتاع المؤمن بالرزق لأنه أهل لأن ينعم عليه بكل خير ، فلا متاع الكافر بالرزق حكم منها استدراجه المشار إليه بقوله تعالى :

« نستدرجهم من حيث لا يعلمون » ، ولو خص الله المؤمنين بالتوسعة في الرزق وحرّم منها الكافرين لكان هذا التخصيص سابقاً للكافرين إلى الإيمان على وجه يشبه الإلجاء . وقد قضت حكمته - تعالى - أن يكون الإيمان اختيارياً حتى ينساق الإنسان من طريق النظر في أدلة عقلية يبصر بها أقوام ولا يبصر بها آخرون .

ثم حكى القرآن دعوة نائلة تضرع بها إبراهيم إلى ربه فقال : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .
القواعد : جمع قاعدة ، وهى أساس البناء الموالى للأرض ، وبها يكون ثبات البناء . ورفعها : إبرازها عن الأرض بالبناء عليها . والمراد بالبيت الكعبة .

والتقبل : القبول ، وقبول الله للعمل أن يرضاه أو يشيب عليه .

والمعنى : واذكري يا محمد ما صدر من الرسولين الكريهين إبراهيم وإسماعيل فقد كانا وهما يقومان برفع قواعد الكعبة ، يتضرعان إلى ويقولان : يا ربنا تقبل منا أقوالنا وأعمالنا ، إنك أنت السميع العليم .

وتصدير الدعاء بتدائه - سبحانه - باسم الرب المضاف إلى ضميرهما مظهر من مظاهر خضوعهما ، وإجلالهما لمقامه ، والخضوع له - سبحانه - ، وإجلال مقامه من أسنى الآداب التي تجعل الدعاء بمقربة من الاستجابة .
وعبر المضارع فقال : « وإذ يرفع » ، مع أن رفع القواعد كان قبل نزول

الآية ، وذلك ليخرجه في صورة الحاضر في الواقع لأهميته .
 وختما دعاهما بذكر اسمين من أسمائه الحسنى ، ليؤكد أن رجاءهما في
 استجابة دعائهما وثيق ، وأن ما عملاه ابتغاء مرضاته جدير بالقبول . لأن
 من كان سمياً عليماً بنيات الداعين وصد ضمائهم ، كان تفضله باستجابة
 دعاء المخلصين في طاعته غير بعيد .

ثم حكى القرآن جملة من الدعوات الخاشعات ، التي توجه بها لإبراهيم
 وإسماعيل إلى الله - تعالى - فقال : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ، :
 مسلمين من الإسلام ، وهو الخضوع والإذعان ، وقد كانا خاضعين
 لله مدعئين في كل حال ، وإنما طلبنا الثبات والدوام على ذلك ، والإسلام
 الذي هو الخضوع لله بحق إنما يتحقق بعقيدة التوحيد ، وتحرى ما رسمه
 الشارع في العبادات والمعاملات ، والإخلاص في أداء ما أمر به ، واجتناب
 ما نهى عنه .

وقوله « ومن ذريتنا أمة مسلمة » معناه : واجعل يا ربنا من ذريتنا
 أمة مخلصه وجمها إليك ، مدعنة لأوامرك ونواهيك .
 و (من) للتبويض ، أو للتعيين كقوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم ، .
 وإنما خص الذرية بالدعاء ، لأنهم أحق بالشفقة ، ولأنهم إذا صلحوا صلح
 بهم الاتباع ؛ ولأن صلاح الذرية مرغوب فيه طبعاً ، والدعاء لهم بالصلاح
 مرغوب فيه شرعاً ، وقد حكى القرآن من دعاء الصالحين قوله - تعالى - :
 « ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ، .
 (وأرنا مناسكنا) أي : علمنا شرائع ديننا وأعمال ديننا ، كالطواف
 والسعي والوقوف . أو متبدينا التي تقام فيها شرائعنا ، كمنى ، وعرفات ،
 ونحوهما .

والمناسك : جمع منسك - به تمسك السنين وكسرها - بمعنى الفعل ومعنى
 الموضوع من النسك - مثله النون وبضمها وضم السين - وهو غاية العبادة
 والطاعة ، وشاعت تسمية أعمال الحج بالمناسك كالطواف والسعي وغيرهما .
 « وتب علينا ، تسند التوبة إلى العبد فيقال : تلاب فلان إلى الله ومعناها

الندم على ما لابس من الذنوب ، والإفلاج عنه ، والعزم على عدم العود إليه ، ورد المظالم إن استطاع ، أو نية ردها إن لم يستطع ، وتسنده إلى الله فيقال : تاب الله على فلان ، ومعناها حينئذ توفيقه إلى التوبة ، أو قبولها منه . فعنى « تاب علينا ، وفقنا للتوبة أو تقبلها منا .

والتوبة تكون من الكبائر والصغائر ، وتكون من ترك ما هو أولى . أو من تقصير يؤدي إلى خطأ في الاجتهاد ، وعلى أحد هذين الوجهين ، تحمل التوبة التي يسأل الأنبياء والمرسلون ربهم قبولها أو التوفيق لها .

« إنك أنت التواب الرحيم ، التواب : كثير القبول لتوبة المنين إليه ، وقبول توبتهم يقتضى عدم مؤاخذتهم بما يأتونه من سيئات ، ثم بعد تخلصهم من عقوبة الخطيئة أو المعاتبة عليها ينتظرون من رحمة الله أن تحضهم بإحسان لإبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قد طلبا قبول توبتهما صراحة في قولهما (وتب علينا) ، ولو حاشا إلى طلب الرحمة بذكر اسمه الرحيم ، إذ الرحمة صفة من أثارها الإحسان ، فكانت قلنا : تب علينا وارحمنا ، وهذا من أكمل آداب الدعاء وأرجاء القبول عند الله تعالى .

ثم ختم إبراهيم وإسماعيل دعواتهما بتلك الدعوة التي فيها خيرهم في الدنيا والآخرة ، فقالا - كما حكى القرآن عنهما - :

« ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ، .

الضمير في قوله (منهم) يعود إلى الذرية أو الأمة المسلمة في قوله : « ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » .

والرسول : من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه : وقراءة الشيء : قراءته والمراد بقوله تعالى : « يتلى عليهم آياته » يقرؤها عليهم قراءة تذكير وفي هذا إيماء إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع .

والآيات : جمع آية ، والمراد بها ما يشهد بوحدانية الله ، وبصدق

رسوله (صلى الله عليه وسلم) فيما يبلغه عنه ، أو المراد بها آيات القرآن الكريم
رفه وتلوا عليها ليحفظوها بألفاظها كما نزلت ، ويتمتعون بتلاوتها ، ويعرفوا
من فضل بلاغها وروعة أساليبها وجمالاً مشرقاً من وجوه إعجازها .

والكتاب : القرآن ، وتعلمه يكون ببيان معانيه وحقائقه ، يعرفوا ما
أقاموا لهم من دلالات التوحيد وما اشتمل عليه من أحكام وحكم ومواعظ وآداب
والحكمة : العلم النافع المصحوب بالعمل الواقع موقعه اللائق به .
ووضعها بجانب الكتاب يرجح أن المراد بها السنة النبوية المطهرة التي
تنظم أقوال النبي (صلى الله عليه وسلم) وأفعاله ، إذ بالكتاب وبالسنة
يعرف الناس أصلح الأعمال ، وأعدل الأحكام ، وأسنن الآداب ، وتفتح
لهم طرق التفقه في أسرار الدين ومقاصده .

ويذكهم : أي يطهرهم من أرجاس الشرك ومن كل مالا يليق بالتبلس
به ظاهراً أو باطناً . يقال : زكاه الله ، أي طهره وأصلحه ، ومنه زكاة المال
لتطهره بها ، وأصل الزكاة - بالمد - النماء والزيادة ، يقال . زكا الزرع
زكاه وزكوا ، أي نما .

والمعنى : ونسألك يا ربنا أن تبعث في الأمة المسلمة ، أوفى ذريتنا
رسولاً منهم يقرأ عليهم آياتك الدالة على وحدانيتك ، ويعلمهم كتابك
بأن يبين لهم معانيه ، ويرشدهم إلى ما فيه من حكم ومواعظ وآداب ، كما
يهديم إلى الحكمة التي تتمثل في اتباع سنة نبيك - والتي بها يتم التفقه
في الدين ومعرفة أسرار وحكمه ومقاصده ، والتي يكمل بها العلم بالكتاب
إنك يا مولانا أنت العزيز الحكيم .

أي القادر الذي لا يغلب على أمر ، العالم الذي يدبر الأمور على وفق
المصلحة ، ومن كان قادراً على كل ما يريد ، علماً بوجوده المصالح ، كانت
استجابته قريبة من دعاء الخبير الصادر عن إخلاص وإبتهاال .
وقد جاء ترتيب هذه الجمل في أسامي درجات البلاغة والحكمة ؛ لأن أول

تبليغ الرسالة يكون بتلاوة القرآن ثم بتعليم معانيه ، ثم بتعليم العلم النافع الذي تحصل به التزكية والتنطهير من كل ما لا يليق للتلبس به في الظاهر ، أو الباطن .

وقد سأل إبراهيم وإسماعيل ربهما أن تكون بعثة الرسول في ذريتهما ليكون أمر الإيمان قريباً منهما ، فإن نشأته بينهما ، ومعرفة سيرته قبل الرسالة وشهادتهم له بالصدق والأمانة ، كل ذلك يحمل العقلاء على المبادرة إلى تصديقه فيما يبلغه عن ربه .

ولقد حقق الله تعالى دعوة هذين النبيين الكريهين ، فأرسل في ذريتهما رسولا منهم ، وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) أرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً .

وقد أخبر (صلى الله عليه وسلم) أنه دعوة إبراهيم ، فقال : (أنادعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأيت ، وكذلك أمهات المؤمنين يرين) .

ثم عرض القرآن بعد ذلك بالجاحدين والمعاندين الذين تركوا الحق الواضح الذي هو ملة إبراهيم ، فقال :

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ
 إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ
 لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ
 اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٧﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ
 إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا
 نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَحِدًا
 وَكُنَّا لَهُ مُسْلِمِينَ ﴿١٢٨﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
 وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

قوله تعالى : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » ، معناه :
 لا أحد من الناس يكره ملة إبراهيم وينصرف عنها إلى الشرك باقته ، إلا من
 امتن نفسه ، واستخف بها ، وظلمها بسوء رأيه ، حيث ترك طريق الحق
 إلى طريق الضلالة .

يقال رغب في كذا إذا أراه ، ورغب عن كذا إذا كرهه
 وانصرف عنه نفسه والملة في الأصل الطريقة ، وغاب إطلاقها على
 أصول الدين من حيث إن صاحبها يصل عن طريقها إلى دار السلام .
 وسفه نفسه امتنهما واستخف بها .

ثم بين الله - تعالى - منزلة نبيه إبراهيم - عليه السلام - وخطأ من يرغب عن طريقته المثلى فقال تعالى : « ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، أي : ولقد اخترناه للرسالة وهداية الناس وإرشادهم في الدنيا ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين المستقيمين على الطريقة المثلى . فمن يرغب عن ملة من هذا شأنه إلى غيرها من طرق الضلال لا يمانه أحد في سفهه وسوء رأيه . »

ثم بين الله تعالى كمال استقامة إبراهيم التي رفعتها إلى المنازل العليا فقال تعالى : « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ، أي : اصطفي الله - تعالى - لإبراهيم لأنه أمره بطاعته وإسلام وجهه إليه في كل حال فيأدر إلى الامتثال وقال « أسلمت لرب العالمين ، أي : أخلاصت ديني لله الذي فطر الخلق جميعاً . كما حكى عنه القرآن الكريم نحو هذا القول في قوله تعالى : « إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، . »

وبعد أن بين الله - تعالى - أن إبراهيم - عليه السلام - كان كاملاً في نفسه ، أتبع ذلك ببيان أنه كان - أيضاً - يعمل على تكميل غيره ، ودعوته إلى توحيد الله تعالى . فقال - سبحانه - : « ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفي لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، الضمير في « بها ، يعود إلى الملة التي ذكرت قبل ذلك في قوله تعالى :

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم ، والمعنى : ووصى لإبراهيم بنيه باتباع ملته ويعقوب كذلك أوصى بنيه باتباعها ، فقال كل منهما لأبنائه : يا بني إن الله اصطفي لكم دين الإسلام ، الذي لا يقبل الله ديناً سواه ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أي : فاثبتوا على الإسلام . واستقيموا على أمره حتى يدر كحكم الموت وأنتم مقيمون على هذا الدين الحنيف . »

ثم أنكر القرآن الكريم على اليهود افتراءهم على يعقوب وزعمهم أنه كان على اليهودية التي أقاموا عليها تاركين دين الإسلام فقال تعالى : « أم كنتم

شهاده إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لنبیه ماتعبدون من بعدی) .
 روى أن اليهود قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) أأنت تعلم أن يعقوب

أوصى بنيه باليهودية ، فنزلت هذه الآية الكريمة (١) .

والمعنى : ما كنتم - يامعشر اليهود - حاضرین وقت أن أشرف يعقوب
 على الموت ، ووقت أن قال لنبیه حينئذ (ماتعبدون من بعدی ؟) فكيف
 ندعون أنه كان على اليهودية التي أتتم عليها وأنه أوصى بها بنيه ؟ ومراد
 يعقوب - عليه السلام - من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بالثبات على ملة
 أبيهم إبراهيم من بعده ، لكي يسعدوا في دنياهم وأخرام ، وقد أجابوه بما
 يدل على رسوخ إيمانهم إذ قالوا : (نعبد لك وإله آباءنا إبراهيم وإسماعيل
 وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون) .

وهذا الجواب يتضمن أنهم متمسكون بملة إبراهيم - عليه السلام - وهي
 ملة لا تثليث فيها ولا تشبيهه بمخلوق ، وإنما هي أفراد الله - تعالى - بالعبودية ،
 والاستسلام له بالتخضوع والانقياد .

ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب من ترك طاعته انكالا على انفسهم
 لآباء كانوا أنبياء أو صالحين فقال تعالى : ذلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت
 ولهم ما كسبتهم ولا تسألون عما كانوا يعملون ، .

الإشارة (بتلك) إلى إبراهيم وبنيه ، أي أن إبراهيم وذريته ، أمة قد
 مضت وانقرضت ، لها جزاء ما كسبت من خير أو شر ، ولا تسألون يوم
 القيامة عن أعمالهم في الدنيا فلا يقال لكم على وجه المحاسبة لم عملوا كذا
 وإنما تسألون عن أعمالكم وحدها فأصلحوها وحسنوها ، وآمنوا بمحمد
 (صلى الله عليه وسلم) الذي هودعوا إبراهيم - عليه السلام - وعلى دينه وملته .

فآية الكریمه واردة لتقرير سنة من سنن الله العامة في خلقه وهي أن
 لكل نفس وحدها ثواب ما كسبت من خير ، وهليها وحدها يقع عقاب

حال اكتسبت من شر . وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت بوضوح لبني إسرائيل وغيرهم أن ملة إبراهيم الإسلام وأنه هو ويعقوب - عليهما السلام - قد أوصيا أبناءهما بأن يشبثوا على هذه الملة حتى الموت ، وأن أبناء يعقوب قد عاهدوه عند موته أن يستمروا على ملته وملة إبراهيم عليهما السلام . وهذا الذي بينته الآيات الكريمة يطابق ما دعاهم إليه محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو الإيمان بالله - تعالى - وتصديق رسوله واتباع تعاليم الإسلام وفي القرآن الكريم آيات أخرى صرحت بأن الإسلام اسم للدين الذي دعا إليه كل الأنبياء ، وانتسب إليه أتباعهم ، فنوح قال لقومه (وأمرت أن أكون من المسلمين) (١) .

وموسى قال لقومه (يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) (٢) .
والخوارج قالوا العيسى - عليه السلام - (آمننا بالله وأشهد بأننا مسلمون) (٣) .
بل إن فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن أشرفت قلوبهم للدعوة وقالوا (آمننا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) (٤) .
وإلى هنا تكون قد ذكرنا بعض الآيات الكريمة التي أرشدني إلى أن ما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) يطابق ما جاء به الأنبياء السابقون ، فلهيهم أن يؤمنوا به ويصدقوا ، لأن كفرهم به كفر بجميع الرسل السابقين . وقبل أن نختم هذا الموضوع نفيه إلى مسألة مهمة . وهي أن ما جاء به النبي (صلى الله عليه وسلم) يطابق - كما قلنا - ما جاء به الأنبياء قبله في أصول الدين وكياناته كتوحيد الله - تعالى - واختصاصه بالعبادة ، وتصديق الأنبياء السابقين فيها أتوا به عن الله - تعالى - والإيمان بالبعث وما يكون فيه من تعيم وعذاب والحض على مكارم الأخلاق ، أما ما عدا ذلك مما يتعلق بتفاصيل العبادات وأحكام المعاملات فإن الشرائع تختلف فيه بوجه تام

(١) سورة يونس الآية ٧٢ (٢) سورة آل عمران الآية ٥٢

(٣) سورة يونس الآية ٨٤ (٤) سورة القصص الآية ٤٣

حسب ما يتناسب وحالة الأمة التي بعث الله لها رسولا من لدنه كما قال تعالى
 « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » .

ومن هنا جاءت الشريعة الإسلامية بما لم يكن موجوداً في الشرائع
 السابقة ، ومن مظاهر ذلك أن القرآن الكريم أعلن للناس ، أن محمداً
 (صلى الله عليه وسلم) من مميزات شريعته أنها أحلت للناس كل الطيبات
 وحرمت عليهم كل الخبائث ووضعت عنهم لإصرهم والأغلال التي كانت
 عليهم وشرعت لهم أموراً تتعلق بعباداتهم ومعاملاتهم امتازت باليسر والتخفيف
 ويعجبنى في هذا المقام قول فضيلة أستاذنا المرحوم الشيخ محمد عبد الله
 دراز : (يجب أن يفهم - أن تعديل الشريعة المتأخرة للمتقدمة - ليس نقضاً
 لها ، وإنما وقوفاً بها عند وقتها المناسب وأجلها المقدر .

مثل ذلك كمثل ثلاثه من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول
 من حياته ، فقصر غذاءه على اللبن ، وجاء الثاني من مرحلته التالية فقرر له
 طعاماً ليناً ، وطعاماً نشويماً خفيفاً ، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها
 فأمر له بغذاء قوى كامل .

لاريب أن ها هنا اعترافاً ضمئياً من كل واحد منهم بأن صاحبه كان
 موفقاً كل التوفيق في علاج الحالة التي عرضت عليه ، نعم إن هناك قواعد
 صحية عامة في النظافة والنهوية والتدفئة ونحوها ، لا تختلف باختلاف
 الأسنان فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل ، ولا يختلف فيها طب الأطفال
 والناشئين عن طب الكهول الناضجين .

هكذا الشرائع السماوية ، كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها ،
 وكلها يصدق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها ، ولكن هذا التصديق
 على ضربين .

تصديق للقديم مع الإذن ببقائه واستمراره ، وتصديق له مع إبقائه
 في حدود ظروفه الماضية ، ذلك أن التشريعات السماوية تحتوى على نوعين
 من التشريعات .

(تشرىعات خالءة) لاءتعءل بءءءل الاءصقاع والاءوضاع (كالوصاءة الءسع ونحوها) .

و (تشرىعات موقوءة) بأجال طوءلة أو قصورة ، فهذه ءءهى بأءنها . وفتها . وءجىء الشرىعة ءءالیه بما هو أوفق بالاءوضاع الءاشءة الطارئة .

فشرىعة ءءورة - مثلاً - عنءء بوضع المباءىء الأولىة لقانءون السلوك (لا ءءقل) . (لا ءسرق) فظاءبها البارز ءءءءء الحءوق وطلب العءل والمساواة وشرىعة الإنءل ءجىء بعءها فءقرر هذه الأءور ، ءم ءرقى فزءءء آءاباً مكءلة (أءسن إلى من أساء إءلك) .

وأءراء ءءجىء شرىعه القرآن فءراها ءقرر كلا المباءءن فى ءسق واءء (إن الله يأمر بالءءل والإءسان) .

هكذا كانت الشرائع للساءوة ءطوات ءءصاعءة ، ولبناء مءراكمء فى بنىءن الءءن والأءلاق وسىاسة المءءمع . وكاءء مهمة اللبنة الآءرة منها أن أكءلء البنىءن وملاء ما بقى فیه من فراع ، وأنها فى الوءء ءفسه كانت بمءابة ءءجر الزاوءة الذى یمسك أركان البناء .

وصدق رسول الله (صلى الله علیه وسلم) ءءن صور الرساءلء السماءوة فى ءملءها أءسن ءصوئر فقال : (مءلى ومءل الأنبىاء من قبلى كمءل رءل بنى بىءناً فأءسنه وءمله إلا موضع لبنة فءل الناس ىطوفون به وبعءبون له وىقولون : هلاء وضعت هذه اللبنة . فأنا اللبنة وأنا ءاءم ءءبءن) ، (١) . وبءلك ىءبءن لنا أن مطابقة الشرىعة الإسلامىة لءرءها من الشرائع السابقة إنما هى فى الأصول والءكملاء ، لافى الفروع والءزءملاء .

(١) من بءء ءءم للمرءوم الشىء ءءءءء ءراء موضوعه (موقف الإسلام من الأءءان الآءرى وعلائءه بها) نشر بمءلة لواء الإسلام العءء ١١ السءه ١١ ص ٦٨١ ، وكان فضىلءه ءء أعدءهءا البءء لإلقائه فى ءءءرة العالمىة للإسلامىاء ، ءىءى انءءءء فى لاءور فى أواخر سءه ١٩٥٧ ، إلا أن ءلمنىة ءاءلءه قبل الاءءاء من ءءءرة - فرءمة الله علیه ورضوائه .

ثم حكى القرآن بعد ذلك لونا من ألوان مواضع أهل الكتاب ورد عليها بما يبطلها فقال :

وَقَالُوا كُونُوا

هُودًا أَوْ نَصْرَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٦﴾ فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنَ بِهِءُ فَقَدْ آهْتَدُوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٢٨﴾ قُلْ أُمَّا جُنُودَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٢٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصْرَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣١﴾

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال عبد الله بن صوريا الأعور
 لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا - يا محمد -
 تهتد ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله - عز وجل - وقالوا كونوا
 هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، (١) .
 ومعنى الآية الكريمة : وقالت اليهود دللتني صلى الله عليه وسلم ، وللمسلمين
 اتركوا دينكم واتبعوا ديننا تهتدوا وتصيبوا طريق الحق . وقالت النصارى مثل
 ذلك قل لهم - يا محمد - ليس الهدى في اتباع ملتكم ، بل الحق في أن تتبع
 ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، فاتبعوا أئمتهم - يا معشر أهل
 الكتاب - ما اتبعناه لتكفروا حقاً سالكين ملة إبراهيم الذي لا تنازعون
 في هداة .

وقوله تعالى : (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا) حكاية لما
 زعمه كل من فريقى اليهود والنصارى من أن الهدى في اتباع ملتهم .
 و (أو) للتويع ، أى قال اليهود لغيرهم لا دين إلا اليهودية ولا يتقبل
 الله سواها ، فاتبعوها تهتدوا ، وقال النصارى لغيرهم كونوا نصارى تهتدوا ،
 إلا أن القرآن الكريم ساق هذا المعنى بقوله : وقالوا كونوا هوداً أو نصارى
 تهتدوا ، لمعرفة السامع أن كل فريق منهم يكفر الآخر ، ويعد ديانتهم
 باطلة ، كما حكى القرآن عنهم ذلك فى قوله تعالى : وقالت اليهود ليست
 النصارى على شئ ، وقالت النصارى ليست اليهود على شئ

ثم لقن الله - تعالى - نبيه (صلى الله عليه وسلم) الرد الملزوم لهم ، فقال
 تعالى : قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، .
 الملة : الدين ، والحنيف في الأصل المائل عن كل دين باطل إلى الدين
 الحق ووصف به إبراهيم - عليه السلام - لميله عن الأديان الباطلة التى
 كانت موجودة فى عهده إلى الدين الحق الذى أوحى الله به إليه .

وذهب بعض المفسرين إلى أن حنيفاً من الحنف وهو الاستقامة .
قال الإمام الرازي : « لاهل اللغة في الحنيف قولان : الأول . أن الحنيف هو المستقيم ، ومنه قيل الأعرج أحنف فغاؤلا بالسلامة ، كما قالوا للدينغ سليم وللمهاجرة مفازة ، قالوا فشكل من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء . فهو حنيف ، وهو مروى عن محمد بن كعب القرظي الثاني : أن الحنيف المائل ، لأن الاختنف هو الذي يميل كل واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها . وتحنف إذا مال ، فالمعنى : إن إبراهيم - عليه السلام - حنف إلى دين الله ، أي مال إليه ، فقوله : (بل ملة إبراهيم حنيفاً) أي : مخالفاً لليهود والنصارى .. والمعنى : قل يا محمد لليهود ليس الهدى في أن تتبع ملتكم ، بل الهدى في أن تتبع ملة إبراهيم المائتة عن كل دين باطل إلى الدين الحق ، والذي ما كان من المشركين بأى صورة من صور الشرك .

وقوله تعالى : « بل ملة إبراهيم حنيفاً . وما كان من المشركين ، أي : بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً .. وقد تضمن هذا القول إبطال ما ادعاه كل من اليهود والنصارى ، لأن حرف (بل) يوثق به في صدر الكلام لينفي ما تضمنته الجملة السابقة ، والجملة السابقة هنا هي قول أهل الكتاب « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، فجاءت بل بعد ذلك لتنفي هذا القول ، ولتثبت أن الهداية إنما هي في اتباع ما كان عليه إبراهيم - عليه السلام - ، وفي اتباع من سار على نهجه وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وفي هاتين الجملتين وهما قوله تعالى : « بل ملة إبراهيم حنيفاً . » وما كان من المشركين ، دعوة لليهود إلى اتباع ملة إبراهيم لاستقامتها ، وابتعادها عن الشرك ، وفي ذلك تعريض بأن ملتهم ليست مستقيمة ، بل هي معوجة ، وبأن دعواهم اتباع إبراهيم لا أساس لها من الصحة ؛ لأنهم أشركوا مع الله آلهة أخرى ، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق به .

قال الإمام الرازي - ما ملخصه - : : في الآية الكريمة جواب إلزامي لهم وهو قوله تعالى : بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وتقرير هذا الجواب : أنه إن كان طريق الدين التقليد ، فالأولى في ذلك اتباع ملة إبراهيم لأن هؤلاء المختلفين قد اتفقوا على صحة دين إبراهيم ، والآخر بالمتفق عليه ، أولى من الآخر المختلف فيه .

وإن كان طريقه الاستدلال والنظر . فقد سبقنا للكثير من الدلائل على أن ما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) هو الموافق لما جاء به إبراهيم - عليه السلام - في أصول الدين (١) .

ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين إلى جواب جامع وكلمة سواء تفيد غلبه التعصب جانباً وتدعو إلى اتباع الوحي الإلهي الذي أرسل الله به الرسل مبشرين ومنذرين بدون تفرقة بين أحد منهم ، وهو يتضمن دعوة أهل الكتاب إلى الطريق الحق فقال تعالى : : قولوا آمناً بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون . .

أي : قولوا أيها المؤمنون لأولئك اليهود الذين يزعمون أن الهداية في اتباع ملتهم ، قولوا لهم : ليست الهداية في اتباع ملتكم فقد دخلها الشرك والتحريف ، وإنما الهداية في أن تصدق بالله ، وبالقرآن الكريم الذي أنزله الله إلينا ، وبما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، ، وبالأنوار التي أنزلها الله على موسى وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ، ونحن في تصديقنا بالأنبياء لا نفرق بين أحد منهم فنؤمن ببعضهم ونكفر بالآخر كما فعلتم أنفستم يا معشر اليهود وإنما تؤمن بهم جميعاً ، بدون تفرقة بينهم ، ونحن أربنا مسلمون خاضعون بالطاعة . مدعون له بالعبودية .

قال الإمام الرازي : : فإن قيل : كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى

وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة ؟ قلنا : نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه ، فلا يلزم منا المناقضة ، أما اليهود فإنهم لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز على يديه ، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يديه ، فحينئذ يلزمهم المناقضة فظهر الفرق (١) .

وقوله تعالى : (قولوا آمنا بالله) خطاب للمؤمنين .

والأسباط : جمع سبط ، وهو الحفيد ، وهم أبناء يعقوب - عليه السلام - سواً بذلك لكونهم حفدة إبراهيم وإسحق - عليهما السلام - وكانوا اثني عشر سبطاً كما قال تعالى : (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً) ، والمراد : الإيمان بما أنزل الله من الوحي على الأنبياء منهم .

قال الإمام القرطبي : والأسباط : ولد يعقوب ، وهم اثنا عشر ولداً ، ولكل واحد منهم أمة من الناس ، وأحدهم سبط ، والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد اسماعيل ، وسموا الأسباط من السبط وهو التابع ، فهم جماعة متتابعون ، وقيل أصله من السبط « بالتحريك » وهو الشجر ، أي هم في الكثرة بمنزلة الشجر : الواحد سبطة ، وبين لك هذا ما روى عن ابن عباس ، قال : كل الأنبياء من إسرائيل إلا عشرة : نوحاً وشعيباً ، وهوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمداً - صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً ، (٢) .

وقوله تعالى : وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، معناه : وآمنا - أيضاً - بالتوراة التي أعطاه الله - تعالى - لموسى ، وبإنجيل الذي أعطاه لعيسى ، وبكل ما آتاه الله لأنبيائه تصديقاً لهم في نبوتهم .

وعطف - سبحانه - عيسى على موسى بدون إعادة الفعل لأن عيسى جاء مصدقاً للتوراة ، وما نسخ منها إلا أحكاماً يسيرة ، كما أشار إلى ذلك

(١) تفسير الفخر الرازي ج ١ ص ٤١٧ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٤١ بتلخيص .

القرآن الكريم في قوله - حكاية عنه - ومصداقاً لما بين يدي من التوراة -
 ولا حل لكم بعض الذي حرم عليكم ، . . .
 وقدم - سبحانه - الإيمان بالله على غيره ، لأن الإيمان بالانبياء وما أنزل
 إليهم متوقف على الإيمان بالله .

وقدم الإيمان بما أنزل إلينا - نحن معشر المسلمين - وهو القرآن الكريم
 لأن الإيمان به يجب أن يكون على وجهي الإجمال والتفصيل ، أما ما أنزل
 على الانبياء من قبل كالتوراة والإنجيل ، فيكفي الإيمان به على وجه الإجمال .
 وقوله تعالى : « لا نفرق بين أحد منهم ، معناه : لا نفرق بين جماعة
 للنبيين ، فتؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلتم يا معشر اليهود ، إذ كفرتم
 بعيسى ومحمد (صلى الله عليه وسلم) وفعلكم هذا في حقيقته كفر بالانبياء
 جميعاً ، لأن من كفر بواحد منهم فقد كفر بالكل ، ولذلك فنحن معشر
 المسلمين نؤمن بجميع الانبياء بدون تفرقة أو استثناء .

ثم بين - سبحانه - أن أهل الكتاب إن آمنوا بما دعوتهم إليهم معشر
 المسلمين ، فقد أصابوا الهدى ، وإن نأوا وأعرضوا فهم معاندوه
 مستكبرون فقال تعالى :

(فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإياهم في شقاق
 فسيفضيكم الله وهو السميع العليم) .

والغناء التي صدرت بها الآية الكريمة لترتيب ما بعدها على ما قبلها .
 لأن قول المؤمنين « آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم الخ
 من شأنه أن يرقق القلوب الجاحدة ، ويستميل النفوس الشاردة ،
 لبعده عن التعصب والعماد ، ولأنه الحق الذي تؤيده العقول السليمة ، وإذا
 لم يؤمنوا به فمرد ذلك إلى شدة عنادهم والنواء أفسكارهم .

وقوله تعالى : (فقد اهتدوا) ترغيب لهم في اتباع الحق الذي اتبعه
 المؤمنون ، أي : فإن آمنوا مثل إيمانكم فقد اهتدوا ورشدوا .
 وكلمة : (مثل) في الآية الكريمة معناها ، نفس الشيء وحقيقته . المراد

فإن آمنوا بنفس ما آمنتم به فقد اهتدوا ، ومنه قول العرب : « مثلك لا يبخل به » والمراد أنت لا تبخل . ويرى بعض المفسرين أن كلمة « مثل » هنا على حقيقتها وهي الشدية والنظير ، وأن المماثلة وقعت بين الإيمانيين ، وأنها لا تقتضى تعدد ما أمرنا الله أن نؤمن به .

قال الإمام القرطبي : « المعنى : فإن آمنوا مثل إيمانكم ، وصدقوا مثل تصديقكم فقد اهتدوا ، (١) .

وقال ابن جرير : « فإن صدقوا مثل تصديقكم بجميع ما أنزل عليكم من كتب الله وأنبياؤه ، فقد اهتدوا ، فالتشبيه إنما وقع بين التصديق والاقرارين اللذين هما إيمان هؤلاء وإيمان هؤلاء ، كقول القائل : (مر عمرو بأخيك مثل ما مررت به) يعنى ذلك (مر عمرو بأخيك مثل مرورى به) والتشبيه إنما دخل تمثيلا بين المرورين لا بين عمرو وبين المتكلم ، فكذلك قوله : « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ، إنما وقع التمثيل بين الإيمانيين لا بين المؤمن به ، (٢) .

وقوله تعالى : « وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيمهم الله وهو السميع العليم » بيان لحالهم عند إعراضهم عن دعوة الحق ، ووعد من الله - تعالى - للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين بالنصر عليهم ، والعصمة من شرورهم . والشقاق : المنازعة والمخالفة والتعادى وأصله من الشق وهو الجانب فبدأ أن كل واحد من الفريقين في شق غير شق صاحبه .

وقيل : إن الشقاق مأخوذ من فعل ما يشق ويصعب ، فبدأ أن كل واحد من الفريقين يحرص على ما يشق على صاحبه .

والمعنى : « وإن أعرض هؤلاء الذين زعموا أن الهداية في ملتهم عن الإيمان الذى تدعوهم إليه - يا محمد - فاعلم أن إعراضهم سببه المخالفة والمعاندة والمعاندة إذ لا حجة أوضح من حجتك ، وما داموا هم كذلك فسيبقيك

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٤٣

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٤٣١

الله شرهم ، وينصرك عليهم ، فهو سميع لما يقرلونه فيك ، عليم بما يبیتوا لك ولاتباعك من مكرو وكيد ، وهو الكفيل بكف بأسهم ، وقطع دابرهم وعبر - سبحانه - عن شدة مخالفتهم بقوله : فإنما هم في شقاق مبالغة في وصفهم بالشقاق حيث جعله مستولياً عليهم استيلاء الظرف على ما يوضع فيه .

ورب قوله : فسيكفيكمهم الله ، على قوله : فإنما هم في شقاق ، تهيئة للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين لأن إعلامهم أن أهل الكتاب في مخالفة ومعاداة لهم - يحملهم على الخوف منهم بسبب كثرتهم وقوتهم ، فبشر الله - تعالى - نبيه (صلى الله عليه وسلم) بأنهم مهما بلغت قوتهم فإن يستطيعوا أن يصلوا إليك بأذى . وأنه - سبحانه - سيكفيك شرهم .

وقد أوفى الله - تعالى - بوعده ، فنصر نبيه (صلى الله عليه وسلم) عليه ، وعصمه من كيدهم بإلقاء العداوة بينهم وطرد من يستحق الطرد منهم ، وقتل من لا بد من قتله بسبب خيائنه وغدره . فالآية الكريمة قد تضمنت وعداً للمؤمنين بالنصر ، ووعيداً لليهود ومن على شاكلتهم بالهزيمة والخيبة .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك - أن دين الله وهو الإسلام أولى بالاتباع فقال تعالى : صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون .

الصبغة فعلة من صبغ كالجلسة من جلس وهي في أصل اللغة . الحالة التي يقع عليها الصبغ وهو تلوين الأشياء - كالثياب وغيرها - بالأوان معينة واستعملت الصبغة في الآية بمعنى الإيمان بما فصلته الآية الكريمة وهي قوله تعالى قبل ذلك وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى . . الخ الآية . . وإنما أطلقت الصبغة على الإيمان بما ذكرته الآية مفصلاً ، لأن الإيمان يمزج بالقلوب امتزاج الصبغ بالمصبوغ ، وتبدو آثاره على المؤمنين كما تبدو آثار الصبغ على المصبوغ . ويقال : تصبغ فلان في الدين إذا أحسن دينه ، وتقيد بتعاليمه تقيداً تاماً .

وقوله (صبغة الله) هكذا بالنصب على أنه وارد مورد المصدر المؤكد لقولهم (آمناً) فإنه في معنى صبغنا الله بالإيمان ، وكانهم قالوا صبغنا الله بالإيمان صبغته . وإيراد المصدر تأكيداً لفعول إِبْوَافِقَهُ في المعنى وبخلافه في اللفظ معهود في الكلام البليغ .

قال القاضي : قوله تعالى : صبغة الله ، متعلق بقوله د قولوا آمناً بالله إلى قوله ونحن له مسلمون ، فوصف هذا الإيمان منهم بأنه صبغة الله ، ليبين أن المباينة بين هذا الدين الذي اختاره الله ، وبين الدين الذي اختاره المبطلون ظاهرة جلية ، كما تظهر المباينة بين الألوان والأصباغ لذي الحسب السليم ، (١) والاستفهام في قوله تعالى د ومن أحسن من الله صبغة ، الإنكار والنفي والمعنى : لا أحد أحسن من الله صبغة لأنه هو الذي يصبغ عباده بالإيمان ويطهرهم من أدران الكفر والضلال ، فهي صبغة ثابتة لا تزول لأن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب لا يرتد عنه أحد سخطة له . بخلاف ما يتلقنة أهل الكتاب عن أحبارهم ورهبانهم من الأدیان الباطلة فهو من الصبغة البشرية ، التي تجعل من الدين الواحد أدياناً مختلفة ومذاهب متنافرة . وهذا التركيب د ومن أحسن من الله صبغة ، يدل بحسب أصل الوضع اللغوي على نفي أن يكون ديناً أفضل من دين الله ، ويبقى احتمال أن يوجد دين يساويه في الحسن ، وهذا الاحتمال لم ينقه التركيب بحسب أصل الوضع وإنما كان مثل هذا التركيب صار أسلوباً يفهم منه بمعونة مقام المدح نفي مساواة دين لدين الله في الحسن ، كما يفهم منه نفي أن يكون هناك دين أحسن منه ، وأفضلية دين الله من جهة هدايته إلى الاعتقاد الحق ، والأخلاق الكريمة ، والآداب السمحة ، والعادات الصحيحة ، والسياسة الرشيدة ، والمعاملات القائمة على رعاية المصالح .

وقوله تعالى : د ونحن له عابدون ، هطف على آمناً بالله في قوله تعالى

« قولوا آمنا بالله . . . والمعنى : قل لهم يا محمد إننا نحن معاشر المسلمين نُميد الله رحمة وصيغته هي صيغتنا ولا نعبد غيره فلا نتخذ الأحبار والرهبان أرباباً يزيدون في ديننا وبنقصون ويحلون ويحرمون ويمحون من النفوس صيغة التوحيد ، ليحلوا محلها بأهوائهم صيغة الشرك والكفر .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يزيد في تذكيرهم ودحض حججهم فقال تعالى : « قل أنما جئناكم في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا وأعمالكم وأعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ، قل . أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كنتم شهادة عنده من الله ؛ وما الله بغافل عما تعملون . تلك أمة قد دخلت لها ما كسبت وأعمالكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون . »

ومعنى الآية الكريمة : قل يا محمد لاهل الكتاب الذين قالوا لك ولأصحابك « كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، وزعموا أن دينهم هو المعتر عند الله دون دينك ، قل لهم : أتجادلوننا في دين الله وهو ملة الإسلام التي بعثني بها العالمين هدى ورحمة ، وتزعمون أن الهداية فيما أنتم عليه من اليهودية والنصرانية ، وتستبعدون عليه - تعالى - أن ينزل وحيه على من ليس منكم ، بدعوى أنكم أقرب إلى الله منا ، وأنكم أبناء الله وأحباؤه ، والحال أنه - سبحانه - هو ربنا وربكم ، أى خالقنا وخالقكم ورازقنا ورازقكم ومحاسبنا ومحاسبكم على ما يصدر منا ومنكم من أعمال .

وقوله تعالى : « لنا أعمالنا وأعمالكم ، معناه : لكل منا ومنكم أعمال يترتب عليها الثواب والعقاب ، فبما أننا نتساوى معكم في أن الله ربنا وربكم فكذلك نتساوى معكم في استحقاق الجزاء على الأعمال التي نفعلها ، فانظروا إلى أعمالنا وأعمالكم تجدوا أعمالنا خيراً من أعمالكم ، لأننا نزيد عليكم الإخلاص لله في تلك الأعمال فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه يا كرامهم بالنبوة .

ف قوله تعالى وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، حجتان حيطتان لدعوى أهل الكتاب أنهم أحق لأن تكون النبوة فيهم لأن نسبة العبادة إلى الله - تعالى - واحدة هو ربهم وهم عباده ، والتفاضل في المنازل لديه إما يكون بالأعمال الصالحة والإخلاص لله فيها ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، ويختص بوحيه من يراه أهلاً لذلك ، وقد شاء - سبحانه - أن ينزل وحيه على محمد (صلى الله عليه وسلم) النبي الأمي العربي ، بدين عام خالد فيه الهداية والنور والفلاح في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ونحن له مخلصون ، بيان لسبب أحقية المسلمين بالهداية والكرامة ، والمعنى ، ونحن - يامعشر المسلمين - أربنا موحدون ، فخلص له العبادة والعمل ، ولا نشرك معه آلهة أخرى ، أما أنتم فقد أشركتم وضلتم فقال بعضكم د عزيز ابن عبد الله ، وقال بعضكم د المسيح ابن الله ، فنحن أهدي منكم سبيلاً ، وأقوم قبلاً .

ولم يصف المسلمون أعمالهم بالحسن ، ولا أعمال المخاطبين بالسوء تجنباً لتفوق المخاطبين من سماع خطابهم ، بل أوردوا كلامهم مورد قوله تعالى د لكم دينكم ولى دين ، كما أنهم لم يقولوا : ونحن مخلصون وأنتم مخلصون ، بل اقتصروا على نسبة الإخلاص لأنفسهم ، وفي ذلك تعريض لطيف بأن المخاطبين غير مخلصين لله ، فإن إخبار الإنسان بأشعرا كه مع جماعة في أمر أو أمور ، وإفراد نفسه بعد ذلك بأمر ، يومى إلى أن هذا الأمر الذى أثبتته لنفسه خاصة معدوم فى أولئك الجماعة .

فمعنى الجملة : ونحن له مخلصون فى أعمالنا لله وحده ، ولم نخلفها بشيء من الشرك كما فعل غيرنا .

وبعد أن أبطل القرآن الكريم حاجة أهل الكتاب فى دين الله بغير حق وأنكر عليهم ذلك ، عقبه بإبطال دعواهم أن أسلافهم من الأنبياء كانوا هودا أو نصارى فقال تعالى : د أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل هودا وإسماعيل وبنو إسرائيل كانوا هودا أو نصارى ، قل أنتم أعلم أم الله ،

ومن أظلم من كنتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون .
 وقوله تعالى : أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط
 حرف د أم ، فيه معادل للهمزة في قوله تعالى في الآية السابقة : أتجاجوننا
 في الله ، على أحد الوجوه بمعنى أي الأمرين تأتون ؟ الحاجة في حكمة الله
 أم ادعاء اليهودية والنصرانية على الأنبياء المذكورين في هذه الآية . والمراد
 من الاستفهام عنهما إنكارهما معاً ، إنكار حججهما في دين الله ، وإنكار
 قولهم إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا
 أو نصارى .

فكانه - سبحانه - يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم ، قل لهم : لا تجادلوننا
 في دين الله بغير حق ، ولا تقولوا إن الأنبياء كانوا على دينكم ، فإن
 يجادلنكم وأقوالكم من قبيل المزاعم الباطلة التي لا سند لها من عقل أو نقل .
 وقوله تعالى : قل أنتم أعلم أم الله ، معناه قل لهم يا محمد إن زعموا
 أن الأنبياء المذكورين في الآية كانوا هودا أو نصارى إن ما زعمتوه من أن
 إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا أو نصارى هو على خلاف
 ما يعلمه الله ، لأنه - سبحانه - قد أخبرنا بأنهم كانوا مسلمين مهتدين عن اليهودية
 والنصرانية ، وأن يعقوب - عليه السلام - عندما حضرته الوفاة أوصى بنبيه
 بأن يتقوا على الإسلام ، وأن التوراة والإنجيل ما أنزلا لإلما من بعد أولئك
 الأنبياء جميعاً ، هكذا أخبرنا الله (١) فهل أنتم أعلم بديانتهم أم الله ؟
 ولا شك أنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم ، وإنما سيقولون الله أعلم .

(١) والآيات تشهد بذلك منها قوله : ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب
 يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتون إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم
 شهداء إذ حضر يعقوب الموت . إلى قوله تعالى ونحن له مسلمون ، ومنها
 قوله تعالى : يا أهل الكتاب لم تجازون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل
 إلا من بعده أفلا تعقلون .

إذا لزمهم هذا القول : قلنا لهم إذا فدعواكم لا أساس لها من الصحة وبذلك تكون الجملة الكريمة قد قطعت حججهم بأجمع بيان وأحكامه .
وقوله تعالى « ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، معناه لا أحق أشد ظلاماً ممن يكتم شهادة ثبتت عنده عن الله ، تخبر بأن هؤلاء الأنبياء كانوا على الإسلام ولم يكونوا هوداً أو نصارى .

قال فضيلة أستاذنا السيد محمد الخضر حسين - رحمه الله - ما ملخصه
« ولما أنزل قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدهونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث . . . » إلى آخر الآية الكريمة ، كان من أهل الكتاب من آمن به وأخبر بما في كتبهم من ذكره بصفتنا وعلاماته ، وكان منهم من لا ينكر أن يكون قد ذكر في الكتابين . وإنه يكابر ويقول : المقصود نبي لم يأت بعد وقد تصدى لجمع هذه البشائر من كتابي التوراة والإنجيل طائفة من أهل البحث والعلم في القديم والحديث ، وبينوا وجه انطباقها على حال النبي (صلى الله عليه وسلم) بحيث لا تأخذ الناظر الطالب للحق ريباً في أنه الرسول الذي بشرت الأنبياء بمبعثه وعموم رسالته ، ومن هذه البشائر ما جاء في سفر التثنية من التوراة (أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به) .

والنبي المماثل لموسى - عليه السلام - في الرسالة والشريعة المستأنفة هو النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) وإخوة بني إسرائيل هم العرب ، لأنهما يجتمعان في إبراهيم - عليه السلام - وقوله وأجعل كلامي في فمه ، يوافق حال النبي (صلى الله عليه وسلم) من الإمية وعدم تعاطي الكتابة ، (١) .
ثم ختمت الآية بالوعيد الشديد لهم على مزاعمهم الباطلة ، فقال تعالى :
(وما الله بغافل عما تعملون) .

الغفلة : السهو والنسيان ، والمراد أنه - سبحانه - يحيط بأعمال هؤلاء الذين كتبوا الحق ، لا تخفى عليه منها خافية ، وسيحاسبهم عليها حساباً عسيراً ، ويعاقبهم على مزاعمهم للباطلة عقاباً أليماً ، فالجمله الكريمة تهديد ووعيد لأهل الكتاب .

ثم حذر الله - تعالى - أهل الكتاب - في ختام الآيات - من التهادي في الكفر والمعصية ، إنكلا على انتسابهم لأبائهم كانوا من الأنبياء أو من الصالحين ، فقال تعالى : (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون)

(تلك) إشارة إلى أمة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط و (الأمة) المراد بها هنا الجماعة من الناس الذين يجمعهم أمر واحد وهو هنا الدين (قد خلت) أي مضت وانقرضت .

ومعنى الآية الكريمة : قل يا محمد لأهل الكتاب الذين زعموا أن الهداية في ملتهم وإن إبراهيم وآله كانوا هوداً أو نصارى ، قل لهم : إن إبراهيم وآله يمثلون أمة قد مضت لسبيلها ، لها عند الله ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر ولا ينفعها غير صالح أعمالها ، ولا يضرها سوى سيئتها ، وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين تفتخرون بهم ، فمن الأولى أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لكم ، فعليكم أن تسلكوا طريق الإيمان والعمل الصالح وأن تتركوا الاتكال على فضائل الآباء والأجداد فإن كل نفس يوم القيامة ستسأل عن أعمالها دون أعمال غيرها ، كما بين ذلك قوله تعالى (كل امرئ بما كسب رهين) .

فالمراد الأول الذي ترمى إليه الآية الكريمة ، هو تحذير المخاطبين من تركهم الإيمان والطاعة ، اعتماداً منهم على انتسابهم لأبائهم كانوا أنبياء أو صالحين ، فإن هذا الاعتماد إنما هو نوع من الأمان الكاذبة والافتكار الفاسدة ، وقد جاء في الحديث الشريف (من أبتأ به عمله لم يسرع به نسبه) و كان الآية تقول لأهل الكتاب في تأكيد : إن أمامكم ديناً ذهبت إلى

لإتباعه ، واقترنت دعوته بالحجة فانظروا في دلائل صحته ، وسمو حكمته ، ولا تردوه بمجرد أن الأنبياء كانوا على ما أنتم عليه الآن ، فإن دعواكم هذه لا تنفعكم ولو في حال تسليمها لكم ، إذ لا يمنع اختلاف الشرائع باختلاف المصالح ، وعلى حسب ما تقتضيه حكمة عالم الغيب والشهادة .
 وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد دحضت ما ادعاه اليهود من أن الهدى في إتباع ملتهم ، وأقامت الحجج والشواهد على كذبهم واقترابهم وأرشدتهم إلى الدين الحق ، ودعتهم إلى الدخول فيه ، وبمحتهم على الحاجة في دين الله بغير علم ، وحذرتهم من الانحراف عن الصراط المستقيم اعتماداً منهم على آباء لهم كانوا أنبياء أو صالحين ، فإنه لن تجزى نفس عن نفس شيئاً يوم الدين .

ثم تحدث القرآن الكريم بعد ذلك عن قصة تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، وأورد التشبهات التي أثارها المشركون وأهل الكتاب - وعلى رأسهم اليهود - حول هذه المسألة ، ورد عليها بما يدحضها ويبطلها .

ونظراً لأهمية هذا الموضوع فسيكون كلامنا عنه على النحو التالي :
 أولاً : كيف كان المسلمون يتجهون في صلاتهم قبل تحويل القبلة إلى المسجد الحرام ؟

ثانياً : ما التشبهات التي أثارها اليهود بعد تحويل القبلة إلى المسجد الحرام ؟

ثالثاً : كيف مهد القرآن الكريم لهذا التحويل ؟

رابعاً : تفسير الآيات الكريمة التي نزلت بشأن القبلة ؟

خامساً : لماذا أطال القرآن الكريم حديثه عن تحويل القبلة مع أنها

من الأمور الفرعية .

وإليك الإجابة عن كل سؤال من هذه الأسئلة .

أولاً : فرضت الصلاة على النبي (صلى الله عليه وسلم) في مكة ليلة

الإسراء والمعراج . ويرى بعض العلماء أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان

يستقبل في صلاته وهو بمكة بيت المقدس إلا أنه لم يكن يستدبر الكعبة ، بل كان يجعلها بينه وبين بيت المقدس ، وذلك بأن يقف بين الركنين الأسود واليماني .

ويرى بعضهم أنه كان يستقبل في صلاته وهو بمكة المسجد الحرام . وهذا الرأي هو الذي نرجحه ، لأن المسجد الحرام هو قبلة أبيه إبراهيم ، ولأنه (صلى الله عليه وسلم) عربي ، وظهر بين قومه العرب ، ولا شك أن اعتزازهم بالمسجد الحرام ، أشد من اعتزازهم بأى مسجد آخر ، إذن فالمصلحة والحكمة تقضيان بأن يستقبل المسلمون في صلاتهم بمكة الكعبة المشرفة .

ومهما يكن من خلاف بين العلماء في الجهة التي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يستقبلها في صلاته وهو بمكة ، فإن الأمر الذي لا خلاف فيه ، أنه بعد الهجرة إلى المدينة لم يستقبل في صلاته سوى بيت المقدس بأمر من الله تعالى . وقد وردت أحاديث صحيحة في ذلك ، منها ما أخرجه البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها العصر وصلى معه قوم فخرج رجل من كان معه فرعى أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي (صلى الله عليه وسلم) جهة بمكة فداروا كما هم قبل البيت وكان اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قبل بيت المقدس فلما ولي وجهه قبل البيت أذكروا ذلك وجهه (١) .

ومنها ما أخرجه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : بينما الناس بقاء في صلاة الصبح ، إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة (٢) .

(١) البخاري ، باب الصلاة من الإيمان ، من كتاب الإيمان ج ١ ص ١٧

(٢) البخاري ، باب « ما جاء في القبلة » ، من كتاب الصلاة ج ١ ص ١٠٦

وبذلك نرى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتوجه في صلاته وهو بالمدينة إلى بيت المقدس ، قبل أن يأمره الله - تعالى - بالتحول إلى المسجد الحرام .

ثانياً : الشهات التي أثارها اليهود بعد تحول المسلمين في صلاتهم إلى المسجد الحرام .

فلما إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد هجرته إلى المدينة استقبل في صلاته ببيت المقدس بأمر من الله - تعالى - تأليفاً لقلوب اليهود لأن بيت المقدس قبلتهم ، ورمز وحدتهم ، وقد فرحوا لصلاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين إليه ، وكان أمل النبي أن يلبوا دعوته وأن يسارعوا إلى الدخول في الإسلام ، ولكنهم عموا وضموا ، وأخذوا يشيعون بين الناس أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد اتبع قبلتهم وعمما قريب سيتبع ملتهم واعتبروا اتجاه المسلمين في صلاتهم إلى بيت المقدس نوعاً من اقتباس الهدى منهم ، فتأثر الرسول (صلى الله عليه وسلم) من موقفهم الجحودي وانبثقت في نفسه أمنية التحول إلى الكعبة ، وأكثرت من التضرع والابتها إلى الله كي يوجهه إلى قبلة أبيه إبراهيم .

وقد أجاب الله تعالى رجاء نبيه (ص) فولاه القبلة التي يرضاها ، ففر المؤمنون لذلك لأن في توجيههم إلى البيت الحرام ، تأليفاً لقلوبهم ، فمسابتهم ومركز تجمعهم ، وموطن أممهم ومهوى أفئدتهم ، وجامع وحد وقد استقبلوا هذا التحويل بالسمع والطاعة لله ولرسوله (صلى الله عليه وسلم) أما اليهود ومن على شاكلتهم من في قلوبهم مرض ، فقد استقبلوه بالاستهزاء والجحود ، وإثارة الشهات ، لبلبلة الأفكار ، وتشكيك المسلمين في عقيدتهم .

وما قاله المشركون في ذلك : إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) تحير في دينه ، ويوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا .

وما قاله المنافقون : ما بال المسلمين كانوا على قبلة ثم تركوها ؟ وما قاله اليهود - الذين تولوا كبر التشكيك في صحة التوجه إلى البيت

الحرام - إن القبلة الأولى - وهى بيت المقدس - إن كانت على حق فقد تركتم أيها المسلمون الحق وإن كانت على باطل فعبادتكم السابقة باطلة ، ولو كان محمد (صلى الله عليه وسلم) نبياً حقاً ما ترك قبلة الأنبياء قبله ونحول إلى غيرها وما فعل اليوم شيئاً وخالفه غداً .

ومقصدهم الأول من وراء هذه المغالطة المرذلة ، الطعن فى شريعة الإسلام ، وفى نبوة النبي (عليه الصلاة والسلام) .

ثالثاً : ولكن القرآن الكريم أفسد عليهم خطبتهم ، وأحبط مكرهم ، فأخبر الله - تعالى - ببيته (صلى الله عليه وسلم) بما سيقوله هؤلاء السفهاء جميعاً قبل أن يصدر عنهم ، ومهد لتحويل القبلة بما يطمئن النفوس ويثبت الإيمان فى القلوب ويهيئ الأفتدة لتقبل هذا الأمر العظيم ، فذكر الله فى الآيات السابقة على التحويل أنه إذا نسخ آية أتى بما هو خير منها أو مثلها ، لأن القادر على كل شيء ، المالك للسموات والأرض تصرفاً وتديراً ، أعلم بما يتجدد به عباده وما فيه الخير لهم .

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أن له المشرق والمغرب . ففى أى مكان توجه المصلى فتم وجه الله ، ثم نبه - رسوله (صلى الله عليه وسلم) بأنه لن يرضى عنه اليهود ولا النصارى حتى يتبع ملتهم . لإشارة إلى أن المصلحة فى التوجه إلى بيت المقدس قد انتهت وأن الاستمرار على ذلك لن يكبح جماح نفوس لم تصيغ بهداية الله وتوفيقه .

ثم فصل القرآن بعد ذلك الحديث عن البيت الحرام وتعظيمه وشرفه فذكر أن الله - تعالى - قد جعله مثابة ومرجعاً للحجاج والعمار . يتفرقون عنه ثم يشوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار وكلما ازدادوا له زيارة زاد شوقهم إليه . وجعله - أيضاً - حرماً آمناً لهم . بينما يتخطف الناس من حولهم .

وأخبر - سبحانه - أنه قد عهد فى بنائه إلى نبيين كريمين هما سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - وأمرهما بتطهيره

من كل رجس للطائفين والقائمين والركع السجود .
 وقد كانت الآيات الواردة في شأن المسجد الحرام قبيل الأمر بتحويل القبلة
 كقيلة بإعطاء صورة واقية لكل عاقل ، بأن بيتاً له هذه القداسة جدير بأن
 يكون قبلة للناس في صلاتهم ، ولكن اليهود ومن في قلوبهم مرض ، لم يكن
 لإعراضهم عن الحق لشبهة في نفوسهم ينقصها الدليل ، وإنما كان لإعراضهم
 مرجعه العناد والمكابرة ، وكلاهما يعنى ويصم ، فلا غرابة أن نطقوا
 كفرأ ، ولا كت أسنتهم قبلاً وسفهاً .

إلا أن ما قالوه من شبهات حول تحويل القبلة ، لم يجد آذاناً صاغية من
 المؤمنين ، لأن الله - تعالى - قد مهد للنحويل - كما قلنا - بما يطمئن النفوس
 وأقن نبيه (صلى الله عليه وسلم) الجواب على شبهاتهم قبل أن ينطقوا بها ليكون
 ذلك أقطع لحجتهم ، كما قالوا في الأمثال : (قبل الرمي يرش السهم) .
 رابعاً : تفسير الآيات الكريمة التي نزلت في شأن تحويل القبلة إلى
 المسجد الحرام .

لقد أزل الله - تعالى - آيات كريمة من سورة البقرة في شأن صرف
 القبلة إلى البيت الحرام ، لقن المؤمنين الإجابة على معارضة اليهود
 وغيرهم ، ونوه فيها بشأن الأمة الإسلامية ، وبشرها بإجابة رجاء نبيها (صلى
 الله عليه وسلم) إذ ولاه القبلة التي يرضاها ، وأراحه من التطلع إلى اعتداء
 اليهود وغيرهم من الجاحدين . ولو جاءهم بكل آية ، لأن إعراضهم عن
 دعوته ليس عن شبهة يزيلها الدليل ، ولا كتته لإعراض سببه الجحود
 والحقد ، والجاحد والحاقد لا ينفع معهما دليل أو برهان .

وقد كرر القرآن الكريم الأمر بالتوجه إلى الكعبة ثلاث مرات في ثلاث
 آيات ، وعلق بكل أمر فائدة جديدة تناسبه ، لأن أهمية هذه الحوادث تستلزم
 تكراراً في الخطاب ليرسخ في النفوس ، ويستقر في المشاعر والقلوب .
 هذا ، وبعد تلك المقدمة الموجزة لما اشتملت عليه آيات تحويل القبلة
 من مقاصد ، نحب أن نتعرض لتفسيرها بالتفصيل ، فنقول قال الله تعالى :-

هذه الآيات من ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْتُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ
 لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾
 وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ
 الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ
 مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا
 عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
 لَمَرُؤٌ وَفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ زَرَى تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ
 قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ
 فَوَلُّوْا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ
 مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

تضمنت هذه الآيات الكريمة إعلام النبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين
 أن فريقاً من الناس الذين خفت أحلامهم وضعفت عقولهم وعدلوا عما
 ينفعهم إلى ما يضرهم ، سيقولون على سبيل الإنكار عند تحويل القبلة إلى
 المسجد الحرام ، ما صرفهم عن القبلة التي كانوا عليها ، وهي بيت المقدس .
 قال صاحب الكشاف : د فإن قلت ، أي فائدة في الإخبار بقولهم
 قبل وقوعه ؟ قلت : فائدته أن مفاجأة المكروه أشد ، والعلم به قبل وقوعه
 أبعد من الاضطراب إذا وقع ، لما يتقدمه من توطين النفس ، وأن الجواب
 للتعبد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم وأرد أشغبه ، (١) .

والمراد بالسفهاء اليهود الذين استنكروا تحويل القبلة ، ومن اف
ظفهم من المنافقين ومشركي العرب .

ولما سهاهم الله - تعالى - سفهاء لأنهم سفهوا الحق ، وجحدوه ،
وانكروا نبوة النبي (صلى الله عليه وسلم) . مع علمهم بصدقه في رسالته
وقد صرح البخارى - رحمه الله - بأن المراد بالسفهاء هم اليهود ، فقد
روى عن البراء بن عازب قال :

كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحب أن يتوجه إلى الكعبة ، فأقول
الله - تعالى - قد نرى قلب وجهدك في السماء . فتوجه نحو الكعبة ،
وقال السفهاء من الناس - وهم اليهود - ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها .
ثم لقن الله - تعالى - نبيه (صلى الله عليه وسلم) الجواب الذي يخبر
به السنة المعترضين من اليهود وغيرهم ، فقال تعالى : **د قُلْ لَّهِ الْمَشْرِقُ**
وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . .

أى قل لهم - يا محمد - إذا اعترضوا على التحويل : إن الامكنة كلها
سواء كآ وتصرفاً وهي بالنسبة إليه متساوية ، وله أن يخص بعضها بحكم دون
بعض ، فإذا أمرنا باستقبال جهة في الصلاة فلحكمة اقتضت الأمر وما على
الناس إلا أن يمتثلوا أمره ، والمؤمنون ما اتخذوا الكعبة قبلة لهم إلا امتثالاً
لأمر ربهم ، لا ترجيحاً لبعض الجهات من تلقاء أنفسهم فالله هو الذى يهدى
من يشاء هدايته ، إلى السبيل الحق ، فيوجهه إلى بيت المقدس مدة حيث
اقتضت حكمته ذلك ، ثم إلى الكعبة ، حيث يعلم المصلحة فيما أمر به .

- ثم وصف الله - تعالى - الأمة الإسلامية ، بأنها أمة خيرة عادلة
منزلة بالعلم والعمل فقال تعالى : **د وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا**
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . .

والمعنى : ومثل ما جعلنا قبلكم - أيها المسلمون - وسطاً لأنها البيت
الحرام الذى هو المثابة للناس ، والأمن لهم ، جعلناكم - أيضاً - (أمة
وسطاً) أى : خياراً عدولاً بين الأمم ليتحقق التناسب بينكم وبين القبلة
(م - ٢٥ البقرة) .

التي تتوجهون إليها في صلواتكم ، وتشهدوا على الأمم السابقة بأرسل
أنبياءهم قد بلغوهم الرسالة ، ونصحوهم بما ينفعهم ، وانسكى يشهد الرسول
(صلى الله عليه وسلم) عليكم بأنكم صدقتموه وآمنتم به .

أخرج البخارى عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدعى نوح يوم القيامة فيقول : ابيك وسعيد
يارب ، فيقال له : هل بلغت ما أرسلت به ؟ فيقول نعم ، فيقال لأمته
هل بلغتكم . فيقول : ما أتانا من نذير ، فيقال له : من يشهد لك . فيقول
محمد وأمته . فيشهدون أنه قد بلغ ، فذلك قوله - جل ذكره - (وكذلك
جعلناكم أمة وسطا لئلا تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً)
ثم بين الله - تعالى - الحكمة في تحويل القبلة إلى الكعبة فقال تعالى :
« وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن
ينقلب على عقبيه » .

أى وما شرعنا التوجه إلى القبلة التي كنت عليها قبل وقتك هذا وهى
بيت المقدس ، إلا لنعامل الناس معاملة الممتحن المختبر ، فنعلم من يتبع
الرسول ويأتمر بأوامره فى كل حال ممن لم يدخل الدين فى قرارة نفسه ،
ولأنما دخل فيه على حرف ، بحيث يرتد عنه لأقل شبهة ، وأدنى ملاسبة
كما حصل ذلك من ضعاف الإيمان عند تحويل القبلة إلى الكعبة والله
- تعالى - عالم بكل شئ ، وانسكته شاء أن يكون معلومه الغيبى مشاهداً فى
العيان ، إذ تعلق الشئ واقعاً فى العيان ، هو الذى تقوم عليه الحجة ،
ويترب عليه الثواب والعقاب .

ولذا قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قال لنعلم ولم يزل عالماً
بذلك ؟ قلت : معناه لنعله علماً يتعلق به الجزاء ، وهو أن يعلمه وجوداً
حاصلاً ، ونحوه ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ، وقيل
(١) صحيح البخارى ، باب : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاء » من كتاب-

ليعلم رسول الله والمؤمنون ، وإنما أسند علمهم إلى ذاته ، لأنهم خواصه وأهل الزلفى عنده ، وقيل معناه . ليميز التابع من الناكص كما قال - تعالى -
 « ليميز الله الخبيث من الطيب ، فوضع العلم موضع التمييز ؛ لأن العلم به يقع التمييز به » (١) .

ثم بين الله - تعالى - آثار تحويل القبلة في نفوس المؤمنين وغيرهم فقال
 تعالى : « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ، . . . »

أى : إنما شرعنا لك - يا محمد - القبلة أولاً إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك في كل حالة عن لا يعطيك ، وإن كانت هذه الفعلة - وهى تحويلنا لك من بيت المقدس إلى الكعبة - لكبيرة وشاقة ، إلا على الذين خلق الله الهداية في قلوبهم فتلقوا أوامرنا بالخضوع والإذعان ، وقالوا سمعنا وأطعنا كل من عند ربنا .

وقوله - تعالى - « وما كان الله ليضيع إيمانكم . . . »
 بشارة عظيمة للمؤمنين ، وجواب لما جاشت به الصدور ، وتكذيب لما ادعاه اليهود من أن عباده المؤمنين في الفترة التى سبقت تحويل القبلة إلى الكعبة ضائعة وباطلة .

فقد أخرج البخارى من حديث البراء بن عازب - رضى الله عنه -
 (أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا ، فلم ندر ما نقول فيهم ،
 فأنزل الله - تعالى - « وما كان الله ليضيع إيمانكم » .

وقال ابن عباس : « كان رجال من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد ماتوا على القبلة الأولى ، منهم : أسعد بن زرارة ، وأبو أمامة . . .
 وأناس آخرون فجماعت عشائرهم فقالوا : يا رسول الله : مات إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى وقد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم ، فكيف بإخواننا ، فأنزل الله - تعالى - « وما كان الله ليضيع إيمانكم » .

وروى أن حبي بن أخطب وجماعة من اليهودية قالوا للمسلمين : أخبرونا

عن صلاتكم إلى بيت المقدس إن كانت على هدى لقد تحولتم عنه ، و كانت على ضلالة فقد عبدتم الله بهامدة ، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة فقال المسلمون إنما الهدى فيما أمر الله - تعالى - والضلالة فيما نهى الله : فقالوا : فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا ؟ - وكان قد ما من المسلمين جماعة قبل تحويل القبلة - فانطلق عشائرهم إلى الفي (م الله عليه وسلم) فقالوا : يا رسول الله : كيف بإخواننا الذين ماتوا ، و يصلون إلى بيت المقدس ؟ فأنزله الله تعالى : وما كان الله ليضل إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم .

والمعنى - وما كان الله - تعالى - ليذهب صلاتكم وأعمال الصالحة التي قتم بها خلال توجهكم إلى بيت المقدس ، لأنه - سبحانه بعباده رؤوف رحيم ولا يضيع أجر من أحسن عملاً .

ثم خاطب الله - تعالى - نبيه (صلى الله عليه وسلم) ووعد به القبلة التي سيؤمر بالتوجه إليها هي التي يحرص عليها ويرغب فيها .

قال الإمام ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة قال ابن عباس : (ك أول ما نسخ في القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله تعالى أن يستقبل به المقدس ففرحت اليهود فاستقبله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بضعة عا شهراً ، وكان يحب قبلة أبيه إبراهيم ، فكان يدعو الله ، وينظر إلى السماء فأزل الله - تعالى - وقد رى قلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضا فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ،) والمعنى : قد شاهدنا - يا محمد - وعلينا تردد وجهك ، وتسريح نظر إلى السماء ، تطلعا إلى نزول الوحي عليك ، وتوقفاً لما ألقى في روعك تحويل القبلة إلى الكعبة سعياً منك وراه استئالة العرب إلى الدخول

أحضان الإسلام ، ومخالفة اليهود الذين كانوا يقولون : إنه يخالفنا في ديننا
ويقع قبلتنا ، وها نحن قد أجبناك إلى ما طلبت وأعطيتناك ما سألت ،
ووجهناك إلى قبلة تحبها وتميل إليها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ،
أى : فاصرف وجهك وحوله نحو المسجد الحرام ووجهته .
ثم عمم القرآن الكريم هذا التشريع على الأمة الإسلامية جميعها .
فقال تعالى :

« وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) .

أى : وحيثما كنتم وأينما وجدتم في بر أو بحر فولوا وجوهكم تلقاء
المسجد الحرام ونحوه . وقد جاءت هذه الجملة موجهة إلى الأمة قاطبة لدفع
توهم أن يكون الخطاب في الأول خاصاً بالنبي (صلى الله عليه وسلم) ولأنه
لما كان تحويل القبلة أمراً له خطره ، خصصهم بخطاب مفرد ليكون ذلك أكد
وأبلغ .

فالآية الكريمة فيها أمر لكل مسلم أن يجعل الكعبة قبلة له ، فيتوجه
بصدره إلى ناحيتها ووجهتها حال تأديته الصلاة لربه ، سواء أكان المصلي
بالمدينة أم بمكة أو بغيرهما .

وفي ذكر المسجد الحرام دون الكعبة ، ما يؤذن بكفالة مراعاة جهتها
ولذلك لم يقع خلاف بين العلماء في أن الكعبة قبلة كل أمة . وأن من عاينها
فرض عليها استقبالها ومن غاب عنها فعليه أن يستقبل جهتها . فإن خفيت
عليه تحرى جهتها ما استطاع .

وقد سبقنا في مطلع هذا البحث بعض الأحاديث الصحيحة التي صرحت
بأن الصحابة عند ما بلغهم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد أمر بالتحويل
إلى الكعبة استداروا إليها وهم في صلاتهم فجعلوها قباتهم .

ومما يشهد بقوة إيمانهم وعظيم امتثالهم لشرع الله ما جاء عن نويلة
يفت مسلم أنها قالت .

«صلينا الظهر - أو العصر - في مسجد بنى حارثة ، فاستقبلنا مسجد إيلياء - أي بيت المقدس - فصلينا ركعتين ، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال . والرجال مكان النساء . فصلينا السجدة الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام . فحدثني رجل من بنى حارثة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : « أولئك رجال يؤمنون بالغيب ، (١) » .

ثم بينت الآية السكرية أن أهل الكتاب يعلمون أن التحويل إلى الكعبة هو الحق الذي لا ريب فيه فقال تعالى : « وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون » .

أي : وإن اليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة ، وانصرواكم عن بيت المقدس ، ليعلمون أن استقبالكم الكعبة حق ؛ لأن الذي أخبر به قد قامت الآيات البيّنات عندهم على أنه رسول من عند الله ، أو أنه يصلى إلى القبلتين ، وما وقفوا من تحويل القبلة هذا الموقف إلا لعنادهم ، وما الله بغافل عن أعمالكم بل هو محيط بها وسيحاسبهم عليها يوم القيامة حساباً عسيراً .

— ثم أخبر الله — تعالى — عن كفر اليهود وعنادهم ، وأنهم لن يتبعوا الحق ولو جاءهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بكل آية . فقال تعالى :

وَلَئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا
 بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ
 مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
 الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ
 الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾
 وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ
 بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ
 فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا
 اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ
 الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ
 لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي
 وَالْأَيْمُ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

والمعنى : ولئن جنت - يا محمد - اليهود من على طريقتهن في الكفر بكل

برهان وحجة ، بأن الحق هو ما جئتم به ، من فرض التحول من قبلة

[بيت المقدس في الصلاة إلى قبلة المسجد الحرام ، ما صدقوا به ، لأن تركهم

إتباعك ليس عن شبهة يزولها الدليل ، وإنما هو عن مكابرة وعناد مع علمهم بما في كتبهم من أنك على الحق المبين .

وما أنت - يا محمد - بتابع قبلتهم ، لأنك على الهدى وهم على الضلال وفي هذه الجملة الكريمة حسم لأطماعهم ، وتقرير لحقية القبلة إلى الكعبة ، بعد أن أشاعوا بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) لو ثبت على قبلتهم لكانوا يرجون أنه النبي المنتظر ، فقطع القرآن الكريم آمالهم في رجوع النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى قبلتهم ، وأخبر بأنه ليس بتابع لها .

ثم ذكر القرآن الكريم اختلاف أهل الكتاب في القبلة ، وأن كل طائفة منهم لا تنع قبلة الطائفة الأخرى فقال تعالى : **وما بعضهم يتابع قبلة بعضهم ، أرى : ما اليهود يتبعين قبلة النصارى ولا النصارى يتبعين قبلة اليهود ، فهم مع اتفاقهم على مخالفتك ، مختلفون في باطلهم وذلك لأن اليهود تستقبل بيت المقدس ، والنصارى تستقبل مطلع الشمس .**

ثم ساق القرآن الكريم بعد ذلك تحذيراً للأمة كلها من إتباع أهل الكتاب ، وجاء هذا التحذير في شخص النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال تعالى : **ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك لإذن الظالمين ، أرى : لئن اتبعت - يا محمد - قبلتهم - على سبيل الفرض ، والتقدير من بعد وضوح البرهان وإعلامي إياك بإقامتهم على الباطل ، إنك لإذن لمن الظالمين لأنفسهم ، المخالفين لأمرى .**

فآية الكريمة : **وعيد وتحذير للأمة الإسلامية من إتباع آراء اليهود المنبثقة عن الهوى والشهوة ، وسبق الوعيد والتحذير في صورة الخطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي لا يتوقع منه أن يتبع أهواء أهل الكتاب ، تأكيداً للوعيد والتحذير ، فكأنه يقول :**

لو اتبع أهواءهم أفضل الخليفة ، وأعلامهم منزلة عندي ، لجازيته - مجازاة الظالمين ، وأحق بهذه المجازاة وأولى من كانوا دونه في الفضل وعلو المنزلة إن اتبعوا أهواء المبطلين وهم اليهود ومن كان على شاكلتهم من المشركين -

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : كيف قال وما أنت بتابع قبلتهم .
ولهم قبلتان ، لليهود قبلة وللنصارى قبلة ؟ »

قلت : كلتا القبلتين باطلة ، مخالفة لقبلة الحق ، فكانتا بحكم الاتحاد
في البطلان قبلة واحدة ، (١) .

— ثم بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب يعرفون صدق الرسول
(صلى الله عليه وسلم) معرفة لا يخالطها شك فقال تعالى : « الذين آتيناهم
الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، »

أى : أن أخبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون صدق رسالة النبي (صلى
الله عليه وسلم) ويعرفون أن توجهه إلى البيت الحرام حق ، كما يعرفون
أبناءهم ، فهو تشبيه للمعرفة العقلية الحاصلة من مطالعة الكتب السماوية ،
بالمعرفة الحسية في أن كلا منها يقين لا اشتباه فيه .

قال الإمام ابن كثير : « يخبر الله أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة
ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب
كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا كما جاء في الحديث أن رسول الله
(صلى الله عليه وسلم) قال لرجل معه صبي صغير « إيتك هذا ، ؟ قال نعم
يا رسول الله أشهد به ، قال : « أما إنه لا يخفى عليك ولا تخفى عليه ، ويروى
عن عمر أنه قال « لعبد الله بن سلام ، أتعرف محمداً (صلى الله عليه وسلم) »
كما تعرف ولدك . قال نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في
الأرض بنعته ، وإني لا أدري ما كان من أم ولدى ، فقبل عمر - رضی
الله عنه - رأسه ، (٢) .

أى : وإن طائفة من أهل الكتاب مع ذلك التحقيق والإيقان العلمي
من أنك على حق في كل شئونك ليتمادون في إخفائه وجوده ، وهم
يعلمون ما يترتب على ذلك الكتمان من سوء المصير لهم في الدنيا والآخرة

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٩

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٤

— ثم ثبت الله تعالى نبيه (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين ، فأخبرهم بأن ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو الحق الذي لا شك فيه .

أى : اعلم - يا محمد - أن ما أوحى إليك وأمرت به من التوجه إلى المسجد الحرام . هو الحق الذي جاءك من ربك ، وإن ما يقوله اليهود وغيرهم من المشركين هو الباطل الذي لا شك فيه ، فلا تكونن من الشاكين في كتمانهم الحق مع علمهم به ، أو في الحق الذي جاءك من ربك وهو ما أنت عليه في جميع أحوالك ومن بينها التوجه إلى المسجد الحرام .

والشك غير متوقع من الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولذلك قال المفسرون إن النهى موجه إلى الأمة في شخص نبيها ، صلى الله عليه وسلم ، إذ كان فيها حديث عهد بكفر يخشى عليهم أن يفتنوا بزخرف من القول يروج به أهل الكتاب شياً متعلقاً بأذهان من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم . وقد وضح ابن جرير - رحمه الله - هذا المعنى بقوله :

فإن قال لنا قائل : « أو كان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، شاكاً في أن الحق من ربه أو في أن القبلة التي وجهه الله إليها حق من الله - تعالى - حتى نهي عن شك في ذلك فقيل له : « فلا تكونن من الممترين » . قيل : ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به ، والمراد به غيره كما قال جل ثناؤه : « يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين » ثم قال : « واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعلمون خبيراً » فخرج الكلام مخرج الأمر للنبي (صلى الله عليه وسلم) والنهي له . والمراد به أصحابه المؤمنون به (١) .

— ثم قال تعالى : (ولاكل وجهه هو موليا فاستبقوا الخيرات) .
أى : ولاكل أهل ملة قبله يتجهون إليها في عباداتهم ، فسارعوا أنتم

جهدكم إلى ما اختاره الله لكم من الأعمال التي تنكسبكم سعادة الدارين ،
والتي من جملتها التوجه إلى البيت الحرام .

ثم ساق الله - تعالى - وعداً لمن يطيع أمره ، ووعداً لمن ينصرف
عن الخير . فقال - تعالى - : « أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً .
أى : في أى بقعة يدرككم الأجل ، وتموتون فيها ، يجمعكم الله -
تعالى - يوم القيامة . لتقفوا بين يديه للحساب ، لأنه - سبحانه - قادر
على جمعكم بعد مما أنتم من قبوركم حيث كنتم ، وإن تفرقت أجسادكم
وأبدانكم ، كما أنه - سبحانه - قدير على كل شيء ، وما دام الأمر كذلك ،
فبادروا بالأعمال الصالحة شكراً لربكم ، وحافظوا على قبائلكم ، حتى
لا تضلوا كما ضل اليهود ومن على طريقتهم في الكفر والعناد .

ثم أكد - سبحانه - حكم التحويل ، وبين عدم تفاوت الأمر
بإستقبال المسجد الحرام في حالتى السفر أو الحضر . فقال - تعالى - ومن
حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام . . .

أى : ومن أى موضع خرجت وإلى أى مكان آخر سرت ، فول -
يا محمد - وجهك عند صلاتك إلى المسجد الحرام ، وإن هذا التوجه
شطره هو الحق الذى لا شك فيه عند ربك ، فحافظوا على ذلك أيها المؤمنون
وأطيعوا الله - تعالى - فى كل ما يأمركم به ، وينهاكم عنه ، لأنه - سبحانه -
ليس بساه عن أعمالكم ، ولا يفاضل عنها ، ولكنه محصيا عليكم ،
وسيجازيكم الجزاء الذى تستحقونه عليها يوم القيامة .

ثم كرر - سبحانه - الأمر للمؤمنين بأن يتجهوا فى صلاتهم إلى
المسجد الحرام فقال : ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام
أى : ومن أى مكان خرجت - يا محمد - فول وجهك تلقاء المسجد
الحرام ، وأيما كنتم أيها المؤمنون من أرض الله ، فولوا وجوهكم فى
صلاتكم تجاهه ونحوه .

وتلك هي المرة الثالثة التي تكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام في صلاتهم ، وهذا التكرير لنا كيد أمر القبلة وتشديده لأن تحول القبلة كان أول نسخ في الإسلام - كما قال كثير من العلماء - فافتضى الأمر تأكيداً في نفوس المؤمنين حتى يستقر في مشاعرهم ، ويذهب ما يثار حولها من شبهات أدراج الرياح ، ولأن الله - تعالى - أناط بكل واحد من هذه الأوامر الثلاثة بالتحول ما لم ينط بالآخر من أحكام فاختلفت فواتدها ، فكأنه - سبحانه - يقول لنبيه - (صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين .

الزموا هذه القبلة لأنها هي القبلة التي ترضونها وترغبون فيها وطالما تمتيموها ، والزموها - أيضاً - لأنها هي القبلة التي لن تنسخ بعد ذلك . والزموها - كذلك - لأن لزمكم إياها يقطع حجة اليهود الجاحدين ، وغيرهم من المعاندين والخاسرين ،

وقد اقترن هذا الأمر الثالث بالتوجه إلى المسجد الحرام في هذه الآية الكريمة بحكم ثلاث .

أولها : قوله تعالى (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحشوهم واخشوني) والمراد من الناس اليهود ومن لف لفهم من المناوئين للدعوة الإسلامية .

والمعنى عليك - أيها النبي - ومن معك من المؤمنين أن تتجهوا في صلاتكم إلى الكعبة المشرفة ، لكي تقطعوا دابر فتنة اليهود وحجتهم فقد قالوا لكم وقت اتجاهكم إلى بيت المقدس . إذا كان لسكم أيها المسلمون دين يخالف ديننا فلماذا تتجهون إلى قبلتنا ، إلى غير ذلك من أقوالهم الفاسدة فاتجاهكم إلى المسجد الحرام من شأنه أن يزيل هذه الحجة التي قد تبدو مقبولة في نظر ضعاف العقول .

وقوله تعالى (إلا الذين ظلموا) استثناء من الناس ، والمعنى : لئلا يكون لأحد من اليهود حجة عليكم ، إلا المعاندين منهم القائلين -

ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا حباً لدين قومه، واشتياًفاً لمكة، وهؤلاء لا تخافون مطاعنهم بل اجعلوا خوفكم مني وحدي ولا تقيموا لما يشاغبون به في أمر القبلة وغيره وزنا، فإني كفيلاً أن أرد عنكم كيدهم وأحبط سعيتهم، فأنتم، أيها المؤمنون - ما توجهتم إلى بيت المقدس ثم إلى المسجد الحرام إلا بإذن ربكم وأمره، ففي الخاليتين أنتم مطيعون لخالقكم - عز وجل - وقد أحسن صاحب الكشف في شرحه للجملة الكريمة، وصرح بأنه يجوز أن يراد بالناس وبالذين ظلموا مشركو العرب فقال:

(إلا الذين ظلموا) استثناء من الناس، ومعناه: لئلا يكون حجة

لأحد من اليهود إلا للمعاندین منهم، القائلين ما ترك قبلتنا إلى الكعبة إلا ميلاً إلى دين قومه وحباً لبلده، ولو كان على الحق للزم قبلة الأنبياء قبله، فإن قلت: أي حجة كانت تكون للمنصفين منهم لو لم يحول حتى احترز من تلك الحجة، ولم يبال بحجة المعاندين؟

قلت: كانوا يقولون ما له لا يحول إلى قبلة أبيه إبراهيم كما هو مذكور في نعمته في التوراة؟ فإن قلت: كيف أطلق اسم الحجة على قول المعاندين؟ قلت: لأنهم يسوقونه سياق الحجة، ويجوز أن يكون المعنى: لئلا يكون للعرب عليكم حجة واعراض في ترككم التوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم وإسماعيل أبي العرب إلا الذين ظلموا منهم وهم أهل مكة، حين يقولون بداله فرجع إلى قبلة آباءه، وبوشك أن يرجع إلى دينهم، (١).

وثانها: قوله تعالى: (ولأنتم نعمتي عليكم) أي: ولوا وجودكم شطر المسجد الحرام (لئلا يكون للناس عليكم حجة) ولتكون قبلتكم مستقلة عن قبلة اليهود وغيرهم، فالجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - لئلا يكون للناس عليكم حجة.

وثالثها: قوله (تعالى ولعلكم تهتدون) أي: وكى ترشدوا للصوات

في كل أموركم . ففاضلت عنه الأمم من الحق هديناكم إليه ، وخصصناكم به .
ولهذا كانت أمة خير أمة أخرجت للناس .

والجملة السكرية معطوفة على الجملة السابقة وهي قوله تعالى (ولأنهم
نعمتى عليكم .

وبذلك تكون الآيات السكرية التي نزلت في شأن تحويل القبلة إلى
المسجد الحرام قد ثبتت (المؤمنين ، ودحضت كل شبهة أوردها اليهود
وغيرهم في هذه المسألة .

خامساً : هذا ، وفي ختام هذا المبحث نحب أن نجيب على السؤال
الخامس ، وهو :

لماذا فصل القرآن الكريم الحديث عن تحويل القبلة فنقول :
لقد شرع الله - تعالى - تحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن صلى المسلمون
إلى بيت المقدس فترة من الزمان ، وكرر الأمر بتولية الوجوه إلى المسجد
الحرام عند الصلاة ، وأقام الأدلة الساطعة على أن ذلك التحويل هو الحق ،
وأتى بالوان من الوعيد لمن لم يتبع أوامره ، وساق وجوهاً من التأكيدات
تدل على العناية بالغة بشأنها .

والمقتضى لهذه العناية وذلك التفصيل - مع أن التوجه إليها فرع من
فروع الدين - هو أن التحويل من بيت المقدس إلى المسجد الحرام كان أول
نسخ في الإسلام - كما قال بذلك كثير من العلماء - والنسخ من مظان
الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان ، فافتضى الأمر بسط الحديث في مسألة
القبلة ليزدادوا إيماناً على إيمانهم .

ولأن هذا التحويل - أيضاً - جاء على خلاف رغبة اليهود ، فإنهم
كانوا يحرصون على استمرار المسلمين في التوجه إلى بيت المقدس ، لأنه
قبلتهم ، فاما حصل التحويل إلى المسجد الحرام ، اتخذوا منه مادة للطعن
في صحة النبوة ليفتنوا ضعفاء العقيدة ، وسلكوا بالبليلة أفكار المسلمين
كل وسيلة .

فزعوا أن نسخ الحكم بعد شرعه مناف للحكمة ، ومباين للعقول ، فلا يقع في الشرائع الإلهية ، وساقوا من الشبهات والمقتريات ما بيننا بعضه عند تفسيرنا للآيات السكرمة .

ويبدو أن شعبيهم هذا ، كان له آثاره عند ذرى النفوس المريضة وضعاف الإيمان فلهذا كله أخذت مسألة القبلة شأناً غير شأن بقية الأحكام الفرعية ، فكان مقتضى الحال أن يكون الحديث عنها مستفيضاً ، ومدعماً بالأدلة والبراهين ، وهذا ما راعاه القرآن الكريم عند حديثه عن مسألة القبلة ، فلقد كرر وقرر ، ووعد وتوعد ، ووضح وبين ، ليدفع كل شبهة ، وليجثت كل حجة ، ويزيد المؤمنين إيماناً على إيمانهم ، وينهض بضغاف الإيمان إلى منزلة الراسخين في العلم ، ويهوى باليهود ومن حذا حذوهم في مكان سحيق ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .
ويعد أن أنهى القرآن حديثه عن نعمة تحويل القبلة أتبعه بالحديث عن نعمة جلييلة أخرى وهى نعمة ارسال الرسول فيهم لهدايتهم فقال - تعالى - :

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ

رُسُلًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥٦﴾ فَأَذْكُرُونِي إِذْ كُرِّمُ

وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٧﴾

وقوله - تعالى - : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم . . . الخ ، متصل بما قبله ، والكاف للتشبيه وهى فى موضع نصب على أنها نعت لمصدر محذوف وما مصدرية ، والتقدير : لقد حوات القبلة إلى شطر المسجد الحرام لآتم نعمق .

عليكم إتماماً مثل إتمام نعمتي عليكم لإرسال الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيكم ، إجابة لدعوة إبراهيم وإسماعيل إذ قالوا ربنا وابعث فيهم رسولا منهم

وقيل إن قوله - تعالى - « كما أرسلنا . . . الخ ، متصل بما بعده ، فتكبر الكاف للمقابلة ، أي : كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يعلمكم الدين القويم والخلق المستقيم ومنحتكم هذه النعمة فضلا مني وكرماً ، فاذكروني بالشكر عليها اذ كرمكم برحمتي وفواي . وقوله « فيكم ، متعلق « بأرسلنا ، وقدم على المفعول تعجيلاً بإدخال السرور : وقوله « منكم ، في موضع نصب ، لأننا صفة لقوله « رسولا ، والمخاطبون بهذه الآية الكريمة هم العرب .

وفي إرساله الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيهم وهو منهم نعمة تستوجب المزيين من الشكر ، لأن إرساله منهم يسبق معرفتهم لنشأته الطيبة وسيرته العطرة ، ومن شأن هذه المعرفة أن تحمّلهم على المسارعة إلى تصديقه والإيمان به ، ولأن في إرساله فيهم وهو منهم شرف عظيم لهم ، ومجد لا يعدله مجد ، حيث جعل - سبحانه - خاتم رسله من هذه الأمة ، ولأن المشهور من حالهم الألفة الشديدة من الإقياد ، فكون الرسول منهم أدعى إلى إيمانهم به وقبولهم لدعوته . وقوله : « يتلو عليكم آياتنا ، صفة ثانية للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

والتلاوة : ذكر الكلمة بعد الكلمة على نظام متسق ، وأصله من الإنباع ومنه تلاه ، أي : تبعه . والمراد من الآيات : آيات القرآن الكريم ، وتلاوتها قراتها ، فإن البصير بأساليب البيان العربي يدرك من مجرد تلاوة آيات القرآن كيف ارتفع إلى الذروة التي كان بها معجزة ساطعة .

وفي هذه الجملة - كما قال الألوسي - « إشارة إلى طريق إثبات نبوته - عليه الصلاة والسلام - لأن تلاوة الأمل للآيات الخارجة عن طوق البشر باعتبار بذاعتها واشتمالها على الإخبار بالمغيبات والمصالح التي ينتظم

بها أمر المعاد والمعاش أقوى دليل على نبوته (١) :
 وعبر يبتلو ، لأن نزول القرآن مستمر ، وقراءة النبي (صلى الله عليه وسلم) له متوالية ، وفي كل قراءة يحصل علم المعجزات للسامعين .
 ويجوز أن يراد بالآيات : دلائل التوحيد والنبوة والبعث ، وبتلاوتها
 الفتح كبير بما حتى يزداد المؤمنون إيماناً بصدقها .
 وقوله « ويزكيكم » صفة ثالثة للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أى :
 يوظهركم من الشرك ، ومن الأخلاق الذميمة . وإذا أشرقت النفوس
 بنور الحق ، وتحلت بالأخلاق الحميدة ، قويت على تلقي ما يرد عليها من
 الخلقائق السامية .

وقوله « ويعلمكم الكتاب والحكمة » صفة رابعة للرسول (صلى الله عليه وسلم)
 والمراد بالكتاب : القرآن ، وتعليمه بيان ما يخفى من معانيه ، فهو غير
 التلاوة ، فلا تكرار بين قوله « يتلو عليكم آياتنا » وبين قوله « ويعلمكم
 الكتاب » .

والحكمة : ما يصدر عنه (صلى الله عليه وسلم) من الأقوال
 والأفعال التي جعل الله للناس فيها أسوة حسنة .

قال بعضهم : وقدمت جملة « ويزكيكم » هنا على جملة « ويعلمكم
 الكتاب والحكمة » عكس ما جاء في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم
 « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلى عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة
 ويزكيهم ... » لأن المقام هنا اللامتنان على المسلمين ، فقدم ما يفيد من المنفعة
 المتحصلة من تلاوة الآيات عليهم وهي تنمية فزكية فنرسوهم اهتماماً بها ،
 وبعثاً لها بالحرص على تحصيل رسالتها وتعجيلها للبشارة بها . أما في

(١) تفسير الألوسي ج ٦ ص ١٨ ط منبر الدمشق .

دعوة إبراهيم فقد رتب الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج ، مع ما في ذلك التخالف من التفنن ، (١) .
وقوله - تعالى - « و يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » ، صفة خامسة لـ (صلى الله عليه وسلم) .

أى : « و يعلمكم ما لم تكونوا تعلمونه بما لا طريق إلى معرفته سوى الوحي . ومما لم يكونوا يعلمونه وعلمهم إياه (صلى الله عليه وسلم) وجوه استنباط الأحكام من النصوص أو الأصول المستمدة منها ، وأخبار الأمم الماضية ، وقصص الأنبياء ، وغير ذلك مما لم تستقل بعلمه عقولهم . وبهذا النوع من التعليم صار الدين كاملاً قبل انتهاء عهد النبوة .

ولقد كان العرب قبل الإسلام في حالة شديدة من ظلام العقول وفساد للعقائد . . . فلما أكرمهم الله - تعالى - برسالة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وقلا عليهم الآيات ، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، خرج منهم رجال صاروا أمثالا عالية في العقيدة السليمة ، والأخلاق القويمة والأحكام العادلة ، والسياسة الرشيدة لمختلف البيئات والنزعات .

قال الألوسي : وكان الظاهر أن يقول : « و يعلمكم الكتاب والحكمة » ومما لم تكونوا تعلمون ، بحذف الفعل « يعلمكم » من الجملة الأخيرة ، ليكون الكلام من عطف المفرد على المفرد ، لإلا أنه - تعالى - كرر الفعل للدلالة على أنه جفس آخر غير مشارك لما قبله أصلاً ، فهو تخصيص بعد التعميم مبين لسكون إرساله (صلى الله عليه وسلم) نعمة عظيمة ، ولولاه لكان الخلق متحيرين في أمن دينهم لا يدرون ماذا يصنعون ، (٢) .

ثم أمر الله عباده بأن يكثروا من ذكره وشكره على ما أسبغ عليهم من نعم فقال : « فاذكروني أذكركم . . . »

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢ ص ٤٥ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

(٢) تفسير الألوسي ج ٢ ص ١٩

ذكر الشيء : التلغظ باسمه ، ويطلق بمعنى استحضاره في الذهن ، وهو ضد النسيان . وذكر العباد لخالقهم قد يكون باللسان وقد يكون بالقلب وقد يكون بالجوارح . فذكرهم لإياه بألسنتهم معناه : أن يحمدهم ويسبحوه ويمجدهم ، ويقرؤا كتابه ، مع استحضارهم لعظمته وجلاله .

وذكرهم لإياه بقلوبهم معناه أن يتفكروا في الدلائل الدالة على ذاته وصفاته وفي تكليفه وأحكامه ، وأوامره ونواهيه ، وأسرار مخلوقاته ، لأن هذا التفكير يقوى إيمانهم ، ويصفي نفوسهم .

وذكرهم لإياه بجوارحهم معناه : أن تكون جوارحهم وحواسهم مستغرقة في الأعمال التي أمروا بها ، منصرفة عن الأفعال التي نهوا عنها ، ولتكون الصلاة مشتملة على هذه الثلاثة سماها الله - تعالى - ذكراً في قوله : يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع

وقوله : فاذكروني أذكركم ، أمر وجوابه ، وفيه معنى المجازاة فلذلك جزم .

والمعنى : اذكروني بالطاعة والاستجابة لما أمرتكم به واللبعد عما نهيتكم عنه أذكركم بالرعاية ، والنصرة ، وصلاح الأحوال في الدنيا ، وبالرحمة وجزيل الثواب في الآخرة . فالذكر في قوله : أذكركم ، مستعمل فيما يعترب على الذكر من المجازاة بما هو أو في وأبقى ، كما أن قوله : فاذكروني المراد به : اذكروا عظمتي وجلالي ونعمي عليكم ، لأن هذا التذكير هو الذي يبعث على استغراق الوسع في الأقوال والأعمال التي ترضى الله .

قال صاحب المنار : وقال الأستاذ الإمام : هذه الكلمة - وهي قوأة - تعالى - فاذكروني أذكركم ، - من الله - تعالى - كبيرة جداً ، كأنه يقول : إنني أعاملكم بما تعاملونني به وهو الرب ونحن العبيد ، وهو الغنى هنا ونحن الفقراء إليه . وهذه أفضل تربية من الله لعباده : إذا ذكره ذكرهم

بإدامة النعمة والفضل ، وإذا نسوه نسيهم وعاقبهم بمقتضى العدل (١) ، .
 هذا ، وقد وردت أحاديث متعددة في فضل الذكر والذاكرين ، ومن ذلك
 ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه
 وسلم - يقول الله - تعالى - : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني .
 فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي . وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ
 خير منهم . وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً . وإن تقرب إلى ذراعاً
 تقربت إلى باعاً . وإن أناني يمشى آتيته هرولة . .

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة : أنهما شهدا على النبي
 - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : لا يقعد قوم يذكرون الله - تعالى - إلا
 حفنهم الملائكة ، وغشبتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكروا الله
 فيمن عنده . .

قال الإمام النووي : واعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسييح
 والتهليل والتحميد والتكبير ونحو ذلك ، بل كل عامل لله - تعالى - بطاعة
 فهو ذاكر لله - تعالى - .

وقوله - تعالى - : واتكروا لي ولا تكفرون ، معطوف على ما قبله .
 والشكر في اللغة - كما يقول القرطبي - الظهور ، ومنه قولهم : دابة
 مشكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف .

وحقيقته : عرفان الإحسان وإظهاره بالثناء على المحسن ، يقال شكره
 وشكر له كما يقال نصحه ونصح له .

وأصل الكفر في كلام العرب الستر والتغطية والجحود ، ويستعمل
 بمعنى عدم الإيمان فيتعدى بالباء فيقال : كفر بالله ، ويستعمل بمعنى عدم
 الشكر - وهو المراد هنا - فيتعدى بنفسه ، فيقال : كفر النعمة أي جحدتها ،
 وكفر المنعم أي جحد نعمته ولم يقابلها بالشكر .

والمعنى : اشكروا الى ما أنعمت به عليكم من ضروب النعم ، بأن تستعملوا النعم فيما خلقت له ، وبأن تطيعوني في السر والعلان ، وحذار من أن تجحدوا إحسانى إليكم ، ونعمى عليكم فأسايبكم إياها .

قال - تعالى - د لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد (١) .

وقدم - سبحانه - الأمر بالذكر على الأمر بالشكر ، لأن في الذكر اشتغالا بذاته - تعالى - ، وفي الشكر اشتغالا بنعمته ، والاشتغال بذاته أولى بالتقديم من الاشتغال بنعمته . وقوله « ولا تكفرون » تأكيد لقوله « واشكروا الى » .

وهذا تحذير لهذه الأمة حتى لا تقع فيما وقع فيه بعض الأمم السابقة التي كفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

وبعد أن أمر - سبحانه - عباده بذكره وشكره ، وجه نداء إليهم بين لهم فيه ما يعينهم على ذلك ، كما بين لهم منزلة الشهداء ، وعاقبة الصابرين على البلا . فقال - تعالى - :

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَسْتَعِينُوا
 بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٤﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ءَمُوتٌ بَلْ ءَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٥﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ
 بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ
 وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا
 إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ
 وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

الصبر : حبس النفس على احتمال المكارة ، وتوطئتها على تحمل المشاق
 وتجنب الجزع .

والمعنى : يا من آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، استعينوا
 على إقامة دينكم والدفاع عنه ، وعلى فعل الطاعات وترك المعاصي ، وعلى احتمال
 المكارة التي تجرى بها الأقدار ، استعينوا على كل ذلك بالصبر الجميل ،
 وبالصلاة المصحوبة بالخشوع والإخلاص والتفان للخالق - عز وجل -
 فإن الإيمان الذي خالط قلوبكم يستدعي منكم القيام بالمصاعب ، واحتمال
 المكارة ، ولقاء الأذى من عدو أو سفيه ، وإن تستطيعوا أن تغلبوا على
 كل ذلك إلا بالصبر والصلاة .

ولقد استجاب النبي - ﷺ - لهذا التوجيه الرباني ، وقامى به
 أصحابه في ذلك ، فقد أخرج الإمام أحمد - بسنده - عن حذيفة بن

اليمان أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا حزبه أمر صلى ، (١) أى : إذا شق عليه أمر لجأ إلى الصلاة لله رب العالمين .

وأفتحت الآية الكريمة بالنداء ، لأن فيه إشعاراً بخبر مهم عظيم ، فإن من شأن الأخبار العظيمة التى تهول المخاطب أن يقدم قبلها ما يهين النفس لقبولها لتستأنس بها قبل أن تفجأها .

واعلم مما يشهد بأفضلية هذه الأمة على غيرها من الأمم ، أن الله - تعالى - قد أمر بنى إسرائيل فى السورة نفسها بالاستعانة بالصبر والصلاة فقال : « واستعينوا بالصبر والصلاة ، إلا أنه - سبحانه - قال لهم : « ولإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، ليضعهم بضعف عزائمهم عن عظام الأعمال ، ولم يقل - سبحانه - للمؤمنين ذلك فى الآية التى معنا ، للإيمان إلى أنهم قد يسر لهم ما يصعب على غيرهم ، وأنهم هم الخاشعون الذين استثناهم الله هنالك .

وقوله - تعالى - « إن الله مع الصابرين ، بيان لحكمة الاستعانة بالصبر وهو الفوز والنصر . أى : إن الله مع الصابرين بمعونه ونصره ، وتوفيقه وتسديده فى معية خاصة ، وإلا فهو - سبحانه - مع جميع خلقه بعلمه وقدرته .

وقال - سبحانه - « إن الله مع الصابرين ، ولم يقل « مع المصلين ، لأن الصلاة المستوفية لأركانها وسننها وخشوعها لا تتم إلا بالصبر ، فالمصلون بحق داخلون فى قوله - تعالى - « إن الله مع الصابرين ، .

ولم يقل « معكم ، ليفيد أن معونته إنما تمدهم إذا ضار الصبر وصفا لازماً لهم .

قال الأستاذ الإمام : إن من سنة الله : - تعالى - أن الأعمال العظيمة لا تتم ولا ينجح صاحبها إلا بالثبات والاستمرار ، وهذا إنما يكون بالصبر ، فمن صبر فهو على سنة الله والله معه ، لأنه - سبحانه - جعل هذا الصبر سبباً للظفر ، إذ هو يولد الثبات والاستمرار الذى هو شرط النجاح ، ومن لم يصبر

فليس الله معه ، لأنه تنكب سنته ، وإن ثبت فيبلغ غايته : (١) .
ثم نبى - سبحانه - المؤمنين عن أن يقولوا للشهداء أمواتاً فقال :
« ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات . بل أحياء . ولكن لا تشعرون . »
قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : نزلت هذه الآية في قتلى غزوة بدر ،
قتل من المسلمين فيها أربعة عشر رجلاً : ست من المهاجرين وثمانية من الأنصار
وكان الناس يقولون . مات فلان ومات فلان . فنبى الله - تعالى - أن يقال
فيهم : إنهم ماتوا .

وقيل إن الكفار والمنافقين قالوا : إن الناس يقتلون أنفسهم طلباً لمرضاة
محمد من غير فائدة ، فنزلت هذه الآية (٢) .

والسبيل : الطريق وسبيل الله : طريق مرضاته ، وإنما قيل للجهاد
سبيل الله ، لأنه طريق إلى ثواب الله وإعلاء كلمته . و « أموات ، مرفوع
على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى : لا تقولوا هم أموات وكذلك قوله « أحياء
خبر لمبتدأ محذوف أى : هم أحياء . »

قال الألوسى : « والجملة معطوفة على « لا تقولوا ، اضرابهنة ، وليس
من عطف المفرد على المفرد ليكون في حين القول وبصير المعنى بل قولوا أحياء
لأن المقصود إثبات الحياة لهم لا أمرهم بأن يقولوا في شأنهم أنهم أحياء
وإن كان ذلك أيضاً صحيحاً ، (٣) . »

أى : لا تقولوا أيها المؤمنون لمن يقتل من أجل إعلاء كلمة الله ونصرة
دينه إنهم أموات ، بمعنى أنهم تلفت نفوسهم وهدموا الحياة ، وتصرفت عنهم
النفوس ، وأضحوا كالجمادات كما يتبادر من معنى الميت ، بل هم أحياء - في
عالم غير عالمكم كما قال - تعالى - : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) حاشية الجمل الجاين ج ١ ص ١٢٣ .

(٣) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٢٠ .

أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ،
ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم
يجزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، .
وقوله « ولا يكن لا تشعرون ، أي : لا تحسبون ولا تدركون حالهم
بالمشاعر ، لأنها من شئون الغيب التي لا طريق للعلم بها إلا الوحي .

قال الآلوسى ما ملخصه : ثم إن نهي المؤمنين عن أن يقولوا في شأن الشهداء
أموات ، إما أن يكون دفعا لإيهام مساواتهم لغيرهم في ذلك البرزخ... وإما أن
يكون صيانة لهم عن النطق بكلمة قالها أعداء الدين والمبافقون في شأن أولئك
الكرام قاصدين بها أنهم حرموها من النعيم ولم يروه أبداً ثم قال :
وقد اختلف في هذه الحياة التي يحيها أولئك الشهداء عند ربهم : فذهب
كثير من السلف إلى أنها حقيقة بالروح والجسد ولكننا نذكرها في هذه النشأة
واستدلوا بسياق قوله - تعالى - « عند ربهم يرزقون » وبأن الحياة الروحانية
التي ليست بالجسد ليست من خواصهم فلا يكون لهم امتياز بذلك على من
عداهم . وذهب البعض إلى أنها روحانية وكونهم يرزقون لا يتنافى ذلك . .
وذهب البلخي إلى نفي الحياة عنهم وقال : معنى « بل أحياء » إنهم يحيون يوم
القيامة فيجزنون أحسن الجزاء . فالآية على حد قوله - تعالى - « إن الأبرار
لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم » . . وذهب بعضهم إلى إثبات الحياة الحكيمية
لهم بسبب ما قالوا من الذكر الجميل والثناء الجميل ، كما روى عن علي أنه
قال : « هلك خزان الأموال والعلماء بأقون ما بقى الدهر ، أهيانهم مفقودة
وأثارهم في القلوب موجودة » .

ثم قال : ولا يخفى أن هذه الأقوال - ما عدا الأولين - في غاية
الضعف ، بل في نهاية البطلان ، والمشهور ترجيح القول الأول ، .
والذي نراه أن الآية الكريمة قد نيهتنا إلى أن للشهداء مزية تجعلهم مفضلين
عن سواهم من كثير من الناس ، وهي أنهم في حياة سارة ، ونعيم مقيم عند
ربهم ، وهذه الحياة الممتازة تسمو بهم عن أن يقال فيهم كما يقال في غيرهم

لأنهم أموات وإن كان المعنى اللغوي للموت حاصلًا لهم ، ونحن نؤمن بهذه الحياة السارة لهم عند ربهم ونعتقد صحتها كما ذكرها الله - تعالى - ، إلا أننا نفرض كقيمتها وكنهها إليه - سبحانه - ، إذ لا يمكن إدراكها إلا من طريق الوحي ، كما قال - تعالى - « ولكن لا تشعرون ، أي : لا تشعرون بحياتهم بعد مفارقتهم لهذه الدنيا ، لأنها حياة من نوع معين لا يعلمها إلا هلام الغيوب . وبعد أن طلب - سبحانه - من عباده أن يستعينوا بالصبر والصلاة على احتمال المكروه ، أردف ذلك بذكر بعض المواطن التي لا يمر فيها الإنسان بسلامة إلا إذا اعتصم بعري الصبر فقال - تعالى - « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات » .

وقوله « ولنبلونكم » من البلو والبلاء وهو الامتحان والاختبار ، وهو جواب لقسم محذوف والتقدير : والله لنبلونكم .

وقوله : « ولنبلونكم » عطف على قوله « واستعينوا » ، عطف المضمون على المضمون ، والجامع أن مضمون الأول طلب الصبر ، ومضمون الثانية بيان مواطنه ، والمراد : ولنعاملنكم معاملة المختبر والمبتلى لأحوالكم : والتنوين في قوله « بشيء » ، للتقليل . أي بقليل من كل واحد من هذه البلايا والمحن وهي الخوف وما عطف عليه .

وإنما قل - كما قال الزمخشري - ليؤذن أن كل بلاء وإن جل ففوقه ما يقل إليه ، وليخفف عليهم ويربهم أن رحمة معهم في كل حال لا تزال لهم ، وأنه - سبحانه - يتلهم من هذه المصائب بقدر ما يمتاز به الصابرون من غير الصابرين .

و « الخوف » غم يلحق النفس لتوقع مكروهه ، ومن أشد ما تضطرب له النفوس من الخوف ، خشيتها أن تقع تحت يد عدو لا م له إلا إبذأؤها بما تكره .

و « الجوع » ضد الشبع ، والمراد منه القحط ، وتعذر تحصيل القوت ، والحاجة الملحة إلى طعام .

و الأموال ، جمع مال ، وهو ما يملك مما له قيمة ، وجرى للعرب
 حرف باستعماله في النعم خاصة - وهي الإبل والبقر والغنم - .
 و الثمرات ، : جمع ثمرة وهي حمل الشجر ، وقد تطلق على الشجر
 والنبات نفسه .

والمعنى : ولنصيبكم بشيء من الخوف وبشيء من الجوع ، وبشيء من
 النقص في الأنفس والأموال والثمرات ، ليظهر هل تصبرون أو لا تصبرون ،
 فترتب الثواب على الصبر والثبات على الطاعة ، وترتب العقاب على الجزع
 وعدم التسليم لأمر الله - تعالى - .

ولقد حدث للمسلمين الأولين خوف شديد بسبب تألب أعدائهم عليهم
 كما حصل في غزوة الأحزاب . وحدث لهم جوع أليم بسبب هجرتهم من
 أوطانهم ، وقلة ذات يدهم حتى لقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يشد
 الحجر على بطنه . وحدث لهم نقص في أموالهم بسبب اشتغالهم بإعلاء كلمة
 الله . وحدث لهم نقص في أنفسهم بسبب قتالهم لأعدائهم . ولكن كل هذه
 الآلام لم تزدهم إلا إيماناً وتسليماً لقضاء الله وقدره ، واستمساكاً بتعاليم دينهم
 وهذا البلاد وتلك الآلام لا بد منها ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة ، كي
 تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف ، إذ العقائد الرخيصة
 التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم تركها عند الصدمة الأولى ، وليعلم
 من جاء بعدهم من المؤمنين إذا ما أصابهم مثل هذه الأمور أن ما أصابهم ليس
 لنقصان من درجاتهم ، وخط من مراتبهم ، فقد أصيب بمثل ذلك أو أكثر
 من هم أفضل منهم وهم أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) .

قال الإمام الرازي : وأما الحكمة في تقديم تعريف هذا الابتلاء . أي
 الإخبار به قبل وقوعه : ففيها وجوه :

أحدها : ليوطنوا أنفسهم على الصبر عليها إذا وردت فيكون ذلك
 أبعد لهم عن الجزع وأسهل عليهم بعد الورود .
 وثانيها : أنهم إذا علموا أنه ستصل إليهم تلك المحن اشتد خوفهم ،

فيصير ذلك الخوف تعجيلاً للإبتلاء ، فيستحقون به مزيد الثواب .
 وثالثها : أن الكفار إذا شاهدوا النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه
 مقيمين على دينهم مستقرين عليه ، مع ما كانوا عليه من نهاية الضر والمحنة
 والجوع - يعلون أو القوم إنما اختاروا هذا الدين لقطعهم بصحته فيدعومهم
 ذلك إلى مزيد التأمل في دلائله . ومن المعلوم الظاهر أن التبع إذا عرفوا
 أن المتبوع في أعظم المحن بسبب المذهب الذي ينصره ، ثم رأوه مع ذلك
 مصرأ على ذلك المذهب : كان ذلك أدعى لهم إلى أتباعه مما إذا رأوه مرفه
 الحال لا كلفة عليه في ذلك المذهب .

وابعها : أنه - تعالى - أخبر بوقوع ذلك الإبتلاء قبل وقوعه فوجد من خبر
 ذلك الخبر على ما أخبر عنه . فكان ذلك إخباراً عن الغيب فكان معجزاً .
 وخامسها : أن من المنافقين من أظهر متابعة الرسول طمعاً منه في
 المال وسعة الرزق ، فإذا اختبره - سبحانه - بزول هذه المحن ، فعند
 ذلك يتميز المنافق عن المرافق .

وسادسها : أن إخلاص الإنسان حالة البلاء ورجوعه إلى باب الله
 - تعالى - أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه . فكانت الحكمة في
 هذا الإبتلاء ذلك (١) .

ثم بعد أن بين - سبحانه - مواطن تضطرب فيها النفوس أردف
 ذلك يذكر عاقبة الصبر ، وجزائه الأسنى . فقال : « وبشر الصابرين الذين
 إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون » .

الخطاب في قوله « وبشر » للنبي (صلى الله عليه وسلم) أو لكل من تتأق
 منه البشارة . والجملة عطف على « لتبلونكم » ، عطف المضمون على المضمون .
 أي : الإبتلاء حاصل لكم وكذا البشارة لكن لمن صبر .

و « المصيبة » اسم فاعل من الإصابة ، والمراد بها الآلام الداخلة على
 النفس بسبب ما ينالها من الشدائد والمحن .

و « راجعون ، من الرجوع بمعنى مصير الشيء إلى ما كان عليه ، يقال : رجعت الدار إلى فلان إذا ملكها مرة ثانية ، وهو نظير العود والمصير . والمعنى : وبشر يا محمد بالرحمة العظيمة والإحسان الجزيل ، أولئك الصابرين الذين من صفاتهم أنهم إذا نزلت بهم مصيبة ، في أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم ، أو غير ذلك ، قالوا : بالسنتهم وقلوبهم على سبيل التسليم المطلق لقضاء الله والرضا بقدره ، إننا لله ، أي : إن لله ملكاً غير دية ، والمالك يتصرف في ملكه ويقبله من حال إلى حال كيف يشاء ، وإننا إليه راجعون ، أي : وإننا إليه صائرون يوم القيامة فيجازينا على ما أمرنا به من الصبر والتسليم لقضائه عند نزول الشدائد التي ليس في استطاعتنا دفعها .

فقولهم ، إننا لله ، إقرار بالعبودية والملكية لله رب العالمين . وقولهم ، وإننا إليه راجعون ، إقرار بصحة البعث والحساب والثواب والعقاب يوم القيامة وليست هذه البشارة موجهة إلى الذين يقولون بالسنتهم هذا القول مع الجزع وعدم الرضا بالقضاء والقدر ، وإنما هذه البشارة موجهة إلى الذين يتلقون المصائب بالسكينة والتسليم لقضاء الله لأول حلوها ، يشير إلى هذا قوله - تعالى - « الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا ، فإنه يدل على أنهم يقولون ذلك وقت الإصابة » وصرح بهذا قوله (صلى الله عليه وسلم) « الصبر عند الصدمة الأولى » .

وهذه الجملة الكريمة وهي قوله - تعالى - « الذين إذا أصابتهم . . الخ » وصف كريم لأولئك الصابرين ، لأنها أفادت أن صبرهم أكمل الصبر ، إذ هو صبر مقترن ببصيرة مستنيرة جعلتهم يقرون عن عقيدة صادقة أنهم ملك لله يتصرف فيهم كيف يشاء ، ومن ربط نفسه بعقيدة أنه ملك لله وأن المرجع إليه ، يكون بذلك قد هيأها للصبر الجميل عند كل مصيبة تفاجئته . قال القرطبي : « جعل الله هذه الكلمات وهي قوله - تعالى - « إننا لله وإننا إليه راجعون » ، ملجأ لذوى المصائب ، وعصمة للمتقين ، لما جمعت من المعاني المباركة ، فإن قوله « إننا لله » ، توحيد وإقرار بالعبودية والملك وقوله

د وإنا إليه راجعون ، إقرار بالملك على أنفسنا والبعث من قبورنا ، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له . قال سعيد بن جبير : لم تعط هذه الكلمات نبياً قبل نبينا ، ولو عرفها يعقوب لما قال : يا أسفى على يوسف ، (١) .

هذا ، ولا يتناقف مع الصبر ما يكون من الحزن عند حصول المصيبة ، فقد ورد في الصحيحين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بكى عند موت ابنه إبراهيم وقال : العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون .

وإنما الذى يتأف به ويؤاخذ الإنسان عليه ، الجزع المفضو إلى إنكار حكمة الله فيما نزل به من بأساء أو ضراء ، أو إلى فعل ما حرمه الإسلام من نحو النياحة وشق الجيوب ، ولطم الخدود .

ثم بين - سبحانه - ما أعد له للصابرين من أجر جزيل فقال : وأولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون .

د أولئك ، اسم إشارة ، أتى به - سبحانه - للتنبيه على أن المشار إليه هم الموصفون بجميع الصفات السابقة على اسم الإشارة ، وأن الحكم الذى ورد بعد مترتب على هذه الأوصاف .

ود الصلوات ، جمع صلاة . وصلاة الله على عباده لإقباله عليهم . بالثناء والعطف والمغفرة .

وجمعت مراعاة لكثرة ما يترتب عليها من أنواع الخيرات فى الدنيا والآخرة .

د الرحمة د - كما هو مذهب السلف - صفة قائمة بذاته - تعالى -

لا نعرف حقيقتها وإنما نعرف أثرها الذى هو الإحسان .

وعطف - سبحانه - الرحمة على الصلوات ليدل على أن بعد ذلك

الإقبال منه على عباده ، إنعاماً واسعاً ، وعطاء جزيلاً فى الدنيا والآخرة .

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٧١ طبعة دار الکتب الطبعة الثانية -

وجاءت الرحمة مفردة على أصل المصادر وهو الأفراد ، والمقام في الآية يذهب بذهن السامع إلى كثرة الإناعام المترتب على الصبر الجميل .
والجملة « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » استثنائية جواب عن سؤال تقديره : بماذا بشر الله الصابرين ؟ فكان الجواب : أولئك عليهم صلوات . . . الخ .

والمعنى : أولئك الصابرون المحتسبون الموصوفون بتلك الصفات الكريمة ، عليهم مغفرة عظيمة من خالقهم ، وإحسان منه - سبحانه - يشملهم في دنياهم وآخرتهم ، وأولئك هم المهتدون ، لطريق الصواب بالتسليم وقت صدمة المصيبة دون غيرهم ممن جزعوا عند صدمتها ، حتى صدر عنهم ما لم يأذن به الله .

هذا ، وفي فضل الصبر والصابرين وردت آيات كثيرة ، وأحاديث متعددة أما الآيات فيزيد عددها في القرآن دلي سبعين آية منها قوله - تعالى - (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) وقوله « وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وقوله « أولئك يوتون أجرهم مرتين بما صبروا » وقوله : « إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب » إلى غير ذلك من الآيات .
وأما الأحاديث فمنها ما جاء في صحيح مسلم عن أم سلمة قالت : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم أجرني في مصيبتى واخلف لي خيراً منها إلا أجره الله في مصيبتى واخلف له خيراً منها . قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت : من خير من أبي سلمة : صاحب رسول الله ، ثم عزم الله لي فقالتما : قالت : فتزوجني رسول الله - ﷺ - .

ومنها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبي سنان قال : دفنت ابنا لي . وإني لني للقبر أخذ بيدي أبو طلحة ، يعنى الخولاني ، فأخرجني وقال : ألا أبشرك ؟ قال قلت : بلى . قال : حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب .

عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال الله - تعالى - : يا ملك الموت ، قبضت ولد عبدي ، قبضت قرّة عينه وثمره فؤاده ؟ قال : نعم . قال فماذا قال ؟ قال حمدك واسترجع . قال الله - تعالى - : ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد .

ومنها ما رواه الشيخان عن أبي سعيد وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم - قال : ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها .
إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي وردت في ثواب الاسترجاع وفي أجر الصابرين وفضلهم .

ثم تحدث - سبحانه - عن شعيرة من شعائر الحج فقال :

إِنَّ الصَّفَاَ وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ

اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

قال الألوسي : بعد أن أشار - سبحانه - فيما تقدم إلى الجهاد عقب ذلك ببيان معالم الحج ، فكانه جمع بين الحج والغزو ، وفيهما شق الأنفس وتلف الأموال . وقيل لما ذكر الصبر عقبه يبحث الحج - كما فيه من الأمور المحتاجة إليه ، (١) .

و الصفا ، في اللغة : الحجر الأملس ، مأخوذ من صفا يصفر إذا خلص ، واحده صفاة فهو مثل حصي وحصاة ونوى ونواة .

و المروة ، في أصل اللغة : الحجر الأبيض اللين ، وقيل : الحصاة الصغيرة . وهما - أي الصفا والمروة - قد جعلتا علمين لجبلين معروفين بمكة

هـلى بعد ما بقرب من ألف ذراع من المسجد الحرام . والآلف واللام فيهما
ظلتعريف لا للجنس .

و « الشعائر ، جمع شعيرة ، من الإشعار بمعنى الإعلام ، ومنه قولك
شعرت بكذا ، أى : علمت به .

و كون الصفا والمروة من شعائر الله ، أى : من أعلام دينه وتمعبداته .
تعبدنا الله بالسمى بينهما فى الحج والعمرة .

وشعائر الحج : معاملة الظاهرة للحواس ، التى جعلها الله أعلاما لطاعته ،
ومواضع نسكه وعبادته ، كالمطاف والمسعى والموقف والمرمى والمنحر .

وتطلق الشعائر على العبادات التى تعبدها الله بها فى هذه المواضع ، لكونها
علامات على الخضوع والطاعة والانسليم لله — تعالى — .

وأكدت الجملة الكريمة بأن لأن بعض المسلمين كانوا مترددين فى كون
السعى بين الصفا والمروة من شعائر الله ، وكانوا يظنون أن السعى بينهما من
أحوال الجاهلية ، كما سنبين بعد قليل .

وقوله « فن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما » تفريع
على كونها من شعائر الله وأن السعى بينهما فى الحج والعمرة من المناسك .
والحج لغة : القصد مطلقاً أو إلى معظم . وشرعاً : القصد إلى البيت الحرام
فى زمان معين بأعمال مخصوصة .

و « اعتمر ، أى : زار . والعمرة الزيارة مأخوذة من العمارة كأن الزائر
يعمر البيت الحرام بزيارته . وشرعاً الزيارة لبيت الله المعظم بأعمال مخصوصة
هوئى : الإحرام والطواف والسعى بين الصفا والمروة .

و « الجناح ، - بضم الجيم - الإثم والحرج مشتق من جناح إذا مال عن
القصد ، وسمى الإثم به للميل فيه من الحق إلى الباطل .

و « يطوف ، أصلها يتطوف ، فأبدلت التاء طاء ، وأدغمت فى الطاء
مفصارت ، يطوف . والتطوف بالثى كالطواف به ، ومعناه : الإلمام بالثى .

وقد فسّر النبي - صلى الله عليه وسلم - الطواف بالنسبة للكعبة بالدوران حولها سبعة أشواط . وفسره بالنسبة للصفاء والمروة بالسعى بينهما سبعة أشواط كذلك .

و « من ، في قوله « فن حج ، شرطية ، « وحج » في محل جزم بالشرط ، و « البيت ، منصوب على المفعولية ، وجملة « فلا جناح عليه أن يطوف بهما » جواب الشرط .

والمعنى : إن الصفا والمروة من شعائر الله ، أى : من المواضع التي يقام فيها أمر من أمور دينه وهو السعى بينهما « فن حج البيت ، أى : فصدقه بالأفعال المعينة التي شرعها الله ، أو اعتمر ، أى : أتى بالعمرة كما بينها تعاليم الإسلام « فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، أى : فلا لائم ولا حرج ولا مؤاخذة عليه في الطواف بهما ، لأنهما مطلوبان للشارع ، ومعدودان من الطاعات .

وهنا قد يقول قائل : إن بعض الذين يقرءون هذه الآية قد يشكل عليهم فهمها وذلك لأن قوله - تعالى - « إن الصفا والمروة من شعائر الله ، يدل على أن الطواف بهما مطلوب شرعاً طلباً أقل درجاته للثب ، وقوله - تعالى - « فلا جناح عليه أن يطوف بهما ، يقتضى رفع الإثم عن المتطوف بهما ، والتعبير برفع الإثم عن الشيء يأتي في مقام الدلالة على إباحته ، وإذن فما الأمر الداعي إلى أن يقال في هذه الشعيرة : لا لائم على من يفعلها بعد التصريح بأنها شعائر الله ؟ والإجابة على هذا القول نقول . إن الوقوف على سبب نزول الآية الكريمة يرفع هذا الاستشكال . وقد روى العلماء في سبب نزولها عدة روايات منها : ما رواه البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت عائشة - رضى الله عنها - فقلت لها : رأيت قوله - تعالى - « إن الصفا والمروة من شعائر الله فن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما . . . » فوالله ؛ ما على أحد جناح أن لا يطوف بالصفا والمروة ؟ قالت بشئ ما قلت يا بن أختي أ

إن هذه الآية لو كانت كما أولتها لكانت : لاجتراح عليه أن لا يتطوف بهما ، ولكن الآية أنزلت في الأنصار . كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية ، التي كانوا يعبدونها عند المشلل . فكان من أهل يتخرج أن يتطوف بالصفاء والمروة . فلما أسلموا سألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن ذلك ؟ فقالوا : يا رسول الله : إننا كنا نتخرج أن تطوف بين الصفاء والمروة ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية .

قالت عائشة : وقد سن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الطواف بينهما ، فليس لاحد أن يترك الطواف بينهما (١) .

وهناك رواية لمسلم عن عروة عن عائشة تشبه ما جاء في رواية البخاري ، وهناك رواية للنسائي عن زيد بن حارثة قال : كان على الصفاء والمروة صتان من نحاس يقال لهما إساف وفائلة ، كان المشركون إذا طافوا تمسحوا بهما . وهناك رواية للطبراني وابن أبي حاتم بإسناد حسن من حديث ابن عباس قال : قالت الأنصار : إن السعي بين الصفاء والمروة من أمر الجاهلية فأنزل الله هذه الآية (٢) .

فيؤخذ من هذه الروايات أن بعض المسلمين كانوا يتخرجون من السعي بين الصفاء والمروة لأسباب من أهمها أن هذا السعي كان من شعائرهم في الجاهلية فقد كانوا يهلون - أي يحرمون - لمناة ، ثم يسعون بينهما ليتمسحوا بصنمين عليهما ، وهم لا يريدون أن يعملوا في الإسلام شيئاً مما كان من أمر الجاهلية ، لأن دين الإسلام الذي خالط أعماق قلوبهم هز أرواحهم هزاً قوياً ، وجعلهم ينظرون بحفوة وازدراء واحتراس إلى كل ما كانوا عليه في الجاهلية من أعمال تتناقى مع تعاليم دينهم الجديد ، فنزلت هذه الآية الكريمة لتزيل التخرج الذي كان يتردد في صدورهم من السعي بين الصفاء والمروة

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج ج ٢ ص ١٩٣

(٢) راجع تفسير القاسمي ج ٢ ص ٣٤٤

وهذا يدل على قوة إيمانهم ، وصفاً بيقينهم ، ونحرزهم من كل قول أو عمل يشتم منه رائحة التعارض مع العقيدة التي جعلتهم يخلصون عبادتهم لله الواحد القهار .

وقوله «ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم» تذييل قصد منه الإتيان بحكم كلي في أفعال الخيرات كلها ، وقيل لأنه تذييل لما أفادته الآية من الحث على السعي بين الصفا والمروة .

و«تطوع» من التطوع وهو فعل الطاعة فريضة كانت أو نافلة ، وقيل هو التطوع بالنفل خاصة .

«وشاكر» من الشكر ، والشاكر في اللغة هو المظهر للإنعام عليه ، وذلك محال في حق الله - تعالى - ، إذ هو المنعم على خلقه ، فوجب حمل شكر الله لعباده على معنى مجازاتهم على ما يعملون من خيرات ، وإثابتهم على ذلك بالثواب الجزيل .

قال الإمام الرازي : وإنما سمي - سبحانه - المجازاة على الطاعة شكراً لوجوه :

الأول : أن اللفظ خرج منخرج التلطف مع العباد بمبالغة في الإحسان إليهم ، كما في قوله - تعالى - «من ذا الذي يقرض الله قرصاً حسناً» وهو - سبحانه - لا يستقرض من عوض ، ولكنه تلطف في الاستدعاء . كأنه قيل : من ذا الذي يعمل عمل المقرض . بأن يقدم فيأخذ أضعاف ما قدم .

الثاني : أن الشكر لما كان مقابلاً للإنعام أو الجزاء عليه ، سمي كل ما كان جزاءً شكراً على سبيل التشبيه .

الثالث : كآفته يقول : أنا وإن كنت غنياً عن طاعتك ، إلا أني أجعل لها من الموقع بحيث لو صح على أن أنتفع بها لما ازداد وقعه على ما حصل . وبالجملة فالمقصود أن طاعة العبد مقبولة عند الله ، وواقعة موقع القول في أقصى الدرجات (١) .

و « من ، شرطية ، و « تطوع ، فعل الشرط ، و « خيراً ، منصوب على نزع الخافض ، وأصله بخير ؛ لأن تطوع يتعدى بالباء ولا يتعدى بنفسه ثم حذف الباء في نظم الكلام نحو : تمرّون الديار فلم تعوجوا . أو هو منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أى : تطوعاً خيراً ، وجملة « فإن الله شاكر عليم ، دليل على جواب الشرط ، إذ التقدير ، و « من تطوع خيراً جوزى فإن الله شاكر عليم .

والمعنى : و « من تطوع بالخيرات وأنواع الطاعات ، أو من أتى بالحج أو العمرة طاعة لله ، أو من أتى بهما مرة بعد مرة زيادة على المقرّوض أو الواجب عليه ، فاز بالثواب الجزيل ، والنعيم المقيم ؛ لأن من صفاته — سبحانه — مجازاة من يحسنون العمل ، وهو عليم بكل ما يصدر عن عباده ، وإن يضيع أجر من أحسن عملاً .

هذا ، وقد اختلفت أقوال الفقهاء في حكم السعى بين الصفا والمروة . فذهب من يرى أنه من أركان الحج كالإحرام والطواف والوقوف بعرفة . وإلى هذا الرأي ذهب الشافعي وأحمد بن حنبل ومالك في أشهر الروايتين عنه ومن حججهم أنه من أفعال الحج ، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد اهتم به وبادر إليه ، فقد روى الشيخان عن عمرو بن دينار قال : سألت ابن عمر عن رجل طاف بالبيت العمرة ، ولم يطف بين الصفا والمروة أتى امرأته ؟ فقال : قدم النبي (صلى الله عليه وسلم) فطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين ، وطاف بين الصفا والمروة . وقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة .

ومتهم من يرى أنه واجب يجبر بالدم ، وإلى هذا الرأي ذهب الأحناف ومن حججهم أنه لم يثبت بدليل قطعي فلا يكون ركناً .

ومنهم من يرى غير ذلك كما هو موضح في كتب الفقه .

ثم حض — سبحانه — على إظهار الحق وبيانه ، وتوعّد بالعقاب الشديد من يعمل على إخفائه وكتمانه .

فقال - تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا
 مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّهٗ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ
 يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا
 فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ
 أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٦٢﴾

قال الآلوسی : أخرج جماعة عن ابن عباس قال : سأل معاذ بن جبل ،
 وسعد بن معاذ ، وخارجة بن زيد نفرأ من أحبار يهود عما في التوراة من
 صفات النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن بعض الأحكام فكتموا ، فأنزل
 الله - تعالى - فيهم هذه الآية : إن الذين يكتمون . . . الخ ، (١) .
 والكنم والكنمان : إخفاء الشيء . قصدت مع مسيس الحاجة إليه وتحقق الداعي
 إلى إظهاره . وكنتم ما أنزل الله يتناول إخفاء ما أنزله ، وعدم ذكره للناس
 وإزالته عن موضعه ووضع شيء آخر موضعه ، كما يتناول تحريفه بالتأويل
 الفاسد عن معناه الصحيح جرياً مع الأهواء ، وقد فعل أهل الكتاب ولاسيما
 اليهود - كل ذلك . فقد كانوا يعرفون بما بين أيديهم من آيات أن رسالة
 محمد (صلى الله عليه وسلم) حق ، ولكنهم كتموا هذه المعرفة حسداً له
 على ما أتاه الله من فضله ، كما أنهم حرفوا كلام الله وأولوه تأويلاً فاسداً
 تبعاً لأهوائهم .

والمراد ، بما أنزلنا ، ما اشتملت عليه الكتب السماوية السابقة على القرآن من صفات النبي (صلى الله عليه وسلم) ومن هداية وأحكام .
 والمراد بالكتاب جنس الكتب ، فيصح حمله على جميع الكتب التي أنزلت على الرسل - عليهم السلام - . وقيل : المراد به التوراة .
 ود البيئات ، جمع بيعة ، والمراد بها الآيات الدالة على المقاصد الصحيحة بوضوح ، وهي ما نزل على الأنبياء من طريق الوحي .
 والمراد بالهدى ، ما يهدي إلى الرشده مطلقاً فهو أعم من البيئات ، إذ يشمل المعاني المستمدة من الآيات البيئات عن طريق الاستنباط ، والاجتهاد القائم على الأصول المحكمة .

و اللعن ، الطرد والإبعاد من الرحمة . يقال : لعنه ، أى : طرده وأبعده سائطاً عليه ، فهو لعين وملعون .

و المعنى : إن الذين يخفون عن قصد وتعمد وسوء نية ما أنزل الله على رسوله من آيات واضحة دالة على الحق ، ومن علم نافع يهدي إلى الرشده ، من بعد ما شرحناه وأظهرناه للناس في كتاب يتلى ، أولئك الذين فعلوا ذلك ، يلعنهم الله ، بأن يبعدهم عن رحمته ، ويلعنهم اللاعنون ، أى ويلعنهم كل من تتأخر منه اللعنة - كالملائكة والمؤمنين - بالدعاء عليهم بالطرده من رحمة الله لكتابتهم لما أمر الله بإظهاره .

وجملة : إن الذين يكتبون . . . الخ ، مستأنفة لبيان سوء عاقبة الكافرين لما أمر الله بإظهاره ، وأكدت بيان ، للاهتمام بهذا الخبر الذي ألقى على مسامع الناس .

وعبر في : يكتبون ، بالفعل المضارع ، للدلالة على أنهم في الحال يكتبون للبيئات والهدى ، ولو وقع بلفظ الماضي لتوهم السامع أن المقصود به قوم مضوا ، مع أن المقصود إقامة الحجة على الحاضرين .
 وقوله : من بعد ما بيناه للناس في الكتاب ، متعلق بـ يكتبون ، وقد دلت هذه الجملة الكريمة على أن مدحيتهم بالكتمان في أحط الدرجات وأقبحها ؛

لأنهم عمدوا إلى ما أنزل الله من هدى ، وجعله بينا للناس في سبب يعرفون ، فكتبوه قصداً مع تحقق المقتضى لإظهاره ، وإنما يفعل ذلك من بلغ الغاية في سفاهة الرأي ، وخبث الطوية .

واللام في قوله ، للناس ، للتعميل ، أى : بيناه في الكتاب لأجل أن ينتفع به الناس . وفي هذا زيادة تشنيع عليهم فيما أتوه من كتمان ، لأن فعلهم هذا مع أنه كتمان للحق ، فهو في الوقت نفسه اعتداء على مستحقه الذي هو في أشد الحاجة إليه .

وقوله : أولئك يعلمهم الله ويعلمهم اللاعنون ، يفيد نهاية الغضب عليهم ، حتى لكأنهم تحولوا إلى ملعنة ينصب عليها اللعن من كل مصدر ، ويتوجه إليها من كل من يستطيع اللعن ويؤديه .

والآية الكريمة وإن كانت نزلت في أهل الكتاب بسبب كتمانهم للحق ، إلا أن وعيدها يتناول كل من كتم علماً نافعاً ، أو غير ذلك من الأمور التي يقضى الدين بإظهارها ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن شواهد هذا العموم ما جاء في صحيح البخارى عن أبي هريرة قال : إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم تلا قوله تعالى :
 « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات . . . إلى قوله : « الرحيم » (١) .

قال ابن كثير : وقد ورد في الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة وغيره ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيام بلجام من نار ، (٢) .
 هذا ، وينبغي إن يعلم أن الإسلام وإن كان ينهى نهياً قاطعاً عن كتم العلم الذي فيه منفعة للناس ، إلا أنه يوجب على أتباعه - وخصوصاً العلماء - أن يحسنوا ما ينشرونه على الناس من علم ، ففي الحديث الشريف : حدثوا

(١) أخرجه للبخارى في كتاب العلم . باب حفظ العلم ج ١ ص ٤٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٠ .

الناس بما يفهمون أتعبون أن يكذب الله ورسوله .
 كما أنه يوجب عليهم أن يضعوا العلم في موضعه المناسب لمقتضى حال
 المخاطبين، فليس كل ما يعلم يقال، بل أحياناً يكون إخفاء بعض الأحكام مناسبة
 لأن إظهاره قد يستعمله الطاعة والالتزام، فيما يؤذى الناس، وفي صحيح البخارى
 أن الحجاج قال لانس بن مالك حدثنى بأشد عقوبة عاقبها النبى - ﷺ -
 فذكر له أنس حديث العرفيين الذين قتلوا للرعاة واستاقوا الإبل، حيث
 قطع النبى - صلى الله عليه وسلم - أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في
 الحرة حتى ماتوا . فلما بلغ الحسن البصرى ذلك قال : وددت أنه لم يحدته ؟؟
 انهم يتلقفون من ظاهره ما يوافق هواهم فيجعلونه ذريعة لهم فيما
 يعاملون به الناس من الظلم .

وما يشهد بفقده بعض العلماء وحسن إدراكهم، ووضعهم العلم في موضعه
 المناسب : ما جاء في بعض الكتب أن سلطان قرطبة سأل يحيى بن يحيى
 الليثى عن حكم يوم أفطره في رمضان عامداً لأن شهوته غلبته على وطء بعض
 جواريه، فأفتاه بأن من الواجب عليه أن يصوم ستين يوماً، وكان بعض
 الفقهاء جالساً فلم يجترأ على مخالفة يحيى . فلما انقضى المجلس قيل له :
 لم خصصت الحكم بأحد المخيرات وكتمت العتق والإطعام ؟ فقال - رحمه
 الله - لو فتحنا هذا الباب لو طى كل يوم وأعتق أو أطعم، فحملت على
 الأصعب لئلا يعود .

فالإمام يحيى عند ما كتّم عن السلطان الكفاريتين الأخيرين - وهما الاعتاق
 والإطعام - لا يعتبر مسيئاً؛ لأنه قد أحمل دليل دفع مفسدة الجراة على
 حرمة فريضة الصوم (١) .

وهكذا نرى أن إظهار العلم عند تحقق المقتضى لإظهاره، ووضعها في
 موضعه اللائق به بدون خشية أو تحريف يدل على قوة الإيمان، وحسن الصلة
 بالله - تعالى -، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ج ٢ ص ١٦ -

وبعد هذا الوعيد الشديد لأولئك الكافرين لما أمر الله بإظهاره ، أورد القرآن في أعقاب ذلك آية فتتح لهم نافذة الأمل ، وتبين لهم أنهم إذا تابوا وأنبأوا قبل الله توبتهم ورحمهم ، فقال - تعالى - « إلا الذين تابوا ، أي : رجعوا عن الكتمان وعن سائر ما يجب أن يتاب عنه ، وندموا على ما صدر عنهم ، وأصلحوا ، ما أفسدوه بالكتمان بكل وسيلة ممكنة ، وبينوا ، للناس حقيقة ما كتموه ، فأولئك أتوب عليهم ، أي : أقبل توبتهم ، وأفضل عليهم من رحمتي ومغفرتي ، ، وأنا التواب الرحيم ، أي : المبالغ في قبول التوبة ونشر الرحمة .

فآية الكريمة قد فتحت للكافرين لما يجب لإظهاره باب التوبة وأمرتهم بولوجه ، وأفهمتهم أنهم إذا فعلوا ما ينبغي وتركوا ما لا ينبغي وأخلصوا الله فياتهم ، فإنه - سبحانه - يقبل توبتهم ، ويفعل حوبتهم ، أما إذا استمروا في ضلالهم وكفرهم ، ومضوا في هذا الطريق المظلم حتى النهاية بدون أن يحدثوا توبة ، فقد بين القرآن مصيرهم بعد ذلك فقال : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، أي : إن الذين كفروا وكتموا ما من شأنه أن يظهر ، كإخفائهم النصوص المشتملة على البشارة بالنبي - صلى الله عليه وسلم - واستمروا على هذا الكفر والإخفاء حتى ماتوا .

« أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، أي : أولئك الذين وصفوا بما ذكر عليهم اللعنة المستمرة من الله والظرد من رحمته ، وعليهم كذلك اللعنة الدائمة من الملائكة والناس أجمعين عن طريق الدعاء عليهم بالإبعاد من رحمة الله .

وعبر عن أصحاب ذلك الكتمان بالفدين كفروا ، ليحضرهم في الأذهان بأشنع وصف وهو الكفر ، وليتناول الوعيد الذي اشتملت عليه الآية الكريمة كل كافر ولو بغير معصية الكتمان .

وجملة « وماتوا وهم كفار ، حالية ، و « أجمعين ، تأكيد بالنسبة إلى الكل لا للناس فقط .

والمراد بالناس جميعهم مؤمنهم وكافرهم ، إذ الكفار يلعن بعضهم بعضاً

يوم القيامة كما جاء في قوله - تعالى - « و يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض » . ويلعن بعضكم بعضاً » . وقيل المراد بهم المؤمنون خاصة لأنهم هم الذين يعتد بلعنهم .

وقوله « خالدین فیہا ، الخلود البقاء إلى غير نهاية ، ويستعمل بمعنى البقاء مدة طويلة . وإذا وصف به عذاب الكافر أريد به المعنى الأول ، أى : البقاء إلى غير نهاية والظاهر أن الضمير في قوله « فيها » يعود إلى اللعنة لأنها هي المذكورة في الجملة . وقيل أنه يعود إلى النار لأن اللعن إبعاد من الرحمة وإيجاب للعقاب والعقاب يكون في النار . وقوله « لا يخفف عنهم العذاب ، أى : أن المقدار الذي استحقوه من العذاب لا يتفاوت بحسب الأوقات شدة وضعفاً ، وإنما هم في عذاب سرمدي أليم ، كما قال - تعالى - « إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ، والزيادة في قوله - تعالى - « فدورقوا فإن نزيدكم إلا عذاباً ، حملها بعض العلماء على معنى استمرار العذاب ، فهي إشارة إلى الخلود فيه لا إلى الزيادة في شدته . وقوله « خالدین فیہا » إشارة إلى دوام العذاب وعدم انقطاعه . وقوله « لا يخفف عنهم » إشارة إلى كلفيته وشدته .

وقوله « ولا هم ينظرون ، أى : لا يملون ولا يؤخرون من العذاب كما كانوا يملون في الدنيا . من الإنظار بمعنى التأخير والإمهال . أو من النظر بمعنى الانتظار يقال : نظرته وانتظرته ، أى : أخرته وأمهلته ومنه قوله - تعالى - « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة » .

أو من النظر بمعنى الرؤية ، أى : لا ينظر الله إليهم نظر رحمة ورضا ولطف كما ينظر إلى عباده الصالحين ، لأنهم بكتبتهم للحق ، وكفرهم بالله ، استحقوا ما استحقوا من العذاب المهيمن . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد حضرت الناس بأسلوب تأديبي حكيم من كتمان الحق ، ومن الكفر بالله ، وفتحت أمامهم باب التوبة ليدخلوه

بصادق النية ، وصالح العمل ، وتوعدت من يستمر في ضلاله وطمغياته بأقسى أنواع العذاب ، وأغلظ ألوانه .

وبه أن حذر - سبحانه - من كتمان الحق ، عقب ذلك ببيان ما يدل على وحدانيته ، وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع فقال - تعالى - :

وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٦﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي
فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ
وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٧﴾

قوله : وإلهكم إله واحد ، معطوف على قوله : إن الذين ما يكتُمون ما أنزلنا ، عطف القصة على القصة ، والجامع - كما قال الألوسي - أن الأولى - وهي قوله : إن الذين يكتُمون .. ، مسوقة لإثبات نبوة النبي (صلى الله عليه وسلم) وجملة : وإلهكم إله واحد ، لإثبات وحدانية الله - تعالى - وإلإله في كلام العرب هو المعبود مطلقاً ولذلك تعددت الآلهة عندهم . والمراد به في الآية الكريمة المعبود بحق بدليل الإخبار عنه بأنه واحد . والمعنى : وإلهكم الذي يستحق العبادة والخضوع إله واحد فرد صمد . فمن عبد شيئاً دونه ، أو عبد شيئاً معه ، فعبادته باطلة فائدة ، لأن العبادة الصحيحة هي ما يتجه بها العابد إلى المعبود بحق الذي قامت البراهين الساطعة على وحدانيته وهو الله رب العالمين .

قال بعضهم : والإخبار عن إلهكم بإله تسكير ليجرى عليه الوصف بواحد ، والمقصود وإلهكم واحد لكنه وسط إله بين المبتدأ والخبر لتقرير

معنى الألوهية في المخبر عنه ، كما تقول : عالم المدينة عالم فائق ، وليجىء ما كان أصله خبراً مجيئاً. نعمت فيفيد أنه وصف ثابت للموصوف لأنه صار نعمتاً ، إذ أصل النعمت أن يكون وصفاً ثابتاً ، وأصل الخبر أن يكون وصفاً حادثاً ، وهذا استعمال متبع في فصيح الكلام أن يعاد الاسم أو الفعل بعد ذكره ليبنى عليه وصف أو متعلق كقوله : «ولذا مروا بالغوم مروا كراماً» (١).
وجملة «لا إله إلا هو» مقرر لما تضمنته الجملة السابقة من أن الله واحد لا شريك له ، ونافية عن الله - تعالى - الشريك صراحة ، ومثبتة له مع ذلك الإلهية الحقة ، ومزجحة لما عسى أن يتوهم من أن في الوجود إلهاً سوى الله - تعالى - لا يمكنه أن يستحق العبادة .

ومعناها : إن الله إله ، وليس شيء مما سواه بإله .
وهذه الجملة الكريمة خبر ثان المبتدأ وهو (إلهكم) أو صفة أخرى للخبر وهو (إله) وخبر (لا) محذوف أى لا إله موجود إلا هو ، والضمير (هو) في موضع رفع بدل من موضع لامع اسمها .
وقوله (الرحمن الرحيم) خبر مبتدأ محذوف ، وقيل غير ذلك من وجوه الإعراب .

والمعنى : وإلهكم الذى يستحق العبادة إله واحد ، لا إله مستحق لها إلا هو ، هو الرحمن الرحيم .

أى : المنعم بجلال النعم ودقائقها ، وهو مصدر الرحمة ، ودائم

الإحسان .

وأى : سبحانه - هذين اللفظين في ختام الآية ، لأن ذكر الإلهية والوحدانية يحضر في ذهن السامع معنى الفهر والغلبة وسعة المقدره وعزة السلطان ، وذلك مما يجعل القلب في هيبة وخشية ، فناسب أن يورد عقب ذلك ما يدل على أنه مع هذه العظمة والسلطان ، مصدر الإحسان ومولى النعم ، فقال (الرحمن الرحيم) ، وهذه طريقة القرآن في الترويج على

القلوب بالتبشير بعد ما يشير الخشية ، حتى لا يعترها اليأس أو القنوط .
وبعد أن أخبر - سبحانه - بأنه هو الإله الذي لا يستحق العبادة أحد
سواه ، عقب ذلك بإيراد ثمانية أدلة تشهد بوحديته وقدرته ، وتشتمل
على آيات ساطعات ، وبيّنات واضحات ، تهدي أصحاب العقول السليمة
إلى عبادة الله وحده ، وإلى بطلان ما يفعله كثير من الناس من عبادة مخلوقاته .
ويشتمل الدليل الأول والثاني على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة .
في قوله - تعالى - « إن في خلق السموات والأرض » .

الخلق : هو الإحداث للشيء . على غير مثال سابق . وهو هنا بمعنى
المخلوق . إذا الآيات التي تشهد لإتمامه في المخلوق الذي هو السموات والأرض .
والسموات : جمع سماء ، وهي كل ما علا كالسقف وغيره ، إلا أنها
إذا أطلقت لم يفهم منها سوى الأجرام المقابلة للأرض ، وهي سبع كما ورد
ذلك صريحاً في بعض الآيات التي منها قوله - تعالى - « الله الذي خلق
سبع سموات » .

وجمعت السموات لأنها طبقات ممتازة كل واحدة من الأخرى بذاتها .
الشخصية ، كما يدل عليه قوله - تعالى - « فسواهن سبع سموات » ، ولأن
إفرادها قد يوهم بأنها واحدة مع أن القرآن صريح في كونها سبعاً .
وجاءت الأرض مفردة - وهي لم تجيء في القرآن إلا كذلك - لأن
المشاهدة لا تقع إلا على أرض واحدة ، ومن هنا حمل بعض أهل العلم
تعددتها الذي يتبادر من ظاهر قوله - تعالى - « الله الذي خلق سبع سموات »
ومن الأرض مثلن ، على معنى أنها طبقات لا ينفصل بعضها عن بعض .
ومن الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته في خلق السموات ارتفاعها
بغير عمد كما يرى ذلك بالمشاهدة ، وتزيينها بالمصاييح التي جعلها الله
رجوماً للشياطين ، ووجودها بتلك الصورة العجيبة الباهرة التي لا ترمى فيها
أى تفاوت أو اضطراب ومن الآيات الدالة على وجود الله ووحديته وقدرته -

في خلق الأرض ، فرشها بتلك الطريقة الرائعة التي يتيسر معها للإنسان أن يتقلب في أرجائها ، ويمشي في مناكبها ، وينتفع بما يحتاج إليه منها أينما كان ، وتفجيرها بالانهار ، وعمارها بمحذات ذات ثمار تختلف ألوانها وتتفاضل أكلها . وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تتحدث عن نعم الله على عباده في خلق السموات والأرض ، وعن مظاهر قدرته ووحدانيته في إيجادها على تلك الصورة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، . وقوله - تعالى - « والأرض مددناها وألقينا فيها روائى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، .

وقوله - تعالى - « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم تلتقون ، . وقوله - تعالى - : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ، وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم لإخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبيلاً فجاجاً ، .

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الدالة على وجود الله وقدرته ووحدانيته . ويتمثل الدليل الثالث على قدرته سبحانه - ووحدانيته في قوله تعالى « واختلاف الليل والنهار ، ، والاختلاف : افتعال من الخلف ، وهو أن يجيء شيء عرضاً عن شيء آخر يخلفه على وجه التعاقب . والمراد أن كلا من الليل والنهار يأتي من الآخر وفي أعقابه ، ويجوز أن يكون المراد باختلافهما ، في أنفسهما بالطول والقصر ، واختلافهما في جنسهما بالسواد والبياض . والليل : هو الظلام المعاقب للنهار ، واحده ليلة كتمر وتمر . والنهار : هو الضياء المتسع ، وأصله الإتساع ، ومنه قول الشاعر :

ملكوتها كفى فأنهرت فتقها يرى قائم من دونها ما ورأها

أى : أوسعت فتقها .

وقد جعل الله الليل للسكون والراحة والعبادة لمن وقفه الله لقضاء جانب

منه في مناجاته - سبحانه - ، وجعل النهار للعمل وإبتغاء الرزق .

قال - تعالى - « وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً » .

وقد أضيف الاختلاف لكل من الليل والنهار ، لأن كل واحد منهما

يختلف الآخر فتحصل منه فوائد سوى فوائد الآخر ، بحيث لو دام أحدهما

لا نقلب النفع ضراً .

قال - تعالى - : « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ،

من إله غير الله يأتاكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار

سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتكم بليل تسكنون فيه

أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا

من فضله ولعلكم تشكرون » .

ومن العظائم التي تؤخذ من هذا الاختلاف أن مدد الليل والنهار تختلف

فلكل منهما مدة يستوفى فيها من السنة بمقتضى نظام دقيق مطرد ،

قال - تعالى - « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق

النهار ، وكل في فلك يسبحون » . وكون الليل والنهار يسيران على هذا النظام

الدقيق المطرد الذي لا ينخرم دليل على أن هذا الاختلاف تدبير من إله

قادر حكيم لا يدخل أفعاله تفاوت ولا اختلال .

وإذا كان لهذا الاطراد أسباباً يتحدث عنها العلماء ، فإن الذي خلق

الأسباب وجعل بينها وبين هذا الاختلاف تلازماً إنما هو الإله الواحد القهار .

أما المظهر الرابع من المظاهر العادلة في هذا الكون على قدرته - سبحانه -

ووحدايته وألوهيته ، فقد تحدثت عنه الآية في قوله - تعالى - « والفلك التي

تجرى في البحر بما ينفع الناس » .

الفلك : ما عظم من السفن ، ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع .
والظاهر أن المراد به هنا الجمع بدليل قوله - تعالى - « التي تجرى في البحر ،
ولو كان هذا اللفظ المفرد لقال : الذي يجرى ، كما جاء في قوله - تعالى -
« وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ، والجملة السكريمة معطوفة
على خلق السموات والأرض .

قال صاحب المنار : وكان الظاهر أن تأتي هذه الجملة في آخر الآية ليكون
حسب للإنسان فيه صنع على حدة وما ليس له فيه صنع على حدة ، والنكتة في ذكرها
عقيب آية الليل والنهار ، هي أن المسافرين في البر والبحر هم أشد الناس حاجة
إلى تحديد اختلاف الليل والنهار ومراقبته على الوجه الذي ينتفع به ،
والمسافرون في البحر أحوج إلى معرفة الأوقات وتحديد الجهات ، لأن خطر
الجهل عليهم أشد ، وفائدة المعرفة لهم أعظم ، ولذلك كان من ضروريات
رباني السفن معرفة علم النجوم ، وعلم الليل والنهار من فروع هذا العلم . قال
- تعالى - « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ،
فهذا وجه بين ذكر الفلك وما قبله ، (١) .

و « ما » في قوله « بما ينفع الناس ، مصدرية ، والباء للسببية أي : تجرى
بسبب نفع الناس ولأجله في التجارة وغيرها . أو موصولة والباء للحال ، أي
تجرى مصحوبة بالأعيان التي تنفع الناس . وخص - سبحانه - النفع بالذكور
وإن كانت السفن تحمل ما ينفع وما يضر ؛ لأن المراد هنا عد النعم ، ولأن
الذي يحمل فيها ما يضر غيره هو في الوقت نفسه يقصد منفعة نفسه .

ومن وجوه الاستدلال بالفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس على
وجود الله وقدرته ، أن هذه الفلك وإن كانت من صنع الناس إلا أن الله
- تعالى - هو الذي خلق الآلات والأجزاء التي صارت بها سفناً ، وهو الذي

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٥٩ .

سخر البحر لتجرى فيه مقبلة ومدبرة مع شدة أهواله إذا هاج ، وهو الذى جعلها تشق أمواجه شقاً حتى تصل إلى بر الأمان ، وهو الذى رعاها برعايته وهى كنقطة صغيرة فى ذلك الماء الواسع ، ووسط تلك الأمواج الملاطمة حتى وصلت إلى ساحل السلامة وهى حاملة للكثير مما ينفع الناس من الأطعمة والأشربة والامتنعة المختلفة ، فسبحانه من إله قادر حكيم .

الدليل الخامس والسادس على أنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة يتمثل فى قوله - تعالى - فى هذه الآية « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة » .

والمراد بالسماء : جهة العلو ، أى : وما أنزل من جهة السماء من ماء ، و « من » فى قوله « من السماء » ابتدائية ، وفى قوله « من ماء » بيانية ، وهما ومجروهما متعلقان بأنزل .

والمراد بإحياها : الأرض : تحرك القوى النامية فيها ، وإظهار ما أودع الله فيها من نبات وزهور وثمار وغير ذلك .

والمراد بموتها : خلوها من ذلك باستيلاء البيوسة والقحط عليها . قال - تعالى - « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت

وأنبتت من كل زوج بهيج » .

والبث : التفريق والنشر لما كان خافياً ، ومنه بث الشكوى أى : نشرها وإظهارها ، وكل شئ بثثته فقد فرقته ونشرته ، والضمير فى قوله « فيها » يعود إلى الأرض .

والدابة : اسم من الديدب والمثى بيطء ، كل ما يمشى فوق الأرض فهو بحسب الوضع اللغوى يطلق عليه دابة . والظاهر أن المراد بالدابة هنا هذا المعنى العام ، لا ما يجرى به العرف الخاص باستعماله فى نوع خاص من الحيوانات كذوات الأربع .

وجملة « وما أنزل الله من السماء من ماء . . . » معطوفة على ما قبلها . وجملة « وبث فيها من كل دابة ، معطوفة على قوله « فأحيا به الأرض بعد موتها » .

والمعنى : وإن فيما أنزله الله من جهة السماء من ماء مبارك ، همرت به الأرض بعد خرابها ، وانتشرت فيها أنواع الدواب كلها ، لدابلي ساطع على قدرة الله ووحدانيته .

ذلك لأنه هو وحده الذى أنزل المطر من السماء ولو شاء لأمسكه مع أن الماء من طبعه الانحدار ، وهو وحده الذى جعل الأرض التى نعيش عليها قويت من كل زوج بهيج بسبب ما أنزل عفيها من ماء ، وهو وحده الذى نشر على هذه الأرض أنواعاً من الدواب مختلفة في طبيعتها وأحجامها. وأشكالها. وألوانها ، وأصواتها ، ومآكلها ، وحملها ، وتناسلها ، ووجوه الانتفاع بها ، وغير ذلك من وجوه الاختلاف الكثيرة ، مما يشهد بأن خالق هذه الكائنات إله واحد قادر حكيم .

أما الدليل السابع والثامن في هذه الآية على قدرته - سبحانه - ووحدانيته واستحقاقه للعبادة فهما قوله - تعالى - « وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض » .

الرياح جمع ريح وهى نسيم الهواء .

وتصريفها : تقليبها في الجهات المختلفة ، ونقلها من حال إلى حال ، وتوجيهها على حسب إرادته - سبحانه - ووفق حكمته . فتهب تارة صباً ، أى من مطلع الشمس ، وتارة دبوراً ، أى : من جهة الجنوب ، وأحياناً تهب من جهة الشمال أو الجنوب وقد يرسلها - سبحانه - عاصفة وليئة ، حارة أو باردة لو افح بالرحمة حينئذ وبالغضب آخر . و « تصريف ، مصدر صرف مضاف للمفعول والفاعل هو الله ، أى : وتصريف الله الرياح . أو مضاف للفاعل والمفعول السحاب ، أى : وتصريف الرياح السحاب .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بعد إحياء الأرض بالمطر وبت الدواب فيها للتناسب بينهما ، وتفد كبيراً بالسبب إذ بالرياح تكون حياة النباتات والحيوان وكل دابة على الأرض ، ولو أمسك - سبحانه - الرياح هن التصريف لما عاش كائن على ظهر الأرض .

والسحاب : عطف على ما قبله ، وهو اسم جنس واحده سبحانه ، سمي بذلك لا نسحابه في الجو أو لجر الرياح له .

والمسخر : من التسخير وهو التذليل والتيسير ، ومعنى تسخيره - كما قال الألوسي - أنه لا ينزل ولا يزول مع أن الطبع يقتضى صعوده إن كان لطيفاً وهبوطه إن كان كثيفاً - وهو صفة للسحاب باعتبار لفظه ، وقد يعتبر معناه فيوصف بالجمع كما في قوله : « سحاباً ثقلاً » .

والظرف « بين » يجوز أن يكون منصوباً بقوله المسخر فيكون ظرفاً للتسخير ، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير المستتر في اسم المفعول فيتعلق بمحذوف أى : كائناً بين السماء والأرض .

وجاء ذكر السحاب بعد تصريحه بالرياح لأنها هي التي تثيره وتجمعه ، وهي التي تسوقه إلى حيث ينزل مطراً في الأماكن التي يريد الله إحياءها . قال - تعالى - « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله » .

ولاشك أن هذا التصريف للرياح مع أنها جسم لطيف لا يمك ولا يرى ، وهي مع ذلك في غاية القوة بحيث تقلع الأشجار وتخرب الديار ، وهذا التسخير للسحاب بحيث يبقى معلقاً بين السماء والأرض مع حمله للامياه العظيمة التي تسيل بها الأودية المتسعة . . . لا شك أن كل ذلك من أعظم الأدلة على أن لهذا الكون مدبراً قادراً حكيماً هو الله رب العالمين . وقوله « لايات لقوم يعقلون » اسم « إن » لقوله - تعالى - في أول الآية : « إن في خلق السموات والأرض ، ودخلت اللام على الاسم وهو « لايات » لتأخره عن الخبر والتنكير للعظيم والتفخيم كما وكيفا .

أى : إن فيما ذكره الله من مخلوقاته العجيبة ، وكائناته الباهرة ، للدلائل ساطعة ، وآيات واضحة ترشد من يعقلون ويتدبرون فيها ، إلى أن لهذا الكون إلهاً واحداً قادراً حكيماً مستحقاً للعبادة والخضوع والطاعة .

وموقع هذه الآية الكريمة من سابقها كوقع الحجة من الدعوى ، ذلك
 ن الله - تعالى - أخبر في الآية السابقة أن الإله واحد لا إله غيره وهي قضية
 د تلقاها كثير من الناس بالإنكار ، فناسب أن يأتي هذه الآية الكريمة بالحجج
 البراهين التي لا يسع الناظر فيها بتدبر وتفكير إلا التسليم عن اقتناع
 وحدانية الله - تعالى - وقدرته .

قال الإمام الرازي : واعلم أن النعم على قسمين : نعم دنيوية ونعم دينية
 هذه الأمور الثمانيّة ، التي عدها الله - تعالى - نعم دنيوية في الظاهر ، فإذا
 فكر العاقل فيها ، واستدل بها على معرفة الصانع ، صارت نعماً دينية ، لكن
 لا انتفاع بها من حيث إنها نعم دنيوية لا يكمل إلا عند سلامة الحواس وصحة
 المزاج فكذا الانتفاع بها من حيث إنها نعم دينية لا يكمل إلا عند سلامة العقول
 وانفتاح بصير الباطن ، فلذلك قال د لآيات القوم يعقلون ، (١) .

وقال الألوسي : أخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة رضي الله
 عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما قرأ هذه الآية قال : « ويل لمن
 قرأها ولم يتفكر فيها » .

ثم قال الألوسي : ومن تأمل في تلك المخلوقات التي وردت في هذه الآية
 وجد كلا منها مشتملاً على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده - تعالى -
 ووحديته وسائر صفاته الموجبة لتخصيص العبادة له ، ومجمل القول في ذلك
 أن كل واحد من هذه الأمور المحدودة قد وجد على وجه خاص من الوجوه
 الممكنة دون ما عداه ، مستتبعا لآثار معينه ، وأحكام مخصوصة . . . وفي
 الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية ، وتنبيه على شرف علم الكلام
 وفضل أهله ، وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة ، (٢) .
 والحق أن هذه الآية الكريمة قد اتجهت في تثبيت عقيدة وحدانية الله

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٢٢٩ .

(٢) تفسير الألوسي ج ٢ ص ٣٢ .

وقدرته وألوهيته إلى تنبيه الحواس والمدارك والمشاعر إلى ما - - -
 المشاهد المنظور من آيات ودلائل على حقيقة الخالق - عز وجل - بالعبادة.
 وهذه الطريقة من تنبيه الحواس والمدارك جديرة بأن تفتح الأبصار
 والبصائر على عجائب هذا الكون، تلك العجائب التي أصبحت عند كثير من
 الناس شيئاً مألوفاً بسبب عدم تدبرهم لما فيها من عظات وعبر وصدق الله
 إذ يقول، وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها
 معرضون . . .

ورحم الله القائل : ألا إن لله كتابين : كتاباً مخلوقاً وهو الكون، وكتاباً
 مغزلاً وهو القرآن . وإنما يرشدها هذا إلى طريق العلم بذلك بما أوتينا من العقل.
 فن أطلع فهو من الفائزين ، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون .
 وبعد أن ذكر - سبحانه - جانباً من الآيات الدالة على ألوهيته ووحديته
 أورد ذلك ببيان حال المشركين ، وما يكون منهم يوم القيامة من تدابر
 وتقاطع وتحسر هل ما فرط منهم فقال - تعالى - :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ
 الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا
 مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
 أُورَشَلِيمَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ اتَّبَعُوا إِنَّهُمْ لَا كَافِرِينَ مِنَّا بِكُلِّ بَابٍ
 يُرِيدُ اللَّهُ أَنَّمَّا أَكْمَلُوا لِنَفْسِهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

الانداد : جمع ند ، وهو مثل الشيء الذي يصاده وينافره ويتقاعد عنه .
 هو أصله من ند البعير يند فنداً ونداداً وندوداً ، أى : نفر وذهب على وجهه
 شاردأ . ويرى بعض العلماء أن المراد بالانداد هنا الأصنام التي اتخذها
 المشركون آلهة للتقرب بها إلى الله ، وقيل : المراد بها الرؤساء الذين كانوا
 يطبعونهم فيها يحملونه لهم ويحرمونه عليهم . والأول ، إن يكون المراد بهذه
 الانداد كل مخلوق أسند إليه أمر يختص به الله - تعالى - من نحو التحليل ،
 والتحريم وإيصال النفع وغير ذلك من الأمور التي انفرد بها الخالق
 - عز وجل - .

والمعنى : أن من الناس من لا يعقل تلك الآيات التي دلت على وحدانية الله
 وقدرته ، وبلغت بهم الجهالة أنهم يخضعون لبعض المخلوقات خضوعهم لله فيزعم
 أنها مشابهة ومماثلة ومناظرة له - سبحانه - في النفع والضر ، ويحبون تعظيم
 تلك المخلوقات وطاعتها والتقرب إليها والإقياد لها حباً يشابه الحب اللازم
 عليهم نحو الله - تعالى - ، أو يشابه حب المؤمنين لله ،

و « من » في قوله « ومن الناس » للتبويض ، والجار والمجرور خبر مقدم
 و « من » في قوله « من يتخذ » في محل رفع خبر مبتدأ مؤخر ، و « من دون
 الله » حال من ضمير يتخذ و « ناداداً » مفعول به ليتخذ .

قال الجمل : وجملة « يحبونهم كحب الله » فيها ثلاثة أوجه : أحدها
 أن تكون في محل رفع صفة لمن في أحد وجهيها ، والضمير المرفوع يعود
 عليها باعتبار المعنى بعد اعتبار اللفظ في يتخذ . والثاني : أن تكون في محل
 نصب صفة لانداداً والضمير المنصوب يعود عليهم والمراد بهم الأصنام ،
 وإنما جمعوا جمع العقلاء لمعاملتهم معاملة العقلاء . أو أن يكون المراد بهم
 من عبد من دون الله عقلاء وغيرهم ثم غلب العقلاء على غيرهم . الثالث :
 أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير في يتخذ ، والضمير المرفوع

عائد على ما عاد عليه الضمير في يتخذ وجمع حملاً على المعنى (ر) .
ثم مدح - سبحانه - عباده المؤمنين فقال : « والذين آمنوا أشد حياءً لله -
أي : والذين آمنوا وأخلصوا له العبادة أشد حياءً له - سبحانه - من كل
ما سواه ، ومن حب المشركين للأنداد ، ذلك لأن حب المؤمنين لله متولد عن
أدلة يقينية ، وعن علم تام ، بيدع حكمته - سبحانه - وبالغ حجته ، وسعة
رحمته ، وعدالة أحكامه ، وعزة سلطانه ، وتفرد به الكمال المطلق ، والحب
المتولد عن هذا الطريق يكون أشد من حب المشركين لمعبوداتهم لأن حب
المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام والتقاليد الباطلة .
والتصريح بالأشدية في قوله « أشد حياءً » ، أبلغ من أن يقال « أحب لله »
إذ ليس المراد الزيادة في أصل الفعل - كما يقول الألوسي - بل المراد الرسوخ
والتثبيت . وقيل : عدل عن أحب إلى أشد حياءً ، لأنه شاع في الأشد محبوبة
فعدل عنه احترازاً عن اللبس .

ولقد ضرب المؤمنون الصادقون أروع الأمثال في حبهيم لله - تعالى - لأنهم
ضحوا في سبيله بأرواحهم وأموالهم وأبنائهم وأغلى شيء لديهم ، ولأنهم لم
يعرفوا عملاً يرضيه إلا فعلوه ، ولم يعرفوا عملاً يفضيه إلا اجتنبوه .
ثم أخبر - سبحانه - عما ينتظر الظالمين من سوء المصير فقال : « ولو يرى
الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ،
« لو » شرطية ، وجوابها محذوف لقصد التحويل والتذهب النفس في تصويره
كل مذهب . « والقوة ، القدرة والسلطان .

والمعنى : ولو يرى أو أرائك المشركون حين يشاهدون العذاب المعد لهم
يوم القيامة أن القدرة كلها لله وحده ، وأن هذا الذي يصيب به المتخبطين
في ظلمات الشرك شديد ، لو يعلموا ذلك ، لرأوا ما لا يوصف من الهول
والفضاعة ، ولو قعوا فيما لا يكاد يوصف من الحسرة والندامة .

وكان الظاهر بمقتضى تقدم ذكرهم أن يقال : ولو يرون إذ يرون . ولكن وضع الموصول وصلته موضع الضمير ، ليحضر في ذهن السامع أنهم صاروا باتخاذهم الأعداء من الظالمين ، وليشعر بأن سبب رقيتهم العذاب الشديد هو ذلك الظلم العظيم .

وعبر بالماضى في قوله « إذ يرون العذات » لتحقيق الوقوع ، وكل ما كان كذلك فإنه يجرى مجرى ما وقع وحصل .

وجملة « أن القوة لله جميعاً » بدت مسد مفعولى يرى ، وانتصب لفظ « جميعاً » على التوكيد للقوة . أى . جميع جنس القوة ثابت لله ، وهو مبالغة في عدم الاعتداد بقوة غيره ، ففاد جميع هنا مفاد لام الاستغراق في قوله « الحمد لله » .

وجملة « وأن الله شديد العذاب » معطوفة على ما قبلها ، وفائدتها المبالغة في تفضيع الخطب ، وتحويل الأمر ، فإن اختصاص القوة به - تعالى - لا يوجب شدة العذاب لجواز تركه عفواً مع القدرة عليه . هذا ، وقد قرأ نافع وابن عمر « ولو ترى » ، بآثناء على الخطاب للنبي - صلى الله عليه وسلم - أو لئى من يتأتى له الخطاب .

أى : لو ترى ذلك أيها الرسول الكريم أو أيها المخاطب لرأيت أمراً عظيماً في الفظاعة والهول .

وقوله - تعالى - « إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا . . . » ، بدل من قوله : « إذ يرون العذاب » . أو مفعولاً به بتقدير اذكر . و « تبرا » من التبرؤ وهو التخلص والتنصل والتباعد ، ومنه برئت من الدين أى : تخلصت منه ، وبرأ المريض من مرضه ، أى : تخلص من مرضه .

والمراد بالذين اتبعوا : أئمة الكفر الذين يحملون ويحرمون ما لم يأذن به الله .

والمراد بالذين اتبعوا : أتباعهم وأشباعهم الذين يتلقون جميع اقوالهم
بالطاعة والخضوع بدون تدبر أو تعقل .

وجملة « ورأوا العذاب » حال من الاتباع والمتبوعين ، والضمير
يعود على الفريقين . أى : تبرؤوا جميعاً من بعض فى حال رؤيتهم للعذاب .
وجملة « وتقطعت بهم الأسباب » معطوفة على تبرأ ، أو رأوا .

والباء فى « بهم » للسببية أى : وتقطعت بسبب كفرهم الأسباب التى
كانوا يرجون من ورأها النجاة . وقيل للملابسة أى : تقطعت الأسباب
ملتبسة بهم فخابت آمالهم وسقطوا صرعى .

وه « الأسباب » جمع سبب ، وهو فى الأصل الحبل الذى يرتقى به
الشجر ونحوه ، ثم سمي به كل ما يتوصل به إلى غيره ، عيناً كان أو معنى .
فيقال للطريق سبب ، لأنك بسلكه تصل إلى الموضع الذى تريد ، ويقال
للمودة سبب لأنك تتواصل بها إلى غيرك ، والمراد بالأسباب هنا : الوشائج
والصلات التى كانت بين الاتباع والمتبوعين فى الدنيا ، من القرابات
والمودات والأحلاف والاتفاق فى الدين . . الخ .

والمعنى : واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ يوم القيامة ، ذلك يوم الهائل
الشديد الذى يتصل فيه الرؤساء من مرؤسيهم ، والاتباع من متبوعيهم حال
رؤيتهم جميعاً للعذاب وأسبابه ومقدماته وما أعد لهم من شقاء وآلام ، وقد
ترقب على كل ذلك أن تقطع ما بين الرؤساء والأذئاب من روابط كانوا
يتواصلون بها فى الدنيا ، وصار كل فريق منهم يلعن الآخر ويتبرق منه .
قال بعض العلماء : وفى قوله « وتقطعت بهم الأسباب » استعارة تمثيلية ،
لإذ شبهت هيئة عند خيبة أمالهم حين لم يجدوا النعم الذى تعبوا لأجله مدة
حياتهم وقد جاء لإبانه فى ظنهم فوجدوا عوضه العذاب ، بحال المرتقى إلى
النخلة ليحتمى الثمر الذى كد لأجله طول السنة فتقطع به السبب - أى الحبل -
عند ارتفاعه فسقط هالكا ، فكذلك هؤلاء قد علوا جميعاً حينئذ أن لإنجاة

نظم ، فحالمهم كحال الساقط من علو لا ترجى له سلامة . وهي تمثيلية بديهة
تتضمن على سبعة أشياء كل واحد منها يصلح لأن يكون مشبهاً بواحد من
الأشياء التي تشتمل عليها الهيئة المشبهة بها وهي :

تشبيهه المشرك في عباداته الأصنام بالمرتقى بجامع السعى ، وتشبيهه العبادة
وقبول الآلهة منه بالحبل الموصل ، وتشبيهه النعيم والثواب بالثمرة في أعلى النخلة
لأنها لا يصل إليها المرء إلا بعد طول وهو مدة العمر ، وتشبيهه العمر بالنخلة
في الطول ، وتشبيهه الحرمان من الوصول للنعيم بتقطع الحبل ، وتشبيهه الخيبة
بالبعد عن الثمرة ، وتشبيهه الوقوع في العذاب بالسقوط المهلك . . . (١)

ثم بين - سبحانه - ما قاله الاتباع على سبيل الحسرة والندم فقال :

(وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبتروا منا) .

الكرة : الرجعة والعودة . يقال : كر يكر كراً : أى : رجع . (ولو)
المعنى . وقوله (فنتبرأ منهم) منصوب بعد الغاء بأن مضمره في جواب التمنى
الذي أمرتبه لو ، والكاف في قوله (كما تبتروا منا) في محل نصب نعت
لمصدر محذوف أى تبرأ مثل تبرئهم .

والمعنى : وقال الذين كانوا تابعين لغيرهم في الباطل بدون تعقل أو تدبر
ليت لنا رجعة إلى الحياة الدنيا فنتبرأ من هؤلاء الذين اتبعناهم وأضلونا
السبيل كما تبتروا منا في هذا اليوم العصيب ، ولنشقى غيظنا منهم لأنهم
خفلونا وأوردونا موارد التهلكة والعذاب الأليم .

وقوله - تعالى - (كذلك يريد الله أعمالهم حسرات عليهم) تذييل
لأن كيد الوعيد ، وبيان لحال المشركين في الآخرة .

قال الألوسي : وقوله (كذلك) في موضع المفعول المطلق لما بعده ،
والمشار إليه الإراء المقهوم من قوله (إذ يرون) أى : كإراء العذاب الملتبس
بظهور أن العقوبة لله والتبرى وتقطع الأسباب وتمنى الرجعة ، يريد الله أعمالهم
حسرات عليهم . وجوز أن يكون المشار إليه المصدر المقهوم بما بعد والكاف

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢ ص ٩٣ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

مقحمة لتأكيد ما أفاده اسم الإشارة من الضخامة . أى : مثل ذلك الآراء الفطرية
يرهبهم على حد ما قيل في قوله - تعالى - ، وكذلك جعلناكم أمة وسطاء (١) .
والمراد بأعمالهم : المعاصي التي ارتكبوها وفي مقدمتها اتباعهم لمن أضلواهم .
و د حسرات ، جمع حسرة ، وهى أشد درجات الندم والغم على
ما فات . يقال : حسرت يحسر حسراً فم - وحسير ، إذ اشتدت فدامتة على
أمر فاته .

قال الرازى : وأصل الحسر الكشف . يقال حسر ذراعيه أى : كشف
والحسرة إنكشاف عن حال الندامة . والحسور الإعياء لأنه إنكشاف
الحال عما أوجبه طول السفر . قال - تعالى - ، ومن عنده لا يستكبرون
عن عبادته ولا يستحسرون ، (٢) .

والمعنى : كما أرى الله - تعالى - المشركين الغفاب وما صاحبه من
التبرق وتقطع الأسباب بينهم ، يربهم - سبحانه - أعمالهم السيئة يوم
القيامة فتكون حسرات تتردد في صدورهم كأنها شر الجحيم .
ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة أمرهم فقال : وما هم بخارجين
من النار .

أى : وما هم بخارجين من تلك النار التي عوقبوا بها بسبب شركهم ،
بل هم مستقرون فيها استقراراً أبدياً ، وقد جاءت الجملة اسمية لتأكيد نفي
خروجهم من النار ، وبيان أنهم مخلدون فيها كما قال - تعالى - في آية أخرى
: كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها .

وهكذا يسوق لنا القرآن ما يدور بين التابعين والمتبوعين يوم القيامة
من تنصل وتحسر وتحاصم بتلك الطريقة المؤثرة ، حتى لكأنك أمام مشهد
مجسم ، ترى فيه الصور للشاخصة حاضرة . وذلك لون من ألوان بلاغة
القرآن في عرضة للحقائق ، حتى تأخذ سبيلها إلى النفوس الكريمة ،

(١) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٢٦

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٢٣٨

وَتَوَقَّى ثَمَارَهَا الطيبة في القلوب السليمة .

ثم وجه القرآن نداء عاما إلى البشر أمرهم فيه بأن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات ، ونهاهم عن اتباع وساوس الشيطان فقال - تعالى -

يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوًّا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

«كلوا ، صيغة أمر واردة في معنى الإباحة .

والحلل : ما أذن الله في تناوله من مطعومات أو مشروبات .
قال الرازي : وأصله من الحل الذي هو تقيض العقد ، ومنه حل بالمكان إذا نزل ، لأنه حل شد الارتحال للنزول ، وحل الدين إذا وجب لانهلال العقدة بانقضاء المدة ، وحل من إحرامه ، لأنه حل عقدة الإحرام . ثم قال : واعلم أن الحرام قد يكون حراما لحبسه - في ذاته - كالميتة والدم ولحم الخنزير ، وقد يكون حراما لو صف عارض كملك الغير إذا لم يأذن في أكله ، - فحرمته لتعلق حق الغير به - فالحلل هو الخالي عن هذين القيدين ، (١) والطيب : هو المستلذ المستطاب الذي تقبل عليه النفوس الطاهرة وتبسط لتناوله ، وإنما تبسط النفوس الطاهرة لتناول طعام غير قذر ولا موقع في تهلكة ، إذ القذر ينفر منه الطبع السليم ، والموقع في تهلكة يحجج العقل القويم و « من ، في قوله « وما في الأرض » للتبغيض ، لأن بعض ما في الأرض كالحجارة - مثلا - لا يؤكل ، ولأنه ليس كل ما يؤكل يجوز أكله فلذلك قال : « حللا طيبا . . . » .

وقوله « حللا » مفعول به لقوله « كلوا » أو حال عما في الأرض ،

(١) تفسير الفخر الرازي - بتصرف وتلخيص ج ٥ ص ٢

أى : كلوه حال كونه حلالا . أو صفة لمصدر محذوف ، أى : كلوه أكلا - حلالا .

وقوله ، طيبا ، صفة مقررّة ومؤكدّة لمعنى يستفاد من قوله « حلالا » وهو طهارة الماء كقول وخلوه من القذارة ، وعدم إبقاعه في ضرر .

قال الألوسى : وفائدة وصف الحلال بالطيب تعميم الحكم كما في قوله - تعالى - وما من دابة في الأرض ، ليحصل الرد على من حرم بعض الحلالات فإن النكرة الموصوفة بصفة عامة تعمم ، بخلاف غير الموصوفة ، (١) .

والمعنى : يا أيها الناس لقد أباح الله لكم أن تأكلوا من كل ما تحويه الأرض من المظومات التي أحلت لكم ، والتي تستأذيها النفوس الكريمة ، والقلوب الطاهرة ، فتمتعوا بهذه الطيبات في غير سرف أو غرور ، واشكروا الله - تعالى - على ما رزقكم من نعم .

ولقد أمر الله عباده في كثير من الآيات أن يتمتعوا بما أحله لهم من طيبات ومن ذلك قوله - تعالى - : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

وفي صحيح مسلم عن عياض المجاشعي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال ذات يوم في خطبته : « ألا إن ربي أمرني أن أهلكم ما جهلتم مما علمنى ، يومى هذا . يقول الله - تعالى - : كل مال نحلته - أى منحه - عبادى فهو لهم حلال ، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإلهم أئمتهم الشياطين فاجتاتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا . . . » .

الشياطين فاجتاتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن الآيات عند النبى (صلى الله عليه وسلم) « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، فقام سعد بن أبى وقاص فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجابا »

الدعوة ، فقال : يا سعد ! أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيام عيد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به ، (١) .
وليس من الورع ولا الزهد المرضى عنه شرعاً ترك بعض المباحات ، فإن الله سوى فيها بين الفعل والترك ، ومن يجعل تركها من الورع ، والورع مندوب ، فسكاته يقول : إن الترك راجح على الفعل ،

وكان الحسن البصرى - وهو من أجل التابعين - يقوم عرج من يعدون من الزهد المحمود الامتناع عن تناول بعض المباحات كالأطعمة اللذيذة .
يحكى عنه أنه شهد يوماً وليمة ، فرأى رجلاً يرفع يده عند ما قدمت الحلوى فقال له الحسن : كل يا كع فلنعمه الله عليك في الماء البارد أعظم من نعمته في هذه الحلوى .

ودخل عليه مرة أحد الزهاد فقال له الحسن : أنجب الخبيص - وهو طعام لذيق - فقال الزاهد : لا أحبه ولا أحب من يحبه ! فأقبل الحسن على جلسائه وقال لهم : أثرونه مجنوناً .

والخلاصة : أنه لا ورع في ترك المباح الذي أحله الله من حيث فيه متعة للنفس ، فذلك هو التنطع في الدين ، وإنما الورع في ترك الإكثار من تناول تلك المباحات ، لأن الإكثار منها قد يؤدي إلى الوقوع فيما نهى الله عنه .
هذا ، وقد أورد بعض المفسرين آثاراً تدل على أن هذه الآية نزلت في قوم معينين .

قال الألوسى : نزلت في المشركين الذين حرموا على أنفسهم البحيرة والسائبة والوصلة والحام ، وقبيل نزلت في قوم من ثقيف وبنى عامر ابن صعصعة وخزاعة وبنى مداح حيث حرموا التمر والاقط على أنفسهم ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٠٣ طبعة عيسى الحلبي .

(٢) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٢٨ .

والذي نراه أن الخطاب في الآية لجميع المكلفين من البشر ، وأنها واردة لتنفيذ آراء الذين يحرمون على أنفسهم مطعومات لم يقم دليل من الشارع على تحريمها ، إذ العبرة بمعوم اللفظ لا بخصوص السبب .

ثم قال - تعالى - « ولا تتبعوا خطوات الشيطان » .

الخطوات : جمع خطوة كغرفة وقيل جمع خطوة كقبضة ، وهي في الأصل ما بين القدمين عند المشي ، وتستعمل على وجه المجاز في الآثار .

أى : كلوا أيها الناس من الطيبات التي أحلها الله لكم . ولا تتبعوا آثار الشيطان وزلانه ووساوسه وطرقه التي يحرم بها الحلال ويحلل الحرام والتي يقدفها في صدور بعض الناس فتجعلهم ينتقلون من الطاعات إلى المعاصي . وفي الجملة الكريمة استعارة تمثيلية ، إذ أن السائر في طريق إذا رأى آثار خطوات السائرين تتبع ذلك المسلك ظناً منه بأن ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب ، فثبته المقتدى الذي لا دليل معه سوى المقتدى به وهو يظن مسلكه موثقاً ، بالذي يتبع خطوات السائرين ، وشاعت هذه الاستعارة حتى صاروا يقولون هو يتبع خطا فلان بمعنى يقتدى به . وقوله فإنه لكم عدو مبين ، تعليل للنهي عن اتباع الشيطان و « مبين من أبان بمعنى بان وظهر ، وقيل : من أبان بمعنى أظهر ، أى : مظهر للعداوة والمعنى : « ولا تتبعوا خطواته لأن عداوته ظاهرة لكم بحيث لا تخفى على أى عاقل .

وقوله - تعالى - « إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، استئناف إيمان كيفية عداوته ، وتفصيل لأنواع شروره ومفاسده .

والسوء في الأصل : مصدر ساء بسوء سوءاً ومساءة إذا أضرته ، والمراد به هنا ، كل ما يغضب الله - تعالى - من المعاصي ، لأنها تسوء صاحبها وتحزنه في الحال أو المآل .

والفحشاء والفاحشة والفحش : ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال . وروى عن ابن عباس أنه فسر السوء بما لاحديه ، والفحشاء بما فيه حد .

والأمر في الأصل : الطلب بالقول ، واستعمل في تزيين الشيطان
المعصية ، لأن تزيينها في معنى الدعوة إليها .
قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف كان الشيطان آمرا مع قوله
ليس لك عليهم سلطان ، ؟

قلت : شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الأمر ، كما تقول : أمرتني نفسي
بكذا ، وتحتته رمز إلى أنكم منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم له وقبولكم
وساوسه ، ولذلك قال : دوامرتهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرتهم فليغيرن
خلق الله ، وقال - تعالى - وإن النفس لأمارة بالسوء ، لما كان الإنسان
يطيعها فيعطيهما ما اشتوت ، (١) .

وقوله : وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ، معطوف على ما قبله .
أى : يأمركم الشيطان بالسوء والفحشاء ، ويأمركم أن تقولوا على
الله ما لا تعلمون .

والقول على الله بغير علم من مظاهره أن يقول قائل : لقد أحل الله
كذا وحرم كذا بدون دليل شرعى يعتمد عليه .

قال الإمام ابن القيم : «والقول على الله بغير علم بعدم القول عليه - سبحانه -
في أسمائه وصفاته وأفعاله ، وفي دينه وشرعه ، وقد جعله - سبحانه - من أعظم
المحرمات ، بل جعله في المرتبة العليا منها ، فقال - تعالى - : قل إنما حرم
ربى الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا
بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ، وقال - تعالى -
« ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا
على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل
ولهم عذاب أليم ، فتقدم إليهم - سبحانه - بالوعيد على الكذب عليه في
أحكامه ، وقولهم لما لم يحرمه : هذا حرام ، ولما لم يحله : هذا حلال .

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢١٢

(م - ٢٨ البقرة)

وهذا بيان منه - سبحانه - أنه لا يجوز للعبد أن يقول : هـ هذا حلال
وهذا حرام إلا بما علم أنه - سبحانه - أحله وحرمه ، (١) .

وقال بعض العلماء : وقد يخاطر دلي بالك أن تقرير الأئمة المجتهدين
لبعض الوقائع أحكاماً من طريق الاستنباط ، قد يستندون في ذلك إلى دلائل
يفيد الظن بالحكم ، ولا يصل إلى أن يفيد العلم به ، فيكون إفتاؤه من قبيل
القول على الله بغير علم ، وبزاح هذا الخطار بأنه قد انضم إلى ذلك الدلائل
الظني أصل انعقد عليه الإجماع وأصبح مقطوعاً به ، وهو أن كل مجتهد
بحق يكون حكم الشرع في حقه أو حق من يتابعه هو الحكم الذي أداه
إليه اجتهاده ، وبمراعاة هذا الأصل المقطوع به لم يكن المجتهد المشهود له
بالرسوخ في العلم فأنزل دلي الله ما لا يعلم ، (٢) .

فدا ، ومن الآيات الكثيرة التي وردت في القرآن الكريم في التحذير
من الشيطان ووساوسه قوله - تعالى - « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه
عدوا وإنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .
وقوله - تعالى - « والشيطان يهدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله
يهدكم مغفرة منه وفضلاً » .

وقوله - تعالى - « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبوبكم من الجنة » .
وقد أرشدنا النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أن الإكثار من ذكر الله
خير من الإنسان للتغلب على وساوس الشيطان فقال في حديثه الطويل الذي
رواه الترمذي والنسائي وابن حبان عن الحارث الأشعري : « وأمركم بذكر
الله كثيراً ، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره ، فأقرب
حصنا فأحرز نفسه فيه ، وكذلك العبد لا يتجو من الشيطان إلا بذكر الله » .

(١) من كتاب دأهلام الموقعين ، لابن القيم . نقلا عن تفسير القاسمي .

ج ٢ ص ٢٧٠

(٢) تفسير القرآن الكريم انضيلة الإمام محمد الحنضري حنين ، مجلة

لواء الإسلام . السنة الرابعة . العدد السادس .

وبعد أن نهي -- سبحانه -- الناس عن إتباع خطوات الشيطان ، وبين لهم مظاهر عداوته لهم ، أردف ذلك ببيان حال طائفة من الناس لم يستمعوا لهذا النصيح ، بل اتبعوا خطوات الشيطان فقلدوا آباءهم في الشرك والجهالة فقال - تعالى - :

وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يتدون .

أى : وإذا قيل لأولئك الذين اقتفوا خطوات الشيطان ، وقالوا على الله بدون علم ولا برهان ، إذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله من قرآن ، أعرضوا عن ذلك وقالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من عبادة الأصنام والخضوع للرؤساء فالضمير في قوله - تعالى - د لهم ، يعود على طائفة من شعابهم الخطاب بقوله - تعالى - في الآية السابقة : « يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، وهم الذين لم يستجيبوا لنداء الله بل ساروا في ركب الشيطان ، واقتفوا آثاره ، والقائل لهم ذلك هو النبي (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون .

والمراد بما أنزل الله : القرآن الكريم ، وما أوحاه الله إلى نبيه (صلى الله عليه وسلم) من هدايات . وعدل - سبحانه - من خطابهم إلى الغيبة للتنبيه على أنهم لفرط جهلهم وحققهم صاروا ليسوا أهلاً للخطاب ، بل ينبغي أن يصرف عنهم إلى من يعقله .

و « بل » في قوله - تعالى - « بل نتبع » الإضراب الإبطالي ، أى : أضربروا عن قول الرسول لهم واتبعوا ما أنزل الله ، إضراب إعراض بدون حجة ، إلا بأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم من أمور الشرك والضلال . وقوله - تعالى - « أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يتدون » رد عليهم ، وبيان لبطلان الاعتقاد في الدين على مجرد تقليد الآباء .

والهمزة للاستفهام الإنكاري ، والواو للحال ، والمعنى : أتتبعون

ما وجدوا عليه آباءهم والحال أن آباءهم لا يعقلون شيئاً من أمور الدين الصحيح ، ولا يمتدون إلى طريق الصواب .

قال الألوسى : وفي الآية دليل على المنع من التقليد لمن قدر على النظر ، وأما إتباع الغير في الدين بعد العلم بدليل ما أنه محق فإتباع في الحقيقة لما أنزل الله - تعالى - وليس من التقليد المذموم في شيء . وقد قال - سبحانه - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - فساد ما عليه أو لتلك المشركون المقلدون من غير نظر ولا استدلال ، أردف ذلك بضرب مثل لهم زيادة في تقييح شأنهم والزراية عليهم فقال - تعالى - :

ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

ومثل : الصفة والشأن ، وأصل المثل بمعنى المثل : النظير والشبيه ، ثم أطلق على القول السائر المعروف ، للمائلة مضربه - وهو الذي يضرب فيه - لمورده - وهو الذي ورد فيه أولاً - ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة ، إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة . و « ينعق » من النعيق وهو الصياح . يقال : نعق الراعي بالغنم ينعق نعقاً ونعيقاً ونعاقاً ونعقناً ، صاح بها وزجرها .

والدعاء والنداء قيل بمعنى واحد أى أن ثانيهما تأكيد الأول ، وقيل : النداء للقريب والنداء للبعيد .

والظاهر أن المراد بهما نوعان من الأصوات ، أو طها وهو الدعاء معناه : الصياح بالبهائم لتأني ، وثانيهما وهو النداء معناه : الصياح بها لتذهب . قال الإمام الرازي ما ملخصه : وللعلماء من أهل التأويل في هذه الآية طريقان : أحدهما : تصحيح المعنى بالإضمار في الآية ، والثاني : إجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار .

أما الذين أضغروا فذكروا وجوها : الأول كأنه قال : ومثل من يدعو الذين كفروا إلى الحق كمثل الذي ينطق ، فصار الناقع الذي هو الراعى بمنزلة الداعى إلى الحق . وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسائر الدعاة إلى الحق ، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها ، ووجه الشبه أن البهيمة تسمع الصوت ولا تفهم المراد ، وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول (صلى الله عليه وسلم) وألفاظه ، وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها .

الثانى : ومثل الذين كفروا فى دعائهم آلهتهم من الأوثان كمثل الناقع فى دعائه مالا يسمع كالغنم وما يجرى مجراها من البهائم . فشبه الأصنام فى أنها لا تفهم بهذه البهائم ، فإذا كان ولا شك أن من دعا بهيمة عد جاهلاً ، فن دعا حجراً أولى بالذم .

والفرق بين هذا القول والذي قبله أن هاهنا المحذوف هو المدعو ، وفى القول الذى قبله المحذوف هو الداعى .

أما لإجراء الآية على ظاهرها من غير إضمار فتقديره ، ومثل الذين كفروا فى قلة عقولهم فى عبادتهم لهذه الأوثان كمثل الراعى إذا تكلم مع البهائم ، فكما أنه يقضى على ذلك الراعى بقلة العقل فكذا ههنا .

ثم قال - رحمه الله - ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار ، ويحقق إلى الكافر نفسه إذا سمع ذلك ، فيكون كسراً للقلبه ، وتضييقاً لصدره ، حيث صيره كالبهيمة فيكون فى ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه فى التقليد ، (١) .

وقوله - تعالى - «صم بكم عمى» ، زيادة فى تبيكيتهم وتقريرهم ، أى : هم صم عن استماع دعوة الحق ، بكم عن إجابة الداعى إليها ، عمى عن آيات صدقها وصحتها ، فهم لإعراضهم عن الهدى لهم إلى ما ينفعهم وينجيهم من العذاب صاروا بمنزلة من فقد حواسه ، فأصبح لا يسمع ولا ينطق ولا يبصر

وقوله (فهم لا يعقلون) وارد مورد النتيجة بعد البرهان ، بجانب كونه
توبيخاً لهم ، لأنهم يفقدون أهم طرق الإدراك وهما السمع والبصر ، وأهم
وسيلة للتقافة وهي استطلاع الحقائق من طريق المحاوراة والتسكلم ، صاروا
بعد كل ذلك بمنزلة من فقد عقله الاكتسابي ، فأصبح لا يفقه شيئاً ؛ لأن
العقل الذي يكتسب به الإنسان المعارف والحقائق يستعين استعانة كبرى
بهذه الحواس الثلاث .

وبعد هذا البيان البليغ لحال الذين يتخذون من دون الله أنبأ ، وحال
الكافرين المقلدين لأبائهم في الضلال بدون تدبر أو تعقل ، بعد كل ذلك وجهت
السورة الكريمة فداء إلى المؤمنين بيئت لهم فيه - وفيها سيأتي بعده من آيات -
كثيراً من التشريعات والآداب والأحكام التي هم في حاجة إليها فقال - تعالى :-

يَأَيُّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْحَمَّ الْخَنِزِيرِ وَمَا
أَهْلَ بِهِ ، لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ
إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٧﴾

الطيبات من الأطعمة: المستلذات ، ويجوز حملها على ما طاب من الرزق بتحليل
الله له . وما رزقناكم : ما أوصلناه إليكم من الرزق ، - وهو ما ينتفع به .
أى : يا من آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كلوا من
ألوان الطيبات التي أحلناها لكم ، ولا تتعرضوا لما حرمناه عليكم .
وكان الخطاب هنا للمؤمنين خاصة ، لأنهم أحق بالفهم ، وأجدد بالعلم
وأحرى بالاهتداء ، وأولى بالتكريم والتشريف .
ومفول (كلوا) محذوف ، أى : كلوا رزقكم حال كونه بعض
طيبات ما رزقناكم .

ثم أمرهم - سبحانه - بشكره على هذه الطيبات التي أباحها لهم فقال:
(واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) .

وهذه الجملة الكريمة معطوفة على جملة (كلوا) .

والشكر : هو الاعتراض بالنعمة مع ضرب من التعظيم لموجودها ،
ووضعها في الموضع الذي أمر به .

أى : تمتعوا ب نعم الله ، واعتزفوا له بها على وجه التعظيم ، بأن تمتثلوا
-أأمر به ، وتجنبوا ما نهى عنه ، إن كنتم تخصصونه بالعبادة حقاً ، وتفردونه
بالطاعة صدقاً .

قال الألوسى : وجملة (إن كنتم إياه تعبدون) بمنزلة التعليل لطلب
الشكر ، كأنه قيل : واشكروا له لأنكم تخصصونه بالعبادة ، وتخصيصكم
إياه بالعبادة ، يدل على أنكم تريدون عبادة كاملة تليق بكبريائه ، وهى
لا تتم إلا بالشكر ، لأنه من أجل العبادات ، (١) .

وجواب الشرط محذوف دل عليه المذكور والتقدير : إن كنتم إياه
تعبدون فكلوا واشكروا لله .

ولقد أمر الله - تعالى - عباده أن يشكروه فى آيات كثيرة ومن ذلك
قوله - تعالى - (لئن شكرتم لأزيدنكم وئن كفرتم إن عذابي لشديد)
وقال - تعالى - (ومن شكر فأبما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي كريم)
وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى أن رسول الله (صلى الله عليه
وسلم) قال الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر : وروى الأمان فى صحيحه
عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ إنه قال : إن الله ليرضى عن العبد أن
ياكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها .

قال صاحب المنار : قال الأستاذ الإمام : لا يفهم هذه الآية حق فهمها
إلا من كان عارفاً بتاريخ الملل عند ظهور الإسلام وقبله ، فإن المشركين
وأهل الكتاب كانوا فرقا وأصنافاً ، منهم من حرم على نفسه أشياء معينة بأجناسها
أرأصنافها كالبحيرة والسائبة عند العرب ، وبعض الحيوانات عند غيرهم
وكان المذهب الشائع فى النصارى أن أقرب ما يتقرب به إلى الله - تعالى -

تعذيب النفس ، وحرمانها من الطيبات المستلذة ، واحتقار الجسد ولو أزمه ، واعتقاد أنه لا حياة للروح إلا بذلك ثم قال : وقد تفضل الله على هذه الأمة بأن جعلها أمة وسطاً تعطى الجسد حقه والروح حقها ، فأحل لنا الطيبات لتتسع دائرة نعمه الجسدية علينا ، وأمرنا بالشكر عليها ليكون لنا منها فوائد روحانية عقلية ، فلم تكن جسمانيين محضاً كالأنعام ، ولا روحانيين خالصاً كالملائكة ، وإنما جعلنا أناسي كملة هذه الشريعة المعتدلة ، فله الحمد والشكر والثناء الحسن ، (١) .

وقوله - تعالى - « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ، بيان لما حرمه الله - تعالى - علينا من المطاعم رعاية لمنفعتنا . و « الميتة » في عرف الشارع : ما مات حتف أنفه ، أو قتل على هيئة غير مشروعة ، فيدخل فيها : المنتخفة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما عدا عليها السميع ، ويدخل في حكم الميتة ما قطع من جسم الحيوان الحي للحديث الذي أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي واقد الليثي ، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : ما قطع من البييمة وهي حية فهي ميتة . وكان الإكل من الميتة محرماً ، لفساد جسمها بذيول أجزائه وتعفنها ، ولأنها أصبحت بحالة تعافها الطباع السليمة لقدارتها وضررها .

قال الألويسي : وأضاف - سبحانه - الحرمة إلى العين - مع أن الحرمة من الأحكام الشرعية التي هي من صفات فعل المكلف وليست مما تتعلق بالأعيان - إشارة إلى حرمة التصرف في الميتة من جميع الوجوه بأخصر طريق وأؤكد ، حيث جعل العين غير قابلة لتعلق فعل المكلف بها إلا ما خصه الدليل كالتصرف بالمدبوغ ، وخرج عن حكم الميتة السمك والجراد ، للحديث الذي أخرجه ابن ماجه والحاكم من حديث ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : أحلت لنا ميتتان ردمان : السمك والجراد والكبد والطحال وللغروف أيضاً فإنه إذا ما قال القائل : أكل فلان الميتة لم يسبق الوهم إليها .

نعم حرم بعضهم ميتة السمك الطافي ومامات من الجراد بغير سبب، واستدل
بعموم الآية على تحريم الأجنة وتحريم ما لا نفس له سائلة خلافاً لمن أباحه، (١)
والدم المحرم: ما يسيل من الحيوان الحي كثيراً كان أم قليلاً وكذلك
يحرم من دم الحيوان ما جرى منه بعد تذكيته، وهو الذي عبر عنه القرآن
بالمسفوح في قوله - تعالى - قل لا أجد فيها أوحى إلى محرماً على طاعم
يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً

والدم المسفوح: هو الدم الجاري المهرق من البهيمة بعد ذبحها .
أما الدم المتبقى في أجزاء لحم البهيمة بعد تذكيته فلا شيء فيه .
قال القرطبي: وأما الدم فمحرم ما لم تعم به البلوى، ومعفو عما تعم به
البلوى . والذي تعم به البلوى هو الدم في اللحم وعروقه . . . وقد روت
هاتشة - رضی الله عنها - قالت: كنا نطبخ البرمة على عهد رسول الله (صلى
الله عليه وسلم) تعلوها الصفرة من الدم فناكل ولا نذكره، لأن التحفظ
من هذا إصر وفيه مشتقة، والإصر والمشقة في الدين موضوع . وهذا
أصل في الشرع، (٢) .

وقد عرف عن بعض العرب في الجاهلية أنهم كانوا يأخذون الدم من
البهائم عند ذبحها، فيضعونه في أمعائها ثم يشؤونها بالنار ويأكلونها ويسمون
ذلك بالفصيد .

قال بعضهم: والحكمة في تحريم الدم أنه تستغفره النفوس الكريمة،
ويقضى شربه أو أكله إلى الإضرار بالنفس، وفضلاً عن ذلك فإن تماطيه
يورث ضراوة في الإنسان، وغلظة في الطباع فيصير كالحيوان المقترس،
وهذا مناف لمقصد الشريعة التي جاءت لإتمام مكارم الأخلاق .
وحرمة الخنزير شاملة للحمة وشحمه وجلده . وإنما خص لحمه بالذكر،
لأنه الذي يقصد بالأكل، ولأن سائر أجزاء الخنزير كالتابعة للحمة . وبعض

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ٤١

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٢٢

الفقهاء يرى أنه لا بأس من الانتفاع بشعر الخنزير في الخرازة - أي :
خيطة الجلود وغيرها - ، وبعضهم كره ذلك .

ومن الحكم في تحريم لحم الخنزير قذارته ، واشتهاله على دودة تضر
بيدن آكله وقد أثبت ذلك العلم الحديث .

وما يقوله قوم من أن وسائل العلم الحديث قد تقدمت ، وصار في
الإمكان التغلب على ما في لحم الخنزير من أضرار هذا القول مردود بأن
العلم الحديث قد احتاج إلى ثلاثة عشر قرناً ليكتشف آفة واحدة في لحم
الخنزير ، فن ذا الذي يجزم بأنه ليس هناك آفات أخرى في هذا اللحم لم
يعرفها العلم حتى الآن ؟

إن الشريعة التي سبقت العلم الحديث بأكثر من ثلاثة عشر قرناً أولى
بالإتيان ، وأجدر بالطاعة فيما أحلته وحرمته مما يقوله الناس ، لأنها من
عند الله العليم بشؤون عباده ، الخبير بما ينفعهم وبما يضرهم .

وقوله : « وما أهل به لغير الله » معطوف على ما قبله من المحرمات .
و « أهل » من الإهلال ، وهو رفع الصوت عند رؤية الهلال ، ثم استعمل
لرفع الصوت مطلقاً ، ومنه إهلال الصبي ، والإهلال بالحج . وكانوا في
الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قريبه إلى آلهتهم سموا عليها أسماءها - كالكلات
والعزى - ورفعوا بها أصواتهم ، وسمى ذلك إهلالاً .

فالمراد بما أهل به لغير الله : ما ذبح للأصنام وغيرها ، ومنه ما يذبحه
المجوسى للنار . ومنه عند جمهور العلماء : ذبائح أهل الكتاب إذا ذكر
عليها اسم عزير أو عيسى ، لأنها بما أهل به لغير الله .

وذهب جماعة من التابعين إلى تخصيص الغير بالأصنام ، وإلى حل ذبائح
أهل الكتاب مطلقاً ، لعموم قوله - تعالى - في سررة المائدة وهي من آخر
السور نزولاً : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعام حل لهم ،
أى ذبائحهم ، وهو - سبحانه - يعلم ما يقولون .

وروى الحسن عن علي - رضى الله عنه - أنه قال : إذا ذكر الكتابي اسم غير الله على ذبيحته وأنت تسمع فلا تأكل ، فإذا غاب عنك فكل ، فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون . وقد روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : إن قوماً قالوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) : إن قوماً بأنوفنا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ فقال : سموا عليه أنتم وكلوه . قالت : وكانوا حديثى عهد بكفر .

فكان المحرم ليس ما لم يعلم أن اسم الله ذكر عليه ، بل المحرم ما علم أن غير اسم الله من الأوثان والأنداد ونحو ذلك قد ذكر عليه .

فأنت ترى أن تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير كان لاستقذار الأكل من هذه الثلاثة ، أى : لعللة ذاتية فيها ، أما تحريم ما أهل به لغير الله فليس لعللة فيه ، ولكن للتوجه به إلى غير الله . وهى علة روحية تنافى سلامة القلب ، وطهارة الروح ، ووحدة المتجه ما ذكر عليه سوى اسم الله من الذبائح ملحق بالنجاسة المادية والقنطرة الحقيقية ، وفى ذلك حصر للناس على إخلاص العبادة لله - تعالى - ، وزجر لهم عن التقرب إلى أحد سواه .

وقوله - تعالى - « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه » ، بيان لحالات الضرورة التى يباح للإنسان فيها أن يأكل من تلك المحرمات . و « اضطر » من الاضطرار وهو الاحتياج إلى الشئ . يقال : اضطره إلى هذا الشئ . أى : أحوجه وألجأه إليه مأخوذ من الإضرار ، وهو حمل الإنسان على أمر بكرهه ، وقهره عليه بقوة يناله بدفعها الهلاك . و « باغ » من البغاء وهو الطلب . تقول : بغيتك بغاء وبغى وبغية أى : طلبت .

و « عاد » اسم فاعل بمعنى متعد ، تقول : عاد طوره إذا تجاوز حده وتعداه إلى غيره فهو عاد ، ومنه قوله - تعالى - فى شأن قوم لوط : « بل أنتم قوم عادون » .

وغيره، منصوب على الحال من الضمير المستتر في واضطر، وهي هنا بمعنى النقي ولذا عطف عليها لا .

والمعنى: فمن أجلاته ضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات: حالته كونه غير باغ: أي غير طالب للمحرم وهو يحد غيره، أو غير طالب له لإشباع لذته، أو غير طالب له على جهة الاستئثار به على مضطر آخر، أو غير ساع في فساد ولا عاد، أي: وغير متجاوز ما يسد الجوع، ويحفظ الحياة فلا إثم عليه، أي: فلا إثم عليه في أكله من هذه المحرمات .

وهذا نرى لونا من ألوان سماحة الإسلام ويسره في تشريعاته، التي أقامها الله - تعالى - على رفع الحرج، ودفع الضرر، قال - تعالى - « ما جعل عليكم في الدين من حرج » وقال - تعالى - « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . وقوله « إن الله غفور رحيم »، تذييل قصد به الامتنان . أي: إن الله - تعالى - موصوف بهذين الوصفين الجميلين، ومن كان كذلك كان من شأنه أن يعفو عن الخطايا، ويعفر الذنوب، ويشرع لعباده ما فيه يسر لا ما فيه عسر .

هذا، وظاهر هذه الآية الكريمة يقتضى أنه ليس هناك محرم من المطاعم سوى هذه الأربعة، لكننا نعلم في الشرع أن هناك مطاعم أخرى قد حرم على المسلم تناولها كحوم الجوارح الأهلية، فعلى هذا تكون أفضة، إتمام، متروكة الظاهر في العمل - كما قال الإمام الرازي - . أي: أن الحصر فيها غير مقصود وشبهه بهذه الآية قوله - تعالى - في سورة الأنعام: « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا، أهل غير الله به »، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم، (١) .

(١) الآية ١٤٥ . وراجع كتابنا « تفسير سورة الأنعام » في معنى

ثم تحدث القرآن عن سوء عاقبة الذين يكتمون ما أمر الله بإظهاره ،
وتوعدهم بأقسى ألوان العذاب فقال - تعالى - :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ

الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ء ثُمَّ نَأْقِلًا ۗ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ
إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكَلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ
فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

الكتم والسكتان : إخفاء الشيء . قصداً مع تحقق الداعي إلى إظهاره .

وقد تحدث القرآن - قبل هذه الآيات بقليل - في قوله - تعالى - : إن
الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى .. ، عن المصير الأليم الذي توعد
الله به أولئك الكائمين لما أمر الله بإظهاره ، وأعاد الحديث عن سوء عاقبتهم
هنا ؛ لكي يندرم مرة بعد أخرى حتى يقلعوا عن هذه الرذيلة التي هي من أشنع
الرذائل وأقبحها ، وللكي يغرس في قلوب الناس - وخصوصاً العلماء -
الشجاعة التي تجعلهم يجهرون بكلمة الحق في وجوه الطغاة لا يخافون لومة
لائم ، ويبلغون رسالات الله دون أن يخشوا أحداً سواه ؛ ويدينون للناس
ما أمرهم الله ببيانه بطريقة سليمة آمنة خالية من التحريف والكذب ،
والتأويل الباطل .

قال الإمام الرازي : قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود وأحبارهم . كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا ، فلما بعث الله نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - خافوا انقطاع تلك المنافع فكتبوا أمره - عليه السلام - وأمر شرائعه فنزلت هذه الآية .

ثم قال الإمام الرازي : والآية وإن نزلت في أهل الكتاب لكنها عامة في حق كل من كتم شيئاً من باب الدين يجب إظهاره ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، (١) .

والمراد بالكتاب ، التوراة ، أو جنس الكتب السماوية التي بشرت بالنبى - صلى الله عليه وسلم .

و د من ، في قوله د من الكتاب ، بمعنى في ، أى : يكتبون ما أنزل الله في كتابه من صفة النبى - صلى الله عليه وسلم - ونعته ووقت بعثته . وقيل لليمان ، وهى حال من العائد على الموصول والتقدير : أنزله الله حال كونه من الكتاب والعامل فيه أنزل .

وقوله : د ويشترون به ثمناً قليلاً ، معطوف على يكتبون .

أى : يكتبون ما أنزل الله من الكتاب مما يشهد بصدق النبى - صلى الله عليه وسلم - ويأخذون من سفلتهم في مقابل ذلك عرضاً قليلاً من أعراض الدنيا .

والضمير في قوله د به ، يعود إلى ما أنزل الله ، أو إلى الكتابان الذى يدل عليه الفعل د يكتبون ، أو إلى الكتابات .

ووصف هذا الثمن الذى يأخذونه في مقابل كتابتهم بالقلّة ، لأن كل ما يؤخذ في مقابلة إخفاء شىء مما أنزله الله فهو قليل حتى ولو كان ملء الأرض ذهباً .

وقوله - تعالى - د أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ، وما عطفه

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٢٨ ، بتصرف .

عليه ، بيان للعذاب المهيمن الذي أعد لهم بسبب كتمانهم لما أمر الله بإظهاره ،
وبيعهم دينهم بدنياهم .

أى : أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا ما يؤدي بهم إلى النار وبشر القرار
كما قال - تعالى - في حق أكلة مال اليتامى : إنما يأكلون في بطونهم نار ،
وسيصلون سعيراً .

و في هذه الجملة الكريمة تمثيل لحالة أولئك الكفار الحاصلة .

من أكلهم ذلك الثمن القليل المفضى بهم إلى النار ، بحالة من يأكل النار نفسها .
ووجه التشبه بين الحالتين : أنه يترتب على أكل ذلك المال الحرام من تقطيع
الأمعاء وشددة الألم ، ما يترتب على أكل النار ذاتها ، إلا أن العذاب الحاصل
من أكل النار يقع عندما تمتلئ منها بطونهم ، والعذاب الحاصل من أكل المال
الحرام يقع عند لقاء جزائه وهو الإحراق بالنار .

وجيء بإسم الإشارة في أول هذه الجملة لتمييز أولئك السكاتين أو كل
تمييز حتى لا يخفى أمرهم على أحد ، وللتنبية على أن ما ذكر به داسم الإشارة
من عقوبات سببه ما فعلوه قبل ذلك من سيئات .

وخص - سبحانه - بالذكر الأكل في بطونهم من بين وجوه انتفاعهم
بما يأخذونه من مال حرام ، الإشعار بسقوط همهم ، ودناءة نفوسهم ، حتى
لأنهم ليخفون ما أمر الله بإظهاره من حقائق وهدايات ، نظير ملء بطونهم
وقوله : ولا يكلمهم الله يوم القيامة ، أى : لا يكلمهم كلاماً تطعن به
نفوسهم ، وتشرح له صدورهم وإنما يكلمهم بما يخزيهم ويفجعهم بسبب سوء
أعمالهم كقوله - تعالى - لهم : « اخشوا فيها ولا تكلمون » . أو أن نفي تكليمه
لهم كناية عن غضبه عليهم ، لأن من عادة الملوك أنهم عند الغضب يعرضون
عن المغضوب عليه ولا يكلمونه . كما أنهم عند الرضا يقبلون عليه بالوجه
والحديث .

وقوله : « ولا يزكيهم » ، أى : ولا يطهرهم من دنس الكفر والذنوب بالمغفرة ، من التزكية بمعنى التطهير . يقال : زكاه الله ، أى : طهره وأصلحه وتستعمل التزكية بمعنى الشفاء ، ومنه زكى الرجل صاحبه إذا وصاه بالأوصاف المحمودة وأثنى عليه ، فيكون معنى « ولا يزكيهم » لا يثب عليهم - سبحانه - ومن لا يثبى عليه الله فهو معذب .

فهؤلاء الذين كتموا الحق نظير شىء قليل من حطام الدنيا ، فقد رضى الله عنهم ، وثناه عليهم ، وتطهيره لهم .

ثم حتم - سبحانه - الآية ببيان سوء منقلبهم ، وشدة ألم العذاب الذى ينالهم فقال - تعالى - « ولهم عذاب أليم » ، أى : موجه مؤلم .

قال الألوسى : وقد جاءت هذه الأخبار مرتبة بحسب المعنى ، لأنه ذكر - سبحانه - اشتراهم بذلك - الثمن القليل - وكان كناية عن مطاعم الخبيثة القفافية ، بدأ أولاً فى الخبر بقوله : « ما يأكلون فى بطونهم إلا التراب » وابتنى على كتابهم واشتراهم بما أنزل الله ثمناً قليلاً ، أنهم شهود زور واحبا سوء ، آذوا هذه الشهادة الباطلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وآلموا فقوبلوا بقوله - سبحانه - « ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » (١) .

ثم بين - سبحانه - ما هم عليه من جهل وغياة وسوء عاقبة فقال « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة » .

الاشترار : استبدال السلعة بالثمن . والمعنى : أولئك الذين تقدم الحديده عنهم وهم الكاتمون لما أنزل الله فقد بلغ بهم الغياة وانطهاس البصيرة أنهم باعوا الهدى والإيمان ليأخذوا فى مقابلهما الكفر والضلال ، وباعوا ما يوصلهم إلى مغفرة الله ورحمته ليأخذوا فى مقابل ذلك عذابه ونقمة ، فما أخسرها م صفقة ، وما أغبى هؤلاء الكاتمين الذين فعلوا ذلك نظير عرض من أعراض الدنيا القفافية ، فخرسوا بما فعلوه دنياهم وآخرتهم .

وقوله - تعالى - « فما أصبرهم على النار ، معناه : فما أدومهم على عمل المعاصي التي تؤدي بهم إلى النار حتى لسكانهم بإصرارهم على عملها يجلبون النار إليهم جلباً ، ويقصدون إليها قصداً بدون مبالاة أو تفكير .

والمراد من التعجب في هذه الآية وأشباهاها ، الإعلام بحالهم وأنه ينبغي أن يتعجب منها كل أحد ، وذلك لأن المعنى الظاهر من الجملة متعجب من صبر أولئك الكفار على النار ، والتعجب انفعال - يحدث في النفس عند الشعور بأمر يجمل سببه وهو غير جائز في حقه - تعالى - لأنه لا ينبغي عليه شيء ، ومن هنا قال العلماء : إن فعل التعجب في كلام الله المراد منه التعجب ، أي : جعل الغير يتعجب من ذلك الفعل ، وهو هنا صبرهم على النار ، فيسكون المقصود جيب المؤمنين من جراءة أولئك الكافرين لما أنزل الله على أقرانهم مما يلقى بهم في النار ، شأن الواثني من صبره على عذابها المقيم .

وشبيه بهذا الأسلوب في التعجب - كما أشار صاحب الكشاف - أن تقول لمن يتعرض لما يوجب غضب الساطان : ما أصبرك على القيد والسجن - فإنت لا تريد التعجب من صبره ، وإنما تريد إلهامه أن يتعرض لما يفضيه ، لا يقع إلا من شأنه الصبر على القيد والسجن ، والمقصود بذلك تحذيره من الغفادى فيما يوجب غضب ذلك الساطان المستبد .

قال الجمل ما ملخصه و د ما ، في قوله « فما أصبرهم » - وفي مثل هذا التركيب - فيها أوجه : أحدها وهو قول سيبويه والجمهور أنها نكرة تامة غير موصولة ولا موصوفة ، وأن معناها التعجب فإذا قلت ما أحسن زيدا ، فمعناه : تشيء صير زيدا حسناً . والثاني وإليه ذهب الفراء : أنها استفهامية صحبها معنى التعجب ، نحو : « كيف تكفرون بالله ، والناك ، ويمزى للاخفش : أنها موصولة . والرابع ويمزى له أيضاً : أنها نكرة موصوفة ، وهى على هذه مثال أقوال الأربعة في محل رفع بالابتداء وخبرها على القولين الأولين الجملة

الفعلية بعدها ، وعلى قولى الأخفش يكون الخبر محذوفاً . . . (١) .
 ثم بين - سبحانه - أن سبب استحقاقهم للعذاب الأليم ، وهو ارتكابهم لما نهى الله عنه عن قصد وسوء نية فقال : « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق -
 أى : ذلك العذاب الأليم حل بهم بسبب أن الله أنزل التوراة مصحوبة
 ببيان الحق الذى من جلته للتبشير ببعثة النبى محمد - صلى الله عليه وسلم -
 فكتموا هم هذا الحق وامتدت إليه أيديهم الأثيمة بالتحريف والتأويل لإثارة
 لمطامع دنيوية على هدى الله الذى هو أساس كل سعادة .

فاسم الإشارة « ذلك » يعود على مجموع ما سبق بيانه من أكل النار -
 وعدم تكليم الله لإياهم ، وعدم تزكيتهم . . . الخ .
 والباء فى قوله « بأن » ، للسببية ، والمراد بالكتاب : التوراة .
 ثم ختم - سبحانه - الحديث عن هؤلاء الكافرين للحق بقوله : « وإن
 الذين اختلفوا فى الكتاب لئى شقاق بعيد ، .

اختلفوا : خالف بعضهم بعضاً ، وأصله من اختلاف الطريق ، تقول :
 اختلفوا فى الطريق . أى : جاء بعضهم من جهة والبعض الآخر من جهة
 أو جهات أخرى . ثم استعمل فى الاختلاف فى المذاهب والاعتقاد .
 والكتاب : التوراة ، أو التوراة والإنجيل ، إذ يصح أن يراد جنس الكتاب
 والمقام يقتضى صرفه إلى هذين الكتابين . وقد أبعد فى التأويل من قال بأن
 المراد به القرآن لأن الحديث عن أهل الكتاب الذين كتموا ما فى كتبهم من
 بشارات بالرسول - ﷺ - واختلافهم فى الكتاب من مظاهره : إيمانهم
 ببعضه وكفرهم بالبعض الآخر ، وتحريفه عن مواضعه ، وتأويله على غير ما
 يراد منه .

والشقاق : الخلاف ، كأن كل واحد من المختلفين فى شق غير الشق الذى
 يكون فيه الآخر ، وإذا وصف الخلاف بالبعد فهم منه أنه بعيد عن الحق ،
 يقال : قال فلان قولاً بعيداً ، أى بعيداً من الصواب .

والمعنى : ذلك العذاب الاليم حل بأولئك الأشقياء بسبب كتابتهم لما أنزله الله في كتابه من الحق ، وإن الذين اختلفوا في شأن ما أنزله الله في كتبه فأظهروا منها ما يناسب أهواءهم وأخفوا ما لا يناسبها - لفي بعد شديد عن الحق والصواب :

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد ذكرت ألوانا من العقوبات الاليمة التي توعد الله بها كل من يكتم أمرأ مني الله عن كتابته ، لكي يقطع كل من يقاى له الخطاب عن هذه الرذيلة ، وفاء للعهد الذي أخذه الله على الناس بصفة عامة ، وعلى أولى العلم بصفة خاصة .

ثم ساق للقرآن الكريم آية جامعة لأنواع البر ، ووجوه الخير ، تسمى المتمسك بها إلى السعادة الدنيوية والأخروية فقال - تعالى - :

لَيْسَ الْبِرَّ

أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ
عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ
وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا
عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ
الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

للبر : اسم جامع لكل خير ، وكل طاعة وقربة يتقرب بها العبد إلى خالقه - عز وجل - .

قال الراغب : البر - بفتح الباء - خلاف البحر ، وتصور منه التوسع فاشتق منه البر - بكسر الباء - بمعنى التوسع في فعل الخير ، وينسب ذلك إلى الله - تعالى - تارة نحو : د إنه هو البر الرحيم ، وإلى العبد تارة فيقال : بر

للعبد ربه، أى توسع فى طاعته. قاله من الله الثواب ، ومن العبد الطاعة ، (١)
 وتولية الوجوه قبل الشئ ، معناه : التوجه إليه يجعل الوجه متجهاً إلى
 جهته . فلفظ « قبل » بمعنى جهة وهو منصوب على الظرفية المكانية .
 والمشرق : الجهة التى تشرق منها الشمس ، والمغرب : الجهة التى تغرب
 فيها .

قال الإمام الرازى : اختلف العلماء فى أن هذا الخطاب عام أو خاص .
 فقال بعضهم : أراد بقوله : « ليس البر » أهل الكاب ، لما شددوا فى الثبات
 على التوجه نحو بيت المقدس فقال - تعالى - ليس البر هذه الطريقة ولكن
 البر من آمن بالله . وقال بعضهم : بل المراد مخاطبته المؤمنين لما ظنوا أنهم قد
 نالوا البغية بالتوجه إلى الكعبة من حيث كانوا يحبون ذلك فحوظوا بهذا الكلام
 وقال بعضهم : بل هو خطاب لكل ، لأن عند نسخ القبلة وتحولها حصل
 من المؤمنين الاعتباط بهذه القبلة ، وحصل منهم التشدد فى تلك القبلة حتى
 ظنوا أنه الفرض الأكبر فى الدين ، فبعثهم الله - تعالى - بهذا الخطاب على
 استيفاء جميع العبادات والطاعات ، وبين أن البر ليس بأن تولوا وجوهكم
 شرقاً وغرباً ، وإنما البر . كيت وكيت . وهذا أشبه بالظاهر إذ لا تخصيص
 فيه ، فكانه - تعالى - قال : ليس البر المطلوب هو أمر القبلة ، بل البر
 المطلوب هو هذه الخصال التى عدها ، (٢) .

وهذا القول الثالث - الذى يرى أصحابه أن الخطاب لكل ، والذى قال
 عنه الإمام الرازى : هذا أشبه بالظاهر - هذا القول ، هو الذى تسكن إليه
 للنفس ؛ لأنه لا يوجد نص صحيح يخصص الخطاب لطائفة معينة من الناس
 ولأن المقصود من الآية الكريمة إنما هو إقناع الناس فى كل زمان ومكان أن مجرد
 تولية الوجه إلى قبلة مخصوصة ليس هو البر الكامل الذى يعنيه الإسلام ،
 وإنما البر الكامل بتأنى فى استجابة الإنسان لتلك الخصال الشريفة التى اشتملت

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٠ للراغب الأصفهاني .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٣٨

عليها الآية ، تلك الخصال التي تجعل المستمسكين بها على صلة طيبة بخالقهم ، وعلى صلة طيبة بغيرهم ، - كما سنبين ذلك عند تعليقتنا على هذه الآية الكريمة - .
والمعنى ، ليس البر - الذي هو كل طاعة يتقرب بها الإنسان إلى خالقه -
في تولية الوجه عند الصلاة إلى جهة المشرق والمغرب ، وإنما البر الذي يجب
الاهتمام به لأنه يؤدي إلى السعادة والفلاح - يكون في الإيمان بالله وملائكته
وكتبه ورسوله واليوم الآخر ، وفي إنفاق المال في وجوه الخير ، وفي إتباع
ما ذكرته الآية الكريمة من خصال جليلة .

هذا ، وقد قرأ حمزة وحفص عن عاصم ، ليس البر ، بنصب البر على
أنه خبر ليس ، واسمها قوله - تعالى - « أن تولوا ، أي : ليس توليتكم
وجوهكم قبل المشرق والمغرب البر كله .

وقرأ الباقون ، ليس البر ، برفع البر على أنه اسم ليس ، وخبرها
قوله - تعالى - « أن تولوا ، أي ليس البر كله توليتكم وجوهكم
قبل المشرق والمغرب .

قال الطبرسي : وكلا المذهبين حسن ، لأن كل واحد من اسم ليس
وخبرها معرفة ، فإذا اجتمعا في التعريف تكافأ في كون أحدهما اسماً
والآخر خبراً كما تكافأ التسكرتان (١) .

وقوله - تعالى - « وليكن البر من آمن بالله واليوم الآخر
والملائكة والكتب والنبيين . . . الخ ، بيان لما هو البر الذي يجب أن
تتجه إليه الأفسكار ، وتستجيب له النفوس .

ولكن ، حرف استدراك ، والبر : اسمها . وقوله « من آمن » ، وقع في
اللفظ موقع الخبر عن قوله « البر » ، والخبر في المعنى لفظ مقدر مضاف
إلى من آمن ، يفهم من سياق الجملة ، والمعنى مع ملاحظة المقدر : واسكن
البر من آمن بالله .

وهذا اللون من الإيجاز الذي حذف فيه المضاف معهود في كلام البلغاء ،

إذ تجدم يقولون السخاء حاتم ، والشعر زهير . أى : السخاء سخاء حاتم ،
والشعر شعر زهير .

وقيل : إن البر هنا بمعنى البار فجعل المصدر في موضع اسم الفاعل ،
كما يقال : ماء غور أى : غائر ، ورجل صوم أى : صائم .
وقيل : إن المحذوف هو لفظ مضاف إلى البر . أى : ولكن ذا البر
من آمن بالله . . .

وقد ابتدأت الآية حديثها عن خصال البر بالإيمان بالله ، لأنه أساس
كل بر . وأصل كل خير ، والإيمان بالله : هو التصديق بأنه هو الواحد
المرد الصمد ، الذى لا تمنو الوجوه إلا له ، ولا تتجه القلوب بالعبادة إلا
إليه ، ومتى رسخ هذا الإيمان فى النفوس ارتفع بها إلى مكانة التكريم التى
أرادها الله - تعالى - لبنى آدم ، وصانها عن الذلّة والاستكانة وأعطائها
فبراس الهداية والسداد فى كل فواحي الحياة .

ثم ذكرت الإيمان باليوم الآخر ، وهو التصديق بالبعث وما يقع بعده
من حساب وثواب وعقاب على الوجه الذى وصفته نصوص الشريعة
بأجلى بيان .

والإيمان باليوم الآخر من ثماره أنه يفرس فى النفوس بحبة الخير ،
والحرص على إسداء المعروف وينفرها من اقتراف الشرور وارتكاب الآثام .
ولقد تحدث القرآن عن الإيمان بالله واليوم الآخر فى عشرات
الآيات ، وأقام الأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة على وحدانية الله وعلى
أنه هو صاحب السكال المطلق ، كما أقام الحجج والبراهين على أن البعث
حق وضرب الأمثال لذلك ، وسفه عقول المنكرين له .

ثم ذكرت الإيمان بالملائكة . والملائكة : أجسام لطيفة نورانية ،
قادرون على التشكل فى صور حسنة مختلفة ، وصفهم القرآن بأنهم
« لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

ووجه دخول التصديق بهم فى حقيقة الإيمان ، أن الله وسطهم فى إبلاغ

وحية لآبائنا ، وبين ذلك في كتابه ، وتحدث الصادق المصدوق (صلى الله عليه وسلم) عنهم في كثير من أحاديثه ، فمن لم يؤمن بالملائكة على هذا الوجه الذي جاءت به الشريعة ، فقد أنكر الوحي ، إذ الإيمان بهم أصل الإيمان بالوحي ، فيلزم من إنكارهم إنكار الوحي ، وهو يستلزم إنكار النبوة وإنكار الدار الآخرة .

ثم ذكرت الآية الإيمان بالسكائب . والمراد به القرآن لأنه المقصود بالدعوة ، ولأنه هو الأمين على السكائب قبله ، فما وافقه منها كان حقاً وما خالفه كان باطلاً .

والإيمان به يستلزم الإيمان بجميع الكتب المنزلة من عند الله على أنبيائه ، لأنه هو الذي أخبرنا بذلك ، وأمرنا بأن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . ثم ذكرت الإيمان بالنبيين ، أى : التصديق بأنهم رجال اصطفاهم الله تعالى - لتلقى هدايته وكتبه وتبليغها للناس بصدق وأمانة وسلامة بصيرة والنبيون الذين يجب الإيمان بهم : كل من ثبت نبوته عن طريق القرآن الكريم أو الحديث الصحيح ، وكل من أنكر نبوة نبي قد ثبتت نبوته فقد خرج عن طريق الإيمان .

ولقد قام الدليل القاطع على أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) هو خاتم النبيين والمرسلين ، وكل من ادعى غير ذلك فهو من الضالين المضلين . وقد جمعت هذه الأمور الخمسة التي ذكرتها الآية كل ما يلزم أن يصدق به الإنسان ، لكي يكون ذا عقيدة سليمة ، متصل به إلى الفلاح والسعادة . ثم ذكرت الآية بعد بيان أصول الإيمان ، أصول الأعمال الصالحة فقالت : « وآتى المال على حبه ، ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ، » .

وهذه الجملة معطوفة على قوله - تعالى - « ومن آمن بالله » . والضمير في قوله « على حبه » ، يعود إلى المال . أى : أعطى المال وبذله عن طيب خاطره حالة كونه مجبأً له ، رغبةً فيه . لأن الإعطاء والبذل في هذه

الحالة يدل على قوة الإيمان ، وصفاء الوجدان ، ويسمو بصاحبه إلى أعلا
الدرجات . قال - تعالى - « ان تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » .

وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - أن أفضل الصدقة ما كان في حال
الصحة ، لأن الإنسان في هذه الحالة يكور مظنة الحاجة إلى المال . فقد أخرج
البخارى في صحيحه عن أنى هريرة - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى
النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، أى الصدقة أعظم أجراً ؟
قال : « أن تصدق وأنت صحيح صحيح ، تخشى الفقر وتأمل الغنى ، ولا
تمهل حتى إذا بلغت الخلقوم قلت : لفلان كذا وكذا وقد كان لفلان .
وقيل الضمير يعود إلى الله - عز وجل - أى : يعطون المال على حب الله
وطلباً لمرضاته .

وقيل يعود إلى اليتام الذى دل عليه قوله - تعالى - « وآتى المال ، فكانه
قال : يعطى ويجب الاعطاء رغبة في ثواب الله .

والمراد بذوى القربى : أقرباء المعطى للمال والمغنى : وأعطى المال مع
محبه لهذا المال لأقاربه المحتاجين لأنهم أولى بالمعروف ، ولأن إعطاءهم
إحسان وصلة رحم ، ولذلك جاء ذكرهم في الآية مقدماً على بقية الأصناف
التي تستحق العطف والإحسان .

روى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم عن سليمان بن عامر قال :
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الصدقة على المسكين صدقة .
وعلى ذى الرحم انتتان : صدقة وصلة .

واليتامى : جمع يتيم ، وهو من فقد أباه بالموت ولم يبلغ الحلم . وهؤلاء
اليتامى في حاجة إلى الإحسان إليهم بعد ذوى القربى متى كانوا محتاجين ،
لشدة عجزهم عن كسب ما يسد حاجتهم .

والمساكين : جمع مسكين ، وهو من لا يملك شيئاً من المال ، أو يملك
ما لا يكفي حاجاته . وهذا النوع من الناس في حاجة إلى العناية والرعاية ؛
لأنهم في الغالب يفضلون الاكتفاء بالقليل على إرافة ما وجوههم بأسؤال .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ليس المسكين الذي يطوف على الناس فترده اللقمة وللقمتان ، والقرعة والقرتان . قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يظن له فيصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً .

وابن السبيل : هو المسافر المنتقطع عن ماله . وسمى بذلك - كما قال الأوسى - لملازمته السبيل - أي الطريق - في السفر ، أو لأن الطريق تبرزه فكأنها ولدته ، وكان أفرادها لا نفراده عن أحبابه ووطنه وأصحابه فهو أبداً يتوق إلى الجمع ، وبشتاق إلى الربيع ، والكريم يحن إلى وطنه حنين الشارف إلى وطنه .

وهذا النوع من الناس في حاجة إلى المساعدة والمعاونة حتى يستطيع الوصول إلى بلده ، وفي هذا تشبيه إلى أن المسلمين وإن اختلفت أوطانهم ينبغي أن يكونوا في التعاطف والتعاون على متاع الحياة كالأسرة الواحدة .

والسائلين : جمع سائل ، وهو اللطالِب للإحسان والمعروف . ويحمل حاله على أنه في حاجة إلى المعاونة ، لأن السؤال علامة الحاجة غالباً . والرقاب : جمع رقبة وهي في الأصل العنق ، وتطلق على البدن كله كما تطلق العين على الجاسوس . فصح حمل الرقاب على الأسارى والأرقاء . وقوله : « وفي الرقاب ، متعلق بآتي ، أي : آتى المال على حبه في تخليص الأسرى من أيدي العدو بفدائهم ، وتخليص الأرقاء بشرائهم وإعتاقهم . وهذه الأصناف الستة التي ذكرت في تلك الجملة الكريمة ، وآتى المال على حبه الخ .

ليس المقصود من ذكرها الاستيعاب والحصر ، ولكنها ذكرت كأمثلة وخصت بالذكر لأنها أحوج من غيرها إلى العون والمساعدة .

والذي يراجع القرآن الكريم يجده قد عنى عناية كبرى بالفقراء والمساكين وجميع أصناف المحتاجين حتى لا تكاد سورة من سورة تخلو من البحث على الإنفاق عليهم ، وبذل العون في مساعدتهم - وأيضاً - هناك عشرات الأحاديث

حتى الحض على مديد العون إلى ذوى القربة والمسرير ، وذلك لأن المجتمعات تحيا وتمض بالتراحم ، وتدل وتشقى بالتقاطع والتدابير بين أبنائها ثم ذكرت الآية ألواناً أخرى من البر تدل على قوة الإيمان ، وحسن الخلق فقالت : « وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وأقام الصلاة أداؤها في موافقتها مستوفية لأركانها وحسنها وخشوعها على الوجه الشرعى عن الذى أمر الله به . والمراد بالزكاة هنا ، الزكاة المفروضة على الوجه الذى فصلته السنة المعهدة . وإيتاؤها : يكون بإعطائها لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم بمن ذكرهم الله فى قوله - تعالى - « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله عليم حكيم ، » .

وفى ذكر الزكاة المفروضة بعد ذكر إيتاء المال على حبه لذوى القربى واليتامى . الخ ، دليل على أن فى الأموال حقوق لذوى الحاجات سوى الزكاة ، وذلك لأنه من المعروف بين أهل العلم أن الحاجة إذا بلغت بطانفة من أبناء الأمة حد الضرورة ، وجب على الأغنياء منها أن يسعوا فى سدها ولو بما زاد على قدر الزكاة .

والأغنياء الذين يكتفون بدفع الزكاة ، ولا يمدون يد المساعدة لسد حاجة المحتاجين ، وتفريج كرب المسكرويين ، ودفع ضرورة البائسين ، ليسوا على البر الذى يريده الله من عباده المتقين .

ومسألة « هل فى المال حق سوى الزكاة ، من المسائل التى تناوؤها بعض العلماء بالشرح والتفصيل (١) .

وقوله « والموفون بهم إذا عاهدوا ، معطوف على قوله « من آمن ، فإنه فى قوة قولك ، ومن أوفوا بهم ، وأوثر صيغة اسم الفاعل للدلالة على وجوب استمرار الوفاء .

والرفاء بالهد يشمل ما عاهد المؤمنون عليه الله من الإذعان لسكل

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ٤٤ ، وتفسير الألومى ج ٢ ص ٤٧

ما جاء به الدين ، ويشمل ما يعاهد به الناس بعضهم بعضاً مما لا يحل حراماً ولا يجرم حلالاً .

والموفون بهم هم الذين إذا وعدوا أنجزوا ، وإذا حلفوا بروا في أيمانهم ، وإذا قالوا صدقوا في قولهم ، وإذا اتتمنوا أدوا الأمانة ، وقد وعدهم الله على ذلك بأجزل الثواب ، وأعلى الدرجات .

وفي قوله - تعالى - « إذا عاهدوا ، إشارة إلى أن إيفاءهم بالعهد لا يتأخر عن وقت حصول العهد .

ثم ختم - سبحانه - خصال البر بقوله : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » . البأساء من البؤس ، وهي ما يصيب الناس في الأموال كالفقر والاحتياج . يقال : بشس ببأس وبؤساً وبأساً أى اشتدت حاجته .

والضراء من الضر ، وهي ما يصيبهم في أنفسهم كالأمراض والأسقام . يقال : ضره وأضره وضاره ضرراً وضراً ، ضد نفع : والألف في البأساء والضراء للتانيث .

وحين البأس ، أى : ووقت القتال في سبيل الله لإعلاء كلمته ، يقال : ببؤس ببؤس ببأساً فهو ببئس ، أى : بشجاع شديد .

وقوله « والصابرين ، معطوف في المعنى على « من آمن » كقوله « والموفون » ، إلا أنه جاء منصوباً على المدح بتقدير - أخص أو أمدح - وغير سبكه عما قبله ، تنبيهاً على فضيلة الصبر ومزيته على غيره من الفضائل حتى الكآفة ليس من جنس ما سبقه من فضائل ، وهذا الأسلوب يسمى عند علماء اللغة العربية بالقطع ، وهو أبلغ من الإتياع . ولا ريب في أن صفة الصبر على الشدائد والآلام وحين القتال في سبيل الله ، جديرة بأن ينفه لمزيد فضلها ، إذ هي أصل لكثير من المكارم ، كالعفاف عما في أيدي الناس ، والتسليم للقضاء الذي لا مرد له ، والإقدام الذي يحمى به الدين وتسلم به النفوس والأموال والأعراض :

وليس الصبر هو الخضوع والاستكانة والاستسلام من غير مقاومة ولا عمل وإنما الصبر جهاد ومحاوله للتغلب على المصاعب ، مع الإحتفاظ برباطة الجأش والثقة بحسن العافية .

وقد خصت الآية ثلاث حالات بالصبر ؛ لأن هذه الحالات هي أبرز الأشياء التي يظهر فيها هلع الهالعين وجرع الجازعين ، كما يتميز فيها أصحاب النفوس القوية المطمئنة من غيرهم .

وجاءت كلمة « حين » ، في قوله « وحين البأس » ، مشيرة إلى أن مزينة الصبر في القتال إنما تظهر حين يلتقى الجمعان ، وتدرر رحي الحرب ، لأن بعض الناس قد يكون قوياً في بدنه ، وقد يحشر نفسه في زمرة الأبطال المقاتلين ، ولكنه عند ما يرى الأهتاق تقسأط من حوله تخور قواه ، ويلوذ بالفرار ، أو يستسلم للعدو . وفي هذه الحالة تسلب عنه صفة الصابرين حين البأس . وتحق عليه صفة الضعفاء الجبناء .

وقد جاءت أنواع الصبر في الآية على وجه الترقى من الشديد إلى الأشد ، وذلك لأن الصبر على المرض أصعب من الصبر على الفقر ، والصبر حين البأس أصعب من الصبر على المرض . ثم ختمت الآية حديثها عن هؤلاء الجامعين . أولئك اسم إشارة للجمع ، وقد أشير به إلى من تقدم ذكرهم من الجامعين لحصول البر ، والصدق توصف به الأقوال المطابقة للواقع ، وتوصف به الأعمال الواقعة على الوجه الذي يرضى الله - تعالى - .

والمتقون من الاتقاء وهو الحذر ، ويطلق المتقى في كلام الشارع على الإنسان الذي صان نفسه عن كل ما يغضب الله ، وامثل لأوامره ونواهيه . أي : أولئك الذين تقدم ذكرهم من المحرزين لحصول البر هم الصادقون في إيمانهم وفي كل أحوالهم ، وأوائك هم المتقون لعذاب الله - تعالى - بسبب امتثالهم لأوامره ، واجتنابهم لما نهى عنه .

واسم الإشارة « أولئك » ، جرى به لإحضارهم في أذهان المخاطبين وهم متصفون بتلك المناب الجميلة .

وفي تكرير الإشارة زيادة تنويه بشأهم وفضلهم . وجاء الإخبار عنهم بأنهم الصادقون المنتقون ، لتبشيرهم بأنهم قد بلغوا بإحرازهم لتلك النخلة السابقة الغاية التي يطمح إليها أرباب البصائر المستنيرة ، والنفوس المستقيمة ، والغلوب السليمة ، وهي مقام الصدق والتقوى الذي يرتفع بصاحبه إلى السعادة في الدنيا ، والنعم الدائم في الآخرة .

هذا ، وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على خمسة عشر نوعاً من أنواع المطلب الذي يهدى إلى الحياة السعيدة في الدنيا ، وإلى رضا الله - تعالى - في الآخرة ، وذلك لأنها قد أرشدت إلى أن البر أنواع ثلاثة جامعة لكل خير: بر في العقيدة ، وبر في العمل ، وبر في الخلق .

أما بر العقيدة فقد بيته أكمل بيان في قوله - تعالى - : «ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين» .

فقد جمعت في هذه الجملة الكريمة ما لا يتم الإيمان إلا بتحقيقه .
وأما بر العمل فقد وضحته أبلغ توضيح في قوله - تعالى - : «وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب» .
ولا شك أن إنفاق المال في تلك الوجوه من شأنه أن يسعد الأفراد والجماعات والأمم ، ويكون مظهراً من أفضل مظاهر العمل الصالح الذي يرضى الله - تعالى - .

وأما بر الخلق فقد ذكرته بأحكام عبارة في قوله - تعالى - : «وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس» .

وذلك لأن التمسك بهذه الفضائل - أداء الصلاة ، إيتاء الزكاة ، والوفاء بالعهود ، والتذرع بالصبر - يدل على صفاء الإيمان ، وطهارة الوجدان ، وحسن الخلق ، وكمال الاستقامة .

وهكذا تجمع آية واحدة من كتاب الله بين بر العقيدة وبر العمل وبر الخلق ، وتربط بين الجميع برباط واحد لا يتفصم ، ونضع على هذا كله

عنواناً واحداً هو «البر»، وتمدح من استجمع أنواعه بالصدق والتقوى .
 فلهذا الاستقراء البديع ، وذلك التوجيه السديد ، الذي يشهدان هذه
 القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .
 وبعد أن بين - سبحانه - أن البر الجامع لألوان الخير يتجلى في الإيمان
 بالله واليوم الآخر . . . وفي بذل المال في وجوه الخير ، وفي المحافظة على
 فرائضه - سبحانه - ، وفي غير ذلك من أنواع الطاعات التي ذكرتها الآية
 السابقة ، بعد كل ذلك شرع - سبحانه - في بيان بعض الأحكام العملية
 الجليلة التي لا يستغنى عنها الناس في حياتهم ، وبدأ هذه الأحكام بالحديث
 عن حفظ الدماء لماله من منزلة ذات شأن في إصلاح العالم فقال - تعالى - :

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ^{نظ} الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ
 وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ
 وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ^ج ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْتَدَىٰ
 بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي

الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

« كتب » من الكتب ، وهو في الأصل ضم أديم إلى أديم بالخياطة .
 وتعرف في ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط ، وأطلق على المضموم
 في اللفظ وإن لم يكتب بالخط ، ومنه الكتابة ، ويطلق الكتب والكتابة
 والكتابة على الإيجاب والفرض ؛ لأن الشأن فيها يوجب ويفرض أن يراد
 ثم يقال ثم كتب ، ومنه « يكتب عليكم الصيام » ، أى : فرض عليكم .

والقصاص : العقرية بالمثل من قتل أو جرح . وهو - كما قال القرطبي - مأخوذ من قص الأثر وهو اتباعه ، ومنه القاص لأنه يتبع الآثار والأخبار وقص الشعر اتباع أثره ، فكان القاتل سلك طريقاً من القتل فقص أثره فيها ومشى على سبيله في ذلك ، ومنه : فارتدا على آثارهما قصصاً ، وقيل : الفص القطع . يقال : قصصت ما بينهما . ومنه أخذ القصاص ؛ لأنه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به . يقال أقص الحاكم فلاناً من فلان به فأمثله فامتثل منه ، أى : اقتص منه ، (١) .

فأداة القصاص تدل على التساوى والتماثل والتتبع .
والقتل جمع قتيل ، والقتيل من يقتله غيره من الناس .
والمعنى : بأياها الذين آمنوا فرض عليكم وأوجب القصاص بسبب القتل . بأن تقتلوا القاتل عقوبة له على جريمته مع مراعاة المساواة التي فررها الشارع الحكيم ، فلا يجوز لكم أن تقتلوا غير القاتل ، كما لا يجوز لكم أن تسرفوا في القتل بأن تقتلوا القاتل وغيره من أقاربه .
فمعنى القصاص هنا أن يقتل القاتل لأنه في نظر الشريعة مساو للمقتول فيقتل به . وقد بين العلماء أن القصاص يفرض عند القيل الواقع على وجه التعمد والتعمد ، وعند مطالبة أولياء القتل بالقود - أى القصاص - من القاتل واقتضاه في ، في قوله - تعالى - : وفي القتل ، للسببية ، أى : فرض عليكم القصاص بسبب القتل . كما في قوله (صلى الله عليه وسلم) ودخلت امرأة النار في هرة ، أى بسببها .

وصدرت الآية بخطاب الذين آمنوا ، تقوية لداعية إنفاذ حكم القصاص الذي شرعه الخبير بنفوس خلقه ، لأن من شأن الإيمان الصادق أن يحمل صاحبه على تنفيذ شريعة الله التي شرعها لإقامة الأمان والاطمئنان بين الناس ، ولسد أبواب الفتن التي تحل عرا الألفه والمودة بينهم .
وقد وجه - سبحانه - الخطاب إلى المؤمنين كافة مع أن تنفيذ الحدود من

حق الحاكم، لإشعارهم بأن عليهم جانباً من التبعة إذا أهمل الحكام تنفيذ هذه العقوبات التي شرعها الله، أو إذا لم يقيموا عليهم جانباً من التبعة إذا أهمل الحكام، تنفيذ هذه العقوبات التي شرعها الله، أو إذا لم يقيموها بالطريقة التي بينها شريعته، وإشعارهم كذلك بأنهم مطالبون بعمل ما يساعد الحكام على تنفيذ الحدود بالعدل، وذلك بتسليم الجاني إلى المكلفين بحفظ الأمن، وأداء الشهادة عليه بالحق والعدل، وغير ذلك من وجوه المساعدة.

وقوله - تعالى - والحر بالحر والعبد بالعبد، والآثي بالآثي، بيان لمعنى المساواة في القتل المشار إليها بلفظ القصاص، فالجملة تنتم لمعنى الجملة السابقة، ومفادها أنه لا يقتل في مقابل المقتول سوى قاتله، لأن قتل غير الجاني ليس بقصاص بل هو اعتداء يؤدي إلى فتنة في الأرض وفساد كبير.

وقد يفهم من مقابلة الحر بالحر والعبد بالعبد والآثي بالآثي، أنه لا يقتل صنف بصنف آخر، وهذا الفهم غير مراد على إطلاقه، فقد جرى العمل منذ عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على قتل الرجل بالمرأة. قال القرطبي: أجمع العلماء على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، (١). والخلاف في قتل الحر بالعبد. فبعض العلماء يرى قتل الحر بالعبد، وبعضهم لا يرى ذلك، ولكل فريق أدلته التي يمكن الرجوع إليها في كتب الفقه والغرض الذي سبقت من أجله الآية الكريمة، إنما هو وجوب تنفيذ القصاص بالعدل والمساواة، وإبطال ما كان شائماً في الجاهلية من أن القبيلة القوية كانت إذا قتلت منها القبيلة الضعيفة شخصاً، لا ترضى حتى تقتل في مقابلته من الضعيفة أشخاصاً. وإذا قتلت منها عبداً تقتل في مقابلته حراً أو أحراراً، وإذا قتلت منها أنثى تقتل في نظيره رجلاً أو أكثر. فيترتب على ذلك أن ينتشر القتل، ويشيع الفساد، وقد حكى لنا التاريخ كثيراً مما فعله الجاهليون في هذا الشأن.

قال الإمام البيضاوي عند تفسيره لهذه الآية: كان في الجاهلية بين حينين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول على الآخر ، فأقسموا لا يقتلن الحر منكم بالعبد ، والذكر بالأنثى ، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية . وهي لا تدل على أنه لا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى ، كما لا تدل على عكسه ، فإن المفهوم يعتبر حيث لم يظهر للتخصيص غرض سوى اختصاص الحكم ، (١) .

ثم أورد - سبحانه - بعد إيجابه للقصاص العادل - حكماً يفتح باب الغراضى . بين القاتل وأولياء المقتول ، بأن أباح لهم أن يسقطوا عنه القصاص إذا شاؤوا وأخذوا في مقابل ذلك الدية ، فقال - تعالى - : فن عفى له من أخيه شئ . فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان .

عفى : من العفو وهو الإسقاط ، والعفو عن المعصية ، ترك العقاب عليها .
والذى عفى له هو القاتل ، و د أخيه ، الذى عفا هو ولي المقتول .
والمراد بلفظ د شئ ، القصاص ، وهو نائب فاعل د عفى .

والمعنى : أن القاتل عمداً إذا أسقط عنه أخوه وولى دم القاتل القصاص ، راضياً أن يأخذ منه الدية بدل القصاص ، فن الواجب على ولى الدم أن يتبع طريق العدل في أخذ الدية من القاتل بحيث لا يطالبه بأكثر من حقه ، ومن الواجب كذلك على القاتل أن يدفع له الدية بالطريق الحسنى ، بحيث لا يماطله ولا يبخسه حقه .

فقوله - تعالى - د فاتباع بالمعروف ، وصية منه - سبحانه - لولى الدم أن يكون رقيقاً في مطالبته القاتل بدفع الدية .

وقوله ، وأداء إليه بإحسان ، وصية منه - سبحانه - للقاتل بأن يدفع الدية لولى الدم بدون تسويق أو مماطلة .

(١) تفسير البيضاوي ص ٣٦ .

وفهذه الوصايا تحقيق اصفاء القلوب ، وشفاء لما في الصدور من آلام .
وتقوية لروابط الأخوة الإنسانية بين البشر .

وبعضهم فسر العفو بالعطاء . فيكون المعنى : فمن أعطى إله وهو ولي
المقتول من أخيه وهو القاتل شيئاً وهو الدية ، فعلى ولي المقتول اتباعه
بالمعروف ، وعلى القاتل أداء إياه بإحسان .

وسمى القرآن الكريم القاتل أخاً لولي المقتول ، تذكيراً بالأخوة الإنسانية
والدينية ، حتى يهز عطف كل واحد منهما إلى الآخر ، فيقع بينهم العفو ،
والاتباع بالمعروف ، والأداء بإحسان .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : عفى يتعدى بعن لا باللام فما وجه
قوله « فمن عفى له » ؟ قلت : يتعدى بعن إلى الجاني وإلى الذنب ، فيقال : عفوت
عن فلان وعن ذنبه . قال - تعالى - : « عفا الله عنك » وقال « عفا الله عنها » .
فإذا تعدى إلى الذنب والجاني معاً قيل : عفوت لفلان عما جنى ، كما تقول :
غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه . وعلى هذا ما في الآية ، كأنه قيل : فمن
عفى له عند جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية ، (١) .

وجاء التعبير بلفظ « شيء » ، منكرأ ، لإفادة التقليل . أى : فمن عفى له
من أخيه ما يسمى شيئاً من العفو والتجاوز ولو أقل قليل ، تم العفو وسقط
القصاص ، ولم تجب إلا الدية ، وذلك بأن يعفو بعض أو إياها الدم ، لأن
القصاص لا يتجزأ .

وفي ذلك تحبيب من الشارع الحكيم لولى الدم ، في العفو وفي قبول
الدية ، إذ العفو أقرب إلى صفاء القلوب ، وتجميع النفوس على الإخاء
والتعاطف والتسامح . وفيه - أيضاً - إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من
التعبير من قبول أخذ الصلح في قتل العمد ، وعدم ذلك لو نأ من بيع دم
المقتول بثمن بخس . قال بعضهم يحرض قومه على النار .

فلا تأخذوا عقلاً من القوم إننى أرى العار يبقى والمعاقل تذهب

وقال شاعر آخر يذكر قوماً لم يقبلوا الصلح عن قتل لهم :

فلو أن حيا يقبل المال فدية لسقنا لهم سيئاً من المال مفعماً

ولكن أبى قوم أصيب أخوهم رضا العار فاختاروا على اللبن الدما

ثم بين - سبحانه - أنه يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر فقال :

ذلك تخفيف من ربكم ورحمة .

أى : ذلك الذى شرعناه لكم من تيسير أمر القصاص بأداء الدية إلى لولى

القتيل إذا رضى طائناً مختاراً ، أردنا منه التخفيف عليكم . إذ فى الدية تخفيف

على القاتل بإبقاء حياته وإفقاذاها من القتل قصاصاً ، وفيها كذلك نفع لولى

القتيل ، إذ هذا المال الذى أخذه نظير عفوه يستطيع أن ينتفع به فى كثير

من مطالب حياته .

وبهذا نرى أن الإسلام قد جمع فى تشريعه الحكيم العقوبة القتل بين

العدل والرحمة . إذ جعل القصاص حقاً لأرلياء المقتول إذا طالبوا به

لا ينازعهم فى ذلك منازع وهذا عين الإنصاف والعدل .

وجعل الدية عوضاً عن القصاص إذا رضوا به باختيارهم ، وهذا عين

الرحمة واليسر . وبالعادلة والرحمة تسعد الأمم وتطامن فى حياتها ، إذ العدالة

هى التى تكسر شره النفوس ، وتغسل غل الصدور ، وتردع الجانى عن التماذى

فى الاعتداء ، لأنه يعلم علم اليقين أن من وراء الاعتداء قصاص عادل .

والرحمة هى التى تفتح الطريق أمام القلوب لكي تلتئم بعد التصدع

وتتلاقى بعد التفرق ، وتتوادد بعد التعادى ، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو

أعلى منه وهو العفو . فلهذا هذا التشريع الحكيم الذى ما أحوج العالم إلى

الأخذ به ، والتمسك بتوجيهاته .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالوهيد الشديد لمن يتعدى حدوده ، ويتجاوز

تشريعه الحكيم فقال : « فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » .

أى : فن تجاوز حدوده بعد هذا التشريع الحكيم الذى شرعنا به بأن قتل القاتل بعد قبول الدية منه ، أو بأن قتل غير من يستحق القتل ، فله عذاب شديد الألم ؛ من الله - تعالى - لأن الاعتداء بعد التراضى والقبول يدل على فكث العهد ، ورفق الدين ، والمحطاط الخلق .

ثم بين - سبحانه - الحكمة فى مشروعية القصاص القوطيناً للنفس على الانقياد له ، وتقوية لعزم الحكام على إقامته فقال - تعالى - ولكم فى القصاص حياة ، أى : ولكم فى مشروعية القصاص حياة عظيمة ، فالنوبن للتعظيم . قال صاحب الكشاف ، وذلك أنهم كانوا يقتلون الجماعة بالواحد ، وكم قتل مهمل بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل . وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتشور الفتنة ويقع بينهم التناحر ، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه حياة أى حياة ، أو نوع من الحياة وهى الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل لوقوع العلم بالاعتصاص من القاتل ، لأنه إذا هم بالقتل فعلم أنه يقتص منه ارتدع فسلم صاحبه من القتل وسلم هو من القود . فكان القصاص سبب حياة نفسين ، (١) .

هذا ، وقد نقل عن العرب ما يدل على أنهم تحدثوا عن حكمة القصاص ومن أقوالهم فى هذا الشأن : « قتل البعض إحياء للجميع ، و« أكثروا القتل ليعقل القتل ، وأجمعوا على أن أبلغ الأفعال التى عبروا بها عن هذا المعنى قولهم « القتل أنقى للقتل ، وقد أجمع أولوا العلم على أن قوله - تعالى - « ولكم فى القصاص حياة » أبلغ من هذه العبارة التى نطق بها حكماء العرب ، بمقدار ما بين كلام الخالق وكلام المخلوق ، وذكروا أن الآية تفوق ما نطق به حكماء العرب من وجوة كثيرة من أهمها :

١ : أن الآية جعلت سبب الحياة القصاص وهو القتل على وجه الانسارى ، أما العبارة العربية فقد جعلت سبب الحياة القتل ، ومن القتل ما يكون ظلماً ،

فيكون سبباً للفناء لا للحياة . وتصحيح هذه العبارة أن يقال : القتل قصاصاً
أنفى للقتل ظلماً .

٢ : أن الآية جاءت خالية من التكرار اللفظي ، فعبرت عن القتل الذي
هو سبب الحياة بالقصاص . والعبارة كرر فيها لفظ القتل ، فسما بهذا
التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية .

٣ : أن الآية جعلت القصاص سبباً للحياة التي تتوجه إليها الرغبة مباشرة ،
والعبارة العربية جعلت القتل سبباً لنفى القتل الذي تترتب عليه الحياة
٤ : الآية مبنيّة على الإثبات والمثل على النفي ، والإثبات أشرف لأنه أول
والنفي ثان له .

٥ : أن تنكير حياة في الآية يفيد تعظيماً ، فيدل على أن في القصاص حياة
متطاولة كما في قوله - تعالى - « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة »
ولا كذلك المثل ، فإن اللام فيه للجنس ، ولذا فسروا الحياة فيها
بالبقاء .

٦ : تعريف « القصاص » ، بلام الجنس الدالة على حقيقة هذا الحكم المشتملة
على - الضرب والجرح والقتل - وغير ذلك . والمثل لا يشمل ذلك .
٧ : أن الآية مع أفضليتها عن المثل من حيث البلاغة والشمول واللفظ والمعنى
أقل حروفاً من المثل .

هذه بعض وجوه أفضلية الآية على المثل ، وهناك وجوه أخرى
ذكرها العلماء في كتبهم (١) .

وفي قوله « يا أولى الألباب » تنيبه بحرف النداء على التأمل في حكمة
القصاص .

والألباب : جمع لب وهو العقل الخالص من شوائب الاوهام ، أو
العقل الذي الذي يستبين الحقائق بسرعة وفضة ، ويستخرج لطائف المعاني

من مكانها ببراعة وحسن تصرف .

وخص النداء بأولى الألباب مع أن الخطاب بحكمة القصاص شامل لهم
ولغيرهم ، لأنهم الذين يتدبرون عواقب الأمور ، ويعرفون قيمة الحياة ،
ويقدرون حكم التشريع قدرها .

وفي هذا النداء تقيبه على أن من ينكرون مصلحة القصاص وأثره النافع
في تثبيت دعائم الأمن ، يعيشون بين الناس بمقول غير سليمة . ولا يزال
الناس يشاهدون في كل عصر ما يشيره القتل في صدور أولياء القتلى من أحقاد
أطاعية ، لولا أن القصاص يخفف من سطوتها لتعادت بهم في تقاطع وسفك
دماء دون الوقوف عند حد .

وختمت الآية بهذه الجملة التعليلية « لعلكم تتقون » ، زيادة في إقناع
نفوسهم بأمر القصاص ، أي : شرعنا لكم هذه الأحكام الحكيمة لتتقوا
القتل حذراً من القصاص ، ولتعيشوا آمنين مطمئنين ، متوادين متحابين .

وبهذا البيان الحكيم تكون الآيات الكريمتان قد أرشدتا إلى ما يحمي
النفوس ، ويحقق الدماء ، ويردع المعتدين عن الاعتداء ، ويفرس بين الناس
معاني التسامح والإخاء ، ويقيم حياتهم على أساس من الرحمة والعدالة
وحسن القضاء .

وبعد أن بين - سبحانه - ما يتعلق بالقصاص أتبعه بالحديث عن الوصية ،
ليرشد الناس إلى ما ينبغي أن تكون عليه ، وليبطل ما كان من عوائد الجاهلية
من وصايا جائرة فقال - تعالى - :

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ
 إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى
 الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَيَّمَا إِيْمَةٍ عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ
 إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ
 بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

وقوله - تعالى - « كتب عليكم ، قد استفاض في عرف الشرع بمعنى
 . وجب عليكم .

و « حضور الموت ، يقع عند معاينة الإنسان للموت ، ولعجزه في هذا الوقت
 عن الإبصار ، فسر بحضور أسبابه ، وظهور أماراته ، من نحو العمل المخوفة
 ، والهرم البالغ . وقد شاع عند العرب استعمال السبب كناية عن المسبب ، ومن
 ذلك قول شاعرهم :

يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بنى أسد ما هذه الصوت (١)
 وقل لهم بادروا بالعدو والتسوا قولا يبرئكم إلى أنا الموت
 والخير : المال ، وقالوا إنه هنا مختص بالمال الكثير ، لأن مقام الوصية
 يشعر بذلك ، ولم يرد نص من الشارع في تقدير ما يسمى ما لا كثيراً ، وإنما
 وردت آثار من بعض الصحابة والتابعين في تقديره بحسب اجتهادهم ، وبالنظر
 إلى ما يسمى بحسب العرف ما لا كثيراً ، فقال بعضهم : من ألف درهم إلى

(١) الصوت مذكر ، وقد أنثه الشاعر هنا لأنه أراد به الضوضاء
 والجلجلة ، على معنى الصحيحة - كما أفاده المعلق على القرطبي فقلا عن
 لسان العرب .

خمسائة درهم ، وقال بعضهم : من ألف درهم إلى ثمانمائة درهم . والحق أن هذا التقدير يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والعرف . ويرى بعض العلماء أن الوصية مشروعة في المال قليله وكثيره . قال القرطبي : والوصية عبارة عن كل شيء يؤمر بفعله ويعهد به في الحياة وبعد الموت . وخصها العرف بما يعهد بفعله وتنفيذه بعد الموت . وألجع وصايا كالقضايا جمع قضية ، والوصى يكون الموصى والموصى إليه . وأصله من وصى مخففاً . وتوآصى التبت توآصياً إذا اتصل وأرض وآصية : متصلة النيات . وأوصيت له بشيء وأوصيت إليه إذا جعلته وصيك . والامم الوصاية والوصاية - بالفتح وبالكسر - ، وتوآصى القوم : أوصى بعضهم بعضاً ، (١) . والمعنى : كتب الله عليكم أيها المؤمنون أنه إذا ظهرت على أحدكم أمارات الموت : من مرض ثقيل ، أو شيخوخة مضعفة ، وكان عنده مال كبير قد جمعه عن طريق حلال ، أن يوصى بجانب منه لوالديه وأقاربه رعاية لحقهم وحاجتهم ، وأن تكون وصيته لهم بالعدل الذي لا مضارة فيه بين الأقارب ، والوصية على هذا الوجه تعتبر حقاً واجباً على المتقين الذين اتخذوا التقوى والحشية من الله طريقاً لهم .

فألاية الكريمة استئناف لبيان الوصية بعد الحديث عن القصاص ، وفصل للقرآن الحديث عن الوصية عن سابقه الإشعار بأنه حكم مستقل جدير بالأهمية . وقد جاء الحديث عن الوصية بتلك الطريقة الحكيمة ، لتغيير ما كان من عادات بعض أهل الجاهلية ، فإنهم كانوا كثيراً ما يمنعون القريب من الإرث توها منهم أنه يتمنى موت قريبه ليرثه ، وربما فضلوا بعض الأقارب على بعض فيتودى ذلك إلى التباغض والتحاسد ، وربما فضلوا - أيضاً - الوصية لغير الأقارب للفخر والتباهى . فشرع الإسلام لاتباعه ما يقوى الروابط ويمنع التحاسد والتعاضد .

قال الجمل : وكتب فعل ماض مبني للمجهول ، وحذف الفاعل للعلم به وهو الله - تعالى - . وفي القائم مقام الفاعل ثلاثة أوجه : أحدها أن يكون الوصية ، أى : كتب عليكم الوصية ، وجاز تذكير الفعل لمكون القائم مقام الفاعل مؤنثاً مجازياً ووجود الفصل بينه وبين مرفوعه .

والثانى : أنه الإيضاء المدلول عليه بقوله « الوصية للوالدين ، أى : كتب هو ، أى الإيضاء .

والثالث : أنه الجار والمجرور . وهذا يتجه على رأى الأخفش والكوفيين وعليه فيكون قوله « عليكم » فى محل رفع ، ويكون فى محل نصب على القولين الأولين وجواب كل من « إذا » و « إن » محذوف . أى : كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً فليوص ، (١) .
والبأى فى قوله « بالمعروف ، الملايسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من الوصية .

والمراد بالمعروف هنا العدل الذى جاءت به الشريعة ، بأن لا يتجاوز بالوصية الثلث ، وأن لا يوصى للاغنياء ويترك الفقراء ، أو يوصى للقريب ويترك الأقرب مع أنه أشد فقراً ومسكناً .

وقوله « حقاً ، مصدر مؤكد للحديث الذى دل عليه « كتب » وعامله إما « كتب » أو فعل محذوف تقديره حق أى : حق ذلك حقاً .

وقوله « على المتقين ، صفة له . أى : حقاً كائناً على المتقين .
وخص هذا الحق بالمتقين ترغيباً فى الرضا به ، لأن ما كان من شأن المتقى فهو أمر نفيس جدير أن يتأسى به الناس ، ومن أهمله فقد حرم من الدخول فى زمرة من ، وخسر بذلك خسارة عظيمة .

قال بعض العلماء : وقد وردت هذه الآية فى الوصية للوالدين والأقربين . والمعروف عند الأمة منذ عهد السلف أن الوصية لا تصح لو ارث ، والوالدين لهما نصيب مفروض فى الموارث ومقتضاه عدم صحة الوصية لهما ؟

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٤٤ .

ويزيح هذا الاشكال من طريق التفسير أن فريقاً من أهل العلم وهم جمهور
المفسرين ذهبوا إلى أن الآية قد نسخ منها حكم الوصية للوارث. وإيضاح وجه
النسخ أن آية الموارث نزلت بعد آية الوصية فقامت مقامها في الوصية للوارث
ودل على هذا المعنى صراحة الحديث الشريف وهو قوله - ﷺ -
« إن الله أعطى كل ذي حق حقه ، ألا لا وصية لوارث ، » .

وهذا الحديث وإن لم يبلغ مبلغ الحديث المتواتر الذي يصح نسخه للقرآن
بنفسه ، فقد امتاز عن بقية أخبار الأحاد بأن الأمة تلقته بالقبول ، وأخذوا
بها في العمل به من غير مخالف ، فأخذ هذا قوة الحديث المتواتر في الرواية ،
واعتمدوا عليه في بيان أن آية الموارث قامت بتقدير الأنصبا في الميراث
مقام آية « إذا حضر أحدكم الموت ، في الوصية للوارث . وروى البخاري في
صحيحه عن ابن عباس - رضی الله عنه - قال : « كان المال للولد وكانت
« الوصية للوالدين ، فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ
الأنثيين ، وجعل للابوين لكل واحد منهما اتسدس ، وجعل للمرأة الثمن
والربع ، وللزوج الشطر والربع ، » .

ومن أهل العلم من لم يستطيعوا أن يهملوا حديث « لا وصية لوارث ،
لاستفاضته بين الأمة وتلقيهم له بالقبول ، فقرروا العمل به وأبطلوا الوصية
لوارث ولكنهم ذهبوا مع هذا إلى أن آية الوصية للوالدين محكمة غير منسوخة
وتأولوها على وجوه منها أن المراد من قوله « للوالدين ، الوالدان اللذان
لا يرثان لما نزع من الإرث كالكفر والامترقاق ، وقد كانوا حديثي عهد
بالإسلام يسلم الرجل ولا يسلم أبواه ، وقد أوصى الله بالإحسان إليهما ، (١) .
ثم توعد - سبحانه - من يبدل الوصية بطريقة لم يأذن بها الله فقال - تعالى -
« فمن ، بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ، » .

(١) تفسير القرآن الكريم لفصيلة استاذنا المرحوم الشيخ محمد الحضر
حسين . مجلة لواء الإسلام السنة الرابعة : العدد العاشر .

بدله : غيره . وتغيير الوصية بتأني بالزيادة في الموصى به أو النقص منه أو كتمانها ، أو غير ذلك من وجوه التغيير للموصى به بعد وفاة الموصى .
وسمعه : أى علمه وتحققه ، وكفى بالسمع عن العلم لأنه طريق حصوله .
والضائر البارزة في بدله وسمعه وإثمه ويبدو أنه ، عائدة على القول أو على الكلام الذى يقوله الموصى والذى دل عليه لفظ الوصية ، أو على الإيصاء المقهور من الوصية . وهو الإيصاء أو القول الواقع على الوجه الذى شرعه الله .
والمعنى : فمن غير الإيصاء الذى أوصى به المتوفى عن وجهه ، بعدما علمه وتحققه منه ، فإنما إثم ذلك التغيير فى الإيصاء يقع على عاتق هذا المبدل ، لأنه بهذا التبديل قد خان الأمانة ، وخالف شريعة الله ، وإن يلحق الموصى شيئاً من الإثم لأنه قد أدى ما عليه بفعله للوصية كما يريد بها الله - تعالى - .
وقد ختمت الآية بقوله - تعالى - « إن الله سميع عليم » للإشعار بالوعيد الشديد الذى توعد الله به كل من غير وبدل هذا الحق عن وجهه ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شئ . من حيل الناس الباطلة ، فهو - سبحانه - سميع لوصية الموصى ، عليم بما يقع فيها من تبديل وتحرif .
ثم استثنى - سبحانه - حالة يجوز فيها التغيير فقال : « فمن خاف من موص جناً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه » .
خاف : من الخوف ، وهو فى الأصل حالة تعترى النفس عند الانقباض من شر يتوقع حصوله على سبيل الظن أو على سبيل العلم .
والجذب : الميل والجور . يقال : جنف فى وصيته وأجنف ، مال وجار ، فهو جنف وأجنف . وقيل : أجنف مختص بالوصية وجنف فى مطلق الميل عن الحق . ويقال : جنف وجنف عن طريقه جنفاً وجنواً .
والإثم : العمل الذى يبغضه الله . يقال : أثم فهو آثم وأثم .
قال بعضهم : والمراد بالجنف هنا : الميل عن الحق فى الوصية خطأ ، بقرينة مقابلته بالإثم وهو الميل عن الحق فيها عمداً .

هذا ، ويرى جمهور العلماء أن هذه الآية السكريمة واردة في الوصية
يرى أن الموصى قد حاد في وصيته عن حدود العدل ، فللوصى حيثئذ أن
يصلح فيها بحيث يجعلها متفقة مع ما شرعه الله ، وهو في هذه الحالة لا إثم
عليه لأنه قد غير الباطل بالحق وعلى هذا الرأي يكون المعنى : أن الوصى
إذا رأى في الوصية ميلا عن الحق خطأ أو عمداً وأصلح بين الموصى لهم
يردهم إلى الوجه المشروع فلا إثم عليه في هذا التعبير في الوصية . والضمير
في قوله « بينهم » عائد على الموصى لهم .

ويرى آخرون أن هذه الآية واردة في شأن كل من ينبغي الإصلاح من
الناس ، بأن يرى الموصى يوصى ، فظهر له - أي هذا المصلح - أن الموصى
قد جانب العدل والصواب في وصيته ، فيأخذ في الإصلاح ، بأن يرشده
بأن فعله - هذا لا يتفق مع شريعة العدل التي أمر بها الله ، ويحاول قدر
استطاعته أن يزيل ما حدث من خلاف بين الموصى والموصى لهم .

وعلى هذا الرأي يكون المعنى : إن خرج الموصى في وصيته عن حدود
العدالة ، ورأى أمارات ذلك منه من يريد الإصلاح من الناس ، وتوقع أن
شراً سيمرتب على هذه الوصية التي فيها جور ، أو شاهد نزاعاً بين الموصى
لهم بسبب ذلك ، فلا إثم على هذا المصلح في أن يصلح بين الموصى والموصى
لهم ، وأن يرشد الموصى إلى سلوك طريق العدل والحق . وعليه فيكون
الضمير في قوله « بينهم » يعود على الموصى والموصى لهم .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، لأن سياق الآية
يؤيده ، إذ هي بمنزلة الاستثناء من قوله - تعالى - « فمن بدله بعد
ما سمعه . . . » ، وهذا إنما يكون بعد موت الموصى لا في حياته .

وقوله « إن الله غفور رحيم » ، تدبيل أتى به - سبحانه - للوعود
بالثواب للمصلح على إصلاحه ، فإن من يغفر الذنوب ويرحم المذنبين
تكون مغفرته ورحمته أقرب إلى من يقصد بعمله الإصلاح ولو اعتمده على
ظن غالب أو خطأ وجه الصواب فيما أتى من أعمال .

وهذا تكون الآيات الكريمة قد بينت للناس حكماً آخر من أحكامها السامية ، يتعلق بالوصية في الأموال ، وفي هذا الحكم دعوة إلى التراحم والتكافل ، وغرس لأواصر المودة والمحبة بين الأبناء والآباء ، وبين الأقارب بعضهم مع بعض .

وبعد أن تحدثت السورة الكريمة عن القصاص وعن الوصية أتبعتهما بالحديث عن عبادة عظيمة من العبادات التي جعلها الله - تعالى - ركناً من أركان الإسلام وهي صوم رمضان ، فقال - سبحانه - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾
 أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ
 أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا
 فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرٌ
 رَّمْضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى
 وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى
 سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ
 وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

الصيام مصدر صام كالقيام مصدر قام ، وهو في اللغة : الإمساك

وترك التنقل من حال إلى حال ، فيقال للصمت صوم لأنه إمساك عن الكلام ومنه قوله - تعالى - منجراً عن مريم : « إني نذرت للرحمن صوماً ، أى : سكوتاً عن الكلام . وصوم الريح ركودها وإمساكها عن الهبوب . وتقول العرب : صام النهار وصامت الشمس عند قيام الظهيرة لأنها كالمسكة عن الحركة .

أما الصيام فى عرف الشرع فهو - كما يقول الألوسى - إمساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص فى زمان مخصوص عن هو على صفات مخصوصة .

وقد فرض الله - تعالى - على المسلمين صيام شهر رمضان فى شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة ، وعده النبى (صلى الله عليه وسلم) أحد أركان الإسلام الخمسة ، فقد روى البخارى - بسنده - عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان . . .

وأل فى الصيام للعهد الذهبى ، فقد كان العرب يعرفون لله وم ، فقد جاء فى الصحيحين عن عائشة قالت : كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش فى الجاهلية ، .

والنشيد فى قوله - تعالى - « كما كتب على الذين من قبلكم ، راجع إلى أصل إيجاب الصوم وفريضته . أى : أن عبادة الصوم كانت مكتوبة ومفروضة على الأمم السابقة ، ولكن بكيفية لا يعلمها إلا الله ، إذ لم يرد نص صحيح عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يبين لنا فيه كيف كان صيام الأمم السابقة على الأمة الإسلامية .

وقيل إن التشبيه راجع إلى وقت الصوم وقدره ، فقد روى عن مجاهد أنه قال : كتب الله - عز وجل - صوم شهر رمضان على كل أمة .

وهذا القول ليس له دليل ، ولذا قال القاضي أبو بكر بن العربي :
المقطوع به أن التشبيه في الفرضية خاصة ، وسائر الوجوه مجرد احتمال .
ولفظه كما ، في قوله - تعالى - ذكرا كتب على الذين من قبلكم ،
في موضع نصب على المصدر . أى : فرض عليكم الصيام فرضاً كالذى
فرض على الذين من قبلكم .

ومن فوائد هذا التشبيه ، الاهتمام بهذه العبادة والتنويه بشأنها ، إذ شرعها
- سبحانه - لاتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) ولاتباع الرسل الذين سبقوه
في الدعوة إلى توحيد الله ، وهذا مما يقتضى وفرة ثوابها ، ودوام صلاحها .
كذلك من فوائد تسهيل هذه العبادة على المسلمين ؛ لأن الشيء الشاق
تخف مشقته على الإنسان عند ما يعلم أن غيره قد أداه من قبله .

والفائدة الثالثة من هذا التشبيه إثارة العزائم والهمم للنموض بهذه
العبادة ، حتى لا يكونوا مقصرين في أدائها ، بل يجب عليهم أن يؤديوها
بقوة تفوق من سبقهم لأن الأمة الإسلامية قد وصفها سبحانه بأنها خير أمة
أخرجت للناس وهذه الخيرية تقتضى منهم النشاط فيما كلفهم الله بأدائه من عبادات
وقوله لعلمكم تتقون ، جملة تعليمية جى . بها لبيان حكمة مشروعية الصيام
فكأنه - سبحانه - يقول لعباده المؤمنين : فرضنا عليكم الصيام كما
فرضناه على الذين من قبلكم ، لعلمكم بأدائكم لهذه الفريضة تناولون درجة
التقوى والخشية من الله ، وبذلك تكوّنون من رضى الله عنهم ورضوا
عنه . ولا شك أن هذه الفريضة ترتفع بصاحبها إلى أعلى عليين متى أداها
بأدائها وشروطها ، وبكفى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد قال في
شأن الصوم : « الصوم جنة » (١) أى : وقاية . إذ في الصوم وقاية من
الوقوع في المعاصي ، ووقاية من عذاب الآخرة ، ووقاية من العلل والأمراض
الناشئة عن الإفراط في تناول بعض الأطعمة والأشربة .

وقوله «أياماً معدودات» أي : معينات بالعدد أو قليلات ، لأن القليل يسهل عدده فيعد والكثير يؤخذ جزافاً .

والمراد بهذه الأيام المعدودات شهر رمضان عند جمهور العلماء .

قالوا : وتقريره أنه - تعالى - قال أولاد كتب عليكم الصيام ، وهذا محتمل ليوم ويومين ثم بيّنه بقوله «أياماً معدودات» فزال بعض الاحتمال ثم بيّنه بقوله : «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن» فعلى هذا التقريب يمكن جعل الأيام المعدودات بعينها شهر رمضان ، وإذا أمكن ذلك فلا وجه لحمله على غيره (١) .

ولإنما عبر عن رمضان بأيام وهي جمع قلة ووصف بمعدودات وهي جمع قلة - أيضاً - تهويناً لأمره على المكلفين ، وإشعاراً لهم بأن الله - تعالى - ما فرض عليهم إلا ما هو في وسعهم وقدرتهم .

وقيل أن المراد بالأيام المعدودات غير رمضان ، وذكروا أن المراد بها ثلاثة أيام من كل شهر وهي الأيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر مضافاً إليها يوم عاشوراء . ثم نسخ ذلك بوجوب صوم شهر رمضان . والمعتمد بين المحققين من العلماء هو القول الأول ، لأنه - كما قال الإمام الرازی - لا وجه لحمله على غيره ، والقول بالنسخ زيادة لا دليل عليها .

وقوله «أياماً» منصوب على الظرفية ، أو بفعل مضمرة مقدر أي : صوموا أياماً . وقوله «فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر» زيادة بيان ليس شريعة الإسلام بعد أن أخبرهم - سبحانه - بأن الصوم المفروض عليهم إنما هو أيام معدودات ، وتمجيل بتعلمين نفوس السامعين ثلاثاً يظنوا وجوب الصوم عليهم في كل حال .

والمرض : الخروج عن الاعتدال الخاص بالإنسان ، بأن يصاب بانحراف في جسده يجعله في حالة وجع أو اضطراب بدني .

قال القرطبي : وللمريض حالتان : لأحدهما ألا يطبق الصوم بحال فعليه
تلفطر واجباً .

الثانية : أن يقدر على الصوم بضرر ومشقة فهذا يستحب له الفطر
مقالة فطر مباح في كل مرض إلا المرض اليسير الذي لا كلفة معه في الصيام ، (١)
وقوله ، أو على سفر ، قال الألوسي معناه : أو راكب سفر مستقل
عليه متمكن منه ، بأن اشتغل به قبل الفجر ، ففيه إيماء إلى أن من سافر في
أثناء اليوم لم يفطر . واستدل بإطلاق السفر على أن السفر القصير وسفر
المعصية مخصص للإفطار . وأكثر العلماء على تقييده بالمباح وبما يلزمه العسر
غالباً وهو السفر إلى المسافة المقدرة في الشرع ، (٢) .
والعدة فعلة من العد ، وهي بمعنى المحدود ، كالطحن بمعنى المطحون .
ومنه عدة المرأة .

والمعنى : لقد فرضنا عليكم الصوم أيها المؤمنون ، وجعلناه كما هو الشأن
في كل ما شرعناه مقسماً باليسر لا بالعسر ، ومن مظاهر ذلك أننا فرضنا
عليكم صوم أيام معدودات وهي أيام شهر رمضان ، ولم نفرض عليكم
صوم الدهر . وإننا شرعنا لمن كان مرضاً مرضه يضره الصوم أو يعسر معه ،
أو كان على سفر يشق عليه معه الصوم ، شرعنا له أن يفطر وأن يصوم بدل
الأيام التي أفطرها أيأما آخر مساوية لها في العدد .

قال الإمام الرازي : قال القفال : أنظروا إلى عجب ما نبه الله عليه من سعة
فضله ورحمته في هذا التكليف ، إذ أنه بين في أول الآية أن لهذه الأمة في هذا
التكليف أسوة بالأمم المنقدمة ، والغرض منه ما ذكرناه من أن الأمور الشاقة
إذا عمت خفت . ثم ثانياً بين وجه الحكمة في إيجاب الصوم وهو أنه سبب
الحصول التقوى فلو لم يفرض الصوم لفات هذا المقصود الشريف ، ثم بين ثلثاً

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٧٦ بتصرف وتلخيص

(٢) تفسير الألوسي ج ٢ ص ٥٨ (م - ٣٢ البقرة)

أنه مختص بأيام معدودة فإنه لو جعله أبداً أو في أكثر الأوقات لحصلت المشقة العظيمة . ثم بين رابعا : أنه خصه من الأوقات بالشهر الذي أنزل فيه القرآن لكونه أشرف الشهور بسبب هذه الفضيلة . ثم بين خامسا : إزالة المشقة في إزائمه فأباح تأخيرها لمن شق عليه من المسافرين والمرضى إلى أن يصيروا إلى الرفاهية والسكون . فهو - سبحانه - راعي في إيجاب الصوم هذه الوجوه من الرحمة فله الحمد على نعمه كثيرا ، (١) .

هذا ، وقد نص الفقهاء على أن الإفطار مشروع على سبيل الرخصة للمريض والمسافر ، وهما بالخيار في ذلك إن شاء أفطرا وإن شاء صام . إلا أن أكثر الفقهاء قالوا : الصوم أفضل لمن قوى عليه . والذي نراه أن الله - تعالى - قد أباح الفطر في رمضان بسبب المرض أو السفر ، لأن كلا منهما مظنة المشقة والحرج . والحكم الشرعي يوجد حيث توجد مظنة ويتنفي حيث يتنفي . وعلى المسلم أن يقدر حال نفسه ، فإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره ليس في الصوم معه مشقة أو عسر صام . علا بقوله - تعالى - « وأن تصوموا خير لكم » ، وإذا أيقن أو غلب على ظنه أن مرضه أو سفره يجعل الصوم شاقا عليه أفطر عملا بقوله - تعالى - « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، فالمسألة ترجع إلى ضمير الفرد ودينه واستفتاء قلبه . والثابت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه صام في السفر وأفطر ، وخير بعض أصحابه بين الصوم والفطر . فقد روى البخاري ومسلم عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : خرجنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وفي إحدى روايتي مسلم - في شهر رمضان - ، في يوم حار ، حتى ليضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا ما كان من النبي - ^{صلى الله عليه وسلم} - وابن رواحه . .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن قزعه قال : أتيت أبا سعيد الخدري

فسالته عن الصوم في السفر فقال : سافرنا مع رسول الله - ﷺ - إلى مكة ونحن صيام ، قال : فنزلنا منزلاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم ، فكانت رخصه . فمنا من صام ومنا من أفطر . ثم نزلنا منزلاً آخر فقال : إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا . وكانت عزيمة فأفطرتنا . ثم قال : ولقد رأيتنا نصوم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك في السفر .

وروى الشيخان عن أنس بن مالك قال : كنا نسافر مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم .
والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

وهناك مسألة أخرى تعرض لها الفقهاء بالحديث وهي مسألة قضاء الأيام التي أفطرها المريض أو المسافر هل يقضيها متتابعة أو متفرقة وهل يقضيها على الفور أو على التراخي ؟

وجمهور الفقهاء على أن للمفطر في رمضان بسبب المرض أو السفر أن يقضى ما أفطره متتابعاً أو متفرقاً ؛ لأن قوله - تعالى - : فعدة من أيام آخر - دل على وجوب القضاء من غير تعيين لزمان ، لأن اللفظ - كما قال القرطبي - مسترسل على الأزمان لا يختص بعضها دون بعض . وله كذلك أن يقضى ما عليه على الفور أو على التراخي على حسب ما ييسر له . ففي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : يكون على الصوم من رمضان ما استطاع أن أقضيه إلا في شعبان ، وذلك لمكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهذا نص وزيادة بيان للآية .

ويرى داود الظاهري أن على المفطر في رمضان بسبب المرض أو السفر أن يشرع في قضاء ما أفطره في اليوم الثاني من شوال المعاقب له ، وأن يتابع أيام القضاء .

والمعتمد بين العلماء هو قول الجمهور لقوة أدلته التي سبق بيانها

وقوله - تعالى - ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، بيان لحكم آخر من أحكام الشريعة فيما يتعلق بصوم رمضان يتجلى فيه تفسير الله على عباده فيما شرع لهم من عبادات .

ومعنى « يطيقونه » ، يقدرون عليه ويتحملونه بمشقة وتعب ، لأن الطاقة اسم للقدرة على الشيء مع الشدة والمشقة ، والوسع اسم للقدرة على الشيء على جهة السهولة .

قال الراغب : والطاقة اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة ، وذلك تشبيهه بالطوق المحيط بالشيء ، ومنه « ربنا ولا تحمِلنا ما لا طاقة لنا به » أى ما يصعب علينا مزاولته ، وليس معناه : ولا تحمِلنا ما لا قدرة لنا به (١) والعرب لا تقول فلان أطاق الشيء إلا إذا كانت قدرته عليه فى نهاية الضعف بحيث يتحمّله بمشقة وعسر . فلا يقال - مثلاً - فلان يطيق حمل نواة أو ريشة أو عشرة دراهم من حديد ، وإنما يقال : هو يطيق حمل قنطارين من الحديد أو حمل الأمتعة الثقيلة .

وللعلماء أقوال فى المراد بقوله - تعالى - وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، أشهرها :

١ : إن هذا راجع إلى المقيم الصحيح خيره الله - تعالى - بين الصوم وبين الفداء ، وكان ذلك فى بدء الإسلام فرض عليهم الصوم ولم يتعودوه فاشتد عليهم ، فرخص لهم فى الإفطار والفدية ، ثم نسخ ذلك وأوجب الله عليهم الصوم .

ويشهد لهذا القول ما جاء فى الصحيحين عن سلمة بن الأكوع قال : لما نزلت هذه الآية « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » كان من أراد أن يفطر ويفتدى ، حتى نزلت الآية بعدها فنسختها .

وفى رواية للإمام مسلم من طريق آخر عن سلمة - أيضاً - قال : كنا

في رمضان على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من شاء أفطر
فاقتدى بطعام مسكين حتى أنزلت هذه الآية ، فمن شهد منكم الشهر
فليصمه .

٢ : ويرى بعض العلماء أن قوله - تعالى - « وعلى الذين يطيقونه . . . »
الخ ، ليس بمنسوخ بل هو محكم ، وأنه نزل في شأن الشيخ الكبير
الهرم ، والمرأة العجوز ، إذا كانا لا يستطيعان الصيام فعليهما أن يفطرا
وأن يطعما عن كل يوم مسكيناً . وأصحاب هذا الرأي يستدلون بما
رواه البخاري عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : ليست بمنسوخة
هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فعليهما أن
يطعما مكان كل يوم مسكيناً .

٣ : وهناك رأى ثالث لبعض العلماء يرى أصحابه أن قوله - تعالى - « وعلى
الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، ليس بمنسوخ - أيضاً ، بل هو محكم ،
وأن معنى الآية عندهم : وعلى الذين يطيقونه ، أى : يقدرون على
الصيام بمشقة شديدة إذا أرادوا أن يفطروا أن يطعموا عن كل يوم
يفطرونه مسكيناً . (بأن يقدموا له نصف صاع من بر أو صاع من تمر
أو شعير ، أو قيمة ذلك) .

ولم يقصروا ذلك على الرجل الكبير والمرأة العجوز - كما فعل أصحاب
الرأى الثانى - وإنما أدخلوا في حكم الذين يقدرون على الصوم بمشقة
وتعب المرضع والحامل إذا خافتا على أنفسهما أو وليهما ومن في حكمهما
عن يشق عليهن الصوم مشقة كبيرة .

وأصحاب هذا الرأى يستدلون على ما ذهبوا إليه بمنطوق الآية ، إذا أن
الوسع اسم للقدرة على الشيء على جهة السهولة ، والطلاقة اسم للقدرة عليه
مع الشدة والمشقة - كما سبق أن بينا - ، كما يستدلون - أيضاً - على ما ذهبوا
إليه بقراءة « يطيقونه » - بضم الياء الأولى وتشديد الياء الثانية - أى

بتجشمونه ويتكفونه بمسقة وتعب . وقد انتصر بعض العلماء لهذا الرأي بناء على منطوق الآية يؤيده .

كما انتصر بعضهم للرأي الأول بناء على أن الأحاديث الصحيحة تؤيده ، وعلى أنه هو الأقرب إلى روح الشريعة الإسلامية في التدرج في تشريع التكاليف التي فيها مشقة على الناس ، كما انتصر بعضهم للرأي الثاني الذي روى عن ابن عباس .

وهناك أقوال أخرى في الآية رأينا أن نضرب عنها صفحاً لضعفها . وقوله : فمن تطوع خيراً فهو خير له ، حض من الله - تعالى - لعباده على الإكثار من عمل الخير .

والتطوع : السعي في أن يكون الإنسان فاعلاً للطاعة باختياره بدون إكراه والخير : مصدر خار إذا حسن وشرف ، وهو منصوب لتضمنين تطوع معنى أي ، أو على أنه صفة لمصدر محذوف أي تطوعاً خيراً .

والمعنى : فمن تطوع خيراً بأن زاد على القدر المفروض في الفدية ، أو أطعم أكثر من مسكين ، أو جمع بين الإطعام والصوم ، فتطوعه سيكون خيراً عند الله ، لأنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

وقوله : وأن تصوموا خيراً لكم إن كنتم تعلمون ، ترغيب في الصوم وتحبيب فيه . أي : وأن تصوموا أيها المطيقون للصوم ، أو أيها المكلفون جميعاً خيراً لكم من كل شيء سواه ، إن كنتم تعلمون فوائد الصوم في حياتكم ، وحسن جزائه في آخرتكم

روى النسائي وابن خزيمة عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله مرني بعمل قال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له - أي لا يعادل قوابله بشيء - ، فقلت يا رسول الله مرني بعمل ، فقال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له . فقلت : يا رسول الله مرني بعمل أدخل به الجنة . فقال : عليك بالصوم فإنه لا مثل له ، (١) .

(١) الترغيب والترهيب للمعتمدى ج ٢ ص ٨٥ من كتاب الصوم ،

وقوله : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، كلام مستأنف لبيان تلك الأيام المعدودات التي كتب علينا الصوم فيها وأنها أيام شهر رمضان الذي يستحق كل مدح وثناء لتشرفه بنزول الكتب السماوية فيه .

قال الإمام ابن كثير : يمدح - تعالى - شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم ، فقد ورد في الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء فمن واثقه بن الأسقع أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان ، (١) و«الشهر» مأخوذ من الشهرة ، يقال : شهر الشيء يشهر شهرة وشهراً إذا ظهر بحيث لا يتعذر علمه على أحد ، ومنه يقال : شهرت السيف إذا سلطته يقال بعضهم : وسمى الهلال شهراً لشهرته وبيانه ، وبه سمي الشهر شهراً . و«رمضان» اسم لهذا الشهر الذي فرض علينا صيامه ، وهو مأخوذ من «قال القرطبي» - من رمض الصائم يرمض إذا حر جوفه من شدة العطش والرمضاء : شدة الحر ، ومنه الحديث : صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال - أي صلاة الضحى - ، قيل : إن العرب لما فقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها ، فوافق هذا الشهر أيام رمض الحر فسمى بذلك . وقيل إنما سمي رمضان لأنه يرمض الذنوب ، أي : يحرقها بالأعمال الصالحة . . . (٢) .

وقوله : شهر رمضان ، خير لمبتدأ محذوف تقديره هي شهر رمضان أي : الأيام المعدودات ، وقوله : الذي أنزل فيه القرآن ، صفة للشهر أو لرمضان .

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٦

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٩١ بتصرف وتلخيص .

ويجوز أن يكون قوله « شهر » مبتدأ وخبره الموصول بعده ، أو خبره .
قوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، وصح وجود الفاء في الخبر لكون
المبتدأ موصوفاً بالموصول الذي هو شبه بالشرط . وقرئ بالنصب على
أنه مفعول لفعل محذوف . أي : صوموا شهر رمضان .

و « القرآن » ، هو كلام الله المعجز المنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) .
المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته .

والمراد بإنزال القرآن في شهر رمضان إبتداءً لإنزاله فيه ، وكان ذلك في

ليلة القدر . بدليل قوله - تعالى - « إنا أنزلناه في ليلة القدر » ، أي بدأته

لإنزال القرآن في هذه الليلة المباركة ، إذ من المعروف أن القرآن استمر

نزوله على النبي (صلى الله عليه وسلم) ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة .

وقيل المراد بذلك ، أنزل في فضله القرآن ، قالوا : ومثله أن يقال :

أنزل الله في أي بكر الصديق كذا آية ، يريدون أنزل في فضله .

وقيل المراد أنزل في إيجاب صومه على الخلق القرآن ، كما يقال : أنزل

الله في الزكاة كذا وكذا ، يريد في إيجابها وأنزل في الخمر كذا يريد في تحريمها .

قال الألوسي : وقوله - تعالى - « هدى للناس وبينات من الهدى »

والفرقان ، حالان لازمان من القرآن والعامل فيهما أنزل . أي : أنزل

وهو هداية للناس بإعجازه المخصص به كما يشعر بذلك التنكير ، وآيات

واضحات من جملة الكتب الإلهية الهادية إلى الحق والفارقة بين الحق

والباطل باشتاله على المعارف الإلهية والأحكام العملية ، كما يشعر بذلك

جعل بينات منها ، فهو هاد بواسطة أمرين ، مختص وغير مختص ، فالهدى

ليس مكرراً ، وقيل : مكرر تنويهاً وتعظيماً لأمره وتأكيداً لمعنى الهداية

كما تقول : عالم نحير ، (١) .

وقوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ، يصح أن يكون شهد بمعنى

حضر . كما يقال : فلان شهد بدرأ ، وشهد المشاهدكمها مع رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) أى : حضرها ، فبكون المعنى : فمن حضر منكم دخول الشهر أو حلوله بأن كان مقبياً وليس عنده ما يمنعه من الصوم كمرض ونحوه ، فليصمه ؛ لأن صيامه ركن من أركان الدين . وعليه يكون لفظ « الشهر » منصوب على الظرفية .

ويصح أن يكون شهد بمعنى علم كقوله - تعالى - « شهد الله أنه لا إله إلا هو » .

فيكون المعنى : فمن علم منكم هلال الشهر وتيقن من ظهوره فليصمه . وعليه يكون لفظ « الشهر » منصوب على أنه مفعول به بتقدير المضاف المحذوف و « من » ، موصولة أو شرطية وهو الأظهر و « منكم » ، فى محل نصب على الحال من الضمير فى شهد فيتعلق بمحذوف أى : كائناً منكم . والضمير فى « منكم » ، يعود على الذين آمنوا ، أى كل من حضر منكم الشهر فليصمه و (أل) فى الشهر للعهد .

وأعيد ذكر الرخصة فى قوله - تعالى - « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » ، ثلاثاً يتوهم من تعظم أمر الصوم فى نفسه وأنه خير ، أنه قد صار متحتماً بحيث لا تتناول الرخصة بوجه من الوجوه ، أو تتناولها ولكنها مفضولة ، وفى ذلك عناية بأمر الرخصة وأنها محبوبة له - تعالى - . وقوله - تعالى - « يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، بيان لحكمة الرخصة أى : شرع لكم - سبحانه - الفطر فى حالتى المرض والسفر ، لأنه يريد بكم اليسر والسهولة ، ولا يريد بكم العسر والمشقة . قال - تعالى - « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » ، وقال - تعالى - « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، وفى الصحيحين أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال لمعاذ بن جبل وأبى موسى الأشعري حين بعثهما إلى اليمن : يسرا ولا تعسرا ولا بشرا ولا تنفرا ، وتطوعا ولا تختلفا ، .

وقوله - تعالى - « ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » ، معطوف على قوله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم

العسر ، إذ هذه الجمل الأربع تعليل لما قبلها من قوله ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، إلى قوله ، فعدة من أيام آخر ، .

والمدنى : شرع لكم - سبحانه - ما شرع من أحكام الصيام ، وورخص لكم الفطر في حالتي المرض والسفر ، لأنه يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولأنه يريد منكم أن تكملوا عدة الشهر بأن تصوموا أيامه كاملة فتحصلوا خيراته ولا يفوتكم شيء من بركاته ، ومن لم يستطع منكم أداء الصوم في هذا الشهر لعذر فعليه قضاء ما فاته منه في أيام آخر ويريد منكم أن تكبروه - سبحانه - ، أى تحمدوه وتعظموه ، فهو وحده الذى هدانا إلى تلك الأحكام النافعة التى فيها صلاحكم وسعادتكم ويريد منكم أن تشكروه بأن تواظبوا على الثناء عليه ، وعلى استعمال نعمه فيما خلقت له فهو - سبحانه - الرؤوف الرحيم بعباده ، إذ شرع لهم ما فيه اليسر لا ما فيه العسر . وقد دلت الآية الكريمة على الأمر بالتكبير إذ جعلته مما يريد الله - تعالى - ، ولهذا جاءت السنة باستحباب التحميد والتسبيح والتكبير بعد الصلوات المكتوبات ، وفي عيدي الفطر والاضحى يكون تكبير الله - تعالى - هو مظهرهما الأعظم .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت أكمل بيان وأحكمه فضل الصوم ، وحكمة مشروعيته ومظاهر رحمة الله بعباده في هذه الفريضة ، وقد ذكرت أن المسلم له بشأن هذه الفريضة حالة من حالات ثلاث :

الحالة الأولى : إذا كان المسلم في شهر رمضان كله أو بعضه مريضاً بمرض عارض غير مزمن يرجى الشفاء منه ، أو مسافراً تتوفر فيه شروط الفطر ، فله أن يفطر وأن يقضى بعد رمضان الأيام التى أفطرها بدليل قوله - تعالى - ، فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر ، .

الحالة الثانية : إذا كان المسلم في شهر رمضان مريضاً بمرض مزمن لا يرجى شفاؤه والصوم فيه مشقة عليه ، أو كان شيخاً كبيراً أو امرأة عجوزاً ولا يستطيعان الصوم ، فقد أباح الشارع لهؤلاء أن يفطروا وأن يطعموا عن كل

يوم مسكينا، لأن هذه الأعذار لا يرجى زوالها، ولا ينتظر أن يكون المتبلى بعدد
 منها بعد رمضان خيرا منه في رمضان، لذا أوجب الفاع على هؤلاء الفدية
 دون القضاء، بدليل قوله - تعالى - «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين»
 الحالة الثالثة: إذا كان المسلم في شهر رمضان سليما مقيما وليس عنده عذر
 يمنعه من الصوم، فقد أوجب الله عليه أداء هذه الفريضة بقوله - تعالى -
 «فمن شهد منكم الشهر فليصمه، ويحرم عليه أن يفطر، وإن أفطر لغير
 عذر شرعي كان من الخاسرين في الدنيا والآخرة، ففي الحديث الشريف الذي
 رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن
 رسول الله - ﷺ - قال: «من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة
 يولا مرض لم يقضه - أى لم يجزه - صوم الدهر كله وإن صامه» (١).
 أى: لو حصل منه صوم طول حياته فلن يدرك ثواب ما ضيع بسبب
 فطره بغير عذر شرعى.

والاحاديث في الترغيب في صوم شهر رمضان، وفي الترهيب من الفطر
 فيه كثيرة متنوعة.

ثم بين - سبحانه - أن العباد إذا حافظوا على فرائضه، واستجابوا
 لأوامره، وابتعدوا عن نواهيه، فإنه - عز وجل - لا يرد لهم طلباً ولا ينجب
 لهم رجاء فقال:

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
 فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

قال الإمام البيضاوى في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها من آيات
 الصيام: واعلم أنه - تعالى - لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة وحشمهم على

القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه هذه الآية الدالة على أنه خير بأحوالهم
سميع لأقوالهم ، مجيب لدعائهم ، مجاز على أعمالهم تأكيداً له وحشاً عليه ،
ووروى المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة روايات منها ما أخرجه
ابن جرير وابن أبي حاتم أن أعرابياً جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -
فقال : أقرئ ربنا فنأجبه - أي : ندعوه سرا أم يبعد فنناديه ؟ فسكت
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله هذه الآية (١) .

ومنها ما رواه ابن مردويه - بسنده - عن الحسن قال : سأل بعض الصحابة
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أين ربنا؟ فأنزل الله - تعالى - هذه الآية (٢) .
والعنى : وإذا سألك عبادى يا محمد عن قربنى وبعدى فقل لهم : إني قريب
منهم بعلنى ورحمتى وتدرى وإجابتى لدعوتهم . قال - تعالى - ولقد خلقنا
الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ،
وفي الصحيحين عن أبى موسى الأشعري أنه قال : كنا مع النبي -
صلى الله عليه وسلم - في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير . فقال النبي -
صلى الله عليه وسلم - : أيها الناس إربعوا على أنفسكم - أي أرفقوا بها - فإنكم
لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً وهو معكم ، والذي
تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، (٣) .

فقوله - تعالى - فإني قريب ، تمثيل الكمال علمه - تعالى - بأفعال عباده
وأقوالهم ، وإطلاعه على سائر أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم ، إذ القرب
المكانى مجال على الله - تعالى -

وفي الآية الكريمة التفات من خطاب المؤمنين كافة بأحكام الصيام ، إلى
خطاب النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يذكروهم ويعلمهم ما يجب عليهم .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٨ .

(٢) تفسير البيضاوى ص ٣٩ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٨ .

مراعاته في سائر عبادتهم من الإخلاص والآداب والتوجه إلى الله وحده
بالسؤال .

ولم يصدر الجواب بقل أو فقل كما وقع في أجوبة مسائلهم الواردة في
في آيات أخرى ، نحو : ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ، بل
قولى - سبحانه - جوابهم بنفسه إشعار بفرط قربه منهم ، وحضوره مع كل
سائل بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من
ذوي الحاجات .

والمراد بالعباد الذين أضيفوا إلى ضمير الجلالة هم المؤمنون ، لأن الحديث
عنهم ، ولأن سياق الآيات في بيان أحكام الصوم وفضائله وهو خاص
بالمؤمنين ، وقد أضيفوا إلى ضمير الجلالة لنشر بفهم وتذكير بهم .
وقوله - تعالى - : أجيب دعوة الداع إذا دعان ، تقرير للقرب وتحقيق له ،
ووعود للداعى بالإجابة متى صدر الدعاء من قلب سليم ، ونفس صافية ،
ووجود خاشعة . ولقد ساق لنا القرآن في آيات كثيرة أمثلة لعباد الله
توجهوا إليه بالسؤال ، فأجاب الله سؤالهم ، ومن ذلك قوله - تعالى -
: ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له وقوله - تعالى - : وذكرا
إذ نادى ربه رب لا تدركنا فردا وأنت خير الوارثين . فاستجبنا له ووهبنا له
يحيى وأصلحنا له زوجه وقوله - تعالى - : وأيوب إذ نادى ربه أنى
مسئنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر
وورد في الحديث ما يدل على أن العبد إذا دعا الله - تعالى - بما فيه خير ،
لم يجب عند الله دعاؤه ، ولكن لا يلزم أن يعطيه - سبحانه - نفس ما طلبه ،
لأنه هو الأعلم بما يصلح عياده . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى أن
النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : ما من مسلم يدعو الله - عز وجل - بدعوة
ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما
أن يجعل إليه دعوته ، وإما أن يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف
عنه من سوء مثلها . .

وقوله - تعالى - « فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لهم يرشدون ، توجيه منه - سبحانه - لى ما يجعل الدعاء مرجو القبول والإجابة .

والاستجابة : هى الإجابة بعناية واستعداد ، والسنن والتناء للمباغلة .

والرشد : الاهتداء لى الخير وحسن التصرف فى الأمر من دين أو دنياً .
يقال : رشد ورشد يرشد ويرشد رشداً ورشداً ، أى اهتدى .

والمعنى : لقد وعدتكم بآ عبادى بأن أجيب دعاءكم إذا دعوتونى ، وعليكم أتم أن تستجيبوا لأمرى ، وأن تقفوا عند حدودى ، وأن تثبتوا على إيمانكم بى ، لعلمكم بذلك تصلون لى ما فيه رشدكم وسعادتكم فى الحياتين العاجلة والآجلة . وأمرهم - سبحانه - بالإيمان بعد الأمر بالاستجابة ، لأنه أول مراتب الدعوة ، وأولى الطاعات بالاستجابة .

قال الحافظ ابن كثير : وفى ذكره - تعالى - هذه الآية الباعثة على الدعاء . متخللة بين أحكام الصيام لإرشاد لى الإجتهااد فى الدعاء عند إكمال العدة ، بن . وعند كل فطر ، كما روى أبو داود الطيالسى فى مسنده عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة ، فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر جمع أهله وولده ودعا . وروى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد ، وكان عبد الله يقول إذا أفطر : اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء . أن تغفر لى . وروى الإمام أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح له أبواب السماء . ويقول : بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين ، (١) .

هذا والحديث عن الدعاء وعن فضله وعن آدابه وشروطه وفوائده وجوامعه وغير ذلك مما يتعلق به قد بسطنا في غير هذا المكان فليرجع إليه من شاء (١).

وبعد هذا الحديث المؤثر عن الدعاء، عاد القرآن إلى الحديث عن أحكام الصيام، وعن مظاهر رحمة الله بعباده فيما شرع لهم فقال - تعالى - :

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ

الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

روى بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية الكريمة أحاديث تفيد أن المسلمين كانوا عند ما فرض شهر رمضان، إذا أفطروا يا كون

(١) راجع كتاب (الدعاء) للمؤلف طبع مجمع البحوث: الكتاب السادس والخمسون.

ويشربون ويقربون النساء ما لم يتاموا ، فإذا ناموا حرم عليهم بعد ذلك
الطعام والشراب وقربان النساء حتى يفطروا من الغد .

ومن الأحاديث التي وردت في هذا المعنى ما أخرجه الإمام أحمد
وابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه . قال : كان
الناس في رمضان إذا صام الرجل فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء
حتى يفطر من الغد ، فرجع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من عند النبي
(صلى الله عليه وسلم) ذات ليلة وقد سمر عنده ، فأراد امرأته فقالت إنى
قد نمت ، فقال ما نمت ثم واقعها ، وصنع كعب مثل ذلك . ففدا عمر
ابن الخطاب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فأخبره فنزلت ، (١) .

ومنها ما رواه البخاري عن البراء قال : كان أصحاب محمد (صلى الله
عليه وسلم) إذا كان الرجل صائما فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل
ليلته ولا يومه حتى يمسي . وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائما ، وفي
رواية : كان يعمل في النخيل بالنهار وكان صائما . فلما حضر الإفطار أتى
امرأته فقال لها : أعبدك طعاما ؟ قالت : لا ، ولكن أنطلق فأطلب لك وكان
يومه يعمل ، فقلبت عيناه ، فجاءته امرأته فلما رأته قالت : خيبة لك . فلما
انقصف النهار غشي عليه ، فذكر ذلك للنبي (صلى الله عليه وسلم) فنزلت
هذه الآية : أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، ففرحوا فرحا
شديدا ، ونزلت : واكلوا واشربوا حتى يقين لكم الخيط الأبيض من
الخيط الأسود من الفجر ، (٢) .

وجمهور المفسرين - كما يقول الإمام الرازي - على أن هذه الآية
من قبيل النسخ ، لأنها قد نسخت ما كان حاصلا في أول فرضية الصيام

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ٦٤

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣١٤

عن أن الصائم إذا نام بعد فطره لا يحل له الأكل أو الشرب أو الجماع إلى أن يفطر من الغد .

ويرى بعض العلماء أن الآية ليست من قبيل الذسخ ، وإنما هي إرشاد إلى ما شرعه الله - تعالى - لعباده خلال شهر الصوم ، من إباحة غشيان أنواجهن ليلاً ، ومن جواز الأكل والشرب وحتى يتبين لهم الحيط الأبيض من الحيط الأسود من الفجر ، وكان الصحابة كانوا يتخرجون عن ذلك ظناً منهم أنه من تنمة الصوم ، ورأوا أن لا صبر لأنفسهم عن الأكل والشرب والجماع ليلاً ، فبين الله لهم أن ذلك حلال لا حرج فيه .

وأصحاب هذا الرأي يستشهدون لذلك بما رواه البخاري عن البراء قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخوفون أنفسهم فأنزل الله - تعالى - د علم الله أنفسكم كنتم تخافون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم (١) . فالقصد من الآية الكريمة عند هؤلاء رفع مانعهم بعض الصحابة من أن الأكل أو الشرب أو الجماع لا يجوز ما داموا قد ناموا بعد فطرم ؛ لأن الله - تعالى - رؤوف رحيم ، ولم يشرع لهم ما فيه حرج أو مشقة عليهم .

وعلى كلا القولين فالآية الكريمة تسوق لنا لوفا من ألوان رحمة الله - تعالى - بعباده فيما شرع لهم من فرائض وأحكام . والمراد بليلة الصيام : الليلة التي يصبح منها الإنسان صائماً دون تحديد بليلة معينة من شهر رمضان ، بالإضافة لأدنى ملابس .

قال الجبل وقوله : ليلة الصيام ، منصوب على الظرف ، وفي الناصب له ثلاثة أقوال : أحدهما وهو المشهور عند المعربين أنه أحل ، وليس بشيء ، لأن الإحلال ثابت قبل ذلك الوقت .

الثاني : أنه مقدر مدلول عليه بلفظ الرث تقديره : أحل لكم أن تحرفوا ليلة الصيام .

الثالث : أنه متعلق بالرفث وذلك على رأى من يرى الانساع في اللظرف والمجرورات ، (١) .

والرفث في الأصل : الفحش من القول ، و كلام النساء حين الجماع . كفى به عن المباشرة للزومه لها غالباً . يقال رفث في كلامه - كنصرو و فرج و كرم - وأرفث ، إذا أفحش فيه . والمراد به في الآية الجماع والمباشرة . وعدى يالى - مع أن المستعمل الشائع أن يقال : رفث بالمرأة - لتضمنه معنى الإفشاء كما في قوله - تعالى - « وقد أفضى بعضهم إلى بعض » .

والمعنى : أحل الله لكم في ليالى صومكم الإفشاء إلى نساءكم ومباشرتهن . وقوله - تعالى - « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ، وارد مورد المقتضى لإباحة مباشرة النساء في ليالى الصيام ، ذلك أن كلام الزوجين يسكن إلى صاحبه ، ويكون من شدة القرب منه كالثوب الملاصق له وكانت العرب تسمى المرأة لباساً ، وهذه حال تقوى معها الدواعى إلى المباشرة ، فمن رفقه - تعالى - بعباده أن أحلها لهم ليلة الصيام .

قال الراغب : جعل اللباس كناية عن الزوج لكونه ستراً لنفسه ولزوجه - أن يظهر منهما سوء ، كما أن اللباس ستر عنه أن يبدو منه السوء . وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما موقع قوله « هن لباس لكم » قلت : هو استئناف كاليان لسبب الإحلال ، وهو أنه إذا كانت بينكم وبينهن مثل هذه المخالطة والملابسة قل صبركم عنهن وصعب عليكم اجتماعهن ، فلذلك رخص لكم في مباشرتهن ، (٢) .

وفي هذا التعبير القرآنى ما فيه من اللطافة والأدب وسمو التصوير لما بين الرجل وزوجه من شدة الاتصال والمودة واستار كل واحد منهما بأصاحبه . وقوله - تعالى - « علم الله أنكم كنتم تختافون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم » ، جملة معترضة بين قوله « أحل لكم ليلة الصيام . . . » وبينه .

(١) حاشية الجمل على الجلايين ج ١ ص ١٤٩

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ج ١ ص ٢٣٠

قوله « قالان باشرهون . . . الخ وقد جرى بها لبيان حالهم بالنسبة إلى ما فرط منهم ، وليبيان مظهر من مظاهر لطف الله بهم ، ورحمته بإيامهم .
وقوله « تختانون » قال الراغب : الاختيان مرادة الخيانة ، ولم يقل تخونون أنفسكم لانه لم تكن منهم الخيانة بل كان منهم الاختيان ، فإن الاختيان تحرك شهوة الإنسان لتجرى الخيانة وذلك هو المشار إليه بقوله
- تعالى - « إن النفس لأمارة بالسوء » (٢) .

والمعنى : علم الله - تعالى - أنكم كنتم تراءدون أنفسكم على مباشرة نساءكم ليلا ، وعلى الأكل بعد النوم ، قبل أن يظهر الفجر الصادق ، بل إن بعضكم قد فعل ذلك ، فكان من رحمة الله بكم أن أباح الأكل والشرب والجماع في ليالي الصوم ، وأن قبل توبتكم وعفا عنكم ، أى : بما أئرت ما فعلتموه من الأكل والجماع قبل أن يأذن لكم بذلك .

وجملة « فتاب عليكم » معطوفة على محذوف ، والتقدير : فتاب عليكم .

والذين لا يرون أن الآية ناسخاً لحكم سابق عبر عن وجهة نظرهم صاحب المنار فقال : وقوله - تعالى - « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم » أى : تنقضونها بعض ما أحل الله لها من اللذات توها أن من قبلكم كان كذلك ، فيكون بمعنى التخون أى : النقص من الشيء . أو معناه : تخونون أنفسكم إذ تستقدون شيئاً ثم لا تلتزمون العمل به فهو مبالغة من الخيانة التي هي مخالفة مقتضى الأدلة . ولم يقل تختانون الله كما قال في آية أخرى « لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم ، للإشعار بأن الله - تعالى - لم يحرم عليهم بعد النوم في الليل ما حرمه على الصائم في النهار ، وإنما ذهب بهم لاجتماعهم إلى ذلك فهم قد خانوا أنفسهم في اعتقادها ، فكانوا كمن يتغشى امرأته طائناً أنها أجنبية ، فقصايته بحسب اجتهاده لا بحسب الواقع ، فهم على أية حال

كانوا عاصين بما فعلوا محتاجين إلى التوبة والعفو ولذلك قال «فتاب عليكم وعفا عنكم» (١).

وقوله - تعالى - «فلاية باشره» الأمر فيه للإباحة وهو مرتب على قوله ، «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم» .
ولفظ «الآن» يطلق حقيقة على الوقت الذي أنت فيه ، وقد يقع على الماضي القريب منك وعلى المستقبل القريب الوقوع تزيلا له منزلة الحاضر وهو المراد هنا .

و «باشره» من المباشرة وأصلها اتصال البشرة بالبشرة ، وكفى بها القرآن عن الجماع الذي يستلزمها .

وقوله - تعالى - «وابتغوا ما كتب الله لكم» تأكيد لما قبله . والابتغاء الطلب والمعنى : لقد أبحنا لكم الإفضا . إلى نسائكم في ليالي رمضان بعد أن كان محرماً عليكم فضلا منا ورحمة بكم فالآن باشره» واطلبوا من وراء هذه المباشرة ما كتبه لكم الله من الذرية الصالحة ، ومن التعفف عن إتيان الحرام وفي هذا إشعار بأن النكاح شرع ليبتنى به الذنل حتى يتحقق ما يريد الله - تعالى - من بقاء النوع الإنساني ، ومن صيانة المرأة نفسها عن الوقوع في فاحشة الزنا .

وقوله - تعالى - «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» معطوف على «باشره» .
والمقصود من الخيط الأبيض : أول ما يبسود من الفجر الصادق للمعرض في الأفق قبل انتشاره .

والمقصود من الخيط الأسود : ما يمتد مع بياض الفجر من ظلمة الليل .
والمعنى : لقد أبحنا لكم مباشرة النساء في ليالي الصوم ، وأبحنا لكم كذلك أن تأكلوا وأن تشربوا في هذه الليالي حتى يتبين لكم بياض الفجر من سواد الليل .

قال الإمام الرازي : « والفجر ، مصدر قولك : فجرت الماء أفجره فجرأ ، وفجرته تفجيراً ، قال الأزهرى : الفجر أصله الشق ، فعلى هذا الفجر فى آخر الليل هو انشقاق ظلمة الليل بنور الصحيح .

وقد وردت روايات صحيحة تفيد أن قوله « من الفجر » قد تأخر نزوله عن الجمل السابقة له . فى الصحيحين عن سهل بن سعد قال أنزلت « وكلاوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ولم ينزل الفجر » فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربطوا أحدهم فى رجلية الخيط الأبيض والخيط الأسود ، ولا يأكل حتى يتبين له رؤيتها ، فأنزل الله بعده « من الفجر » فعدوا أنه يعنى الليل والنهار .

وروي أيضاً عن عدى بن حاتم قال : لما نزلت هذه الآية « وكلاوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » عمدت إلى عقالين لى أسود وأبيض فجعلتهما تحت سادق وجعلت أنظر فى الليل لإيهما فلا يتبين لى ، فعمدت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذكرت ذلك فقال : « إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار » ونزل قوله - تعالى - « من الفجر » وشبهه ببياض النهار وسواد الليل بالخطين : الأبيض والأسود لأن أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتد معه من غبش الليل يكون كالخيط الممدود .

وفى الإتيان بلفظ التفعّل فى قوله « حتى يتبين . . » إشعار بأنه لا يكتفى إلا التبين الواضح لا مجرد التّوم ، فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا يفرزكم نداء بلال ولا هذا البياض حتى يبدو الفجر - أو قال - حتى ينفجر الفجر . وقوله « من الفجر » بيان للخيط الأبيض . واكتفى به عن بيان الخيط الأسود ؛ لأن بيان أحدهما بيان للثانى ، ويجوز أن تكون « من » للتبعيض .

أى : من بعض الفجر .

وقوله - تعالى - « ثم أتموا الصيام إلى الليل » بيان لإنتهاء وقت الصيام

بعد أن بينت الجملة السابقة بدايته . أرى : ابتدؤا صومكم من طلوع الفجر
 واتموا منه بدخول الليل عند غروب الشمس ، إذ الليل ليس بوقت الصيام
 قال الإمام الرازي : كلمة «إلى» ، لانتهاى الغاية ، فظاهر الآية : أن الصوم
 ينتهى عند دخول الليل ، وذلك لأن غاية الشئ مقطعه ومنتهاه وإنما يكون
 مقطوعاً ومنتهى إذا لم يبق بعد ذلك . وقد تجىء هذه الكلمة لالانتهاى كما فى
 قوله - تعالى - «إلى المرافق» ، إلا أن ذلك على خلاف الدليل ، والفرق بين
 للمصورتين أن الليل ليس من جنس النهار فيكون الليل خارجاً عن حكم
 النهار ، والمرافق من جنس اليد فيكون داخل فيه .

وفى الصحيحين عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قال
 رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا
 وغربت الشمس فقد أفطر الصائم .

وكان من عادته (صلى الله عليه وسلم) تعجيل الفطر ، فقد روى الشيخان
 عن سهل بن سعد أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : لا يزال
 للناس بخير ما عجلوا الفطر .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية ومن عمل الرسول (صلى الله عليه وسلم)
 وقوله ، أن من واصل الإمساك عن المفطرات فى الليل فلا ثواب له على هذا
 الإمساك ، لأنه لم يقع فى الوقت الذى رسمه الشارع لعبادة الصوم ، بل بعد
 هذا الموصل فاعلاً لمحذور ، فلا بد للصائم من تناول شئ من المفطرات
 بعد غروب الشمس ولو قليلاً من الماء . فقد روى الترمذى عن أنس بن مالك
 قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يفطر قبل أن يصل على رطبات
 فإن لم تكن رطبات فتميرات ، فإن لم تكن تميرات حسا حسوات من ماء ،
 والواصل - بمعنى أن يصوم الشخص اليوم وما بعده من غير أن يتناول
 مفطراً فى الليل الفاصل بينهما - وردت فى النهى عنه أحاديث كثيرة ، ومن
 ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبى (صلى الله عليه وسلم)
 قال : لا تواصلوا ، قالوا : إنك تواصل يا رسول الله . قال : لست كأحد منكم

إني أطعم وأسقى . أو قال : إني أظل بطعمني ربي وبسقيتي .
 وروى الإمام أحمد عن ليلى امرأة بشير بن الخصاصية قالت : أردت
 أن أصوم يومين مواصلة فنعني بشير وقال : إن رسول الله (صلى الله
 عليه وسلم) نهى عنه وقال : يفعل ذلك النصارى ولكن صوموا كما أمركم
 الله ثم أتموا الصيام إلى الليل ، فإذا كان الليل فافطروا .

وقوله : ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ، استثناء من عموم
 إباحة المباشرة ، وذلك لأنه لما أطلق في الجملة السابقة الإذن في مباشرة
 النساء ليلة الصيام بقوله : فالآن باشروهن ، كان هذا الإطلاق مظنة لأن
 يؤخذ منه أن المعتكف كالصائم في أنه يحزر له أن يباشر زوجته ليلا
 لا نهاراً ، فبين - سبحانه - بهذه الجملة أن المعتكف يحرم عليه أن
 يباشر النساء في الليل والنهار .

قال القرطبي : والاعتكاف في اللغة : الملازمة ، يقال عكف على الشيء
 إذا لازمه مقبلاً عليه . قال الشاعر :

وظل بنات الليل حركى عكفا عكوف البواكي بينهم صريع

ولما كان المعتكف ملتزماً للعمل بطاعة الله مدة اعتكافه لزمه هذا الاسم
 وهو في عرف الشرع : ملازمة طاعة مخصوصة في وقت مخصوص على
 شرط مخصوص في موضع مخصوص . وأجمع العلماء على أنه ليس بواجب
 وهو قرينة من القرب ونافذة من النوازل عمل بها رسول الله (صلى الله
 عليه وسلم) وأصحابه وأزواجه ، ويلزمه إن ألزمه نفسه ، وبكره الدخول
 فيه لمن يخاف عليه العجز عن الوفاء بحقوقه .

وأجمع العلماء على أنه لا يكون إلا في المسجد واختلفوا في المراد بالمسجد
 في قوله - تعالى - في المساجد ، فذهب قوم إلى أن الآية خرجت على نوع
 من المساجد وهو ما بناه بنى كالمسجد الحرام والمسجد النبوي وبيت المقدس ،
 وقال آخرون لا يعتكف إلا في مسجد تجمع فيه الجمعة ، وقال آخرون

الاعتساف في كل مسجد جائز ، (١) .

والمشار إليه في قوله - تعالى - « تلك حدود الله فلا تقربوها ، الأحكام التي سبق تقريرها من إيجاب وتحريم وإباحة .
والحدود جمع حد ، وهو في اللغة الحاجز بين الشيتين المتقابلين لمنع من دخول أحدهما في الآخر . ومنه سمي الحديد حديداً لأنه يمنع وصول السلاح إلى البدن .

وسميت الأحكام التي شرعها الله حدوداً لأنها تحجز بين الحق والباطل أي : تلك الأحكام التي شرعناها لكم من إيجاب الصوم ، وتحريم الأكل والشرب والجماع في نهاره ، وإباحة ذلك في ليله ، هي حدود الله التي لا يحل لكم مخالفتها أو مجاوزتها .

وعبر - سبحانه - عن النهي عن مخالفة تلك الأحكام بقوله « فلا تقربوها ، مبالغة في التحذير من مخالفتها ، لأن النهي عن القرب من الشيء - نهي عن إتيانه بالأولى والآية ترشد بقوله « فلا تقربوها ، إلى اجتناب ما فيه شبهة كما ترشد إلى ترك الأشياء التي تقضي في غالب أمرها إلى الوقوع في حرام قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل « فلا تقربوها ، مع قوله « فلا تمتدوها ومن يتعد حدود الله ، قلت : من كان في طاعة الله والعمل بسراعه فهو متصرف في حيز الحق فنهى أن يتعداه . لأن من تعداه وقع في حيز الباطل ، ثم بولغ في ذلك فنهى أن يقرب الحد الذي هو الحاجز بين حيزي الحق والباطل لئلا يداني الباطل ، وأن يكون في الوسطة متباعداً عن الطرفين فضلاً عن أن يتخطاه كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « إن لكل ملك حمى ، وحمى الله محارمه ، فمن رقع حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، فالرقع حول الحمى وقربان حيزه واحد . ويؤزان يريد بحدود الله محارمه . وناهية خصوصاً ، لقوله - تعالى - « ولا تبشروهن ، وهي حدود لا تقرب ، (٢) »

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٢٢٢ بتصرف وتلخيص .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢٣

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة بقوله : وكذلك بين الله آياته للناس لعلهم يتقون .

أى : مثل ذلك البيان الجامع الذى بين الله به حدوده التى أمركم بالتزامها ونهاكم عن مخالفتها ، يبين لكم آياته ، أى : أدلته وحججه لئلا تصونوا أنفسكم عما يؤدى بكم إلى العقوبة ، وتسكونوا عن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ختمت الحديث عن الصوم ، ببيان مظاهر رفق الله بعباده ، وراعيته لمصالحهم ومنافعهم ، بأسلوب يبلغ جمع بين الترغيب والترهيب ، والإباحة والتجريم ، وغير ذلك من أنواع الهداية والإرشاد إلى ما يسعد الناس في دينهم ودنياهم .

وبعد أن أنهى القرآن حديثه عن الصيام وما يتعلق به من أحكام ، أردف ذلك بالنهى عن أكل الحرام ، لأنه يؤدى إلى عدم قبول العبادات من صيام واعتكاف ودعاء وغير ذلك فقال - تعالى - :

وَلَا

تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

والخطاب فى الآية الكريمة موجه إلى المؤمنين كافة فى كل زمان ومكان . والمراد بالأكل مطلق الأخذ بغير وجه حق ، وعبر عنه بالأكل ، لأنه الأكل أم وسائل الحياة ، وفيه تصرف الأموال غالباً . والباطل فى اللغة : الزائل الذاهب . يقال : بطل يبطل بطولا وبطلانا . أى ذهب ضياعاً وخسراً . وجمع الباطل أباطيل . ويقال : بطل الأجير . يبطل بطلالة إذا تعطل وأتبع الله .

والمراد هنا : كل ما لم يبيح الشرع أخذه من المال وإن طابت به النفس ، كالربا والميسر وثنم الخمر ، والرشوة ، وشهاد الزور ، والسرقه ، والغصب ، ونحو ذلك مما حرمه الله - تعالى - .

والبناء للسببية ، والجار والمجرور متعلق بالفعل قبله ، وكذلك قوله « بينكم » .

والمعنى : لا يأخذ بعضكم مال بعض ، ويستولى عليه بغير حق ، متذرعاً بالاسباب الباطلة ، والحيل الزائفة ، وما إلى ذلك من وجوه التعدي والظلم . وفي قوله - تعالى - « أموالكم » - مع أن أكل المال يتناول مال الإنسان ومال غيره - في هذا القول إشعار بوحدة الأمة وتكافلها ، وتنبه إلى أن احترام مال غيرك وحفظه هو عين الإحترام والحفظ لمالك أنت ، ففي هذه الإضافة البليغة تعليل للنهي ، وبيان لحكمة الحكم ، إذ استحلال الإنسان لمال غيره يجرى هذا الغير على استحلال مال ذلك الإنسان المتعدي ، وإذا غشى هذا السلوك في أمة من الأمم أدى بها إلى الضعف والتعادي والتباغض .

فما أحكم هذا التعبير ، وما أجمل هذا التصوير .

وقوله « وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » ، بيان لصورة أخرى قبيحة من صور أكل أموال الناس بالباطل وقوله « وتدلوا بها إلى الحكام ، معطوف على « لتأكلوا » .

والإدلاء في الأصل : إرسال الدلو في البئر للاستقاء . ثم جعل كل إلقاء قول أو فعل إدلاء ؛ ومنه أدلى فلان بمجته ، أى : أرسلها ليصل إلى مراده .

والمراد بالإدلاء هنا : الدفع والإلقاء بالأموال إلى الغير من أجل الوصول إلى أمر معين .

والحكام : جمع حاكم ، وهو الذي يتصدى للفصل بين الناس في خصوصياتهم وقضاياهم .

والفريق : القطعة الممزولة من جملة الشيء ، ومنه قيل للقطعة من الغنم تشق عن معظمها فريق .

والإثم : الفعل الذي يستحق صاحبه الذم والعقاب . وجمعه آثام .
والمعنى : لا يأخذ بعضكم أموال بعض - أيها المسلمون - ولا يستولى عليها بغير حق ، ولا تدلوا بها إلى الحكام ، أي ولا تلقوا أمرها والتحاكم فيها إلى القضاة لا من أجل الوصول إلى الحق ، وإنما من أجل أن تأخذوا عن طريق التحاكم قطعة من أموال غيركم متلبسين بالإثم الذي يؤدي إلى عقابكم ، حال كونكم تعلمون أفكم على باطل ، ولا شك أن إتيان الباطل مع العلم بأنه باطل أدهى إلى التوبيخ من إتيانه على جهالة به .

فعلى هذا الوجه يكون المراد بالإدلاء بالأموال إلى الحكام طرحها أمامهم ليقتضوا فيها ، وليتموسل بعض الخصوم عن طريق هذا القضاء إلى أكل الأموال بالباطل حين عجزوا عن أكلها بالمغالبة .

وهناك وجه آخر تحتمله الآية احتمالاً قريباً ، وبه قال كثير من العلماء . وهو أن المراد بالإدلاء بالأموال إلى الحكام ، إلقاؤها إليهم على سبيل الرشوة ليصلوا من وراء ذلك إلى أن يحكموا لصالحهم بالباطل ، وعليه يكون المعنى . لا يأخذ بعضكم أموال بعض أيها المسلمون ، ولا تلقوا بيمضها إلى حكام السوء على سبيل الرشوة ، لتوصلوا بأحكامهم الجائرة إلى أكل فريق من أموال الناس بغير حق . ولا غرابة في أن يعنى القرآن في سياسته الرشيدة بالتحذير من جريمة الرشوة ؛ فإنها المعول الذي يهدم صرح العدل من أساسه . وبها تفقد مجالس القضاء حرمتها وكرامتها ، وتصير تلك المجالس مواطنًا للظلم لا للعدل .

وخص القرآن الكريم هذه الصورة بالنهي - وهي صورة الإدلاء بالأموال إلى الحكام - مع أنه قد ذكر ما يشملها بقوله ، ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، لأنها على وجهي تفسيرها شديدة الشناعة ، جامعة لمذكرات كثيرة ،

كاظم، والتباغض والرشوة، والغصب وغير ذلك. والحق، أن هذه الآية الكريمة أصل من الأصول التي يقوم عليها إصلاح المعاملات، وقد أخف العلماء منها حرمة أكل أموال الناس بالباطل، وحرمة إرشاء الحكام ليقضوا للراشئ بما لا غيره، وقد لعن النبي - صلى الله عليه وسلم - الجميع في الحديث الذي أخرجه الترمذى عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «لعن الله الراشئ والمرتشئ والرائش، وهو الواسطة الذي يمشى بينهما كما أخفوا منها أن يحكم الحاكم على ما يقتضيه الظاهر من أمر القضية لا يجهل في الواقع حراماً، ولا يجرم حلالاً، والدليل على ذلك ما أخرجه الشيخان عن أم سلمة - رضى الله عنها - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه سب خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم فقال: «إنما أنا بشر. وإنه ليأتيني الخصم. فلعن بعضكم أن يكون أبغ من بعض، فأحسب أنه قد صدق، فأقضى له بذلك. فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليركها».

قال الإمام ابن كثير: فدلت هذه الآية السكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً ولا يجرم حلالاً، وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابقت في نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره. ولهذا قال - تعالى - في آخر الآية: «وأنتم تعلمون». أي تعلمون بطلان ما تدعون وترجونه في كلامكم (١). وبذلك تكون الآية الكريمة قد رسمت طريق الحق لمن يريد أن يسير فيه «ليهلك من عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم». ثم انتقل القرآن إلى الحديث عن الأمانة لما لها من صلة بالصيام والقتال في الأشهر الحرم وبمواقب الحج فقال - تعالى - :

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٢٥.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ

قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ
ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آتَقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

ورد في سبب نزول هذه الآية روايات منها ما أخرجه ابن أبي حاتم عن
أبي العالية قال : « بلغنا أن بعض الناس قالوا : يا رسول الله ، لم خلقت
الاهلة فنزلت . »

والاهلة : جمع الهلال ، وهو الكوكب الذي يبرز في أول كل شهر ،
ويسمى هلالاً لثلاث ليالٍ أو سبع ليالٍ من ظهوره ، ثم يسمى بعد ذلك
قمر إلى أن يعود من الشهر الثاني .

قال بعضهم : وهو مشتق من استهل الصبي إذا بكى وصاح حين يولد ،
ومنه أهل القوم بالحج إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية ، وسمى بذلك لأنه حين
يرى يهل الناس بذكره أو بالتكبير ، ولهذا يقال أهل الهلال
حواسل (١) .

والمواقيت : جمع ميقات بمعنى الوقت ، وهو ما يقدر لعمل من الأعمال
موقبل : الميقات منتهى الوقت .

والمعنى : يسألك بعض الناس عن الحكمة من خلق الاهلة ، قل لهم
- يا محمد - إن الله - تعالى - قد خلقها لتكون معالم يوقت ويحدد بها الناس

صومهم ، وزكاتهم ، وحجهم ، وعدد نسائهم ، ومدد حمانهم ، وهدية الرضاع ، وغير ذلك مما يتعلق بأمور معاشهم .

قال - تعالى - هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون .

وخص الحج بالذكر مع أن الأهلة موافقت لعبادات أخرى كالصوم والزكاة ، للتنبيه على أن الحج مقصور وقت أدائه على الزمن الذي عينه الله - تعالى - وأنه لا يجوز نقله إلى وقت آخر كما كانت العرب تفعل ، إذ كانوا ينقلون ما شاؤوا من الأشهر الحرم الأربعة التي من جعلتها ذو الحجة إلى شهر آخر غير حرام ، وهو النسيء المشار إليه بقوله - تعالى - إنما النسيء زيادة في الكفر .

وحص الشارح الموافقت بالأهلة وأشهرها دون الشمس وأشهرها ، لأن الأشهر الطلالية تعرف برؤية الهلال ومحاقه ، وذلك ما لا يخفى على أحد من الخاصة أو العامة أيما كانوا ، بخلاف الأشهر الشمسية فإن معرفتها تنبني على النظر في حركات الفلك وهي لا تتيسر إلا للعارفين بدقائق علم الفلك . هذا ، ومن الروايات التي وردت في سبب نزول هذه الآية ما رواه أبو نعيم وابن عساکر عن ابن عباس . قال : نزلت في معاذ بن جبل وثلبة بن غنم قالوا : يا رسول الله . ما بال الهلال يبدو - أو يطلع - دقيماً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حال واحد ؟ فنزلت .

وعلى هذه الرواية يكون الجواب بقوله - تعالى - قل هي موافقت للناس الحج ، من قبيل أسلوب الحكيم ، وهو إجابة السائل بغير ما يتطلبه سؤاله ، بتزويل سؤاله منزلة غيره ، تنبيهاً له على أن ذلك الغير هو الأولى بالسؤال لأنه هو المهم بالنسبة له .

فأنت ترى هنا أن السائلين قد سألوا عن سبب اختلاف الآلهة بالزيادة والتقصان ، فأجيبوا ببيان الحكمة من خلقها ، فكأنه - سبحانه - يقول لهم : عليكم أن تسألوا عن الحكمة والفائدة من خلق الآلهة لأن هذا هو الأليق بحالكم وهو ما أجبتمكم عليه ، لا أن تسألوا عن سبب تزايدها في أول الشهر وتناقصها في آخره ، لأن هذا من اختصاص علماء الهيئة ، وأنتم لستم في حاجة إلى معرفة ذلك في هذا الوقت .

ولعلماء البلاغة كلام جيد في مزايا ما يسمونه بأسلوب الحكيم ، فقد قال السكاكي ما ملخصه : « ولهذا النوع - أعنى إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر أساليب متفنتة ، ولكل من تلك الأساليب عرق في البلاغة يتشرب من أفانين سحرها ، ولا كأسلوب الحكيم فيها . وهو تلقى المخاطب بغير مهارة يترب ، أو السائل بغير ما يتطلب ، كما قال - تعالى - : يسألونك عن الآلهة .. الآية . قالوا في السؤال . ما بال الهلال يبدو دقيقاً ... الخ فأجيبوا بما ترى . وإن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور ، وأبرزه في معرض المسحور ، وهل الآن شكيمة ، والحجاج الثقف ، لذلك الرجل الخارجى ، وصل سخيمته ، حتى أثر أن يحسن على أن يسمى غير أن سحره بهذا الأسلوب ؟ إذ توهمه الحجاج بالقييد في قوله « لاحتلك على الأدم ، فقال الخارجى متغايبا : مثل الأمير بحمل على الأدم الأشهب . مهرزأ وعيده في معرض الوعد ، متوصلا أن يربه بالعنف وجه : أن رجلا مثله جدير بأن يعد لا أن يوعد ، (١) .

وقوله - تعالى - « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها » ، هذا القول للكريم نهي لجماعة المسلمين عن عادة كانوا يفعلونها في الجاهلية ، وهي أنهم كانوا إذا عادوا من حجهم أو أحرموا

فلا يدخلون من أبواب بيوتهم ، بل كانوا يدخلون من ثقب ينقبونه في ظهور بيوتهم .

أخرج البخاري عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء - رضي الله عنه - يقول : نزلت هذه الآية فيما كانت الأنصار إذا حجروا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم ولكن من ظهورها . فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنه غير بذلك فزلت : « وليس البر ... » الخ .

والمعنى : وليس من البر ما كنتم تفعلونه في الجاهلية من دخولكم البيوت من ظهورها عند إحرامكم أو عودتكم من حجكم ، ولكن البر الحق الجامع لخصال الخير يكون في تقوى الله بأن تمتثلوا أوامره وتجتنبوا نواهيه، وإذا ثبت ذلك فعليكم أن تأتوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم أو رجوعكم من حجكم .

وفي الأمر بإتيان البيوت من أبوابها إشعار بأن إتيانها من ظهورها - باسم الدين غير مأذون فيه ، وكل ما يفعل باسم الدين وليس له في الدين - من شاهد فهو بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

وفي الآية الكريمة تعريض بمن يسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عما هو ليس من العلم المختص بالنبوة ، ولا أتوقف معرفته على الوحي ، فهذا السائل في سؤاله مثله كمثل من يدخل البيت من ظهره لا من بابه .

قال بعضهم : وذلك لأن العلم على ضربين : علم دنيوي يتعلق بأمر المعاش - كعرفة الصنائع و معرفة حركات النجوم و معرفة المعادن والنبات ، وقد جعل الله لنا سبيلا إلى معرفة ذلك على غير لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم - و علم شرعي يتعلق بالعبادات والمعاملات والعقيدة ولا سبيل إلى أخذه إلا من الصادق المصدوق - صلى الله عليه وسلم - .

فلما جاءوا يسألون النبي - صلى الله عليه وسلم - عما أمكنهم معرفته من

غير جهته أجاهم ، ثم بين لهم أن البر في التقوى وذلك يكون بالعلم والعمل المختص بالدين ، (١) .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما وجه اتصال قوله - تعالى - وليس البر . . . ، ألخ . بما قبله ؟ قلت : كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الآلة وعن الحكمة في نقصانها وتماها : إن كل ما يفعله الله - تعالى - لا يكون إلا عن حكمة ومصلحه لعباده فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برا . ويجوز أن يكون ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للحج ، لأنه كان من أفعالهم في الحج . ويحتمل أن يكون هذا لتعكيدهم في سؤالهم وأن مثلهم كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره . والمعنى : ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم ، ولكن البر من اتقى ذلك وتجنبه ولم يحسر على مثله ثم قال : وأقروا البيوت من أبوابها ، أى : باشروا الأمور من وجوهها التى يجب أن تباشر عليها ولا تعكسوا ، والمراد وجوب توطين النفوس وربط القلوب على أن جميع أفعال الله حكمة وصواب . . . ، (٢) .

وقوله - تعالى - واقفوا الله لعلكم تتقون ، أمر بالتقوى التى تتضمن القيام بجميع الواجبات واجتناب البديع والمنكرات . أى : افعلوا ما أمركم الله به ، واجتنبوا ما نهىكم عنه ، لتكونوا من المفلحين ، وهم الفائزون بالحياة المطمئنة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة . وبذلك تكون الآية الكريمة قد ردت عقول الناس إلى النظر والتأمل في سنن الله وفي خلقه على النحو الذى ينشئ التقوى في النفوس ، وبوجه إلى العمل الصالح الذى يرضى الله - تعالى - .

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين بطاعته وتقواه ، حضهم على الجهاد فى سبيله إذ هو من أجل مظاهرها ، وبصرهم بحكمته وآدابه فقال - تعالى - :

(١) تفسير القاسمى ج ٢ ص ٤٧٣ بتصرف

(م - ٣٤ البقرة)

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٤٣ .

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا

تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ

وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ

عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ

كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلَا

عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ

قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ

اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

قال ابن كثير : قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي
العاليه في قوله - تعالى - وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، قال :
هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة ، فلما نزلت كان رسول الله - ﷺ -
يقاتل من قاتله ويأف عن كف عنه حتى نزلت سورة براءة ، (١) .

ويرى بعض العلماء أن هذه الآيات قد وردت في الأذن بالقتال للمحرمين في الأشهر الحرم إذا فوجئوا بالقتال بغياً وعدواناً. فهي متصلة بما قبلها أتم الاتصال، لأن الآية السابقة بينت أن الأهلّة موأقبت للتأس في هبأدأتهم ومعمآلأتهم عمآة وفي الحج آصآة و هو في أشهر هلاية مآصوصة كآن القتآل فيها محرماً في الجآهلية . فقد أخرج الوآحدى عن ابن عبآس أن هذه الآيات نزلت في صلآح الحديبية ، وذلك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صدّه المشركون عن البيت الحرام - ثم صلآه فرفضى دلى أن يرجع عمآه القآبل ويحلآله مكة ثلاثة أيام يطوف ويفعل مآ يشآء . فلآمآ كآن العام القآبل تجمب هو وأصآبه لعمرة القضاء . وآفآروآ آآقئ لهم قريش ، وأن يصدوم عن المسجد الحرام بالقوة ويقآتلوهم ، وكره أصحابه قآلهم في الحرم والشهر الحرام فآزل الله - تعالى - الآيات ، (١) .

والقتال والمقآلة : مآولة الرجل قتل من مآول قتلّه ، وآلقتآل مآولآه كل وآحد من المتعآدين قتل الآخر .

قآل أبو حيان : وقوله « في سبيل الله ، السبيل هو الطريق . وآستعير لدين الله وشرائعه لأن المتبع لذلك يصل به إلى بغيته الدينية والديوية ، فشبّه بالطريق الموصول للإنسآن إلى مآ يقصده ، وهذا من استعآرة الأجرآم للمعآنى ويتعلق « في سبيل الله » بقوله « وقآتلوا » ، وهو ظرف مجآزئ ، لأنه لمآ وقع القتآل بسبب نصرمة الدين صآر كآنه وقع فيه ، وهو على حذف مضاف والتقدير في نصرمة دين الله . . . ، (٢) .

والمرآد بالقتال في سبيل الله : الجهاد من آجل إعآلآه كآمته حتى يكون آهل دينه الحق أعزآء لآ يسومهم أعدآؤه ضيمآً ، وآحرآرآ في الدعوة إليه وإقآمة شرائعه العمآلة في ظل سلطآن مهيب .

(١) تفسير المنآر ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) تفسير البحر المحيط ج ٢ ص ٦٥ لابن حيان .

أى : قاتلوا أيها المؤمنون لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينة أعداءكم الذين أعدوا أنفسهم لقتالكم ومناجزتكم وتحققتم منهم سوء النية، وفساد الطوية .

فآية الكريمة تهييج للمؤمنين وإغراء لهم على قتال أعدائهم بدون تردد أو تهييب ، وإرشادهم إلى أن يجعلوا جهادهم من أجل نصرته الحق ، لا من أجل المطامع أو الشهوات .

فقد روى الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنى موسى - رضى الله عنه - أن أعرابياً أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله للرجل يقاتل للمغرم ، والرجل يقاتل ليدكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه - أى : ليتحدث الناس بشجاعته وليظهر بينهم - أى ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله .

والأحاديث في الدعوة إلى أن يكون الجهاد في سبيل الله من أجل إعلاء كلمته كثيرة متعددة . وقوله «ولا تعتدوا» نهي عن الاعتداء بشتى صورته ويدخل فيه دخولا أوليا الاعتداء في القتال . والاعتداء : مجاوزة الحد فيما أمر الله به أو نهى عنه .

أى : قاتلوا في سبيل الله من يناصركم القتال من المخالفين ، ولا تتجاوزوا في قتالهم إلى من ليس شأنهم قتالكم ، كنسائهم ، وصبيانهم ، ورجالهم وشيوخهم الطاعنين في السن إلى حد الهرم ، ويلحق هؤلاء المريض والمقعذ والأعمى والمجنون . وقد وردت في النهي عن قتل هؤلاء الأحاديث النبوية ووصايا الخلفاء الراشدين لقواد جيوشهم ، فهؤلاء يتجنب قتالهم إلا ما قامت الشواهد على أن له أثراً من رأى أو عمل في الحرب ، يؤازر به المحاربين لينتصروا على المجاهدين .

قال ابن كثير : ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله

- صلى الله عليه وسلم - كان يقول : « أغزوا في سبيل الله ، فاقتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع وى الصحيحين عن ابن عمر قال : وجدت امرأة في بعض المغازي مقتولة فانكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتل النساء والصبيان ، (١) .
وقوله « إن الله لا يحب المعتدين » كالتعليل لما قبله في النهي عن مجاوزة ما حده الله - تعالى - في قتال المخالفين .

وعببة الله لعباده : صفة من صفاته - تعالى - من أثرها الرعاية والإنعام .
وإذا نفي الله - تعالى - محبته لطائفة من الناس فهو كناية عن بغضه لهم ، واستحقاقهم لعقوبته .

وقوله « واقتلواهم حيث ثقفتهم » الضمير المنصوب فيه يعود على قوله « الذين يقاتلونكم » ، في الآية السابقة .

و « ثقفتهم » : أدركتهم وظفرتم بهم . يقال : ثقف الشيء إذا ظفر به ووجده على جهة الأخذ والغلبة ومنه رجل ثقف إذا كان سريع الأخذ لاقرانه . قال الشاعر :

فأما ثقفتوني فاقتلوني فمن أثقف فليس إلى خلود
ويقال - أيضاً - رجل ثقف : إذا كان محكماً لما يقنأه من الأمور .
والمعنى : عليكم أيها المسلمون أن تقتلوا هؤلاء الذين اذنا لكم بقتالهم حيث وجدتمهم وظفرتم بهم ، فأهم قد بادءوكم بالعدوان ، وثمنوا لكم كل شر وسوء .

وقوله « وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » معطوف على ما قبله .
و « حيث » ظرف مكان . والمكان الذي أخرجوهم منه هو مكة ، فإن المشركين من قريش قد أنزلوا بالمسلمين الأولين من صنوف الأذى ما جعلهم يتركون مكة ويهاجرون إلى بلاد الحبشة أولاً . ثم إلى المدينة المنورة ثانياً .

أى : اقتلوا هؤلاء الذين قاتلواكم فى أى مكان لقيتموهم فيه ، وأخرجوهم من المساكن التى أخرجوكم منه وهو مكة .
وفى هذا تهديد للمشركين ، وإغراء للمسلمين بهم ، ووعد بفتح مكة وقد أنجز الله - تعالى - وعده ففتح المسلمون مكة فى السنة الثامنة من الهجرة وقوله - تعالى - « والفتنة أشد من القتل » . دفع لسا قد يقع ، من بعض المسلمين من استعظام قتل المشركين فى مكة .

والفتنة فى الأصل : مصدر فتن الصائع الذهب والفضة إذا أذابها بالنار ليستخرج الزائف منهم ثم استعملت فى الابتلاء والامتحان والصرف عن الشيء ، وأكثر استعمالها فى التضليل والصد عن الدين ، ثم على الكفر .

ويبدو أن المراد منها هنا ما كان يفعله المشركون مع المسلمين من التعذيب والصد عن الدين ، والإخراج من الوطن ، وغير ذلك من صنوف الأذى والمعنى : لا تقصروا فى قتل المشركين الذين يقاتلونكم ، والذين أخرجوكم من دياركم ، فإن فتنتهم لسكم بالإيذاء والتعذيب والصد عن الدين ، أشد ضرراً من قتلهم فى أى مكان وجدوا به .

وبعضهم فسر الفتنة هنا بالشرك ، أو بالرجوع إلى الكفر ، أو بغضب الآخرة ، وقد بين ذلك صاحب الكشاف بقوله . وقوله « والفتنة أشد من القتل » أى : المحنة والبلاء الذى ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل . وقيل لبعض الحكماء : ما أشد من الموت : قال : الذى يتمنى فيه الموت ، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التى يتمنى عندها الموت . ومنه قول القائل :

لقتل بحد السيف أهون موقعا على النفس من قتل بحد فراق

وقيل : « الفتنة » عذاب الآخرة قال - تعالى - « ذوقوا فتنتكم » . وقيل : للشرك أعظم من القتل فى الحرم ، وذلك أنهم كانوا يستعظمون للقتل فى الحرم ويعيبون به المسلمين . فقيل : والشرك الذى هم عليه أشد وأعظم مما يستعظمونه

ويجوز أن يراد: وقتنتهم إياكم بعدكم عن المسجد الحرام أشد من قتلهم إياهم في الحرم، أو من قتلهم إياكم إن قتلوكم فلا تبالوا بقتالهم، (١).
وإلى هنا تكون الآية الكريمة قد أذنت للمؤمنين في قتل الذين يناجروهم بالقتال، دفعا لشركهم أيما وجدوا.

ثم ساق الآية جملة أخرى نهت فيها المؤمنين عن قتال المشركين عند المسجد الحرام مراعاة لحرمته، ما دام المشركون لم يفتحوهم بالقتال عنده، أما إذا فتحوهم بالقتال فيه، فقد أصبح من حق المؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم، وأن يقاتلوا أعداءهم. وهذه الجملة هي قوله - تعالى - «ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم».

أي: لا تقاتلوا أيها المؤمنون أعداءكم عند المسجد الحرام احتراماً له حتى يبدأ المشركون قتالكم عنده، فإن بدءوكم بالقتال فيه فلا حرج عليكم في قتلهم عنده، لأن المنتهك احرمته المسجد الحرام إنما هو البادئ بالقتال فيه وهم المشركون، ولستم أنتم أيها المؤمنون لأن موقفكم إنما هو موقف المدافع عن نفسه.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد حفظت للمسجد الحرام حرمة وهيبته ومكانته السامية، لأن حرمة لذاته، وحرمة سائر الحرم من أجله، إلا أنها أذنت للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم إذا ما هاجمهم المشركون عنده أو فيه.

قال ابن كثير ما ملخصه: وقد دلت الآية على الأمر بقتال المشركين في الحرم إذا بدأوا به بالقتال فيه دفعا لشركهم، كما بايع النبي - ﷺ - أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال، لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحباش عامئذ، ثم كف الله القتال

بينهم فقال : وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بيظن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ، (١) . وقال - صلى الله عليه وسلم - لخالد بن الوليد ومن معه يوم الفتح : إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً حتى توافوني على الصفا . . فما عرض لهم أحد إلا أناموه وأصيب من المشركين نحو اثنى عشر رجلاً ، (٢) .

ولم يقل - سبحانه - فإن قاتلوكم فقاتلوهم ، وإنما قال : فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، تبشيراً للمؤمنين بالغلبة عليهم ، وإشعاراً بأن هؤلاء المشركين من الخذلان والضعف بحالة أمر الله المؤمنين معها بقتلهم لا بقتالهم فهم اضعفهم لا يحتاجون من المؤمنين إلا إلى القتل .

وقوله وكذلك جزاء الكافرين ، تذييل لما قبله . واسم الإشارة ذلك ، يعود إلى قتل المقاتلين أيها وجدوا .

والجزاء : ما يقع في مقابلة الإحسان أو الإساءة ، فيطلق على ما يثاب به المحسن ، وعلى ما يعاقب به المسىء . والمراد به في الآية العقاب .

أى : مثل هذا الجزاء العادل من القتل والردع يجازى الله الكافرين الذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم .

ثم فتح القرآن للكافرين الذين قاتلوا المسلمين التوبة فقال : فإن اتهموا فإن الله غفور رحيم .

الإنهاء : أصله مطاوع نهي . يقال : نهاه فانهى ثم توسع فيه فأطلق على الكف عن الشيء ، لأن النهى هو طلب ترك الشيء .

أى : فإن اتهموا عن الكفر وعن مقاتلتكم فكفروا عنهم ولا تعرضوا لهم . فإن الله غفور رحيم . وكل من تاب من كفر أو معصية فشان الله معه أن يقفر له ويرحمه .

(١) تفسير ابن كثير > ١ ص ٢٢٧ .

(٢) تفسير القاسمى > ٢ ص ٤٧٦ .

وظهير هذه الآية قوله - تعالى - « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ... » (١) وإنما قلنا فإن انتهوا عن الكفر وعن القتال لأن سياق الحديث عن الكافرين المقاتلين للمؤمنين ، فيكون حمل الانتهاء على الأمرين معا أولى من حملة على القتال فحسب .

وقوله - تعالى - « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، معطوف على جملة « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، » والضمير « هم ، » يعود على الذين يقاتلون المسلمين وهم من سبق الحديث عنهم .
والمراد من « الفتنة » الشرك وما يتبعه من أذى المشركين للمسلمين واضطهادهم وتعذيبهم .

قال الألوسي : ويؤيده أن مشركي العرب ليس في حقهم إلا الإسلام أو السيف . لقوله - سبحانه - « تقاتلونهم أو يسلمون » .

وفي الصحيحين عن ابن عمر : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله - ويقوموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله .

والدين في اللغة : العادة والطاعة ثم استعمل فيما يتعبد به الله - تعالى - سواء كان ما يتعبد به صحيحاً أم باطلاً .

والمراد هنا الدين الصحيح الذي شرعه الله لعباده على لسان نبيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - ليتوصلوا به إلىصلاح في الحال والفلاح في الآل .

والمعنى : قاتلوا أولئك المشركين حتى يزيلوا الشرك ، وحتى تكسروا شوكتهم ولا يستطيعوا أن يفتنوا طائفة من أهل الدين الحق ، وحتى يكون-

الدين الظاهر في الأرض هو الدين الذي شرعه الله - تعالى - على لسان نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وقد تحقق ذلك بالقتال الذي دار بين المسلمين والمشركين في أكثر من عشرين غزوة قادها النبي - صلى الله عليه وسلم - بنفسه ، وفي أكثر من أربعين سرية بعث فيها أصحابه ، وكانت ثمار هذه المعارك أن انتصر الحق وزهق الباطل . وقبل أن يلتحق النبي - صلى الله عليه وسلم - بالرقيق الأعلى كان الدين الظاهر في جزيرة العرب هو دين الإسلام الذي جاء به الرسول - صلى الله عليه والصلاة والسلام - .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ، والعدوان في أصل اللغة : الاعتداء والظلم الذي هو من الأفعال المحرمة والمراد به في الآية القتل حيث يرتكب جزاء للمقاتلين .

والفاء في قوله « فإن انتهوا » ، للتعقيب . وقوله « فلا عدوان إلا على الظالمين » ، قائم مقام جواب الشرط ، لأنه علة الجواب المحذوف . والمعنى : فإن امتنعوا عن قتالكم ولم يقدموا عليه ، وأذعنوا اتعاليم الإسلام ، فكفروا عن قتالهم ، لأنهم قد انتفى عنهم وصف الظلم ، وما دام قد انتفى عنهم هذا الوصف فلا يصح أن تقتلواهم ، إذ القتال إنما يكون للظالمين تأديباً لهم ليرجعوا عن ظلمهم .

ففي الجملة السكرية إيجاز بالحذف ، واستغناء عن المحذوف بالتعليل الدال عليه .

قال الإمام الرازي : أما قوله - تعالى - « فلا عدوان إلا على الظالمين » ، فقيه وجهان : الأول : فإن انتهوا فلا عدوان أي : فلا قتل إلا على الذين لا ينتهون عن الكفر ، فإنهم بإصرارهم على كفرهم ظالمون لأنفسهم قال - تعالى - « إن الشرك لظلم عظيم » .

فإن قيل : لم سمى ذلك القتل عدواناً مع أنه في نفسه صواب ؟ قلنا :

لأن ذلك القتل جزاء العدوان فصح إطلاق اسم العدوان عليه ، كقوله
- تعالى - « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

الثاني : إن تعرضتم لهم بعد إتهامهم عن الشرك والقتال كنتم أنتم
ظالمين ، فنسلط عليكم من يعتدى عليكم ، (١) .

وقوله - تعالى - « الشهر الحرام بالشهر الحرام ، بيان للحكمة في إباحة
القتال في الأشهر الحرم ، وإبذان بأن مراعاة حرمة الشهر الحرام إنما هي
واجبة في حق من يصون حرمة ، أما من هتكها فقد صار بسبب انتهاكه
لحرمة الشهر الحرام محللاً للقصاص والمعاقبة في هذا الشهر وفي غيره .

وسمى الشهر الحرام لأنه يحرم فيه ما يحل في غيره من القتال ونحوه ،
والتعريف فيه - على الراجح - للجنس ، فهو يشمل الأشهر الحرم جميعها
وهي أربعة : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب .

قال - تعالى - : إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله
يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا
فيهن أنفسكم ؛ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا
أن الله مع المتقين ، (٢) .

قال القرطبي : نزلت في عمرة القضاء ، وذلك أن رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - خرج معتمراً حتى بلغ الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، فصدّه
المشركون كفار قريش عن البيت فأنصرف ووعده - سبحانه - أنه سيدخله
فدخله في ذي القعدة سنة سبع وقضى نسكه فنزلت هذه الآية ، (٣) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ١٤٦ .

(٢) سورة التوبة . الآية ٣٦ .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ٣٥٥ .

والمعنى : هذا الشهر الحرام الذي تؤدون فيه عمرة القضاء ، بذلك الشهر الحرام الذي صدكم المشركون فيه عن دخول المسجد الحرام ، فإذا بدووا بانتهاك حرمة بقتالكم فيه ، فلا تقالو أن تقاتلوهم فيه دفاعاً عن أنفسكم ، إذ هم البادئون بهتك حرمة .

وقوله ، والحرمت قصاص ، متضمن لإقامة الحججة على الحكم السابق والحرمت : جمع حرمة ، وهي ما يحفظ ويرعى ولا ينتهك .

والقصاص : الماواة . أى ، وكل حرمة يجرى فيها القصاص . فمن هتك أية حرمة اقتص منه بأن تهتك له حرمة .

والمراد : أن المشركين إذا أقدموا على مقاتلتكم - أيها المؤمنون - في الحرم أو في الشهر الحرام ، فقاتلوهم أنتم أيضاً على سبيل القصاص والمجازاة . بالمثل ، حتى لا يتخذوا الأشهر الحرم ذريعة للمعذر والإضرار بكم .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله : ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، .

أى : فمن اعتدى عليكم وظلمكم فجازوه باعتدائه وقابله بمثل ما اعتدى عليكم بدون حيف أو تجاوز للحد الذي أباحه الله لكم .

وسمى جزاء الاعتداء اعتداء على سبيل المشاكلة .

قال الألوسي : واستدل الشافعي بالأية على أن القاتل يقتل بمثل ما قتل به من محدد أو خنق أو حرق أو تجويع أو تفريق . حتى لو ألقاه في ماء عذب لم يلق في ماء مالح . واستدل بها أيضاً على أن من غصب شيئاً وأطفئه لزمه رد مثله . ثم إن المثل قد يكون من طريق الصورة - كافي ذوات الأمثال - وقد يكون من طريق المعنى كالقيم فيما لا مثل له ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بالتقوى والخشية منه فقال :
« واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » .

أى . اتقوا الله وراقبوه فى الانتصار لأنفسكم ، وترك الاعتداء فيما لم
يرخص لكم فيه ، واعلموا أن الله مع الذين يمتثلون أمره ويحتملون نهيته
بالنصر والرعاية والتأييد .

ثم أمر الله - تعالى - المؤمنين ببذل المال من أجل إعلاء كلمته ، ونصرة
دينه ، فقال : « وإنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » .

قال الإمام الرازى : الإنفاق هو صرف المال إلى وجود المصالح ، فلذلك
لا يقال فى المضيع : إنه منفق . فإذا قيد الإنفاق بذكر سبيل الله ، فالمراد به
طريق الدين ، لأن السبيل هو الطريق ، وسبيل الله هو دينه ، فكل ما أمر
الله به فى دينه من الإنفاق فهو داخل فى الآية سواء أكان إنفاقاً فى حج أو فى
صلة رحم أو غير ذلك ، إلا أن الأقرب فى هذه الآية - وقد تقدم ذكر
الجهاد - أنه يراد به الإنفاق فى الجهاد ، وقوله « فى سبيل الله » كالتنبية على العلة
فى وجوب هذا الإنفاق ، وذلك لأن المال مال الله فيجب إنفاقه فى سبيله ،
ولأن المؤمن إذا سمع ذكر الله اهتز ونشط فيسئل عليه إنفاق المال ، (١) .

و « تلقوا » من الإلقاء وهو طرح الشيء من اليد .

قال الجمل . والباء فى قوله « بأيديكم » تحتل وجهان : أحدهما أنها زائدة
فى المفعول به لأن ألقى يتعدى بنفسه ، قال - تعالى - « فألقى عشاءه » ، والثانى :
أن يضمن ألقى معنى فعل يتعدى بالباء فيتعدى تعديته فيكون المفعول به فى
الحقيقة هو المجرور بالباء تقديره ، ولا تفضوا بأيديكم إلى التهلكة كقوله :

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ١٤٨ بتصرف وتلخيص .

أفضيت بجانبى إلى الأرض أبى : طرحته على الأرض، (٢) .

والمراد بالأيدي : الأنفس ، من باب ذكر الجزء وإرادة السكل ، لأن أكثر ظهور أفعال النفس تكون عن طريق اليد .

والتهلكة : الهلاك والموت . أو كل شىء تصير عاقبته إليه . مصدق هلك يهلك هلكاً وهلاكاً وتهاككة .

والجملة الكريمة معطوفة على جملة « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم... » الخ ، لأنهم لما أمروا بقتال عدوهم ، وكان أوفر منهم عدة وعداداً ، كلفهم بالاستعداد له عن طريق الإنفاق الكثير من أموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله لأن هذا الإنفاق من أقوى الوسائل التى توصل إلى النصر .

والمعنى : عليكم ، أيها المؤمنون - أن تقاتلوا فى سبيل الله من قاتلكم ، وأن تنفقوا من أجل إعلاء كلمة الله أموالكم ، ولا تلقوا أنفسكم فيما فيه هلاككم فى دين أو دنيا ، بسبب ترككم الجهاد وبخلكم عن الإنفاق فيه مع القدرة على ذلك .

ويشهد لهذا المعنى ما أخرجه الترمذى وغيره عن أبى عمران قال : كنا بمدينة الروم القسطنطينية - فأخرجوا إلينا صفا عظيماً من الروم . فخرج إليهم من المسلمين مثلهم فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم ، فصاح الناس وقالوا : سبحان الله يلقى بيديه إلى التهاككة !! فقام أبو أيوب الأنصارى فقال : يا أيها الناس إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل ، وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار . لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه ، فقال بعضنا لبعض سراً - دون رسول الله - ﷺ - إن أموالنا قد ضاعت ، وإن الله قد أعز الإسلام ، وكثر ناصروه ، فلو أقتلنا

في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها ، فأنزل الله - تعالى - على نبيه يرد علينا ما قلناه ، وأنفقوا في سبيل الله ولا تعلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال ، وإصلاحها ، وتركنا الغزو .

قال الراوى : فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم .

فالآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يبذلوا أموالهم في الجهاد في سبيل الله بصفة خاصة ، وفي كل موطن من مواطن الخير بصفة عامة ، لأن عدم البذل في سبيل الخير يؤدي إلى ضعف الأمة واضمحلالها .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالترغيب في الإحسان فقال : « وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ، أى : أحسنوا كل أعمالكم وأتقنوها ، لأنه - سبحانه - يحب المحسنين في كل شئونهم ، ويشيم على ذلك بما يسعدم في دينهم ودنياهم .

هذا ، وتأمل معى - أيها القارىء الكريم - فى هذه الآيات تراها قد رسمت أحكم منهاج وأعدله فى شأن الحرب والسلام .

إنها تأمر المؤمنين أن يجاهدوا أعداءهم الذين بدأهم بالقتال ، وأن يقتلوهم حيث وجدوهم . ويخرجوهم من حيث أخرجوهم ، كما تأمرهم أن يبذلوا أموالهم في سبيل الله بدون إمساك أو بخل ، وهذا من أقوى أنواع الحض على الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله .

ولكنها فى الوقت نفسه تنهاهم عن الاعتداء ، وتنهاهم عن القتال فى الأشهر الحرم وفى الأماكن المقدسة إلا إذا قاتلهم المشركون فيها ، كما تنهاهم عن قتالهم إذا ما انتهوا عن عدوانهم وكفرهم ، لأن شريعة القرآن تستجيب لداعى السلم متى كف المعتدون عن العدوان ، وأحترموا كلمة الإسلام . وبذلك نرى أن القتال فى الإسلام ليس من أجل الغنائم ، أو الاستغلال .

أو الاستعباد ، أو التباهي . . . كلا ليس لأجل شيء من هذا ، وإنما هو من أجل الدفاع عن الحق وأهله ، حتى تكون كلمته هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى ، وبهذا تسعد الإنسانية ، وتنال ما تصبو إليه من عزة وفلاح .

وبعد هذا الحديث المحكم عن القتال في سبيل الله ، وبيان أحكامه بالنسبة للأشهر الحرم وللبيت الحرام ، ساق القرآن في بضع آيات جملة من الأحكام والآداب التي تتعلق بفريضة الحج ، إذ القتال جهاد لحماية الأمة الإسلامية من الخارج ، والحج جهاد لتهديب النفس وحماية الأمة من الداخل عن طريق تجميع أبنائها على اختلاف ديارهم في مكان واحد ليشهدوا منافع لهم ، وليتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . استمع إلى سورة البقرة وهي تحدثك عن بعض أحكام الحج وآدابه فتقول :

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ
 مِنَ الْهُدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهُدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ
 مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ آذَىٰ مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ
 أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ
 الْهُدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ
 تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا حَاضِرِي الْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

الْحَجَّ أَشْهُرًا

أَمَعْلُومَتٌ ۖ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ
 فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ
 التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
 تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ
 عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ
 الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ
 إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ حَجِّكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ
 ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا
 وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي
 الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ
 نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ
 مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ
 عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

تعتبر هذه الآيات الكريمة من أجمع الآيات التي وردت في القرآن الكريم مبيّنة ما يتعلق بأحكام الحج وآدابه ، وسنحاول - بعون الله - أن نبين ما اشتملت عليه من آداب سامية ، وتوجيهات حكيمة ، بأسلوب هو إلى الإيجاز أقرب منه إلى الإسهاب والإطناب ، قاصدين عدم التعرض لتفريعات الفقهاء واختلافاتهم إلا بالقدر الذي يقتضيه المقام .

والحج في اللغة : القصد يقال حج فلان الشيء : إذا قصده مرة بعد أخرى .

وفي الشرع : القصد لزارة بيت الله الحرام في وقت مخصوص بأفعاله مخصوصة ، وبكيفية مخصوصة ، بينها الشريعة الإسلامية .

والعمرة في اللغة : الزيارة ، مأخوذة من العمارة التي هي ضد الخراب ثم أطلقت على الزيارة التي يقصد بها عمارة المسكان .

وفي الشرع : زيارة بيت الله الحرام للتقرب إليه ، وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - أركانها وشروطها وكيفيةها .

وقد كانت شعيرة الحج والعمرة معروفين عند العرب قبل الإسلام ، ولكن بأفعال وبكيفية فيها الكثير من الأباطيل والأوهام ، فجاءت شريعة الإسلام فوضعت لها أفضل الأحكام ، وأسما الآداب ، وأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - المسلمين أن يسيروا في أدائها على الطريقة التي سار عليها فقال : «خذوا عني مناسككم» .

قال ابن كثير : وقد ثبت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اعتمر أربع عمر كلهما في ذي القعدة عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمان ، وعمراته التي مع حجته أحرم بها معاً في ذي القعدة سنة عشر - وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته ، (١) .

وقد اختلف العلماء في المقصود من الإتمام في قوله - تعالى - « وآتموا الحج والعمرة لله » فبعضهم يرى أن المراد بإتمامهما : إقامتهما وإيجادهما وإنشاؤهما فيكون المعنى : أقيموا الحج والعمرة لله : أي أدوها واتوا بها . فالأمر في « آتموا » منصب على الإنشاء والأداء . فهو كقوله - تعالى - « ثم آتموا الصيام إلى الليل » وأصحاب هذا الرأي يرون أن العمرة واجبة كالحج ، لأن الله - تعالى - أمر بهما معاً ، ولأن الرسول - ﷺ - قال : « تابعوا بين الحج والعمرة . . » وإلى هذا الرأي أتجه سعيد بن جبير ، وعطاء ، وسفيان الثوري ، والشافعية .

ويرى كثير من الصحابة والتابعين والفقهاء كالأحناف والمالكية - أن المراد بإتمامهما : الإتيان بهما تارةً ، بمناسكهما المندرجة لوجه الله - تعالى - وأن على المسلم إذا شرع فيهما أو في أحدهما أن يتمه ويأتي به كاملاً ، كما فعل النبي - ﷺ - وأصحابه في عمرة القضاء . فيكون المعنى : اتوا بالحج والعمرة كما على الأركان والشروط والآداب خالصين لوجه الله - تعالى - .

فالأمر على هذا الرأي منصب على الإتمام لا على أصل الأداء . وأصحابه يرون أن العمرة ليست واجبة كالحج لعدم قيام الدليل على وجوبها ، وليس في الآية ما يفيد الوجوب ، بل فيها ما يفيد وجوب الإتمام إن شرع فيهما أو في أحدهما . وفرضية الحج إنما ثبتت بقوله - تعالى - « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » . وأيضاً ، فإن أركان العمرة وأفعالها تدخل في ثنايا أفعال الحج وأركانها ، ولذلك ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة » ، إلى غير ذلك من الأدلة التي ساقها كل فريق لتدعيم رأيه . ويجمل القول أن فرضية الحج مجمع عليها بين العلماء ، وأما فرضية

العمرة ففيها خلاف ، انتصر كثير من العلماء فيه للرأى القائل بأنها ليست فرضاً كالحج ، بل هي سنة .

وقد كانت فرضية الحج في السنة التاسعة من الهجرة على أرجح الروايات . ويرى بعض العلماء أن الحج قد فرض قبل ذلك ، إلا أن تنفيذه لم يتم إلا في السنة التاسعة عندما أرسل النبي - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر أميراً على الحج ، وكان ذلك تمهيداً لحججه - صلى الله عليه وسلم - سنة عشر . وقد أمر - سبحانه - بإتمام الحج والعمرة لله دون غيره لأن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر ، والتفاخر ، وقضاء الجوائح ، وحضور الأسواق ، دون أن يكون لله - تعالى - فيه حظ يقصد ، وبلا قرينة تعتقد ، فأمر - سبحانه - المسلمين أن يزهدوا عباداتهم - وخصوصاً الحج - عن الأقوال السيئة ، والأفعال القبيحة ، وأن يقصدوا بأداء ما كلفهم الله به الإخلاص والطاعة له - سبحانه - .

وبعد أن أمر الله - تعالى - عباده بأن يتموا الحج والعمرة له ، أردف ذلك ببيان ما يجب عليهم عمله فيما لو حال حائل بينهم وبين إتمامها فقال : « فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ، والإحصار والحصر في اللغة : بمعنى الخبس والمنع والتضييق سواء أكان بسبب عدو أو مرض أو جور سلطان أو ما يشبه ذلك . قال - تعالى - في شأن قتال المشركين : « فإذا انسلك الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم (١) أي : ضيقوا عليهم المنافذ . ويقال للذي لا ييؤح بسره : حصر ؛ لأنه خبس نفسه عن البوح بسره .

ويرى بعض علماء اللغة أن الإحصار يكون الحبس والمنع فيه من ذات الشخص كالمرض وذهاب النفقة ، وأما الحصر فيكون الحبس والمنع فيه

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣٠ .

(٢) سورة التوبة . الآية ٥ .

لا من ذات الشخص ، بل بسبب أمر خارجي كآمدو ونحوه .
والهدى : - بتخفيف الياء ، وتشديدها - مصدر بمعنى المفعول ، أى : المهدي
والمراد به ما يهدي إلى بيت الله الحرام من الإبل والبقرة والشاة ليذبح تقرباً
إلى الله - تعالى - .

و « استيسر » هنا بمعنى يسر وتيسر أى : ما أمكن تحصيله من الهدى
بدون مشقة أو تعب .

والمعنى : أمموا - أيها المؤمنون - الحج والعمرة لله متى قدرتم على ذلك ،
فإن « أحصرتم » أى ، منعتم بعد الإحرام من الوصول إلى البيت الحرام
بسبب عدو أو مرض أو نحوهما ، فعليكم إذا أردتم التحلل من الإحرام أن
تذبحوا ما تيسر لكم من الهدى .

وبعض العلماء - كالشافعية والمالكية - يرون أن المراد بالإحصار في الآية
ما كان بسبب عدو ، كما حدث للمسلمين في صلح الحديبية ، أما إذا كان
الإحصار بسبب مرض ، فإن الحاج أو المعتمر على إحرامه حتى يبرأ من مرضه
تم يذهب إلى البيت فيطوف به سبعاً ، ويسمى بين الصفا والمروة ، وبهذا
يتحلل من عمرته أو حجه ، ولا يتحلل بالذبح ، إذ التحلل بالذبح عندهم
لا يكون إلا في حالة الإحصار بسبب العدو . أما الأحناف فيرون أن
الإحصار سواء أكان بسبب عدو أو مرض أو ما يشبههما فإنه يسبغ التحلل
بالذبح ، إذ الآية عندهم تعم كل منع ، وعلى من أحصر أن يقضى الحج
أو العمرة فيما بعد .

وفي هذه الجملة الكريمة تقرير للمبادئ التي جاءت بها شريعة الإسلام ،
تلك المبادئ التي تتوخى في كل شئونها التيسير لا التعسير ، والرفق لا التشديد
قال - تعالى - « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (١) وقال - تعالى -
« ما جعل عليكم في الدين من حرج » (٢) .

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥

(٢) سورة الحج الآية ٧٨

ثم قال - تعالى - ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله .
 حلق الرأس أو تقصيرها علامة الانتهاء من الإحرام ، كما أن التقصير
 علامة الانتهاء من الصلاة ، أو علامة قطعهما عند الاضطرار إلى ذلك .
 والحلق بالنسبة للرجال أفضل من التقصير ، فقد أخرج الشيخان عن أبي
 هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : اللهم اغفر للمحلقين .
 قالوا : يا رسول الله وللمقصرين . قال : اللهم اغفر للمحلقين . قالوا :
 يا رسول الله وللمقصرين . قال : وللمقصرين (١) . أما بالنسبة للنساء فيكفي التقصير .
 والمحل : اسم لزمان الحل أو مكانه . يقال : بلغ الدين محله إذا حل
 وقت أدائه ، كما يقال : بلغ الشخص محله إذا وصل إلى المكان الذي ينزل به .
 قال الألوسي : وكون المراد بالمحل هنا المكان هو الظاهر في الآية .

والمعنى : أنموذج الحج والعمرة لله ، فإن منعمت من إتمامهما وأتم محرمون
 فعليكم إذا أردتم التحلل أن تدبجوا ما تيسر لكم من الهدى ، ولا تتحللوا
 من إحرامكم بالحلق حتى تعلموا أن الهدى المبعوث قد بلغ مكانه الذي
 يجب أن يراق فيه دمه ، وهو الحرم .

وهذا رأى الأحناف ، فقد قرروا أن المراد بالمحل البيت الحرام ، فهو
 اسم مكان ، لأن الله - تعالى - قد قال في آية أخرى : ثم محلها إلى البيت
 العتيق (٢) ، عليه فلا يجوز للمحصر أن يحلق ويتحلل إلا بعد أن يصل الهدى
 الذي يرسله إلى البيت الحرام وينذبح .

أما جمهور الفقهاء فيرون أن محل الهدى للمحصر هو المكان الذي حدث
 فيه الإحصار ، ودليلهم أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد نحر هو وأصحابه
 هديهم بالحديبية وهي ليست من الحرم ، وذلك عندما منعه المشركون من
 دخول مكة .

(١) الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) سورة الحج الآية ٣٣ .

وقد أجاب الأحناف على ذلك بأن محصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما يقول الألوسي - (١) كان في طريق الحديدية بأسفل مكة ، والحديدية محصنة بالحرم .

وعلى رأى جمهور الفقهاء يكون المعنى : ولا تدخلوا من إخراجكم بالخلق حتى تذهبوا الهدى في الموضوع الذى أحصرتم فيه ؛ فإذا تم الذبح فاحلقوا وتحلقوا . والخطاب على كلا المعنيين يكون للمحصرين ، لأنه أقرب مذكور ويرى المحققون من العلماء أن رأى جمهور الفقهاء أكثر اتفاقاً مع السنة النبوية ، وفيه تسهيل على المحصرين ، والمناسب لهم هو التيسير لا التعسير ، ولا شك أن ذبحهم لهديهم في مكان لإحصارهم أسير لهم ، وحملوا قوله - تعالى - : ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله ، على أنه خطاب عام لجميع المكلفين لا فرق بين محصر وغير محصر ، وأن المقصود من الجملة الكريمة هو البيان العام لمكان التحلل وزمانه ، أما مكان الذبح عند الإحصار فقد بينه النبي - صلى الله عليه وسلم - بذبحه لهديه في الحديدية وهى ليست من الحرم عند المحققين .

قال الإمام الرازى : ومنشأ الخلاف البحث في تفسير هذه الآية ، فقد قال الشافعى وغيره : المحل في هذه الآية اسم للزمان الذى يحصل فيه التحلل . وقال أبو حنيفة : إنه اسم للمكان ، (٢) .

وبعد أن بين - سبحانه - أن الحلق لا يجوز للمحرم ما دام مستمر على إحصاره ، أردف ذلك بيان بعض الحالات التى يجوز فيها للمحرم أن يحلق رأسه مع استمراره على إحصاره فقال - تعالى - : : فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ، فغدة من صيام أو صدقة أو نسك ، .

أى : فمن كان منكم - أيها المحرمون - مريضاً بمرض يضطر معه إلى

(١) تفسير الألوسى ج ٢ ص ٨١ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ١٦٣ .

الحلق ، أو كان به أذى من رأسه كجراحة وحشرات مؤذية ، فعليه إن حلق .
فدية من صيام أو صدقة أو نسك .

وقوله « فدية » ، مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : فعليه فدية ،
وأيضاً ففيه إضمار آخر والتقدير : فحاق فعليه فدية .
والفدية : هى العوض عن الشيء الجليل النفيس . ولا ريب أن محرّمات
الحج والعمرة أمور لها جلالها وعظمتها .

وعبر - سبحانه - هنا بالفدية دون الكفارة ، لأن الذى به مرض
أو أذى من رأسه لم يرتكب ذنباً أو إثمًا حتى يكفر عنه .

قال القرطبي : والنسك : جمع نسيكه ، وهى الذبيحة ينسكها العبد لله -
تعالى - وتكون من الإبل والبقر والغنم - ويجمع - أيضاً - على نساكك .
والنسك : العبادة فى الأصل ، ومنه قوله - تعالى - : « وأرنا مناسكنا ، أى :
متعبداتنا . وقيل : أصل النسك فى اللغة الغسل ؛ ومنه نسك ثوبه إذا غسله ،
فكان العابد غسل نفسه من أدران الذنوب بالعبادة . وقيل : النسك سبائك
الفضة التى خلصت من الخبث ، كل سبيكة منها نسيكه ، فكان العابد خلص
نفسه من دنس الآثام وسبيكها ، (١) .

وقوله - تعالى - « من صيام أو صدقة أو نسك » ، بيان لجنس الفدية .
وقد بين النبى - صلى الله عليه وسلم - مقدار هذه الفدية ، فقد روى
الشيخان عن كعب بن عجرة الأنصارى قال : حملت إلى النبى - صلى الله
عليه وسلم - والقمل يتناثر على وجهى فقال : ما كنت أرى أن الجهد قد بلغ
بك هذا ... أما تجد شاة ؟ قلت : لا . قال : صم ثلاثة أيام وأطعم
سبعة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك . فنزلت فى
خاصة وهى لكم طامة .

فقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - مقدار الفدية في هذا الحديث ،
وعامة العلماء يرون أن المحرم لعذر كهذا يخير في هذا المقام ، إن شاء صام ،
وإن شاء تصدق وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على المساكين .

قال ابن كثير : ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل
فالأسهل ، ولما أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - كعب بن - بكرة بذلك أرشده
أولاً إلى الأفضل فقال : أما تجد شاة ؟ فيكف حسن في مقامه (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - كيفية التحلل عند الإحصار ، وكيفية التحلل
الجزئي من بعض المحرمات عند المرض ، عقب ذلك ببيان كيفية التحلل
في حالة الأمن فقال : « فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر
من الهدى ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم ، تلك
هشرة كاملة » .

وقوله « فإذا أمنتم » ، الأمن ضد الخوف . أى : فإذا زال خوفكم وثبت
أمنكم والجملة معطوفة على قوله « أحصرتم » ، وجيء - بإذا لأن فعل الشرط
وهو « أمنتم » ، مرغوب فيه .

وقوله « فمن تمتع » ، جواب إذا . والتمتع في اللغة - كما قال الإمام
الرازي - التلذذ . يقال : تمتع بالشيء إذا تلذذ به . والمتاع كل شيء يتمتع به ،
وأصله من قواهم : حبل مائع ، أى : طويل . وكل من طالت صحبته مع
الشيء فهو متمتع به ، (٢) .

والمراد بالتمتع في الآية المعنى الشرعى بأن يجمع المسلم بين العمرة والحج في
عام واحد في أشهر الحج ، بأن يحرم بالعمرة أولاً ثم بالمحج .

وسمى هذا النوع من الإحرام تمتعاً ، لأن المحرم به يجمع بين متعة الروح
ومتعة الجسد . لأنه يحرم بالعمرة أول ويقوم بمناسكها وتلك متعة روحية
وبعد الانتهاء من أداؤها يتحلل فيجوز له أن يقرب النساء ويمس الطيب حتى .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ١٦٧ طبعة عبد الرحمن محمد :

يحرم بالحج وتلك متعة بدنية .

وهناك نوعان آخران من الإحرام . أحدهما : الأفراد ومعناه : أن يحرم بالحج فقط ولا يجمع معه العمرة ، وإنما يأتي بها في وقت آخر .
وثانيهما : القران ومعناه : أن يجمع بين العمرة والحج في إحرام واحد ، بأن يبقى على إحرامه بعد أدائها ويأتي بمناسك الحج بالإحرام نفسه .

والمعنى : فإذا ثبت أمنكم - أيها المسلمون - عند أدائكم للحج والعمرة ، فمن تمتع منكم بالعمرة إلى الحج ، بأن أحرم بها في أشهر الحج ، ثم بعد الانتهاء من أعمالها تحلل بأن حلق رأسه ، وبإشراك أهله إن كانوا معه ، وانتظر متحلاً إلى وقت الإحرام بالحج وصار من حقه أن يفعل كل ما يفعله من ليس محرماً ، فعليه في هذه الحالة أن يذبح ما تيسر له من الهدى من غنم أو بقر أو إبل ليكون هذا الذبح شكراً لله حيث وفقه - سبحانه - للجمع بين النسكين مع التمتع بينهما بأفعال المتحلل ، فمن لم يجد ما يذبحه فعليه أن يصوم ثلاثة أيام في وقت الحج وأن يصوم سبعة أيام بعد فراغه منه .

وقوله : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ... » معطوف على « فمن تمتع بالعمرة ... » لأن « فمن تمتع » مع جوابه وهو « فما إستيسر ... » مقدر فيه معنى « فمن تمتع واجداً الهدى ، فعطف عليه فمن لم يجد أى الهدى .

وقد جعل - سبحانه - الصيام بدلاً عن الهدى زيادة في الرخصة والرحمة . وزيادة في الرفق والتيسير فقد جعله على مرحلتين : إحداهما - وهي الأقل - تكون في وقت الحج ، ويفضل كثير من الفقهاء أن يصوم سادس ذى الحجة وسابعه وثامنهما ، وثانيتهما - وهي الأكبر - تكون بعد الرجوع إلى أهله حيث يطمئن ويستقر وتذهب مشقة السفر فيصوم سبعة أيام .

وبعض الفقهاء يرى جواز الصيام عند الأخذ في الرجوع بعد الفراغ من أعمال الحج ، ويرجع الوجه الأول ما رواه الشيخان من حديث ابن عمر . وفيه : « فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى »

أهله، (١).

والإشارة في قوله - تعالى - « تلك عشرة كاملة ، إلى الثلاثة والسبعة .
وعبّر العدد محذوف أى : أيام . والجملة مؤكدة لما أفاده قوله « فصيام ثلاثة
أيام وسبعة إذا رجعتن » وقائدة هذا التأكيد دفع توهم أن الواو بمعنى أو ،
أو أن السبعة كناية عن مطلق كثرة العدد ، وبذلك يتقرر الحكم نصاً ،
ويتبين أن الذى يحل محل النسك إنما هو العشرة الكاملة وليس بعضها .

ووصف العشرة بأنها كاملة ، للتنبؤ به بأن هذا الصوم طريق الكمال لأعمال
الحج ، وأن الحاج إذا نسى بعضها لا يكون حجه تاماً حتى يصوم ما أمره
الله - تعالى - به .

وقوله « ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام » ، الإشارة فيه
تعود إلى التمتع المفهوم من قوله - تعالى - « فمن تمتع بالعمرة إلى الحج .. » الخ .
أى : ذلك التمتع الذى يجمع فيه المحرم بين النسكين ، إنما هو للشخص
الذى ليس أهله من المقيمين في مكة ، وما حولها ، لأن المقيمين في مكة وما حولها
يفردون ولا يجمعون ، إذ العمرة في إمكانهم أن يؤدوها طول أيام السنة .
وقد شرع - سبحانه - التمتع ليكون تيسيراً ورفعاً للمقيمين بعيداً عن مكة
هذا رأى الأحناف .

ويرى الشافعية : أن أهل مكة وما حولها يقرنون ويتمتعون كثيرهم من
أهل الأفاق ، وأن اسم الإشارة في الجملة الكريمة يعود إلى النسك وما يقوم
مقامه من الصوم لأنه أقرب مذكور .

وعلى رأيهم يكون المعنى : ذلك الذبيح لما تيسر من الهدى والصيام لمن لم
يتيسر له الهدى وإنما هو على سكان الأفاق ، لا على سكان مكة وما حولها ، لأن
سكان مكة وما حولها قد أحرموا التمتع من الميقات فلا يجب عليهم شيء .
والمراد بحاضري المسجد الحرام : أهل مكة وأهل الحل الذين منازلهم

داخل المواقت عند الحنفية . وقال المالكية : هم أهل مكة خاصة . وقال الشافعية : هم أهل مكة ومن كان بينه وبين مكة مسافة لا تقصر فيها الصلاة . واسئل أدلته المفصلة في كتب الفقه .

ثم ختم - سبحانه - الآية بالأمر بتقواه وبالتحذير من عقابه فقال :
« واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب » .

أى : واتقوا الله في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه ، واعلموا أن الله شديد العقاب لمن لم يحشيه ولم يلتزم حدوده .

وفي هذا الأمر بالتقوى في ختام هذه الآية التي تحدثت عن الحج إشعار بأن هذه الفريضة ليست العبرة فيها بما تعمله الجوارح وإنما العبرة بما تتركه في القلوب من توبة صادقة ، وصيانة للنفس عن اقتراف المحارم .

وفي قوله « واعلموا » اهتمام بالخبر ، وتحقيق لمضمونه ، وتهييب من العقاب مع الترغيب بالثواب ، فقد جرت عادة الناس أنهم يصلحون بالثواب والعقاب .

هذا ، وقد إشتملت هذه الآية السكرية على بعض الأحكام التي تتعلق بالحج والعمرة ، والمتدبر في هذه الأحكام يراها قد امتازت بأحكام ضرورية التوجيه ، وأيسر أنواع التكليف .

ثم بين - سبحانه - وقت الحج وما يجب على المسلم عند أدائه لطفه للفريضة من آداب فقال : « الحج أشهر معلومات » .

أى : وقت الحج أشهر معلومات أو أشهر الحج أشهر معلومات . فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

وجعلت النسبة إلى الحج نفسه لا إلى وقته ، للإشعار بأن هذه الأشهر لكونها تؤدى فيها هذه الفريضة قد اكتسبت تقديساً وبركة منها ، حتى لا كان هذه الأشهر هي الفريضة نفسها .

قال القرطبي ما ملخصه : وأشهر الحج هي شوال وذو القعدة والعشرة

الأولى من ذى الحجة . وقيل هى شوال وذو القعدة وذو الحجة كله وفائدة الفرق تعلق الدم ؛ فمن قال : ان ذا الحجة كله من أشهر الحج لم يردماً فيما يقع من الأعمال بعد يوم النحر ، لأنها فى أشهر الحج . ومن قال بأن الحج ينقضى بال عشرة الأولى من ذى الحجة يوجب الدم فيما عمل بعد ذلك لتأخيره عن وقته . ولفظ الأشهر قد يقع على شهرين وبعض الثالث ، لأن بعض الشهر ينزل منزلة كله ، كما يقال : رأيتك سنة كذا واعله إنما رآه فى ساعة منها ، (١) .

وعبر - سبحانه - عن هذه الأشهر بأنها معلومات ، لأن العرب كانوا يعرفون أشهر الحج من كل عام منذ عهد إبراهيم - عليه السلام - وقد جاء الإسلام مقررأ لما عرفوه . أو المراد بكونها معلومات أنها مؤقنة بأوقات معينة لا يجوز تقديمها ولا تأخيرها عنها ، وهو يتضمن بطلان النسب الذى كان يفعله الجاهليون تبعاً لأهوائهم .

وقوله : فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ، بيان لما يجب أن يتحلى به المسلم من فضائل عند أدائه لهذه الفريضة .

قال الإمام الرازى : ومعنى فرض ، فى اللغة ألزم وأوجب . يقال : فرضت عليك كذا ، أى أوجيته . وأصل معنى الفرض فى اللغة الحز الذى يقع فيه الوتر ، ومنه فرض الصلاة وغيرها لأنها لازمة للعباد كل يوم الحز للقدح . ففرض هنا بمعنى أوجب وألزم ... ، (٢) .

والرفث فى الأصل : الفحش من القول . والمراد به هنا الجماع أو الكلام المتضمن لما يستجيب ذكره من الجماع ودواعيه .

قال القرطبى : وأجمع العلماء على أن الجماع قبل الوقوف بعرفة مفسد للحج وعليه حج قابل والهدى .

(١) تفسير القرطبى ج ٢ ص ٤٠٥ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٥ ص ١٧٨ .

والفسوق : الخروج عن طاعة الله بارتكاب المعاصي ، ومن ذلك السباب
وفعل محظورات الإحرام ، وغير ذلك مما نهى الله عنه ،
والجدال على وزن فعال من المجادلة وهي مشتقة من الجدل وهو الفتل
منه زمام مجدول .

وقيل : هي مشتقة من الجدالة التي هي الأرض . فكأن كل واحد من
الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه ، فيكون كمن ضرب به الجدالة .
والمراد النهي عن المهاراة والمنازعة التي تؤدي إلى البغضاء وتغير القلوب .

والمعنى : أرفقت الحج أشهر معلومات فن نوى وأوجب على نفسه
فيهن الحج وأحرم به فعليه أن يجتنب الجماع للنساء ودواعيه ؛ وأن يتعد
عن كل قول أو فعل يكون خارجاً عن آداب الإسلام ، ومؤدياً إلى التنازع
بين الرفقاء والإخوان ، فإن الجميع قد اجتمعوا على مائدة الرحمن ؛ فعليهم أن
يجتمعوا على طاعته ، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

روى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
قال : من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه .

قال الألوسي : وقال — سبحانه — ، فلا رفت ولا فسوق ولا جدال في
الحج ، بالإظهار ولم يقل فيه مع أن المقام يقتضى الإضمار ، لإظهار كمال
الاعتناء بشأنه ، وللإشعار بعلّة الحكم ، فإن زيارة البيت المعظم والتقرب بها
إلى الله - تعالى - من موجبات ترك الأمور المذكورة المدنسة لمن قصد
السير والسلوك إلى ملك الملوك . وإيثار النفي للمباغة في النهي ، والدلالة على
أنها حقيقة بأن لا تكون فإن ما كان منكراً مستقبلاً في نفسه منهيّاً عنه مطلقاً
فهو للمحرم بأشرف العبادات وأشقها أنكر وأقبح (١) .

والضمير في قوله « فيهن » الأشهر ، لأنه جمع غير العاقل فيجوز على التانيث .

وجملة « فلا رفث .. » إلخ في محل جزم جواب من الشرطية والرايط بين جملة الشرط والجواب ما في معنى « فلا رفث » من ضمير يعود على « من » ، لأن التقدير فلا يرث .

ويجوز أن تكون جملة « فلا رفث .. » وما عطف عليها في محل رفع خبر لمن على أنها موصولة .

وقد أخذ الشافعية من هذه الآية أنه لا يجوز الإحرام بالحج في غير أشهر الحج لأن الإحرام به في غير أشهره يكون شروعا في العبادة في غير وقتها فلا تصح ويرى الأحناف والحنابلة ، أنه يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره ولكنه مع الكراهة : والإمام مالك لا يرى كراهة في ذلك .

ويبدو أن رأى الشافعية هنا أرجح ، لأن قوله - تعالى - « فمن فرض فيهن الحج .. » يشهد لهم ، فقد جعل - سبحانه - هذه الأشهر وعاء لهذه الفريضة وظرفاً لها .

وقوله « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » حض على فعل الخير عقيب النهي عن فعل الشر .

أى : اتركوا الأقوال والأفعال القبيحة ، وسارعوا إلى الإعمال الصالحة - خصوصاً في تلك الأزمنة والامكنة المفضلة ، والله - تعالى - لا يخفى عليه شيء من أعمالكم ، وهو - سبحانه - سيجازيكم على فعل الخير بما تستحقون من جزاء .

ثم قال - تعالى - « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » . قال الإمام الرازى : في هذه الجملة الكريمة قولان ، أحدهما : أن المراد « تزودوا من التقوى » أى الأعمال الصالحة - والدليل عليه قوله بعد ذلك « فإن خير الزاد التقوى » وتحقيق الكلام فيه أن الإنسان له سفران : سفر فى

الدنيا وسفر من الدنيا، فالسفر في الدنيا لا بد له من زاد وهو الطعام والشراب والمال . . الخ . والسفر من الدنيا لا بد له أيضاً من زاد وهو معرفة الله ومحبه والإعراض عما سواه ، وهذا الزاد خير من الزاد الأول لأن زاد الدنيا يخلصك من عذاب منقطع وزاد الآخرة يخلصك من عذاب دائم . . قال الأعشى مقررأ هذا المعنى :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولا قيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثلته وأبك لم ترصد بما كان أرضدا
والقول الثاني : أن هذه الآية نزلت في أناس من أهل اليمن كانوا يجمعون
بغير زاد ويقولون إنا متوكلون ، ثم كانوا يسألون الناس ، وربما ظلوا
الناس وغضبهم فأمرهم الله - تعالى - أن يتزودوا بالمال والطعام الذي
يغنيهم عن سؤال الناس (١) . . .

والذي نراه أن الجملة السكريمة تسع القوانين . فهي تدعو الناس إلى أن
يتزودوا بالزاد المعنوي النفسى الذى يسعدهم ألا وهو تقوى الله وامتنال
أوامره واجتناب نواهيه والاكتثار من العمل الصالح وفي الوقت نفسه هى
تأمرهم - أيضاً - بأن يتزودوا بالزاد المادى الحقيقى الذى يغنيهم عن سؤال
الناس ، ويصون لهم ماء وجوههم .

وبذلك نكون قد استعملنا اللفظ فى حقيقته وبجازه ، وهو استعمال
شائع مستماع عند كثير من العلماء .

ثم ختم - سبحانه - الآية بتأكيد أمر التقوى ووجوب الإخلاص فقال :
«واقفون يا أولى الألباب ، والألباب : جمع لب وهو العقل واللب من كل
شئ : هو الخالص منه . وسمى به العقل ، لأنه اشرف ما فى الإنسان .
أى : أخلصوا لى يا أصحاب العقول السليمة ، والمدارك الواعية ، لأنكم

لما كنتم كذلك كان وجوبها عليكم أثبت ، وإعراضكم عنها أقبح . ورحم الله القائل :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنعق القادرين على التمام
والجمله الكريمة ليست تكرر اسماقتها ، لأن الأولى حث على التقوى
وهذه حث على الإخلاص فيها .

ثم بين - سبحانه - أن الزود بالزاد الروحي لا يقناى مع الزود بالزاد
المادى متى توافرت التقوى ، فقال - تعالى - : ليس عليكم جناح أن تبتغوا
فضلا من ربكم .

الجناح : أصله من جناح الشيء ، إذا مال : يقال جنحت السفينة إذا مالت
إلى أحد جانبيها . والمراد بالجناح هنا الإثم والذنب ، لأنه لما كان الإثم
يعمل بالإنسان عن الحق إلى الباطل سمي جناحاً .

والابتغاء : الطلب بشدة ، وجملة : أن تبتغوا ، في موضع جر
بتقدير في .

والفضل : الزيادة وتكون في الخير والشر إلا أنه جرى العرف أن يعبر
عن الزيادة الحسنة بالفضل وعن الزيادة الفسيحة بالفضول .

والمراد به هنا المال الحلال المكتسب عن طريق التجارة المشروعة
أو غيرها من وجوه الرزق الحلال .

أى : لا إثم ولا حرج عليكم في أن تطلبوا رزقا حلالا ومالا طيبا عن
طريق التجارة أو غيرها من وسائل المكسب المشروعة في موسم الحج .

وقد ذكر المفسرون أن الناس كانوا يتحاشون من التجارة في الحج ، حتى
إنهم كانوا يتجنبون البيع والشراء في العشر الأوائل من ذي الحجة ، فنزلت
هذه الآية لتخبرهم أنه لا حرج عليهم في ذلك .

روى البخاري عن ابن عباس قال : كان ذو الحجاز (١) وعكاظ متحجر
الناس في الجاهلية فاما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت به ليس
عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم .

وقال ابن كثير : وروى الإمام أحمد عن أبي أمامة التيمي قال : قلت
لابن عمر : إنا نكربى فهل لنا من حج ؟ قال : أليس تطوفون بالبيت وترمون
الجار وتحلقون رؤوسكم وتقصون المناسك قال : قلت بلى . فقال ابن عمر :
جاء رجل إلى النبي - ﷺ - فسأله عن الذي سألتني فلم يجبه حتى نزل
عليه جبريل بهذه الآية : ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم .
فدعاه النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له : أنتم حجاج ، (٢) .

فآية الكريمة صريحة في إباحة طلب الرزق لمن هو في حاجة إلى ذلك
في موسم الحج ، بشرط ألا يشغله عن أداء فرائض الله .

ثم قال - تعالى - : فإذا أنفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر
الحرام . . .

الغناء في قوله . : فإذا ، لتفصيل بعض ما أجمل من قبل في قواه ، فمن
فرض فيمن الحج . . . ، وأنفضتم . اندفعتم بكثرة متراحين . وذلك تشبيه لهم
بالماء إذا كثرت ودفع بعضه بعضاً فانتشر وسأل من حافى الوادى والإناء . والإفاضة
في الحديث الاندفاع فيه بكثرة وتصرف في وجوهه ومنه قوله - تعالى - :
إذ تفيضون فيه . فاصل هذه الكلمة الدفع لشيء بكثرة حتى يتفرق .
والتقدير : أنفضتم أنفسكم فحذف المفعول للعلم به .

والمراد : خروجهم من عرفات بشيء من السزعة في تكاثر وازدحامهم
متجهين إلى المزدلفة .

(١) ذو الحجاز : مكان خلف جبل عرفات . وعكاظ : مكان في واد
بينه وبين الطائف إيالة وبينه وبين مكة ثلاث ليال ومجنة : مكان يمر
الظهران . وهذه الأماكن تسمى بأسواق العرب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٠ .

وعرفات : اسم للجبل المعروف ، قيل سمي بذلك لأن الناس يتعارفون به فهم يجتمعون عليه في وقت واحد فيجري التعارف بينهم .

وقد اتفق العلماء على أن الوقوف بعرفات هو ركن الحج الأكبر ففي الحديث الشريف : الحج عرفة ، ويكون ذلك في اليوم التاسع من ذي الحجة .

قال القرطبي : أجمع أهل العلم على أن من وقف بعرفة يوم عرفة قبل الزوال ثم أفاض منها قبل الزوال أنه لا يعتد بوقوفه ذلك قبل الزوال . وأجمعوا على تمام جمع من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهاراً قبل الليل إلا مالك بن أنس فإنه قال : لا بد أن يأخذ من الليل شيئاً ، وأما من وقف بعرفة بالليل فإنه لا خلاف بين الأمة في تمام حجه . والحجة للجهمور مطلق قوله : فإذا أفضتكم من عرفات ، فإنه لم يختص ليلاً من نهار . وحديث عروة بن مضر قال : أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو في الموقف من جمع - أي من المزدلفة - فقلت : يا رسول الله ، جنتك من جبل طى . أكلت مطيتي وأتعبت نفسي . فهل لي من حج يا رسول الله ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من صلى معنا صلاة الغداة بجمع وقد أتى عرفات قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه (١) .

ومن في قوله : من عرفات ، ابتدائية . أي ، فإذا أفضتكم خارجين من عرفات إلى المشعر الحرام .

والمشعر الحرام : هو المزدلفة وقبله هو موضع بها . والمشعر : اسم مشتق من الشعور أي : العلم . أو من الشعار أي : العلامة .

ووصف المشعر بوصف الحرام لأنه من أرض الحرم ، وهو منسك له حرمة وتقديس .

والمزدلفة من الازدلاف وهو القرب ، وسميت بذلك لأن الحجاج يردفون إليها من عرفات ليبيتوا بها قاصدين الاقتراب من منى . وتسمى المزدلفة - أيضاً - جمع ، لاجتماع الناس في هذا المكان .

أو يجمعهم فيه بين صلاتي المغرب والعشاء جمع تأخير . وتسمى كذلك
« قزح » .

ويرى الحنفية والشافعية أن الوقوف بالمزدلفة واجب وليس بركن ،
ومن فاته لا يبطل حجه ويحجب عليه دم .

ويرى أكثر المالكية أن الوقوف بها سنة مؤكدة .

ويرى بعض التابعين وبعض الشافعية أن الوقوف بهاركن كالوقوف بعرفات
والمعنى : فإذا مرتتم - يامعشر الحجاج - من عرفات متدافعين متزاحمين
متجهين إلى المزدلفة فأكثروا من ذكر الله - تعالى - بالتلبية والتلهيل والدعاء
بقلوب مخرجة ، ونفوس صافية ، لأن ذكر الله - تعالى - في تلك المواطن
المقدسة والأوقات الفاضلة من شأنه أن يرفع الدرجات ، ويوصل إلى أعلا
المقامات .

ثم قال - تعالى - « واذكروا كما هداكم ، الكاف للنشيه » . ومعنى
النشيه في مثل هذا التركيب المشابهة في التساوي في الحسن والكمال . كما
تقول : اخذمه كما أكرمك تعنى : لا تتقاصر خدمتك عن إكرامه .

والمعنى : اذكروا الله - تعالى - ذكراً حسناً مماثلاً لهديته لكم ، وأنتم
تعلمون أن هذه الهداية شأها عظيم فبسببها خرجتم من الظلمات إلى النور ،
فيجب عليكم أن تكثروا من ذكر الله من الثناء عليه .

قال الألوسي : وداء ، نحتمل أن تكون مصدرية فحل « كما هداكم ،
النصب على المصدرية ، بحذف المصدر . أى : ذكراً مماثلاً لهديته لكم .
وتحتمل أن تكون كافة فلا عمل لها من الإعراب . والمقصود من الكاف مجرد
تشبيه مضمون الجملة بالجملة ، لذا لا تطلب عاملاً تفضى بمعناه إلى مدخولها .
وقيل : إن الكاف لتحليل ، وما مصدرية . أى ، اذكروه وعظموه لأجل هديته
السابقة منه - تعالى - لكم » (١) .

و « إن » في قوله « وإن كنتم من قبله لمن الضالين » هي المخففة من الثقلية والضمير في « من قبله » يعود إلى الهدى المأخوذ من ما المصدرية . والمراد بالضلال هنا : الجهل بالإيمان وبالتكاليف التي كلف الله بها عباده .

أى : اذكروا الله - تعالى - ذكراً مشابهاً لهديته لكم ، وإنكم لولا هذه الهداية لبعيتم على ضلالكم وجهلكم بالدين الحق ، ولكن الله - تعالى - من عليكم بهذه الهداية فأكثروا من ذكره وشكروه عليها .

وبعد أن تحدث - سبحانه - عن الإفاضة من عرفة إلى المزدلفة وأمر بالإكثار من ذكره ، عقب ذلك ببيان الطريقة المثلثية للإفاضة فقال : « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » : أى : أفيضوا من عرفة لا من المزدلفة . وهناك قولان في الخطاب بهذه الآية .

أحدهما : أن الخطاب فيها لقريش وحلفائها ، وذلك لأنهم كانوا يترفعون على الناس ، فلا يقفون معهم على عرفات ، وإنما يقفون وحدهم بالمزدلفة ، وكانوا يقولون : نحن قطين الله - أى سكان حرمة فينبغى لنا أن نعظم الحرم - وهو المزدلفة - ولا نعظم شيئاً من الحل - وهو عرفات - .

روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت ، كافت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحرم ، وكان سائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله « ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس » .

والمعنى : أفيضوا يا معشر قريش من المكان الذى يفيض منه الناس

وهو عرفة ، وازكوا ما فعلوه من الإفاضة من المزدلفة ، فالقصد إبطال ما كانت تفعله قريش .

والثاني : أن الخطاب في الآية لجميع الناس ، أمرهم الله - تعالى - فيه أن يفيضوا من حيث أفاض الناس . والمراد بالناس في الآية إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فإن سنتهما كانت الإفاضة من عرفة لا من المزدلفة .

قال بعضهم : وإيقاع اسم الجمع على الواحد جائز إذا كان رئيساً يقتدى به كما في قوله - تعالى - « الذين قال لهم الناس ، يعنى « نعيم بن مسعود » ، والذي نراه أن القول الثاني أولى بالقبول ، لأن المغزى الذي تهدف إليه الآية في معناها الخاص والعام هو دعوة الناس جميعاً إلى التجمع في مكان واحد ليشعروا بالإخاء والمساواة عند أدائهم لفريضة الحج بدون تفرقة بين كبير وصغير ، وغنى وفقير ، وقرشى وغير قرشى ، ويدخل في النهى دخولا أولاً تلك الحالة التي كانت عليها قريش . وقد قال العلماء : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوصه السبب .

و « ثم ، للتفاوت المعنوي بين الإفاضتين - أي الإفاضة من عرفات والإفاضة من مزدلفة - لبيان البعد بينهما ، إذ أن إحداها صواب والأخرى خطأ .

أي : لا تفيضوا من المزدلفة لأنه خطأ جسيم ، واجعلوا أفاضتكم من عرفات لأن هذا العمل هو الصواب الذي يحبه الله ويرضاه .

وقوله « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » معطوف على « أفيضوا من حيث أفاض الناس » ، أي : استغفروا الله من ذنوبكم وبما سلف منكم من أخطاء فإن المؤمن كلما قويت روحه ، وصفت نفسه أحس بأنه مقصر أمام نعم خالقه التي لا تحصى . ومن أكثر من التوبة والاستغفار غفر الله له ما فرط منه ، لأنه - سبحانه - كثير الغفران ، واسع الرحمة .

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عمله بعد فراغهم من أعمال الحج - فقال - تعالى - **وإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم** أو أشد ذكراً .

المناسك : جمع منسك مشتق من نسكاً من باب نصر إذا تعبد . والمراد هنا العبادات التي تتعلق بالحج .

قال ابن كثير : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم - بين مسجد منى وبين الجبل بعد فراغهم من الحج يذكرون فضائل آباءهم - فيقول الرجل منهم . كان أبى يطعم الطعام ويحمل الديات . . . ليس لهم ذكر غير فعال آباءهم فأنزل الله - تعالى - على نبيه صلى الله عليه وسلم - هذه الآية ، (١) .

والمعنى : فإذا فرغتم من عبادتكم ، وأديتم أعمال حجكم ، فتوفروا على ذكر الله وطاعته كما كنتم تتوفرون على ذكر مفاخر آباءكم ، بل عليكم أن تجعلوا ذكركم لله - تعالى - أشد وأكثر من ذكركم لماثر آباءكم ، لأن ذكر مفاخر الآباء إن كان كذباً أدى إلى الخزي في الدنيا والعقوبة في الآخرة . وإن كان صدقاً فإنه في الغالب يؤدي إلى العجب وكثرة الغرور ، أما ذكر الله بإخلاص وخشوع فتوابه عظيم ، وأجره كبير . فضلاً عن ذلك فإن المرء إذا كان لا ينسى آباءه لأنه سبب وجوده فأولى به ثم أولى ألا ينسى الذي خلق آباءه وهو الله رب العالمين .

فالمقصود من الآية الكريمة الحث على ذكر الله - تعالى - والنهي عن التفتاخر بالأحساب والأنساب .

و « أو » هنا في معنى الإضراب والترقى إلى أعلى ، لأنه . . . سبحانه أمرهم أولاً بأن يذكروه ذكراً يماثل ذكرهم لآباءهم ثم ترقى بهم إلى ما هو أعلى من ذلك وأسمى فطالبهم بأن يكبرن ذكرهم له - سبحانه - أكثر وأعظم من ذكرهم لآباءهم .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٣ بتصرف يسير .

قال صاحب الكشاف : وقوله « أو أشد ذكراً » في موضع جر عطف على ما أضيف إليه الذكر في قوله « كذركم » كما تقول كذركم قريش آباءهم أو قوم أشد منهم ذكراً ، أو في موضع نصب عطف على « آباءكم » بمعنى ، أو أشد ذكراً من آباءكم .

وبعد أن أمر - سبحانه - الناس بذكره ، بين أنهم بالنسبة لدعائه وسؤاله فريقان ، أما الفريق الأول فقد عبر عنه بقوله : « فمنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق » .

أى : من الناس نوع يقول في دعائه يا ربنا آتنا ما نرغبه في الدنيا ونحن لا نطلب غيرها ، وهذا النوع ليس له في الآخرة من خلاق ، أى : نصيب وحط من الخير .

وهذا النوع من الناس هو الذي استولى عليه حب الدنيا وشهواتها ومتعها فأصبح لا يفكر إلا فيها ، ولا يهتم إلا بها ، صارفا نظره عن الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب .

والفاء في قوله « فمن الناس » للتفصيل ، لأن ما بعدها تقسيم للناس إلى فريقين .

وحذف مفعول « آتنا » للدلالة على تعميم المطلوب . فهم يطلبون كل ما يمكن أن تصل إليه أيديهم من متاع الدنيا بدون تمييز بين حلال أو حرام . وأما الفرق الثاني فقد عبر - سبحانه - عنه بقوله : « ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار » .

أى : يقولون يا ربنا اعطنا حسنة في الدنيا أى : حالا حسنة في الدنيا تكون معها أبداً ناسليمة ، ونفوسنا آمنة ، ومعيشتنا هيسرة بحيث لا نحتاج إلى أحد سواك ، ولا نذل إلا لك ، وامنحنا حالا حسنة في الآخرة بأ تجعلنا يوم لقائك من رضيت عنهم ، ورضوا عنه . وأبعدنا يوم القيامة من عذاب النار . ولم يذكر - سبحانه - قسماً ثالثاً من الناس وهو الذى يطلب الآخرة فقط ، ولا

يطلب الدنيا ، لأن الإسلام دين لا يرضى لاتباعه أن يفسوا حظوظهم من الدنيا ، ولا يقر الانقطاع عن زينتها التي أخرجها الله لهم ، وإنما يريد لهم أن يكونوا من العاملين بقوله - تعالى - « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

وبين - سبحانه - أن هذا النوع الثاني من الناس قد التمس من خالقه أن يقيه عذاب النار مع أن هذا الدماء مندرج تحت حسنة الآخرة ، وذلك لأن هذا النوع من الناس لقوة إيمانه ، وصفاء وجدانه ، وشدة خشيته من ربه يغلب الخوف على الرجاء ، فهو يستصغر حسناته مهما كثرت بجانب نعم الله وفضله ، ويلج في الدعاء وفي الطلب أملا في الاستجابة .

وقد أجمع العلماء على أن هذه الآية الكريمة من جوامع الدعاء ، وورد في فضل الدعاء بها أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري عن أنس بن مالك قال كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : « اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

وروى ابن أبي حاتم عن عبد السلام بن شداد قال : كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت : إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم . فقال : « اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ، وتحدثوا حتى إذا أرادوا القيام قال : يا أبا حمزة إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور !! إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله ، (١) .

قال الإمام الرازي : اعلم أن الله - تعالى - بين أولا تفصيل مناسك الحج ، ثم أمر بعدها بالذكر فقال : « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ، ثم بين أن الأولى أن يترك ذكر غيره وأن يقتصر على ذكره - سبحانه - ثم بين بعد ذلك كيفية الدعاء فقال « فمن الناس من يقول . . . »

وما أحسن هذا الترتيب فإنه لا بد من تقديم العبادة لكسر النفس وإزالة ظلماتها ثم بعد العبادة لا بد من الاشتغال بذكر الله - تعالى - لتنوير القلب وتجلي نور جلاله . ثم بعد ذلك الذكر يشتغل الرجل بالدعاء ، فإن الدعاء إما يكمل إذا كان مسبوفاً بالذكر كما حكى عن إبراهيم - عليه السلام - أنه قدم الذكر فقال : « الذي خلقني فهو يهدين ، ثم قال : « رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ، فقدم الذكر على الدعاء ، (١) .

ثم بين - سبحانه - جزاء هذا الفريق الثاني فقال : « أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ، .

فاسم الإشارة يعود إلى الفريق الثاني باعتبار اتصافهم بما ذكر من النعوت الجميلة وكافت الإشارة للبعيد لبيان علو منزلاتهم ، وسمو درجاتهم ولم يعطف على ما قبله لأنه كالنتيجة له

وقيل : إن الإشارة تعود إلى الفريقين . أي : لكل من الفريقين نصيب من عمله على قدر ما نواه . ويضعفه أن الله - تعالى - قد ذكر قبل ذلك عاقبة الفريق الأول بقوله « وما له في الآخرة من خلاق ، .

والمعنى : أولئك الذين جمعوا في دعائهم بين طلب حسنى الدنيا والآخرة لهم نصيب جزيل ، وحظ عظيم من جنس ما كسبوا من الأعمال الصالحة ، أو من أجل ما كسبوا من الفعال الطيبة . فحرف الجر « من ، يصح أن يكون للابتداء أو للتبويض .

وفي هذه الجملة الكريمة وعد من الله لعباده أنهم متى تضرعوا إليه بقلب سليم ، أجاب لهم دعاءهم ، وأعطاهم سؤلهم .

قال القرطبي : وقوله « والله سريع الحساب ، من سريع يسرع - مثل عظم يعظم - فهو سريع . و « الحساب ، مصدر كالحاسبة ، وقد يسمى المحسوب حساباً . والحساب : العدد . يقال : حسب يحسب حساباً وحساباً وحساباً

اي : عد .

والمعنى في الآية : أن الله - تعالى - سريع الحساب لا يحتاج إلى عد ولا إلى عقد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحساب ، ولهذا قال وقوله الحق « وكفى بنا حاسبين » . فاته - تعالى - عالم بما للعباد وعليهم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل .

وقيل : سريع المجازاة للعباد بأعمالهم . وقيل لعلي بن أبي طالب : كيف يحاسب الله العباد في يوم ؟ قال : كما يرزقهم في يوم . ومعنى الحساب : تعريف الله عباده مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره إياهم بما قد نسوه . وقيل : معنى الآية سريع بمعنى يوم الحساب ، فالمقصود بالآية الإنذار بيوم : القيامة ، (١) .

وقوله « واذكروا الله في أيام معدودات » معطوف على قوله - تعالى - « فاذكروا الله كذا ذكركم آباءكم أو أشد ذكراً » ، وما بينهما اعتراض . والمراد بالأيام المعدودات أيام التشريق الثلاثة التي بعد يوم النحر . والتشريق : تقديد اللحم .

قال القرطبي : ولا خلاف بين العلماء أن الأيام المعدودات في هذه الآية هي أيام منى ، وهي أيام التشريق ، وأن هذه الثلاثة الأسماء واقعة عليها ، وهي أيام رمي الجمار ، (٢) .

فالآية الكريمة تأمر الحجاج وغيرهم من المسلمين أن يكثروا من ذكر الله في هذه الأيام المباركة ، لأن أهل الجاهلية كانوا يشغلونها بالتفاخر ومغازلة النساء « ويزعمون أن الحج قد انتهى بانتهاء يوم النحر وهو اليوم العاشر من ذي الحجة » .

ولقد بين لنا النبي - صلى الله عليه وسلم - أن هذه الأيام ينبغي أن تعمر بذكر الله وبشكره على نعمه .

روى الإمام مسلم عن نبيشة الخدلي قال : قال رسول الله - ﷺ -
أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله . . .

وروى البخارى عن ابن عمر : أنه كان يكبير بمعنى تلك الأيام ، وخلفه
الصلوات ، وعلى فراشه وفى فسطاطه . وفى مجلسه ، وفى عشاءه ، فى تلك
الأيام جميعاً . . .

ومن الذكر فى تلك الأيام التكبير مع كل حصاة من حصى الجمار كل
يوم من أيام التشريق . فقد أخرج البخارى عن ابن عمر أن النبى - ﷺ -
كبر مع كل حصاة . . .

ويرى جمهور الفقهاء أن هذه الأيام يحرم فيها الصيام ، لأنها أيام أكل
وشرب وذكر لله . . .

والمعنى . اذكروا الله ، أى : كبروه فى أدبار الصلوات وعند ذبح
القرابين ، وعند رمى الجمار وغيرها فى تلك الأيام المعدودات التى هى موسم
من مواسم العبادة والطاعات ، فإن الإكثار من ذكر الله يرفع الدرجات ،
ويمسح السيئات . . .

ثم قال - تعالى - : فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم
عليه لمن اتقى . . . تعجل واستعجل يحيطان مطاوعين بمعنى عجل ، يقال :
تعجل الأمر واستعجل . ويأتیان متعديين فيقال : تعجل الذهاب واستعجله
ويرى الزمخشري أن المطاوعة أوفق لقوله - تعالى - : ومن تأخر . . .

وإيضاح ذلك : أنه يجب على الحاج المبيت بمعنى الليلة الأولى والثانية
من ليالى أيام التشريق ، ليرمى كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة
يرمى عند كل جمرة سبع حصيات . ثم من رمى فى اليوم الثانى وأراد أن
ينقر ويترك المبيت بمعنى فى الليلة الثالثة ورمى يومها بعد الزوال - كما يرى
الشافعية - وبعده أو قبله - كما يرى الحنفية - فلا إثم عليه فى عدم ميبته
بمعنى فى الليلة الثالثة . . .

أى : فمن تعجل فساغر فى اليومين الأوائل فلا إثم عليه فى التعجيل . . .

ومن بقى لى تمام اليوم الثالث فلا لثم عليه كذلك إذا انتهى كل منهما الله ووقف عند حدوده .

فالتقييد بالتقوى للتنبية إلى أن العبرة فى الأفعال إنما هى بتقوى القلوب وطهارتها وسلامتها .

قال الألوسى : وقوله « لمن اتقى » خبر لمبتدأ محذوف ، واللام إما للتعليل أو للاختصاص .

أى : ذلك التخخير المذكور لأجل المتقى لئلا يتضرر بترك ما يقصده من التعجيل والتأخر أو ذلك المذكور من أحكام مطلقاً مختصه بالمتقى لأنه هو الحاج على الحقيقة . والمراد من التقوى على التقديرين تجنب ما يؤثم من فعل أو ترك (١)

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - « واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ، اتقوا الله فى كل ما تأتون وما تذررون ، واعلموا أنكم ستجمعون بعد تفرقكم وتساقون إلى خالقكم يوم القيامة ليجازيكم على أعمالكم .

وقد ختمت الآيات التى تحدثت عن فريضة الحج بهذا الختام المكون من عنصرين أحدهما تقوى الله والثانى العلم اليقينى بالعرش ، للإشعار بأنهما خلاصة التدين ، وثمرة العبادات بكل أنواعها وكل طرقها ، وإذا خلت أية عبادة من هذين العنصرين كانت صورة لا روح فيها .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد سافت لنا بعض أحكام الحج وآدابه ومماسكه بأسلوب يهدى القلوب ، ويسعد النفوس ، ومن شأن من يعمل بهذه الآيات أن يكون ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وبعد أن بين - سبحانه - فريضة الحج وما اشتملت عليه من أحكام وآداب ، وبين أصناف الناس فى أدعتهم التى تكشف عن خبايا قلوبهم ، ومعادن نفوسهم ، بعد أن بين ذلك أعقبه بالحديث عن صنفين من الناس فقال :

وَمِنْ

النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي
 قَلْبِهِ ، وَهُوَ الَّذِي الْخَصَمَ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ
 فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ
 لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلِبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾
 وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ
 بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

فأنت ترى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت صنفين من الناس ، أولهما :
 يمثل الأشرار والثاني : يمثل الأخيار .

أما الصنف الأول فقد وصفه الله - تعالى - بخمس صفات ، الصفة
 الأولى حكاها في قوله : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ،
 يعجبك : من الإعجاب بمعنى الاستحسان ، تقول : أعجبني هذا
 الشيء ، أي ، استحسنته وعظم في نفسي . و « من » للتبويض :

والمعنى : ومن الناس فريق يروقك منطوقهم ، ويعجبك ببيانهم ، ويحسن
 عندك مقالهم . فأنت معجب بكلامهم الحلو الظاهر ، المر الباطن ، وأنت في
 هذه الدنيا لأنك تأخذ الناس بظواهرهم ، أما في الآخرة فلن يعجبك أمرهم
 لأنهم ستتكشف حقائقهم أمام الله الذي لا تخفى عليه خافية ، وسيعاقبهم
 عقاباً أليماً لإظهارهم القول الجميل وإخفائهم الفعل القبيح .
 وعلى هذا التفسير يكون قوله « في الحياة الدنيا » متعلقاً بـ « يعجبك » .

وبعضهم يجعل قوله « في الحياة الدنيا » متعلقاً بالقول فيكون المعنى عليه
 « ومن الناس فريق يعجبك قولهم إذا ما تكلموا في شؤون الدنيا ومتعها لأنها

منتهى آمالهم ، ومبلغ علمهم ، وأصل حبههم ، ومن أحب شيئاً أجاد التعبير عنه ، أما الآخرة فهم لا يحسنون القول فيها ، لأنهم لا يهتمون بها ، بل هم غافلون عنها ، ومن شأن الغافل عن شيء ألا يحسن القول فيه .

ويبدو لنا أن تعلق الجار والمجرور بـ «عجبتك أرجح» ، لأنه يتفق مع السياق إذ سياق الحديث في شأن الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، ويخدعون الناس بمعسول بياضهم مع أن نفوسهم مريضة ، وليس في شأن الذين يحسنون الحديث عن شئونها المختلفة ، بل إن بعض الذين يحسنون الحديث في شئون الدنيا لم يضيئوا أخراهم وإنما عمروها بالعمل الصالح ، فهم جامعون بين حسنى الدنيا والآخرة .

والصفحة الثانية من صفات هذا النوع المنافق من الناس بينه القرآن بقوله : « ويشهد الله على ما في قلبه » أى : يقرن معسول قوله ، وظهر تودده ، بإشهاد الله على أن ما في قلبه مطابق لما يجرى على لسانه .

وكان هذا النوع المنافق قد رأى من الناس تشككاً في قوله ، لأن من عادة المنافقين أن يبدر من فلتات لسانهم ما يدل على ما هو مخبوء في نفوسهم فأخذ يوثق قوله بالإيمان الباطلة بأن يقول لمن ارتاب فيه : الله يشهد أنى صادق فيما أقول . . إلى غير ذلك من الأقوال التى يقصد بها تأكيد قوله وصدقه فيما يدعيه ، فالمراد بإشهاد الله : الحلف به أن ما في قلبه موافق لقوله .
وجملة « ويشهد الله » حالية أو مستأنفة أو معطوفة على قوله بـ «عجبتك» .

وقوله - تعالى - « وهو ألد الخصام » صفة ثالثة من صفات هذا النوع من الناس .

قال القرطبي : الألد : الشديد الخصومة والعداوة . . ولدته - بفتح الدال - الده - بضمها - إذا جداته فقلبتة . والألد مشتق من اللددين وهما صفحتا العنق ، أى : فى أى جانب أخف من الخصومة غلب . والخصام فى الآية مصدر خاصم . وقيل جمع خصم كصعب وصعاب . والمعنى ،

تُشَدُّ لِمُخَاصِمِينَ خِصُومَهُ ، وَفِي صَحِيحِ مُسْنَدِ عَنْشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - « إِنْ أَبْغَضَ الرَّجُلُ إِلَى اللَّهِ الْآلِدَ الْخَصْمَ » (١) .

أى : أن هذا النوع من الناس يثير الإعجاب بحسن بيانه ، ويضللهم بحلاوة لسانه ، ويخلف بالإيمان المغالطة أنه لا يقول إلا الصدق ، ويجادل عما يقوله بالباطل بقوة وعنف ومغالبة ، فهو بعيد عن طباع المؤمنين الذين إذا قالوا صدقوا ، وإذا جادلوا اتبعوا أحسن الطرق وأهداها .

ثم وصفه الله - تعالى - بصفة رابعة فقال : « وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ » .
تولى : من التولية بمعنى الإدبار والانصراف ، ومتعلق تولى محذوف تقديره : تولى عنك .

وسعى : من السعى وهو الشئ السريع وهو مستعار هنا لإيقاع الفتنة والتخريب . والفساد كما قال الراغب - خروج الشئ عن الاعتدال قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً ، وبضاده الإصلاح يقال فسد فساداً وفسوداً إذا خرج عن الإستقامة (٢) .

والحرث : مصدر يحرث ، أى : أثار الأرض لإعدادها للزراعة ، ثم أطلق وأريد به المحرث وهو الأرض ، ثم أطلق وأريد به ما يترتب على ذلك من الزروع والثمار وهو المراد هنا .

والنسل : - كما يقول القرطبي - ما خرج من كل أنثى من ولد . وأصله الخروج والسقوط ، ومنه نسل الشعر ينسل إذا سقط . ومنه دحتى إذا فتحت بأجوج وما جوج وهم من كل حذب ينسلون ، أى : يخرجون مسرعين

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٦ .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٣٧٩ للراغب الأصفهاني .

والمعنى : وإذا عرض عنك هذا النوع من الناس وولاك دبره أسرع
تتلف الإفساد بينهم ، وتفريق كلمتهم ، وإتلاف كل ما يقع تحت يده من الزروع
والثمار والحيوان وما به قوام الحياة والأحياء .
فإهلاك الحرث والنسل كناية عن إتلافه لما به قوام أحوال الناس
ومعيشتهم ، وعن إيذائه الشديد لهم .

وبعض العلماء يرى أن «تولى» مشتق من الولاية : يقال : ولى البلد
سوتولاه ، أى صار والياً له ، أميراً عليه . والمعنى على هذا الرأى .

وإذا صار والياً على قوم هذا النوع من الناس اجتنبهم إليه ببريق قوله ،
ويعمسون لفظه ، وبأيمانه الفاجرة ، وبجادته الباطلة ، حتى إذا ما التفت الناس
حولهم سمى بينهم بالفساد ، وعمل على تقاطعهم وتباغضهم ، وحكم فيهم
بالباطل ، ظاناً منه أن هذا الخلق وذلك السلوك سيجمع لهم دائماً طوع وإرادته .
قال الإمام الرازى : والقول الأول أقرب إلى نظم الآية ، لأن المقصود
تبيان نفاق هذا النوع من الناس ، وهو أنه عند الحضور يقول الكلام الحسن
ويظهر المحبة ، وعند الغيبة يسمى فى إيقاع الفتنة والفساد (١) .

وقوله « والله لا يحب للفساد ، أى لا يرضى عن الذى منه الإفساد فى
الأرض ، ويظهر للناس الكلام الحسن وهو يبطن لهم الفعل القبيح » ، لأنه
- سبحانه - أوجد الناس ليصالحوا فى الأرض لا ليفسدوا فيها . فالجمل للكرامة
تحفيز منه - سبحانه - للمفسدين ، ووعيد لهم على خروجهم عن طاعته .
أما الصفة الخامسة لهذا النوع من الناس فهى قوله - تعالى - « وإذا قيل
له اتق الله أخذته العزة بالإثم » . أى : ، وإذا قيل لهذا المنافق «على سبيل
النصح والإرشاد اتق الله واترك ما أنت فيه من نفاق وخداع وخروج
- عن طاعة الله ، استولت عليه العزة - أى حبة الجاهلية - مقترنة بالإثم
بوصفا حبة له ، فهى ليست للأمة المحمودة ولتكنها الكبرياء المفقوضة .

(١) تفسير للنخبر الرازى ج ٥ ص ٢١٩ .

والبلاء على هذا المعنى للصاحبة والاعتراف .
 قال الجمل . والبلاء على هذا تكون في عمل نصب على الحال وفيها .
 حينئذ وجهان . أحدهما : أن تكون حالا من العزة أى ملتبسة بالإثم والثاني :
 أن تكون حالا من المفعول . أى ، أخذته حال كونه ملتبسا بالإثم وفقوله .
 العزة بالإثم التتميم وهو نوع من علم البديع ، وهو عبارة عن إرداف الكلمة
 بأخرى ترفع عنها اللبس وتقر بها من الفهم ، وذلك أن العزة تكون محمودة
 ومذمومة فمن عيبتها محمودة قوله - تعالى - والله العزة وأرسوله وللمؤمنين -
 فلو أطلقت لتوهم فيها بعض من لا دراية له أنها محمودة ، فقليل بالإثم توضيحاً
 للمراد فرفع اللبس ، ويجوز أن تكون البلاء للتعدي - وهو قول الزخشرى -
 فإنه قال : أخذته بكذا إذا حملته عليه وأزمته إياه . أى : حملته العزة
 التى فيه وحمية الجاهلية على الإثم الذى ينهى عنه وأزمته ارتكابه ،
 ويجوز أن تكون للسببية بمعنى أن لئمة كان سبباً لأخذ العزة له ، (١) .
 أى : استولت عليه حمية الجاهلية بسبب الإثم الذى استحوز على
 قلبه فأفساه كل ما يوصل إلى الصلاح والاستقامة .

و د آل ، فى العزة للعهد . أى : العزة المعهودة المعروفة عند أهل
 الجاهلية التى تمنع صاحبها من قبول النصيحة .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده مرجحاً ما ذهب إليه من أن د تولى ،
 بمعنى الولاية والإمارة : وهذا الوصف ظاهر جداً فى تفسير التولى بالولاية
 والسلطة ، فإن الحاكم الظالم المستبد يكبر عليه أن يرشد إلى مصلحة ، أو
 يحذر من مفسدة ، لأنه يرى أن هذا المقام الذى ركبه وعلاه يجعله أعلا
 الناس رأياً وأرجحهم عقلاً ، بل الحاكم المستبد الذى لا يخاف الله - تعالى -
 يرى نفسه فوق الحق كما أنه فوق أهله فى السلطة ، فيجب أن يكون أفن رأيه
 خيراً من جودة آرائهم ، وإفساده نافذاً مقبولاً دون إصلاحهم ، فكيف

يجوز لأحد منهم أن يقول له : اتق الله في كذا . . . (١) .
ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من هذه صفاته فقال : فحسبه
جهنم ولبئس المهاد .

الفاء هنا الإيضاح ، لأنها تفصح عن شرط محذوف تقديره : إذا
كانت هذه حالة المعرض عن النصح أنفة وتكبراً ، فحسبه جهنم ، أى :
كافيه جهنم جزاء له ، ولبئس المهاد ، أى : ولبئس الفراش الذى يستقر
عليه بسبب غروره وفجوره .

وقوله ، فحسبه جهنم ، جملة من مبتدأ وخبر ، وقوله ، ولبئس المهاد ،
جواب قسم مقدر . أى : والله . والمخصوص بالذم محذوف لظهوره
وتعيينه وهو جهنم . والمهاد جمع مهد وهو المكان المهيأ للنوم ، والتعبير عن
جهنم بالمهاد من باب التهكم والاستهزاء بهذا النوع المغرور المفسد من الناس
هذا وقد أورد بعض المفسرين روايات فى سبب نزول هذه الآيات منها
أنها نزلت فى الأخنس به شريك الثقة فى أقبل على النبى (صلى الله عليه وسلم) .
فاظهر الإسلام وزعم أنه يحبه وأقسم بالله على ذلك ، غير أنه كان منافقاً
خبثت الباطن ، فخرج من عند النبى (صلى الله عليه وسلم) فر بزرع لقوم
من المسلمين فأحرق الزرع وقيل بعض الماشية فنزلت .

قال الإمام الرازى ما يخصه بعد أن ساق هذه الرواية وغيرها واختيار
أكثر المحققين من المفسرين أن هذه الآيات عامة فى حق كل من كان موصوفاً
بهذه الصفات المذكورة . . . ولا يمتنع أن تنزل الآية فى الرجل ثم تكون عامة
فى كل من كان موصوفاً بتلك الصفات ، ونزولها على السبب الذى حكيناها
لا يمنع من العموم ، بل نقول فيها ما يدل على العموم وهو من وجوه . أحدها :
أن ترتب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية ، فلما ذم الله تعالى -
قوماً وصفهم بصفات توجب استحقاق الذم ، علمنا أن الموجب لتلك الذممة

هو تلك الصفات ، فيلزم أن كل من كان موصوفا بتلك الصفات أن يكون مستوجبا للذم . وثانيتها : أن الحمل على العموم أكثر فائدة ، وذلك لأنه يكون زجراً لكل المكلفين عن تلك الطريقة المذمومة . وثالثها : أن هذا أقرب إلى الاحتياط ، لأننا إذا حملنا الآية على العموم دخل فيه ذلك الشخص ، وأما إذا خصصناه بذلك الشخص لم يثبت الحكم في غيره ، فثبت بما ذكرنا أن حمل الآية على العموم أولى ، (١) .

هذا ، وفي هذه الآيات الكريمة زجر شديد ووعد أليم ، للمنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون ، ويكادون بسطون بالذين ينصحوهم ويتلون عليهم آيات الله ، لأن المنافقين ما كثروا في أمة إلا وجدوا بأسسها بينها شديداً . روى ابن جرير عن نوف البكالي قال : إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل : قوم يمتثلون على الدنيا بالدين ، أسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر . يلبسون للناس مسوك - أي جلود - الضأن ، وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله - تعالى - فعلى يفترون وبى يفترون ، خالفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنه تعرك الحليم حيران ، :

قال ابن كثير : قال القرطبي الذي روى هذا القول عن نوف : تدبرت هذه الصفات في القرآن فإذا هي في المنافقين ، ووجدتها في قوله - تعالى -
 > ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا . . . (٢) .

والحق أنه ما ابتليت أمة بنفسى هذا النوع من الناس فيها إلا فسد حالها ، وهان شأنها ، وكانت عاقبة أمرها خمرا .

أما النوع الثاني من الناس وهم الأخيار الصادقون فقد عبر عنهم القرآن بقوله - تعالى - > ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد ، :

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٥ ص ٢١٦

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٦ .

(يشرى نفسه، أى : يبيعهما ببذلها في طاعة الله وإعلاء كلمته ، وتحقيقه أن المكلف قد بذل نفسه بمعنى أنه أطاع الله - تعالى - وحافظ على فرائضه ، وجاهد في سبيله ، من أجل أن ينال ثواب الله ومرضاته ، فكان ما بذله من طاعات بمثابة الساعة ، وكان هو بمنزلة البائع ، وكان قبول الله - تعالى - منه ذلك وإثابته عليه في معنى الشراء .

وقوله : ابتغاء مرضاة الله ، الابتغاء الطلب الشديد للشئ ، وهو الرغبة القوية في الحصول عليه . وهو في الآية مفعول لأجله .
أى : ومن الناس نوع آخر قد باع نفسه وبذلها في طاعة الله طلباً لرضوانه ، وأمل في مثوبته وغفرانه .
فهذا النوع التقى المخلص من الناس ، يقابل النوع المنافق المفسد الذي سبق الحديث عنه .

قال بعضهم : وكان مقتضى هذه المقابلة أن يوصف هذا الفريق الثاني بالعمل الصالح مع عدم الدعوى والتبجح بالقول ، أو مع مطابقة قوله لعمله وموافقة لسانه لما في قلبه . والآية قد تضمنت هذا الوصف وإن لم تنطق به ، فإن من يبيع نفسه لله لا ينبغي ثمناً لها سوى مرضاته ولا يتحرى إلا العمل الصالح وقول الحق مع الإخلاص في القلب فلا يتكلم بلسانين ولا يقابل الناس بوجهين . ويكون هو المؤمن الحق الذي يعتدل القرآن بإيمانه ، (١) وقال أحد العلماء : ومرضاة مصدر ميمي بمعنى الرضا . ولا شك أن التعبير بالمصدر الميمي دون المصدر الأصلي له معنى يدركه السامع بذوقه ، ولم نجد النحويين ولا البلاغيين تعرضوا لبيان التفرقة بين المصدر الميمي وغيره والذي يتبدى لنا ونظننه تفرقة بينهما ، أن المصدر الميمي يصور المعنى المصدري واقعاً قائماً متحققاً في الوجود ، أما المصدر غير الميمي فيصور المعنى مجرداً فإذا كانت كلمة مقال بمعنى القول ، فإن التعبير بالقول يصور معنى مجرداً

من غير نظر إلى كونه تحقق وجوده أولاً . أما كلمة مقال فتصور معنى وجود
وتحقق ، أو في صورة الموجود المتحقق ، وعلى ذلك معنى « ابتغاء مرضاة الله »
أنهم يبيعون أنفسهم طالبين طلباً موثقاً رضا الله - سبحانه - حقيقة واقعة
مؤكدة ، ويتصورون رضاه - سبحانه - حقيقة قائمة قد حلت بهم ، فيشتد
طلبهم وافتدائهم للحق بأموالهم وأنفسهم ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله - والله روف بالعباد ، أى ، رفيق رحيم
بهم ، ومن مظاهر ذلك أنه لم يكنهم بما هو فوق طاقتهم ، وإنما كلفهم
بما تطيقه نفوسهم ، وأنه أسخ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة في الدنيا مع تقصيرهم
فيما أمرهم به أو نهاهم عنه ، وأنه كافأهم بالنعيم المقيم على العمل القليل ،
وأنه جعل العاقبة للمتقين لا للمفسدين ، إلى غير ذلك من مظاهر رأفته التي
لا تحصى .

هذا ، وقد أورد المفسرون روايات متعددة في سبب نزول هذه الآية منها
أنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة
منعه المشركون أن يهاجر بماله ، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر أذنيه ،
فتخلص منهم وأعطاهم ماله فأزل الله فيه هذه الآية . فتلقاه عمر بن الخطاب
وجامعة إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع يا صهيب ، فقال لهم وأنتم
فلا أحسر الله تجارتكم وما ذاك ؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية .
ويروى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال له عندما رآه « ربح البيع ،
ربح البيع مرتين » ، (٢) .

وهناك روايات أنها نزلت فيه وفي عمار بن ياسر وفي خباب بن الارت
وفي غيرهم من المؤمنين المجاهدين .

(١) تفسير الآية التكريمة لفضلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة - بمجلة
لواء الإسلام . السنة الخامسة - العدد الخامس ،

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٧ .

والذي نراه - كما سبق أن بينا - أن الآية الكريمة تتناول كل من أطاع الله - تعالى - وبذل نفسه في سبيل إعلاء كلمته ، ويدخل في ذلك دخولا أوليا حين نزلت فيهم الآية ، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يرى جمهور العلماء .

وبذلك نرى أن الآيات الكريمة قد بينت لنا نوعين من الناس ، أحدهما خاسر ، والآخر رابح ، لكي نفتح طريق الراحين ، ونهجر طريق الخاسرين ، ومن تزكى فإنما يتركي لنفسه وإلى الله المصير .

وبعد أن عرض القرآن هذين النوعين اللذين نجدهما في كل زمان ومكان ، وجه نداء إلى المؤمنين دعاهم فيه إلى الاستجابة التامة لحالهم . فقال - تعالى - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَدْعُوا

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢١٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا

جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢١٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ

إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢٢٠﴾ سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَرَّمَاءَ تَيْنَهُمْ مِنْ

ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ ﴿٢٢١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنْ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ

يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٢٢﴾

« السلم » - بكسر السين وفتحها مع إسكان اللام - بمعنى واحد، ويطلقان على الإسلام وعلى المسالمة. وبعضهم فرق بين اللفظين فجعل « السلم » بكسر السين - الإسلام، و« السلم » - بفتحها - للمسالمة، وأنكر المبرد هذه التفرقة.

قال الفخر الرازي: وأصل هذه الكلمة من الانقياد. قال - تعالى -
 « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ». والإسلام إما سمي إسلاماً
 لهذا المعنى. وغلب اسم السلم على الصلح وترك الحرب. وهذا أيضاً راجع
 إلى هذا المعنى؛ لأن عند الصلح يتقاد كل واحد إلى صاحبه (١).
 و« كافة » أى جميعاً. وهى فى الأصل صفة من كف بمعنى منع، واستعملت
 بمعنى الجملة والجميع بعلاقة أنها مانعة من التفرق وهى حال من قوله « السلم » -
 أى: يأبى المؤمنون ادخولوا فى الإسلام والتزموا بكل تعاليمه، ونفذوا جميع
 أحكامه وآدابه، واعمولوا بكل أوامره ونواهيه، ولا تكونوا ممن يؤمنون
 ببعض الكتاب ويكفرون ببعض. فالمقصود التزام جميع شرائع الإسلام
 وأحكامه وآدابه.

وبعضهم يرى أن قوله « كافة » حال من فاعل ادخولوا وهو ضمير الجماعة
 والمعنى عليه: ادخلوا فى الإسلام جميعاً، وانقادوا لأحكامه بجموعين غير
 متفرقين، لأنه الدين الذى ألف الله به بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً
 وسواء أكان لفظ « كافة » حالاً من « السلم » أو من فاعل « ادخلوا » -
 فالمقصود من الآية دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع شعب الإسلام وشرائعه
 مع التزامهم برباط الإخاء الذى ربط الله به بين قلوبهم بسبب اتباعهم لهذا
 الدين الحنيف.

وإذا كان المراد بكلمة « السلم » المسالمة والمصالحة كان المعنى: يأبى
 الذين آمنوا إن إيمانكم يوجب عليكم فيما بينكم أن تكونوا متصالحين غير

متعادين ، متحابين غير متباغضين ، متجمعين غير متفرقين ، كما أنه يوجب عليكم بالنسبة لغيركم ممن هو ليس على دينكم أن تسالموه متى سالمكم ، وأن تحاربوه متى اعتدى عليكم ، فإن دينكم ما جاء للحرب والخصام وإنما جاء للهداية وللسلام العزيز القوي الذي يرد الاعتداء بمثله .
هذا هو المعنى الذي نراه ظاهراً في الآية ، وهو ما سار عليه المحققون

من المفسرين .

وبعضهم ذكر أن الخطاب في الآية لمؤمني أهل الكتاب ، لما روى عن عياض أنه قال : نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه ، وذلك أنهم حين آمنوا بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وآمنوا بشرائعه وشرائع موسى عليه السلام - فغظموا السبب وكرهوا اللحم الإبل والباها بعد أن أسلموا ، فأفكر عليهم المسلمون ، فقالوا ، إنا نقوى على هذا وهذا ، وقالوا للنبي - ﷺ - إن التوراة كتاب الله فدعنا فلنعمل بها فأنزل الله هذه الآية .
فالخطاب لمؤمئي أهل الكتاب ، (١) .

وبعضهم ذكر أن المراد بالآية المنافقون والتقدير : يأبها الذين آمنوا بأستهم ادخلوا بكايتكم في الإسلام ولا تتبعوا خطوات الشيطان .
وهذان القولان ضعفاً ظاهراً ، إذ لا سند لهما يعتمد عليه ، ولا يؤيدهما سياق الآية الكريمة ، لأن الآية الكريمة صريحة في دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع تعاليم الإسلام ، ولله الإخاء الجامع ونبد التفرق والاختلاف والاعتداء .

وقوله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، تحذير لهم عما يصددهم عن الدخول في السلم .
أى : أدخلوا في السلم واحذروا أن تتبعوا مدارج الشيطان وطرقه .
إنه إنكم عدو ظاهر العداوة بحيث لا تخفى عداوته على عاقل .

والخطوات . جمع خطوة - بفتح الخاء وضمها - وهى ما بين قدمى من يخطو .

وفى قوله ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إشعار بأن الشيطان كثير أما يعجز الإنسان إلى الشر خطوة فخطوة ودرجة فدرجة حتى يجعله يألفه ويقتممه بدون تردد ، وبذلك يكون ممن استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . والعامل من الناس هو الذى يعتمد عن كل ما هو - ومن زعات الشيطان ووساوسه ، فإن صغير الذنوب قد يوصل إلى كبيرها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

وقوله ، إنه لكم عدو مبين ، جملة تعليلية ، مؤكدة للنهى ومبينة لحكمته وقوله ، فإن زلتم من بعدما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ، تقرير على النهى ، وترهيب من العقاب الذى سيصيب المتبعين للشيطان . قال القرطبي : وأصل الزلل فى القدم ، ثم استعمل فى الاعتقادات والآراء وغير ذلك .

يقال : زل يزل زلا وزلولا وزلولا ، أى : دحضت قدمه ، . والبيئات : جمع بيعة ، وهى الأدلة والمعجزات ، ومجبتها : ظهورها . والمعنى : فإن تنحيتم عن طريق الحق ، وعدلتم عنه إلى الباطل ، من بعد أن ظهرت لكم الأدلة المفرقة بين الصواب والخطأ ، والتى تدعوكم إلى اتباع طريق الحق ، فاعلموا أن الله عزيز ، لا يقهر ولا يعجزه الانتقام من زل حكيم ، لا يعرف ما تقتضيه الحكمة وإنما يضع الأمور فى مواضعها . وجى فى الشرط بيان ، لندرة حصول الزلل من المؤمنين ، إذ الشأن فيهم ذلك .

وقوله ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم ، جواب الشرط . وقوله ، من بعد ما جاءكم البينات ، قطع لعذرهم حتى لا يقولوا يوم الحساب إتنا زلنا لأننا لا نعرف الحق من الباطل . وفى الآية دليل على أن عقوبة العالم بالذنوب أعظم من عقوبة الجاهل به - كما قال القرطبي . -

وقال الفخر الرازي ما ملخصه : وقوله « فاعلموا أن الله عزيز حكيم »
 نهاية في الوعيد ، لأنه يجمع من ضروب الخوف ما لا يحجمه الوعيد بذكر
 العقاب . وربما قال الوليد لولده : إن عصيتني فأنت عارف بي وأنت تعلم
 قدرتي عليك وشدة سطوتي . فيكون هذا الكلام في الزجر أبلغ من ذكر الضرب
 وغيره . فإن قيل : أفهذه الآية مشتملة على الوعد كما أنها مشتملة على الوعيد؟
 قلنا : نعم من حيث أتبعه بقوله « حكيم » ، فإن اللائق بالحكمة أن يميز بين
 المحسن والمسيء ، فكما يحسن من الحكيم لإبصال العذاب إلى المسيء فكذلك
 يحسن منه لإبصال الثواب إلى المحسن ، بل هذا أليق بالحكمة وأقرب للرحمة ، (١)
 وبعد أن أمر الله المؤمنين بالدخول في السلم كافة ، ونهاهم عن الزلل
 عن طريقه المستقيم ، عقب ذلك بتهديد الذين امتنعوا عن الدخول
 في السلم فقال : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل... »

ينظرون : أى ينتظرون . يقال : نظرته وانتظرته بمعنى واحد .

وظلل : جمع ظلة كظلم جمع ظلمة . وهى ما أظلمك من شعاع
 الشمس وغيره .

والغمام : اسم جنس جمعى لغمامة ، وهى السحاب الرقيق الأبيض ،
 جمى بذلك لأنه يغم ، أى يستر . ولا يكون الغمام ظلة إلا حيث يكون
 مقرا كبا والاستفهام للإعجاب والنوبيخ .

والمعنى : ما ينتظر أولئك الذين أبوا الدخول في الإسلام من بعد ما جاءتهم
 البينات ، إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة في ظلل كأنه من الغمام الكشف العظيم
 ليحاسبهم على أعمالهم ؛ وتأتيهم ملائكته الذين لا يعلم أكثرهم إلا هو - سبحانه -
 وإتيان الله - تعالى - إنما هو بالمعنى اللائق به - سبحانه - مع
 تنزيله عن مشاهة الحوادث ، وتفويض علم كيفية إليه - تعالى - .
 وهذا هو رأى علماء السلف .

وقوله ، و قضى الأمر ، معناه على هذا الرأى : أنتم - سبحانه - أمر
 العباد وحسابهم فأثبت الطائع وعوقب العاصي ، ولم تعد لدى العصاة فرصة
 للتوبة أو تدارك ما فاتهم . وقد ارتضى هذا الرأى عدد من المفسرين منهم
 ابن كثير فقد قال فى معنى الآية : يقول الله - تعالى - مهدياً للكافرين
 بمحمد (صلى الله عليه وسلم) هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من
 الغمام والملائكة ، يعنى : يوم القيامة تفصل القضاء بين الأولين والآخرين ،
 فيجزى كل عامل بعمله : إن خيراً فخير وإن شراً فشر ۱ ۱ ولهذا قال
 - تعالى - « وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ، (۱) .
 أما علماء الخلف فيقولون إتيان الله بما يتناسب مع ذاته - سبحانه - ،
 ولذا فسروا إتيانه بأمره أو بأمره فى الدنيا .

وقد عبر صاحب الكشاف عن وجهة نظر هؤلاء بقوله : « إتيان الله :
 إتيان أمره وبأمره كقوله ، أو يأتي أمر ربك ، « فجاءهم بأمرنا ، ويجوز
 أن يكون للمأتى به محذوفاً ، يعنى أن يأتيهم الله ببأسه أو بنعمته للدلالة عليه
 بقوله - قبل ذلك - « فإن الله عزيز حكيم » . فإن قلت : لم يأتيهم العذاب فى
 الغمام ؟ قلت : لأن الغمام مظنته الرحمة ، فإذا نزل منه العذاب كان الأمر
 أفظح وأهول ؛ لأن الشر إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أغم كما أن الخير
 إذا جاء من حيث لا يحتسب كان أهدى ، فكيف إذا جاء الشر من حيث يحتسب
 الخير ؛ ولذلك كانت الصاعقة من العذاب المستفطع لمحيثها من حيث يتوقع
 الغيب : « وقضى الأمر ، أى : تم أمر إهلاكهم وتدميرهم وفرغ منه ، (۲) .
 وقال الجبل ما ملخصه : وقوله « إلا أن يأتيهم الله » استئناف مفرغ من
 مقدر ، أى ليس لهم شئ - ينظرونه إلا إتيان العذاب وهذا مبالغته فى توبيخهم .
 وقوله : « والملائكة ، بالرفع عطفاً على اسم الجلالة أى ، وتأتيهم الملائكة -
 فإنهم وسائط فى إتيان أمره - تعالى - ، بل هم الآتون ببأسه على الحقيقة .

(۱) تفسير ابن كثير ج ۱ ص ۲۴۸ .

(۲) تفسير الكشاف ج ۱ ص ۲۵۳ .

وقرأ الحسن وأبو جعفر : والملائكة بالجر عطفاً على ظلل أي ، إلا أن بأنهم في ظلل وفي الملائكة . وقوله دو قضي الأمر ، فيه وجهان : أحدهما أن يكون معطوفاً على بأنهم داخل في حيز الإنتظار ويكون ذلك من وضع الماضي موضع المستقبل والأصل بقضي الأمر ؛ وإنما جيء به كذلك لأنه محقق كقوله : أتى أمر الله . والثاني أن يكون جملة مستأنفة برأسها أخبر الله - تعالى - بأنه قد فرغ من أمرهم فهو من عطف الجمل وليس داخل في حيز الإنتظار ، (١) . ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله دو إلى الله ترجع الأمور ، أي إليه وحده - سبحانه - لا إلى غيره ولا إلى أحد معه ، تصير الأمور خرها وشرها وسيجازي الذين أساءوا بما عملوا وسيجازي الذين أحسنوا بالحسنى . فالجملة الكريمة تدل على قصد به تأكيده قضاء أمره ، ونفاذ حكمه ، وتمام قدرته .

ثم بين - سبحانه - أن كفر الكافرين ليس سببه نقصان الدليل على صحة الإيمان المؤمنين ، وإنما سببه الجحود والجحد وإثارة الهوى على الهدى ، بدليل أن بنى إسرائيل قد آتاهم الله آيات بينات تهدي إلى الإيمان ومع ذلك كفروا بها . استمع إلى القرآن وهو بصدد موقفهم بعد تهديده للكافرين في الآية السابقة فيقول :

قال الفخر الرازي : اعلم أنه ليس المقصود : سل بنى إسرائيل ليخبروك عن تلك الآيات فتعلمها ؛ وذلك لأن الرسول (صل الله عليه وسلم) كان عالماً بتلك الأحوال بإعلام الله - تعالى - إياه ، بل المقصود منه المبالغة في الزجر عن الإعراض عن دلائل الله - تعالى - .

أي : سل هؤلاء الحاضرين أنا لما آتينا أسلافهم آيات بينات فأنكروها ، لا جرم استوجبوا العقاب من الله - تعالى - ، وذلك تنبيه هؤلاء الحاضرين على أنهم لو زلوا عن آيات الله لوقعوا في العذاب كما وقع أولئك المتقدمون

فيه . والمقصود من ذكر هذه الحكاية أن يعتبروا بغيرهم (١) .
 و « سل » فعل أمر من سأل وأصله إسأل فنقلت فتحة الهمزة إلى السين .
 قبلها وصارت ساكنة فحذفت . ولما فتحت السين لم يكن هناك حاجة إلى
 همزة الوصل فحذفت أيضاً .

و « كم » ، إما خبرية والمسئول عنه محذوف ، والجملة ابتدائية لا محل
 لها من الإعراب مبينة لاستحقاقهم التقرير والتوبيخ . كأنه قيل « سل
 بنى إسرائيل » عن طغيانهم ووجودهم للحق بعد وضوحه فقد آتيناكم آيات
 كثيرة بيّنة ومع ذلك أعرض كثير منهم عنها .

وإما استفهامية والجملة في موضع المفعول الثاني لقوله « سل » وقيل :
 في موضع المصدر ، أى : سألهم هذا السؤال . وقيل : في موضع الحال .
 أى : سألهم قائلاً كم آتيناكم .

والاستفهام للتقرير بمعنى حمل المخاطب على الإقرار - بأنه قد خاف
 ما تقتضيه الآيات من الإيمان بالله - تعالى . -

فالمراد بهذا السؤال تقريرهم على وجودهم الحق بعد وضوح الآيات
 لا معرفة لإجاباتهم كما إذا أراد واحد منا توبيخ أحد فيقول لمن حضره :
 سله كم أنعمت عليه ؟

وهن الآيات البينات والمعجزات الواضحات التى أظهرها الله - تعالى -
 لبنى إسرائيل على أيدي أنبيائهم ليؤمنوا بهم : عصا موسى التى ألقاها فإذا
 هى حية تسعى ؛ والثى ألقاها فإذا هى تلقف ما صنعته السحرة ، والثى ضرب
 بها البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، إلى غير ذلك من الآيات
 الدالة على وحدانية الله وصدق من جرت على يده هذه الخوارق ، ومع
 ذلك فمنهم من قال لموسى « أرنا الله جهرة » ومنهم من كفر وعبد العجل . -
 ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الجاحدين لآياته فقال : « ومن يبدل
 نعمة الله من بعد ما جاءتة فإن الله شديد العقاب » .

التبديل : جعل شيء بدلاً عن آخر ، ونعمة الله هنا تتناول آياته الدالة على صدق رسوله ، كما تتناول ما أسبغته الله على عباده من صحة ومال وعقل وغير ذلك من نعمه الظاهرة والباطنة .

أى : ومن يبذل نعم الله بعد ما وصلت إليه واتضح له ، بأن كفر بها مع أنها تدعو إلى الإيمان ، ووجد فضلها مع أنها تستلزم منه الشكر لمسيديها من يبذل ذلك التبديل فإن الله سيعاقبه عقاباً شديداً .

وقوله « من بعد ما جاءته ، زيادة توبيخ لهم ، وأنهم مستحقون لأشد ألوان العذاب ، لأنهم قد كفروا بآيات الله ووجدوا نعمه بعد معرفتها والوقوف على تفاصيلها . فهو كقوله - تعالى - « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . فهو تبديل عن معرفة لا عن جهل أو خطأ .

وقوله « إن الله شديد العقاب ، لتعليل للجواب أقيم مقامه .

أى : ومن يبذل نعمة الله عاقبه أشد عقوبة لأنه شديد العقاب فلا يفلت منه أحد . ويحتمل أن يكون هذه الجملة هي الجواب بتقدير الضمير أى شديد العقاب له .

والعقاب هو الجزاء عن جناية وجرم ، وهو مأخوذ - كما يقوله للقرطبي - من العقب ، كأن المعاقب يمشى بالمجازاة للجاني في آثار عقبه ، ومنه عقبة الراكب - أى الموضع الذي يركب منه - ، فالعقاب والعقوبة يكونان بعقب الذئب وقد عاقبه بذئبه (١) .

فالآية المكريمة وعيد شديد لكل من يبذل نعم الله ، ويترك شكرها .

وبعد أن ذكر القرآن حال من يبذل نعمة الله من بعد ما جاءته ، أتبعه بذكر الأسباب التي حملت أوامرك الأشقياء على البقاء في كفرهم ووجودهم فقال - تعالى - :

التزيين : جعل الشيء زينا أى ، شديد الحسن . والحياة نائب فاعل ،
زين ، ولم تلتحق تاء التانيث بالفعل لأن نائب الفاعل مجازى التانيث ولو جرد
الفاعل بين الفعل ونائب الفاعل .

والمعنى ، أن الحياة الدنيا قد زينت للكافرين فأحبوها وثمافتوا عليها
ثمافت الفراش على النار ، وصارت متعها وشهواتها كل تفكيرهم ، أما الآخرة
فلم يفكروا فيها ، ولم يهيموا أنفسهم للقائها .

قال القرطبي : والمزين هو خالقها ومخترعها وخالق الكفر ، ويزينها
أيضاً الشيطان بوسوسته وإغوائه وخص الذين كفروا بالذکر لقبو لهم التزيين
جملة وإقبالهم على الدنيا وإعراضهم عن الآخرة بسببها . وقد جعل الله ما هلى
الأرض زينة لها ليبلو الخلق أيهم أحسن عملاً ، فالؤمنون الذين هم على سنن
الشرع لم تفتنهم الزينة ، والكفار تملكتهم لأنهم لا يعتقدون غيرها ، (١) .
وقوله : ويسخرون من الذين آمنوا ، معطوف على جملة زين للذين
كفروا

أو خبر لمبدأ معذوف أى وهم يسخرون وتكون الواو للحال .
ويسخرون : يضحكون ويزأون . يقال . سخرت منه وسخرت به
وضحكت منه وضحكت به .

أى أن الذين كفروا لا يكتفون بحبهم الشديد لزينة الحياة الدنيا وشهواتها
وإنما هم بجانب ذلك يسخرون من المؤمنين لزهدهم في متع الحياة ، لأن
الكفار يعتقدون أن ما يمضى من حياتهم في غير متعة فهو ضياع منها ، وأنهم لن
يبعثوا ولن يحاسبوا على ما فعلوه في دنياهم ، أما المؤمنون فهم يتطلعون إلى
نعيم الآخرة الذى هو أسمى وأبقى من نعيم الدنيا .

وجى . بقوله : زين ، ما ضيا للدلالة على أنه قد وقع وفرغ منه . وجى . بقوله
« ويسخرون ، مضارعاً للدلالة على تجدد سخريتهم من المؤمنين وحدثها بين

سوقت آخر . قال - تعالى - : **إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُوا بِهِمْ يَنْغَامُونَ**

وقد ذكر بعض المفسرين في سبب نزول هذه الآية روايات منها: أنها نزلت في المنافقين عبد الله بن أبي وحزبه ، كانوا يتنعمون في الدنيا أو يسخرون من ضعفاء المؤمنين و فقراء المهاجرين ، ويقولون : أنظروا إلى هؤلاء الذين يزعم محمد - صلى الله عليه وسلم - أنه يغلب بهم . ومنها . أنها نزلت في أبي جهل سارق ساء قريش كانوا يسخرون من فقراء المسلمين كعمار و حباب وابن مسعود وغيرهم بسبب ما كانوا فيه من الفقر والصبر على البلاء . والحق أنه لا مانع من نزولها في شأن كل الكافرين الذين يسخرون من المؤمنين .

وقوله **وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، رَدَّ مِنْهُ - سَبْحَانَهُ - عَلَى هَؤُلَاءِ الْكَافِرِ الَّذِينَ يَسْخَرُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالَّذِينَ يُرُونَ أَنفُسَهُمْ أَنَّهُمْ فِي ذُنُوبِهِمْ وَاذَانُهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَزَاهَتِهِمْ وَصِدْقِهِمْ عَلَى بِأَمَاءِ الْحَيَاةِ وَضُرَائِهَا .** أي ، والذين اتقوا الله - تعالى - وصانوا أنفسهم عن كل سوء فوق أولئك الكافرين مكانة ومكانة يوم القيامة ، لأن تقواهم قد رفعتهم إلى أهلا عليين ، أما الذين كفروا فإن كفرهم قد هبط بهم إلى النار وبئس القرار . قال صاحب الكشاف : **فإن قلت : لم قال من الذين آمنوا ، ثم قال . وَالَّذِينَ اتَّقَوْا ؟ قلت : ليريك أنه لا يسود عنده إلا المؤمن التقى ،** .

وله يكون بمنأى للمؤمنين على التقوى إذا سمعوا ذلك (١) .
وقيدت الفوقية بيوم القيامة للتصريح على دوامها ، لأن ذلك اليوم هو مبدأ الحياة الأبدية ، ولإدخال السرور والتسلية على قلوب المؤمنين حتى لا يتسرب اليأس إلى قلوبهم بسبب إيذاء الكافرين لهم في الدنيا .
وقوله **وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ،** تذييل قصد به تشریف المؤمنين ، وبيان عظم ثوابهم .

أى : والله يرزق من يشاء بغير حساب من المرزوق . أو بلا حصر وعد . لما يعطيه . أو أنه لا يخاف نفاذ ما في خزائنه حتى يحتاج إلى حساب لما يخرج منها . فهو - سبحانه - الذى يعطى ويمنع ، وليس عطاؤه فى الدنيا دليل رضا عن المعطى فقد يعطى الكافر وهو غير راض عنه ، أما عطاؤه فى الآخرة فهو دليل رضا عن أعطائه .

قال الأستاذ الإمام : إن الرزق بلا حساب ولا سعى فى الدنيا إنما يوضح بالنسبة إلى الأفراد ، فإنك ترى كثيراً من الأبرار وكثيراً من الفجار أغنياء . موزعين متمتعين بسعة الرزق ، وكثيراً من الفقريين فقراء معسرين ، والمتقى يكون دائماً أسعد حالاً وأكثر احتمالاً ، ومغلاً اعناية الله به فلا يؤله الفقر كما يؤلم الفاجر لأنه يجد فى التقوى مخرجاً من كل ضيق . . . وأما الأمم فأمرها على غير هذا ، فإن الأمة التى ترونها فقيرة ذليلة لا يمكن أن تكون متقية لأسباب نعم الله وسخطه . . . وليس من سنة الله أن يرزق الأمة العزة والثروة وهى لا تعمل ، وإنما يعطيها بعملها ويسلبها بزلها . . . (١) .

ثم بين - سبحانه - أحوال الناس ، وأنهم فى حاجة إلى الرسل ليشروهم وينذروهم ويحكموا بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه . فقال - تعالى - :

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ
 مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
 فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا
 جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا
 فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما بين في الآية المتقدمة أن سبب
 إصرار هؤلاء الكفار على كفرهم هو حب الدنيا ، بين في هذه الآية أن هذا
 المعنى غير مختص بهذا الزمان ، بل كان حاصلًا في الأزمنة المتقدمة ، لأن
 الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق ثم اختلفوا ، وما كان اختلافهم إلا
 بسبب البغى والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا ، (١) .

و « الأمة » القوم مجتمعون على الشيء الواحد يقتدى بعضهم ببعض
 مأخوذ من أم بمعنى قصد لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع
 ويقصده في مختلف شرفه .

وللعلماء أقوال في معنى قوله - تعالى - « كان الناس أمة واحدة فبعث
 الله النبيين مبشرين ومنذرين » .

القول الأول الذي عليه جمهور المفسرين أن المعنى : كان الناس أمة
 واحدة متفدين على توحيد الله - تعالى - مقرين له بالعبودية مجتمعين على شريعة
 الحق ثم اختلفوا ما بين ضال ومتهتد ، فبعث الله إليهم النبيين لينشروا من اهتدى
 منهم بجزيل الثواب ، ولينذروا من ضل بسوء العذاب ، وايحكموا بينهم

فيما اختلفوا فيه بالحكم العادل ، والقول الفاضل .

قال القفال : ويشهد لصحة هذا الرأي قوله - تعالى - : فبعث الله النبيين . . . (١) فهذا يدل على أن الأنبياء - عليهم السلام - إنما بعثوا حين الاختلاف ، ويتأكد هذا بقوله : وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، ويتأكد أيضاً بما نقل عن ابن مسعود أنه قرأ : كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين . . .

وكان على هذا الرأي على بابها من الماضي ، وعدم استمرار الحكم ، وعدم امتداده إلى المستقبل ، لأن الناس كانوا مهتدين ثم زالت الهداية عنهم أو عن كثير منهم بسبب اختلافهم فأرسل الله - تعالى - رسوله لهدايتهم .
القول الثاني يرى أصحابه أن المعنى : كان الناس أمة واحدة مجتمعين على الضلال والكفر فبعث الله النبيين لهدايتهم . . .

وكان على هذا الرأي - أيضاً - على بابها من الماضي والانعقاد ، ولا تحتاج على هذا الرأي إلى تقدير كلام مخدوف ، وهو ثم اختلفوا فبعث . . الخ . ومن العلماء الذين رجحوا القول الأول الإمام ابن كثير فقد قال : عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان بين نوح و آدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . . وهكذا قال قتادة ومجاهد . وقال لعوف عن ابن عباس : كان الناس أمة واحدة ، يقول كانوا كفاراً فبعث الله النبيين . . ، والقول الأول عن ابن عباس وهو أصح سنداً ومعنى ؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الإصنام فبعث الله لإيهم نوحاً - عليه السلام - فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض (٢) .
أما الرأي الثالث فقد قرره الإمام الفخر الرازي بقوله : ويحتمل أن تكون كان للثبوت ، والمراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ١٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٠ .

واحدة في خلوصهم عن الشرائع ، وجهلهم بالحاقيق ، لولا من الله عليهم وتفضله بالارسل إليهم . فلا يختص به كان ، على هذا التأويل بالمضى فقط ، بل معناه معنى قوله ، وكان الله غفوراً رحيماً ، (١) .

وهذا الرأي قد اختاره الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسيره الآية الكريمة ووافقه عليه بعض العلماء الذين كتبوا في تفسير هذه الآية . قال الأستاذ الإمام ما ملخصه .

« خلق الله الإنسان أمة واحدة أى مرتبطاً ببعضه ببعض في المعاش لا يسهل على أفرادها أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا إلا مجتمعين يعاون بعضهم بعضاً ، وكل واحد منهم يعيش ويحيا بنىء من عمله لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفير جميع ما يحتاج إليه ، فلا بد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته ... وهذا المعنى قولهم : والإنسان مدنى بطبعه ، يريدون بذلك أنه لم يوهب من القوى ما يكفي للوصول إلى جميع حاجاته إلا بالاستعانة بغيره ... ولما كان الناس كذلك كان لا بد لهم من الاختلاف بمقتضى فطرتهم ، وكان من رحمة الله أن يرسل إليهم مبشرين ومنذرين .

وترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة في الآية التى نفسرها يكون على هذا المعنى :

إن الله قضى أن يكور الناس أمة واحدة يرتبط بعضهم ببعض ولاسيبل لعقولهم ووحدها إلى الوصول إلى ما يازم لهم في توفير مصالحهم ودفع المضار عنهم ، التفاوت عقولهم ، واختلاف فطرتهم ، وحرمانهم من الإلهام الهادى لكل منهم إلى ما يجب عليه نحو صاحبه ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأيدهم بالدلائل القاطعة على صدقتهم ، وعلى أن ما يأتون به إنما هو من عند الله - تعالى - القادر على إثباتهم وعقوبتهم ... (٢) .

وقال فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة ما ملخصه : وإن هذا الرأي الذى اختاره الأستاذ الإمام هو الذى نختاره ، وعلى هذا التأويل لا يكون

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣١ .

(٢) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٨٢ بتصرف وتلخيص .

ثمة حاجة إلى تقدير محذوف ، لأن ذات حالمهم من كونهم لا علم لهم
بانشراخ ولا تمسدى عقولهم إلى الحقائق بنفسها توجب البعث ، ولأن تلك
الحال التي تكون على الفطرة وحدها توجب الاختلاف فتوجب بعث
النبیین . . . ثم إن نفس كل إنسان فيها نزوع إلى الاجتماع ، وحيث كان
الاجتماع فلا بد من نظام يربط ، وشرع يحكم .

وعلى هذا التأويل أيضا تكون الفاء في قوله « فبعث . . . » - وهي التي
يقول عنها الذخيريون إنها للترتيب والنعقيب - في موضعها من غير حاجة
إلى تقدير ، لأن كون الناس أمة واحدة اقتضت الرسالة واقتضت الاختلاف .
و « كان » على هذا التأويل تدل على الاستمرار والثبوت ، لأن الناس
بعقضى فطرهم دائما في حاجة إلى شرع السماء لا يمتدون إلا به .

ثم قال فضيلته : وقد يقول قائل : إن جعل « كان » الاستمرار يفيد
أن وحدة الناس في الفطرة وتأديبها إلى للتناحر يقتضى بعث النبیین إلى يوم
القيامة ، وإنه لا بد من نبى لعصرنا ، ونحن نسلم بالاعتراض ولا ندفع
لمراداة ونقول : نعم إنه لا بد من قيام رسالة إلى يوم القيامة وهي رسالة محمد
(صلى الله عليه وسلم) التي جاءت بكتاب تتجدد به الرسالة والبعث إلى أن
تفتق الأرض ومن عليها وهذا الكتاب هو القرآن الكريم الذي لا تبلى
جده ، والذي تكفل الله بحفظه ، وبإعجازه إلى يوم القيامة ، والذي من
عرفوه فكأنما يتأقاه عن النبى (صلى الله عليه وسلم) . (١)

هذه هي أشهر الأفعال في معنى قوله - تعالى - « كان الناس أمة واحدة
فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وهناك أقوال أخرى لم نذكرها لضعفها
وقوله - تعالى - « وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيها اختلفوا
فيه ، معطوف على « فبعث » ، والمراد بالكتاب الجنس .

والمعنى : وأنزل - سبحانه - مع هؤلاء النبيين الذين بعثهم مبشرين

(١) تفسير الآية الكريمة لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .

مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة من العدد الثامن

حومنفذين كلامه المتببس بالحق والجامع لما يحتاجون إليه من أمور الدين
حوالدينيا ، اكى بفصلوا بواسطته بين الناس فيما اختلفوا من شئون دينيه
ودنيوية .

وذكر - سبحانه - الكتاب بصيغة المفرد للإشارة إلى أن كتب النبيين وإن
تعددت إلا أنها في جوهرها كتاب واحد لاشتغالها على شرع واحد في أصله ،
وإذا كان هناك خلاف بينها في تفاصيل الأحكام وفروعها لا في جوهرها
وأصولها ، وقوله بالحق ، متعلق بأزل ، أو حال من الكتاب أى ملتبسا شاهدا به .
والضمير في قوله ليحكم .. يجوز أن يعود إلى الله - تعالى - أو إلى
النبيين ، أو إلى الكتاب . ورجح بعضهم عودته إلى الكتاب لأنه أقرب
مفكور . الجملة تعليلية الإنزال المذكور .

وفي إسناد الحكم إلى الكتاب تنبيه للناس إلى أن من الواجب عليهم أن
يرجعوا إليه عند كل اختلاف . لأن هذا هو المقصد الأساسي من إنزال
الكتاب السماوية .

والأستاذ الإمام محمد عبد ، كلام نفيس في هذا المعنى فقد قال - رحمه
الله - ماملخصه : والحكم مسند إلى الكتاب نفسه ، فالكتاب ذاته هو
الذى يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وفيه نداء للهاكمين بالكتاب أن
يلزموا حكمه ، وألا يعدلوا عنه إلى ما نزله الأنفس وتزينه الأهواء . . .
ولو صاغ للناس أن يؤلوا نصا من نصوص الكتب على حسب ما تنزع إليه
هقولهم بدون رجوع إلى بقية النصوص ، لما كان لإنزال الكتب فائدة ، ولما
كانت الكتب في الحقيقة حاكمة ، بل كانت متحركة فيها الأهواء ، فنعود
المصلحة مفسدة ، وينقلب الدواء علة ، ولهذا رد الله الحكم إلى الكتاب
نفسه لا إلى هوى الحاكم به . . . ونسبة الحكم إلى الكتاب هي كنسبة
النطق والهدى والنبشير إليه في قوله - تعالى - وهذا كتابنا ينطق عليكم بالحق
وقوله - تعالى - وإن هذا القرآن يهدى للنبي هي أقوم ويبشر المؤمنين . . .
ثم بقول - رحمه الله - يتخذ الواحد منهم كلمة من الكتاب أو أثرا

ما جاء به وسيلة إلى تسخير غيره لما يريد ، وذلك بقطع السكامة أو الأثر عن بقية ما جاء في الكتاب والآثار الأخرى والى اللسان أو تأويله بغير ما قصد منه ؛ ومأمور المؤلف أن يعمل بالكتاب وإنما كل ما يقصد هو أن يصل إلى مطلب المشهوره ، أو عكس أسطوته . سواء أهدمت أحكام الله أم قامت ، ووجت السبيل أم استقامت ، ثم يأتي ضال آخر يريد أن يقال من هذا ما نال غيره ، فيحرف ويؤول حتى يمد المخدوعين بقوله ، ويتخذهم ونوعاً على الخادع الأول ، فيقع الاختلاف والاضطراب ، وآلة المختلفين في ذلك هو الكتاب (١) ثم بين - سبحانه - الأسباب التي أدت إلى اختلاف الناس في الكتاب الذي أنزله لهدايتهم فقال : وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم اليينات بقيا بينهم .

والضمير في قوله وفيه ، وفي قوله أوتوه ، يعود إلى الكتاب ، والمعنى عليه : وما اختلف في شأن الكتاب الهادي الذي لا بأس فيه ، المنزّل لإزالة الاختلاف إلا الذين أوتوه ، أي هدوه ووقفوا على تفاصيله . ولم يكن اختلافهم لاتباس عليهم من جهة وإنما كان خلافهم من بعد ما ظهرت لهم الدلائل الواضحة الدالة على صدقه ، وما أحمامهم على هذا الاختلاف إلا البغي والظلم والحمد الذي وقع بينهم .

والمراد بالذين اختلفوا فيه أهل الكتاب اليهود والنصارى ، واختلفهم في الكتاب يشمل تصديقهم ببعضه وتكذيبهم بالبعض الآخر ، كما يشمل اختلافهم في تفسيره وتأويله وتنفيذ أحكامه وتقدم تنفيذها ، وذهاب كل فريق منهم مذهباً يخالف مذهب الآخر في أصول الشرع لافي فروعه .

وعبر عن الإنزال بالإيتاء - كما يقر الآلوسى - للتنبية من أول الأمر على كمال تمكنهم من الوقوف على ما فيه من الحق ، فإن الإنزال لا يفيد ذلك ، وقيل : عبر به ليختص الموصول بأرباب العلم والدراسة من أولئك

المختلفين ، وخصهم بالذكر لمزيد شناعة فعلهم ولأن غيرهم تبع لهم ، (١) وقوله ومن بعد ما جاءتهم البينات ، متعلق باختلاف ، وفيه زيادة تشنج عليهم لأنهم قد اختلفوا فيه بعد أن قامت أمامهم الحجج الناصعة الدالة على الحق .

وقوله « بغيا ، مفعول لأجله لاختلافهم » وبيّنهم ، متعلق بمحذوف صفة لقوله « بغيا » . أى أن داعى الاختلاف هو البغى والحسد الذى وقع بينهم ، فجعل كل فريق منهم يخطئ الآخر ، ويجرح رايه .

وفي هذا التعبير إلى إشارة البغى قد باض وفرخ عندهم ، فهو يحوم عليهم ، ويدور بينهم ، ولا طمع له في غيرهم ، ولا ملجأ له سواهم ، لأنهم أربابهم الذين تمسكوا منه ، وتمسك منهم بقوة ورسوخ .

وبعضهم جعل الضمير في قوله وفيه ، يعود إلى الحق ، والضمير في قوله وأوتوه يعود إلى الكتاب . أى : وما اختلف في الحق إلا الذين أوتوا الكتاب وبرى بعض العلماء أن عودة الضمير في كليهما إلى الحق أو إلى الكتاب جائز ، وأن المعنى على التقديرين واحد ، لأن الكتاب أنزل ملاسماً لاحق ومصاحباً له ، فإذا اختلف في الكتاب اختلف في الحق الذى فيه وبالعكس على طريقة قياس المساراة في المنطق والجملة الكريمة تحذير شديد من الوقوع فيما وقع فيه غيرهم من اختلاف يؤدى إلى البغى والتنازع والإعراض عن الحق ثم بين — سبحانه — حال المؤمنين بعد بيانه لحال الغاوين فقال — تعالى — فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه .

أى : فهدى الله الذين آمنوا وصدقوا رسله إلى الحق الذى اختلف فيه أهل الضلالة ، وذلك الهدى بفضل توفيقه لهم وتيسيره لأمرهم . والفاء في قوله « فهدى » ، فصيحة لأنها أفصح عن كلام مقدر وهو المطوف عليه المحذوف .

والتقدير : إذا كان هذا شأن الضالين المختلفين في الحق ، فقد هدى .

الله بفضلہ الذین آمنوا إلى الصواب .
 وبين - سبحانه - أن الذین رزقہم الهدایة هم الذین آمنوا ، للإشعار
 بأن سبب ہدایتہم للحق هو إيمانہم وتقواہم ، واستجابتہم للداعی الذی
 دعاهم إلى الطریق المستقیم .

وأسند الهدایة إلیہ - سبحانه - لأنه هو خالقہا ، ولأن قلوب العباد
 بیدیہ فهو یقبلہا کیف یشاء ، وهذا لا ینافی أن للعبد اختیاراً وكسباً فهو
 إذا سار فی طریق الحق رزقہ الله النور المشرق الذی یدیہ ، وإن سار فی
 طریق الضلالة واستحب العمی علی الهدی سلب الله عنه توفیقہ بسبب
 إیثارہ الضلالة علی الهدایة .

وقوله - تعالی - فی ختام هذه الآیة ، والله یدی من یشاء إلى صراط
 مستقیم ، تذیل قصدہ ببيان کمال سلطانه ، وتمام قدرته .

أی : والله وحده هو الهادی من یشاء من عباده إلى طریق الحق الذی
 لا یضل سالكه ، فلیس لأحد سلطان بجوار سلطانه ، ولو أراد أن یشاء
 الناس جمیعاً مہدیین لساکنوا ، ولكن حکمته اقتضت أن یختبرہم لیتیمز
 الخبیث من الطیب ، فینجازی کل فریق بما یشئقہ .

قال ابن کثیر : وفي صحیح البخاری ومسلم عن عائشة أن رسول الله
 (صلى الله علیه وسلم) كان إذا قام من اللیل یصلی یقول : اللهم رب جبریل
 ومیکائیل وإسرافیل فاطر السموات والأرض عالم الغیب والشهادة أنت
 تحکم بین عبادک فما کافوا فیہ یختلفون ، اهدنی لما اختلف فیہ من الحق
 یأذنک لأنک تہدی من تشاء إلى صراط مستقیم .

وفي الدعاء المأثور : اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل
 باطلا وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل واجعلنا للمنقین إماماً (١)
 وبذلك نرى أن الآیة قد بینت أن الناس لا یستغنون عن الدین الذی شرعه الله
 لهم علی لسان رسوله - علیہم الصلاة والسلام - ، وأن الأشرار من الناس هم الذین

يحملهم البغى على الاختلاف في الحق بعد ظهوره لهم ، أما الاختيار منهم فهم الذين اهتدوا بتوفيق الله وتيسيره إلى طريق الخير والصواب ووالله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، ،

وبعد أن ذكر - سبحانه - حال الناس ، واختلاف سفهائهم على أنبيائهم ، واهتداه عقلائهم إلى الحق ، عقب ذلك بدعوة المؤمن إلى الاقتداء بمن سبقهم في الصبر والثبات . فقال - تعالى - :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ
مَسْتَهْمِبِينَ وَالضَّرَاءُ وَالْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ الْإِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

قال القرطبي : قال قتادة والسدي وأكثر المفسرين : نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والحر والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد ، وكانوا يكافأون - تعالى - إذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجل ، وقيل نزلت في حرب أحد ، ونظيرها - في آل عمران - أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم . . . وقالت فرقة : نزلت الآية تسلية للهاجرين حين تركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين ، وآثروا رضا الله ورسوله ، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله ، وأسرقوم من الأغنياء النفاق فأنزل الله ذلك تطبيقا لقلوبهم ، (١) .

وما ذكره المفسرون في سبب نزول هذه الآية السكرية لا يمنع عمومها ، وأنها تدعو المؤمنين في كل زمان ومكان إلى التذرع بالصبر والثبات تأسيًا بمن سبقهم من المتقين حتى يفوزوا برضوان الله - تعالى - ونصره

و د أم ، هنا يرى بعضهم أنها للاستفهام الإنكاري ، ويرى بعض آخر أنها أم المتصلة ، ويرى فريق ثالث أنها أم المنقطعة .

قال الجبل : وحسب هنا من أخوات ظن فنصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر ، وأن وما بعدها سادة مسد المفعولين عند سيويه ، ومسد الأول عند الأخفش والثاني محذوف ، ومضارعها فيه وجهان : الفتح وهو القياس والكسر (١) .

و د ل ، تدل على النفي مع توقع حصول المنفي بها ، كما في قول النابغة :
أزف للترحل غير أن ركابنا لما نزل برحالتنا وكان قد
فتنى بلدائهم قال : وكان قد أي ، وكأنه قد زالت .

و د البأساء ، ما يصيب الناس في الأموال كالفقر . والضراء : ما يصيبهم في الأنفس كالمرض مشتقان من البؤس والضرب .

و د زلزوا ، من الزلزلة وهي شدة التحريك وتكون في الأشخاص وفي الأحوال . فيقال : زازلت الأرض ، أي تحركت واضطربت ، ومعنى .
زازلت الأرض ، أي تحركت واضطربت ، ومعنى زلزوا : خوفوا وأزعجوا واضطربوا .

و المعنى على أن د أم ، للاستفهام الإنكاري : أظننتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الإيمان دون أن يصيبكم ما أصاب الذين سبقوكم من شدائد في الأنفس والأموال ، ومن مخاوف أزعجتهم وأزعجتهم حتى بلغ الأمر برسولهم وبالمؤمنين معه أن يقولوا هم في أقصى ما تحتمله النفوس البشرية من آلام : متى نصر الله ١١٤

لا - أيها المؤمنون - لاني أنها كم أن تظنوا هذا الظن ، وأمركم أن تتيقنوا من أن الظفر بدخول الجنة يسألزم منكم التأمي بمن سبقكم من المتقين فيه الصبر والثبات .

والمعنى على أن د أم ، هنا هي المتصلة - أي المشعرة بمحذوف دل عليه الكلام - : قد خلت من قبلكم أمم أو تورا الكتاب واهتدوا إلى الحق فأذا هم الناس أذى شديدا فصبروا على ذلك أفتصبرون مثلهم على المكارِه وتثبتون ثباتهم على الشدائد؟ أم حسبتُم أن تدخلوا الجنة دون أن يصيبكم ما أصابهم؟ والمعنى على أن د أم ، هنا منقطعة - أي تدل على الإضراب والاستفهام معا - : لقد أذيتُم أيها المؤمنون في سبيل دينكم أذى عظيماً ، فمليكم أن تصبروا وأن تثبتوا كما فعل الذين من قبلكم ، أم حسبتُم أن تدخلوا الجنة دون ابتلاء وصبر . . أي : بل احسبتُم . . إن كان هذا هو حسابنا لكم فهو حسابنا باطل لا ينبغي لكم .

وقوله - تعالى - د مستهم البأساء . . استئناف وقع جواباً عما ينساق إليه الذهن ، كأنه قيل : كيف مثل أولئك الذين خلوا ومضوا؟ فكان الجواب مستهم البأساء . . الخ .

ومستهم أي : حلت بهم . وهب بمستهم الإشعار بأن تلك الشدائد قد أصابتهم بالآلام التي اتصلت بحواسهم وأجسادهم ولكنها لم تضعف إيمانهم إذ حقيقة المسى اتصال الجسم بجسم آخر .

قال صاحب الكشاف : وقوله د وزلوا ، أي : أزجوا إزعاجاً شديداً شبيهاً بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والافزاع د حتى يقول الرسول ، أي إلى الغاية التي قال الرسول ومن معه فيها د متى نصر الله ، أي بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك . ومعناه طلب الصبر وتمنيه ، واستطالة زمان الشدة . وفي هذه الغاية دليل على تنامي الأمر في الشدة وتماديه في العظم ؛ لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم ، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمع وراءها (١) . والمراد بالرسول - كما يقول الألوسي - الجنس لا واحد بعينه . وقيل :

شعيا ، وقيل : أشعيا ، وقيل اليسع . وعلى التعمين يكون المراد من الذين خلوا قوما بأعيانهم وهم أتباع هؤلاء الرسل (١) ، .

وقوله - تعالى - « ألا إن نصر الله قريب ، استئناف على تقدير القول . أى فقبل لهم حينما التسوا من الله النصر بعد تلك الشدائد والأهوال التى نزلت بهم : ألا إن نصر الله قريب . تطبيبا لأنفسهم ، وبعثا للأمال فى قلوبهم . وفى هذه الجملة الكريمة ألوان من المؤكدات والمبشرات بالنصر القريب ، ويشهد لذلك التعبير بالجملة الاسمية بدل الفعلية فلم يقل - مثلا - ستنصرون والتعبير بالجملة الاسمية يدل على التوكيد . ويشهد لذلك أيضا تصدير الجملة بأداة الاستفتاح الدالة على تحقيق مضمونها وتقريره ، ووقوع إن المؤكدة بعد أداة الاستفتاح ، وإضافة النصر إلى الله القادر على كل شئ . والذى وع- عباده المؤمنين بالنصر فقال ، إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، :

هذا ، والمنأمل فى الآية الكريمة يراها قد بينت للمؤمنين أن طريق الجنة محفوظ بالمكارة ، وصاق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى قوله : حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات . . وأنهم لى يصلوا إلى الجنة عليهم أن يتأسوا بالسابقين فى جهادهم وصبرهم على الأذى ، فقد انتضت سنة الله أن يجعل هذه الحياة نزلا موصولا بين الأخيار والأشرار ، ونزاعا مستمرا بين الأظهار والفجار ، وكثيرا ما يضيق البقاء على المؤمنين ، وينزلون بهم ما ينزلون من صفوف الاضطهاد إلا أن الله - تعالى - قد تكفل بأن يجعل العاقبة للمتقين .

واقدر حكى لنا التاريخ أن المؤمنين السابقين قد صبروا أجمل الصبر وأسماء فى سبيل إعلاء كلمة الله . .

روى البخارى عن خباب بن الأرت - رضى الله عنه - قال : شكرونا ،

إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة .
 فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل
 فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل
 نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك
 عن دينه . والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى
 حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه وأسكنكم تميمي (١) .
 وبذلك نرى أن السورة الكريمة من قوله - تعالى - : ومن الناس من
 يعجبك . قوله في الحياة الدنيا . . . إلى هنا ، قد بينت لنا أفسام الناس
 في هذه الحياة ، ودعت المؤمنين إلى أن يتمسكوا بجميع تعاليم الإسلام ، وأن
 يزهوا في زينة الحياة التي شغلت المشركين عن كل شيء سواها ، وأن
 يشكروا الله على هدايته إياهم إلى الحق الذي اختلف غيرهم فيه ، وأن
 يوطنوا أنفسهم على تحمل الآلام لكي يحقق الله لهم الآمال .
 ثم أرشد الله - تعالى - المؤمنين بعد ذلك إلى أن بما يعينهم على دفع
 الأذى وعلى دحر أعدائهم أن يبذلوا أموالهم في طاعة الله ، وأن يعدوا
 أنفسهم للقتال في سبيله فقال - تعالى - :

(١) صحيح البخاري كتاب الإكراه . باب من اختار الضرب والقتل .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ^ط

قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ
وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ
عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرِهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ
لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدَقَ
سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرُ بِهِ، وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ
عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتَلُونَ وَحَتَّى
يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ
فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

قال الألوسي : عن ابن جرير قال : سأل المؤمنون رسول الله - ﷺ -

أين يضعون أموالهم فأنزل الله - تعالى - قوله : يسألونك ماذا ينفقون . الآية . وعن ابن عباس قال : كان عمرو بن الجوح شيخاً كبيراً . وعنده مال كثير فقال يا رسول الله : بماذا تنصق ، وعلى من تنفق ؟ فنزلت الآية . والمعنى : يسألك أصحابك يا محمد أى شىء ينفقونه من أصناف الأموال ؟ فقل لهم : ما أنفقتم من أموالكم فاجملوه للوالدين قبل غيرها ليكون أداء الحق تربيتهما ووفاء لبعض حقوقهما ، والأقربين وفاء لحق القرابة والرحم . ولليتامى لأنهم فقدوا الأب الحانى الذى يسد عوزهم ، والمساكين لفقرهم . واحتياجهم ، وابن السبيل لأنه كالفقير لغيبة ماله وانقطاعه عن بلده .

قال الإمام الرازى : فهذا هو الفرقيب الصحيح الذى رتبته الله - تعالى - فى كيفية الإنفاق . ثم لما فصل هذا التفصيل الحسن الكامل أردفه بعد ذلك بالإجمال فقال : وما فعلوا من خير فإن الله به عليم ، أى : وكل ما فعلتوه من خير إما مع هؤلاء المذكورين وإما مع غيرهم حسنة لله وطلباً لجزيل ثوابه وهرباً من أليم عقابه فإن الله به عليم فيجازيكم أحسن الجزاء عليه . . . (١) .

وظاهر الآية - كما بقول الألوصى - أن السؤال عن المنفق فأجاب ببيان المصرف صريحاً ، لأنه أهم فإن اعتداد المنفقة باعتباره . وأشار - سبحانه - بالإجمال إلى بيان المنفق فإن قوله : من خير ، يتضمن كونه حلالاً إذ لا يسمى بما عداه خيراً ، وإنما تمرض لذلك - أى لبيان المنفق عليه - وليس فى السؤال ما يقضيه ، لأن السؤال للتعلم لا للجدل ، وحق المعلم فيه أن يكون كطبيب رفيق يتحرى ما فيه الشفاء ، طالبه المريض أم لم يطلبه . ولما كانت حاجتهم إلى من ينفق عليه كحاجتهم إلى ما ينفق بين الأمرين ، (وهذا كمن به صفراء سفاستان طبيبياً ، فى أكل العسل فقال له : كله مع الخل) . فالكلام إذاً من أسلوب الحكيم . ويحتمل أن يكون فى الكلام - أى فى كلام السائلين -

ذكر المصرف - أيضاً - كما في سؤال عمرو بن الجوح إلا أنه لم يذكره في الآية للإيجاز في النظم تمويلاً على الجواب ، فتكون الآية جواباً لأمرين مستول عنهما . والاقتصار في بيان المنفق على الإجمال من غير تعرض للتفصيل كما في بيان المصرف الإشارة إلى كون الثاني أهم . وهل تخرج الآية بذلك عن كونها من أساليب الحكيم أولاً ؟ قولان أشهرهما الثاني ، (١) .

ولم يتعرض - سبحانه - هنا لبقية المحتاجين كاساتين والغارمين إما اكتفاءً بذكرهم في مواضع أخرى ، وإما بناء على دخولهم تحت عموم قوله - تعالى - في آخر الآية « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم فإنه شامل لكل خير واقع في أي مصرف كان .

قال الجمل و « ذا » اسم موصول بمعنى الذي والعائد محذوف ، و « ما » على أصلها من الاستفهام ولذلك لم يعمل فيها - أي مفردة - يسألونك ، وهي مبتدأ و « ذا خبره ، و الجملة محملاً للنصب يسألون . والمعنى يسألونك أي الشيء الذي ينفقونه ، (٢) .

وقوله « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ، تذييل قصد به الخض على فعل الخير ، لأن المزمع عندما يشعر بأن الله يرى عمله ويجازيه عليه بما يستحقه ، يشجع ذلك على الاستمرار في عمل الخير . وإذا كان بعضنا يكثر من عمل الخير عندما يعلم أن شخصاً ذا جاه يسره هذا العمل ، فكيف يكون الحال عندما يعلم المؤمن للتقى أن الذي يرى عمله ويكافئه عليه هو الله الذي لا تخفى عليه خافية ، والذي يعطى من يشاء بغير حساب .

قال بعض العلماء : وقد اختلف في هذه الآية . فقيل إنها منسوخة بآية الزكاة وهي قوله - تعالى - « إنما الصدقات للفقراء . . . » . وقيل - وهو الأولى - إنها غير منسوخة ، وهي لبيان صدقة التطوع فإنه متى أمكن الجمع

(١) تفسير الألوسي ج ٢ صفحة ١٠٥ .

(٢) حاشية الجمل ج ١ صفحة ١٧٠ .

فلا نسخ، (١).

وقوله ، كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، حض لهم على بذل النفس في سبيل إعلاء كلمة الله ، بعد أن حضهم في الآية السابقة على بذل المال .

والكره - بضم الكاف - بمعنى الكراهية بدليل قوله - تعالى - وعسى أن تكرهوا شيئاً أي أن القتال لشدة ويلاته ، وما فيه من إزهاق الأرواح كأنه الكراهة نفسها فهو من وضع المصدر موضع اسم المفعول مبالغة وقرئ - وهو كره لكم - بفتح الكاف - فيكون فيه معنى الإكراه ، لأن الكره بالفتح ما أكرهت عليه . وقيل هما لغتان بمعنى واحد وهو الكراهية .

ويرى كثير من المفسرين أن القتال إنما كان مكروهاً للنفوس لما فيه من التعرض للجراح وقطع الأطراف ، وإزهاق الأرواح والإنسان ميال بطبعه إلى الحياة ، وأيضاً لما فيه من إخراج المال ومفارقة الوطن والأهل ، والجيلولة بين المقاتل وبين طعامينته ونومه وطعامه ، فهو مهما يكن أمره فيه وبيلات وشدائد ، ومشقات تتلوها مشقات ، ولكن كون القتال مكروهاً للنفوس لا ينافي الإيمان ولا يعني أن المسلمين كرهوا فرضيته ، لأن امتثال الأمر قد يتضمن مشقة ، ولكن إذا عرف الثواب هان في جنبه اقتحام المشقات . ولا شك أن القتال في سبيل الله - مع ما فيه من صعاب وشدائد - ستكون عاقبته العزة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ،

ويرى بعضهم أن كره المسلمين للقتال ليس سببه ما فيه من شدائد ومخاطر وتضحيات بدليل أنهم كانوا يتنافسون خوض غمراته ، وإنما السبب في كراهيتهم له هو أن الإسلام قد غرس في نفوسهم رقة ورحمة وسلاماً وحباً ، وهذه المعاني جعلتهم يحبون مصابرة المشركين ويكرهون قتالهم أملاً في هدايتهم ، ورجاء في إيمانهم ، ولكن الله - تعالى - كتب على المسلمين قتال أعدائهم لأنه يعلم أن المصاحبة في ذلك ، فاستجاب المؤمنون بصدق وإخلاص لما فرضه عليهم ربه .

(١) تفسير آيات الأحكام ج ١ صفحة ١١٤ الفضية الأستاذ محمد علي السائس

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى ظاهر الآية ، لأن القتال فريضة شاقّة على النفس البشرية ، بحسب الطبع والقرآن لا يريد أن ينكر مشيئتها ، ولا أن يهون من أمرها ، ولأن ينكر على النفس البشرية إحساسها النظري بكرهيتها ، ولسكنه يعالج الأمر من جانب آخر ، بأن يقرر أن من الفرائض ما هو شاق ولا يمكن وراه حكمة تهون مشاقته ، وتسهل صعوبته ، وتحقق به خيراً محبباً قد لا يراه النظر الإنساني القصير . وقد بين القرآن هذه الحكمة في قوله ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . .

أى : وعسى أن تكرهوا شيئاً كالقتال في سبيل الله - تعالى - وهو خير لكم إذ فيه إحدى الحسنين : إما الظفر والقيمة - في الدنيا مع ادخار الجواهر الأخرى وإما الشهادة والجنة ، وعسى أن تحبوا شيئاً كالعود عن الجهاد وهو شر لكم في الواقع لما فيه من الذل ووقوعكم تحت طائلة الأعداء . قال الفخر الرازي : معنى الآية أنه ربما كان الشيء شاقاً عليكم في الحال ، وهو سبب للمنافع الجليلة في المستقبل ، ولأجله حسن شرب الدواء المر في الحال لتوقع حصول الصحة في المستقبل ، وترك الجهاد ، وإن كان يفيد - أى بحسب ظنكم - في الحال صون النفس عن خطر القتل وصون المال عن الإنفاق ولكن فيه أنواع من المضار منها : أن العدو إذا علم ميلكم إلى الدعة والسكون قصد بلادكم وحاول قتلكم والحاصل أن القتال في سبيل الله سبب لحصول الأمن من الأعداء في الدنيا وسبب لحصول الثواب العظيم للجهاد في الآخرة . . (١) .

وقال القرطبي : والمعنى : عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنفسكم تغلبون وتظنون وتغنمون وتؤجرون ومن مات منكم مات شهيداً ، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنفسكم تغلبون ويذهب أمركم .

وهذا صحيح لا غبار عليه ، كما اتفق في بلاد الأندلس ، تركوا الجهاد وجبنوا عن القتال وأكثروا من الفرار ، فاستولى العدو على البلاد ، وأى بلاد ١١٩ وأسر وقتل وسبي واستعرق ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ذلك بما قدمت أيدينا وكسبته ١١٩ وقال الحسن في معنى الآية : لا تتركوه المملوك الواقعة ؛ فرب أمر تتركه فيه نجاتك ، ولرب أمر تحبه فيه عطبك ، وأنشد أبو سعيد الضير :

رب أمر تنقيسه جسر أمراً ترتضيه

خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه (١)

وهذا الكلام الذى كتبه الإمام القرطبي من مئات السنين يشير في النفس شجوراً وآلاماً ، فإن المسلمين ما هانوا وضعفوا إلا عند ما تركوا الجهاد فى سبيل الله ، وتنازلوا إلى الأرض ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وآثروا منع الدنيا وشهواتها على الحياة العزيزة الكريمة .

وقال الإمام ابن كثير عند تفسيره الآية : هذا إيجاب من الله - تعالى - للجهاد على المسلمين وأن يكفوا شر الأعداء من حوزة الإسلام . قال الزهرى : الجهاد واجب على كل أحد غزاً أو قعد . فلقاعد عليه إذا استعير به أن يعين ، وإذا استغثت به أن يغيث ، وإذا استقر أن ينفر ، ولطفاً ثبت فى الصحيح من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغز مات ميتة جاهلية ، وقال : - عليه الصلاة والسلام - يوم الفتح لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا ، (٢) .

وقد أجمع العلماء على أنه إذا نزل العدو وبساحة البلاد وجب القتال على كل المسلمين ، كل على حسب قدرته .

وقد ختم سبحانه هذه الآية الكريمة بقوله : والله يعلم وأنتم لا تعلمون . أى : والله يعلم ما هو خير لكم وما هو شر لكم فى الواقع وأنتم لا تعلمون

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٣٩

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٢

ذلك ، فبادروا إلى ما يأمركم به لأنه لا يأمركم إلا بما علم فيه خيراً لكم ،
وانتهوا عما نهاكم عنه لأنه لا ينهاكم إلا عما هو شر لكم ، ومفعولا
يعلم وتعلمون محذوفان دل عليهما ما قبلهما . أى : يعلم الخير والشر وأنتم
لا تعلمونهما . والمقصود من هذه الجملة الكريمة الترغيب في الجهاد ، والامتنال
لما شرهه الله - تعالى - سواء أعرفت حكمته أم لم تعرف ، لأن العلم
بالحسك والمصالح هو الله رب العالمين .

وبذلك نرى أن القرآن الكريم لا ينكر على الناس مشاعرهم الطبيعية ،
وأحاسيسهم الفطرية من كراهية للقتال ، ولكنه يربى نفوسهم على الاستجابة
لأوامر الله عليهم بالغايات المصلحة على العواقب ، الخبير بما فيه خيرهم ومصالحهم ،
وبهذه النزبية الحكيمة بذل المؤمنون نفوسهم وأمواهم في سبيل رضا
خالقهم عن طواعية واختيار ، لا عن قسر وإجبار .

وبعد أن حرض الله - تعالى - المؤمنين على بذل أمواهم وأنفسهم
في سبيله عقب ذلك ببيان حكم القتال في الأشهر الحرم فقال - تعالى - :
« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير . . . الخ » .

وقد ذكر كثير من المفسرين ومن أصحاب السير في سبب نزول هذه
الآية قصة ملخصها : أن النبي (صلى الله عليه وسلم) بعث عبد الله بن جحش
ومعه اثنا عشر رجلاً منهم من المهاجرين ، وأعطاه كتاباً مختوماً وأمره
ألا يفتحه إلا بعد أن يسير يومين ، ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يستكره
أحداً من أصحابه . فسار عبدالله يومين ثم فتح الكتاب فإذا فيه : إذا نظرت
في كتابي هذا فامض حتى تنزل بنخلة - مكان بين مكة والطائف - فترصد
بها غيراً لقريش وتعلم لنا من أخبارهم .

فقال عبدالله : سمعنا وطاعة !! وأخبر أصحابه بذلك وأنه لا يستكرههم
ممن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع فأما أنا فناهضاً فنهضوا
جميعاً ، فلما كانوا في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان
بغيراً لهما بمتقباته . فدخلنا في طلبه ، ومضى عبدالله ببقية أصحابه حتى وصلوا

تخلة فمرت بهم غير لغريش في طريقها لمكة وكانت في حراسة عمرو بن الحضرمي وعثمان بن المغيرة ، وأخوه نوفل والحكم به كيسان . فقشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب . لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن في الحرم فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام !! فترددوا وها بوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، فرمى « واقد بن عبد الله ، عمرو بن الحضرمي يسهم فقتله ، وأسروا عثمان والحكم ، وأفلت منهم نوفل فأعجزهم .

وقيل كان ذلك في أول ليلة من رجب وقد ظنوها آخر ليلة من جمادى ، فإقدامهم على ما أقدموا عليه كان على سبيل الخطأ .

ثم أقبل عبد الله ومن معه بالعرير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد عزلوا من ذلك الخمس فأناكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما فعلوه وقال لهم : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا . وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه القتال في الشهر الحرام ، واشتد ذلك على المسلمين ، حتى أنزل الله تعالى قوله ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير . . . (١) . والمنى : يسألونك يا محمد . عن حكم القتال في الشهر الحرام ، قل لهم . القتال فيه أمر كبير مستنكر ، وذنب عظيم مستبجح ، لأن فيه اعتداء على الشهر الحرام المقدس ، وانتهاك لمحرام الله - تعالى - .

والسائلون قيل هم المؤمنون ؛ وقد سألوا عن حكم ذلك على سبيل التعليم والنهاس المخرج لما حصل منهم . وقيل هم المشركون وسؤالهم على سبيل التحيير للنبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه ، حيث أقدم بعضهم وهو عبد الله ومن معه على القتال فيه ، فرد الله عليهم بأن القتال فيه كبير . ولكن ما فعله هؤلاء المشركون من صد عن سبيل الله وكفر به . . . الخ .

(١) تفسير بن كثير - بتصرف وتلخيص - ج ١ ص ٢٥٤ ، وسيرة

أكبر من ذلك بكثير .

فالجواب تشريع إن كان السؤال من المسلمين . وتبكيك وتوبيخ إن كان من المشركين ، لأنهم توقعوا أن يجيبهم بإباحة القتال فيه فيشكروا الشبهات حول الإسلام والمسلمين ، فاما أجابهم بأن القتال فيه كبير وأن ما فعلوه من جرائم في حق المسلمين أكبر وأعظم كتبوا وألقوا حجراً .

والمراد بالشهر الحرام الأشهر الحرم جميعها وهي ذو القعدة وذو الحجة والحرم ورجب . وسميت بذلك لحرمة القتال فيها ، قال في الشهر للجنس . وقيل للعهد والمراد بالشهر الحرام شهر رجب الذي حدثت فيه قصة عبدا لله ابن جحش وأصحابه . وقوله دقتال فيه ، بدل اشتغال من الشهر الحرام ، ودقتال ، مبتدأ أو كبير ، خبر و . فيه ، ظرف صفة لقتال مخصصة له .

قال الإمام الرازي : فإن قيل : لم نذكر القتال في قوله - تعالى - دقتال فيه ، ومن حق النكرة إذا تكررت أن تجيء باللام حتى يكون المذكور الثاني هو الأول ، لأنه لو لم يكن كذلك كان المذكور الثاني غير الأول كما في قوله - تعالى - . إن مع العسر يسرا ؟

قلنا : نعم ما ذكرتم من أن اللفظ إذا تكور وكانا فكرتين كان المراد بالثاني إذن غير الأول . والقوم أرادوا بقولهم : يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، ذلك القتال المعين الذي أقدم عليه عبدا لله وأصحابه فقال - تعالى - . قل قتال فيه كبير ، . وفيه تنبيه على أن القتال الذي يكون كبير أبس هو القتال الذي سأتم عنه ؛ بل هو قتال آخر ؛ لأن هذا القتال كان الغرض به نصرة الإسلام وإدلال الكفر فكيف يكون هذا من الكبائر ؟ إنما القتال الكبير هو الذي يكون الغرض فيه هدم الإسلام وتقوية الكفر ؛ فكان إختيار التنكير في اللفظين لأجل هذه الدقيقة . . ولو أنه وقع التعبير عنهما أو عن أحدهما بلفظ هذا التعريف ليطالب هذه الفائدة . فسبحان من له تحت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب - بل تحت كل حرف منه -

مر لطيف لا يهتدى إليه إلا أولو الالباب ، (١) .
 ثم أخذ القرآن يعدد على المشركين جرائمهم التي كل جريمة منها أكبر
 من القتال في الشهر الحرام الذي فعله المؤمنون لدفع الضرر عن أنفسهم
 أو لجهلهم بالحيقات فقال - تعالى - :
 « وصد عن سبيل الله ، وكفر به ، والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه
 أكبر عند الله » .

أى : قل يا محمد هؤلاء المشركين نحن نوافقكم على أن القتال في الشهر
 الحرام كبير ، ثم قل لهم أيضاً على سبيل التوبيخ إن ما فعلتموه أتم من
 صرفكم المسلمين عن طاعة الله وعن الوصول إلى حرمة ، ومن شرككم
 بالله في بيته ، ومن إخراجكم لأهله منه أعظم وزراً عند الله من القتال في
 الشهر الحرام .

فالمقصود من هذه الجملة التكريمة لإدخال الطمأنينة على قلوب المؤمنين
 بسبب ما وقع من عبد الله بن جحش ومن معه ، وتبكيك المشركين على
 جرائمهم التي أولها يتمثل في قوله - تعالى - : « وصد عن سبيل الله ، أى :
 منع من يريد الإسلام من دخوله ، وابتداء - سبحانه - ببيان صدهم عن سبيله
 للإشارة إلى أنهم يعاندون الحق في ذاته .

وثانيتها قوله « وكفر به ، أى : كفر بالله - تعالى - وهو معطوف على
 ما قبله ،

وثالثها قوله « والمسجد الحرام ، وهو معطوف على سبيل الله أى : وصد
 عن سبيل الله وعن المسجد الحرام بمنعهم المؤمنين من الحج والاعتبار .
 ورابعها قوله « وإخراج أهله منه ، أى : وإخراج النبي - ﷺ -
 وأصحابه من مستقرهم حول المسجد الحرام بمكة وهم القائلون بحقوقه ، كل
 ذلك « أكبر ، جرماً ، وأعظم إثمًا » عند الله ، من القتال في الشهر الحرام .

قال الجمل : فقوله « أكبر » ، خبر عن الثلاثة أعني : صد وكفر وإخراج يوفيه حينئذ احتمالان : أحدهما أن يكون خبراً عن المجموع . وثانيهما أن يكون خبراً عنها باعتبار كل واحد كما تقول : زيد وبكر وعمر وأفضل من خالد أي : كل واحد منهم على انفراده أفضل من خالد ، وهذا هو الظاهر . والمفضل عليه محذوف أي : أكبر مما فعلته السرية ، (١) .

ثم أضاف - سبحانه - إلى جرائمهم السابقة جريمة خامسة فقال : « والفتنة أكبر من القتل » ، أي : ما فعله المشركون من إنزال الشدائد بالمؤمنين تقارة بإلقاء الشبهات وتارة بالتعذيب ليحملوهم على ترك عقيدتهم أكبر إثمًا من القتل في الشهر الحرام ، لأن الفتنة عن الدين تفضي إلى القتل الكثير في الدنيا وإلى استحقاق العذاب الدائم في الآخرة .

وقيل المراد بالفتنة هنا الكفر . أي : كفركم بالله أكبر من القتل في الشهر الحرام .

وأصل الفتنة : عرض الذهب على النار ، لاستخلاصه من الغش ، ثم استعملت في الشرك وفي الامتحان بأنواع الأذى والاضطهاد .

ويعزى إلى عبد الله بن جحش أنه قال رداً على المشركين عندما قالوا : استحل محمد وأصحابه القتال في الشهر الحرام .

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة	وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد	وكفر به ، والله راه وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله	أثلاً يرى لله في البيت ساجد
فإننا وإن غير تمونا بقتله	وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقيننا من ابن الحضرمي رماحنا	بنخلة لما أوقد للحرب وائد
دماً ، وابن عبد الله عثمان بيننا	ينازعه غل من القدر عائد

وقوله - تعالى - « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن

استطاعوا ، بيان لشدة عداوة الكفار للمؤمنين ودوامها .
 أى : ولا يزال المشركون يقاتلونكم أيها المؤمنون ويضربون لكم السوء
 ويدومون على إيذاتكم لكي يرجعوكم عن دين الإسلام إلى الكفر إن استطاعوا
 ذلك وقدروا عليه . والتعبير بقوله : ولا يزالون ، المفيد للدوام والاستمرار
 للإشعار بأن عداوة المشركين للمسلمين لا تنقطع ، وأنهم لن يكفوا عن
 الإعداد لقتالهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فعلى المؤمنين ألا يغفلوا عن
 الدفاع عن أنفسهم .

و حتى ، للتعليل أى : لا يزالون يقاتلونكم لكي يردوكم عن دينكم ،
 أو بمعنى إلى ، أى : إلى أن يردوكم عن دينكم . والرّد : الصّرف عن الشئ .
 والإرجاع إلى ما كان عليه قبل ذلك : فعناية المشركين أن يردوا المسلمين بعد
 إيمانهم كافرين .

وقوله : إن استطاعوا ، يدل - كما يقول الزمخشري - على استبعاد
 استطاعتهم رد المسلمين عن دينهم ، وذلك كقول الرجل لعدوه : إن ظفرت
 بي فلا تبق على . وهو واثق من أنه لن يظفر به . ويشهد لذلك التعبير بأن
 المفيدة للشك .

وقائدة التقييد بالشرط ، إن ، التفييه على سخافة عقول المشركين ، وكون
 دوام عداوتهم للمؤمنين أن تؤدي إلى النتيجة التي يتمنونها وهى رد المسلمين
 عن دينهم ، لأن لهذا الدين ربا يحميه ، وأتباعه يفضلون الموت على
 الرجوع عنه .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يرتد عن الإسلام فقال : ومن يرتد
 عنكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة
 وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

ويرتد ، يفتعل من الرد وهو الرجوع عن دينه إلى الكفر .
 و حبطت أعمالهم ، أى : بطلت وفسدت وأصله من الحبط ، بفتح

الباء - وهو أن تأكل الدابة أكلًا كثيرًا تنتفخ معه بطونها فلا تنتفخ مما أكلت ويفسد حالها وربما تموت من ذلك . شبهه - سبحانه - حال من يعمل الأعمال الصالحة ثم يفسدها بإرتداده فتكون وبالاً عليه ، بحال الدابة التي أكلت حتى أصابها الحبط ففسد حالها .

والمعنى : ومن يرتد منكم عن دين الإسلام ، فيمت وهو كافر دون أن يعود إلى الإيمان ، فأولئك الذين ارتدوا وماتوا على الكفر بطلت جميع أعمالهم الصالحة ، وصارت غير نافعة لهم لافي الدنيا بسبب انسلاخهم عن جماعة المسلمين ، ولا في الآخرة بسبب ردتهم وموتهم على الكفر ، وأولئك الذين هذا شأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون خلوداً أبدياً كسائر الكفرة ، ولا يغنى عنهم إيمانهم السابق على الردة شيئاً .

وجيء بصفة الاقتمال من الردة وهي مؤذنة بالتكلف ، للإشارة إلى أن من باشر الدين الحق وخالط بشاشة قلبه كان من المستعبد عليه أن يرجع عنه ، فهذا المرتد لم يكن مستقراً على هذا الدين الحق وإنما كان ظناً مضطرباً غير مستقر حتى انتهى به الأمر بموته على الكفر لتكلفه الدخول في الدين الحق دون الثبات عليه .

وفي قوله «منكم» إشعار بأنه لا يتصور أن تتحقق بغية المشركين وهي أن يردوا المسلمين جميعاً عن دينهم . بل أقصى ما يتصوره العقلاء أن ينالوا ضعيف الإيمان فيرده إلى دينهم ، فيكون الله - تعالى - قد نفي خبيثه عن هذا الدين ، إذ لاخير في هؤلاء المشركين ولا فيمن عاد لإيهم بعد إيمانه ، والكل مأوام النار وبئس القرار .

قال الجمل : ومن شرطية في محل رفع بالابتداء ، يرتد فعل الشرط ، ومنكم متعلق بمحذوف لأنه حال من الضمير المستكن في يرتد ؛ ومن تلخيص ، والتقدير : ومن يرتد في حال كونه كائناً منكم أي بعضكم وعن دينه متعلق بمرتد ، وقوله فيمت وهو كافر عطف على الشرط والفاء مؤذنة

جاءت تعقيب ، وقوله وهو كافر ، جملة خالية من ضمير يمت . وقوله : فأولئك
جواب الشرط . وقوله : وأولئك أصحاب النار مستأنف لمجرد الإخبار
بجائهم أصحاب النار أو معطوف على جواب الشرط . . . (١) .

وفي الإتيان باسم الإشارة د أولئك ، في الموضوعين تنبيه إلى أنهم
أحرى به بهلك العقوبات الالهية بسبب ردتهم وموتهم على الكفر .
وفي التنصيص على حبوط أعمالهم في الدنيا والآخرة زيادة مذمة لهم ،
فهم في الدنيا - بسبب ردتهم - تسلب عنهم آثار كلمة الشهادتين من حرمة
بالأنفس والأموال والأعراض والصلاة عليهم بعد الموت ، والدفن في مقابر
المسلمين ، ومن طلاق زوجته المسلمة منه ومن عدم التوارث إلى غير ذلك
من حقوق المسلمين ، أما في الآخرة فثأبهم شأن الكافرين في ملازمتهم للنار
هذا ، ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة .

١ - حرمة القتال في الشهر الحرام ، والجمهور على أن هذا الحكم منسوخ ،
وأنه لا حرج في قتال المشركين في الأشهر الحرم لقوله - تعالى - فإذا
انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدوهم ، فإن المراد بالأشهر
الحرم هنا : هي أشهر العهد الأربعة التي أبيع للمشركين السياحة فيها في
الأرض ، لا الأشهر الحرم الأربعة المروفة ، فالنقييد بها يفيد أن قتلهم
بعد إنسلاخها مأمور به في جميع الأزمنة والأمكنة . وأيضاً لأن الرسول
(صلى الله عليه وسلم) غزا هوازن وثقيف وأرسل بعض أصحابه إلى
أوطاس ليحارب من فيها من المشركين ، وكان ذلك في بعض الأشهر
الحرم ، ولو كان القتال فيهن حراماً لما فعله النبي (صلى الله عليه وسلم) .
قال الألويسي : وخالف عطاء في ذلك ، فقد روى عنه أنه سئل عن القتال
في الشهر الحرام ، فحلف بالله - تعالى - ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم
ولا في الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه وجعل ذلك حكماً مستمراً إلى

يوم القيامة ، والأمة اليوم على خلافة في سائر الأمصار ، (١) .
وقد رجح بعض العلماء ما ذهب إليه عطاء فقال : ومهما يكن فإن
القتال في الأشهر الحرم حرام في حال الاختيار والابتداء ، فلا يصح البدء
بالغزو فيه . ولقد قال جابر : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
لا يقاتل في الشهر الحرم إلا أن يغزى أو يغزو حتى إذا حضر ذلك أقام
حتى ينسلخ .

ولقد قال بعض العلماء : إن تحريم القتال في الشهر الحرم منسوخ
بقوله - تعالى - « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » ، وبقتل النبي
(صلى الله عليه وسلم) أهل الطائف فيه . والحقيقة أنه لم يثبت ناسخ
صريح في النسخ فإن قوله - تعالى - « وقاتلوا المشركين كافة » العموم فيه
بالنسبة للمقاتلين لا بالنسبة لزمان القتال ، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم)
لم يبتدئ قتالا في الشهر الحرم مختاراً قط ، والتحریم في الاختيار
والابتداء كما بينا لا في البقاء والاضطرار ، لذا قال - سبحانه - « فلا
تظلموا فيمن أنفسكم » ، ولأن الأشهر الحرم نص عليها في خطبة الوداع
وكل ما جاء فيها غير منسوخ ، (٢) .

٢ - كذلك من الأحكام التي أخذها العلماء من الآية أن الردة تحبط
العمل في الدنيا سواء أ مات المرتد على كفره أم عاد إلى الإسلام قبل موته
بدليل قوله - تعالى - في آية أخرى « إنك أشركت ليحبطن عملك » ، فقد
علق الحبوط بمجرد الشرك ، والخطاب وإن كان للنبي (صلى الله عليه وسلم)
فالمراد أمته لاستحالة الشرك عليه . وعلى هذا الرأي سار المالكية والأحناف
ويرى الشافعية أن الردة تحبط العمل في الدنيا متى مات المرتد كافراً ،
لأن الآية تقول : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأوئك »

(١) تفسير الألوسي ج ٢ ص ١٠٨

(٢) تفسير الآية السكرية لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة . مجلة لواء

حبطت أعمالهم . . . ، ويظهر أثر الخلاف فيمن حج مسلماً ، ثم ارتد ثم أسلم . فالأحناف والمالكية يوجبون عليه إعادة الحج لأن الردة أحبطت حجه . والشافعية يقولون : لا حج عليه لأن حجه قد سبق والردة لا تحبط العمل إلا إذا مات الشخص كقرأ .

والكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفقه .

وبعد أن بين - سبحانه - عاقبه من يرتد عن دينه أتبع ذلك ببيان عاقبة المؤمنين الصادقين فقال - تعالى - « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، أولئك يرجو رحمة الله ، والله غفور رحيم » .

قال الإمام الرازي : في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان : الأول : أن عبد الله بن جحش قال : يا رسول الله : هب أنه لا عقاب علينا فيما فعلنا ، فهل نطمع منه أجراً وثواباً ؟ فنزلت الآية ، لأن عبد الله كان مؤمناً وكان مهاجراً ، وكان مجاهداً بسبب هذه المقاتلة .

وفي الثاني : أنه تعالى لما أوجب الجهاد قيل بقوله : « كتب عليكم القتال وهو - كره لكم . . . » ، وبين أن تركه سبب للوعيد أتبع ذلك بفكر من يقوم به وجزاؤه فقال : « إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا . . . » ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويعقبه وعد (١) .

والمعنى : « إن الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، واستقاموا على طريق الحق ، وأذعنوا لحكمه ، واستجابوا لأوامر الله ونواهيه : « والذين هاجروا ، أي : تركوا أموالهم وأوطانهم من أجل نصرته دينهم : « وجاهدوا في سبيل الله ، لإعلاء كلمته « أولئك » الموصوفون بتلك الصفات الثلاثة « يرجون رحمة الله » . أي : يؤملون تعلق رحمة « تعالى - بهم ، أو ثوابه على أعمالهم » والله غفور رحيم « أي : واسع المغفرة للتائبين المستغفرين ، عظيم الرحمة بالمؤمنين المحسنين .

قال القرطبي : « والهجرة معناها الانتقال من موضع إلى موضع ،
والقصد ترك الأول إشاراً للثاني . والهجرة ضد الوصل ، والاسم الهجرة .
وجاهد مفاعله من جهد إذا استخرج الجهد . والاجتهاد والتجاهد : بذل
الوسع والمجهود ، والجهاد - بالفتح - الأرض الصلبة .

ولمّا قال « يرجون » ، وقد مدحهم ، لأنه لا يعلم أحد في هذه الدنيا
أنه صائر إلى الجنة ولو بلغ في طاعة الله كل مبلغ لأمرين : أحدهما : أنه
لا يدري بماذا ختم له ، والثاني : لكلا يتكل على عمله ، والرجاء أبدأ معه
خوف كما أن الخوف معه رجاء ، (١) .

وجيء بهذه الأوصاف الثلاثة مقرّبة على حسب الواقع إذ الإيمان
يكون أولاً ثم المهاجرة من أرض الظالمين إذ لم يستطع دفع ظلمهم ، ثم
الجهاد من أجل إعلاء كلمة الحق .

وأفرد الإيمان بموصول وحده لأنه أصل الهجرة والجهاد ، وجمع
الهجرة والجهاد في موصول واحد لأنهما قرعان عنه .

وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد دعت المؤمنين إلى بذل أموالهم
وأنفسهم في سبيل نصرة الحق بأحكام أسلوب ، وبرأتهم مما أثاره المشركون
حوطهم من شبهات ، وحذرتهم من السير في طريقهم ، وبشرتهم بحسن
العاقبة متى استجابوا لتعاليم دينهم ، واعتصموا بحبله .

وبعد هذا الحديث الجامع عن البذل والتضحية ، ساق القرآن في آيتين
ثلاثة أسئلة وأجاب عنها بما يشفي الصدور ، ويصلح النفوس .

فقال تعالى :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا
 إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا
 يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾
 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ
 وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ
 شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

قوله . يسألونك عن الخمر والميسر السائلون هم المؤمنون
 وسؤالهم إنما هو عن الحكم الشرعي من حيث الحل والنحرهم . لا عن
 الحقيقة والذات فإنهم يعرفون حقيقة الخمر والميسر وذاتهما .
 قال القرطبي : والخمر مأخوذة من خمر إذا سقر ، ومنه خمار المرأة لأنه
 يستر وجهها - وكل شيء غطى شيئاً فقد خمره . ومنه خمروا آفئتيكم ، فالخمر
 تخمر العقل ، أي : تغطيه وتستره . . . فلما كانت الخمر تستر العقل وتغطيه
 سميت بذلك ، وقيل إنما سميت الخمر خمرًا ؛ لأنها تركت حتى أدركت كما يقال :
 قد اختمر العجين ، أي : بلغ إدراكه . وخمر الرأي ترك حتى يتبين فيه الوجه .
 وقيل : إنما سميت الخمر خمرًا لأنها تخالط العقل من المخامرة وهي المخالطة
 ومنه قولهم : دخلت في خمار الناس - بفتح الخاء وضمها - أي : اختلطت بهم .
 خالطاني الثلاثة متقاربة . فالخمر تركت وخمرت حتى أدركت ، ثم خالطت
 العقل . ثم خمرته ، والأصل الستر (١) .

ويرى كثير من العلماء أن هذه الآية هي أول آية نزلت في الخمر . ثم

نزلت الآية التي في سورة النساء . ثم نزلت الآية التي في سورة المائدة .
والدليل على ذلك ما رواه أبو داود وغيره عن همر بن الخطاب أنه قال
« اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت هذه الآية « يسألونك عن الخمر . »
فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، .
فنزلت الآية التي في النساء « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم
سكارى . . . ، فكان منادى رسول الله - ﷺ - « إذا أقام الصلاة -
نادى أن : لا يقربن الصلاة سكران . فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال :
« اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا . فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعى عمر
فقرئت عليه ، فلما بلغ « فهل أتم منتمون » قال عمر : « انتهينا انتهينا . »
وبهذا الرأي قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقاتدة والربيع بن أنس
وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

ويرى بعض العلماء ، أن أول آية نزلت في الخمر هي قوله - تعالى - في
سورة النحل : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرأ ورزقا
حسنا . . . »

وعلى هذا الرأي سار صاحب الكشف وبعده بعض العلماء ، فقد قال :
نزلت في الخمر أربع آيات ، نزل بمكة قوله - تعالى - « ومن ثمرات النخيل
والأعناب تتخذون منه سكرأ ورزقا حسنا . . . » فكان المسلمون يشربونها
وهي حلال لهم . ثم إن عمر ومعاذ ونفرا من الصحابة قالوا : يا رسول الله ،
أفتنا في الخمر فإنها مذهب للعقل مسلبة للمال ، فنزلت : « قل فيها لثم كبير
ومنافع للناس ، فشرها قوم وتركها آخرون . » ثم دعا عبد الرحمن بن
عوف ناسا منهم فشرّبوا وسكروا فقام بعضهم يصلي فقرا : قل يا أيها الكافرون
أعبدا تعبدون فنزلت : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . . . » فقل من يشربها .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٢٥٥ .

(٢) تفسير الكشاف في ج ١ صفحة ٢٥٩ .

ثم دعا عتبان بن مالك قوماً فيهم سعد بن أبي وقاص فلما سكروا افتخروا وتناشدوا شعراً فيه هجاء للانصار فضرب أحد الانصار سعدا بلحى بهير فضج ، فشكا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك . فقال عمر : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فنزلت : **إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ .. أُنْجِ الْآيَةَ .** .
فقال عمر : انتمينا يا رب . .

وأصحاب الرأي الأول يقولون : إن آية سورة النحل وهي قوله - تعالى -
« ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا .. » ليس لها علاقة بموضوع الخمر . ويفسرون السكر بأنه ما أحله الله مما لا يسكر وأنه هو الرزق الحسن وأن العطف بينهما من باب عطف التفسير .

واقعد كان موقف الصحابة من هذا التحريم لما يشتمونه ويجبونه من الخمر والميسر ، يمثل أسمى ألوان الطاعة والاستجابة لأوامر الله ونواهيه ، فعندما بلغهم تحريم الخمر أراقوا ما عندهم منها في الطرقات . بل وحطموا الأواني التي كانت توضع فيها الخمر امتثالاً وطاعة لله - تعالى - .

وهكذا نرى قوة الإيمان التي غرسها الإسلام في نفوس أتباعه من طريق تعاليمه السامية ، وتربيته الحكيمة ... تغلبت على ما أحبتة النفوس ، وأزالت من القلوب ما ألفتها الطبائع ،

هذا ، وجمهور العلماء على أن كلمة « خمر » تشمل كل شراب مسكر سواء كان من عصير العنب أم من الشعير أم من التمر أم من غير ذلك ، وكلها سواء في التحريم قل المشروب منها أو أكثر سكر شاربته أو لم يسكر . ومن أدلتهم ما رواه الإمام مسلم عن ابن عمر - أن رسول الله - ﷺ - قال : كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام ، ومن شرب الخمر في الدنيا ومات وهو يدهمها لم يقب منها لم يشربها في الآخرة (١) .

ومن أدلتهم أيضاً أصل الاشتقاق اللغوي لكلمة خمر ، فقد عرفنا أنها

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة ج ٦ ص ١٠٠ .

سميت بهذا الاسم لمخامرتها العقل وستره ، فكل ما خامر العقل من الأشرطة
وجب أن يطلق عليه لفظ خمر سواء أ كان من العنب أم من غيره .

وقال الأحناف ووافقهم بعض العلماء كإبراهيم النخعي وسفيان الثوري
وابن أبي ليلى : إن كلمة خمر لا تطلق إلا على الشراب المسكر من عصير
العنب فقط ، أما المسكر من غيره كالشراب من الهمر أو الشعير فلا يسمى
خمرا بل يسمى نبيذا . وقد بنوا على هذا أن المحرم قليله وكثيره وإنما هو
الخمير من العنب . أما الأئمة فمكثروا حراما وقليلها حلال .

وقد رجح العلماء رأي الجمهور وضمفوا ما ذهب إليه الأحناف ومن
وافقهم .

قال ابن العربي : وتعلق أبو حنيفة بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة
فلا يلتفت إليها . والصحيح ما روى الأئمة أن أنسا قال : حرمت الخمر يوم
حرمت وما بالمدينة خمر الأعتاب إلا قليل ، وعامة خمرها البسر والتمر ،
خرجه البخاري ، واتفق الأئمة على رواية أن الصحابة إذ حرمت الخمر لم
يكن عندهم يؤخذ خمر عنب ، وإنما كانوا يشربون خمر الفبيذ فمكثروا
دنانهم - أي أواني الخمر - وبادروا إلى الأمتثال لا اعتقادهم أن ذلك كله
خمر ، أي وأفرم رسول الله - ﷺ - على ذلك - (١) .

وقال الألويسي : وعندى أن الحق الذي لا ينفى العدول عنه أن الشراب
المنتخذ مما عدا العنب كيف كان وبأى اسم سمي متى كان بحيث يسكر
من لم يتعوده حرام ، وقليله ككثيره ، ويحد شاربه ويقع طلاقه ونجاسته
غليظة . وفي الصحيحين أنه - صلى الله عليه وسلم - سئل عن النقيع - وهو
فبيذ العسل - فقال : « كل شراب أسكر فهو حرام » ، وروى أبو داود أنه
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن كل مسكر ومفتر ، وصح ما أسكر
كثيره فقليله حرام ، والأحاديث متضافرة على ذلك . ولعمري إن اجتماع

الفساق في زماننا على شرب المسكرات مما عدا الخمر، ورغبتهم فيها، فوق اجتماعهم على شرب الخمر، ورغبتهم فيه بكثير، وقد وضعوا لها أسماء - كالعنبرية والإكسير - ونحوهما ظنا منهم أن هذه الأسماء تخرجها من الحرمة، وتبيح شربها للامة، - وههنا هيهات - فالأمر وراء ما يظنون وإنما وإنا لا إله إلا هو راجعون، (١) .

بعد هذه الكلمة التمهيدية عن الآية، وعن مدلول كلمة خمر تنتقل إلى معنى كلمة الميسر، فنقول: الميسر: القمار - بكسر القاف - وهو في الأصل مصدر ميمي من يسر، كما وعد من وعد . وهو مشتق من اليسر بمعنى السهولة . لأن المال يجيء للكاتب من غير جهد، أو هو مشتق من يسر بمعنى جزأ - ثم أصبح علما على ما يتقارن عليه كالجزور ونحوه .

قال القرطبي نقلا عن الأزهرى: الميسر: الجزور الذي كانوا يتقارون عليه، سمي ميسرا؛ لأنه أجزاء، فلأنه موضع التجزئة، وكل شيء جزأته فقد يسرته . والياسر: الجازر لأنه يجزى لحم الجزور . . ويقال للضاربين بالقداح والمتقارمين على الجزور: يأسرون، لأنهم جازرون إذ كانوا سببا لذلك (٢) .

وصفة الميسر الذي كانت تستعمله العرب أنهم كانت لهم عشرة أقداح يقال لها الأزلام أو الأفلام، فكانوا إذا أرادوا أن يقامروا أحضروا بعيرا وقسموه ثمانية وعشرين قسما وترك ثلاثة من تلك الأقداح غفلا لاعلامه عليها وكانت تسمى: السفيح، والمنبج، والوغد . ومن طلع له واحد منها لا يأخذ شيئا من الجزور . أما السبعة الأخرى فهي الراجعة وهي الفذولة سهم واحد، والتوأم وله سهمان، والرقيب وله ثلاثة، والحلس وله أربعة، والنافس وله خمسة والمسبل وله ستة، والمعلى وله سبعة فيكون المجموع ثمانية وعشرين سهما .

(١) تفسير الألوسى ج ٢ صفحة ١١٣ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٥٢ .

تلك صورة تقريرية لقمار العرب كما أوردها بعض المفسرين (١) ، ولا شك أنه يدخل في تحكّمها من حيث الحرمة ما كان مشابها لها في المخاطرة والرهان وأخذ الأموال بدون مقابل مشروع ، أو ضياعها فيما حرمه الله ومعنى الآية الكريمة : يسألك أصحابك يا محمد عن حكم شرب الخمر ولعب الميسر ، قل لهم على سبيل الإرشاد والإعلام : في تعاطيها «إثم كبير ، أى : ذنب عظيم ، وضرر شديد وذلك لما فيهما من القبايح المنافية لمحاسن الشرع من الكذب ، والأذى ، وشيوع العداوة والبغضاء بين الناس ، واستلاب أموالهم بغير حق .

وقوله « ومنافع للناس ، أى وفيها منافع دنيوية للناس إذا الخمر تدر على المتاجرين فيها أرباحا مالية ، والميسر يؤدي إلى إصابة بعض الناس للعمال بدون تعب ،

وأطلق - سبحانه - الإثم وقيد المنافع بأنها للناس ، للتنبية على أن الإثم في الخمر والميسر ذاتي ، فمهما في ذاتها رجس كبير ، وخطر وبيل ، وأن ما فيهما من منافع ضئيل ولا يتجاوز بعض الناس ، فهي منافع خاصة وليست عامة ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك .

« وإثمهما أكبر من نفعهما ، أى أن المفاسد والأضرار التي تترتب على تعاطيها ، أعظم من المنافع التي تنشأ عن تعاطيها ، إذ تعاطيها يؤدي إلى حتفنة بعض الناس ، أما مضارهما فكثيرة ، من ذلك أن تعاطي الخمر يضعف الضمير ، ويفسد الأخلاق ، ويميت الحياء ، ويفقد الرشد ، ويتلف المال ، ويغري بالتنازع بين الناس ، ويقسب - كما قال الأطباء - الثقة - في كثير من الأمراض كأمرض الكبد والرتتين والقلب . . . الخ . وإن شئت المزيد من معرفة مضار الخمر فراجع ما كتبه العلماء

(١) راجع تفسير الألوسي ج ٢ ص ١١٣ ، وتفسير القرطبي

المختصون في ذلك (١) .

أما تعاطى الميسر فن مضاره - كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده - إفساد التربية بتعويد النفس الكسل ، وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية ، وإضعاف القوة العقلية ، بترك الأعمال المفيدة في طرق الكسب الطبيعية ، وإهمال المقامرين للزراعة والتجارة والصناعة التي هي أركان العمران ، وتخريب البيوت فجأة بالانتقال من الغنى إلى الفقر في ساعة واحدة ، فكم من عشيرة كبيرة نشأت في العز والغنى وانحصرت ثروتها في رجل أضاعها عليها في ليلة واحدة ؛ فأصبحت غنية وأمست فقيرة (٢) .

لذن فالمنافع الدنيوية التي تعود إلى بعض الناس من تعاطى الخمر والميسر لا تناسى شيئاً بجانب تلك المضار الجسيمة التي تعود على أفراد الأمة في دينهم وعقولهم وأجسامهم وأموالهم وترا بطهم ، وصدق الله إذ يقول :
« إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

ثم يأتي بعد ذلك السؤال الثاني الذي ورد في هاتين الآيتين وهو قوله
- تعالى - : « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » .

ومناسبة هذا السؤال لما قبله أنهم بعد أن نهوا عن إنفاق أموالهم في الوجوه المحرمة كتعاطى الخمر والميسر ، سألوها عن وجوه الإنفاق الحلال ، وعن مقدار ما ينفقون فأجيبوا بهذا الجواب الحكيم .

قال الألوسي : أخرج بن إسحاق عن ابن عباس أن نقرأ من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أنوا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالوا :
إننا لا ندرى ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا وما الذي تنفقه منها فأنزل

(١) راجع على سبيل المثال تفسير الجواهر، في معنى الآية المرحوم

طنطاوى جوهري وتفسير المنار ج ٢ ص ٣٢١

(٢) تفسير المنار ج ٢ ص ٣٣٠

الله - تعالى - « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو، وكان الرجل قبل ذلك ينفق ماله حتى لا يجد ما يتصدق ولا مالا يأكل » (١) .

وأصل العفو في اللغة الزيادة . قال - تعالى - « ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا » أي زادوا على ما كانوا عليه من العدد . ويطلق على ما سهل ويسر مما يكون فاضلا عن الكفاية . يقال : خذ ما عفا لك . أي ما يتيسر . كما يطلق على الترك قال - تعالى - « عفا الله عما سلف ، أي تركه وتجاوز عنه .

والمراد به هنا : ما يفضل عن الأهل ويزيد عن الحاجة ، إذ هذا القدر الذي تيسر لإخراجه ويسهل بذله ، ولا يتضرر صاحبه بتركه ، والمعنى ، ويسألونك ما الذي يتصدقون به من أموالهم في وجوه البر ، فقل لهم تصدقوا بما زاد عن حاجتكم ، وسهل عليكم إخراجه ، ولا يشق عليكم بذله .

وفي هذه الجملة الكريمة إرشاد حكيم إلى التعاون والقراحم بين أفراد المجتمع ، وتوجيه إلى المنهاج الوسط الذي يأتي التبذير وينفر من التقدير ، وفي أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما يؤيد هذا الإرشاد والتوجيه ، ومن ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وأبدأ بمن تعمل . وأخرج مسلم عن جابر أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : لأبدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلاهلك ، فإن فضل عن أهلك شيء . فلذلك قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا ، . إلى غير ذلك من الأحاديث التي وردت في هذا المعنى .

والأستاذ الإمام كلام جيد في هذا المقام ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : إن الأمة المؤلفة من مليون فرد إذا كانت تبذل من فضل مالها في مصالحها العامة كإبداد القوة وتربية الناشئة . . . تكون أعز وأقوى من

أمة مؤلفة من مائة مليون فرد لا يبذلون شيئا في مثل ذلك ؛ لأن الواحد من الأمة الأولى يعد بأمة ، إذ هو يعتبر نفسه جزءا منها وهي كل له ، بينما الأمة الثانية لا تعد بواحد لأن كل فرد من أفرادها يخذل الآخر . . . وفي الحقيقة أن مثل هذا الجوع لا يسمى أمة ، لأن كل واحد من أفرادها يعيش وحده وإن كان في جانيه أهل الأرض ، فهو لا يتصل بمن معه ليدعم ويستمدد منهم (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله وكذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة .

أى : مثل هذا البيان الحكيم الذي بيئه الله لكم فيما سألتكم عنه يبين لكم في سائر كتابه آياته وأحكامه وحججه لكي تتفكروا وتدبروا فيما ينفعكم في دنياكم وآخرتكم ، بأن تعملوا في الدنيا العمل الصالح الذي يجعلكم تظفرون برضا الله في أخراكم .

قال صاحب الكشاف : وقوله « في الدنيا والآخرة » إما أن يتعلق بتفكرون ، فيكون المعنى : لعلكم تفكرون فيما يتعلق بالدارين فتأخذون بما هو أصلح لكم ، كما بينت لكم أن العفر أصلح من الجهد في الثقة وتفكرون في الدارين فتؤثرون بأفعالهما وأكثرهما منافع . ويجوز أن يكون إشارة إلى قوله « وإثمهما أكبر من نفعهما » فيكون المعنى : لتفكروا في عقاب الإثم في الآخرة والنفع في الدنيا ، حتى لا تختاروا للنفع العاجل على اللذجة من العقاب الآليم . وإما أن يتعلق بيبين على معنى : يبين لكم الآيات في أمر الدارين وفيما يتعلق بهما لعلكم تتفكرون » (٢) .

أما السؤال الثالث والآخر الذي ورد في هاتين الآيتين فهو قوله تعالى « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن ظنوا بطوهم فأخوانكم . . . » أخرج أبو داود والحاكم والنسائي وغيرهم عن ابن عباس قال :

(١) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٢٨

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٦٣

لما نزل قوله - تعالى - « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن » ، وقوله - تعالى - « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً » انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه . وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه وشرابه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم . فذكروا ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأمر الله - تعالى - « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ، فخالطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم ، (١) .

والمعنى : ويسألونك يا محمد عن القيام بأمر اليتامى أو التصرف في أموالهم أو عن أموالهم وكيف يكونون معهم فقل لهم : إن المطلوب هو إصلاحهم بالتهذيب والتربية الرشيدة . والمعاملة الحسنة ، وإصلاح أموالهم بالمحافظة عليهم وعدم إنقاصهم إلا في الوجوه المشروعة فهذا الإصلاح المفيد لهم ولأموالهم خير من مجازبتهم ، وتركهم ، ولذا قال - تعالى - بعد ذلك : « وإن تخالطوهم فإخوانكم ، أى : وإن تعاشرهم وتضوهم إليكم فاعتبروهم وإخوانكم في العقيدة والإنسانية ، وعاملوهم بمقتضى ما تفرضه الأخوة من تراحم وتعاطف ومساواة .

والجملة الكريمة معطوفة على ما قبلها . « وإصلاح ، مبدأ وسوغ الابتدائية به مع أنه نكرة وصفه بالجار والمجرور لهم . « وخير ، خبره وقوله « فإخوانكم ، الفاء واقعة في جواب الشرط ، وإخوانكم خبر لمبتدأ محذوف والتقدير فهم إخوانكم ، والجملة في محل جزم على أنها جواب الشرط .

وقوله « والله يعلم المفسد من المصلح ، وعد وعيد ، وترغيب في الإصلاح وترهيب من الإفساد ، أى : والله يعلم المفسد لشتون هؤلاء اليتامى من المصلح لها ، كما أنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وصيحاغزى كل إنسان على حسب عمله ، فاحذروا الإفساد ولا تتعروا غير الإصلاح

ثم قال - تعالى - ولو شاء الله لأعنتكم ، العنت : الشدة والمشقة والتضييق . يقال : أعنته في كذا يعنته إعناتنا ، إذا أجهده والزمه ما يشق عليه .
أى : ولو شاء الله لضيق عليكم وأخرجكم بتحريم مخالطة هؤلاء اليتامى ، وبغير ذلك مما يشرع لكم ، وإكنته - سبحانه - وسع عليكم وخفف فأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن ، فاشكروه على ذلك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : إن الله عزيز حكيم ، أى : إن الله - تعالى - غالب على أمره لا يعجزه أمر من الأمور التي من جملةها إعناتكم . قادر على أن يعز من أعز اليتامى وبذل من بذلهم ، حكيم في كل تصرفاته وأفعاله ، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها .

وقد استدل العلماء بهذه الآية على جواز التصرف في أموال اليتامى على وجه الإصلاح ، وعلى أن للولي أن يحافظ اليتيم بنفسه في المصاهرة والمشاركة وغير ذلك مما تقتضيه المصلحة .

وقد وردت أحاديث متعددة في رعاية اليتيم وإصلاح أحواله ومن ذلك ما رواه البخارى عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى وفرق بينهما .
وروى الطبرانى عن أبى الدرداء قال : أتى النبى (صلى الله عليه وسلم) رجل يشكو قسوة قلبه ، فقال له النبى : (صلى الله عليه وسلم) أحب أن يلين قلبك وتذكر حاجتك ، وإرحم اليتيم ، وامسح رأسه ، وأطعمه من طعامك ، يلين قلبك وتذكر حاجتك .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين الكريمتين قد اشتملتا على أفضل ألوان الإصلاح للأفراد والجماعات فى مطاعهم ومشاربهم ونفقتهم وعلاقتهم بغيرهم ولا سيما اليتامى الذين فقدوا الأب الحانى ، والقلب الرحيم . ومن شأن الأمة التى تعمل بهذا التوجيه السامى الحكيم أن تنال السعادة فى دنياها ، ورضا الله - تعالى - فى آخرها .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك في اثنتين وعشرين آية (١) عن بعض أحكام وآداب الزواج ، والمعاشرة ، والإيلاء والطلاق ، والعدة ، والنفقة ، والرضاء ، والخطبة ، والمتعة ، وغير ذلك مما يتعلق بصيانة الأسرة وتقويتها ، وبثباتها على أفضل الدعائم ، وأحكم الروابط ، إذ الأسرة هي اللبنة الأساسية في بناء المجتمع ، ومن مجموعها يتسكون ، فإذا صلحت الوحدات والمكونات صاح البنيان ، وإذا تصدعت تصدع

واقدمت لإبتدأت الآيات التي معنا حديثها عن الأسرة بالحديث عن الزواج لأنه أعق الروابط وأقواها ، ومنه تنبأى الذرية ، لذا جعل أساس الاختيار فيه هو التدبير السليم ، والحق القويم ، الذي يسعد ولا يشقى ، ويبني ولا يهدم ، ويحفظ ولا يضيع . . . ، ولا يتأتى ذلك إلا باختيار المسلمة الصالحة والإعراض عن المشركة الكافرة .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يبين ذلك فيقول :

وَلَا تَنْكِحُوا

الْمُشْرِكِ حَتَّىٰ يَؤْمِنَ ۚ وَلَآئِمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۚ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۗ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ ۗ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۗ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ ۗ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

قوله - تعالى - « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، النكاح في اللغة الضم وتداخل أجزاء الشيء بعضها في بعض . ثم أطلق على العقد الذي به تكون العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة مشروعة ،

(١) من الآية ٢٢١ وهي « ولا تنكحوا المشركات . . . الخ ، قوله « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ، الآية ٢٤٢

والمشرك في لسان الشرع من يدين بتعدد الآلهة مع الله - تعالى - وأصله من الإشراك بمعنى أن تجعل الشيء بينك وبين غيرك شركة ، فمن يعبد مع الله - تعالى - إلهاً آخر يعد مشركاً ، وهو في الآخرة من الخاسرين .

ويرى كثير من العلماء أن إطلاق كلمة : مشرك ، ومشركين ، ومشركات في القرآن الكريم تعنى عبدة الأوثان ، وأنها صارت في استعمال القرآن حقيقة عرفية فيهم ، ولم يطلقها القرآن على اليهود والنصارى وإنما عبر عنهم بهذا الاسم أو بأهل الكتاب ، أو بوصف الكفر دون الشرك كما في قوله - تعالى - « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل ... » وعليه فالمراد بالمشركات والمشركين في الآية عبدة الأوثان .

وذهب بعضهم إلى أن لفظ المشركات يشمل بمقتضى عمومها المرأة الوثنية ، واليهودية ، والنصرانية .

وقد ترتب على هذا الخلاف في إطلاق كلمة « مشرك » ، أن أصحاب الرأي الأول قالوا : إن النهي في الآية إنما هو عن زواج المشركات اللاتي يعبدن الأوثان ولا كتاب لهن ، وأنه يجوز - مع الكراهة - أن يتزوج المسلم الكنازية ، لأن القرآن يقول : « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ، وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من اللاتي أوتوا الكتاب من قبلكم . . الآية » (١) . ولأنه قد جاءت الروايات بأن بعض الصحابة قد تزوج بكنازيات . فعثمان بن عفان تزوج نصرانية ثم أسلمت ، وطلحة بن عبيد الله وحذيفة بن اليمان تزوجا يهوديتين .

أما من قال بالرأى الثاني فيرى حرمة الزواج بالوثنية واليهودية والنصرانية لأن لفظ المشركات يشملهن جميعاً . وأصحاب هذا الرأي - كما يقول الألوسي - يجعلون آية المائة وهي قوله - تعالى - « والمحصنات من المؤمنات ... » منسوخة بالآية التي معنا فنسخ الخاص بالعام . . وإلى هذا الرأي ذهب الإمامية وبعض الزيدية (٢) .

وروى عن عمر وعبد الله ابنة - رضى الله عنهما - أنهما حرما ذلك
وفى رواية أنهما كرهاه . وهى الأصح .

قال القرطبي : وروى عن عمر أنه فرق بين طلحة بن عبيد الله وحذيفة
ابن اليمان وبين كتابيتين وقال : نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب . فقال :
لو جاز طلائكنا لجاز نكاحكما ولكن أفرق بينكما صغرة قاة . قال ابن عطية
وهذا لا يستند جيداً ، وأستد منه أن عمر أراد التفريق بينهما فقال له
حذيفة : أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها يا أمير المؤمنين ؟ فقال : لا أزعج
أنها حرام ولكن أخاف أن تعاطوا المومسات منهن .

ثم قال القرطبي : وكان ابن عمر إذا سئل عن نكاح الرجل النصرانية
أو اليهودية . قال حرم الله المشركات على المؤمنين ولأعرف شيثان الإشرار
أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى أو عبد من عباد الله . قال النحاس : وهذا قول
خارج عن قول الجماعة الذين تقوم بهم الحجة ، لأنه قال بتحليل نكاح
نساء أهل الكتاب من الصحابة والتابعين جماعة منهم عثمان وطلحة وابن عباس . .
ومن التابعين سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد . . . وفقهاء
الأمصار عليه ، وأيضاً فيمتنع أن تكون هذه الآية من سورة البقرة ناسخة
للآية التى فى سورة المائدة ، لأن البقرة من أول ما نزل بالمدينة والمائدة من آخر
ما نزل ، وإنما الآخر ينسخ الأول - أو يخصصه - ، وأما قول ابن عمر فلا
حجة فيه ، لأن ابن عمر - رضى الله عنه - كان متوقفاً ، فلما سمع الآيتين
فى واحدة التحليل وفى أخرى التحريم ولم يباهه للنسخ توقف ، ولم يؤخذ
عنه ذكر النسخ وإنما قول عليه ، وليس يؤخذ بالناسخ والمنسوخ بالتأويل ، (١)
والذى نراه أن زواج المسلم بالكتابية جائز لأن القرآن صريح فى ذلك ، ولأن
عمر - رضى الله عنه - أفر بأنه ليس بحرام ، فتكون آية المائدة مخصصة لآية
البقرة على فرض عمومها ، ومبينة لحكم جديد خاص بالكتابيات ، وهو الجواز .
ولكن هذا الجواز لا يمنع كراهته ، لأن الزواج بالكتابية كثيراً ما يؤثره

إضعاف العاطفة الدينية عند المسلم ، وعند الأطفال الذين يكونون مُبررة لهذا الزواج ، لأنهم يخرجون إلى الحياة وقد وضعوا الميل إلى دين أمهم ، ولأن المرأة الكتابية التي تقبل الزواج بالمسلم كثيراً ما تكون منحرفة في سلوكها ، وأن الدافع لها إلى هذا الزواج إنما هو المال أو الجمال أو الجاه وليس الدين أو الخلق ، لأنه لو كان الدافع ذلك لرضيت بالإسلام دنياً ، وبآدابه خالقاً لها ، وما أحكم قول عمر الخديفة : « لا أزعم أنها حرام وإن كان أخاف أن تعاطوا الموامسات منهن » .

هذه خلاصة لآراء العلماء في هذه المسألة ومن أراد المزيد فليرجع إلى أفوالهم في مظانها (١) .

والمعنى : أنها كم أيها المؤمنون أن تزوجوا بالنساء المشركات حتى يؤمن بالله - تعالى - ، ويدعن لتعاليم الإسلام وآدابه .

وقوله « ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم » ، تعليل للنهي ، وبيان لفضل المؤمنات على المشركات ، ولفضل طهارة النفس على جمال الجسم ، والمراد بالأمة هنا الأئمة المملوكة من الرقيق ، وبالمشركة الحرة الجميلة بقربنه المقابلة .

أى : ولأئمة رقيقة مؤمنة مع ما بها من الرق وقلة الجاه والجمال خير في الزواج بها من امرأة حرة مشركة ولو أعجبتكم بجمالها ونسبها وغير ذلك من منافع دنيوية ، لأن ما يتعلق بالمنافع الدينية يجب أن يقدم على المنافع الدنيوية ، ولأن الزواج إرتباط روحي بين قلبين ، ومن العسير أن يتم هذا الترابط بين قلب يخلص لله في عبادته ، وقلب لا يدين بذلك .

وصدرت الجملة بلام الابتداء الشبيهة بلام القسم في إفادة التأكيد مبالغاً في الحمل على الانزجار ، وقد أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) أتباعه أن يجعلوا الدين أساس رغبتهم في الزواج ، فقد أخرج الشيخان عن أبي

(١) راجع - على سبيل المثال - تفسير الفهر الرازي ج ٦ ص ٥٧ .
و تفسير القرطبي ج ٢ ص ٦٦ .

حريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : تنكح المرأة لأربع :
للمالها ولحسبها ولجلها ولدونها فاطفر بذات الدين تربت يداك .

وعن عبدالله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يردن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل .

والأحاديث النبوية في هذا المعنى كثيرة .

ثم قال - تعالى - : ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، أى : لا تزوجوا أيها المؤمنون النساء المؤمنات للرجال المشركين حتى يتركوا ما هم عليه من شرك ويدخلوا في دين الإسلام ، فإذا فعلوا ذلك حل لكم أن تزوجوهن النساء المسلمات ، لأنهم بدخولهم في الإسلام قد أصبحوا إخوانا لكم .

واللهى هنا يتناول المشرك الذى يعبد الأوثان ويتناول غيره ممن لا يدين بالإسلام كأهل الكتاب ، لأن القرآن قد جعل الإيمان غاية للنهى ، فإذا لم يكن هناك إيمان من الرجل لم يكن له أن يزوج من المرأة المؤمنة ، ولأن الله - تعالى - يقول في آية أخرى : يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فاهنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن عامتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لأن حل لهم ولا هم يحلون لهن ، وآقوهن ما أنفقوا ، ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر .

فهذه الآية صريحة في أن زواج المسلمة بالكافر لا يجوز ، وكلمة كافر تشمل أهل الكتاب بدليل قوله - تعالى - لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم . . . وقوله تعالى : وما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم . . .

قال الفخر الرازى : لا خلاف هاهنا في أن المراد به - أى بلفظ المشركين - الكافر ، وأن المؤمنة لا يحل تزويجها من الكافر ألبتة على اختلاف أنواع

(١) الكفرة .

وقوله « ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » ، بيان لفضل الإيمان على الشرك ، لما في قوله - تعالى - « ولأمة مؤمنة خير من مشركة . . . » ، إذا نسبة المؤمن أو المؤمنة إلى هذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده أفضل وأجل من الانسحاب إلى أى شئ آخر .

ثم بين - سبحانه - علة النهي عن الزواج بالمشركين والمشركات فقال - تعالى - « أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه » ، أى : أولئك المذكورون من المشركين والمشركات يدعون من بقارتهم وبعاشرهم إلى الأقوال والأفعال والعقائد التى تفضى بصاحبها إلى دخول النار حتى الآخرة والله - تعالى - يدعو عباده على السنة رسله إلى الأقوال والأعمال والعقائد التى توصل إلى جنته ومغفرته .

فالمراد بالدعاء إلى النار الدعاء إلى أسبابها وإلى ما يوصل إليها ، وكان الاقتران هؤلاء المشركين والمشركات سببا في الوصول إليها ، لأن الزواج من شأنه الألفة والمودة والمحبة وشدة الاتصال ، وكل ذلك يجعل المسلم أو المسلمة يتقبلان ما عليه المشرك أو المشركة من فسوق وعصيان لله - تعالى - بل ربما يمرور الأيام لا يكتفيان بالتقبل بل يستحسنان فعلها ، وبذلك تنحل عرا الإسلام من نفس المسلم والمسلمة عروة فعروة ، حتى لا يبقى منه سوى الاسم ، كما نشاهد ذلك في كثير من المسلمين الذين تزوجوا بغير مسلمات .

والمقصود من قوله - تعالى - « والله يدعو إلى الجنة » ، إغراء المؤمنين بالتمسك بتعاليم دينهم ، وتنفيرهم من الاقتران بغير من يكون على شاكلتهم في الدين ، لأن من يخالفهم في عقيدتهم طريقه بغير طريقهم ، وهدفه يخالف هدفهم ، وعاقبته تباين عاقبتهم .

والدعاء إلى الجنة والمغفرة المراد به الدعاء إلى أسبابها كما في الجملة السابقة المقابلة وقيد - سبحانه - الدعاء إلى الجنة والمغفرة بقوله « بإذنه » ،

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٦ صفحة ٦٤ . (م - ٤١ البقرة)

أى بأمره وإرادته وهامه ، لأنه - سبحانه - هو المالك لكل شيء ، ولا يقهر في ملكه إلا ما يريد به ويقدره .

قال بعض العلماء ما ملخصه : وقد يقول قائل : هذه الدعوة إلى النار قد تكون أيضاً في زواج المسلم بالكتائبية ، كما هي في زواج المسلم بالمشاركة ، وكان مقتضى هذا أن يحرم زواج المسلم بغير المسلمة مطلقاً ، كما حرم زواج المسلمة بغير المسلم مطلقاً ، وإن ذلك الكلام موضعه ، وإن ذلك أجمع الفقهاء على كراهة زواج المسلم بالكتائبية ، بل زعم بعض العلماء أن زواج المسلم من الكتائبية محرم كزواجه من المشركه .

ولكن الجمهور لا يقطعون بالتحريم أمام النص القاطع بالحل ، ولا يعملون العلة ليهمل النص ، بل يرون علة التحريم لا تتوافر في الكتائبية توافرها في المشركه ، فإن المشركه لا ترتبط بأى قانون خلقى يصعدها من الزلل . . أما الكتائبية فإن مجموع الفضائل الإنسانية . . لا تزال باقية في تعاليم دينها فيمكن الاحتكام إليها . . .

والقرآن في جده مع أهل الكتاب كان يلاحظ إمكان التفاهم معهم على قواعد يمكن حملهم على الإقرار بها كما في قوله - تعالى - : قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً . . الآية . .

وأمرنا أن نجادلهم بالتي هي أحسن فقال : . . ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم . . الآية . .
فكان من أطراد تلك المعاملة الحسنة المقربة غير المبعدة ، أن أباح الإسلام الزواج من الكتائبيات .

بيد أنه يلاحظ في إباحة الزواج من الكتائبيات أمران :

أولهما : أن النص القرآني المبيح خاص بالمحصنات ممنهن ، إذ قال - سبحانه - والمحصنات من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ، والمحصنات - في

أظهر التفسير - من العقيقات ، فأولئك الذين يعمدون إلى المنحرفات منهم في أخلاقهم وعقولهم ولا يتخيرون ، خارجون عن موضع الإباحة فيما أحسب ، لأن الله أحل المحصنات وهم استحلوا المنحرفات .

ثانيتها : أن ولي الأمر إذا رأى خطرا على الدولة الإسلامية أو على المجتمع الإسلامي له أن يمنع الناس من ذلك الزواج بوضع عقوبات إن يقدم عليه سدا للذريعة ومنعا للشر ، وذلك من باب السياسة الشرعية ، لا من باب تحريم ما أحل الله ، لأن الحل قائم على أصله ، والمنع وارد على الضرر الذي يلحق المسلمين ، إذ في ذلك من الاعتداء على جماعتهم ما فيه ، كما أن أصل الأكل حلال ، ولكن اغتصاب أموال الناس لناكلها حرام ، ولذلك سارت الدولة على منع بعض رجالها من الزواج بالأجنبيات ، (١) .

وقوله - تعالى - في ختام الآية ، وبين آياته للناس لعلمهم يذكرون ، معطوف على يدعو إلى الجنة . أي أنه - سبحانه - يدعو الناس إلى ما يوصلهم إلى جنته ومغفرته وبين لهم آياته وأوامره ونواهيته في شئون الزواج وفي غير ذلك من الأحكام لكي يتعظوا ويعتبروا ويتذكروا وأما أمرهم الله به فيعملوه ، وما نهاهم عنه فيتركوه .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد رسمت للناس أقوم السبل ، لكي يعيشوا في ظل أسرة فاضلة ، تظلم السعادة ، ويسودها الأمان والاطمئنان ، ويتعاون أفرادها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .

وبعد أن أمر الله - تعالى - المسلم بأن يجعل التدين وحسن الخلق محط اختياره في الزواج ، أتبع ذلك بإرشاده إلى بعض الآداب التي يجب عليه أن يسلكها مع زوجته حتى تكون علاقتهما قائمة على ما يقتضيه الطبع السليم والخلق القويم وحتى تكون في أعلا درجات التطهر والتزهد والعفاف . فقال - تعالى - :

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة

مجلة لواء الإسلام السنة الخامسة العدد ١٢ سنة ١٩٥٢ .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ
وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ ۚ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ
اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاءٌ وَكُرْحٌ
لَّكُمْ فَأَتُوا حُرَّتِكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِنَفْسِكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا
أَنَّكُمْ مَلْقَوُهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك - رضى الله عنه -
أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوا في البيوت
أى لا يسكنون معهن - فسأل الصحابة النبي - صلى الله عليه وسلم - فأُنزل
الله - تعالى - ويسألونك عن المحيض قل هو أذى . الآية ، فقال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - اصنعوا كل شئ إلا النكاح . فبلغ ذلك اليهود
فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه . فجاء أسيد
بن حضير وعباد بن بشر فقالا : يا رسول الله ، إن اليهود تقول كذا وكذا ،
أفلا نجتمعن ؟ فتغير وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى ظننا أن
قد وجد عليهما - أى غضب - فاستقبلتهما هدية من لبن إلى النبي - صلى الله
عليه وسلم - فأرسل في آثارهما فقاهما ، فمرقا أن لم يجد عليهما ، (١) .

والمحيض : الحيض مصدر حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحاطاً
ومحيضاً فهى حائض ، وأصله السيلان . يقال حاض الوادى إذا سال ،
ومنه الخوض لسيلان الماء إليه

ثم أطلق الحيض على ما يقذفه رحم المرأة من دم في أوقات مخصوصة على وجه مخصوص .

والأذى : الشئ الذي يتأذى منه الإنسان ويصيبه الضرر بسببه .
والسؤال كان من بعض الصحابة ، لأنهم لقوة إيمانهم كانوا يجنون أن يعرفوا حكم الإسلام في شئونهم الخاصة والعامة ، ولأنهم وجدوا أن اليهود وغيرهم يعاملون المرأة في حال حيضها معاملة غير كريمة ، فسألوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن هذا الأمر الذي يتصل بأدق العلاقات بين الرجل والمرأة وهو حكم مباشرة النساء في حال الحيض ، فأجابهم الله - تعالى - جواباً شافياً .

والمعنى : ويسألك أصحابك يا محمد عن حكم مباشرة النساء في حال الحيض فقل لهم معلماً وموجهاً : إن الحيض أى الدم الذى يلفظه رحم المرأة في وقت معين أذى يتأذى به الإنسان تأذياً حسيماً جسيماً ، فرائحته يتأذى منها من يشلمها ، وهو في ذاته شئ منقذر تعافه النفوس ، وتفتر منه الطباع وقوله : فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، بيان للحكم المتفرع على تلك الحالة التي يتأذى منها وهي حالة الحيض .
والاعتزال : التباعد ، وهو هنا كناية عن ترك الجماع والمباشرة ، كما أن النهي عن قربهن كناية عن النهي عن جماعهن . يقال : قرب الرجل امرأته إذا جماعها .

و يطهرن ، من الطهر - بهضم الطاء - بمعنى النقاء من الودسج والقذر .
والمعنى : عايكم أيها المؤمنون أن تمتنعوا عن مباشرة النساء في زمن حيضهن ، ولا تجمعهن حتى يطهرن من ذلك ، لأن غشيانهن في هذه الحالة يؤديكم بسبب عدم نقاء المحل الذي يكور فيه الغشيان للمرأة ، والمرأة أيضاً تتأذى من مباشرتها في زمن الحيض لأنها لا تكون في حالة تستسج معها المباشرة ، فجهازما للتناهي في حالة اضطراب ، وهيتها العامة في حالة تجهلها من شأنها أن تنفر من الجماع ، والولد الذي يأتي عن طريق الجماع في حالة

الحيض - على فرض إتيانه في هذه الحالة - كثيراً ما يأتي مشوهاً ضعيفاً ، لأن
المنطقة إذا اختلطت بدم الحيض ، أخذت البويضات في التناقص قبل وقت
صلاحيتها للتخلاق النافع الذي يكون وقته بعد انتهاء فترة الحيض وقد قال
بذلك الأطباء الثقات (١) ، وعرفه العرب القدامى بالتجربة ، قال أبو كبير
الهرلي .

ومبرأ من كل غير حيضة وفساد مرضعة وداء معضل (٢)
وقد أجمع العلماء - كما بينا - على أن المراد بالاعتزال هو اجتناب
المباشرة ، إلا أنهم اختلفوا فيما يجب اعتزاله من المرأة بعد ذلك .

فبعضهم يرى اعتزال جميع بدن المرأة ، وحجتهم أن الله أمر باعتزال
النساء ولم يخصص من ذلك شيئاً دون شيء .

وبعضهم يرى اعتزال موضع الأذى - أي مكان خروج الدم - لقول
النبي (صلى الله عليه وسلم) : « اعنعوا كل شيء إلا التناكح » .

وبعضهم يرى اعتزال ما بين السرة إلى الركبة من المرأة وله ماسوى ذلك ،
لقول عائشة : كانت إحساناً إذا كانت حائضاً أمرها النبي (صلى الله عليه
وسلم) أن تأنز ثم يباشرها . وقوله ولا تقر بهن حتى يطهرن ، تأكيد لحكم
الاعتزال وتقرير له ، وتنبية على أن المراد به عدم جماعهن لاعدم القرب
منهن أو غلطهن أو الأكل معهن كما كان يفعل اليهود وبعض العرب .

والدليل على ذلك ما جاء في الصحاحين عن عائشة - رضى الله عنها -
قالت : كنت أرجل رأس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنا حائض ،
وروى البخارى عن عائشة - أيضاً - قالت : كان رسول الله (صلى
الله عليه وسلم) يتكىء في حجرى وأنا حائض ثم يقرأ القرآن ، (٣) .

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير ج ٢ ص ٣٥٠ للشيخ محمد بن عاشور

(٢) غير الحيضة : جمع غبرة وهي آخر الشيء . يريد أن يقول : إن أم

هذا الموضع لم تحمل به في آخر مدة الحيض لذا جاء مستقيم الحلقة .

(٣) صحيح البخارى : كتاب الحيض ج ١ ص ٨٢

وروى مسلم عنها أيضاً قالت : كنت أشرب وأنا حائض ، ثم أتاوله
 النبي (صلى الله عليه وسلم) فيضع فاه على موضع فاه في يشرب .
 وقوله : حتى يطهرن ، بيان لغاية الاعتزال . وقرأ حمزة الكسائي
 : حتى يطهرن ، بفتح اللام والهاء مع التشديد .

ومعناه عند جمهور الفقهاء ولا يجامعون حتى يغتسلن ، لأن القراءة تين
 معنهما واحد ، ولأن الله - تعالى - قد علم أن الإنيان على التطهر فقال :
 فإذا تطهرن فأتوهن ، والتطهر هو الاغتسال . فالمرأة إذا انقطع حيضها
 لا يحل للزوج مجامعتها إلا بعد الاغتسال .

ويرى الأحناف أن معنى حتى يطهرن أي حتى ينقطع الدم ، لأنه إذا
 كانت سبب الأذى هو الدم فانه قطع طهر منه ، وبناء على ذلك فيجوز للرجل
 أن يباشر زوجته قبل أن تغتسل متى انقطع دمها لأقصى مدة الحيض ، وهو
 عشرة أيام . أخذنا بالقراءة المشهورة يطهرن ، بالتخفيف . أما إذا انقطع الدم
 قبل ذلك فلا تحل مباشرتها إلا بالنأ كيد من زوال الدم بعمل من جانبها وهو
 الاغتسال الفعلي ، لأن قراءة يطهرن ، بالتشديد عند معناتها يغتسلن .
 وقال بعض الفقهاء يكفي في حلها أن تتوضأ عند انقطاع الدم .

والكل فريق أدلته المبسوطة في كتب الفقه .

وفي هاتين الخاتمتين المكررتين دفاعنا عن النساء في الحيض ولا تقر بهن
 حتى يطهرن من سمو التعبير ، وبديع الكتابة ما يفرس في نفس السامع
 حسن الأدب ، ويصون سمعه عن الألفاظ التي يجافي سمعها الأذواق
 السليمة ، وما أخرج المسلمين إلى الناس هذا الأدب الذي يحفظ عليهم
 مروءتهم وكرامتهم .

ثم قال - تعالى - : فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، أي :
 فإذا تطهرن من الحيض فجامعون في المكان الذي أمركم الله بتجنبه في الحيض
 وهو القبل ولا تعدوه إلى غيره .

والأمر في قوله - تعالى - فأتوهن ، المراد به إباحة المباشرة ، لأنه من

المقرر عند العلماء أن الأمر بعد النهي يكون للإباحة ، خصوصا إذا كان الموضوع موضع حل وإباحة لاموضع تكليف وإلزام ، وليس المراد به الحتم واللزوم ، لأن الإيمان مبنى على الرغبة والطاقة وشبهه بهذا التعبير قوله - تعالى - « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض » وقوله « وإذا حللتم فاصطادوا... » قال ابن جمل : ومن في قوله « من حيث » فيها قولان : أحدهما : أنها لا ابتداء للغاية . أى من الجملة التي تنتهى إلى موضع الحيض . والثاني : أن تكون بمعنى فى أى فى المكان الذى نهيتم عنه فى الحيض . ورجح بعضهم هذا بأوله ملائم لقوله « فاعتزلوا النساء فى المحيض » (١) .

وعلى كلا القولين فالمقصود أن يأتي الرجل زوجته فى المسكن الفطرى الطبيعى لتلك العلاقة الجنسية ، وهو القبل إذ هو مكان البذر والإنسال ، ولا يخرج من ذلك إلا الذين أصيبوا بشفوذ فى عقولهم ، وضعف فى دينهم... ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، والتواب : صيغة مبالغه من تائب بمعنى راجع إلى ربه إذ ذل وهنأ . والمتطهر : هو الإنسان المنتزه عن الفواحش والأفذار .

أى : إن الله - تعالى - يحب عباده الذين يكثر الرجوع إليه إذا ما ظلموا أنفسهم بسئمة من السيئات ، والذين يصونون أنفسهم وينزهونها عن المعاصى والآثام ، ويرضى عنهم فى الدنيا والآخرة .

قال الألوسى : « إن الله يحب التوابين ، مما عسى يندر منهم من ارتكاب بعض الذنوب كالإتيان فى الحيض المستدعى لعقاب الله - تعالى - فقد أخرج الإمام أحمد والترمذى والنسائى عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : من أتى حائضا فقد كفر بما أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وهو جار مجرى التهيب فلا يعارض ما أخرجه الطبرانى عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : ..

يا رسول الله ، أصبت امرأتى وهى حائض فأمره رسول الله - ﷺ -
أن يعتق نسمة ، وهذا إذا كان الإتيان فى أول الحيض والدم أحمر ، أما
إذا كان فى آخره والدم أصفر فينبغى أن يتصدق بنصف دينار كما دلت
عليه الآثار ، (١) .

ثم قال - تعالى - : « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم » ،
روى الشيخان عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل
امرأته من دبرها فى قبلها ثم حملت كان ولدها أحول . فأنزله الله - تعالى -
قوله : نساؤكم حرث لكم . . . الآية .

والحرث فى الأصل : تهيئة الأرض بالحراثة لإلقاء البذر فيها . وقد
تطلق كلمة الحرث على الأرض المزروعة كما فى قوله - تعالى - « أن أغدوكم
على حرثكم . . . » أى على حد يقتكم لجمع ما فيها من عمار .
وشبهت المرأة بالأرض لأن كليهما يمد الوجود الإنسانى بأسباب بقائه .
فالزوجة تمده بعناصر تكوينه ، والأرض تمده بأسباب حياته .

و « أنى شئتم » بمعنى كيف شئتم ، أو متى شئتم فى غير وقت الحيض .
والمعنى : نساؤكم من مزرع لكم ومنبت للولد ، أعدهن الله لذلك
كما أعد الأرض للزراعة والإنبات ، فأنوهن إذا تطهرن من الحيض فى
موضع الحرث كيف شئتم مستلقيات على ظهورهن أو غير ذلك ما دتم
تؤدون شهوتكم فى صمام واحد وهو الفرج .

وفى هذه الجملة الكريمة إشعار بأن المقصد الأول من الزواج إنما هو
النسل ، ويشير إلى ذلك قوله « نساؤكم حرث لكم » ، إذ من شأن الحرث
الصالح الإنتاج ، وإشعار كذلك بما شرعه الله بين الزوجين من مؤانسة
ومباينة ويشير إلى ذلك قوله - تعالى - « فأتوا حرثكم أنى شئتم » .
ويرى صاحب الكشاف أن التشبيه بين ما يلقى فى الأرحام من النطفة

سويين البذر الذي يلقى في الأرض من حيث إن كلا منهما ينمو في مستودعه
ويكون به البقاء والتوالد ، فقد قال - رحمه الله - :

« نساؤكم حرث لكم ، مواضع الحرث لكم . وهذا مجاز شبهن بالمحارث
تشبيها لما يلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبقور ، وقوله :
« فأثروا حرثكم أي شتم ، تمثيل ، أي فأثروهن كما تأثرون أراضيكم التي
تحرثونها من أي جهة شتم ، لا تحظر عليكم جهة دون جهة . والمعنى :
جامعوهن من أي شق أردتم بعد أن يكون المأثي واحدا وهو موضع الحرث .
ثم قال : وقوله - تعالى - : « هو أذى ، فاعتزلوا النساء ، وقوله « من
حيث أمركم الله ، وقوله « فأثروا حرثكم أي شتم ، من الكتابيات اللطيفة
والتعريضات الحسنة . وهذه وأشباهها في كلام الله آداب حسنة على المؤمنين
أن يتعلموها ويتأدبوا بها ويتكفوا مثلها في محاورتهم ومكاتبتهم . . . »

فإن قلت : ما موقع قوله « نساؤكم حرث لكم ، بما قبله ؟ قلت : موقعه
موقع البيان والتوضيح لقوله « فأثروهن من حيث أمركم الله ، يعني أن المأثي الذي
أمركم الله به هو مكان الحرث ترجمة له وتفسيرا ، أو إزالته للشبه ، ودلالة
على أن الغرض الأصيل في الإتيان هو طلب النسل لا قضاء الشهوة ،
« فلا تأثروهن إلا من المأثي الذي يتعلق به هذا الغرض . . . » (١) .

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله : « وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله
واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين . »

أي : عليكم أيها المؤمنون أن تقدموا في حاضركم لمستقبلكم من
الأعمال الصالحة ما ينفعكم في دنياكم وآخرتكم ، بأن تختاروا في زواجكم
ذات الدين ، وأن تسيروا في حياتكم الزوجية على الطريقة التي رسمها لكم
خالقكم ، وعليكم كذلك أن تتقوه بأن تصونوا أنفسكم عن كل ما نهاكم
عنه ، وأن تعلموا علم اليقين أنكم ستلقونه في حسابكم على أعمالكم ويجازيكم

عليها بما تستحقون .

وقوله « وبشر المؤمنين ، بشارة طيبة لمن آمن وعمل صالحا ، وتلقى ما كلفه الله - تعالى - بالطاعة والامتثال .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد أرشدتا المسلم إلى أفضل الوسائل ، وأقوى الدعائم التي يقوم عليها صرح الحياة الزوجية السعيدة ، والتي عن طريقها تأتي الذرية الصالحة الرشيدة ، وأن الإسلام في تعاليمه لا يحاول أن ينكر أو يحطم غرائز الإنسان وضرورياته ، وإنما الإسلام يعترف بغرائز الإنسان وضرورياته ثم يعمل على تذيبها وتقويمها بالطرق التي من شأنه إذا ما اتبعها أن يظفر بالسعادة والطمأنينة في دنياه وأخراه .

وبعد أن بينت لنا السورة الكريمة حكم المباشرة في فترة الحيض ، تابعت حديثها عن شئون الأسرة فذكرت حكم الإيلاء . أرى الحلف بالامتناع عن المباشرة بعد أن قدمت له بالحديث عن الحلف في ذاته . استمع إلى السورة الكريمة وهي تحكي ذلك فتقول :

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ

أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ

أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا

الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

العروضة : فعله - بضم العين - بمعنى مفعول كالتبصنة والغرفة ، وهي اسم لكل ما يعترض الشيء فيمنع من الوصول إليه ، واشتقاقها من الشيء الذي يوضع في عرض الطريق فيصير مانعاً للناس من السلوك والمرور يقال فلان عرضة دون الخير أى حاجز عنه .

وتطلق كذلك عن النصبه التي تعرض للسهام وتكون هدفاً لها . ومنه قولهم : فلان عرضة للناس إذا كانوا يقعون فيه ويمرضون له بالمكروه . قال الشاعر :

دعوني أنح وجداً كنوح الخائم ولا تجعلوني عرضة للوائم

يريد أتركوني أنح من الشوق ولا تجعلوني معرضاً للوم اللوائم .

والأريمان : جمع يمين وتطلق بمعنى الطائف والقسم ، وأصل ذلك أن العرب

كانوا إذا أردوا توثيق عهدهم بالقسم يقسمونه ووضعه كل واحد من المتعاهدين يمينه في يمين صاحبه . و د تبروا ، من البر وهو الأمر المستحسن شرها .

والمعنى على الوجه الأول : لا تجعلوا الحلف بالله - أيها المؤمنون -

حاجزاً ومانعاً عن البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، وذلك أن بعض

الناس كان إذا دعى إلى فعل الخير وهو لا يريد أن يفعله يقول : حلفه

بأفه ألا أفعله فنهام الله - تعالى - عن سلوك هذا الطريق .

وهذا المعنى هو الذي رجحه كثير من المفسرين لأنه هو المناسب لما

يجيء بعد ذلك من قوله - تعالى - « للذين يؤولون من نسائهم تربص أربعة

أشهر . . . ووجه المناسبة أن الله - تعالى - يكره المؤمن أن يجعل الحلف به

مانعاً من رجوعه إلى أهله ؛ ولأن هناك أحاديث كثيرة تحض الخائف على

ترك أمر من أمور الخير أن يكفر عن يمينه وأن يأتي الأمر الذي فيه خير ،

ومن هذه الأحاديث ما جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال :

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنى والله إن شاء الله ، لا أحلف على

يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وتحملتها ، (١) .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليذكر عن يمينه وليفعل الذي هو خير ، (١) .

وشبه هذه الآية في النهي عن الحلف على ترك فعل الخير قوله - تعالى - في شأن سيدنا أبي بكر عندما أفسم ألا ينفق على قريبه الذي خاض في شأن ابنته عائشة ولا ياتل أولوا الفضل منكم والسمة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا إلا تحبون أن يغفر الله لكم ، (٢) فالآية على هذا الوجه تنهى المؤمن عن المحافظة على اليمين إذا كانت هذه اليمين مانعة من فعل الخير .

واللام في قوله « لا يمانكم » متعلق بعرضة ، وقوله « أن تبروا وتتقوا وتصلحوا » مفعول لأجله أى : لانجعلوا الحلف بالله سبباً في الامتناع عن عمل البر والتقوى والإصلاح بين الناس .

والمعنى على أن عرضة بمعنى النسيبة التي تتعرض للسهم : لانجعلوا - أيها المؤمنون - اسم الله - تعالى - هدفاً لا يمانكم فتبتدلوه بكثرة الحلف به في كل حق وباطل ، وذلك لأجل البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، فإن من شأن الذي يكثر الحلف أن تقل ثقة الناس به وبأيمانه ، وقد ذم الله - تعالى - من يكثر الحلف بقوله « ولا تطع كل حلاف مهين » وأمر بحفظ الأيمان فقال : « واحفظوا أيمانكم » .

قال الإمام الرازي : والحكمة في الأمر بتقليل الأيمان ، أن من حلف في كل خليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك ، ولا يبقى لليمين في قلبه وقع ، فلا يؤمن لإقدامه على اليمين الكاذبة ، فيختل ما هو الغرض الأصلي في اليمين ، وأيضاً كلما كان الإنسان أكثر تعظيماً لله ، كان أكثر في العبودية ، ومن كمال

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٦٦

(٢) سورة النور الآية ٢٢

التعظيم أن يكون ذكر الله - تعالى - أجل وأعلى عنده من أن يستشهد به في
غرض دنيوي ، وأما قوله بعد ذلك : أن تبروا ، فهو علة لهذا النهي .
أى : إرادة أن تبروا والمعنى إنما نهيتم عن هذا - أى عن الإكثار من الحلف -
لما أن توفي ذلك من البر والتقوى والإصلاح ، فتكونون بامعشر المؤمنين
بسبب عدم إكثاركم من الأيمان - بررة أفتقيا - مصلحين ، (١) .

وهذا الوجه أيضاً استحسنته كثير من العلماء ، ولا تنافي بينهما ؛ لأن
الله - تعالى - ينهانا عن أن نجعل القسم به مانعاً من فعل الخير ، كما ينهاه
في الوقت نفسه عن أن نكثر من الحلف به في عظيم الأمور وحقيرها .
ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : والله سميع عليم ، أى : سميع لأقوالكم
وأيمانكم عند النطق بها ، عليم بأحوالكم ونياتكم فحافظوا على ما أمركم
به ، واتموا عما نهاكم عنه لتنالوا رضاه ومثوبته .

وقوله - تعالى - لا يؤخذكم الله باللغو في أيمانكم ، استئناف بياني ،
لأن الآية السابقة لما أفادت النهي عن التسرع في الحلف ، أو عن اتخاذ
الأيمان حجة عن عمل الخير ، كانت نفوس السامعين مشوقة إلى حكم
اليمين التي تجرى على السنة بدون قصد .

والمؤاخظة : مفاعله من الأخذ بمعنى المحاسبة أو المعاقبة أو الإلزام
بالوفاء بها .

واللغو من الكلام : الساقط الذي لا يعتمد به ولا يصدر عن فكر وروية .
مصدر لغا يلغو ويلغى .

والمعنى . لا يعاقبكم الله - تعالى - ولا يلامكم بكفارة ما صدر عنكم
من الأيمان البلاغية فضلامته - سبحانه - وكرماً .

واليمين اللغو هي التي لا يقصدها الحالف ، بل تجرى على لسانه عادة
من غير قصد ، وقد ذكر العلماء صوراً لها منها - كما يقول ابن كثير - :
ما رواه عطاء بن عائشة أنها قالت : اللغو في اليمين هو كلام الرجل

في بيته كلا والله وبلى والله ، وفي رواية عن الزهري عن عروة عنها أنها قالت :
 « اللغو في اليمين هو ما يكون بين القوم يتدارمون في الأمر - أى يقفأشون
 ويتذاكرون فيه - فيقول هذا لا والله وبلى والله وكلا والله لا تعقد عليه
 قلوبهم ، أى تجرى على ألسنتهم ألفاظ اليمين ولكن بدون قصد يمين : -
 ومنها ما جاء عن عروة عنها أنها كانت تتأول هذه الآية بمعنى قوله - تعالى -
 « لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم » وتقول : هو الشيء يحلف عليه
 أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه . .

ثم بين - سبحانه - اليمين التي هي موضع المحاسبة والمعاقبة فقال :
 « ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم » .

أى : لا يؤخذكم الله فى اليمين التي لم تصدر عن روية وتفكير ، ولكن
 يؤخذكم أن يعاقبكم فى الآخرة بما قصدته قلوبكم وتعمدتم فيه الكذب
 فى اليمين ، بأن يحلف أحدكم على شيء كذب ، ليعتقد السامع صدقه ،
 وتلك هى اليمين الغموس - أى التى تخمس صاحبها فى النار - ويدخل فيها
 الأيمان التى يحلفها شهود الزور ، والكاذبون عند التقاضى ومن يشابههم فى
 تعمد الكذب .

ويرى جمهور العلماء أن هذه اليمين لا كفارة فيها ، وإنما كفارتها التوبة
 الصادقة ورد الحقوق إلى أصحابها إن ترتب على اليمين الكاذبة ضياع حق
 أو حكم بباطل .

ويرى الإمام الشافعى أنه يجب فيها فوق ذلك الكفارة .

والبلاء فى قوله « بما » للسببية ، وما مصدرية أى ، لا يؤخذكم باللغو
 ولكن يؤخذكم بالكسب ، أو موصله والعائد محذوف أى ولكن
 يؤخذكم بالذى كسبته قلوبكم .

وقوله « والله غفور حلیم » تدليل لتأكيد « من هدم المؤاخذة فى اللغو -
 أى والله غفور حيث لم يؤخذكم باللغو حلیم حيث لم يعاجل المخطئين
 بالعقوبة .

وبعد بيان هذه الأحكام في الإيمان العامة ، عقب - سبحانه - ذلك
 ببيان حكم اليمين الخاصة فقال : « للذين يؤولون من نساءهم تربص أربعة
 أشهر فإن فآوا فإن الله غفور رحيم . وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم . »
 ويؤلون : من الإيلاء مصدر آلى يؤلى ويؤلى إيلاء بمعنى حلف . قال الشاعر :
 قليل الألياء حافظ ليمينه وإن سبقت منه الألية برت
 وقد خص الإيلاء في الشرع بالحلف على ترك مباشرة الزوجة . وكانوا
 في الجاهلية يحلفون إلا يقربوا نساءهم السنة والأكثر إضرارا بهم .
 و « التربص ، التلبك والانتظار والترقب . قال الشاعر .

تربص به أريب المنون لعلها تطلق يوما أو يموت حليلها
 و « فآوا ، معناه رجعوا . والتيء في اللغة هو رجوع الشيء إلى ما كان
 عليه من قبل ، ولهذا قيل لما تزيله الشمس من الظل ثم يعود في . وقيل لما
 رده الله على المسلمين من مال المشركين في . كأنه كان لهم فرجع إليهم .
 قال الشاعر :

فقامت ولم تقض الذي أقبلت له ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا
 و « عزموا ، من العزم وهو عقد القلب على الشيء ، والتصميم عليه .
 يقال : عزم على الشيء يعزم عزمًا - بالضم - وعزيمة . . . إذا عقد
 غيته عليه .

و « الطلاق ، هو حل عقد النكاح الذي بين الرجل والمرأة ، وأصله
 من الانطلاق ، وهو الذهاب . يقال : طلقت المرأة تطلق - من باب
 نصر - طلاقا ، إذا أصبحت مخلوة بدون رجل بعد أن كانت في عصمه
 رجل معين .

قال الفخر الرازي : كان الرجل في الجاهلية لا يريد المرأة ولا يجب أن
 يتزوجها غيره ، فيحلف أن لا يقربها ، فكان يتركها بذلك لا أيما ولا ذات
 جعل والغرض منه مضارة المرأة . ثم إن أهل الإسلام كانوا يفعلون ذلك

أيضاً - فأزال الله ، تعالى - ذلك ، وأمهل الزوج مدة حتى يتروى ويتأمل - فإن رأى المصلحة في ترك هذه المضارة فعلها ، وإن رأى المصلحة في المفارقة عن المرأة فارقها .

ومعنى الآيتين الكریمتین : أن الله - تعالى - جعل للدين يحلفون على ترك مباشرة أزواجهم مدة يراجعون فيها أنفسهم ، وينتظرون فيها ما يستقر عليه أمرهم ، وهذه المدة هي أربعة أشهر ، فإن رجعوا عما حلفوا عليه من ترك مباشرة الزوج ، ورأوا أن المصلحة في الرجوع ، فإن الله - تعالى - يخفر لهم ما فرط منهم . وإن استمروا على ترك مباشرة نساءهم ، وأصرروا على ذلك بعد تناقضاتها فإن شرع الله - تعالى - يحكم بالتفريق بينهما ، لأن الحياة الزوجية لا تقوم على البغض والكراهية والهجران ، وإنما تقوم على المحبة والمودة والرحمة .

وقوله : للذين يؤولون ، متعلق بحذف خبر مقدم . وتربص مبتدأ مؤخر ، وقدم الخبر على المبتدأ للاهتمام بهذه الترسعة التي وسع الله بها عليهم ، حظي مدة كافية لأن يراجع المرء فيها نفسه ، ويهود إلى معاشرته وزوجه خلالها . وعدى فعل الإبلاء بمن مع أن حقه أن يتعدى بعلى ، لأنه تضمن هنا معنى البعد كأنه قال : للذين يؤولون متباعدين من نساءهم .

و « من نساءهم » ، على حذف المضاف ، أو من إقامة العين مقام الفعل المقصود منه المبالغة أي ، للذين يؤولون من مباشرة نساءهم . وأضيف التربص إلى الظرف « أربعة أشهر » ، على الاتساع إذ الأصل تربصن في أربعة أشهر . وقوله « فإن الله غفور رحيم » ، دليل الجواب أي فإن حظوا إلى زوجاتهم وحتشوا في أيمانهم التي حلفوها بالابتعاد عنهم ، بأن كفروا عنها وتابوا إلى ربهم فحنتهم مغفور لهم لأنه - سبحانه - غفور لمن تاب من عباده ظالمه وأصلح ، رحيم بعباده في كل أوامره وتكاليفه .

وجواب الشرط في قوله « وإن عزموا الطلاق » محذوف والتقدير وإن

عزموا الطلاق فقد وجب عليهم ما اعتزموه ، والطلاق منسوب على الزوج الخائف لأن عزم يتعدى بعلى .

وفى قوله ، فإن الله سميع عليم ، وعيد شديد لمن يخاف على تركه باثمة امرأته أو يمسكها بقصد إيدائها ومضارتها .

أى فإن الله - تعالى - سميع لكل ما كان من الزوج الخائف ، عليم بكل يقع منه من مضارة أو غيرها ، وسيجزيه يوم القيامة بما يستحقه .

قل القرطبي ما ماتحه : وقد جعل الله للزوج مدة أربعة أشهر فى تأديب المرأة بالمهجر ، وقد آلى النبى - صلى الله عليه وسلم - من أزواجه شهرا تأديباً لمن - عندما طالبته بزيادة النفقة - وقد قيل : الأربعة الأشهر هى التى لا تستطيع أن تصبر عنه أكثر منها ، وقد روى أن عمر بن الخطاب -رضى الله عنه - سأل بعض النساء عن مقدار صبر المرأة عن زوجها فقلن أربعة أشهر ، فجعل عمر مدة الرجل أربعة أشهر ، فإذا مضت أربعة أشهر استرد الغايزن ووجه يقوم آخرين ، وهذا - والله أعلم - بقوى اختصار مدة الإيلاء بأربعة أشهر ، (١) .

وعلى أية حال فإن الطابع مختلف فى مثل هذه الأمور ، والأربعة الأشهر مدة كافية ليختبر الرجل نفسه ويؤمله ، فيما أن يعود إلى معايشرة زوجته بالطريقة التى شرعها الله ، وما أن تعاد إلى الزوجة حريتها بالطلاق ، لبدأ كلاهما حياة زوجية جديدة مع شخص آخر ، فذلك أكرم للزوجة وأعف وأصون ، وأنفع للرجل كذلك وأشرف . وقد اختار الله هذه المدة وهو الأعلم بحكمة اختياره فعلينا أن نتقبل ما شرعه لنا طائفتين خاشعتين .

هذا ، وجمهور - العلماء على أن الطلاق لا يقع بانتهاء هذه المدة ، وإنما

(١) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ١٠٧ بتعريف وتأخير .

بانتهاؤها يأمره الحاكم بالغيثة ، فإن تقبل أمر الحاكم بأمرها أمهله مدة يمكنه الغيثة فيها ، وإن لم يتقبله بأمرها بالطلاق ، فإن طاق فيها وإلا طلقها الحاكم منه .

وعليه فإن الفاء في قوله - تعالى - « فإن قاؤا ، لترتيب الحكيم الذي يحصل بعد مدة التبرص .

وقال الأحناف إن الطلاق يقع بمجرد انتهاء هذه المدة وهي الأربعة الأشهر ، والرجوع إنما يكون خلالها فلا زيادة فوقها ، ويكفي في مراجعته لنفسه تلك المدة ، وما دام لم يرجع إلى معاشرته امرأته خلالها فقد آثر فراقها ، ولا يصح أن تعطيه أية مهلة من الوقت بعدما . وعليه تكون الفاء عندهم للتفصيل ، أي تفصيل ما يحصل من الزوج في هذه المدة .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد نهت المسلم عن اتخاذ الحالف بالله حاجزا بينه وبين فعل الخير ، وأمرته بأن يحفظ أسانه عن الإكثار من الحلف بالله في الأمور الصغيرة والكبيرة ، وحذرت من تعمد الأيمان الكاذبة التي تؤدي إلى غضب الله - تعالى - ، لأن اليمين الكاذبة الفاجرة من كبائر الذنوب ، وحذرت كذلك من أن يهجر زوجته بقصد إيذائها والإضرار بها ، لأن الحياة الزوجية يجب أن تقوم على المودة والرحمة ، وأرشدته إلى أن أقصى مدة لهجر الزوجة بقصد تأديبها وتذليلها ودلاجها وجاها هي أربعة أشهر يراجع فيها نفسه ، فإذا أن يعود إليها ويكفر عن يمينه ، وإما أن يقع بينهما الفراق ، وإن بتفرقا يغن الله كلا من سعته .

وهذه الأحكام السامية يكون الإسلام قد شرع للرجل والمرأة ما ينفعهما ويصون كرامتهما ، ويحفظ لهما حريتهما وحسن استمتاعهما بالحياة .

ثم سافت السورة في خمس آيات في أحكام الطلاق ، وفصلت أحواله ،

ويذنت امراته ، وذكرت ما ينبغي أن يكون عليه من عدل وتسامح حتى لا يقع ظلم أو جور على أحد الزوجين . استمع إلى القرآن الكريم وهو يبين ذلك بأسلوبه الحكيم المؤثر فيقول .

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ

ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولتهنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ مَاتِيَتْ بِهِ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ
 أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سِرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ
 ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا
 آيَةَ اللَّهِ هُزُوعًا وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ
 الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
 شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
 أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ
 بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ أَرْكَانُ لَكُمْ
 وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

قوله - تعالى - والمطلقات يربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، معطوف على ما قبله لشدة المناجبة ، والاتحاد في الحكم وهو التربص الذي سبقت الإشارة إليه في قوله والذين يقولون من نساءهم تربص أربعة أشهر ، . . .
 والتربص : التأني والتريث والانتظار .
 والقروء : جمع قرء - بضم القاف وفتحها - .
 قال الطبرسي : وأصله في اللغة يحتمل وجهين : أحدهما : الاجتماع ومنه القرآن لاجتماع حروفه . . . فعلى هذا يقال أفراأت المرأة في مفرى- إذا حاضت ، وذلك لاجتماع الدم في الرحم . . .
 ولوجه الثاني : أن أصل القرء الوقت الجارى في الفعل على عادة ، يقال :

هذا قارىء الرياح أى وقت هبوبها . . . (١) .
 والمعنى : أن على المطلقات أن تمكث لإحداهن بعد طلاق زوجها لها
 ثلاثة قروء بدون نكاح ثم لها أن تتزوج بعد ذلك إن شاءت .
 والمراد بالمطلقات هنا المدخول بهن من ذوات الحيض غير الحوامل ،
 لأن غيرهن قد بين الله - تعالى - عدتهن فى مواضع أخرى .
 والمتوفى عنها زوجها بين الله عدتها بقوله : « والذين يتوفون منكم
 ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً . . . » (٢) .
 ومن لا يحضن إياهن من الحيض ، أو لأنهن لم يرين الحيض ، فقد بين
 الله - تعالى - عدتهن بقوله : « واللاتى يئسن من الحيض من نساءكم إن
 آرتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللاتى لم يحضن (٣) ، أى : واللاتى لم يحضن
 فعدتهن كذلك ثلاثة أشهر .

وذوات الحمل بين الله - تعالى - عدتهن بقوله : « وأولات الاحمال
 أجلمن أن يضعن حملهن . . . » .

وغير المدخول بها لا عدة عليها لقوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا إذا
 نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة
 تعددونها . . . » (٤) .

وقوله « يتربصن بأنفسهن » جملة خبرية اللفظ لإنشائية المعنى أى « ليتربصن ،
 وإخراج الأمر فى صورة الخبر - كما يقول الزمخشرى - « تأكيد للأمر ،
 وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهن امتثلن الأمر
 بالتربص . فهو يخبر عنه موجوداً . ونحوه قولهم فى الدعاء : « رحمك الله »

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٢ صفحة ٢٢٦ للطبرسى .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٣٤ .

(٣) و (٤) سورة الطلاق الآية ٤ .

(٤) سورة الاحزاب الآية ٤٩ .

أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة . كما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها .
ويناؤه على المتدأ بما زاده أيضاً فضل تو كيد . ولو قيل : « و يتر بص
المطلقات » لم يكن بتلك الوكادة ، (١) .

وفي قوله - تعالى - « و المطلقات يتر بصن بأنفسهن . » ما فيه من الإبداع
في الإشارة ، والنزاهة في العبارة والسمو في المعنى ، وذلك لأن المرأة المطلقة
كثيراً ما تشعر بعد طلاقها بأنها في حاجة إلى أن تثبت أن إخفاقها في حياتها
الزوجية السابقة ليس لنقص فيها ، أو لعجز عن إنشاء حياة زوجية أخرى ،
وهذا الشعور قد يدفعها إلى التسرع والاندفاع من أجل إنشاء هذه الحياة ،
وهنا تبرز طريقة القرآن الحكيم في معالجة النفوس ، إنه يقول للمطلقة :
إن التطلع إلى إنشاء حياة زوجية أخرى ليس عيباً ، ولكن الكرامة توجب
عليها الانتظار والتريث ، إذ لا يليق بالحرّة الكريمة أن تنتقل بين الأزواج
تتفلاً سريعاً . . وأيضاً فإن نداء الفطرة ، وتعاليم الشريعة توجبان عليها
الانتظار مدة ثلاثة قروء ، لكي تستبرئ رحمها ، حتى إذا كان هناك حمل
نفس إلى الأب الشرعي له .

وفي قوله - تعالى - « يتر بصن بأنفسهن » إشعار بأن هذا التبرص يجب أن
يكون من ذات أنفسهن وليس من عامل خارجي ، فثأن الحرّة الكريمة المؤمنة
أن تحجز نفسها بنفسها عن كل ما يتنافى مع الكرامة والشرف ، فقد تجوع
الحرّة ولكنها لا تأكل بشهيا - كما يقولون - .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : فإن قلت وما معنى ذكر
الأنفس - هنا - ؟ قلت : في ذكر الأنفس تهييج لهن على التبرص وزيادة
بعث ، لأن فيه ما يستنكفن منه فيحملن على أن يتر بصن . وذلك أن
أنفس النساء طوامح إلى الرجال . فأمرن أن يقمعن أنفسهن ، ويغلبن على
الطموح ، ويجبرن على التبرص ، (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٧١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٧١ .

وقوله - تعالى - « ثلاثة قروء » نصب ثلاثة على النياحة عن المفعول فيه ، لأن الكلام على تقدير مضاف ، أى مدة ثلاثة قروء . فلما حذف المضاف خلفه المضاف إليه فى الإعراب .

هذا ، وللعلماء رأيان شهيبران فى المراد بقوله - تعالى - « ثلاثة قروء » ، فالأحناف والحنابلة ومن قبلهم عمر وعلى وابن مسعود وغيرهم يرون أن المراد بالقروء هنا الحيضات والمعنى عندهم : أن المطلقات عليهن أن يمكن بعد طلاقهن من أزواجهن مدة ثلاث حيضات بدون زواج ثم بعد ذلك لمن أن يتزوجن إن شئن .

ومن أدلتهم : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد فسر القرء بمعنى الحيض . فقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والنسائى عن فاطمة بنت أبى حبيش . أن رسول الله - ﷺ - قال لها : « دعى الصلاة أيام أقرائك » (١) . ولا شك أن المراد بالقرء فى هذا الحديث الحيض ، لأنه هو الذى لا تصح معه الصلاة .

أما المالكية والشافعية ومن قبلهم عائشة وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت والزهرى وغيرهم فيرون أن المراد بالقروء هنا الأطهار ، أى الأوقات التى تكون بين الحيضتين للنساء .

ومعنى الآية عندهم : أن على المطلقات أن يمكن بعد طلاقهن من أزواجهن ثلاثة أطهار بدون زواج ثم بعد ذلك يتزوجن إذا شئن .

ومن أدلتهم : أن الله - تعالى - يقول : « فطلقوهن لعدتهن ، وقد بينت السنة النبوية أن الطلاق لا يكون فى الحيض ، فلا يتصور أن يكون الطلاق فى العدة إلا إذا فسرنا القرء بالطهر لا بالحيض . وروى عن عائشة أنها قالت : هل تدررون الأقرء ؟ الأقرء الأطهار (٢) .

(١) تفسير الألوسى ج ٢ صفحة ١٣١ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٦ صفحة ٩٤ .

قال صاحب المنار : قال الأستاذ الإمام : والخطب في الخلاف سهل . لأن المقصود من هذا التربص العلم ببراءة الرحم من الزوج السابق ، وهو يحصل بثلاث حيض كما يحصل بثلاثة أطهار .. ومن النادر أن يستمر الحيض إلى آخر الحمل فكل من القواين موافق لحكمة الشرع في المسألة ، (١) .

ثم قال - تعالى - : ولا يجعل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن . أى : ولا يجعل للنساء المطلقات أن يكتمن أمانة الله التي خلقها في أرحامهن من ولدلكى ينسبهن إلى غير أبيه ، أو من حيض أو طهر لكن تطول العدة ويمتد الإنفاق من الأزواج عليهن . فإن هذا الكتمان كذب على الله ، وخيانة للأمانة التي أودعها الله في أحشائهن وأمرهن بالوفاء بها . وسيحاسب الله من يفعل ذلك منهن حساباً شديداً ، ويعاقبه عقاباً أليماً .

وقوله : إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، تصريح لهن على عدم الكتمان وعلى الإخبار الصادق حتى تستقيم الأحكام ، وتقرر الحقوق . وتحذير لهن من الكتمان ومن اتباع الهوى والشيطان أى : أن على المطلقات ألا يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن جريز على ما يقتضيه الإيمان ، إذ الإيمان يبعث على الصدق ويدعو إلى المحافظة على الأمانة ، فإن لم يفعلن ذلك وكتمن ما خلق الله في أرحامهن ، كن بمن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر إيماناً حقيقياً ، لأن من شأن المؤمنات السكاملات في إيمانهن ألا يفعلن ذلك .

قال الإمام الرازى : أما قوله : إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليس المراد أن ذلك النهى - عن الكتمان - مشروط بكونها مؤمنة ، بل هذا كما تقول للرجل الذى يظلم : إن كنت مؤمناً فلا تظلم . تريد إن كنت مؤمناً فينبغى أن يمنعك إيمانك عن ظلمى ، ولا شك أن هذا تهديد شديد للنساء .. والآية دالة على أن كل من جعل أميناً فى شئ . فنحن فيه فأمره عند الله شديد ، (٢) .

(١) تفسير المنار ج ١ صفحة ٢٧١ .

(٢) تفسير الفخر الرازى ج ٦ صفحة ٩٨ .

هذا ، وقد قرر الفقهاء أن القول فيما يتعلق بعدة المرأة ابتداء وانتهاء مرجعه إليها ، لأنها أمر يتعلق بها ولا يعلم إلا من جهتها ، إلا أنهم مع ذلك قرروا مدة يقضى قولها عنده ، ولا يعمل بقولها إن نقصت عن تلك المدة . فلو ادعت أنها قد انقضت عدتها بعد شهر من طلاقها لا يقبل قولها .
وللفقهاء كلام طويل في هذه المسألة مبسوط في كتب الفقه فليرجع إليه من شاء ذلك .

ثم قال - تعالى - « وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً » . قال القرطبي : البعولة جمع البعل وهو الزوج ، سمي بعلا لعلوه على الزوجة بما قد ملكه من زوجيتها ، ومنه قوله - تعالى - « أتدعون بعلا ، أى رباً ، لعلوه في الربوبية . . والبعولة أيضاً مصدر البعل . وبعل الرجل يبعل - كمنع بمنع - أى صار بعلا . والمباعدة والبعال : الجماع ، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - « لا أيام التشريق : لأنها أيام أكل وشرب وبهال ، (١) » .
والمعنى : « وأزواج المطلقات طلاقاً رجعياً أحق بردهن ومراجعتهن في ذلك ، أى في وقت التبرص قبل انقضاء العدة » إن أرادوا إصلاحاً ، أى إن أرادوا بهذه المراجعة الإصلاح لا الإضرار ، كما سيأتى في قوله - تعالى - « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتمداً » .

قال القرطبي : وأجمع العلماء على أن الحر إذا طلق زوجته الحرة وكانت مدخولاً بها تطليقة أو تطليقتين ، أنه أحق برجعتهما ما لم تنقض عدتها وإن كرهت المرأة ، فإن لم يراجعها المطلق حتى انقضت عدتها فهو أحق بنفسها وتصير أجنبية منه ، ولا تحمل له إلا بخطبة ونكاح مستأنف بولي وإشهاد ليس على صفة المراجعة ، وهذا إجماع من العلماء ، (٢) .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ١١٩ - بتلخيص .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ١٢٠ .

وفي هذه الجملة الكريمة بيان لبعض الحكم السامية التي أرادها الله - تعالى - عن وراء مشروعية العدة . فالله - تعالى - جعل للبطلق فرصة - هي مدة ثلاثة قروء - لكي يراجع نفسه ، ويتدبر أمره ، لعله خلال هذه المراجعة وذلك التدبر يرى أن الخير في بقاء زوجته معه فيراجعها ، رعاية لرابطة المودة والرحمة التي جعلها الله - تعالى - بين الزوجين .

وقوله - تعالى - « إن أرادوا إصلاحاً ، شرط المقصود منه حض المطلق على أن ينوي بإرجاعه لمطلقته إصلاح أحوالهما ، بإرشادها إلى ما من شأنه أن يجعل حياتهما الزوجية مستمرة لا منقطعة ، أما إذا راجعها على نية الكيد والأذى والمضارة ففي هذه الحالة يكون آثماً وسيعاقبه الله على ذلك بما يستحقه .

قال الألوسي : وليس المراد من التعليق اشتراط جواز الرجعة بإرادة الإصلاح حتى لو لم يكن قصده لا تجوز ، للإجماع على جوازها مطلقاً ، بل المراد تحريضهم على قصد الإصلاح حيث جعل كأنه منوط به ينتفى باتفائه ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم » .

أى : وللنساء على الرجال مثل ما للرجال على النساء . فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه نحوه بالمعروف .

والمراد بالمعائلة - كما يقول الألوسي - المعاملة في الوجوب لا في جنس الفعل ، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل لها مثل ذلك ، ولكن يقابله بما يليق بالرجال .

أى أن الحقوق والواجبات بينهما متبادلة ، وأنهما متماثلان في أن كل واحد منهما عليه أن يؤدي نحو صاحبه ما يجب عليه بالمعروف أى بما عرفته

الطباع السليمة ولم تذكره ، ووافق ما أوجبه الله على كل منهما في شريعته .
فالباء في قوله « بالمعروف ، للابسة .

وقد بين النبي - صلى الله عليه وسلم - في أحاديث متعددة حقوق الرجال على النساء ، وحقوق النساء على الرجال ، ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله أن رسول - صلى الله عليه وسلم - قال في خطبته في حجة الوداع : اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله . ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل لامرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه .

وأخرج أبو داود عن معاوية بن حيدة قال : قلت يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت . ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تمجر إلا في البيت .

ولقد قام السلف الصالح بأداء هذه الحقوق على أحسن وجه فقد روى عن ابن عباس أنه قال : إنى لأحب أن أزين لا مرأى كما تزين لى لأن الله تعالى - يقول : ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف .

أى أن يحب أن يؤنسها وأن يدخل السرور على قلبها كما أنها هى تحب أن تفعل له ذلك .

والكى لا يفهم أحد أن المراد بهذه المثلية المساواة من كل الوجوه قال تعالى - وللرجال عليهن درجة ، والرجال : جمع رجل . يقال : رجل بين الرجل أى القوة . وهو أرجل الرجلين أى أفواهما . وفرس رجل أى قوى هلى المشى . وارتجل الكلام أى قوى عليه من غير حاجة فيه إلى فكرة وروية وترجل النهار أى قوى ضياؤه . فأصل كلمة الرجل مأخوذة من الرجولية بمعنى القوة .

والدرجة في الأصل : ما يرتقى عليه من سلم ونحوه ، والمراد بها هنا
اللمزية والزيادة أى : لمن عليهم مثل الذى لهم عليهم ، وللرجال على النساء
حزبية وزيادة في الحق ، بسبب حمايتهم لمن ، وقيامهم بشؤونهم ونفقتهم
وغير ذلك من واجبات .

قال بعض العلماء : وإذا كانت الأسرة لا تتكون إلا من ازدواج هذين
العنصرين - الرجل والمرأة - فلا بد أن يشرف على تهذيب الأسرة ويقوم
على تربية ناشئتها وتوزيع الحقوق والواجبات فيها أحد العنصرين . وقد
نظر الإسلام إلى هذا الأمر نظرة عادلة ، فوجد أن الرجل أملك إمام
نفسه ، وأقدر على ضبط حسه ، ووجده الذى أقام البيت بماله وأن انهياره
خراب عليه فجعل له الرياسة ، ولذا قال - سبحانه - «الرجال قوامون على
النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم» .

هذه هي الدرجة التي جعلها الإسلام للرجل ، وهي درجة تجعل له حقوقاً
وتجعل عليه واجبات أكثر ، فهي موازنة كل الموازنة لصدور الآية ، فإذا
كان للرجل فضل درجة . فعليه فضل واجب ، (١) .

وقوله «واقه عزيز حكيم ، أى غالب في انتقامه عن عصاه ، حكيم في
أمره وشرعه وسائر ما يكلف به عباده . فعلى الرجل والمرأة أن يظلباعزهما فيها
شرعه الله فهو الملبط والمعادل لكل ذى حق مهضوم ، وعليهما كذلك أن يتمسكا
بما كلفهما به ، لأنه ما كلفهما إلا بما تقتضيه الحكمة ، ويؤيده العقل السليم .
وبعد أن بين - سبحانه - في هذه الآية شرعية الطلاق ومداه إذا
طلق الرجل امرأته المدخول بها طلاق رجعية ، ووضع المنهاج العادل الذى
يجب أن يتبعه الرجال والنساء . . بعد أن بين ذلك أتبعه ببيان الحد الذى
يقضى عنده ما للرجل من حق المراجعة فقال - تعالى - «الطلاق مرتان
فإنساك بمعروف أو تسريح بإحسان» .

(١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة .

قال الإمام ابن كثير : هذه الآية رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام : من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة ، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات ، قصرم الله - تعالى - على ثلاث طلاقات ، وأباح الرجعة في المرة والثنتين ، وأبانها بالكلية في الثالثة فقال : الطلاق مرتان . . . الآية (١) .

وروى ابن أبي حاتم عن هشام بن عروة عن أبيه أن رجلاً قال لامرأته : لا أطلقك أبداً ولا أوهك أبداً . قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلق حتى إذا دنا أجلك - أي قاربت عدتك أن تنتهي - راجعتك . فأنت المرأة إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقد كرت له ذلك فأنزل الله - تعالى - الطلاق مرتان . . . الآية .

والطلاق - كما يقول القرطبي - هو حل العصمة المنعقدة بين الأزواج بالفاظ مخصوصة . وأل في قوله . الطلاق مرتان ، للعهد الذي كرى .
أي : الطلاق الرجعي المشار إليه في قوله - تعالى - « والمطلقات يتربصن . . . » مرتان ، وأمر المطلق بعد إحداهما أن يزوجها مرة أخرى .
بمعروف بمعنى أن يراجعها على نية الإبقاء على العلاقة الزوجية ، والمعاملة الحسنة .
ولما تسريح بإحسان بمعنى أن يتحركها حتى تنتهي عدتها ، ويطلق سراحمها بدون ظلم أو إساءة إليها ، كما قال - تعالى - « وسروهن سراحمًا جيلا . »

قال القرطبي : والتسريح : إرسال الشيء ، ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البهض ، وسرح الماشية أرسلها . . .
وعلى هذا التفسير يكون المراد بالطلاق في الآية الطلاق الرجعي وبالمرتين حقيقة التثنية ، ويكون وقت الإمساك أو التسريح هو ما بعد الطلقة الأولى أو الثانية بصفة خاصة ، وفي كل الأوقات بصفة عامة . وعلى هذا التفسير سار كثير من العلماء .

ويرى بعضهم أن المراد بالطلاق في الآية الطلاق الشرعي ، وبالمرتين التكرار

لا العذد ، وأن المراد من التسريح بالإحسان هو الطلقة الثالثة ، أى بعد الطلقتين الأولىين يتروى فى الأمر فيمسك بالمعروف أو يطلق الطلقة الثالثة . وقد ذكر هذا رأى صاحب الكشاف فقال :

«الطلاق ، بمعنى التطليق كالإسلام بمعنى التسليم ، أى التطليق الشرعى . تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والإرسال دفعة واحدة ، ولم يرد بالمرتين التثنية ولسكن التكرير ، كقوله « ثم ارجع البصر كرتين ، أى كرة بعد كرة لا كرتين اثنتين ، ونحو ذلك من التثانى التى يراد بها التكرير كقولهم : لبيك وسعديك . . وقوله « فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان » تخيير لهم بعد أن علمهم كيف يطلقون بين أن يمسكوا النساء بمحسن العشرة . وبين أن يمسكوهن السراح الجميل الذى علمهم إياه . . وروى أن سائلا سأل النبى (صلى الله عليه وسلم) رأيت قول الله - تعالى - الطلاق مرتان فأين الثالثة ، فقال « صلى الله عليه وسلم ، التسريح بإحسان ، (١) .

والفأ فى قوله - تعالى - « فإمسك . . . » للتفريع ، وإمسك خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : فأشار أو فالأمر إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

قال الفخر الرازى : والحكمة فى إثبات حق الرجعة : أن الإنسان مادام يكون مع صاحبه لا يدري أنه هل تشق عليه مفارقتة أو لا ؟ فإذا فارقته فتد ذلك يظهر ، فلو جعل الله - تعالى - الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع اعطت المشقة على الإنسان بتقدير أن يظهر المحبة بعد المفارقة ، ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة ، فلا جرم أثبت - سبحانه - حق الرجعة بعد المفارقة مرتين ، وعند ذلك يكون قد جرب الإنسان نفسه فى تلك المفارقة مرتين وعرف حال قلبه فى ذلك الباب . فإن كان الأصلح إمساكها راجعها وإمسكها بالمعروف ، وإن كان الأصلح له تسريحها سرحها على أحسن الوجوه ، وهذا التدريج والتقريب يدل على كمال رحمة ورفقته بعباده . .

هذا، ويرى بعض العلماء كابن تيمية وابن القيم أن الرجل إذا أوقع الطلاق دفعة واحدة، بأن قال لزوجته أنت طالق ثلاث مرات، فطلاقه لا يكون إلا طلقة واحدة، لأن إقران الطلاق بكلمة واحدة لا يجعله ثلاث مرات بل هو مرة واحدة كمن يقول: أحلف بالله ثلاثاً فهو يمين واحدة. ويرى الأئمة الأربعة أن طلاق هذا الرجل في مثل هذه الصورة يقع ثلاثاً، لأنهم يرون أن الطلاق المقترن بالعدد انقطاعاً أو إشارة يكون ثلاثاً أو اثنين على حسب ما اقترن به. ولأن عمر - رضی الله عنه - أتى بذلك. فقد أخرج مسلم وأبو داود والنسائي والحاكم عن ابن عباس قال: «كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله - ﷺ - وعلى عهد أبي بكر، وستين من خلافة عمر واحدة، فقال عمر: إن الناس قد استعجلوا في أمر لهم فيه أناة فلو أمضيها عليهم، فأمضاه».

وهذه المسألة مبسطة بأدلتها في كتب الفقه وبعض كتب التفسير.

ثم قال - تعالى - «ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يحافوا ألا يقيما حدود الله، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به».

قال الراغب: الخوف: توقع مكروه عن أماره مظنونة أو معلومة، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أماره مظنونة أو معلومة. ويضاد الخوف الأمن... .

والجناح: الإثم من جناح بمعنى مال عن القصد - وسمى الإثم به المبال فيه من الحق إلى الباطل - . يقال جنحت السفينة أي مالت إلى أحد جانبيها. والافتداء: تخليص النفس بمال يبذل لتخليصها ودفع الأذى عنها. وأصله من الفدى والغداء بمعنى حفظ الإنسان نفسه عن الشدة بما يبذله من أجل ذلك (١).

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الاصفهاني من صفحة ١٦١،

والمنى : ولا يجوز لكم أيها المطلقون أن تأخذوا من زوجاتكم في مقابلة الطلاق شيئاً مما أعطيتموهن من صدق أو من غيره من أموال ، لأن هذا الأخذ يكون من باب الظلم الذي نهى الله عنه ، وليس من باب العدل الذي أمر الله به .

ثم استثنى - سبحانه - صورة يجوز فيها الأخذ فقال : إلا أن يخاف الخ . أى : لا يجوز لكم أن تأخذوا في حالة من الأحوال إلا في حالة أن يخاف الزوجان كلاهما أو أحدهما ألا يقيما حدود الله في هذه الحالة يجوز الأخذ بحدود الله هي ما أرجه - سبحانه - للرجل على زوجته ، ولها عليه .

ثم خاطب - سبحانه - الحكام وجماعة المؤمنين المتوسطين للإصلاح بين الزوجين فقال : فإن خفتم ألا يقيما ، أى الزوجان ، حدود الله ، التي أحدها لهم وأمرهم باتباعها في حياتهم الزوجية ، فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، أى : فلا إثم على الزوج في أخذ ما أعطته الزوجة من مال مقابل انفصالها عنه ، ولا إثم عليها كذلك في هذا الإعطاء ، لأنهما ما داما قد وصلا إلى هذه الحالة من التناظر ، وما دامت الزوجة قد أصبحت تفضل أن تعطيه من المال ما تفدى به نفسها من البقاء في عصمته ، ما داما قد أصبحت كذلك .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لمن الخطاب في قوله ، ولا يحل لكم أن تأخذوا ، إن قلت : إنه للأزواج لم يطابقه قوله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله ، وإن قلت إنه لللائمة والحكام فهو لاء ليسوا بأخذين ممنون ولا بمؤتمين ؟ قلت : يجوز الأمران جميعاً : أن يكون أول الخطاب للأزواج وآخره لللائمة والحكام . ونحو ذلك غير عزيز في القرآن وغيره . ويجوز الخطاب لكلا لللائمة والحكام ، لأنهم الذين يأمرن بالأخذ والإيتاء عدد الترافع إليهم

(م - ٤٣ البقرة)

فكأهم الآخذون والمؤتون، (١).

والمراد بقوله «عما آتيتموهن»، أي من المهور وتخصيصها بالذكر وإن شاركها في الحكم سائر أمواتهن إما لرعاية العادة وإما للتنبيه على أنه إذا لم يحل لهم أن يأخذوا مما أعطوهن في مقابلة البضع عند خروجه عن ملكهم، لأن لا يحل لهم أن يأخذوا مما لا تعلق له بالبضع أولى وأحرى .
وقوله «شيئاً»، مفعول به لتأخذوا . والتنوين للتفليل أي : لا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ولو كان المأخوذ شيئاً غايبة في القلة ، لأن هذه الآخذ يجا في الإحسان الذي أمرتم به . وقرب من هذه الآية في النهي عن الآخذ قوله — تعالى — :

«وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتانهاً وإثماً مبيناً ، .
وأن والفعل في قوله «إلا أن يخافا» في موضع نصب على الحال أي لا خاتفين .

وقوله «أن لا يقيما»، في موضع نصب على المفعول به ليخافا والتقدير إلا أن يخافا ترك حدود الله .

وهذه الآية قد اعتبرها العلماء أصلاً في جواز الخلع .

قال ابن كثير : وقد ذكر ابن جرير : أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن نيس ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس : أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي — ﷺ — فقالت : يا رسول الله ! - وزججى ثابت بن قيس - ما أعيب عليه في خلق ولادين، ولكن أكره الكفر في الإسلام - أي أكره عدم الوفاء بحقه - بغضى له . - فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أردين عليه حديثه - وهي المهر الذي أمرها - قالت : نعم . قال رسول الله - ﷺ -

لثابت : إقبال الحديقة وطلقتها تطليقة ، (١) . قالوا : ففرق رسول الله - ﷺ -
بينهما بطريق الخلع فكان أول خلع في الإسلام .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن
يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ، .

أى : تلك الأحكام العظيمة الحكيمة المتقدمة التى بينتها لكم فى شأن
الطلاق والرجعة والخلع وغير ذلك حدود الله التى جدها ، فلا يجوز لكم أن
أن تحالفوها ، ومن يتعد هذه الحدود فأولئك هم الظالمون لأنفسهم بتعريضها
لسخط الله وعقابه .

وكانت الإشارة للبعيد ، تلك ، لبيان سمو قدر هذه الأحكام ، وعظم
منزلتها ، وجلال ما فيها من مصالح واضحة لأصحاب العقول السليمة .

وسميت هذه الأحكام حدوداً للإشارة إلى أنها فواصل بين الحق والباطل ،
والظلم والعدل والمنفعة والمضرة . إذ الحد هو الحاجز بين الشيئين الذى يمنع
اختلاط أحدهما بالآخر . يقال : حددت كذا أى جعلت له حداً يميزه .
وحد الدار ما تتميز به عن غيرها ..

وفى إضافة هذه الحدود إليه - سبحانه - إشعار بأن مخالفتها إنما هى مخالفة
له - سبحانه - وأن هذه الحدود لا يتطرق إليها الريب لأنها صادرة من العليم
الخبير الذى أحسن كل شئ خلقه .

والفاء فى قوله ، فلا تعتدوها ، للتفريع أى : إذا كانت هذه الأحكام
حدود الله فلا يصح لكم أن تتجاوزوها لأن تجاوزها يؤدى إلى سوء العقبى .
وعبر فى قوله ، فأولئك هم الظالمون ، بفاء السببية وباسم الإشارة وبضمير
الفصل وبالجملة الاسمية لتأكيد معنى السببية والإشارة إلى أن الظلم شأن من
شئونهم وصفة يتميزون بها عن غيرهم .

وقد جاء - سبحانه - بكل هذه المؤكدات فى تلك الجملة الكريمة لكبح

جراح غرور الإنسان ، وتحذيره من الانقياد لهواه وأوهامه ، فكثيراً ما يتوهم بعض الناس أن أحكام الله ليست ملائمة لمقتضى الزمان الذى يعبدون فيه ، ويحاولون إخضاع شرع الله - تعالى - لمصالحهم وشهواتهم ، أو يتركون ما شرعه الله بتلك الحجة الواهية الساقطة . وأنت ترى هنا أن القرآن قال : **تلك حدود الله فلا تعتدوها . . .** ، بينما قال هناك فى ختام آية الصوم **« تلك حدود الله فلا تقربوها . . . »** (١) وذلك لأن الكلام هنا فى شأن الأسرة وما يسودها أحياناً من خلافات ، واصطدامات ، واضطرابات . والخشية هنا إنما هى من تعدى هذه الحدود التى حددها الله فى أى مرة من مرات هذا الخلاف .. فجاء التحذير من التعدى لا من المقاربة ، بينما هناك كان الحديث عن محظرات مشتبهة مستلذة تربدها النفس لترضى شهوة البطن والفرج ، فجاء التحذير من مجرد الاقتراب من هذه الحدود التى حددها الله إقتفاء لضعف الإرادة أمام جاذبيتها .

فسيحان من هذا كلامه « ولو كان - هذا الكلام - من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، .

ثم بين - سبحانه - أحكام الطلاق المكمل للثلاث ، بعد بيانه لأحكام الطلاق الرجعى وأحكام الخلع فقال - تعالى - **« فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ، .**

أى : فإن طلق الرجل زوجته طليقة ثلاثة بعد الطليقتين اللتين أباح الله له مراجعتها بعد كل منهما فى أثناء العدة ، فإنه فى هذه الحالة تكون زوجته محرمة عليه ، ولا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فكما أحس شرعياً صحيحاً ، بأن يدخل بها ، ويباشرها مباشرة شرعية كما يباشر الأزواج زوجاتهم .

فلراد بالنكاح فى قوله « حتى تنكح زوجاً غيره » الزواج بشخص آخر يدخل بها دخولاً صحيحاً . ويؤيد هذا المعنى ويؤكد ما جاء فى الحديث

المشهور الذي أخرجه البخارى وغيره عن عائشة - رضى الله عنها - قالت :
جاءت امرأة رفاة القرظى إلى رسول الله - ﷺ - فقالت : يا رسول الله
إن رفاة طلقتى فبت طلاقتى . وإني نكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير
القرظى ، وإن ما معه مثل الهدية ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :
لملك تريد أن ترجعى إلى رفاة ؟ لا حتى تدوفى عسيلته ويدوق
عسيلتك (١) .

وواضح من ذوق العسيلة أن يدخل بها وبجماعها . وعلى هذا انعقد إجماع
الفقهاء . ولم يلتفتوا إلى ما نسب به بعضهم إلى سعيد بن المسيب من أنه أجاز للمرأة
أن تعود إلى زوجها الأول بعد عقد زواجها على الثاني دون أن يدخل بها .
وحملوا هذا المنسوب إلى سعيد بن المسيب على أنه من شواذ الفتيا التي
لا وزن لها لمخالفتها لنص حديث صحيح لعله لم يبلغه .

ثم قال - تعالى - : فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن
يقيما حدود الله ، أى : فإن طلق الزوج الثاني تلك المرأة التي سبق طلاقها
من الزوج الأول ، فلا إثم عليها وعلى زوجها الأول في أن يرجع كل منهما
إلى صاحبه بعد جديد بعد انقضاء العدة ما دام يغلب على ظنهما أنهما
سيقيمان حدود الله ، ويؤدى كل واحد منهما ما يجب عليه نحو صاحبه
بأمانة وإخلاص .

وقوله : أن يتراجعا ، في موضع جر بإضمار حرف الجر أى في أن يتراجعا
وقوله : أن يقيما ، في موضع نصب على أنه سد مسد مفعولى ظن .
قال صاحب الكشاف : ولم يقل : إن علما أنهما يقيمان حدود الله لأن
اليقين مغيب عنهما لا يعلمه إلا الله . ومن فسر الظن ما عتدنا بالعلم فقد وهم
ولأن الإنسان لا يعلم ما في الغد وإنما يظن ظناً ، (٢) .

(١) صحيح البخارى في كتاب الطلاق الثلاث > ٧ صفح ٥٥ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٧٦ . بتلخيص .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : ذلك حدود الله بينها لقوم يعلمون . .

أى : وتلك الأحكام المذكورة عن الطلاق وعن غيره مما كلف الله به عباده بينها ويوضحها بتلك الطرق الحكيمة لقوم يعلمون الحق ، ويعملون بمقتضى علمهم .

وبهذا نرى أن الآية الكريمة قد بينت أنه لا يحل للمرأة التي طلقت من زوجها أن تعود إليه بعد الطلقة الثالثة إلا بعد أن تزوج آخر زواجا صحيحا يدخل بها فيه ويجامعها ثم يطلقها وتنقض عدتها منه .

ومن حكم هذا التشريع الحكيم رذع الأزواج عن الاستخفاف بحقوق زوجاتهم ، وزجرهم عن التساهل في إيقاع الطلاق ، فإن الرجل الشريف الطبع ، العزيز النفس إذا علم أن زوجته إن تحل له بعد الطلقة الثالثة إلا إذا أفرشها شخص آخر توقف عن إيقاع الطلاق ، وتباعد عن التسرع والاندفاع وحاول أن يصلح ما بينه وبين أهله بالمعالجة الحكيمة التي تتميز بسعة الصدر وضبط النفس .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير سبعة أحاديث في النهي عن نكاح المحلل - وهو أن يعقد رجل على امرأة قد طلقت ثلاثاً من زوجها بقصد لإحلالها لهذا الزوج لا بقصد الزواج الدائم ثم يدخل بها دخولا صورياً وليس شرعياً - ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود قال : لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المحلل والمحلل له ، وأكل للربا وموكله . .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ألا أخبركم بالتيس المستعار ، ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : هو المحلل لعن الله المحلل والمحلل له . .

وعن ابن عباس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سئل عن نكاح

المحلل فقال : لا ، إلا نكاح رغبة - لا نكاح دلسة أى لا نكاح غش وتدليس -
 ولا استهزاء بكتاب الله - ثم يذوق عسيلتها
 وجاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخاه
 من غير مؤامرة منه - أى من غير مشورة ورغبة منه - ليحلها لأخيه فهل
 تحل للأول ؟ فقال : لا إلا نكاح رغبة . كنا نعد هذا سفاحاً على عهد
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

ثم قال ابن كثير : والمقصود أن الزوج الثاني يكون راغباً في المرأة قاصداً
 الدرهم عشرتها كما هو المشروع من الزوج . واشترط الإمام مالك مع ذلك أن
 يطأها الثاني وطأ مباحاً فلو وطئها وهي محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض . .
 ثم تحل للأول بهذا الوطء . والمراد بالعسيلة الجماع لما رواه الإمام أحمد والسنائي
 عن عائشة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : دأب إن العسيلة
 الجماع ، (١) .

وبعد أن بين - سبحانه - في الآية السابقة أن الزوج مخير بين الإمساك
 والتسريح في مدة العدة ، عقب ذلك ببيان أن هذا التخيير من حقه حتى آخر
 وقت في العدة ، وذلك لتذكيره بأن الإمساك أفضل من التسريح ، وأن عليه
 ألا يلجأ إلى الطلاق إلا إذا سدت طرق الإصلاح والمعالجة ، وأنه إذا اختار
 الطلاق فعليه أن يسلك فيه طريق الحق والعدل لا طريق الباطل والجور .
 قال - تعالى : وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف
 أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك
 فقد ظلم نفسه .

قال الراغب : الأجل : المدة المضروبة للشيء . قال - تعالى - د لتبلغوا
 أجلا مسمى أى مدة معينة - والبلوغ والبلاغ الانتهاء إلى أقصى المقصد
 والمنتهى مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدرة ، وربما يعبر به عن المشاركة
 عليه وإن لم ينته . فن الانتهاء قوله - تعالى - حتى إذا بلغ أشده وبلغ .

أربعين سنة... وأما قوله : فإذا بلغ أجاهن فأمسكوهن بمعروف ، فلهذا شارفة
فإنها إذا انتهت إلى أقصى الأجل لا يصح للزوج مراجعتها وإمساكها ، ،
والمراد بالأجل هنا عدة المرأة . ويبلغها قرب إنتائها .

والضرار - كما يقول الرازي - هو المضارة . قال - تعالى - والذين اتخذوا
مسجداً ضراراً ، أى اتخذوا المسجد ضرراً ليضاروا المؤمنين ، ومعناه يرجع
إلى إثارة العداوة ، وإزالة الألفة ، وإيقاع الوحشة ، وموجبات النفرة ، .
والمعنى : وإذا طلقتم - أيها المؤمنون - نساءكم طلاقاً رجعيّاً ، فبلغن
أجلهن ، أى فشرفت عدتهن على الانتهاء ، وقاربت الإيقضاء ، فعليكم أن
تتدبروا ملياً في أمركم ، فإن رأيتم الأصلاح في بقائهن معكم فنفذوا ذلك
وأمسكوهن بمعروف . أى بما هو المعروف من شرع الله الحكيم ، وبما تقرره
الأخلاق الحسنة ، والعقول السليمة . وإن رأيتم أنه لا رغبة لكم في البقاء
معهن فسرحوهن بمعروف أى فأمضوا الطلاق ، ونفارقوا بالطريقة التي
يرضاها الحق - سبحانه - بأن تؤدوا لهن حقوقهن . ولا تتركوهن بسوء بعد
انفصالكم عنهن ، فهذا شأن الأتقياء الصالحين فقد سئل بعضهم ، لم طلقت
امرأتك ؟ فقال : إن العاقل لا يذكر ما بينه وبين أهله .

قال القرطبي : « معنى « بلغن » ، قاربن بإجماع من العلماء ، ولأن المعنى
يضطر إلى ذلك ، لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك ، وهو في
آية التي بعدها بمعنى الانتهاء ، لأن المعنى يقتضى ذلك ، فهو حقيقة في
الثانية ، مجاز في الأولى - أى التي معنا - . »

ثم نبى - سبحانه - عن الإمساك الذي يكون معه الضرر فقال :
« ولا تمسكوهن ضرراً لتعتدوا ، أى لا تراجعوهن لإرادة الضرر بهن
والإيذاء لهن لتعتدوا عليهن ، والجملة الكريمة تأكيد للأمر بالإمساك
بمعروف ، وتوضيح لمعناه ، وزجر صريح عما كان يفعله بعضهم من مراجعتها
لامرأته قبل انتهاء عدتها لا قصد الإبقاء على الزوجية وإنما قصد إطالة عدة
الزوجة ، أو قصد أن تفتدى نفسها منه بالمال : وضرراً ، منصوب على الحال .

في تمسكونه أو على أنه مفعول لأجله . واللام في قوله « لتعتدوا ، هي لام العاقبة أي لتسكون عاقبة أمركم الاعتداء . وحذف متعلق لتعتدوا ، ليتناول الاعتداء عليهن وعلى أحكام الله - تعالى - .

وقوله « ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، وعيد شديد لمن يقدم على ما نهى الله عنه . أي : ومن يراجع مطلقته بقصد الإضرار بها والاعتداء عليها فقد ظلم نفسه ظلماً مؤكداً ، لأنه سيعرضها لعقاب الله وسخط الناس . وجعل ظلمهم لنساءهم ظلماً لأنفسهم ، لأن عملهم هذا سيؤدي إلى اختلال المعاشرة الزوجية واضطرابها ، وشيوع العداوة والبغضاء بين الزوجين وبين أهلها . ثم كرر - سبحانه - تحذير للمخالفين لشريعته ، وذكرهم بالأوان نعمه عليهم ليستجيبوا الأمره فقال : « ولا تتخذوا آيات الله هزواً ، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، » .

آيات الله : أحكامه التي شرعها في شأن الطلاق وغيره .

والهزه - بضمهتين - مصدر هزأ به إذا سخر ولعب وهو هنا مصدر بمعنى اسم المفعول أي : مهزواً بها . وقوله « هزوا ، مفعول ثانٍ لتتخذوا . والمراد بالحكمة هنا : السنة النبوية المطهرة . والموعظة والعظة : النصيح والتذكير بالخير . بما يرقق القلوب ، ويحذر النفوس مما نهى الله عنه .

أي : « ولا تتخذوا - أيها الناس - آيات الله التي شرعها لكم في شأن الطلاق وغيره مهزواً بها بأن تعرضوا عنها ، وتهاونوا في المحافظة عليها ، والتمسك بتعاليمها ، ومن مظاهر ذلك أن بعض الناس كان يكثر من التلغظ بالطلاق متوهماً أن ذلك لا يضر ، أو كان يتخذ المراجعة وسيلة لإيذاء المرأة . قال القرطبي : وفي موطأ مالك أنه بلغه أن رجلاً قال لابن عباس : إنني طلقت امرأتي مائة مرة - فإذا نرى علي ؟ فقال ابن عباس : طلقت منك بثلاث ، وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هزواً ، (١) .

والجملة للكريمة نهي أريد به الأمر بضده ، أى جدوا فى العمل بأوامر الله وآياته ، وارعوها حق رعايتها .

وقوله واذكروا نعمة الله عليكم . الخ ، أى تذكروا فى هدايتكم إلى الإسلام ، وفى مشروعية الزوجية وفى غير ذلك مما لا يحصى من النعم وتدبروا نعم الله عليكم فقابلوها بالشكر ، واستعملوها فيها خلقت له ، وتذكروا كذلك ما أنزل الله عليكم بواسطة رسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) من الكتاب وهو القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم ، ومن الحكمة وهى السنة النبوية المطهرة ، بما جاء فيها من توجيهات سامية ، وآداب عالية .

و د ما ، فى قوله و ما أنزل عليكم ، موصولة والعائد محذوف أى ما أنزله و د من ، فى قوله د من الكتاب ، بيانیه ، و جملة د يعظكم به ، حال من فاعل أنزل أو من مفعوله ، والضمير فى د به يعود على الكتاب والحكمة بعد تأويلهما بالذكور . وجعل ضميرهما واحداً لأنهما فى مؤداهما رعايتهما شئ . واحد ، فالسنة ليست تابعة إلا من الكتاب ومنه أخذت قوتها وسلطانها . وقوله سبحانه - فى ختام الآية در انقرا الله واعلموا أن الله بكل شئ عليم ، تذكري لهم بتقوى الله وخشيته ومراقبته ، وتحذير لهم من مخالفة أمره . أى : صونوا أنفسكم عن كل ما يفضب الله - تعالى - فيما يتعلق بأمر الزوجية وفى غيرها مما شرعه لكم ، واعلموا أنه - سبحانه - عليم بكل شئ ، عليهم بما تسرونه وما تعلنونه ، وسبحاسب كل إنسان بما قدمت يداه د يوم لا تأملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

ثم بين - سبحانه - ما ينبغى إتباعه عند حصول الطلاق وإمضائه حتى لا يقع ظلم أو جور فقال - تعالى - وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف .

قال القرطبي : تعضلوهن معناه تحبسوهن ، ودجاجة معضل أى : قد احتبس بيضها ، وقيل : المعضل التضيق والمنع وهو راجع إلى معنى الحبس . يقال : أهضل الأمر : إذا ضاقت عليك فيه الحبل . قال الأزهري : وأصل المعضل

من قولهم : عضلت الناقة إذا نشب ولدها فلم يسهل خروجها . ويقال أعضل الأمر إذا اشتد ، وداء عضال أى شديد عمر البرى . أعياء الأطباء
والمعنى : وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن أى : انقضت عدتهن وخلت الموانع من زواجهن ، فلا تمنعهن من الزواج بمن يردن الزواج به ، متى حصل التراضى بين الأزواج والزوجات على ما يحسن فى الدين ، وقره العقول السليمة ، ويجرى به العرف الحسن .

والمراد ببلوغ الأجل هنا بلوغ أقصى العدة ، بخلاف البلوغ فى الآية التى قبل هذه ، فإن المراد به المشاركة والمقاربة كما أشرنا من قبل لأن المعنى يحتم ذلك ، والخطاب هنا للأزواج وللأولياء . ولكل من له تأثير على المرأة المطلقة ، وذلك لأن منع الزوجة من الزواج بعد انقضاء عدتها قد يكون من جانب الزواج السابق ، لاسيما إذا كان صاحب جاه وسلطان وسطوة ، فإنه يعز عليه أن يتزوج مطلقة أحد بعده فيمنعها من الزواج .

وقد يكون المنع من جانب الأولياء ، وقد أورد المفسرون آثارا تشهد لذلك منها - كما يقول الألوسى - ما أخرجه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه وأبو داود من طرق شتى عن معقل بن يسار قال : كانت لى أخت فأتانى ابن عم لى فأنكحها إياه ، فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة ، ولم يراجعها حتى انقضت العدة ، فبويها وهوته ثم خطبها مع الخطاب . فقلت له : أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ثم جئت تطليقها ، وافقه لا ترجع إليك أبداً ، وكان رجلا لا بأس به ، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه ، فعلم الله - تعالى - حاجته إليه وحاجتها إلى بعْلِها فأنزل هذه الآية . ففى نزلت فكفرت عن يمينى وأنكحتها إياه . . . (٢)

وعبر - سبحانه - عن الرجال الذين هم محل الرضا من النساء بالأزواج فقال : فلا تمنعهن أن ينكحن أزواجهن ، مع أن الزواج لم يتحقق بعد ،

(١) تفسير القرطبى ج ٣ ص ١٥٩

(٢) تفسير الألوسى ج ١ ص ١٤٤

للإشارة إلى الحقيقة المقررة الثابتة ، وهي أن من يقع اختيارها عليه ، ولم يكن أفرانها به فيه ما يشينها أو يشين أمرتها ، فمن الواجب ألا يمانع أحد في إتمام هذا الزواج ، بل على الجميع أن يقرروه وينفذوه ، لأن شريعة الله والفترة الإنسانية يقضيان بذلك .

وقوله « أن ينكحن » تقديره : من أن ينكحن فهو في محل جر عند الخليل والكسائي وفي محل نصب عند غيرهما ، وقوله « إذا تراضوا » ظرف لأن ينكحن أو لقوله « فلا تعضوا » ، وقوله « بالمعروف » متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل تراضوا ، وهو نعت لمصدر محذوف أي تراضياً كأنناً بالمعروف . وهو متعلق بتراضوا . أي تراضوا بما يحسن في الدين والمروءة ، وفيه إشعار بأن المنع من التزوج بغير كفء أو بما دون مهر المثل ليس من العصل المنهى عنه ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أذكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . . . أي : ذلك القول الحكيم ، والتوجيه الكريم المشتمل على أفضل الأحكام وأسمها يوعظ به ، ويستجيب له من كان منكم عميق الإيمان بالله - تعالى - وبشوابه وبعقابه يوم القيامة . ذلكم الذي شرعه الله لكم - أيها المؤمنون - من ترك عض النساء والإضرار بهن وغير ذلك من الأحكام وأذكى لكم وأطهر ، أي أعظم بركة ونفعاً ، وأكثر تطهيراً من دنس الآثام ، فإن المرأة إذا عومت معاملة كريهة ، ولم تظلم في رغباتها المشروعة ، إلتزمت في سلوكها العفاف والخلق لشريف ، أما إذا شعرت بالظلم والامتهان فإن هذا الشعور قد يدفعها إلى ارتكاب ما نهى الله عنه . والله تعالى يعلم ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم ، وأنتم لا تعلمون ذلك ، فامثلوا ما أمركم به واجتنبوا ما نهاكم عنه تفوزوا وتسعدوا والإشارة بقوله « ذلك » إلى ما فضل من أحكام وما أمر به من أفعال الخطاب لكل من يصلح للخطاب من المكلفين .

وخصص الوعظ بالمؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون به ، وترق معه قلوبهم فخشع له نفوسهم .

وأنى — سبحانه — بضمير الجمع ، ذلكم ، بعد أن قال في صدر الجملة « ذلك ، للإشارة إلى أن حماية المرأة من الهوان ومنع التنزيق عليها في اختيار زوجها واجب على جميع المؤمنين ، وأن فائدة ذلك ستعود عليهم جميعاً ما دام هذا الاختيار في حدود الآداب التي جاء بها الإسلام .

وقوله « والله يعلم ، وأنتم لا تعلمون » ، رد على كل معترض على تطبيق شريعة الله ، أو متهاون في ذلك بدعوى أنها ليست صالحة للظروف التي يعيش ذلك المعترض أو هذا المتهاون فيها ، لأن شرع الله فيه النفع الدائم والمصلحة الحقيقية ، والنتائج المرضية ، لأنه شرع من يعلم كل شئ ولا يجهل شيئاً ، ويعلم ما هو الأنفع والأصح للناس في كل زمان ومكان ، ولم يشرع لهم — سبحانه — إلا ما فيه مصلحتهم ومنفعتهم ، وما دام علم الله - تعالى - هو الكامل ، وعلم الإنسان علم قاصر ، فعليتنا أن تتبع شرع الله في كل شئوتنا ، وانقل لأولئك المعترضين أو المتهاونين : سيروا معنا في طريق الحق فذلكم « أركى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وبعد : فهذه خمس آيات قد تحدثت عن جملة من الأحكام التي تتعلق بالطلاق ، وإذا كان الإسلام قد شرع الطلاق عند الضرورة التي تحتها مصلحة الزوجين ، فإنه في الوقت نفسه قد وضع كثيراً من التعاليم التي تؤدي إتباعها إلى الإبقاء على الحياة الزوجية ، وعلى قيامها على المودة والرحمة ، ومن ذلك :

١ — أنه أرشد أتباعه إلى أفضل السبل لاختيار الزوج ، بأن جعل أساس الاختيار الدين والتقوى والخلق القويم ، لأنه متى كان كل من الزوجين متحلياً بالإيمان والتقوى ، إستقرت الحياة الزوجية بينهما ، وقامت على المودة والرحمة وحسن المعاشرة .

٢ — أنه أمر كلا الزوجين بأن يبذل كل واحد منهما قصارى جهده في أداء حق صاحبه ، وإدخال السرور على نفسه ، فإذا ما نجم خلاف بينهما فعليهما أن يعالجاها بالحكمة والعدل ، وأن يجعلا الأناؤ والصبر راتدهما ، فإن

الحياة الزوجية بحكم استمرارها ونشأبك مطالبها لا تغلو من اختلاف بين الزوجين .

٣ - دعا الإسلام إلى إصلاح ما بين الزوجين إن ابتدأت العلاقة تسير في غير طريق المودة ، فقال - تعالى - « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير . . . » كما دعا أولى الأمر أن يتدخلوا للإصلاح بين الزوجين عند نشوب الشقاق بينهما أو عند خوفه فقال - تعالى - « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق بينهما الله إن كان عليماً خبيراً » .

٤ - نهى الإسلام عن إيقاع الطلاق على الزوجة في حال حيضها ، أو في حال طهر باسرها فيه ، لأن المرأة في هاتين الحالتين قد تكون على هيئة لا تجعل الرجل مشوقاً إليها . . . وأباح له أن يوقع الطلاق إن طهر لم يجامعها فيه ، لأن إيقاعه في هذه الحالة يكون دليلاً على استحكام النفرة بينهما .

٥ - نهى الإسلام عن الطلاق البات بالنسبة للمرأة المدخول بها - وأمر الزوج بأن يجعل طلاقه رجعيًا ، وأعطاه فرصة طويلة تقرب من ثلاثة أشهر ليراجع خلالها نفسه ، فإن وجد الخير في مراجعة زوجته راجعها بقصد الإصلاح واستمرار الحياة الزوجية ، وإن وجد الخير في غير ذلك تركها حتى تنقضي عدتها وفارقها بالمعروف عملاً بقوله - تعالى - « فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان » .

٦ - جعل الإسلام الطلاق بيد الرجل ، لأنه هو الذي وقعت عليه معظم أعباء الزواج ، وهو الذي سيتحمل ما سيتقرب على الطلاق من تكاليف ، ولا شك أنه بمقتضى هذه التكاليف وبمقتضى حرصه على استقرار حياته . . . سيتأني ويتروى فلا يوقع الطلاق إلا إذا كان مضطراً إلى ذلك .

كما أن الإسلام أباح للمرأة أن تفتدى نفسها من زوجها ، أو ترفع أمرها للقاضي ليفرق بينها وبينه إذا تيقنت من استحالة استمرار الحالة الزوجية بينهما لأى سبب من الأسباب . وفي هذه الحال فللقاضي أن يفرق بينهما إذا رأى أن المصلحة تقتضى ذلك .

٧ - أباح الإسلام للرجل الذى طلق امرأته ثلاثاً أن يعود إليها من جديد ، وذلك بعد طلاقها من رجل آخر يكون قد تزوجها زواجاً شرعياً وانقضت عدتها منه ، وفي ذلك ما فيه من التأكيد لهما ، والتهديب لسلوكهما

٨ - وردت أحاديث متعددة تنهى عن إيقاع الطلاق إلا عند الضرورة وتعود المرأة التى تطلب من زوجها أن يطلقها بدون سبب معقول بالعذاب الشديد ، ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذى عن ثوبان أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : دأبأ امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس - أى من غير عذر شرعى أو سبب قوى - فحرام عليها راحة الجنة . وروى أبو داود وغيره عن ابن عمر عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال : أبغض للرجال إلى الله الطلاق ، (١) .

هذه بعض التشريعات التى وضعها الإسلام لصيانة الحياة الزوجية من التصدع والاشهار ، ومنها نرى أن الإسلام وإن كان قد شرع الطلاق ، إلا أنه لا يدعو إليه إلا إذا كانت مصلحة الزوجين أو أحدهما تقتضيه وتستلزمه وبعد أن بين - سبحانه - حقوق الزوجين فى حالتى اجتماعهما واقترافهما ، أردف ذلك ببيان حقوق الأطفال الذين يكونون ثمرة لهذا الزواج . فقال تعالى :

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ
حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ
وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ
بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَالِدَيْهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا
بِصَالَا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ
سْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ
اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢٣﴾

والمراد بالوالدات الأمهات سواء أكن في عصمة أزواجهن أم مطلقات لأن اللفظ عام في الكل ولا يوجد ما يقتضى تخصيصه بنوع من الأمهات . ويرى بعض المفسرين أن المراد بالوالدات هنا خصوص المطلقات لأن سياق الآيات قبل ذلك في أحكام الطلاق ، ولأن المطلقة عرضة لإهمال العناية بالولد وترك إرضاعه . وحولين أى عامين . وأهل الحول - كما يقول الراغب - تغير الشيء وانفصاله عن غيره . والحول : السنة اعتباراً بانقلابها ودوران الشمس في مطالعها ومغاربها . قال - تعالى - والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين . . ومنه حالت السنة تحول وحالت الدار تغيرت ، وأحال فلان يمكن كذا أى أقام به حولا ، (١) .

وعبر عن الأمهات بالوالدات ، الإشارة إلى أنهن اللاتي ولدن أولادهم ، وأنهن الوعاء الذي خرجوا منه إلى الحياة ، ومنهن يكون الغذاء الطبيعي المناسب لهذا المولود الذي جاء عن طريقهن .

وقوله يرضعن أولادهن ، جملة خبرية للفظ إنشائية المعنى ، إذ التقدير

ليرضعن . أى : عليهن إرضاع أولادهن .

(١) مفردات القرآن للراغب الأصمغاني ص. ١٣٧

وعبر عن الطلب بصيغة الخبر ، للإشعار بأن إرضاع الأم لطفها عمل
مستوجب القطرة ، وتنادى به طبيعة الأمومة .

قال الجمل : وهذا الأمر للندب وللوجوب ، فهو يكون للندب عند استجماع
شروط ثلاثة ، قدرة الأب على استئجار المروض ، ووجود غير الأم ، وقبول
الولد للين الغير . ويكون للوجوب عند فقد أحد هذه الشروط ، (١) .

وليس التحديد بالحولين للوجوب ، لأنه يجوز التقاطع قبل ذلك ، بدليل
قوله لمن أراد أن يتم الرضاعة ، وإنما المقصود بهذا التحديد قطع التنازع بين
الزوجين إذ اتزاعا في مدة الرضاع ، فإذا أففق الأب والأم على أن يقطعا ولدهما
قبل تمام الحولين كان لهما ذلك إذا لم يتضرر الولد بهذا القطع ، وإن أراد
الأب أن يقطعه قبل الحولين ولم ترض الأم أو العكس لم يكن لأحدهما ذلك .
قال القرطبي ما ملخصه : وقد اتزع مالك - رحمه الله - ومن تابعه وجماعة
من العلماء من هذه الآية أن الرضاعة المحرمة الجارية بجرى النسب إنما هي
ما كان في الحولين ، لأنه بانقضاء الحولين تمت الرضاعة ، ولا رضاعة بعد
الحولين معتبرة . لقوله تعالى - والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين
فهذا يدل على الأحكام لما ارتضع المولود بعد الحولين . وروى سفيان عن
عمرو بن دينار عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
« لا رضاع إلا ما كان في الحولين ، وهذا الخبر مع الآية ينفي رضاعة الكبير
وأنه لا حرمة له . وقد روى عن عائشة القول به ، وروى عن أبي موسى
الأشعري أنه كان يرى رضاع الكبير . وروى عنه الرجوع عنه . وسيأتي
تحقيق هذه المسألة في سورة النساء ، (٢) .

وفي وصف الحولين بكاملين ، تأكيد لرفع توهم أن يكون المراد حولا
وبعض الثاني ، لأن إطلاق التثنية والجمع في الأزمان والأسنان على بعض

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٨٨

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٦٢ (م ٤٤ - البقرة)

المطلوب لإطلاق شائع عند العرب . فيقولون : هو ابن سفتين ، ويريدون به سنة وبعض الثانية .

وفي هذه الجملة الكريمة ، والوالدات برضعن أولادهن حواين كاملين ، بيان لمظهر من مظاهر رعاية الله - تعالى - للإنسان منذ ولادته ، بل منذ تكويته في بطن أمه جنيناً ، فقد أمر - سبحانه - الأمهات أن يقمن بإرضاع أولادهن في تلك المدة ، لأن لبن الأم هو أفضل غذاء لطفلها في هذه الفترة ، وأسلم وسيلة لضمان صحته ونموه ، ولصياغته من الأمراض النفسية والعقلية ، فقد أثبت الأطباء الثقة أن الطفل كثيراً ما يصاب بأمراض جسمية ونفسية وعقلية نتيجة رضاعته من غير أمه ، كما أثبتوا أن عناية الأم بطفلها في هذه الفترة عن طريق إرضاعه ورعايته ، تؤدي إلى تحسن أحواله . . .

وقوله : لمن أراد أن يتم الرضاعة ، بيان لمن توجه إليه الحكم . أي هذا الحكم لمن أراد إتمام الرضاع ، فإذا أراد الأبوان أن ينقضا مدة الرضاع عن الحولين كان لهما ذلك . فالجملة الكريمة خير لمبتدأ محذوف أي هذا الحكم لمن أراد أن يتم مدة الرضاعة .

وقوله : وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، يباين لما يجب على الآباء - أي : وعلى الآباء أن يقدموا إلى الوالدات ما يلزمهن من نفقة وكسوة بالمعروف أي بالطريقة التي تعارف عليها العقلاء بدون إسراف أو تقتير . قال صاحب الكشف : فإن قلت لم قيل : المولود له ، دون الوالد ؟ قلت : ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم ، لأن الأولاد للآباء ، ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات ، كما قال المأمون بن الرشيد :

فإنما أمهات الناس أوعية مستودعات والآباء أبناء

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأظفار الأخرى . أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله - تعالى -
يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود

هو جازعن والده شيئاً (١) .

وقوله لا تكلف نفس إلا وسعها ، تعليل لإيجاب المؤمن بالمعروف .
أو تفسير للمعروف وطذا فصلت هذه الجملة عن سابقتها . وقوله وسعها منصوب
على أنه مفعول ثان لتكلف ، والاستثناء قبله مفرغ أى أن أبا الولد لا يكلف في
الإتيان عليه وعلى أمه إلا بالقدر الذى تنسج له مقدرته بدون إرهاق أو مشقة
وتلك هى سنة الإسلام فى جميع تكاليفه ، فائقه - تعالى - ما كلف عباده إلا
بما يستطيعونه ويطيعونه بدون عمر أو عنق قال - تعالى - ولا يكلف الله نفساً
إلا وسعها ، وقال - تعالى - يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .
وقوله لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، تعليل للأحكام
السابقة الموزعة بين الاب والام ، والتي أساسها رعاية حق هذا الوليد الذى
أتى عن طريقهما .

والمضارة مفاعلة من الضرر ، والمعنى : لا ينبغي أن يقع ضرر على الام
بسبب ولدها ، بأن يستغل الاب حنوها على ولدها فيمنعها شيئاً من
نفقتها ، أو يأخذ منها طفلها وهى تريد إرضاعه ، أو يكلفها بما ليس فى
مقدورها أو ما يخالف وظيفتها ، ولا ينبغي كذلك أن يقع ضرر على الاب
بسبب ولده ، بأن تكلفه الام بما لا تنسج له قدرته مستغلة محبته لولده
وعنايته بتنشئته تنشئة حسنة .

قال الجمل : و د لا ، فى قوله لا تضار ، يحتمل أن تكون نافية فيكون
الفعل مرفوعاً ، ويحتمل أن تكون ناهية فيكون الفعل مجزوماً ، وقد قرئ به
فى السبع ، وعلى كل يحتمل أن يكون الفعل مبنياً للفاعل وللمفعول ، (٢) .
والمعنى على الاحتمالين واحد وهو أنه لا يجوز أن يضر كل واحد منهما
صاحبه أو يضر من صاحبه بسبب حنوه على ولده واهتمامه بشأنه .
وأضاف الولد إلى كل منهما فى الموضعين للاستعطاف ، وللتنبية على أن

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٧٩

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ ص ١٨٩

هذا الولد الذى رزقهما الله إياه جدير بأن يتفقا على رعايته وحمايته من كل ما يؤذيه ، ولا يجوز مطلقاً أن يكون مصدر قلق لأى واحد منهما .
وقدمت الأم فى الجملة الكريمة ، لأن الشأن فيها أن يكون حنوها أشد ، وعاطفتها أوق ، ولأن مظنة إزال العنف والأذى بها أقرب لضعفها عن الأب .
فالجملة الكريمة توجيه سديد ، وإرشاد حكيم ، والآباء والأمهات إلى أن يقرم كل فريق منهم بواجبه نحو صاحبه ونحو الأولاد الذين هم ثمار لهم .
وقوله « وعلى الوارث مثل ذلك ، معطوف على قوله « وعلى المولود له رزقهن .. الخ ، وما بينهما تعليل أو تفسير معترض .

والوارث : هو من يصير إليه مال الميت بعد الموت بحق الإرث . والإشارة بقوله ذلك ، تعود إلى الحكم المتقدم وهو الرزق والكسوة وترك الإضرار .
أى : وعلى وارث الأب أو وارث الصبى - أى من سيرته بعد موته - عليه مثل ما على الأب من النفقة وترك الإضرار . فهذه الجملة الكريمة سبقت لبيان من يجب عليه نفقة الصبى إذا فقد أباه ، أو كان أبوه موجوداً ولكنه عاجز عن الإنفاق عليه .

قال الألوسى ما ملخصه : والمراد بالوارث وارث الولد فإنه يجب عليه مثل ما وجب على الأب من الرزق والكسوة بالمعروف إن لم يكن للولد مال . وهو التفسير المأثور عن عمر وابن عباس وقتاده . . . وخلق كثير .
وخص الإمام أبو حنيفة هذا الوارث بمن كان ذا رحم محرم من الصبى . . .
وقال الشافعى المراد وارث الأب - يجب عليه عند موت الأب كل ما كان واجباً على الأب - وقيل المراد بالوارث الباقي من الأبوين ، وقد جاء الوارث بمعنى الباقي كما فى قوله - صلى الله عليه وسلم - : اللهم متعنى بمعنى وبصرى واجعلهما الوارث منى ، (١) وعلى أمة حال فالجملة الكريمة تفرس معانى الإخاء والأرحام والتكافل بين أبناء الأسرة الواحدة ، فالتقادر يتفق

على العاجز ، والغنى يمد الفقير بحاجته ، وبذلك تسعد الأمرة ، وتسودها روح المحبة والمودة .

وقوله : فإن أرادوا فصلاً عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ، معطوف على قوله : يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لأنه متفرع عنه . والضمير في قوله : فإن أرادوا ، يعود على الوالدين .

قال القرطبي : والفصال والفصل . الفظام وأصله التفريق ، فهو تفريق بين الصبي والشدى . ومنه سمي الفصيل - لولد الضأن - لأنه مفصول عن أمه . والنشاور : استخراج الرأي - بما فيه المصلحة - وكذلك المشاورة . من الشور وهو اجتناء العسل . يقال شرت العسل - إذا استخرجته من مواضعه - والشواء : متاع البيت لأنه يظهر للنظار . والشارة هيئة الرجل ، والإشارة : لإخراج ما في نفسك وإظهاره ، (١) .

والمعنى : فإن أراد الأبوان فطاماً لولدهما قبل الحولين ، وكانت هذه الإرادة عن تراض منهما وتشاور في شأن الصبي وتفحص لأحواله ، ورأيا أن هذا الفظام قبل بلوغه الحولين لن يضره فلا لائم عليهما في ذلك .

وقال بعضهم : وأيضاً لا لائم عليهما إذا فطماه بعد الحولين متى رأيا المصلحة في ذلك . وقد قيد - سبحانه - هذا الفظام لصبي بكونه عن تراض من الأبوين وتشاور منهما ، رعاية لمصلحة هذا الصبي ، لأن رضاً أحدهما فقط قد يضره ، بأن تمل الأم الإرضاع أو يبخل الأب بالإنتاق ، ولأن إقدام أحدهما على الفظام بدون التشاور مع صاحبه قد يؤثر في صحة الصبي تأثيراً سيئاً . لذا أوجب - سبحانه - التراضي والنشاور فيما بينهما من أجل مصلحة صبيهما . ثم قال - تعالى - : وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلتهم ما آتيتهم بالمعروف .

أى : وإن أردتم - أيها الآباء - أن تسترضعوا مراضعاً لأولادكم ، ورضعهم

الأمهات بذلك ، فلا إثم عليكم فيما تفعلون ما دمتم تقصدون مصلحة أولادكم ،
وعليكم أن تسألوا هؤلاء المراضع أجرهن بالطريقة التي يقرها الشرع ،
وتستحسنها العقول السليمة ، والأخلاق القويمة .

واسترضع - كما يقول الزمخشري - منقول من أرضع . يقال : أرضعت
المرأة الصبي ، واسترضعتها الصبي فهي متعدية إلى مفعولين ، والمعنى : أن
تسترضعوا المراضع أولادكم . فحذف أحد المفعولين للاستغناء عنه .

وقول « ما آتيتم » ، حذف مفعولاه أي آتيتموهن إياه . وبالمعروف متعلق
بسلتم أي بالقول الجميل ، وبالوجه المتعارف المستحسن شرعاً . ويجوز أن
يتعلق بآتيتم . وأن يكون حالاً من فاعل سلمتم أو آتيتم والفاعل فيه
محذوف أي ملتبس بالمعروف .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « واتقوا الله واعلموا أن الله
بما تعملون بصير » .

أي : اتقوا الله في كل شئو نسكم ، والزموا ما بينه لكم من أحكام ،
واعلموا أن الله - تعالى - لا يخفى عليه أعمالكم ، فهو محصيها عليكم ،
وسيجزي المحسن إحساناً والمسيء سوءاً .

ثم بين - سبحانه - عدة المرأة إذا توفي عنها زوجها ، وما يجب عليها
من آداب فقال - تعالى - .

وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ

مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا
بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣٢﴾

وقوله: «يتوفون» - بالبناء للمجهول - أي يقبض أرواحهم فإن التوفي
 القبض . يقال : توفيت مالى من فلان واستوفيته منه أى قبضته وأخذتها
 قال - تعالى - والله يتوفى الأنفس حين موتها، أى يقبض الأنفس وبأخذ
 إليه بالموت حين إنتهاء آجالها .

والمعنى : والذين يتوفاهم الله - تعالى - منكم - أيها المسلمون - ويتركوا
 من خلفهم أزواجاً . فعلى هؤلاء الأزواج اللاتي ارتبطن برجالهم إرتباط
 حقوباً متيناً ثم فرق الموت بينهم وبينهن ، هل يهن أن يتربصن بأنفسهم
 أربعة أشهر وعشراً ، أى : عليهن أن ينتظرن انقضاء هدهن فيحبسن أنفسهن
 عن الزواج وعن التزين وعن التعرض للخطاب مدة أربعة أشهر وعشر
 ليال ، وفا . لحق الزوج المتوفى ، واستبراء للرحم .

قال الإمام ابن كثير ماملخصه : هذا أمر من الله - تعالى - للنساء اللاتي
 يتوفى هنن أزواجهن أن يعددن أربعة أشهر وعشر ليال . وهذا الحكم يشمه
 الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بالإجماع ، ومستند هذا الإجماع
 في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة ، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد
 وأهل السنن وصححه الترمذى أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة ففارقها
 عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فقال : أقول فيها برأى فإن يك سوابق
 الله ، وإن يك خطأ فتنى ومن الشيطان . والله - تعالى - ورسوله بريئان
 رحمة : لها الصداق كاملاً . وفي لفظ : لها صداق مثلها لا وكس ولا شطأ
 وعلها العدة ولها الميراث . فقام معقل بن يسار فقال : سمعت رسول الله
 (صلى الله عليه وسلم) قضى به فى بَرِّوَع بنت واشق . ففرح عبد الله
 بذلك فرحاً شديداً . ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهى حية
 فإن عدتها بوضع الحمل اعموم قوله - تعالى - « وأولات الاحمال أجلمهن
 أن يرضعن حملهن » وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجل
 من الوضع أو أربعة أشهر وعشرة أيام للجمع بين الآيتين ، (١) .

وقوله «والذين» اسم موصول مبتدأ . و«يتوفون» صلته ، و«منكم» في موضع نصب على الحال من الواو في «يتوفون» و«يتربصن» وما بعده خبر عن الذين والرابط محذوف والتقدير: يتربصن بعدهم أربعة أشهر وعشراً والتعبير بقوله «يتربصن بأنفسهن» تعبير دقيق حكيم أى : عليهن أن يعن أنفسهن عن النكاح وعن التزين وعن الخروج من منزل الزوجية - إلا إذا كانت هناك ضرورة لطفاً للخروج - مدة أربعة أشهر وعشرة أيام ، وذلك لأن المرأة المؤمنة الوافية بأبوابها ووفاءها للزوج المتوفى عنها ، أن تعرض نفسها على غيره بعد فترة قصيرة من وفاته ، فإن هذا أمر مستهجن في شرع الله وفي عرف العقلاء من الناس . إذ هذه المدة التي جاءت في الآية التي حددها الله - تعالى - لمعرفة برادة الرحم من الحمل ، وهي التي تخف فيها مرارة الفراق بين زوجين ربط الله بينهما برابطة المودة والرحمة .

ولقد ألغى الإسلام هذا التشريع عادات جاهلية ظالمة للمرأة فقد كانت المرأة في الجاهلية إذا توفى عنها زوجها تغلق على نفسها مكاناً ضيقاً في بيتها وتقضى فيه عاماً كاملاً حداداً على زوجها فأبطل الإسلام ذلك ، ومن الأحاديث التي وردت في هذا المعنى ما ثبت في الصحيحين عن أم حبيبة وزينب بنت جحش - رضى الله عنهما - أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً .

والإحداد هو ترك الزينة ، وعدم التعرض للخطاب ، وعدم الخروج من منزل للزوجية إلا للضرورة . وفي الصحيحين أيضاً عن أم سلمة أن امرأة قالت يا رسول الله إن ابنتي توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفكتحل ؟ فقال : لا امرأتين أو ثلاثاً ثم قال : إنما هي أربعة أشهر وعشراً وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة .

قال ابن كثير بعد أن ساق هذين الحديثين : قالت زينب بنت أم سلمة : كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حشفة - أى مكاناً ضيقاً من البيت -

ولبست ثيابها ولم تمس طيباً ولا شيتاً حتى تمر سنة . . (١) .
وقال بعض العلماء : وقد حد الشارع للمتوفى عنها زوجها عدة هي في
جملتها أكثر من عدة المطلقات ، لأن تلك ثلاثة قروم تجيء عادة في نحو ثلاثة
أشهر . وهنا يرد سؤالان : أولهما : لماذا كانت العدة في المتوفى عنها زوجها بالأشهر
دون الحيض فلم تجعل أربع حيضات بدل ثلاث ؟ ولماذا كانت الزيادة ؟
ولم نجد أحداً تصدى لبيان الحكمة في جعلها بالأشهر ، ويبدو لنا أن الحكمة
التي تدركها عقولنا - وإن كانت الحكمة السامية قد تملو على مدار كنا - هي
أن عدة الوفاة تكون للدخول بها وغير المدخول بها وللصغيرة والكبيرة ،
والأساس فيها هو الحداد على الزواج السابق الذي انتهى بوفاة أحد ركنيه ،
فلزم أن يكون بأمر يشترك فيه الجميع مادام السبب واحداً في الجميع . وفوق
ذلك أن العدة في الوفاة لو قدرته بالحيض وهو أمر لا يعلم إلا من جهة المرأة ،
فربما تدفعها الرغبة في الزواج إلى المكذب فتدعيه وهو لم يقع ، وفي
المطلقات العدة حق للمطلق فيستطيع أن ينكر عليها أما في حال الوفاة فصاحب
الحق الأول قد مات وصار الحق لله خالصاً . فحد ذلك الحق بالأشهر
والأيام حتى لا يكون مساعاً للكذب وإدهاء ما لم يحصل ، لأن الأيام
والأشهر تعرف بالكتاب والحساب وليست أمراً يعرف من جهتها فقط .

أما الجواب عن الأمر الثاني وهو لماذا كانت العدة بالوفاة أكثر في الجملة
من العدة للناشئة عن الطلاق ؟ فيبدو بادي الرأي من الفرق بين حال الطلاق
وحال الوفاة أن الطلاق نتيجة شقاق . فالحداد على الزوج الذي ينشئه ليس
قوياً ، ومعنى براءة الرحم وإعطاء الزوج فرصة للرجعة يكون أوضح في معنى
العدة ، ويكفي لذلك نحو ثلاثة أشهر . أما حال الموت فمرارة الفراق فيها
أوضح وأشد . ومعنى الحداد يغلب فيها معنى براءة الرحم ، ولذا يجب على

المدخول بها وغير المدخول بها ، وإن الشارع قد جعلها لذلك أطول من عدة الطلاق . . .

وقد يرد سؤال ثالث وهو : لماذا حددت العدة بأربعة أشهر وعشر ؟ وإن تقدير الأعداد كما يقرر الفقهاء أمر توقيفي خالص لا يجري فيه القياس . ولكن ليس معنى ذلك أنه لاحكمة فيه ، وأن الحكمة يقررها العلماء في أمرين : أولهما : أن الأشهر الأربعة هي التي يظهر فيها الحمل ويستبين ، وقد جمدت العشر بعدها للاحتياط . . . وثانيهما : أن مدة أربعة الأشهر هي المدة التي قررها الشارع أقصى مدة للحرمان من الرجال ، ولذلك جعل الإيلاء مدته أربعة أشهر . . . فكان من التنسيق بين الأحكام الشرعية أن تجعل مدة الإحداد على الزواج في حدود هذه المدة ومقاربة لها في الجملة ، (١) وقوله فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف . بيان لما يعزب على إتمام عدة المتوفى عنها زوجها من أحكام حكيمة . أى : فإذا انتهت المدة التي حددها الشرع للمرأة التي مات عنها زوجها فتتجنب فيها التزين والتعرض للزكاح . فلا حرج عليكم بعد ذلك أيها المسلمون أو أيها الأولياء - في ترك هؤلاء الزوجات الأراامل يفعلن في أنفسهن ما تفعله المرأة للراغبة في الزواج من التزين والتجمل ولكن بالطريقة التي يقرها الشرع ، وترضاها العقول السليمة ، والأخلاق المستقيمة .

وقوله بالمعروف متعلق بفعلن ، أو حال من النون أي حالة كونهن متلبسات بالمعروف . ومضمومه أنهن لو خرجن عن المعروف شرعاً بأن تخرجن وأظهرن ما أمر الله بستره فإنه في هذه الحالة يجب على أوليائهن أن يمنعهن من ذلك ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله والله بما تعملون خبير ، أى أنه محيط بدقائق أعمالكم لا يخفى عليه منها شيء ، فإذا وقفتم أنفسكم عند حدوده فأسعدكم في الدنيا وأجزل مشورتكم في الآخرة ، وإن تجاوزتم حدوده عاقبكم

(١) تفسير الآية الكريمة لفهضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد أبو زهرة

بما يستحقون ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .
وبذلك نرى الآية الكريمة قد رسمت للناس أفضل وسائل الحياة الشريفة ،
فأرشدت المرأة التي مات عنها زوجها إلى ما يحفظ لها كرامتها ، ويدفع عنها
ما يقنأى مع العفة والشرف والوفاء .

ثم بين - سبحانه - حكم الخطية للنساء المعتدات بياناً يقوم على أدب
النفس ، وأدب الاجتماع ، ورعاية المشاعر والعواطف مع رعاية المصالح
والضرورات فقال - تعالى - :

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ
خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ
وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزَمُوا
عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

وقوله - تعالى - فيما عرضتم به ، أى : لو حتم وأشتمت به . من التمر يض
الذى هو ضد التصريح ومعناه أن يضمن كلامه ما يصلح للدلالة على مقصوده
ويصلح للدلالة على غير مقصوده ، إلا أن إشعاره بجانب المقصود أتم وأرجح
وأصله من عرض الشيء - بضم العين - أى جانبه ومن أمثله أن يقول الفقير
المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لاسلم عليك . . وهو يقصد عطاؤه .
و خطبة النساء ، مخاطبة المرأة أو أولياتها فى أمر زواجها . والخطب
- بكسر الخاء كالجلسة - مأخوذة من الخطب أى الشأن لأنها شأن من الشئ

وقيل من الخطاب لآها نوع - مخاطبة تجرى بين جانب الرجل وجانب المرأة . والمراد خطبة النساء اللاتي فارقهن أزواجهن . وها كنتم في أنفسكم - أخفيتم وأسررتم من الإكتان وهو الإضهار من غير إعلان .

والمعنى : ولا حرج ولا لائم عليكم أيها الرجال المتبعون للزواج في التعريض بخطبة المرأة أثناء عدتها لتزوجهن بعد انقضائها ، كما أنه لا لائم عليكم كذلك في الرغبة في الزواج بن ، مع إخفاء ذلك وسره من غير كشف وإعلان لأن التصريح بالخطبة أثناء العدة عمل يتنافى مع آداب الإسلام ، ومع تعاليم شريعته ، ومع الأخلاق الكريمة ، والعقول السليمة ، والنفوس الشريفة .

قال القرطبي : قال ابن عطية : أجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزوجها وتنبه عليه لا يجوز ، وكذلك أجمعت على أن الكلام بها بما هو رث وذكور جماع أو تعريض عليه لا يجوز وكذلك ما أشبهه وجوز ما عدا ذلك . ولا يجوز التعريض لخطبة المطلقة طلاقاً رجعياً إجماعاً لأنها كالزوجة . وأما من كانت في عدة البينونة فالصحيح جواز التعريض لخطبتها ، (١) .

والتعريض في خطبة النساء أساليب مختلفة ، وما ذكره العلماء في هذا الشأن أن يقول الرجل للمرأة : إنى راغب في الزواج أو أن يقول لوليها : لا تسبقني بها إلى غيرى ...

ومن أساليب التعريض ما فعله النبي - صلى الله عليه وسلم - مع السيدة أم سلمة ، فقد دخل عليها وهي متايمة من زوجها أبي سلمة فقال لها : لقد علمت أي رسول الله وخيرته وموضعي في قومي ، فكان كلامه خطبة لها بأسلوب التعريض .

ومنها ما ذكره صاحب الكشاف عن عبد الله بن سليمان عن خالته - سكينه -

(١) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ١٨٨ .

جنت حنظلة - قالت : دخل علي أبو جعفر محمد بن علي وأنا في عدتي فقال :
 قد علمت قرابتي من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقرابتي من جدي علي
 بن أبي طالب ، وموضعي في العرب ، وقد مضى في الإسلام . قالت : فقلت :
 غفرا الله لك يا أبا جعفر ! أنخطبني في عدتي وأنت يؤخذ عنك ؟ فقال : أو قد
 فعلت إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله - ﷺ - وموضعي ، (١) .
 وقوله - تعالى - « ولا جناح عليكم فيما عرضتم » الخ ، معطوف على
 ما قبله في الآية السابقة لأن الكلام في الآيتين في الأحكام المتعلقة
 بعدة النساء .

و « ما » في قوله « فيما عرضتم » مرصولة . و « من خطبة النساء » بيان لما
 و « آل » في النساء للعهد والمعهودات هن الزوجات اللاتي سبق الحديث
 عنهن في الآيات التي قبل هذه .

و « أو » في قوله « أو أكنتم » الإباحة أو التخيير ، ومفعول أكن
 محذوف يعود إلى ما الموصولة في قوله « فيما عرضتم » والتقدير : أو أكنتموه .
 و « في أنفسكم » متعلق بأكنتم .

وقوله - تعالى - « علم الله أنكم ستذكرونه » ولكن لا تواعدوهن سرا
 إلا أن تقولوا قولا معروفاً كالتعليل لما قبله وهو قوله « ولا جناح عليكم
 فيما عرضتم » الخ ، ونهى عما يردى ويفسد ، وإباحة لما لا ضرر فيه .
 أي : علم الله أنكم يا معشر الرجال ستذكرونه هؤلاء النسوة المعتدات
 بما هن من جهال ومن حسن عشرة ومن غير ذلك من شئونهن وأن تفكروا
 فيهن وتنفروا إليهن نفوسكم ، والله - تعالى - فضلاً منه وكرماً قد أباح لكم أن
 تذكروهن ولكنه ينهاكم عن أن تواعدوهن وعداداً سرياً بأن تقولوا لهم في
 السر ما تستحيون من قوله في العلن لقبحه ومنافاته للشرع .

وقوله « إلا أن تقولوا قولا معروفاً » إستثناء مما يدل عليه النهي
 لا تواعدوهن مواعدة ما إلا مواعدة معروفة غير منكورة شرعاً ، وهي

ما تكون بطريق التلويح والتعريض .
 وفي قوله سبحانه : علم الله أنكم ستذكرون ، بيان لما جبلت عليه
 النفس البشرية من ميل فطري بين الرجال والنساء ، والإسلام لا ينكر هذا
 الميل وإنما يهذبه ويقومه وبصقله بأدابه الحميدة ، وتعاليمه السامية .
 وقوله : ولكن لا تواعدوهن سرا ، استدراك على محذوف دل عليه
 « ستذكرهن ، أى : فاذكرهن ولكن لا تواعدوهن سرا ، .

قال القرطبي ما ملخصه : واختلف العلماء في المراد بالسرفى قوله - تعالى -
 « ولكن لا تواعدوهن سرا » فقيل معناه نكاحاً ، أى لا يقبل الرجل لهذه المعتدة
 زوجين بل يعرض إن أراد ، ولا يأخذ ميثاقاً وعهداً إلا تنكح غيره في استمرار
 وخفية . هذا قول جمهور أهل العلم . و « سرا » على هذا التأويل نصب على
 الحال أى مسرين - وسمى النكاح سراً لأن مسببه الذى هو الوطء بما يسر -
 وقيل السر الزنا ، أى لا يكون منكم مواعدة على الزنا في العدة ثم الزواج
 بعدها . أى لا تواعدوهن زناً . واختاره الطبري . ومنه قول الأعشى :
 فلا تقرين جارة إن سرها عليك حرام فانكحن أو تأبداً
 أى : وفتزوجها أو ابتعد عنها . وقيل السر الجماع ، (١) .

والذى تظمن إليه النفس أن كلمة « سرا » صفة لموصوف محذوف أى
 لا تواعدوهن وعدا سرياً ، وأن النهى هنا منصب على كل مواعدة سرية ، يقال
 فيها كل ما ينهى عنه أو يستحيا منه في العلن ، لقبحه أولاً أو أنه لم يمن بعد ،
 إذ السرية أو الخلو بين الرجل والمرأة لا تؤمن من القها . وفي الحديث الشريف
 أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان
 الشيطان ثالثهما (٢) » وأن المراد بقوله ، إلا أن تقولوا قولا معروفاً وهو التعريض
 بالخطبة ، وإظهار المودة بطريقة لا تفضى إلى محرّم .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ١٩٠

(٢) الترغيب والترهيب للمنذرى > ٢ ص ٣٨

قال صاحب الكشاف وقوله إلا أن تقولوا قولاً معروفاً، وهو أن تعرضوا
ولا تصرحوا . فإن قلت لم يتعلق حرف الاستثناء ؟ قلت : بلا تواعد ومن .
أي لا تواعدون مواءمة نطق إلا مواءمة معروفة غير منكورة : أي
لا تواعدون إلا بالتعريض .

ثم قال - تعالى - ولا تعرضوا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ، -
العزم : القطع والتصميم ، يقال دزم على الشيء إذا صمم وعقد القلب
على فعله ، وهو يتعدى بعلى وبنفسه فيقال : عزم الشيء وعزم عليه .
وعقدة النكاح : الارتباط الموثق به . وأصل العقد الشد ، واليهود
والأنكحة تسمى عقوداً لأنها تعقد وتوثق كما يوثق بالحبل .
والمراد بالكتاب هنا الأمر المكتوب المفروض وهو العدة التي حددها
الله لها وقتاً معيناً .

والأجل : هو نهاية المدة التي قررها الشرع للعدة .

والمعنى : لا يسوغ لكم يا معشر الرجال الراغبين في الزواج من النساء
اللاتي فارقن أزواجهن أن تعقدوا العزم نهائياً في أثناء العدة على أن تتموا
الزواج بعدها ، بأن تحول الخطبة من التعريض إلى التصريح ، أو بتتوا في
أمر الزواج بتأقاطعاً بمواءمة أو نحوها ، إذ العاقل لا يستعجل أمراً قبل
حول وقته ، وإنما الذي يسوغ لكم أن تتموا عقد الزواج بعد إنتهاء العدة ،
وبعد أن يكون جو الأحزان قد فتر وجمت حدته .

والنهي عن العزم على عقد النكاح نهى بالأولى عن إبرامه وتنفيذه ،
لأن العزم على الفعل يتقدمه ، فإذا نهى عنه كان الفعل أنهى ، فهو كالنهي
عن الاقتراب من حدود الله في قوله : تلك حدود الله فلا تقربوها .
وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد أباحت شيئين ، ونهت عن شيئين :
أباحت التعريض بالخطبة للمرأة أثناء عدتها ، كما أباحت إخفاء هذه الرغبة

في الأنفس وحدثها بها . ويشهد لذلك قوله - تعالى - ولا جناح عليكم فيما
 عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم ، ونهت عن المواعدة سراً إلا
 أن يقولوا قولاً معروفاً عن طريق التعريض ، أو أن يسار الرجل المرأة بالقول
 المعروف الذي أباحه الشرع وارتضته العقول السليمة ، والأخلاق الفاضلة ،
 بأن يعدها في السر بالإحسان إليها والاهتمام بشأنها والتكفل بمصالحها حتى يصير
 ذكر هذه الأشياء الجميلة مؤكداً لذلك التعريض . أما الشيء الثاني الذي نهت عنه
 فهو العزم على عقدة النكاح قبل انقضاء العدة . ويشهد لهذا قوله - تعالى - :
 « علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً
 معروفاً ، ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ، » .

وبعد هذه الأوامر والنواهي ختم الله - تعالى - الآية بقوله : « واعلموا
 أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا أن الله غفور حلِيم ، » .
 أي : اعلموا أيها الناس أن الله - تعالى - يعلم ما يجول في نفوسكم من
 خير أو شر ، ومانه جس به خطرات قلوبكم من مقاصد واتجاهات ، فاحذروا
 أن تقصدوا ما هو شر ، أو تفعلوا ما هو منكراً ، واعلموا أنه - تعالى - غفور
 لمن تاب وعمل صالحاً ، حلِيم لا يعاجل الناس بالعقوبة ، ولا يؤاخذهم
 إلا بما كسبوا .

فالجملة الكريمة تحذير وتبشير ، وترغيب وترهيب ، لكي لا يتجاسر
 الناس على ارتكاب ما نهى الله عنه ، ولا يياسوا من رحمته من تابوا وأتوا
 هذا ، وقد أجمع العلماء على تحريم نكاح المرأة في عنتها ، وإذا حدث
 مثل هذا النكاح ودخل بها ففرق بينهما وفسخ النكاح .

ويرى جمهور العلماء أنها تصير محرمة عليه تحريماً مؤبداً ، ولا يحل له
 نكاحها بعد ذلك ، لأنه استحل ما لا يحل فعرب بحرمانه ، كالمقاتل بما قرب
 بحرمانه من ميراث المقتول . وقيل : يفسخ النكاح ويفرق بينهما فإذا انتهت
 العدة حلته ولم يتأبد التحريم . ولكل فريق أدلته المستوطنة في كتب الفقه .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد أرشدت الناس إلى ما يقره الشرع، ويرتضيه الخلق الكريم، ونهتهم عما يتنافى مع تعاليم الإسلام بأسلوب حكيم جمع بين الشدة واللين، والخوف والرجاء، حتى يثوب المخطئون إلى رشدهم ويقلعوا عن خطيئهم.

ثم بين - سبحانه - في آيتين كريمتين بعض الأحكام التي تتعلق بالمطابقة قبل الدخول بها، سواء أذكر لها المهر أم لم يذكر، فقال - تعالى - :

لَا جُنَاحَ

عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لهنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ، وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرَهُ، مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ قَدْ فَرَضْتُمْ لهنَّ فَرِيضَةً فَصِفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢٧﴾

قوله - تعالى - وما لم تمسوهن، أي ما لم تجامعهن ولم تدخلوا بهن والمس في أصل معناه: اللمس، ويقال فيما معه إدراك بحاسة اللمس، ثم أطلق على سبيل الكناية على ما يكون بين المرء وزوجه من جماع ومباشرة وعلى غير ذلك مما يكون فيه إصابة حسية أو معنوية. وهذه الكناية من اللفظ الكنائيات التي تربي في الإنسان حسن الأدب، وسلامة التعبير، وتجنبه طلق بالالفاظ الفاخرة. وقد تكرر هذا التعبير المهذب في القرآن الكريم (م - ٤٥ - البقرة)

ومن ذلك قوله - تعالى - حكاية عن مريم « قالت أنى يكون لى ولدولى
يمسنى بشر . . » (١) .

والمراد بالفريضة هنا المهر الذى يفرضه الرجل على نفسه للمرأة قبل
الدخول بها .

والمعنى : لا لائم عليكم أيها الرجال إذا طلقتم النساء لأسباب مشروعة ،
وبطريقة مرضية ، قبل الدخول بهن ، وقبل أن تقدروا لهن مهرأ معيناً .
ثم بين - سبحانه - ما للمرأة على الرجل فى هذه الحالة فقال : « وتمعوهن ،
على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، متاهاً بالمعروف حقاً على المحسنين ، . . .
قوله - تعالى - « وتمعوهن ، أى ملكوهن ما ينتفعن به ، ويدخل التسليمة
والسرور على نفوسهن . وأصل المتعة والمتاع ما ينتفع به الإنسان من مال
أو كسوة أو غير ذلك ، ثم أطلقت المتعة على ما يعطيه الرجل للمرأة من مال
أو غيره عند طلاقها منه لتنتفع به ، جبراً لحاظها ، وتعويضاً لما نالها
بسبب هذا الفراق .

و « الموسع » هو الغنى الذى يكون فى سعة من غناه . يقال : أوسع الرجل
إذا كثر ماله ، واتسعت حاله . و « المقتر » هو الفقير الذى يكون فى ضيق من
فقره . يقال : أقر الرجل أى افتقر وقل ما فى يده .

والمعنى : لا حرج عليكم فى طلاقكم للنساء قبل أن تدخلوا بهن وقبل
أن تقدروا لهن مهرأ معيناً ، وليس من حقهن عليكم فى هذه الحالة أن يطالبنكم
بالإصداق ، وإنما من حقهن عليكم أن تمتعهن بأن تدفعوا لهن ما ينتفعن به
كل على حسب حاله وطاقته ، فالأغنياء يدفعون ما يناسب غناهم وسعتهم ،
والفقراء يدفعون ما يناسب حالهم .

وقوله « متاعاً بالمعروف » أى أعطوهن ما يتمتعن به وينتفعن به بالقدر
المتعارف عليه بين العقلاء ، فلا يعطى الغنى ما لا يتناسب مع غناه ولا مع

حال المرأة التي طلقها ، ولا يعطى الفقير شيئاً تافهاً لا يسمى في عرف العقلاء متاعاً كما أنه لا يكلف فرق استظهاره ، لأن المناع ما سمي بهذا الاسم إلا لأنه يتمتع به وينتفع به لفترة من الزمان .

وقوله « حقاً على المحسنين » تأكيد لهذا التمتع الذي هو من حق المرأة على الرجل الذي طلقها قبل أن يدخل بها وقبل أن يسمى لها مهراً .

أى : هذا التمتع حق ثابت على المحسنين الذين يحسنون إلى أنفسهم بامتناعهم لأوامر الله ، وبترضيهم لنفوس هؤلاء المطلقات اللاتي تأثرن بسبب هذا الفراق . فالآية الكريمة ترفع الإثم عن الرجال الذين يطلقون النساء قبل الدخول بهن وقبل تسمية المهر لهن ، متى كانت المصلحة تستدعي ذلك ، وتبين الحقوق التي للمرأة على الرجل في هذه الحالة .

قال القرطبي : قوله - تعالى - « لا جناح عليكم إن طلقتم النساء... الخ » هذا أيضاً من أحكام المطلقات ، وهو لإبتداء لإختيار برفع الحرج عن المطلق قبل البناء والجماع ، فرض مهراً أو لم يفرض . ولما نهى رسول الله - ﷺ - عن التزوج لمعنى الذوق وقضاء الشهوة ، وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله وقصد درام الصحبة وقع في نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد وقع جزءاً من هذا المكروه ، فنزلت الآية رافعة للجناح في ذلك إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن ، (١) .

وقوله « أو تفرضا لهن فريضة » معطوف على « تمسوهن » المنق، أى لا حرج عليكم في تطليقكم النساء في حالة عدم الدخول بهن وعدم تقدير مهر معين لهن .

وقوله ، وتمعوهن على الموسع قدره... الخ، تشريع حكيم وتوجيه سديد، لأن فراق المرأة قبل الدخول بها وقبل تقدير مهر لها ينشئ جفوة ممتدة بين المرأة وبين مطلقها ، وقد يسمى هذا الفراق إليها وإلى أسرتها ، فكان هذا

الحق الذي جعله الله للمرأة على الرجل وهو التمتع ، تسرية لنفسها ، وتعويضاً عما أصابها بسبب هذا الفراق ، وتلطيفاً لجو الطلاق وما يصاحبه من جفاء وبغضاء ، واستبقاء للمودة الإنسانية بين الطرفين ، وإزالة لما عسى أن يقوله البعض من أنه ما طلقها من طلقها إلا لشيء .

ولا شك أن إنهاء الحياة الزوجية قبل الدخول فيها ، إضرورات اقتضاها هذا الإنهاء ، أخف وأيسر من إنهاؤها بعد الدخول فيها .

قال الجمل ما ملخصه : وقوله « على الموسع قدره ، جملة من مبتدأ وخبر وفيها قولان : أحدهما أنها لا محل لها من الإعراب بل هي استثنائية بينت حال المطلق بالنسبة إلى يساره وإقتاره . والثاني في محل نصب على الحال وصاحب الحال فاعل متعوهن . والرابط بين جملة الحال وصاحبها محذوف والتقدير : على الموسع منكم . و « متاعاً ، منصوب على المصدر . و « بالمعروف ، جار ومجرور صفة له . و « حقاً ، صفة ثانية لقوله « متاعاً ، أو مصدر مؤكد لمضمون الجملة قبله . وعامله محذوف وجوباً والتقدير : حق ذلك حقاً ، (١) .

هذا ، ويرى بعض العلماء أن المتعة واجبة للمرأة على الرجل في حال مفارقتها قبل الدخول بها وقبل تسمية المهر ، لأن الآية الكريمة قد أكدت ذلك وجملته حقاً ثابتاً لا يجوز التحلل منه قال - تعالى - « متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ، .

ويرى بعضهم أنها مستحبة ، لأن التعبير بالمحسنين يدل على أن المتعة غير واجبة وقد رجح المحققون من العلماء الرأي الأول وقالوا : إن الإحسان لا ينافي الوجوب الذي دل عليه الأمر في قوله « ومتعوهن ، وتأكد بقوله « حقاً على المحسنين ، . وأيضاً قوله « على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ، يؤيد هذا ، فقد جعل الله المتعة على الفريقين كل فريق على حسب طاقته وقدرته .

والمتعة تختلف باختلاف الأحوال من يسار وإعسار ، بقدرها للقاضي على الرجل على حسب حالته كما بقدر النفقة .

والصالحون من الناس هم الذين يبذلون المتعة للمطلقة بسخاء ومودة ،
ولقد أثر عن الحسن بن علي - رضى الله عنهما - أنه متع امرأة طلقها
بعشرة آلاف درهم ، فلما تسلمت هذا المال الوفير قالت : « متاع قليل من
حبيب مفارق » .

ثم بين - سبحانه - - حق المرأة فيما لو طلقت قبل الدخول بها وبعد
نسمية مهر لها فقال - تعالى - وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم
لهن فريضة ، فنصف ما فرضتم لأن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح . .
أى : وإن طلقتم بامعشر الرجال النساء من قبل أن تدخلوا بهن وتباشروهن ،
ومن بعد أن قدرتم لهن صداقاً معلوماً ، فالواجب عليكم في هذه الحالة أن
تدفعوا لهن نصف ما قدرتم لهن من صداق ، لأن تنازل المرأة عن حقها فتركه
لمطلقها بساحة نفس ، بأن تكون هى الراغبة فى الطلاق ، أو يتنازل الذى بيده
عقدة النكاح وهو الزوج عن حقه بأن يدفع لها المهر كاملاً أو ما هو أكثر من
النصف لأنه هو الراغب فى الطلاق . وجملة « وقد فرضتم لهن فريضة » فى
موضع نصب على الحال من فاعل « طلقتموهن » ، أو من مفعوله . أى وإن
طلقتموهن حالة كونكم فارضين لهن المهر أو مفروضاً لهن المهر .

والفاء فى قول « فنصف ما فرضتم » واقعة فى جواب الشرط ، والجملة
فى محل جزم جواب الشرط ، و« نصف » مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف
أى فالواجب نصف ، أو هو مبتدأ محذوف الخبر أى فلهن نصف ، وقد
صرحت الآية الكريمة بوجوب النصف ، ولم تصرح بوجوب دفعه ، لأنه
قد يكون قدم لها المهر كله أو بعضه ، فكان التعبير بالوجوب بياناً للحكم
حتى يسفرد المطلق ما دفعه زيادة عن النصف إن أراد ذلك ، أو يكمل لها
النصف إن كان قد دفع أقل منه ،

وقوله « إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » ، استثناء مفرغ
من عموم الأحوال . و« يعفون » فعل مضارع الواو فيه لام الفعل ، ونونه ضمير
جهاة الإناث فهو هتا مبنى على السكون فى محل نصب بأن . ووزنه يفعلن

أى : فلمن نصف المهر الذى فرضتموه لهن فى كل حال إلا فى حال عفو المطلقات أى إبرائهن لهنم وتنازلهن عن هذا الحق ، أو فى حال عفو الذى بيده عقدة النكاح ، وهو الزوج المطلق - عند الأحناف والشافعية - لأنه هو المالك لعقد النكاح وحله ، والمراد بعفوه إن يزيد لها نصف المهر المقرر. ويرى المالكية أن الذى بيده عقدة النكاح هو ولى المرأة ، لأنه هو الذى بيده عقدة النكاح ثابتة ، وأما الزوج فله ذلك حالة للعقد المتقدم فقط .

ويكون المعنى على هذا رأى : عليكم يا معشر الرجال أن تدفروا للنساء نصف المهر إذا طلقتموهن بعد أن قدرتم لهن مهراً وقبل أن تمسوهن إلا أن يتنازل النساء عن هذا الحق ، إذا كن يملكن ذلك ، أو يتنازل أولياؤهن إن كن لا يملكن حق التنازل ، كأن تكون البنت صغيرة ، أو غير جاتزة التصرف وقد دل كل فريق على مذهبه بما هو مبسوط فى كتب الفقه .

ثم حبيب - سبحانه - إلى الناس التسامح والتعاطف فقال : وإن تغفروا أقرب التقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير .
أى : من حق المرأة المطلقة على مطلقها أن يدفع لها نصف المهر إذا كان الطلاق قبل المباشرة وبعد تحديد المهر ، وإذا تنازل أحد الطرفين عن جزء من حقه لصاحبه كان هذا التنازل حسناً . لأن هذا التنازل والتسامح يضى على جو الطلاق لونا من المودة والتقارب بين النفوس التى ألمها الفراق بتلك الصورة ، فأحرصوا - أيها الناس - على هذا العفو بأن يتنازل كل فريق منكم لصاحبه عن شئ من حقه ، ويتسامح معه ، فإن ذلك أقرب إلى تقوى القلوب ، وصفاء النفوس ، ولا تتركوا أن يتفضل بفضلكم على بعض بالإحسان ، وحب الخير ، وجميل الذكر ، فانه - تعالى - بصير باعما لهنم وسبحاسبكم عليها ، وسيجازى كل نفس بما عملت .

فأجلمة الكريمة توجيه حكيم للناس إلى ما يدفع عنهم للتشاحن والنباغض والتخاصم خصوصاً فى حالات الطلاق التى هى من أشد الأحوال دفعا إلى هذه الرذائل .

ولقد حفظ لنا التاريخ الإسلامي صوراً مشرقة لهذا العفو والفضل من ذلك ما ذكره الإمام الزمخشري من أن جبير بن مطعم دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه بنتاً له فتزوجها . ثم طلقها قبل أن يدخل بها وبعث لها المهر كاملاً . فقال له : لم تزوجتها ؟ فقال : عرضها على فكرهت رده . فقيل له : فلم بعثت بالصداق كاملاً ؟ قال : فأين الفضل .

وروى أن أحد الصحابة تزوج امرأة وطلقها قبل الدخول بها فأعطاها الصداق كاملاً ، ، فقيل له في ذلك فقال : أنا أحن بالعفو منها (١) .

وهكذا نرى مبلغ استجابة السلف الصالح لتوجيهات القرآن ووصاياه ، فأين المسلمون اليوم من هذه الوصايا والأحكام ؟

وبعد هذا الحديث المستفيض الذي لم يفته بعد عن الطلاق وأحكامه وآدابه ، أورد القرآن آيتين كريمتين تأمران بالمحافظة على الصلاة وبالمدامومة على طاعة الله ، وبالملازمة لذكره - عز وجل - فقال - تعالى - :

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ

وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا
أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

واعل السر في توسط هاتين الآيتين بين آيات الأحكام التي تحدثت عن الطلاق ، والعدة والرضاع والخطبة... إلخ ، لعل السر في ذلك أن هذه الأمور كثيراً ما تكون مثار تنازع وتخاصم وتقاطع بين الناس ، فأراد القرآن بطريقة الحكيمه ، وبأسلوبه المؤثر أن يقول للناس : إن محافظتكم على الصلاة ، ومدامومتكم على طاعة الله وذكوره كل ذلك سيعرض في نفوسكم المراقبة له سبحانه - ، والخشية من عقابه ، وسيعينكم على أن تحلوا قضاياكم التي تتعلق بالطلاق وغيره بالعدل والإحسان والتسامح والتعاطف ، لأن من حافظ على فرائض الله وأوامره ، انصرفت نفسه عن ظلم الناس ، وعاملهم معاملة كريمة حسنة . وقد بين القرآن في كثير من آياته أن المحافظة على الصلاة بمخشوع وخضوع

الله - تعالى - وأن المداومة على ذكره ، والملازمة لطاعته كل ذلك من شأنه أن يمنع الإنسان من الوقوع فيما نهى الله عنه ، قال - تعالى - :
 « أتت ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء
 والمنكر ولذكر الله أكبر . . . »

وقال - تعالى - « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على
 الخاشعين » ، وقال - تعالى - « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن
 الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » .
 فكان الله - تعالى - يقول للناس : لقد أمرتكم بالمحافظة على الصلاة ،
 وبالمداومة على طاعتي وذكرى خلال حديثي عن أحكام كثير أمان تكون هذه
 الأحكام مشار تتنازع بينكم ، وذلك لكي تحموا التماسح والتواصل والتقارب
 محل التشاحن والتدابر والتجافي ، لأن من شأن المحافظة على هذه العبادات ،
 أن تهدي الناس إلى أكمل الأخلاق والصفات .

فببحان من هذا كلامه ، ومن تلك إرشاداته وتوجيهاته ووصاياه .
 وقوله - تعالى - « حافظوا » من الحفظ بمعنى ضبط الشيء ، وصيانته عن كل
 تضييع ، وهو خلاف النسيان . والخطاب لجميع المسكنين من أفراد الأمة .
 والمعنى : حافظوا يا معشر المسلمين والمسلمات على أداء الصلوات في
 أوقاتها بخشوع وخصوع وإخلاص لله رب العالمين ، وحافظوا بصفة خاصة
 على الصلاة الوسطى ، لما لها من منزلة سامية ، ومكانة عالية .

فقد أمر الله - تعالى - عباده بالمحافظة على الصلوات بصفة عامة ، وأفرد
 الصلاة الوسطى بالذكر تفخيماً شأنها ، وإعلاء قدرها من بين أفراد جنسها
 والمسلم يكون محافظاً على الصلاة إذا أداها في وقتها مستوفية لأدائها
 وسنتها وشرائعها وخشوعها وكل ما يتعلق بها ، أما إذا أهمل في شيء من ذلك
 فإنه لا يكون محافظاً عليها تلك المحافظة التامة التي أمر الله بها .

وفي قوله - تعالى - « حافظوا » تنبيه إلى أن الصلاة في ذاتها شيء
 نفيس ثمين يجب المحافظة عليه ، لأن هذه الكلمة تدل على الصيانة والضبط

بجانب دلالتها على الأداء والإقامة والمداومة .

قال الإمام الرازي : وقوله : « حافظوا ، بصيغة المفاعلة التي تكون بين الإثنين . للدلالة على أن هذه المحافظة تكون بين العبد والرب . فكأنه قيل : احفظ الصلاة ليحفظك الإله الذي أمرك بها . وهذا كقوله « فاذا كرروني أذكركم ، وفي الحديث « احفظ الله يحفظك » . أو أن تكون المحافظة بين المصلي والصلاة . فكأنه قيل : احفظ الصلاة حتى تحفظك الصلاة بمعنى أنها تحفظك من ارتكاب المعاصي ، وتشفع لمصلحها يوم القيامة ، (١) .
وللعلماء أقوال في المراد بالصلاة الوسطى التي أفردها الله - تعالى - من بين الصلوات .

فجمهور العلماء يرون أنها واحدة من بين الصلوات الخمس المفروضة ، وأن الوسطى مؤنث الأرسط . أي الشيء المتوسط بين شيئين ، فالصلاة الوسطى هي الصلاة المتوسطة بين صلاتين ، إلا أنهم اختلفوا في تعيينها .
فأكثر العلماء على أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر ، لأنها تقع في وسط الصلوات الخمس ، إذ قبلها إثنان وبعدها إثنان ، ولأنها وسط بين صلاتي النهار ، وصالتي الليل ، فمعنى التوسط فيها واضح ، ولأنها مظنة التقصير لمحيتها بعد وقت الظهيرة الذي يكون في الغالب وقت كسل .
وفضلاً عن ذلك فقد صرح بعض الأحاديث بأنها صلاة العصر ،

وقد ساق الإمام ابن كثير عدداً من هذه الأحاديث ومنها ما جاء في صحيح مسلم ومسنند الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملائكة قلوبهم ويوتهم ناراً ، ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء ، وفي مسند الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « الصلاة الوسطى صلاة العصر » .

وقد خصت صلاة العصر بمزيد من التأكيد ، وبالأمر بالمحافظة

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ١٥٧ . بتلخيص .

عليها ، وبالتحذير من التقصير فيها ، مما يشهد بأنها هي الصلاة الوسطى ، فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : الذي تفوته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله ، أى : سلب من أهله وماله فبقي وحيداً بدونهما .

وقال بعضهم المراد بالصلاة الوسطى صلاة الصبح ، وقيل صلاة الظهر ، وقيل صلاة المغرب ، وقيل العشاء ، وقيل الجمعة ، وقيل غير ذلك من الأقوال التى لا تباعف في قوتها مبلغ قول القائلين بأنها صلاة العصر ، ولذا قال ابن كثير وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التى قبلها ، ومعتك الزواج في الصبح والعصر ، وقد أثبتت السنة أنها العصر فتعين المصير إليها - أى إلى أن المراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر (١) .

ومن العلماء من اتجه في بيان المراد من الصلاة الوسطى إتجاهاً آخر فهو يرى أن المراد بالصلاة الوسطى الصلوات كلها ، وأن الوسطى ليست بمعنى المتوسطة بين صلاتين ، وإنما هى بمعنى الفضلى لأن وسط - الشيء - خياره وأعدله وأفضله فالمتفرد بها فعلها أو أدائها بطريقة سليمة كاملة . والمعنى على هذا رأى : حافظوا يا معشر المسلمين على الصلوات كلها ، وحافظوا على أن يكون أدواكم لها بطريقة وسطى أى فاضلة بأن تأدوها في أوقاتها كاملة الأركان والسنن والآداب والخشوع .

قال ابن كثير : وقيل بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس رواه ابن أبي حاتم عن ابن عمر وفي صحته نظر . والعجب أن هذا القول قد إختاره الشيخ أبو عمر بن عبد البر إمام ماوراء البحر ، وإنها لإحدى الكبر ، إذ إختار مع إطلاعه وحفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر .

ومن العلماء المحدثين الذين إستحسنوا هذا رأى الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فقد قال : ولولا أنهم اتفقوا على أنها - أى الصلاة الوسطى -

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٩١ وما بعدها .

يُحَدِّدُ الخَمْسَ لِكَانَ يَتَبَادَرُ إِلَى فَهْمِي مِنْ قَوْلِهِ ، وَالصَّلَاةَ الْوَسْطَى ، أَنَّ الْمُرَادَ بِالصَّلَاةِ الْفِعْلَ وَالْوَسْطَى الْفَضْلَى أَيْ : حَافِظُوا عَلَى أَنْوَاعِ الصَّلَاةِ وَهِيَ الصَّلَاةُ الَّتِي يَحْضُرُ فِيهَا الْقَلْبُ وَتَوَجُّهُ بِهَا النَّفْسُ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - وَتَخْشَعُ لِذِكْرِهِ ، وَتَدْبِرُ كَلَامَهُ لَا صَلَاةَ الْمُرَاتِمِينَ وَلَا الْغَافِلِينَ ، (١) .

وَالَّذِي نَرَاهُ أَنَّ مَا عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ مِنْ أَنَّ الصَّلَاةَ الْوَسْطَى هِيَ وَاحِدَةٌ مِنْ بَيْنِ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ ، وَأَنَّهَا هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ هُوَ أَقْوَى الْأَرَاءِ ، لِأَنَّهُ - أَوَّلًا - يَتَّفَقُ مَعَ أَصْحَابِ الْإِتِّجَاهِ الثَّانِي الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَنَّ أَدَاءَ الصَّلَاةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ بِطَرِيقَةٍ تَامَةِ الْأَرْكَانِ وَالسَّنَنِ وَالخُشُوعِ وَمَا قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِأَنَّ تَحْدِيدَهَا بِصَلَاةِ الْعَصْرِ يَنْفِي أَدَاءَ بَقِيَةِ الْفَرَائِضِ بِكَمَالٍ وَاطْمِئْنَانٍ . وَلِأَنَّهُ - ثَانِيًا - قَدْ ائْتَمَّازَ عَنْ رَأْيِ أَصْحَابِ الْإِتِّجَاهِ الثَّانِي بِأَنَّهُ أَعْمَلُ النَّصِّ الصَّحِيحِ الثَّابِتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّ الصَّلَاةَ الْوَسْطَى هِيَ صَلَاةُ الْعَصْرِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ إِحْمَالَ النَّصِّ أَوْلَى مِنْ إِهْمَالِهِ أَوْ مِنْ تَأْوِيلِهِ تَأْوِيلًا ضَعِيفًا .

وَقَوْلُهُ ، وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ، مَوْكِدٌ لَمَّا قَبْلَهُ مِنَ الْمَحَافِظَةِ وَالْمَدَاوِمَةِ عَلَى أَدَاءِ الصَّلَاةِ .

وَالْقَنُوتُ : لَزُومُ الطَّاعَةِ مَعَ الْخُضُوعِ وَالخُشُوعِ . أَيْ قَوْمُوا فِي الصَّلَاةِ مُطِيعِينَ لِلَّهِ - تَعَالَى - مُؤَدِّينَ لَهَا عَلَى وَجْهِهَا الْكَمَالَ فِي خُشُوعٍ وَخُضُوعٍ وَاطْمِئْنَانٍ .

وَالغَاءُ فِي قَوْلِهِ ، فَإِنْ خِفْتُمْ فِرْجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ، لِلتَّفْرِيعِ أَيْ : حَافِظُوا عَلَى الصَّلَاةِ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، وَأَدُّوْهَا بِخُشُوعٍ وَاطْمِئْنَانٍ ، فَإِنْ كَانَ بِكُمْ خَوْفٌ مِنْ عَدُوٍّ فِي حَالِ الْمَقَاتِلَةِ فِي الْحَرْبِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، فَصَلُّوا رَاكِعِينَ أَيْ مَاشِينَ عَلَى الْأَقْدَامِ ، أَوْ رَاكِبِينَ عَلَى رُكَابِكُمْ بِإِيمَانٍ ، سِوَا وَائْتِمِمْ وَجُوهَكُمْ شَطْرَ الْقِبْلَةِ أَوَّلًا .

وَدَرَجَالًا ، جَمْعُ رَاكِعٍ ، وَهُوَ الْقَوِيُّ عَلَى الْمَشْيِ بِرِجْلَيْهِ . يُقَالُ : رَجُلٌ

الإنسان يركب رجلاً إذا لم يجد ما يركبه ومشى على قدميه ، والركبان جمع راكب للجمل أو الفرس أو غيرها .

وجواب الشرط المحذوف والتقدير : فإن خفتهم فصلوا راجلين أو راكبين ، وهذان اللفظان أى - رجلاً أو ركباناً - حالان من الضمير فى فصلوا ، المحذوف .

والآية الكريمة تدل على شدة عناية الإسلام بشأن الصلاة ، فقد أمر الله - تعالى - عباده بأن يحافظوا عليها فى حالتى الأمن والخوف ، والصحة والمرض ، والسفر والإقامة . .

وقد بسط هذا المعنى الأستاذ الإمام محمد عبده فقال ما ملخصه : وقوله - تعالى - : فإن خفتهم فرجالاً أو ركباناً ، هذا تأكيد للمحافظة على الصلاة ، وبيان أنها لا تسقط بحال ، لأن حال الخوف على النفس أو العرض أو المال هو مظنة العذر فى الترك كما يكون السفر عذراً فى ترك الصيام . . والسبب فى عدم سقوط الصلاة عن المكف بحال أنها عمل قلبى ، وإنما فرضت تلك الأعمال الظاهرة لأنها مساعدة على العمل القلبى المقصود بالذات ، وهو تذكرة سلطان الله - تعالى - المسئولى علينا وعلى العالم كله ، ومن شأن الإنسان إذا أراد عملاً قلبياً يجتمع فيه الفكر أن يستعين على ذلك ببعض ما يقاسمه من قول وعمل .

ولا ريب أن هذه الهياة التى اختارها الله - تعالى - للعامل هى أفضل معين على استحضار سلطانه فإن قولك : الله أكبر ، فى فاتحة الصلاة وعند الانتقال فيها من عمل إلى عمل يعطيك من الشعور بكون الله أكبر وأعظم من كل شىء ما يغمر روحك ، ويستولى على إرادتك . . وكذلك الشأن فى سائر أعمال الصلاة .

فاذا تعذر عليك الإتيان ببعض تلك الأعمال البدنية ؛ فإن ذلك لا يسقط عنك هذه العبادة القلبية التى هى روح الصلاة وغيرها ، وهى الإقبال على الله - تعالى - واستحضار سلطانه ، مع الإشارة إلى تلك الأعمال بقدر الإمكان .

الذي لا يمنع من مدافعة الخوف الطارىء من سمع مفقوس ، أو عدو مغتال ، أو لص محتال . . فالآية تعلمنا أنه يجب أن لا يذهلنا عن الله شيء في حال من الأحوال . . . (١) .

وقال الإمام ابن العربي : قوله - تعالى - « فإن خفتهم فرجالا أو ركبانا » أمر الله - تعالى - بالمحافظة على الصلاة في كل حال من صحة ومرض ، وحضر وسفر ، وقدرة وعجز ، وخوف وأمن ، لا تسقط عن المالك بحال ، ولا يعطرق إلى فرضيتها إختلال . وقد قال - صلى الله عليه وسلم - : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

والمقصود من ذلك أن تفعل الصلاة كيفما أمكن ، لا تسقط بحال حتى لو لم يتفق فعلها إلا بالإشارة بالعين للزم فعلها ، كذلك إذا لم يقدر على حركة سائر الجوارح ، وبهذا المعنى تميزت عن سائر العبادات ، فإن العبادات كلها تسقط بالأعذار ، ولذلك قال علماءنا : إن تارك الصلاة يقتل ، لأنها أشبهت الإيمان الذي لا يسقط بحال ، ولا تجوز النسيان فيها بيدن ولا مال . . . (٢) .

ثم قال - تعالى - « فإذا أمنتم فاذكروا الله عسى أن تكونوا تعلمون » أي فإذا زال خوفكم وصرتم آمنين مطمئنين فاذكروا الله ، أي فأدوا الصلاة تامة كاملة مثل ما علمكم إياها ربكم على لسان نبيكم - صلى الله عليه وسلم - وقد من الله - تعالى - عليكم بهذا التعليم الذي كنتم تجهلونه فضلاً منه وكرماً .

وعبر - سبحانه - « بيان » المفيدة للشك في حالة الخوف ، وبإذا المفيدة للاقتيق في حالة الأمن ، للإشعار بأن حالة الأمن هي الحالة الكثيرة الثابتة ، وأن حالة الخوف هي الحالة القليلة الطارئة ، وفي ذلك فضل جزيل من الله -

(١) تفسير المنار ج ٢ صفحة ٤٤٣ .

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ج ١ صفحة ٢١٧ .

غيرى أصحابه أن هذه الآية منسوخة لأنها توجب على الزوج حين مشاركة الموت أن يوصى لزوجته بالنفقة والسكنى حولاً ، ويجب عليها الاعتداد حولاً . وهي مخيرة بين السكنى في بيته حولاً ولها النفقة ، وبين أن تخرج منه ولا نفقة لها ، ولم يكن لها ميراث من زوجها . قالوا : وكان هذا الحكم في ابتداء الإسلام . وقد نسخ وجوب الوصية بالنفقة والسكنى بآية الموارث وبحديث « ألا لا وصية لوارث ، حيث جعل لها الربع أو الثمن عوضاً عن النفقة والسكنى . ونسخ وجوب العدة حولاً بقوله تعالى - قبل ذلك - والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً .. الآية ، قالوا : وما يشهد لذلك ما أخرجه أبو داود والنسائي عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : نسخت بآية الميراث بما فرض الله لمن من الربع والثمن ، ونسخ أجل الحول بأن جعلها أربعة أشهر وعشراً ، (١) .

وقد حكى هذا الرأي صاحب الكشاف فقال : والمعنى : أن حق الذين يتوفون عن أزواجهم أن يوصوا قبل أن يموتوا بأن تمتع أزواجهم بعدهم حولاً كاملاً ، أى : يتفق عليهن من تركته ولا يخرجن من مساكنهن . وكان ذلك في أول الإسلام ثم نسخت المدة بقوله داربعة أشهر وعشراً ، وقيل نسخ ما زاد منه على هذا المقدار . ونسخت النفقة بالإرث الذى هو الربع والثمن . واختلف في السكنى فعند أبى حنيفة لا سكنى . ثم قال : فإن قلت كيف نسخت الآية المتقدمة المتأخرة ؟ قلت : قد تكون الآية متقدمة فى النلاوة وهى متأخرة فى النزول . كقوله - تعالى - « سيقول السفهاء ، مع قوله « قد فرى قلب وجحك فى السماء ، (٢) .

وعلى هذا الإتجاه سار جمهور المفسرين .

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الطلاق باب نسخ متاع المتوفى عنها

خروجها بما فرض لها من الميراث .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٨٩

أما الاتجاه الثاني فيرى أصحابه أن هذه الآية محكمة وليست منسوخة،
 ويمن ذهب إلى هذا الاتجاه مجاهد ، فقد قال مالم يخصه : دلت الآية الأولى
 وهي يترصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ، على أن هذه عدتها المفروضة تعددها
 عند أهل زوجها . ودلت هذه الآية بزيادة سبعة أشهر وعشرين ليلة على العدة
 السابقة تمام الحول ، وأن ذلك من باب الوصية بالزوجات أن يمكن من السكنى
 في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا ولا يمنع من ذلك لقوله غير
 إخراج ، فإذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر - أو بوضع الحمل -
 واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فلهن لا يمنع من ذلك لقوله
 « فإن خرجن . . . » .

ومن المفسرين الذين أبدوا هذا الاتجاه الإمام ابن كثير فقد قال - بعد
 أن ساق قول مجاهد - وهذا القول له لإنجاه وفي اللفظ مساعدة له وقد
 اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية (١) .

كما أبدى أيضاً الإمام الفخر الرازي في تفسيره ، فقد قال بعد أن ساق
 بعض الأدلة التي تثبت ضعف قول من قال بالنسخ : « فكان المصير إلى قول
 مجاهد أولى من إنزاع النسخ من غير دليل » (٢) .

والخلاصة أن أصحاب هذا الاتجاه الثاني لا يرون معارضة بين هذه الآية
 وبين آية « والذين يتوفون منكم ويتركون أزواجاً يترصن بأنفسهن أربعة
 أشهر وعشراً » ، لأن الآية التي معنا لا تتحدث عن عدة المتوفى عنها زوجها
 وإنما تتحدث عن حقها في البقاء في منزل الزوجية بعد وفاة زوجها ، وأن
 هذا الحق ثابت لها فإن شاءت بقيت فيه ، وإن شاءت خرجت منه على حسب
 ما تراه مصلحة لها ، ولاها لا يوجد في الفاظها أو معانيها ما يلزم المرأة
 بالترصن والامتناع عن الأزواج مدة معينة .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٩٧ بتصرف يسير .

(٢) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٦ ص ١٦٨

أما الآية الثانية فتراما واضحة في الأمر بالترص أربعة أشهر وعشراً ،
وهي العدة التي يجب أن تمتنع فيها المرأة التي مات عنها زوجها عن التزين
والتعرض للزواج ، إذ لا تعارض بين الآية ومتى انتفى التعارض انتفى المنع
ويبدو لنا أن قوله - تعالى - «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن
بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ، .. مبينة أن هذه المدة لا تخبير فيها للزوجة في
للخروج من بيت الزوجية بل هي ملزمة بالملك في بيت الزوجية حتى تنتهي
هذه المدة أما ما زاد عنها فإن قلنا أن لها الحق في البقاء أو الخروج كانت هذه
الآية مخصصة للآية التي معنا ، وإن قلنا أنها لاحق لها في البقاء في بيت الزوجية
أى أن من حق الورثة إخراجها بعد الأربعة الأشهر والعشرة الأيام كان قوله
- تعالى - «يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ، ناسخاً لآية الوصية إلى الحول .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « والله عزيز حكيم ، أى : عزيز فـ
انتقامه من تعدى حدوده ، إذ هو القاهر فوق عباده ، حكيم فيما شرع لهم
من آداب وأحكام فينبغي أن يمثل الناس أوأمره ويحجتبوا ما نهام عنه .

ثم بين - سبحانه - حق المطلقات فقال : « ولله طلقات متاع بالمعروف -
حقاً على المتقين ، أى والله طلقات على أزواجهن الذين طلقوهن من متاع بالمعروف
أى شيء ينتفع به انتفاعاً تمتد لمدة من الوقت بما تعارف العقلاء عليه وعلى
فائدته للمرأة ، وهذا المتاع جعله الله - حقاً على المتقين الذين يصونون أنفسهم
عن كل ما يبغضه الله - تعالى - .

وإذا جعل الله هذا الحق للمطالقة على مطلقها جبراً أو حشاً الفراق وإزالة
لما قد يكون بين الزوجين من شقاق ، وتخفيفاً لما قد يحيط بهو العلاق
من تنافر وتحاصم وعدم وفاق .

قال ابن كثير : وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب
المتعة لكل مطالقة سواء كانت مفوضة ، أو مفروضا لها ، أو مطلقه قبل
المسيس ، أو مدخولاً بها . وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف

واختاره ابن جرير . وهو قول عن الشافعي (١) .
وعلى هذا التفسير يكون المراد بالمتاع ما يعطيه الرجل لامراته التي
طلقها زيادة عن الحقوق المقررة لها شرعا ليكون التسريح باحسان .
ومن العلماء من يرى أن المراد بالمتاع هنا النفقة التي تكون للمطالفة في العدة
قال الفخر الرازي : واعلم أن المراد بالمتاع ههنا نفقة التي تكون للمطالفة في العدة
هذه الآية يقتضى وجوب هذه المتعة لكل المطلقات .. والقول الثاني أن المراد
بهذه المتعة النفقة ، والنفقة قد تسمى متاعا ، وإذا حملنا هذا المتاع على النفقة
اندفع التكرار فكان ذلك أولى ، (٢) .

ويظهر أن مراد الفخر الرازي بقوله : « اندفع التكرار ، أى ما بين هذه
الآية والآية التي سبقت وهى قوله تعالى : « ومتعوهن على الموسع قدره وعلى
المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ، ولك أن تقول : إنه لا تكرار
مع إرادة المتعالي ليست هى النفقة لأنه فى السابقة بين أنها حق للمرأة حين
تطلق ولم يكن قد قدر لها مهر معين ، وهنا ذكرت عقب آية الوفاة لدفع
ما يتوهم من أن المتوفى عنها زوجها لها حق فى المتعة ، إذ لم يوصى لها زوجها بالنفقة
ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة بقوله :
« كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » .

أى : مثل هذا البيان الحكيم الواضح الذى بين الله لكم به الأحكام
السابقة ، يبين لكم جميع آياته وأحكامه التى أتم فى حاجة إليها لى تفهموا
ما فيها وتعقلوه وتعملوا به فتتالوا السعادة فى الدنيا والآخرة .
وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد بينت لنا فى أكثر من عشرين آية بعض
الأحكام التى تتعلق بالأسرة وصيانتها وسعادتها بأسلوب مؤثر حكيم وبطريقة
تهدى إلى أفضل الاخلاق ، وأقوم العلاقات بين الأفراد والجماعات ، وإن
المعامل فى هذه الآيات وما اشتملت عليه من توجيهات سامية ليوقن بأن هذا

القرآن إنما هو من عند الله ، الذي شرع لعباده ما فيه صلاحهم وسعادتهم .
وبعد هذا البيان الحكيم عن الأسرة وما يتعلق بها من زواج وطلاق وغير
ذلك ، ساق القرآن من القصص ما من شأنه أن يدعوا إلى التذكير والاعتبار
وبحرض على الجهاد في سبيل الله ، ويحمل المتأملين في توجيهاته على إقامة
الأسرة على أقوى الدعام ، وأفضل المبادئ . التي بها تنال الأمم عزتها وكرامتها
وسعادتها . فقال - تعالى - :

الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ
حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ
عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا
مَحْسِنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَأُضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ
تَرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

قال الألوسي : قوله - تعالى - « ألم تر . » هذه الكلمة قد تذكركم لمن تقدم
عليه فتكون للتعجب والتقرير والتذكير لمن علم بما يأتي - كالأخبار وأهل
التواريخ - وقد تذكركم لا يكون كذلك فتكون لتعريفه وتعجيبه ،
وقد اشتهرت في ذلك حتى أجريت مجرى المثل في هذا الباب ، بأن شبه من
« لم ير ، الشيء بحال من رآه في أنه لا ينبغي أن يخفى عليه وأنه ينبغي أن
يتعجب منه ، ثم أجرى الكلام معه كما يجري مع من رأى ، قصداً إلى المبالغة
في شهرته وعراقته في التعجب . ثم قال : والرؤية إما بمعنى الإبصار مجازاً
عن النظر ، وفائدة التجوز الحث على الاعتبار ، لأن النظر اختارني دون

الإدراك الذي بعده . وإما بمعنى الإدراك القابض متضمناً معنى الوصول والافتناء ولهذا تعدت - أى الرؤية - إلى قوله ، ألم تر إلى الذين خرجوا . . . (١) .

والمعنى : قد علمت أيها الرسول الكريم أو أيها الإنسان العاقل - حال أو تلك القوم الذين خرجوا من ديارهم التي أفقوها واستوطنوها ، وهم ألوف مؤلفة ، وكثرة كثرة ، وما كان خروجهم إلا فراراً وخوفاً من الموت الذي سيلاقونهم - إن عاجلاً أو آجلاً - .

ومن لم يعلم حالهم فما نحن أولاء نعلمه بها ونحبطه بما جرى لهم عن طريق هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والمقصود من هذه الآية الكريمة حضرة الناس جميعاً على الاعتبار والاتعاظ . وزجرهم عن الفرار من الموت هلعاً وجبناً ، وتحريضهم على القتال في سبيل الله فقد قال - تعالى - بعد ذلك وقاتلوا في سبيل الله . . . وإفهامهم أن الفرار من الموت إن يؤدي إلا إلى الوقوع فيه .

وقوله ، وهم ألوف ، جملة حالية من الضمير في ، خرجوا ، وهم ألوف جمع ألف . والتعبير بألوف يفيد أنهم كانوا كثيرى العدد ، ومن شأن الكثرة أنها تدعو إلى الشجاعة والمكنهم مع هذه الكثرة قد استولى عليهم الجبن فخرجوا من ديارهم هرباً من الموت .

وقيل إن معنى ، وهم ألوف ، أنهم خرجوا مؤتلفى القلوب ، ولم يخرجوا عن افتراق كان منهم ، ولا عن تباغض حدث بينهم . وألوف على هذا القول جمع آف مثل قاعد وقعود وشاهد وشهود . قالوا : والوجه الأول أجدر بالاتباع لأن ورود الموت عليهم وهم كثرة عظيمة يفيد مزيد اعتبار بمحالمهم ، ولأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة .

وقوله ، حذر الموت ، أى خرجوا لحذر الموت وخشيته ، فقوله ، حذرهم

منصوب على أنه مفعول لأجله . والجملة الكريمة تشير إلى أن خروجهم كان
الباعث عليه الحرص على مطلق حياة ولو كانت حياة ذل ومهانة ، وأنه
لم يكن هناك سبب معقول يحملهم على هذا الخروج ، ولذا كانت نتيجة ذلك
أن عاقبهم الله - تعالى - بالموت الذي هربوا منه فقال :

« فقال لهم الله موتوا ثم أحيائهم ، أى : فقال لهم الله موتوا فماتوا ثم أحيائهم
بعد ذلك . لجملة « ثم أحيائهم » معطوفة على مقدر يستدعيه المقام أى ، فماتوا
ثم أحيائهم . وإنما حذف للدلالة على الاستغناء عن ذكره لا استحالة تخلف
مراده - تعالى - عن إرادته .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى قوله : « فقال لهم الله موتوا ،
قلت : معناه فماتوا وإنما جىء به على هذه الصورة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل
واحد بأمر الله ومشيئته ، وتلك ميتة خارجة عن العادة ، كأنهم أمروا بشيء
فامتثلوه امتثالاً من غير إياء . ولا توقف كقوله - تعالى - « وإنما أمره إذا أراد شيئاً
أن يقول له كن فيكون » وهذا تشجيع للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة ،
وأن الموت إذا لم يكن منه بد ، ولم ينفع منه مفر ، فأولى أن يكون في
سبيل الله » (١) .

وقال الخليل : « فإن قلت هذا يقتضى أن هؤلاء ماتوا مرتين وهو مناف
للمعروف من أن موت الخلق مرة واحدة ؟ قلنا فى الجواب : لا منافاه
إذ الموت هنا عقوبة مع بقا . الأجل كما فى قوله فى قصة موسى : « ثم بعثناكم
من بعد موتكم » ، ثم موت بانتهاء الأجل ، وتلخيصه : أنه - سبحانه -
أماتهم قبل آجالهم عقوبة لهم ثم بعثهم إلى بقية آجالهم ، وميتة العقوبة
بعدها حياة - أى فى الدنيا - بخلاف ميتة الأجل - فلا حياة بعدها فى
الدنيا - . . . » (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٩٠ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ١ صفحة ١٩٧ . بتصريف يسير :

وبعد هذا البيان لمعنى الآية قد يقال : من هم أولئك القوم الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الموت ؟ وهل الإمامة والإحياء بالنسبة لهم كانوا على سبيل الحقيقة ؟

للإجابة على السؤال الأول نقول : لم يرد حديث صحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبين لنا فيه من هؤلاء القوم وفي أى زمن كانوا ، وإنما كورد بعض المفسرين عن بعض الصحابة والتابعين روايات فيما مقال ، وفيها تفصيلات نرى من الخير عدم ذكرها لضيقها . ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال : كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون ، حتى إذا كانوا بموضع كذا أو كذا ماتوا .. ثم أحيى الله بدعوة دعاها نبيهم (١) . ومنها أنهم - قوم من بنى إسرائيل - فروا من الجهاد حين أمرهم الله به على لسان نبيهم - حزقيل ، وخافوا من الموت في الجهاد فخرجوا من ديارهم فخامتهم الله ليعرفهم أنه لا ينجيهم من الموت شئ . ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد

قال القرطبي بعد أن ساق هذه الرواية : وقال ابن عطية : وهذا القصص كله لين الأسانيد ، وإنما اللازم من الآية أن الله - تعالى - أخبر نبيه محمداً - ﷺ - بإخباراً في عبارة التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر خرجوا من ديارهم فراراً من الموت فأماهم الله ثم أحياهم ليروا هم وكل من جاء من بعدهم أن الإمامة إنما هي بيد الله لا بيد غيره ، فلا معنى لخوف خائف ولا لا عقار مغتر . وجعل الله هذه الآية مقدمة بين يدي أمر المؤمنين من أمة محمد - ﷺ - بالجهاد . وهذا قول الطبري وهو ظاهر وصف الآية (٢) والذي نراه أن الرواية الثانية التي تقول : إنهم قوم من بنى إسرائيل فروا من الجهاد حين أمرهم الله به .. معقولة المعنى ، ويؤيدها سياق الآيات ، لأن الآيات

(١) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٢٩٨ بتلخيص .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٢٣٩ .

تحض الناس على القتال في سبيل الله ، وتسوق لهم قصة هؤلاء القوم لكي
يعتبروا ويتعظوا ولا يتخلفوا عن الجهاد الذي هو باب من أبواب الجنة
- كما قال الإمام علي بن أبي طالب - ولأن قوله - تعالى - وهم أوفى ، يشعر
بأنهم مع كثرة عدوهم قد فكصروا على أعقابهم ، وفروا من وجوه أعدائهم .
وهذا شأن بنى إسرائيل في كثير من أدوار تاريخهم وما قاله ابن عطية يشير
إليها فهو يقول : وجعل الله هذه الآية مقدمة بين يدي أمر المؤمنين . . .
بالجهاد . إلا أنه آثر وصفهم بأنهم قوم من البشر .

وللإجابة على السؤال الثاني وهو - هل الإمانه والإحياء بالنسبة لهم
كانا على سبيل الحقيقة - نقول : مبلغ علمنا أن المفسرين السابقين مجمعون
على أن الموت كان موتاً حقيقياً حسيماً لهم ، وأن إعادتهم إلى الحياة بعد
ذلك كانت إعادة حقيقية حسية .

وقد خالف الأستاذ الإمام محمد عبده لإجماع المفسرين هذا فرأى أن
المراد بالموت في الآية الموت المعنوي بمعنى أن موت الأمم إنما هو في جينها وذلتها
وأن حياتها إنما تكون في عزتها وحرمتها ، فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه
. . . والمتبادر من السياق أن أوائل القوم خرجوا من ديارهم بسائق
الخوف من عدو مهاجم لامن قلتهم ، فقد كانوا أوفاً أى كثيرين ، وإنما
هو الخدر من الموت الذي يولد الجبن في أنفس الجبناء ، فيرهبهم أن الفرار
من القتال هو الواقع من الموت وما هو إلا سبب الموت بما يمكن الأعداء
من رقاب أهلها ، قال أبو الطيب :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللثيم

ثم قال : لقد خرجوا فارين ، فقال لهم الله موتوا ، أى أماتهم بإمكان
العدو منهم . . . فعنى موت أوائل القوم هو أن العدو نكل بهم فأفنى قوتهم .
وأزل استقلال أمتهم حتى صارت لا تدامة ، بأن تفرق شملها ، وذهبت
جامعتها ، فبكل من بقى من أفرادها بقى خاضعاً للغالبين ضائعاً فيهم ،
لا وجود له في نفسه ، وإنما وجوده تابع لوجود غيره . .

ومعنى حياتهم هو عود الإستقلال إليهم ، ذلك أن من رحمة الله في
البلاء يصيب الناس أنه يكون تاديباً لهم ، ومطهراً لنفوسهم مما عرض لها
من دنس الأخلاق الدنيمة . أشعر الله أولئك القوم بسوء عاقبة الخوف
والجبن والفشل والتخاذل بما أذاقهم من مرارتها ، فجمعوا كلهم ، ووثقوا
رابطتهم ، حتى عادت لهم وحدتهم ، فاعتزوا وكثروا حتى خرجوا من ذل
العبودية التي كانوا فيها إلى عز الإستقلال فهذا معنى حياة الأمم وموتها . (١)
فأنت ترى أن الأستاذ الإمام يرى أن الموت والحياة في الآية معنويان ،
بمعنى أن موت الأمم في جنبها وذاتها ، وحياتها في استقلالها وحريتها .

ولعله - رحمه الله - قد أجه هذا الإتجاه لأن الحضر على القتال في سبيل
الله واضح في هذه الآيات ، ولأنه يرى أن واقع العالم الإسلامي يومئذ وما أصابه
من ظلم واستبداد واستلاب للحرية يدعو إلى أن يحرض المسلمين على القتال
في سبيل حقهم المسلوب ، وأن يحذرهم من سوء عاقبة الجبن والخدوع . . .
ومع أننا لانشك في الدوافع الطيبة والبواعث الكريمة التي جعلت الأستاذ
الإمام يتجه هذا الإتجاه ، إلا أننا لانتردد في اختيار ما ذهب إليه المفسرون
من أن الموت والحياة في الآية حسيان حقيقيان ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية
الكريمة ، ولأنه يتجه إتجاهاً أعم من إتجاه الإمام محمد عبده ، لأن المفسرين
يرون أن الآية واضحة في إثبات قدرة الله وفي صحة البعث ، وفي الحضر على
القتال في سبيل الله .

قال بعض العلماء : قوله - تعالى - « ألم تر إلى الذين خرجوا من الآيات »
كان المشركون يستفتون اليهود في كثير من الأمور وكانت هذه القصة معلومة
للإهود في أسفارهم وتواريخهم ، فنزل القرآن بالإشارة إليها ليرتدع
المشركون عما هم فيه من الضلال وإنكار البعث ، ويعلموا أن دلائل القدرة
على البعث مشهورة ، وأن عند اليهود منها ما لو رجعوا إليهم فيه علموا

(١) راجع تفسير المنار ج ٢ ص ٤٥٧ وما بعدها

أنه حق لا ريب فيه . وفي ذكر هذه القصة مع ذلك تشجيع للمؤمنين على الجهاد والتعرض للشهادة ، وتمهيد لما بعد هذه الآية ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، أي : إن الله - تعالى - لصاحب تفضل دائم على الناس حيث أوجد لهم بهذه الصورة الحسنة ، وخلق لهم عقولا ليمتدوا بها إلى طريق الخير ، وسخر لهم الكثير مما هـذا الكون . فمن الواجب عليهم أن يشكروه وأن يطيعوه ، ولكن الذي حدث منهم أن أكثرهم لا يشكرون الله - تعالى - على ما منحهم من نعم .

وفي قوله : « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » ، إنصاف للقلة الشاكرة منهم ، ومدح لهم على استقامتهم وقوة إيمانهم .

ثم أمر الله - تعالى - عباده بالجهاد في سبيله فقال : « وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم » .

والسبيل : الطريق ؛ وسميت المجاهدة سبيلا إلى الله لأن الإنسان يسلكها فيصير إلى ما يرضى الله ، ويعلى كلمته . ويعز دينه .

أي ، قاتلوا أيها المسلمون في سبيل إعلاء كلمة الله ، والدفاع عن دينه ، واعلموا أنه - سبحانه - عليم بكل أحوالكم صالحها وطالحها ، عليم بكل ما يدور في نفوسكم وخواطركم ، وسيجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته . فالآية الكريمة تحريض للمؤمنين على القتال من أجل إظهار الدين الحق ، وتحذير لهم من القعود عنه ، وحث لهم على صدق النية وإخلاص العمل لله ، فقد سئل النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ، ويقاقل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، (٢) .

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٨٠ لفضيلة الشيخ حسن بن

محمد مخلوف .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٣٩

ثم أمر الله - تعالى - عباده بأن يتفقوا أموالهم في الأعمال الصالحة التي من أجلها الجهاد في سبيله فقال - تعالى - : « من ذا الذي يقرض الله قرصاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » .

قال القرطبي : « القرض : اسم لكل ما يلتبس عليه الجزاء . وأقرض فلان فلاناً أي أعطاه ما يتجزأه . واستقرضت من فلان أي طلبت منه القرض فأقرضني . وأقرضت منه أي أخذت القرض . وأصل الكلمة القطع ومنه المفراض . وأقرضته أي قطعت له من مالي قطعة يجازي عليها ... ثم قال : والتعبير بالقرض في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه ، والله هو الغني الحميد ، لكنه - تعالى - شبه إعطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء ... » (١) .

والمعنى : ومن هذا المؤمن القوي الإيمان الذي يقدم ماله في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، وفي غير ذلك من وجوه الخير كمعاونة المحتاجين ، وسد حاجة البائسين ، ومساعدة الأمة الإسلامية بما يفيدها ويعمل من شأنها ، « فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » أي : فيرد الله - تعالى - إلى هذا الباذل المعطى المقرض بدل ما أعطى وبقل وأقرض أمثالا كثيرة لا يعلم مقدارها إلا الله أكرم الأكرمين . إذ المضاعفة معناها إعطاء الشخص أضعاف أي أمثال ما أعطى وبذل .

والاستفهام في قوله : « من ذا الذي يقرض الله ... » للحض على البذل والعطاء ، وللتوبيخ على الانصاف بالصفقات الكريمة ، حتى ليكأن المستفهم لا يدري من هو الأهل لهذه الصفات ويزيد أن يعرف من هو أهل لها . و « من » اسم استفهام مبتدأ ، و « ذا » اسم إشارة خبره ، والذي وصلته صفة لاسم الإشارة أو بدل منه .

وقوله « قرضاً حسناً » حث للناس على إخلاصه النية ، وتحري الحلال

فيما ينفقون ، لأن الإنسان إذا تصدق بمال حرام ، أو قصد بنفقته الربا - أو المباهاة لا يكون عمله مقبلاً عند الله ، وإنما يتقبل الله العمل ويضاعفه لمنه قصد به وجهه ، وكان المتصدق ، مالا - لالا خالصا من الشبهات . فاقه - تعالى - طيب لا يقبل إلا ما كان طيبا .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون . - القبض : ضد البسط . يقال : قبضه بيده يقبضه أى تناوله . وقبض عليه بيده أى أمسكه . ويقال لإمساك اليد عن البذل قبض ومن ذلك قوله - تعالى - : ويقبضون أيديهم ، أى يمتنعون عن الإنفاق .

والبسط معناه المد والتوسعة . يقال بسط يده أى : مدها . وبسط المكان القوم . وسهمهم .

والمعنى : واقه - تعالى - يده الإعطاء والمنع فهو يسلب تارة ويعطى أخرى ، أو يسلب قوماً ويعطى آخرين ، أو يضيق على بعض ويوسع على بعض حسبما تقتضيه مشيئته المبينة على الحكمة والمصلحة ، وما دام الأمر كذلك فلا يتخلوا بما وسع عليكم كيلا تنبدل أحوالكم من الغنى إلى الفقر ، ومن السعة إلى الضيق . وأنتم جميعاً سترجعون إليه وحده ، وسيجازى - سبحانه - الأسياء بما يستحقون من كريم الثواب والبخلاء بما هم أهلهم من شديد العقاب .

فأنت ترى أن في هذه الآية الكريمة ألوان من الحوض على الإنفاق في وجود الخير ومن ذلك التعبير بالاستفهام ، لأنه للتوبيخ وبعث للنفوس إلى التدبر والاستجابة .

ومن ذلك - أيضاً - التعبير بقوله من ذا الذي .. ، فقد جمع هذا التعبير بين اسم الإشارة والاسم الموصول في الاستفهام ، ولا يستفهم بتلك الطريقة إلا إذا كان المقام ذا شأن وخطر ، وكان المخاطب اعظم قدره من شأنه أن يشار إليه وأن يتحدث عنه ومن ذلك تسميته ما يبذل الباذل قرصاً ، ولمن هذا القرص لأنه لله الذى بيده خزائن السموات والأرض والذي سيرد للباذل أضعاف

حافل ، فكأنه - سبحانه - يقول لنا : إن ما تدفعونه إن يضيع عليكم بل هو فرض منكم لي ، وسأرده لكم بأضعاف ما دفعتم وأعطيتهم . ومن ذلك إخفاء مرات المضاعفة ووصفها بالكثرة في قوله : فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ، أى لا يعلم مقدارها إلا الله .

ومن ذلك التعبير بقوله : والله يقبض ويبسط . . ، لأنه ما دام العطاء والمنع من الله فلماذا يبخل البخلاء ويقتر المقترون ؟ إن على الغنى أن يستثمر نعمته الله عليه وأن يتحدث بها بدون رياء . وأن ينفق منها في وجوه الخير حتى يزيد الله من فضله ، وإلا ففي قدرة الله أن يسلبها منه ، ويحاسبه على محله حساباً عسيراً .

هذه بعض وجوه المبالغة التي اشتملت عليها الآية لحض الناس على الإنفاق في الجهاد وفي وجوه الخير ، ولقد استجاب السلف الصالح لهذه التوجيهات ، وحكى لنا التاريخ أمثلة كريمة من سخاوتهم وبذلهم .

ومن خير الأمثلة على ذلك ما جاء عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ، قال أبو الدحداح : يا رسول الله أو إن الله - تعالى - يريد منا القرض ؟ » قال نعم يا أبا الدحداح ، قال أرني يدك . فتأوله النبي - ﷺ - يده . فقال أبو الدحداح : فإني أقرضت الله - تعالى - حائطاً فيه ستمائة نخلة . ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعياله . فناداهما : يا أم الدحداح . قالت : لبيك قال : أخرجني قد أقرضت ربى حائطاً فيه ستمائة نخلة ، (١) .

وفي رواية يزيد بن أسلم أن أبا الدحداح قال للنبي - صلى الله عليه وسلم - إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية والله لا أملك غيرها قد جعلتهما قرضاتك - تعالى - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واجعل لإحداهما لله والأخرى دعماً معيشة لك وإعياالك . قال : فأشهدك يا رسول الله أني قد جعلت خيرهما لله وهو حائط فيه ستمائة نخلة . قال : إذا يجزئك

الله به الجنة ، ثم انطلق أبو الدحداح إلى زوجته وهي مع صبياتها في الحديقة .
تدور تحت النخل فأخبرها بما فعل ، فأقبلت على صبياتها تخرج ما في أفواههم
وتنفض ما في أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر . . . (١) .

وبهذا نرى السلف الصالح قد امتثل ما أمره الله به من إتفاق في سبيله
ومن جهاد لإعلاء كلمته فهل آن الأوان للمسلمين أن ينجسوا نهبهم لكي
يسعدوا كما سعدوا ، وينالوا أشرف حياة وأعزها ؟ اللهم خذ بيدنا إلى
ما يرضيك .

ثم ساق القرآن قصة من قصص بنى إسرائيل مع أنبيائهم ، فيها العظات
والعبر ، وملخص هذه القصة : أن قوما من بنى إسرائيل كانوا قد انهزموا
أمام أعدائهم هزيمة منكرة جعلتهم يولون الأدبار تاركين ديارهم وأبنائهم ،
فقالوا لنبي لهم بعد أن ذاقوا مرارة الهزيمة : ابعد لنا ملكا يقودنا للقتال في
سبيل الله ، فقال لهم تبيهم بعد أن حذرهم من عاقبة الجبن والكذب :
« إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، فاعترضوا على هذا الاختيار ، ونقصوا
من شأن من اختاره الله قائدا لهم ، ولكن نبيهم ساق لهم من الحجج التي تدل
على صلاحية طالوت لهذا المنصب ما أحرص ألسنتهم . . ثم سار طالوت
بجنوده لقتال أعدائه ، وفي العاريق قال لمن معه « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب
منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه
إلا قليلا منهم . . . ثم بعد هذه المخالفة جبن أكثرهم عن قتال أعدائهم
وقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، ولكن الفئة القليلة المؤمنة منهم
استطاعت أن تنتصر على كل عقبة في طريقها ، وأن تقابل أعداءها بشجاعة
وصبر واعتماد على الله ، فكانت النتيجة أن انتصرت الفئة القليلة المؤمنة بقيادة
طالوت على الفئة الكثيرة الكافرة بقيادة جالوت . هذا تلخيص لتلك القصة
العامة بالعظات ، ولعل من الخير قبل أن نبدأ في تفسير آياتها أن نقرأه
بتدبر وتأمل كما صورها القرآن بأسلوبه البليغ المؤثر .

قال - تعالى - :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مَنبِيئًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ
 قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ أَرْسَلْنَا إِلَيْنَا مَلَكًا نَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ
 إِنْ كُنْتُمْ عَلَيَّ كَارِهِينَ أَنْ نَقْتُلُكُمْ أَلَمْ نَقْتُلْكُمْ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ
 تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ
 إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ
 عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ
 اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي
 مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

وقوله - تعالى - : ألم تر إلى الملائكة منبئًا من بني إسرائيل من بعد موسى . الخ .
 استئناف ثان بعد قوله قبل ذلك : ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم . . .
 وقد سبق هذا الاستئناف مساق الاستدلال لقوله - تعالى - : وقاتلوا في
 سبيل الله . . . حتى تشجع النفوس على الجهاد ، وتهون عليها المصاعب في
 سبيل حياة العزة والكرامة .

و الملائكة : الأشراف من الناس . وهو اسم للجماعة لا واحد له من لفظه .
 وإنما سمي الأشراف بذلك لأن هيبتهم تملأ الصدور ، أو لأنهم يتماثلون
 في شرفهم . وأصل الباب الاجتماع بما لا يحتمل المزيد .

والمعنى : كما سبق أن بينا في قوله : « ألم تر إلى الذين خرجوا . . . » :
 لقد علمت أيها العاقل حال أولئك القوم من بني إسرائيل الذين كانوا بعد وفاة
 موسى - عليه السلام - إذ قالوا لنبي لهم أقم لنا أميرا لكي نقاتل معه
 في سبيل الله . ومن لم يعلم فما نحن أولاء نعلمه بحالهم فعليه أن
 يعتبر ويتعظ .

فقوله « من بعد موسى » بيان للزمن الذي كان يعيش فيه أولئك الملائكة
 من بني إسرائيل والمراد بالنبي الذي قالوا له « ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله »
 على الأرجح - د شمويل بن حنة ، وكان السبب في طلبهم هذا من نبيهم أن
 العمالة أتباع جالوت كانوا قد أخرجوهم من ديارهم ، وأنزلوا بهم هزائم
 شديدة ، فطلبوا منه ذلك لكي يستردوا مجدهم المضائع ، وعزهم المسلوب ،
 على يد هذا القائد المختار من جهة نبيهم .

وفي الإتيان بلفظ هذا النبي بصيغة التنكير - إشارة إلى أن محل العبارة
 ليس هو شخص النبي ، وإنما المقصود معرفة حال أولئك القوم ، وما جرى
 لهم مع نبيهم من أحداث من شأنها أن تدعو إلى الاعتبار والاتعاظ . وهذه
 طريقة القرآن في سرد القصص لا يهتم بالأشخاص والأزمان إلا بالقدر
 الذي يستدعيه المقام . أما الاهتمام الأكبر فيجعله لما اشتملت عليه القصة
 من وجوه العظات والعبر .

ويبدو أنه كان يتوهم من خيفة لأنه أعرف بطبيعتهم ، فقرأ يقول
 لهم كما حكى القرآن عنه : « قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا
 تقاتلوا » .

فلاستفهام للتحذير . أي إنى أتوقع عدم قتالكم إذا فرض عليكم
 القتال ، فراجعوا أنفسكم وقوتكم قبل أن تطلبوا هذا الطلب ، لأنه إذا فرض
 عليكم ثم نكصتم على أعقابكم فإن عاقبتكم ستكون شرأ لا شك في ذلك .
 وهى هنا بمعنى التوقع والمقاربة ، والجملة استئناف بياني .

قال صاحب الكشاف : والمعنى : هل قاربتم ألا تقاتلوا ؟ يعنى هل الأمر

كما أتوقعه أنكم لا تقاثلون ؟ أراد أن يقول : عسيتم ألا تقاثلوا بمعنى أتوقع حينئذ عن القتال فأدخل « هل » مستقهما عما هو متوقع عنده ومظنون .
وأراد بالاستفهام التقرير وتثبيت أن المتوقع كائن وأنه صائب في توقعه . وخبر
« عسيتم » : « ألا تقاثلوا » والشرط فاصل بينهما ، (١) .

ثم حكى القرآن ردهم على نبيهم فقال : « قالوا وما لنا ألا نقاثل في سبيل
الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » ؟ .

أى قال الملا من بنى إسرائيل على سبيل الإنكار والتعجب ، ما قاله نبيهم : وأى
صحاريف يصرّفنا عن القتال وحالنا كما ترى ؟ إننا قد أخرجنا من ديارنا وحويل
بيننا وبين أبنائنا وفلذات قلوبنا فكيف لا نقاثل مع أن الدواعى موجودة ،
والبواعث متوفرة ، والأسباب مهيئة ؟ فأنت تراهم في إجابتهم هذه يستكفرون
بما توقعه نبيهم منهم ، ويحزمون بأن الطريق الوحيد لعزتهم إنما هو القتال
وأن هذا الأمر لا مراجعة فيه ولا جدال . وهكذا شأن الجبناء المفرورين
في كل زمان ومكان يرحبون بالمعارك قبل قدومها فإذا ما جد الجدد كذبت
أعمالهم أفواههم ، وأعطوا أديبارهم لأعدائهم .

ثم حكى القرآن أن نبيهم كان صادقاً فيما توقعه منهم من جبن وكذب ،
وأنهم قوم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم فقال - تعالى - « قلنا كتب
عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم » .

أى : نحن فرض عليهم القتال بعد أن ألحوا في طلبه ، أعرضوا عنه ،
ونفروا منه إلا عدداً قليلا منهم فإنه ثبت على الحق ، ووفى بعهده .

قال الألوسى : وقوله « إلا قليلا منهم » وهم الذين جاؤوا النهر وكانوا
ثلاثمائة وثلاثة عشر عدة أهل بدر على ما أخرجه البخارى عن البراء - رضى
الله عنه - والقلة إضافية فلا يرد وصف هذا العدد أحياناً بأنه جم

خفير ، (٢) .

(١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٢٩١ .

(م - ٤٧ البقرة)

(٢) تفسير الألوسى ٢٣٣ صفحة ١٦٦ .

ثم ختم الله - تعالى - الآية بقوله ، والله هليم بالظالمين ، لإفادة الوعيد الشديد -
 لظولاء الذين نقضوا عهدهم ، ونكصوا عن القتال عندما فرض عليهم ،
 ولكل من يفعل فعلهم ، وسار على طريقهم .

أى : والله - تعالى - هليم بالظالمين الذين يظلمون أنفسهم وأمتهم بفرك
 الجهاد ، وبفرك ما أمرهم الله به بعد أن عاهدوه على عدم الترك .

ثم بين القرآن ما أخبرهم به نبيهم ليحملهم على الطاعة والامتثال فقال -
 تعالى - : وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، .

أى وقال لهم بعد أن أوحى إليه بما يوحى : إن الله - تعالى - وهو العليم
 الخبير بأحوال عباده قد بعث لكم ومن أجل مصلحتكم طالوت ليكون ملكاً
 عليكم ، وقائدكم في قتالكم لأعدائكم ، فأطيعوه واتبعوا ما يأمركم به .

و طالوت ، اسم أعجمي قيل هو المسمى في التوراة باسم دشاوول ،
 وقيل إن هذا الاسم لقب له من الطول كملكوت من الملك ، لأن طالوت
 كان طويلاً جسيماً .

ولقد كان الذى يقتضيه العقل أن يطيعوا أمر نبيهم ، واسكنتم لجوا في
 جداهم وطغيانهم وقالوا لنبيهم معترضين على من اختاره الله قائداً لهم :
 ، أى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال . .
 ، أى ، أداة استفهام بمعنى كيف ، والاستفهام هنا للتعجب من جعل

طالوت ملكاً عليهم . أى قالوا لنبيهم منكرين ومتعجبين من اختيار طالوت
 ملكاً عليهم : كيف يكون له الملك علينا والحال أننا أحق بالملك منه لأننا
 أشرف منه نسباً ، إذ منا من هو نسل الملوك أما طالوت فليس من نسلهم ،
 وفضلاً عن ذلك فهو لا يملك من المال ما يملكه بعضنا فكيف يكون هذا
 الشخص ملكاً علينا ؟

فانت تراهم لا نندم المقاييس الصحيحة عندهم ظلوا أن الماديات الحقيقية
 لا تستحق الملك والقيادة لأنها تكون بالنسب وكثرة المال أما الكفاة العقلية -

والقوة البدنية ، والقدرة الشخصية فلا قيمة لها عندهم لانظماس بصيرتهم ،
وسوء تفكيرهم .

قال بعضهم : « وسبب هذا الاستبعاد أن النبوة كانت مخصوصة بسبب
معين من أسباط بنى إسرائيل وهو سبط لاوى بن يعقوب ، وسبط-
المملكة بسبط- يهوذا ، ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل من ولد
بنيامين . والواو في قوله « ونحن أحق . . . للحال ، والواو الثانية في قوله
« ولم يؤت . . . عاطفة جامعة للجملتين في الحكيم ، (١) .

ثم حكى القرآن ما رد به نبيهم عليهم فقال : « قال إن الله اصطفاه
عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم .
أى قال لهم نبيهم مد لا على حقبة طالوت بالقيادة : إن الله - تعالى -
اصطفاه عليكم ، أى اختاره وفضله عليكم واختياره يجب أن يقابل بالإذعان
والقبول . وثانياً وزاده بسطة في العلم ، أى أن الله - تعالى - منحه سعة في
العلم والمعرفة والعقل والإحكام في التفكير المستقيم لم يمنحها لكم ، وثالثاً :
وزاده بسطة في الجسم ، بأن أعطاه جسماً قوياً ضخماً مهيئاً . وهذه الصفات
ما وجدت في شخص إلا وكان أهلاً للقيادة والريادة . وفضلاً عن كل ذلك
فألك الملك هو الذى اختاره فكيف تعترضون بامن تدعون أنكم تريدون
القتال في سبيل الله ؟ لذا نراه - سبحانه - يضيف الملك الحقيقى إليه فيقول :
« والله يؤتي ملكه من يشاء ، أى : يعطى ملكه لمن يشاء من عباده لحكمة
يعلمها . فلا يجوز لأحد أن يعترض على اختياره ، والله « واسع ، الفضل
والعطاء ، عليم ، يشئون عباده . خير بأحوالهم وأعمالهم .

ثم حكى القرآن أن نبيهم لم يكتف بهذه الدلائل الدالة على صلاحية
طالوت للقيادة ، وإنما ساق لهم بعد ذلك من العلامات التى تشهد بحقيقته
بهذا المنصب ما يشبه قلوبهم ، ويزيل شكهم ويشرح نفوسهم فقال - تعالى - :

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ

مَلِكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ
 آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم
 إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ
 مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ۖ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ۖ وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي
 إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ
 هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ
 قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلتَقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَت فِئَةً
 كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

التابوت : يوزن فملوت - من التوب وهو الرجوع ، وناؤه مزيدة لغير
 التأنيث كجبروت ، والمراد به . صندوق التوراة . وكانوا إذا حاربوا حمله
 جماعة منهم ، ويتقدمون به أمام الجيش فيكون ذلك سبب نصرهم . وكان
 عهدهم به قد طال فذكروهم بما آثره ترغيباً فيه وحملوا على الانقياد لطاووت ، (١)
 والسكينة : من السكرن وهو ثبوت الشيء بعد التحرك : أو من السكن
 - بالتحريك - وهو كل شيء سكنت إليه النفس وهدأت .

والمعنى : وقال لهم نبيهم ليقنعهم بأن طاووت جدير بالملك (إن آية ملكه)
 أى علامة ملكه وأنه من الله - تعالى - (أن يأتيكم التابوت) أى أن يرد عليكم

التابوت الذي ساءب منكم (فيه سكينه من ربكم) أى فى إتيانه سكون
لنفوسكم وطمانينة لها أو مودع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة (وبقية ما
ترك آل موسى وآل هارون) من آثار تعبدون بها ، وترون فيها صلة بين
ماضيكم وحاضركم . وقوله (تحمله الملائكة) حال من التابوت .

قال صاحب الكشاف : (قوله) وبقيه مما ترك آل موسى وآل هارون (
هى رصاص الأواح وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة . وكان رفعه الله
- تعالى - بعد موسى - عليه السلام - فنزلت به الملائكة تحمله وهم ينظرون
إليه ، فكان ذلك آية لاصطفاء طالوت . فإن قلت : من هم (آل موسى
وآل هارون) . قلت : الأنبياء من بنى يعقوب بعدهما ، ويجوز أن يراد
بما تركه موسى وهارون) والآل مقحم لنفخيم شامها (١) .

وقال ابن كثير : قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمّل التابوت بين
السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون (٢) .
ثم ختم سبحانه الآيه بقوله : (إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين)
أى : إن فى ذلك الذى أنا لكم به طالوت لآيه عظيمة وعلاوة ظاهرة لكم
تدل على أحقية طالوت بالملك والقيادة إن كنتم مؤمنين بآيات الله وبالحق
الذى جاء به أنبياءه .

وبذلك نرى أن القرآن الكريم قد حكى لنا أن هؤلاء القوم
من بنى إسرائيل قد جاءهم نبياهم بأنصح الحجج ، وأوضح الأدلة ، وأثبت
البراهين التى تؤيده فيما يدعوهم إليه .

ثم بين - سبحانه - ما دار بين طالوت وجنوده فقال : فلما فصل
طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر .

فصل ، بمعنى الفصل . قال الزمخشري : فصل عن موضع كذا :

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٩٣

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٠١

إذا انفصل عنه وجاوزه . وأصله فصل نفسه . ثم كثر : حذف المفعول حتى صار في حكم غير الممتدى كأنفصل . وقيل : فصل عن البلد فصولا . ويجوز أن يكون فعله فصلا ، وفصل فصولا كوقوف وصد نحوهما . والمعنى انفصل عن بلده ، (١) .

و النهر ، بالفتح والسكون - : المجرى الواسع الذي يجري فيه الماء مأخوذ من نهر الأرض بمعنى شقها .

أى : فلما انفصل بهم عن المكان الذي كانوا يقيمون فيه ، وتوجهوا معه لقتال جالوت وجنوده ، قال لهم : إن الله مبتليكم بنهر ، أى مخبركم وممتحنكم بنهر ، وكان طالوت قد سار بهم في أرض قفرة فأصابهم عطش شديد . وفي هذا الإبتلاء اختبار لزميتهم ، وامتحان لصبرهم على المناعب حتى يتميز من يصير على الحرب بمن لا يصبر ، ومن شأن القواد الأقوياء العقلاء أنهم يختبرون جنودهم قبل اقتحام المعارك حتى يكونوا على بينة من أمرهم . ثم بين لهم موضع الاختبار فقال : فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اعترف غرفة بيده ، .

«يطعمه» أى يذقه من طعم الشيء . يطعمه إذا ذاقه ما كولا أو مشروباً . والغرفة - بالضم - اسم للشيء المعترف وجمعه غراف . وأما الغرفة - بالفتح - فهى اسم للمرأة الواحدة من الغرف وقيل : هما لغتان بمعنى واحد أى قال لهم طالوت : من شرب من هذا النهر فليس من شيعتى ، فعليه أن يتركنى ولا يصاحبنى في خوض هذه المعركة لأنه ثبت ضعفه وخوره ، ومن لم يذقه أصلاً فإنه من شيعتى وحزبى الذى سيكون معى في هذه المعركة الخطيرة . ثم أباح لهم أن يعترفوا من النهر غرفة يخففون بها من عطشهم فقال : (إلا من اعترف غرفة بيده) فإنه لا يخرج بذلك عن كونه منى . وفي هذه الجملة الكريمة قدم - سبحانه - جواب الشرط على الاستثناء

عن الشرط فقد قال (ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده) والتأليف
تتعلقه ود للناس أن يقال : ومن لم يطعمه إلا من اغترف بيده فإنه مني) ولكن
الآية الكريمة جاءت بتقديم الجواب على الاستثناء لحكمة بليغة ، وهي المسارعة
إلى بيان الحكم ، وإثبات أن أساس الصلة التي تربطهم بنبيهم أن يتشكروا أمره
و ألا يشربوا من النهر ، ثم رخص لهم بعد ذلك في الاعتراف باليد غرفة واحدة
وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى فقال : فإن قلت : مم استثنى
ت قوله (إلا من اغترف) ؟ قلت : من قوله (فمن شرب منه فليس مني)
والجمله الثانية في حكم المتأخرة لإلا أنها قدمت للعناية . . ومعناه : الرخصة
في اغتراف الغرفة باليد دون الكروع ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - ما كان من بني إسرائيل نتيجة لهذا الامتحان
سخطا : (فشربوا منه إلا قليلا منهم) .

أى : فشربوا من النهر حتى امتلأت بطونهم مخالفين بذلك أمر قائدهم
في وقت تعظم فيه المخالفة لأنه وقت إقدام على الحرب ، إلا عدداً قليلا
عنهم فإنهم لم يشربوا إلا كما رخص لهم قائدهم . وعلى هذا التفسير - الذي
قال به جمهور المفسرين - يكون جميع الذين مع طالوت قد شربوا من النهر إلا
أن كثيراً منهم قد شربوا حتى امتلأت بطونهم مخالفين أمر قائدهم ، وقلة
عنهم شربت غرفة واحدة وهي التي رخص لهم قائدهم في شربها .

وبعض المفسرين يقسم أتباع طالوت ثلاثة أقسام : قسم شرب كثيراً
مخالفاً أمر طالوت . وقسم شرب غرفة واحدة بيده كما رخص له قائده .
وقسم لم يشرب أصلاً لا قليلاً ولا كثيراً مؤثراً العزيمة على الرخصة وهذا القسم
هو الذي اعتمد عليه طالوت اعتقاداً كبيراً في قتاله لأعدائه .

ومن ذكر هذا التقسيم من المفسرين الإمام القرطبي فقد قال : قال

ابن عباس : شربوا على قدر يقينهم ، فشرب الكفار شرب الهيم (١) ، ويقبض بعض المؤمنين لم يشرب شيئاً ، وأخذ بعضهم الغرقة . فأما من شرب فلم يرو بل برح به العطش ، وأما من ترك الماء فحسنت حاله وكان أجلد عن أخذ الغرقة ، (٢) .

ثم بين - سبحانه - ما كان من أتباع طالوت بعد اجتيازهم للنهر ، معه فقال : فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقه لنا اليوم بحالوت و جنوده ، .
 أى : فلما جاوز طالوت ومن معه النهر وتخطوه ، وشاهدوا كثرة جند بحالوت ، قال بعض الذين مع طالوت لبعض بقلق ووجل : لا قدرة لنا اليوم على محاربة أعدائنا ومقاومتهم فهم أكثر منا عدداً ، وأوفر هُوداً .
 والضمير د هو ، في قوله هو والذين آمنوا معه ، مؤكد للضمير المستكن في جاوز ، والذين آمنوا معطوف عليه ، أى على الضمير المستكن في جاوز .
 والقائلون ، هذا القول هم بعض المؤمنين الذين عبروا معه النهر ، ولم يقولوا ذلك هروباً أو تكوراً عن القتال ، وإنما قالوه كظهور من مظاهر الوجل الذى يعمرى بعض النفوس عند الاستعداد للقتال ، لأن الذين عصوا الله وخالفوا طالوت بشريهم من النهر جينوا عن لقاء العدو ولم يسبروا معه لقتالهم . أما المزمعون الصادقون الذين اتصلت قلوبهم بالله ، والذين أذعنوا أنه لا نصر إلا منه ولا اعتماد إلا عليه ، فقد حكى القرآن موقفهم المشرف فقال :
 قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، .

أى : قال الذين يتيقنون أنهم ملاقوا الله يوم القيامة فيحاسبهم على أعمالهم ، قالوا مشجعين لإخوانهم الذين تهيّبوا قتال أعدائهم : كم من جماعة قليلة

(١) الهيم : الإبل التى يصيبها داء فلا تروى من الماء واحدها أهيم .
 والآنسى هيماء .

بإيمانها وصبرها تغلبت بإذن الله وتيسيره على جماعه كثيرة بسبب كفرها وجبنها وتفككها ، والله - تعالى - بعونه وتأييده مع الصابرين .

وعلى هذا التفسير يكون المراد بلقاء الله الحشر إليه بعد الموت ، ومجازاة الناس على ما قدموا من عمل ، ويكون المراد بالظن اليقين لأن كل مؤمن ميعن بأن البعث حق .

ويجوز أن يكون المراد بلقاء الله قربهم من رضاه يوم القيامة ، وإثابتهم على جهادهم بالجنة ، وعليه يكون الظن على معناه الحقيقي وهو الاعتقاد الراجح ، لأن خواتيم الحياة لا يعلمها كيف تكون سوى علام الغيوب .
وذكر ، في قولهم كم من فئة . . . ، خبرية للتكثير ، وفي هذا التعبير الذي حكاه القرآن عنهم دليل على قوة إيمانهم وصفاء نفوسهم وثقتهم في نصر الله ثقة لا تحدد ، لأنهم أتوا بصيغة التكثير حتى لكانما أن القاعدة العامة هي انتصار الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة .

وفي تعليقيهم النصر على إذن الله إشعار بأنهم لم يعتمدوا على قوتهم وثباتهم وشجاعتهم فحسب وإنما جعلوا اعتمادهم الأكبر على تأييد الله لهم . وهذا شأن العقلاء يبذلون أنفسهم جهدهم في بلوغ غايتهم مستعينين على ذلك بتأييد الله وتوفيقه .

ورحم الله الإمام القرطبي الذي عاصر دولة الإسلام في الأندلس .
وهي تسيير في طريق الضعف والتدهور فقد قال في ختام تفسيره لهذه الآية : قلت : هكذا يجب علينا أن نفعل ؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة ، منعت من ذلك حتى انكسر العدد الكبير منا أمام اليسير من العدو وكما شاهدناه غير مرة ، وذلك بما كسبت أيدينا ؛ وفي البخاري : وقال أبو الدرداء : إنما تقاؤون بأعمالكم . وفي البخاري - أيضاً - أن النبي ﷺ قال : هل تصهرون وترزقون إلا بضعفائكم ، فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل ، والاعتماد ضعيف ، والتقوى زائلة ۱۱ قال - تعالى - :-

« اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله ، وقال «وعلى الله فتوكلوا ، وقال :
 « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وقال : « ولينصرن الله من
 ينصره ، وقال « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، .
 فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا ، فإن الله
 وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا ... » (١) .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما قاله المؤمنون الصادقون عندما برزوا للقاء
 أعدائهم فقال :

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ

وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى

الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ

اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ

بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾

مَلَكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

وقوله « برزوا ، أي صاروا إلى براز الأرض وهو ما انكشف منها
 بحيث يصير كل فريق من المتقاتلين يرى صاحبه ، ومنه سميت المبارزة في
 الحرب لظهور كل قرن إلى قرنه . أي : وحين برز طالوت ومن معه لقتال
 جالوت وجنوده ، وأصبح للفریقان في مكان متسع من الأرض بحيث يرى

كل فريق خصمه آتجه المؤمنون إلى - لله - تعالى - بالدعاء قائلين يا خلاص
وخشوع :

« ربنا أفرغ علينا صبراً ، أى : أفض علينا صبراً بمعنا ، ويملاً قلوبنا
ثقة بنصرك ، ويحبس نفوسنا على طاعتك .

قال الإمام الرازى ما ملخصه الإفراغ : الصب . يقال أفرغت الإناء .
إذا صببت ما فيه . وقولهم هذا يدل على المبالغة في طلب الصبر من وجهين :
أحدهما : أنه إذا صب الشيء فى الشيء . فقد أثبت فيه بحيث لا يزول عنه وهذا
يدل على التأكيد . والثانى أن إفراغ الإناء هو إخلاؤه وذلك يكون بهب كل
ما فيه . فمضى أفرغ علينا صبراً ، أى أصيب علينا أثم صب وأبلغه - حتى
تتحقق فينا صفة الصبر كأحسن ما يكون التحقق - ، (١) .

أما الدعوة الثانية فقد قالوا فيها - كما حكى القرآن عنهم - « وثبت أقدامنا ،
أى هب لنا من كمال القوة والرسوخ عند القتال ما يجعلنا نثبت أمام أعدائنا ،
ونتمكن من رقابهم دون أن يتمكنوا منا . فهذا الدعاء كناية عن أن يمنحهم
- سبحانه - الثبات عند الزحف ، وعدم الفرار عند القتال .

وفى قوله « وثبت أقدامنا ، تعبير بالجزء عن الكل ، لأن الأقدام هى
التي يكون بها الفرار ، فثبتيها لإبعاد عن الفرار ، ومتى حصل الثبات كان
النصر متوقفاً ، والصبر متحققاً .

ثم ختموا دعاءهم بأن قالوا : « وانصرتنا على القوم الكافرين ، أى اجعل
الغلبة لنا عليهم ، لأننا مؤمنون بأنك المعبود المستحق للعبادة وهم يكفرون
بذلك .

والمأمل فى هذه الدعوات الثلاث براها قد جمعت أسمى ألوان الأدب

وحسن الترتيب ، فهم قد صدروا دعاءهم بالتوسل بوصف الربوبية فقالوا :
 ربنا ، أى يا خالقنا ويا منشئنا ويا مربينا ويا مميئتنا ، وفى ذلك إشعار بأنهم
 يلجأون إلى من بيده وحده النفع والضر ، والنصر والهزيمة . ثم افتتحوا
 دعاءهم بطلب الصبر عند المخاوف لأنه هو عدة القتال الأولى ، وركنه
 الأعلى ، إذ به يكون ضبط النفس إلا تفرغ ، وبه يسكن القلب فلا يجزع .
 ثم التمسوا منه - سبحانه - أن يثبت أقدامهم عند اللقاء لأن هذا الثبات
 هو مظهر الصبر ، ووسيلة النصر ، وعنوان القوة .

ثم ختموا دعاءهم بما هو ثمرة ونتيجة للصبر والثبات وهو النصر على
 الأعداء .

فإذا كانت نتيجة هذا الدعاء الخاشع الخالص كانت نتيجة النصر
 المؤزر الذى حكاه القرآن فى قوله : « فمزمومهم ياذن الله » .

وأصل الهزم فى اللغة الكسر . ومنه مقام مهزوم أى انثنى بعضه على بعض
 مع الجفاف . ويقال للسحاب هزيم ، لأنه يتشقق بالمطر . والغاء هنا فصيحة
 أو سببية أى أنهم بسبب دعائهم المخلص ، وإيمانهم القوى ، واستجاباتهم
 لما أمرهم الله به ، استطاعوا أن يكسروا أعداءهم ويهزموهم ، وقوله ياذن
 الله ، أى بتوفيقه وتيسيره وتأيدته . والباء إما للاستعانة والسببية وإما
 للمصاحبة .

ثم قال - تعالى - « وقتل داود جالوت ، أى : وقتل داود بن إيشا وكان
 فى جيش طالوت ، جالوت الذى كان يقود جيش الكفر ، وقتله رزق
 أتباعه شر ممزق ، ورزق الله طالوت وهن معه النصر والغلبة .

ثم بين - سبحانه - ما منحه لداود من نعم فقال : « وآتاه الله الملك
 والحكمة وعلمه بما يشاء ، والحكمة المراد بها هنا النبوة ، ولم يجتمع

الملك والنبوة لأحد قبله في بنى إسرائيل ، وورثه فيها ابنه سليمان - عليه السلام .

أى : وأعطى الله - تعالى - عبده داود ملك بنى إسرائيل وأعطاه النبوة التي هي أشرف من الملك زيادة في ترقيته في درجات الشرف والكمال ، وعلمه - سبحانه - مما يشاء من فنون العلم ، ومن أمور الدين الدنيا ، كعرفته لغة الطيور ، ولكلام الدواب ، ولصناعة آلات الحرب ولغير ذلك من أوان العلوم المختلفة التي لا تحدها إلا مشيئة الله وإرادته .

وفي قوله - تعالى - « وعلمه مما يشاء » بعد الإخبار بأنه - سبحانه - أتى داود الحكمة ، إشعار بأن الإنسان لا يستغنى عن التعلم سواء أكان نبيا أم لم يكن ، لأن داود - عليه السلام - مع حصوله على النبوة لم يستغن عن تعليم الله إياه ، وقد أمر الله - تعالى - نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - أن يلتمس المزيد من العلم فقال : « وقل رب زدني علما » .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على عباده فقال : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، .

أى : ولولا أن الله - تعالى - يدفع أهل الباطل بأهل الحق ، لفسدت الأرض ، وعمها الخراب لأن أهل الفساد إذا تركوا من غير أن يقاوموا استطارت شرورهم ، وتغلبوا على أهل الصلاح والاستقامة ، وتعدت مصالح الناس ، وانتشر الفساد في الأرض .

فلولا في الجملة الكريمة حرف امتناع لوجود . أى : امتنع فساد الأرض لاجل وجود دفع الناس بعضهم ببعض .

فالجملة الكريمة تأمر الأخيار في كل زمان ومكان أن يقفوا في وجوه الأشرار ، وأن يقاوموهم بكل وسيلة من شأنها أن تحول بينهم وبين الفساد والظلمين .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : «ولكن الله ذو فضل على العالمين» .
 أى : ولكن الله - تعالى - صاحب فضل عظيم ، وإنعام كبير ، على الناس
 أجمعين ، لأنه وضع لهم هذا التنظيم الحكيم الذى أوجب فيه على المصلحين
 أن يدافعوا المفسدين ، وأن يقاوموهم بالطريقة التى تمنع فسادهم حتى
 ولو أدى ذلك إلى رفع السلاح فى وجوههم ، لأن السكوت عن فساد
 المفسدين سيؤدى إلى العقاب الذى يعمهم ويصيب معهم المصلحين .

ثم ختم - سبحانه - قصة هؤلاء القوم من بنى إسرائيل بقوله : «تلك
 آيات الله تتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين» .

أى : تلك الآيات التى حدثناك فيها عن أولئك القوم وما جرى لهم .
 هى آيات الله التى لا يأتها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، تتلوها عليك
 يا محمد عن طريق جبريل الأمين نلاوة ملتبسة بالحق الثابت الذى لا يحوم
 حوله الباطل ، وإنك يا محمد « لمن المرسلين » الذين أرسلهم الله - تعالى -
 « بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

فالإشارة فى قوله « تلك آيات الله » ، إلى الآيات المتلوة من قوله - تعالى -
 « ألم تر إلى الملائكة من بنى إسرائيل . . . » ، إلى آخر القصة . وقيل لإيها وإلى
 القصة التى قبلها وهى قصة القوم « الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف
 حذر الموت » .

وكانت الإشارة للبعيد ، لما فى ذلك من معنى الاستقصاء للآيات ،
 ولعلو شأنها ، وكال معانيها ، والوفاء فى مقاصدها .

وأضيفت الآيات إلى الله لأنها جزء من هذا القرآن الذى أنزله - سبحانه -
 على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ليكون هداية للناس ، وليحملهم على
 تدبرها والاعتبار بها لأنها من عند الله الذى شرع لهم ما يستعملهم .

وجمل - سبحانه - تلاوة جبريل للقرآن تلاوة له فقال : « تلوها عليكم بالحق ، للإشعار بشرف جبريل ، وأنه ما خرج في تلاوته عما أمره الله به ، فهو رسوله الأمين إلى رسلة المكرمين .

وجملة « تلوها عليكم ، في مجل نصب حال من الآيات والعمل فيها معنى الإشارة .

وقوله « بالحق ، في موضع نصب حال من « فقول تلوها أي ملتبسة باليقين الذي لا يرتاب فيه عاقل . أو من فاعله أي : تلوها عليكم ملتبسين بالحق والصواب .

وأكد - سبحانه - قوله : « وإنك لمن المرسلين ، بحرف « إن » وباللام في « لمن ، وبالجملة الاسمية ، للرد على من شكك في صدق رسالته - ﷺ - ، ولتسليته عما بقوله الجاحدون في شأنه .

وبعد : فهذه قصة الملائكة من بنى إسرائيل من بعد موسى ، وإن فيها عبراً متعددة ، وعظات متنوعة لقوم يعقاون . ومن العبر التي تؤخذ منها :

١ - أن الشعور بالظلم والظلم ، والابتلاء بالمحن والهزائم ، والوقوع تحت أيدي المعتدين ، كل ذلك من شأنه أن يصهر النفوس الحرة الكريمة ، وأن يدفعها بقوة إلى الذود عن كرامتها المسلووبة ، وعزتها المغصوبة ، حتى تنال حقها معن سلبه منها أو تموت دونه ، لأن النفوس الأبية تشعر دائماً بأن الموت مع العزة خير من الحياة مع الذلة . يدل على ذلك قوله - تعالى - : « قالوا : وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا . »

٢ - أن الناس في كل زمان ومكان ، يلجأون - خصوصاً عندما تنزل بهم الشدائد إلى من يتوسمون قتهم الخير والصلاح ، لكي يرشدوهم إلى

ما يأخذ يودهم إلى طريق السعادة ، ولكي يهدوهم إلى أفضل السبل التي تنقذهم مما هم فيه من بلاء ، ولكي يختاروا لهم من يقودهم إلى النصر والفلاح . ألا ترى إلى الملاّ من بنى إسرائيل كيف لجأوا إلى بنى لهم ليقولوا له بعد أن أصابهم الّن الذل ما أصابهم : « ابعث لنا ملكا نقاتل فقاتل في سبيل الله ، ؟ لأنهم لم يلجأوا إلى زعيم من زعمائهم ، أو إلى أمير امراتهم ، وإنما لجأوا إلى نبيهم ييشون لإيابه شكواهم ، ويطلبون منه أن يختار لهم من يقودهم للقتال في سبيل الله ، لأنهم يرون فيه الأمل المرتجى ، والعقل السليم ، والخلق القويم ، والأسوة الحسنة .

- ٣ - أن القائد يجب أن تتوفر فيه صفتان : قوة العقل ، وقوة الجسم ، لأنه متى توفرت فيه هاتان الصفتان استطاع أن يقود أتباعه بنجاح ، وأنه قبل أن يلتقى بأعدائه يجب عليه أن يختبر جنده ليعرف مبالغ إيمانهم وقوتهم وطاعتهم وثباتهم وألا يكلفهم بما لا يستطيعونه حتى يحارب أعداءه وهو على بينة من أمره . انظر إلى طالوت كيف اختبر جنده قبل أن يخوض المعركة بأن قال لهم : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ، وهكذا القواد العقلاء . يقدمون على حرب أعدائهم وهم على بصيرة من أمرهم . . .
- ٤ - ان الفئة القليلة المؤمنة كثيرا ما تنتصر على الفئة الكثيرة الكافرة ؛ لأن المؤمنين الصادقين يحماهم إيمانهم على اليقين بلقاء الله ، وعلى التضحية من أجل إعلاء كلمته ، وعلى الإقدام الذي يرغب الكافرين ، ويخيف الفاسقين ، وصدق الله إذ يقول : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

- ٥ - أن هزائم الإمام يمكن إزالتها متى توفر لتلك الأمم القادة العقلاء الأقوياء ، والجند الأشداء على أعدائهم الرحماء فيما بينهم ، وأن من شأن المؤمنين حقائهم مع مباشرتهم للأسباب ، وإحكامهم لكل ما يحتاج إليه

القتال ، وإحسانهم لكل وسيلة تعينهم على النصر ، مع كل ذلك لا يفترقون ولا يتطاولون بل يعتمدون على الله - تعالى - اعتماداً تاماً ، ويتجهون إليه بالضراعة والدعاء ، ويلتمسون منه النصر على أعدائه وأعدائهم انظر إلى الصفوة المؤمنة من جنود طالوت ماذا قالت عندما برزت لجالوت وجنوده ، لقد قالت كما حكى القرآن عنها : ربنا أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فهزموهم بإذن الله

٧٤ - أن من سنن الله في خلقه أنه - سبحانه - جعل الحياة صراعاً دائماً بين الحق والباطل ، ونزاعاً مرصولاً بين الأخيار والأشرار ، ولولا أن الله - تعالى - يدفع بعض الناس الفاسقين ببعض الناس الصالحين لفسدت الأرض ، لأن الفاسقين لو تركوا من غير أن يدافعوا ويقاوموا لنشروا فسوقهم وفجورهم وطغيانهم في الأرض ، ولكنه - سبحانه - أعطى لعباده الصالحين من القوة والثبات ما جعلهم يقاومون الظالمين ، ويعملون على نشر الخير والصلاح بين الناس .

٧٥ - أن القصة الكريمة تصور لنا ما جيل عليه بقو إسرائيل من نقض العهد وكذب في القول ، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ، ومن تطاول على أنبيائهم ، وعصيان لأوامرهم ، واعتراض على توجيهاتهم ، وتفضيل لأجاءه والمال على العقل والعلم ، قالوا : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ، ومن خور عند الابتلاء والاختيار ، وحاس في ساعة السلم ونكوص في ساعة الجدد ، تأمل قوله - تعالى - دفثربوا منه إلا قليلاً منهم . فلما جاززه هو والذين آمنوا معه قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده وبعد هذا الحديث الحكيم عن الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى

وبعد أن شهد الله - تعالى - انبياه محمد - صلى الله عليه وسلم - بأنه من المرسلين الذين أرسلوا لينصروا الحق ، ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور بعد كل ذلك بين الله - تعالى - أن الرسل وإن كانوا قد بعثوا جميعاً لهداية البشر إلا أنهم يتفاضلون فيما بينهم فقال - تعالى - :

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ
 دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ
 وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ
 وَلَكِنْ ائْتَلَفُوا فِيهِمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا
 أَقْتَلْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

الإشارة بتلك في قوله ، تلك الرسل ، إلى جماعة الرسل الذين تقدم ذكرهم في السورة والذين أرسلهم الله - تعالى - لهداية البشر ، وأمرنا - سبحانه - بالإيمان بهم .

أى أولئك الرسل الذين أرسلناهم لهداية الناس ، فضلنا بعضهم على بعض - أى جعلنا لبعضهم مناصب وخصائص وزايالم تتوفر للبعض الآخر .

و ، تلك ، مبدأ ، و ، الرسل ، عطف بيان لتلك . وجملة ، فضلنا ، بعضهم على بعضهم ، هى الخبر . وكانت الإشارة باللفظ الدال على البعيد

ليان هو مكانة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأنهم هم المصطفون
الأخيار .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر التفضيل فقال : « منهم من كلم الله ،
أى منهم من فضله الله بتكليمه إياه ك موسى - عليه السلام - ، فقد وردت
آيات صريحة في ذلك ، منها قوله - تعالى - « وكلم الله موسى تكليماً ، وقوله
- تعالى - « قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ، .
وقوله - تعالى - « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، .

ثم قال - سبحانه - « ورفع بعضهم درجات ، أى : ومنهم من رفعه الله
على غيره من الرسل مراتب سامية ، ومنازل عالية .
قيل كإبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً ، وإدريس الذى رفعه الله مكاناً
علياً ، وداود الذى آتاه الله النبوة والملك .

والذى عليه المحققون من العلماء والمفسرين أن المقصود بقوله - تعالى -
« ورفع بعضهم درجات ، هو سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - لأنه هو
صاحب الدرجات الرفيعة ، والمعجزة الخالدة الباقية إلى يوم القيامة ، والرسالة
العامة الناسخة لكل الرسالات قبلها . . .

وقد صرح صاحب الكشاف بذلك فقال : قوله « ورفع بعضهم
درجات ، أى ومنهم من رفعه الله على سائر الأنبياء ، فكان بعد
تفاوتهم في الفضل أفضل منهم درجات كثيرة . والظاهر أنه أراد محمداً
- صلى الله عليه وسلم - لأنه هو المفضل عليهم ، حيث أوتى ما لم يؤت
أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ألف آية أو أكثر . ولو لم يؤت إلا
القرآن وحده لكفى به فضلاً منيفاً على سائر ما أوتى الأنبياء ، لأنه المعجزة
الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات . وفي هذا الإبهام من تفخيم
فضله وإعلاء قدره ما لا يخفى ، لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذى لا يشبهه ،
والتميز الذى لا يلبس . ويقال للرجل : من فعل هذا ؟ فيقول : أحدكم

أو بعضكم ، يريد به الذي معروف واشتهر بنجوه من الأفعال فيكون أفخم من النصر ببح ، وسئل الحطيمية عن أشعر الناس ، فذكر زهيراً والنابعة ثم قال : ولو شئت لذكرت الثالث ، أراد نفسه ، ولو قال : ولو شئت لفكرت نفسى لم يفخهم أمره ، (١) .

ثم قال - تعالى - : وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس .
البيئات : هى المعجزات الظاهرة البينة . وروح القدس : هو جبريل عليه السلام - والروح هنا بمعنى الملك الخاص . والقدس أصل معناه الطهارة ، وهو يطلق على الطهارة المعنوية وعلى الخلوص والنزاهة . فإضافة روح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة . وقيل القدس اسم الله كالقدوس فإضافة روح إليه إضافة أصلية للتشريف أى روح من ملائكة الله .

والعاقب : وأعطينا عيسى ابن مريم الآيات الباهرات ، والمعجزات الواضحات كإبراهيم الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى ، وإخبار قومه بما يأكلونه ويدخرونه فى بيوتهم ، وفضلا عن هذا فقد قويناه بجبريل - عليه السلام - لأن عيسى - عليه السلام - قد عاش حياته محاربا من أعدائه الرومان ومن قومه الذين أرسل إليهم وهم بنو إسرائيل ، ولم يؤذن له بالقتال ليدافع عن نفسه بل تولى الله - تعالى - الدفاع عنه بجنده الذين من بينهم جبريل عليه السلام - .

قال الزمخشري : فإن قلت لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكور؟ قلت : لما أوتيا من الآيات العظيمة والمعجزات الباهرة . ولقد بين الله وجه التفضيل حيث جعل للتكليم من الفضل وهو آية من الآيات . فلما كان هذان النبيان قد أوتيا ما أوتيا من عظام الآيات ، خصا بالذكور فى باب التفضيل . وهذا دليل بين على أن من زيد تفضيلا بالآيات منهم فقد فضل على غيره . ولما كان نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - هو الذى أوتي منها ما لم يؤت

أحد في كثرتها وعظمتها كان هو المشهود له بإحراز نصبات الفضل غير مدافع .

وقال الإمام القرطبي ما خصه : هذه الآية تثبت التفاضل بين الأنبياء وهناك أحاديث تقول : لا تخيروني على موسى ، ولا تخيروا بين الأنبياء . ولا تفضلوا بين الأنبياء ، أى لا تقولوا فلان خير من فلان ، ولا فلان أفضل من فلان فكيف الجمع ؟ فالجواب أن هذا كان قبل أن يوحى إليه بالترفضيل وقبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم ، وأن القرآن ناسخ للمنع من التفضيل . أو لأن قوله هذا من باب التواضع . أو المراد النهى عن الخوض في ذلك ، لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدل والجدال قد يؤدي إلى أن يذكر بعضهم بما لا ينبغي أن يذكر به ، وقد يؤدي إلى قلة احترامهم . ثم قال . وأحسن من هذا القول قول من قال : إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها ، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطف والمعجزات ، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل ، وإنما تتفاضل بأمور أخرى زائدة عليها ، ولذلك فهم رسل ، وأولوا عزم ، ومنهم من كلمه الله . . . فالقول بتفضيل بعضهم على بعض إنما هو بما منح من الفضائل ، وأعطى من الوسائل . وبذلك تكون قد جمعنا بين الآية والأحاديث من غير التمسك . . .

ثم قال - تعالى - ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

أى : ولو شاء الله - تعالى - ألا يقتل الذين جاؤا بعد كل رسول من الرسل وبعد أن جاءهم الرسل بالبيانات الدالة على الحق ، لو شاء الله ذلك لفعل ، ولكن الله - تعالى - لم يشأ ذلك ، لأنه خالق الناس مختلفين في تقبلهم للحق . فترتب على هذا الاختلاف أن آمن بالحق الذي جاءت به الرسل من فتح له قلبه ، واتجه إليه لإختباره ، وأن كفر به ، من آثر الضلالة على الهداية . واستحبه للعمى على الهدى ، وترتب عليه - أيضاً - أن تقاتل الناس وتحاربوا .

ومفعول المشيئة مجزوف دل عليه جواب الشرط أى لو شاء الله ألا يقتل الذين جاءوا من بعد الرسل ما اقتتلوا .

وقدم - سبحانه - وهو الاقتتال على السبب وهو الاختلاف كما يشهد له قوله ، ولكن اختلفوا . . . ، للتنبية على سوء مغبة الاختلاف ، وللتحذير من الوقوع فيه ، لأن وقوعهم فيه سيؤدى إلى أن يقتل بعضهم بعضاً ، وللإشارة إلى أنه - سبحانه - قادر على إزالة الاقتتال فى ذاته حتى مع وجود أسبابه ، لأنه - تعالى - هو الخالق للأسباب والمسببات وفى قوله ومن بعد ما جاءتهم البينات ، إشارة إلى ما جلبت عليه بعض النفوس من العناد الذى يؤدى إلى التنازع والاختلاف والتقاتل حتى بعد ظهور الحق ، وانكشاف وجه الصواب ، لأن هذه النفوس قد آثرت الهوى على الرشاد ، واتخذت طريق الغنى طريقاً لها .

وفى قوله ، ولكن اختلفوا ، إشارة إلى أنه - سبحانه - لم يشأ أن يزيل القتال الذى حدث بين المقاتلين ، لأن هذا القتال قد نشأ بينهم بسبب اختلافهم ، وسوء اختيارهم ، وعدم استجابتهم للهدايات والتوجيهات والبيانات التى جاءتهم بها الرسل - عليهم السلام - .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ، أى : ولو شاء الله عدم اقتتالهم لأى سبب من الأسباب لما اقتتلوا ، ولكنه - سبحانه - يفعل ما يريد حسب ما تقتضيه حكمته ، وقرآنته مشيئته ، فهو الكبير المنعالم الذى كل شئ عنده بمقدار فالآية الكريمة تبين أن الرسل - عليهم السلام - يتفاضلون فيما بينهم ، وتنهى الناس فى كل زمان ومكان عن الاختلاف والتنازع لأنهما يؤديان إلى أوجع العواقب ، وأسوأ النقااج ثم وجه القرآن نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه ببذل أموالهم فى سبيل الدفاع عن الحق ، حتى يكونوا أهلاً لرضا الله ومثوبته .

يُنَاقِبُهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا

مِمَّا رَزَقْنَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ
وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

الخُلَّةُ : الصداقة والمودة مأخوذة من تخلل الأسرار بين الصديقين ،
وسميت ذلك لأنها تخلل النفس أى تتوسطها ، أو لشدة الحاجة إليها .
ومنه سمى الخليل خليلاً لاحتياج الإنسان إليه .
والشفاعة مأخوذة من الشفع بمعنى الضم ، وتطلق على انضمام شخص
إلى آخر لنفعه أو نصرته ، وأكثر ما تستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة
ومرتبة إلى ما هو دونه .

والمعنى : عليكم أيها المؤمنون أن تنفقوا في وجوه الخير كإعانة
المجاهدين ، ومساعدة الفقراء والباشرين من أموالكم التى رزقكم الله إياها
بفضله وكرمه ، من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا يكون فيه تجارة
ولا مبادعة حتى تقدموا عن طريقها ما تقدمون به أنفسكم ، ولا يكون فيه
صديق يدفع عنكم ، ولا شفيع يشفع لكم فيحط من سيئاتكم إلا أن يأذن
رب العالمين بالشفاعة تفضلاً منه وكرماً .

فالأية الكريمة تحض المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله ، لأنه أعم
عناصر القوة في الأمة ، وأفضل وسيلة لإقامة المجتمع الصالح المتكافل .
والمراد بالإنفاق هنا ما يشمل الفرض والعقل ، والأمر لمطلق الطلاب ،
إلا أن هذا الطلب قد يصل إلى درجة الوجوب إذا تزلت بالأمة شدة ألم
آتت الزكاة عن دفعها .

وقوله : مما رزقناكم ، إشاراً بأن هذا المال الذى بين أيدي الأغنياء
ما هو إلا الرزق رزقهم الله إياه ، ونعمة أنعم بها عليهم ، فمن الواجب عليهم شكرها
بإلا يبخلوا بحوزة منه على الإنفاق في وجوه الخير ، لأن هذا البخل سيعود

عليهم بما يضرهم .

وفي قوله « من قبل أن يأتي يوم . . . الخ ، حث آخر على التعتدل بالإتفاق ، لأنه تذكير للناظر بهذا الوات الذي تنتهى فيه الأعمال . ولا يمكن فيه استدرانك ما قلتم ، ولا تعويض ما ففدوه من طاعت . فكأنه - سبحانه - يقول لهم : نجوا أنفسكم بالمسارعة إلى الإتفاق من قبل أن يأتي يوم لا منجاة فيه إلا بالعمل الصالح الذى قدمتموه .

و « من » فى قوله « مما رزقناكم ، للتبعض . وفى قوله « من قبل » لابتداء الغاية : ومفعول أنفقوا محذوف والتقدير أنفقوا شيئاً مما رزقناكم . والشفاعة المنفية هنا هى التى لا يقبها الله - تعالى - وهى التى لا يأذن بها ، أما شفاعة النبى (صلى الله عليه وسلم) فقد أذن الله له بها وقبلها منه ، وقد وردت أحاديث صحيحة بلغت مبلغ التواتر المعنوى فى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) ستكون له شفاعة فى دفع العذاب عن أقوام من المؤمنين وتخفيفه عن أهل الكبائر من المسلمين ، ومن ذلك ما أخرجه البخارى عن جابر بن عبد الله . أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : أعطيت خمساً لم يعطهن بنى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً . فأما رجل أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى . وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث لى قومه خاصة وبعث لى الناس عامة . ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « والكافرون هم الظالمون ، أى والكافرون الجاحدون لنعمه هم الظالمون لأنفسهم ، لأنهم حالوا بينها وبين الهداية بإيثارهم العاجلة على الآجلة ، والغنى على الرشد ، والشر على الخير ، والبخل على السخاء .

أما المؤمنون فليسوا كذلك لأنهم سلكوا الطريق المستقيم ، وبدلوا الكثير من أموالهم فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وفى إطاعة المحتاجين . وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حضرت المؤمنين على المسارعة فى إتفاق أموالهم فى وجوه الخير من قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه ما كان نافعاً فى الدنياه

من أقوال وأعمال وأنها قد توعدت من يبخل عن الإنفاق في سبيل الله بسوء العاقبة ، لأنه تشبه بالكافرين في بخلهم وإمساكهم عن بذل أموالهم في وجوه الخير .

وبعد أن أمر الله المؤمنين بالإنفاق في وجوه الخير ، وذكرهم بأحوال يوم القيامة ، أتبع ذلك بآية كريمة اشتملت على تمجيده - سبحانه - فبذلت كمال سلطانه ، وشمول علمه . وسابغ نعمه على خلقه . استمع إلى القرآن الكريم وهو يصف لك الخالق - عز وجل - بأكل الصفات وأعظمها فيقول :

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ

لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

قال بعضهم : هذه آية الكرسي أفضل آية في القرآن . ومعنى الفضل أن الثواب على قراءتها أكثر منه على غيرها من الآيات . هذا هو التحقيق في تفضيل بعض آيات القرآن على بعض . وإنما كانت أفضل لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية ما لم يجمعه آية أخرى . جاء في الحديث الشريف عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

قال : اكل شيء سنام وإن سنام القرآن البقرة ، وفيها آية هي سيدة القرآن - أى أفضله - وهي آية الكرسي ، (١) .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر جمل فيها ما فيها من صفات الله الجالية - ونعته السامية . أما الجملة الأولى والثانية فتتمثل في قوله - تعالى - : « لا إله إلا هو الحي القيوم » .

ولفظ الجلالة « الله » ، بقول العلماء : إن أصله إله دخلت عليه أداة التعريف « أل » ، وحذفت الهمزة فصارت الكلمة الله .

قال القرطبي : قوله « الله » هذا الاسم أكبر أسمائه - تعالى - وأجمعها ، حتى قال بعضهم إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره ، ولذلك لم يثن ولم يجمع . فالتة اسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقي ، لا إله إلا هو - سبحانه - (٢) .

ولفظ « إله » ، قالوا إنه من أله فلان ياله أى عبد . فالإله على هذا المعنى هو المعبود ، وقيل هو من أله أى تحير . . . وذلك أن العبد إذا تفكر في صفاته - سبحانه - تحير فيها ؛ ولذا قيل : تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله . . . (٣) .

و « الحي » ، أى الباقي الذى له الحياة الدائمة التى لا فناء لها . لم تحدث له الحياة بعد موت ، ولا يعتره الموت بعد الحياة ، وسائر الأحياء سواء يعترهم الموت والفناء .

و (القيوم) أى : الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم ، والمعطى

(١) حاشية الجمل على الجلائين ج ١ صفحة ٢٠٦ .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ صفحة ١٠٢ .

(٣) مفردات القرآن للراغب الأصفهان صفحة ٣١ .

لحم ما به قوائمهم . وهو مبالغة في القيام . وأصله قيروم - بوزن فيعمل - من قام بالأمر إذا حفظه ودره .

والمعنى : الله - عز وجل - هو الإله الحق المنفرد بالألوهية التي لا يشاركه فيها سواه ، وهو المعبود بحق وكل معبود سواه فهو باطل ، وهو ذو الحياة الكاملة ، وهو الدائم القيام بتدبير شئون الخلق وحياتهم ورعايتهم وإحيائهم وإماتهم . .

والجمله الثالثه قوله - تعالى - (لا تأخذه سنة ولا نوم) وهي جملة سلبية مؤكدة للوصف الإيجابي السابق ، فإن قيامه على كل نفس بما كسبت ، وعلى تدبير شئون خلقه يقتضى ألا تعرض له غفلة ، ولأن السنة والنوم من صفات الحوادث وهو - سبحانه - مخالف لها ،

والسنة : الفتور الذى يكرن فى أول النوم مع بقاء الشعور والإدراك . ويقال له غفوة . يقال : سن الرجل يوسن وسناً وسنة فهو وسن ووسنان إذا نرس والمراد أنه - سبحانه - لا يغفل عن تدبير أمر خلقه أبداً ، ولا يحجب علمه شئ . حجياً قصيراً أو طويلاً ، ولا يدركه ما يدرك الأجسام من الفتور أو النعاس ، أو النوم .

وتقديم السنة على النوم يفيد المبالغة من حيث إن نفي السنة يدل على نفي النوم بالأولى ، فنفيه ثانياً صريحاً يفيد المبالغة لأن عطف الخاص على العام يفيد التوكيد أى لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه نوم .

وفى قوله (لا تأخذه) دلالة على أن النوم قوة قاهرة تأخذ الحيوان أخذاً وقهر الكثير من أجناس المخلوقات قهراً ، ولكنه - سبحانه - وهو القاهر فوق عباده - منزه عن ذلك ، وبرأ من أن يعقره ما يعقرى الحوادث .

وقوله - سبحانه - فى الجملة الرابعة (له ما فى السموات وما فى الأرض) تقرير لا نفراده بالألوهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته ، وتعليل لا تصافه بالقيومية ، لأن من كانت جميع الموجودات ملكا له فهو حقيق بأن يكون قائماً بتدبير أمرها .

والمراد بما فيها ما هو أعم من أجزائهما الداخلة فيهما من الأمور الخارجة عنهما المتمكنة فيهما من العقلاء وغيرهم . فالجملة الكريمة تفيد الملكية المطلقة لرب العالمين لكل ما في هذا الوجود من شمس وقمر وحيوان ونبات وجهاد وغير ذلك من المخلوقات . وصدرت الجملة بالجار والمجرور له ، لإفادة القصر أى ملك السموات والأرض له وحده وليس لأحد سواه شئ معه . والاستفهام في قوله في الجملة الخامسة (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) للذنى والإنكار أى : لا أحد يستطيع أن يشفع عنده - سبحانه - إلا بإذنه ورضاه . قال - تعالى - (وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) .

والمقصود من هذه الجملة - كما يقول الألوسى - بيان كبرياء شأنه - تعالى - ، وأنه لا أحد يساويه أو يدانيه بحيث يستقل أن يدفع ما يريد . دفعا على وجه الشفاعة والاستكانة والخضوع فضلا عن أن يستقل بدفعه عنادا أو مناصبة وعداوة . وفى ذلك تبيس للكفار حيث زعموا أن آلتهم شفعاء لهم عند الله ، (١) .

وقوله - سبحانه - فى الجملة السادسة (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) تأكيد لكمال سلطانه فى هذا الوجود ، وبيان لعموم علمه على كل شئ . والضمير فى (أيديهم) وخلفهم) يعود إلى (ما) فى قوله قبل ذلك (له ما فى السموات وما فى الأرض) وعبر بضمير الذكور العقلاء ، تغليباً لجانبهم على جانب غير العقلاء .

والعلم بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن إحاطة علمه - سبحانه - بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يعرفونه من شئونهم الدنيوية وما لا يعرفونه .

وقوله - تعالى - فى الجملة السابقة (ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء) معطوف على قوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) لأنه مكمل لمعناه -

والمراد بالعلم المعلوم . والإحاطة بالشئ . معناها العلم الكامل به .
 أى : لا يعلمون شيئاً من معلوماته - سبحانه - إلا بالقدر الذى أراد أن
 يعلمهم إياه على أسننة رسله . فهو كقوله - تعالى - (عالم الغيب فلا يظهر
 على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول . . .) .
 فالجملة الكريمة بيان لكمال علم الله - تعالى - ، ولتقصان علم أسواه ،
 إذ أن البشر لم يعطوا من العلم إلا القليل ، وهذا القليل ناقص لأنه ليس علم
 إحاطة واستفراق لكل ما تشتمل عليه جزئيات الشئ . ووجوده وجنسه
 وكيفيته وغرضه المقصود به وبإيجاده ، إذ العلم الكامل بالشئ . لا يكون
 إلا لله رب العالمين .

ثم قال - تعالى - في الجملة الثامنة : « وسع كرسيه السموات والأرض » .
 قال الراغب : الكرسي في تعارف العامة : اسم للشئ الذى يقعد عليه ،
 وهو فى الأصل منسوب إلى الكرسي أى الشئ المجتمع ، ومنه الكراسة لأنها
 تجمع العلم . . . وكل مجتمع من الشئ كرسى . . . (١) .

وللعلماء اتجاهان مشهوران فى تفسير معنى الكرسي فى الجملة الكريمة .
 فالسلف يقولون : إن لله - تعالى - كرسيًا علينا أن نؤمن بوجوده وإن
 كنا لا نعرف حقيقته ، لأن ذلك ليس فى مقدور البشر .
 والخلف يقولون : الكرسي فى الآية كناية عن عظم السلطان ، وفوق
 القدرة ، وسعة العلم ، وكال إحاطة .

ولصاحب الكشف تلخيص حسن لأقوال العلماء فى ذلك ، فقد قال
 - رحمه الله - : وفى قوله « وسع كرسيه » أربعة أوجه : أحدها أن كرسيه
 لم يضق عن السموات والأرض لبطنه وسعته وما هو إلا تصوير لعظمته
 ولا كرسي ثمة ولا قعود ولا قاعد . . .

والثانى : وسع علمه ، وسمى العلم كرسيًا تسمية بمكانه الذى هو كرسي العالم

(١) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصمغانى صفحة ٤٢٨ بتلخيص .

والثالث . وسع ملكه ، تسمية بمكانه الذي هو كرسى الملك .
 والرابع : ما روى أنه خلق كرسيه هو بين يدي العرش دونه السموات
 والأرض ، وهو إلى العرش كأصغر شيء . وعن الحسن الكرسى هو العرش (١) .
 هذا وقد روى المفسرون عن ابن عباس أنه قال : كرسيه علمه ، (٢) .
 ولعل تفسير الكرسى بالعلم كما قال جبر الأمة هو أقرب الأقوال إلى الصواب ،
 لأنه هو المناسب لسياق الآية الكريمة .
 ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالصفتين التاسعة والعاشره فقال
 - تعالى - : « ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم » .
 « يؤوده » معناه يثقله ويشق عليه . يقال آدنى الأمر بمعنى أنقلني وتحملت
 منه المشقة .

و « العلي » هو المتعالى عن الأشباه ، والأنداد ، والأمثال ، والأضداد .
 وعن أمارات النقص ودلالات الحدوث . وقيل هو من العلو الذى هو بمعنى
 القدرة وعلو الشأن . .

والمعنى : ولا يثقله ولا يتعبه حفظ السموات والأرض ورعايتهما ، وهو
 المتعالى عن الأشباه والنظائر ، المسيطر على خلقه ، العظيم فى ذاته وصفاته ،
 فى هاتين الجملتين بيان اعظيم قدرته ، وعظيم رعايته لخلقه ، وتبزيه - سبحانه -
 عن مشابهة الحوادث .

وبعد ، فهذه آية الكرسى التى اشتملت على عشر جمل ، كل جملة منها
 تشمل على وصف أو أكثر من صفات الله الجليلة ، ونعوتة الحميدة ، وألوهيته
 الحقه ، وقدرته اللانهاية ، وعلمه المحيط بكل شيء ، قد أقامت الأدلة الساطعة
 على وحدانية الله - تعالى - ، ووجوب إفراده بالعبادة .
 وقد تكلم العلماء طويلا عن تناسق جملها ، وبلاغتها تراكيبها ، ووجوه

(١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٠١ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٧٦ .

فضلها ومن ذلك قول صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم فضلت هذه الآية على غيرها حتى ورد في فضلها ما ورد ؟ قلت : لما فضلت له سورة الإخلاص من اشتغالها على توحيد الله وتعظيمه وتعجيدته ، وصفاته العظمى ولا مذكور أعظم من رب العزة . فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار ، (١) . ومن الأحاديث التي ساقها الإمام ابن كثير في فضلها ما جاء عن أبي بن كعب أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سأله : « أى آية في كتاب الله أعظم ؟ قال : الله ورسوله أعلم . فرددها مراراً ثم قال : آية الكرسي . فقال له الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « ليهنك العلم أبا المنذر ، » .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : « إن أعظم آية في القرآن هي آية الكرسي ، » .

وروى أن عمر بن الخطاب - رضی الله عنه - خرج ذات يوم على الناس فقال : « أيكم يخبرني بأعظم آية ؟ فقال ابن مسعود على الخبر سقطت . سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : « أعظم آية في القرآن ، الله لا إله إلا هو الحي القيوم . . . الآية ، » (٢) .

وبعد أن ساق سبحانه في آية الكرسي الأدلة الواضحة على وحدانيته وعظمته وتزييه عن صفات الحوادث ، عقب ذلك ببيان أن الدين الحق قد ظهر وتجلي لكل ذى عقل سليم ، وأنه لا يقسر أحد على الدخول فيه ، فقال - تعالى - :

لَا إِكْرَاهَ

فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

الإكراه معناه : حمل الغير على قول أو فعل لا يريد عن طريق التخريف

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٠٣

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٠٤ وما بعدها .

أو التعذيب أو ما يشبه ذلك . والمراد بالدين دين الإسلام والآلاف واللام فيه للعهد .

والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه ، مصدر رشد يرشد ويرشد أى اهتدى . والمراد هنا : الحق والهدى .

والغى ضد الرشد . مصدر من غوى يغوى إذا ضل في معتقد أو رأى ويرى بعض العلماء أن نفي الإكراه هنا خبر في معنى النهى ، أى : لا تكرر وأحداً على الدخول في دين الإسلام فإنه بين واضح في دلائله وبراهينه ، فن هداه الله له ، ونور بصيرته دخل فيه على بصيرة ، ومن أضله وأعمى قلبه لا يفيد الإكراه على الدخول فيه .

وقال بعض العلماء إن الجملة هنا على حالها من الخبرية والمعنى : ليس في الدين - الذى هو تصديق بالقلب ، وإذعان في النفس - إكراه وإجبار من الله - تعالى - لأحد ، لأن مبنى هذا الدين على التمكن والاختيار ، وهو مناط الثواب والعقاب ، ولولا ذلك لما حصل الإبتلاء والاختبار ، وبطل الإمتحان .

أو المعنى : كما يرى بعضهم - إن من الواجب على العاقل بعد ظهور الآيات البينات على أن الإيمان بدين الإسلام حق ورشد . وعلى أن الكفر به غى وضلال ، أن يدخل عن طواعية واختيار في دين الإسلام الذى ارتضاه الله ولا يكرهه على ذلك بل يختاره بدون قسر أو تردد .

فالجملة الأولى وهى قوله - تعالى - : ولا إكراه في الدين : تنفى الإجبار على الدخول في الدين ، لأن هذا الإجبار لا فائدة من ورائه ، إذ التدين لإذعان قلبى ، واتجاه بالنفس والجوارح إلى الله رب العالمين بإرادة حرة مختارة ، فإذا أكره عليه الإنسان إزداد كرهاً له ونفوراً منه . فالإكراه والتدين نقيضان لا يجتمعان ، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر .

والجملة الثانية وهى قوله - تعالى - : قد تبين الرشد من الغى ، بمثابة الجملة لنفي هذا الإكراه على الدخول في الدين ، أى قد ظهر الصريح لذي

عَيْنين ، وانكشف الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، وقامت الأداة
 المعطوفة على أن دين الإسلام هو الدين الحق وغيره من الأديان ضلال وكفران
 وما دام الأمر كذلك فتمد توافرت الأسباب التي تدعو إلى الدخول في دين
 الإسلام ، ومن كفر به بعد ذلك فليحتمل نتيجة كفره ، وسوء عاقبة أمره .
 ثم قال - تعالى - « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك
 بالعروة الوثقى لا انفصام لها » .

الطاغوت : اسم لكل ما يظفي الإنسان ، كالأصنام والأوثان والشيطان
 وكل رأس في الضلال ، وكل ما عبد من دون الله . وهو مأخوذ من طغا
 يظفي - كسمي بسمي - طغيا وطفغاناً . أو من يطغو وطفغوا طغواناً ، إذا
 جاوز الحد وغلا في الكبر وأسرف في المعاصي والفجور .
 والعروة في أصل معناها تطلق على ما يتعلق بالشيء من عراه أي من الجهة
 التي يجب تعلقه منها ، وتجمع على عرا . والعروة من الدلو والدكول
 حقبضه ، ومن الثوب مدخل زره .

والوثقى : مؤنث الإوثق ، وهو الشيء المحكم الموثق . يقال وثق
 بالضم - وثاقة أي : قوى وثبت فهو وثيق أي ثابت محكم .
 والانفصام : الإنكسار ، والفصم كسر الشيء وقطعه .

والمعنى : فمن خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة
 سغير الله ، وآمن بالله - تعالى - إيماناً خالصاً صادقاً ، فقد ثبت أمره واستقام
 على الطريقة المثلى التي لا انقطاع لها ، وأمسك من الدين بأقوى سبب وأحكم
 رباط .

والفاء في قوله « فمن يكفر . . . » ، للانفراج . والسين والتاء في استمسك
 ثلاثاً كيد والغلب . وقوله « فقد استمسك بالعروة الوثقى » فيه - كما يقول
 الزمخشري - تمثيل للمعلوم بالظن والاستدلال بالمخاض المحسوس حتى يتصوره
 السامع كأنما ينظر إليه بعينه ، فيحكم اعتقاده والتيقن به ، وجملة « لا انفصام

لها ، استئناف مقرر لما قبله أو حال من « العروة ، والعامل » استتمسك ، .
ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله « والله سميع عليم ، أى سميع للاقوال ،
وهمسات القلوب ، وخرجات النفوس ، عليم بما يسره الناس وما يعلنونه ،
وسيجازيهم بما يستحقون من ثواب أو عقاب .

قال القرطبي ما ملخصه : قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله - تعالى - « يا أيها
النبي جاهد الكفار والمنافقين . . . » ، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم -
قد أكره العرب على دين الإسلام وقتلتهم ولم يرض منهم إلا الإسلام . وقيل
لأنها ليست بمنسوخة وإنما نزلت في أهل الكتاب خاصة ، وأنهم لا يكرهون
على الإسلام إذا أدوا الجزية . . . والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم
عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمي أيها
العجوز تسلمي ، إن الله بعث محمدا بالحق . قالت أنا عجوز كبيرة والموت
إلى قريب . فقال عمر : اللهم اشهد وتلا : لا إكراه في الدين ، (١) .

والذي تسكن إليه النفس أن هذه الآية محكمة غير منسوخة ، لأن التدين
لا يكون مع الإكراه - كما أشرنا من قبل - ، ولأن الجهاد ما شرع في الإسلام
لإجبار الناس على الدخول في الإسلام إذ لا إسلام مع إجبار ، وإنما شرع
الجهاد لدفع الظلم ، ورد العدوان ، وإعلاء كلمة الله ، والرسول - ﷺ -
ما قاتل العرب ليكرههم على الدخول في الإسلام وإنما قاتلهم لأنهم
بدأوه بالعداوة .

ولأن الروايات في سبب نزول هذه الآية تؤيد أنه لا إكراه في الدين ،
ومن هذه الروايات ما جاء عن ابن عباس أنه قال : نزلت في رجل من الأنصار
من بنى سالم بن عوف يقول له الحسين كأن له ابنان نصرانيان وكان هو
مسلمًا ، فقال للنبي - ﷺ - ألا أستكرهما فإنهما قد أيا إلا النصرانية -
فأنزل الله هذه الآية (٢) وفي رواية أخرى أنه حارب إكراههما على الدخول

(١) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٢٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣١١ .

في الإسلام فاختصموا إلى النبي - ﷺ - فقال الأنصارى : يا رسول الله
 أيدخل بعضى النار وأنا أنظر إليه فهزات الآية .
 ولأن النسخ لا يصر إليه إلا إذا لم يمكن التوفيق بين الآيتين، وهنا يمكن
 التوفيق بأن نقول : إن الآية التى معنا تنفى إكراه الناس على اعتقاد
 ما لا يريدون وآية د. يأياها النبي جاهد الكفار والمنافقين . . . جاءت لحض
 النبي - صلى الله عليه وسلم - وحض أصحابه على قتال الكفار الذين وقفوا
 فى طريق دعوته ، حتى يكفوا عن عدوانهم . وتكون كلمة الله هى العليا .
 ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين ،
 فقال - تعالى - :

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ
 أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

الولى : الناصر والمعين والخليف . ما خرد من الولاية بمعنى النصرة .
 والمعنى : الله الذى بيده ملكوت كل شىء . ، وولى الذين آمنوا ، أى معينهم
 وناصرهم ومتولى أمورهم ، فهو - سبحانه - الذى يخرجهم من ظلمات الكفر،
 ومن ضلالات الشرك والفسوق والعصيان إلى نور الحق والهداية والتحرر
 من الأوهام . أما الذين كفروا فأولياؤهم ونصراؤهم الطاغوت الذى يتمثل
 فى الشياطين والأصنام والأوهام الموروثة ، والكبراء المضلين ، وهؤلاء
 يخرجونهم بسبب انطماس بصيرتهم ، وانتكاسهم فى المعاصى من نور الإيمان
 والهداية إلى ظلمات الكفر والضلالة . أو أئمة الموصرفون بتلك الصفات
 القبيحة أصحاب النار هم فيها خالدون خلودا مؤبدا .

وأفرد - سبحانه - النور وجمع الظلمات ، لأن الحق واحد ، أما الظلمات فقد تعددت فنونها وألوانها وأسبابها . وفي تقديم الذين كفروا ، في قوله :

والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، إشارة إلى أنهم هم الذين ارتضوا أن يكون الطغيان مسيطراً على قلوبهم ، لأن كفرهم بالله - تعالى - هو الذي جعل الشيطان ينفذ إلى أقطار نفوسهم بسهولة ويسر .
وقوله والذين كفروا ، مبتدأ و أولياؤهم ، مبتدأ ثان ، و الطاغوت ، خبره . والجملة خبر المبتدأ الأول .

ولم يقل - سبحانه - والطاغوت ولى الذين كفروا ، للاحتراز عن وضع اسم الطاغوت في مقابل لفظ الجلالة .

فإن قيل : وهل كان الكافرون في نور ثم أخرجوا منه ؟ فالجواب أن المراد يخرجونهم من النور القطري الذي جعل عليه الناس كافة ، أو من نور الحجج الواضحات التي من شأنها أن تحمل كل عاقل من الدخول في الإسلام . وقيل المراد هؤلاء المخرجين من النور إلى الظلمات أولئك الذين آمنوا بالنبي (ﷺ) قبل بعثته ثم كفروا به بعدها . والإشارة في قوله ، أولئك ، تعود إلى الذين كفروا . وفي التعبير ، بأصحاب النار ، إشاراً بأنهم ملازمون لها كما يلزم إنالك ما يملكه والرفيق رفيقه . وقوله ، هم فيها خالدون ، تأكيد لبقائهم فيها واختصاصهم بها .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد ساقحت أحسن البشارات للمؤمنين ، وأشد العقوبات للكافرين الذين استحبوا العمى على الهدى .

ثم ساق القرآن بعد ذلك بعض الأمثلة للمؤمنين المهتدين ، وللضالين المغرورين .

الَّذِي تَرَى إِلَى اللَّهِ حَاجًّا

إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّيَ الَّذِي

يُنِيءُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِيهِ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي

بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ

لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

• حاج ، أي جادل وخصم . والحاجة : الخاصة والمغالبة بالقول .
يقال حاججته فحججته أي خاصمته بالثـول فتغلبت عليه . وتستعمل
الحاجة كثيرأ في الخاصة بالباطل ، ومن ذلك قوله - تعالى - « فإن حاجوك
فقل أسئلت وجهي لله ومن آتبعن . . . » وقوله - تعالى - : « وحاجه قومه
قال أتجاجون في الله وقد هدان . . . » .

والمعنى : لقد علمت أيها العاقل قصة ذلك الكافر المفلور الذي جادل
إبراهيم - عليه السلام - في شأن خالقه . عز وجل - ، ومن لم يعلم قصته
فها نحن أولاً . نخبره بها عن طريق هذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه .

والاستفهام للتعجب من شأن هذا الكافر وما صار إليه أمر غروره
وبطوره ، والمراد به - كما قال ابن كثير - عمرو بن كنعان بن كوز بن سام
ابن نوح ملك بابل ، وكان معاصراً لسيدنا إبراهيم - عليه السلام - .

وأطلق القرآن على ما دار بين هذا الملك المفلور وبين سيدنا إبراهيم
أنها حجة مع أنها مجادلة بالباطل من هذا الملك ، أطلق ذلك من باب الممانعة
اللفظية ، أو هي حجة في نظره السقيم ، ورأيه الباطل .

والضمير في قوله « في ربه » يعود إلى إبراهيم - عليه السلام - . وقيل
يعود إلى عمرو لأنه هو المتحدث عنه فالضمير يعود إليه والإضافة - على

الرأى الأول - للتشريف ، وللإيدان من أول الأمر بأن الله تعالى - مؤيد وناصر لعبد الله إبراهيم . وقوله « أن آتاه الله الملك ، بيان لسبب إقدام هذا الملك على ما أقدم عليه من ضلال وطمعان . أى سبب هذه المحاجة لأنه أعطاه الله - تعالى - الملك فيطر وث-كبر ولم يشكره - سبحانه - على هذه النعمة ، بل استعملها في غير ما خلقت له فقوله « أن آتاه ، مفعول لأجله ، والكلام على تقدير حذف الجر ، وهو مطرد الحذف مع أن وأن . وقوله « إذ قال إبراهيم ربي الذى يحى ويميت ، حكاية لما قاله إبراهيم عليه السلام لذلك الملك فى مقام التذليل على وحدانية الله وأنه - سبحانه - هو المستحق للعبادة أى قال له : ربي وحده هو الذى ينشئ الحياة ويوجدتها ، ويميت الأرواح ويفقدتها حياتها ، ولا يوجد أحد سواه يستطيع أن يفعل ذلك . وقول إبراهيم - كما حكاها القرآن - : « ربي الذى يحى ويميت ، مفيد للقصر عن طريق تعريف المبتدأ وهو ربي ، والخبر هو الموصول وصلته . وعبر بالمضارع فى قوله « يحى ويميت ، لإفادة معنى التجدد والحدوث الذى يرى ويحس بين وقت وآخر .

أى ربي هو الذى يحى الناس ويميتهم كما ترى ذلك مشاهداً فى كثير من الأوقات ، فمن الواجب عليك أن تخصه بالعبادة والخضوع وأن تفلح عما أنت فيه من كفر وطمعان وضلال .

وقوله « إذ قال إبراهيم . . . ، ظرف لقوله « حاج ، أو بدل اشتمال منه ، وفى هذا القول الذى حكاها القرآن عن إبراهيم - عليه السلام - أوضح حجة وأفراها على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة ، لأن كل عاقل يدرك أن الحق هو الذى يملك الإحياء والإماتة ، ويملك يعث الناس يوم القيامة ليحاسبهم على أعمالهم وهو أمر ينكره ذلك الملك الكافر .

قال الإمام الرازى مالمخصه : والظاهر أن قول إبراهيم ربي الذى يحى ويميت ، جواب شرط لسؤال سابق غير مذكور . وذلك لأنه من المعلوم أن الأنبياء بمشوا للدعوة إلى الله ، ومتى ادعى الرسول الرسالة فإن المنكر يطالبه بإثبات أن للعالم لهأ . فالظاهر هنا أن إبراهيم ادعى الرسالة فقال له نمرود :

من ربك؟ فقال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت، إلا أن تلك المقدمة حذفت لأن الواقعة تقل عليها، ودليل إبراهيم في غاية الصحة لأن الخلق عاجزون عن الإحياء والإماتة، وقدم ذكر الحياة على الموت هنا، لأن من شأن الدليل أن يكون في غاية الوضوح والقوة، ولا شك أن عجائب الخاتمة حال الحياة أكثر، وإطلاع الإنسان عليها أتم، فلا جرم وجب تقديم الحياة هاهنا في الذكر، (١).
ثم حكى القرآن جواب نمرود على إبراهيم فقال: «قال أنا حي وأميت، أي قال ذلك الطاغية: إذا كنت إبراهيم تدعى أن ربك وحده الذي يحيي ويميت فأنا أعارضك في ذلك لأنني أنا - أيضاً حي وأميت وما دام الأمر كذلك فأنا مستحق للربوبية. قالوا: ويقصد بقوله هذا أنه يستطيع أن يعفو عن حكم بقتله، ويقتل من شاء أن يقتله.

واقدم كان في استطاعة إبراهيم - عليه السلام - أن يبطل قوله، بأن يبين له بأن ما يدعيه ليس من الأحياء والأمانة المقصدين بالاحتياج، لأن ما قصده إبراهيم هو إنشاء الحياة وإنشاء الموت، كان في استطاعة الخليل - عليه السلام - أن يفعل ذلك، ولكنه آثر ترك فتح باب الجسدال والمحاورة، وأناه بحجة في الإفحام فقال له - كما حكى القرآن - : «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب» .

أي قال إبراهيم لخصمه المفسور: لقد زعمت أنك تملك الإحياء والإماتة كما يملك الله - تعالى - ذلك، ومن شأن هذا الزعم أن يجعلك مشاركا لله - تعالى - في قدرته، فإن كان ذلك صحيحاً فأنت ترى وغيرك يرى أن الله - تعالى - يأتي بالشمس من جهة المشرق عند شروقها، فأت بها أنت من جهة المغرب في هذا الوقت فإذا كانت نتيجة هذه الحججة الدامغة أنني قد فهم إبراهيم - عليه السلام - في وجه خصمه؟ كانت نتيجتها - كما حكى القرآن -

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٢٥ طبعة عبد الرحمن محمد .

« فهبت الذي كفر ، أى : غلب وقهر ، وتحير وانقطع عن - حاجه ، واضطرب ولم يستطع أن يتسكلم ، لأنه فوجى . بما لا يملك دفعه . ودهبت . فعل ماض جاء على صورة الفعل المبني للمجهول - كزهى وزكم - والمعنى فيه على البناء للفاعل . وقوله « الذي كفر ، هو فاعله . والهبت : الانقطاع والخيرة ، وقرى . بوزن - علم ونصر وكرم .

والفأ . فى قوله : « فإن الله يأتى بالشمس . . . الخ ، فصيحة لأنها أفصحت عن جواب لشرط مقدر أى إن كنت كما تزعم أنك تحي وتميت . وأن قدرتك كقدرة الله ، فإن الله ، - تعالى - يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب .

وعبر عن هذا الميموت بقوله : « الذي كفر ، للإشعار بأر سبب - حيرته واضطرابه هو كفره وعتاده .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « والله لا يهدى القوم الظالمين ، أى لا يهديهم إلى طريق الحق ، ولا يلمهم حجه ولا يبرهاناً ، بسبب ظلمهم ، وطغيانهم ، وإيثارهم طريق الشيطان على طريق الرحمن .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد حكمت للناس لوناً من ألوان رهاية - الله لأولياته ، وخذلانه لأعدائه ، لكي يكون فى ذلك عبرة وعظة - لقوم يعقلون :

ثم سافت السورة الكريمة قصتين تدلان أبغ دلالة على قدرة الله - تعالى - وعلى صحة البعث والنشور ، استمع إلى القرآن وهو يحكى - هاتين القصتين بأسلوبه البليغ فيقول :

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى
 عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ
 بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ
 مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ
 وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا
 لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ
 قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ
 بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ
 ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ
 أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

قال الألوسي ما ملخصه : قوله « أو كالذي مر على قرية » معطوف على
 سابقه - وهو قوله : « ألم تر إلى الذي حاج ، والكاف اسمية بمعنى مثل معمولته
 لأرأيت محذوفاً . أمي أو أرايت مثل الذي مر على قرية .. وحذف للدلالة « ألم
 تر ، عليه . وقيل : أن الكاف زائدة والتقدير : ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم
 أو الذي مر على قرية .. ، وقيل : إن العطف هنا محمول على المعنى كأنه قيل :
 أرايت شيئاً عجيباً - كالذي حاج إبراهيم في ربه ، أو كالذي مر على قرية ، (١)
 والذي مر على قرية ، قيل هو عزيز بن شريح ، وقيل حزقيال بن بوزي .

وقيل غير ذلك ، والقريّة قيل المراد بها بيت المقدس وكان قد خربها ، بمختصر ،
 البالي . . والقرآن الكريم لهم يتحدّد الأشخاص والأماكن لأنه يقصد العبرة
 وبيان الحال والشأن . وجملته وهى خاوية على عروشها ، فى موضع الحال من
 الضمير المستتر فى مره ، والواو رابطة بين الجملة الحالية وبين صاحبها والإتيان
 بها واجب لخلو الجملة من ضمير يعود على صاحبها . وقيل هى حال من قرية ،
 وسوغ إتيان الحال منها مع كونها توكّرة وقوعها بعد الاستفهام المقدر وهو أرايت
 ومعنى وهى خاوية على عروشها ، أن جدرانها ساقطة على سقوفها ، أى أن الخراب
 قد عمها والدمار قد فزل بها ، فأصبحت خالية من أهلها ، وفارغة من كان يعمرها
 وأصل الخواء الخلو . يقال خوت الدار وخربت تخوى خواء . إذا سقطت وخلت
 والعروش جمع عرش وهو سقف البيت ، ويسمى العريش ، وكل شىء
 يهياً ليل أو يكن فهو عريش وعرش .

وقوله - تعالى - د قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، حكاية لما قاله
 ذلك الذى مر على تلك القرية ورأى فيها مارأى من مظاهر الخراب والدمار
 والمعنى : أرايت مثل الذى مر على قرية وهى ساقطة حيطانها على سقوفها ،
 وفارغة من كان يسكنها ، فماله أمرها ، وراعها ، وقال على سبيل للمعجب
 كيف يحيى الله هذه القرية بعد موتها ، بأن يمد إليها العمران بعد الخراب ،
 ويجعلها عامرة بسكانها الذين خلعت منهم . فقوله د أنى يحيى هذه ، بمعنى
 كيف فتكون منصوبة على الحالية من اسم الإشارة ويجوز أن تكون دأنى ،
 هنا بمعنى متى أى يحيى الله هذه القرية بعد موتها فتكون منصوبة على الظرفية .
 وقال القرطبي : قوله د أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، معناه من أى
 طريق وأى سبب ، وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان ،
 كما يقال الآن فى المدن الخربة يبعد أن تعمر وتسكن أى : أنى تعمر هذه بعد
 خرابها . فكان هذا تلف من الواقع المعتبر على مدبته التى عهد فيها أهله
 وأحبته . . . (١) .

وقوله هذا إنما هو تساؤل عن كيفية الإهادة ، لا عن أصل الإهادة ، لأنه كان مؤمناً بالبعث والنشور ، إلا أنه لما رأى حال القرية على تلك الصورة من الخراب تعجب من قدرة الله على إحيائها ، وتشوق إلى عمارتها ، واعترف بالعجز عن معرفة طريق الإحياء . فإذا كانت نتيجة هذا التساؤل ؟ كانت نتيجته كما حكاه القرآن : « فأمانه الله مائة عام ثم بعثه ، قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم . » .

أى : بعد أن قال هذا الذى مر على تلك القرية النخاوية على عروشها ما قال ، ألبتة الله - تعالى - فى الموت مائة عام ثم بعثه ، أى أحياه ببعث روحه إلى بدنه ، قال كم لبثت ، أى كم مدة من الزمان لبثتها على هذه الحال ؟ « قال لبثت يوماً أو بعض يوم . » .

وقال - سبحانه - « فأمانه الله مائة عام ثم بعثه ، ولم يقل ثم أحياه ، للدلالة على أنه عاد كهيئته يوم مات عاقلاً فاهماً مستعداً للنظر والاستدلال وكان ذلك بعد عمارة القرية ، وللإشعار بسرعه وسهولة تأتية على البارئى - سبحانه - .

قال ابن كثير : كان أول شيء أحيأ الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه ، فلما استقل سوياً قال الله له بواسطة الملك « كم لبثت ؟ » (قال لبثت يوماً أو بعض يوم) وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله فى آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال : « أو بعض يوم » (١) .

وقوله قال : « كم لبثت » استئناف مبعث على سؤال كأنه قيل : فإذا قال له بعد بعثته ؟ فقيل : قال كم لبثت ليظهر له العجز عن الإحاطة بشئون الله - تعالى - على أتم وجه ، وتنجس مادة استبعادها بالمرءة .

وكم منصوبة على الظرفية وبمبها محذوف والتقدير كم يوماً أو وقتاً والناصب . لها قوله (لبثت) .

وفي هذه الجملة الكريمة بيان للناس بأن الموت يشبه النوم ، وأن البعث يشبه اليقظ ، بعده ، وأنه لا شيء محال على الله - تعالى - فهو القاتل : (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) .

وفي الحديث الشريف : والله لتموتن كما تنامون وتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبدأ ، أو لنار أبدأ .

وقوله - تعالى - (قال بل لبثت مائة عام) معطوف على مقدر ، أى : ليس الأمر كما قلت إنك لبثت يوماً أو بعض يوم بل إنك لبثت مائة عام ثم أُرشد - سبحانه - إلى التأمل فأور فيها أبلغ دلالة على قدرة الله تعالى وعلى صحة البعث فقال - سبحانه - (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك وانجملك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً) . قوله : (لم يتسنه) أى لم يتغير بمرور السنين الطويلة ، ولم تذهب طراوته فكأنه لم يمر عليه السنون ولفظ يتسنه : مشتق من السنة ، والهاء فيه أصلية إذا قدر لام سنة هاء ، وأصلها سنه لتصغيرها على سنهية وجمعها على سنهات كسجدة وسجدات ، ولفظهم : سانهته إذا عاملته سنة فسنة ، وتسنه عند القوم إذا أقام فيهم سنة . أو الهاء فيه لورثف نحو كتابيه ، وجزمه بحذف حرف العلة إذا قدر لام سنة واو ، وأصلها سنوه لتصغيرها على سنهية وجمعها على سنوات . وقوله (ننشزها) أى نرفعها . يقال : أنشز الشيء إذا رفعه من مكانه . وأصله من النشز - بفتحين وبالسكون - وهو الممكان المرتفع . وقرى - (فنشزها) - بضم النون والراء - أى نحيبها ، من أنشز الله الموتى أى أحياهم .

والمعنى : قال الله - تعالى - لهذا الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها

لأنك لم تلبث يوماً أو بعض يوم في الموت كما تظن ، بل لبثت مائة عام . فإن كنت في شك من ذلك فانظر إلى طعامك وشرابك لتشاهد أمراً آخر من دلائل قدرتنا ، فإن هذا الطعام والشراب كما ترى لم يتغير بمرور السنين وكرر الأعوام بل بقي على حالته . وانظر إلى حمارك كيف نخرت عظامه ، وتفرقت أو سألته ، مما يشهد بأنه قد مرت عليه السنوات الطويلة .

وقوله : « ولنجعلك آية للناس » معطوف على محذوف متعلق بفعل مقدر قبله بطريق الاستئناف مقرر لمضمون ما سبق ، والتقدير : فعلنا ما فعلنا لنترى وتشاهد بنفسك عظامه قدرة الله ، ولنجعلك آية معجزة ودليلاً على صحة البعث . وقوله : « وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً ، أى انظر وقامل في هذه العظام كيف تركيب بعضها في بعض بعد أن نوجدتها .

وقيل المعنى : وانظر إلى العظام أى عظام حمارك التى تفرقت وتناثرت لتشاهد كيف زفعتها من الأرض ففردتها إلى أما كهها في جسده .

قال ابن كثير : قال السدى وغيره : تفرقت عظام حماره يمينا وشمالاً حوله فنظر إليها وهى تلوح من بياضها ، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع ، ثم ركب كل عظام في موضعه ، وذلك كله بمرأى من العزيز ، (١) .

وجاء الضمير في قوله : « لم يتسنه » بالإفراد مع أن المتقدم طعام وشراب ، لأنهما متلازمان بمعنى أن أحدهما لا يكتبى به عن الآخر فصاروا بمنزلة شىء واحد ، فكأنه قال : انظر إلى غذائك .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ، أى : فلما تبين له بالأدلة الناصحة ، وبالمشاهدة الحسية قدرة الله - تعالى - على الإحياء والإماتة ، وعلى البعث والنشور قال أعلم أى أستيقن وأؤمن وأعتقد أن الله - تعالى - على كل شىء قدير ، وأنه - سبحانه - لا يعجزه شىء
والفاء في قوله (فلما تبين له . . .) عاطفة على مقدر يستدعيه المقام فكأنه قيل :

رفع الله العظام من أممائها وأكسماها فلما تبين له ذلك وتيقنه قال أعلم أن الله على كل شيء قدير . وفاعل (تبين) مضمرة يفسره سياق الكلام والتقدير: فلما تبين له كيفية الإحياء أو فلما تبين له ما أشكل عليه من أمر إحياء الموتى قال أعلم أن الله على كل شيء قدير .

تلك هي القصة الأولى التي ساقها الله - تعالى كدليل على قدرته وعلى صحة البعث والنشور . أما القصة الثانية التي تؤكد هذا المعنى فقد حكاها القرآن في قوله : (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى) أي: واذكر أيها العاقل لتعتبر وتتعظ وقت أن قال إبراهيم - عليه السلام - مخاطباً خالقه - سبحانه - : رب أرني بعيني كيف تعيد الحياة إلى الموتى .

وفي قوله (رب) تصريح بكمال أدبه مع خالقه - عز وجل - فهو قبل أن يدعوه يستعطفه ويعترف له بالربوبية الحقة ، والألوهية التامة ، ويلتمس منه معرفة كيفية إحياء الموتى ، فهو لا يشك في قدرة الله ولا في صحة البعث - وحاشاه أن يفعل ذلك - فهو رسول من أولى العزم من الرسل ، وإنما هو يريد أن ينتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين ، ومن مرتبة البرهان إلى مرتبة العيان ، فإن العيان يغرس في القلب أسمى وأقوى ألوان المعرفة والاطمئنان .

وقد ذكر المفسرون سؤال إبراهيم - عليه السلام - أسباباً منها: أنه لما قال النمرود (زني الذي يحيي ويميت) أحب أن يترقى بأن يرى ذلك مشاهدة . وقد أجاب الخالق - عز وجل - على طلب إبراهيم بقوله : (أو لم تؤمن) أي: أتقول ذلك وتطلبه ولم تؤمن بأني قادر على الإحياء وعلى كل شيء ؟

فالجملة الكريمة استئناف مبنية على السؤال ، وهي معطوفة على مقدرها والاستفهام للتقرير . وهنا يحكي القرآن جواب إبراهيم على خالقه - عز وجل - فيقول : وقال بلى ولكن ليطمئن قلبي . أي قال إبراهيم في الرد على سؤال ربه امر

(أو لم تؤمن)؟ بلى يارب آمنت بك وبقدرتك وبوحدانيتك إيماناً صادقاً كاملاً، ولكنني سألت هذا السؤال ليزداد قلبي سكونا واطمئناناً وإيماناً. لأن من شأن المشاهدة أن تغرس في القلب سكونا أعمق، واطمئناناً أشد، وإيماناً أقوى، وأنا في جميع أحوالي مؤمن كل الإيمان بقدرتك ووحدانيتك يارب العالمين.

قال القرطبي ما ملخصه: لم يكن إبراهيم شاكياً لإحياء الله الموتى قط وإنما طلب المعانيمة، وذلك أن النفوس مستشرفة إلى رؤية ما أخبرت به، ولهذا جاء في الحديث (ليس الخبر كالمعاينة). قال الأخصس: لم يرد إبراهيم رؤية القلب وإنما أراد رؤية العين. وقال الحسين: سألت ليزداد يقيننا إلى يقينه.

وأما قول الرسول ﷺ: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» فمعناه أنه لو كان شاكياً لكننا نحن أحق بالشك منه، ونحن لا نشك في إبراهيم - عليه السلام - أحرى ألا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم. وإذا تأملت سؤاله - عليه السلام - وسائر الفاظه الآتية لم تعط شكاً، وذلك أن الاستفهام بكيف إنما هو سؤال عن حالة شيء موجود متقرر الوجود عند السائل والمستقر، وكيف هنا إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء والإحياء متقرر، - فسؤال إبراهيم إنما هو عن الكيفية لا عن أصل القضية... (١). وقال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قال له «أو لم تؤمن»، وقد علم أنه أنبت الناس إيماناً؟ قلت: ليجيب بما أجاب به لما فيه من الفائدة الجميلة للسامعين. و«بلى» لإيجاب لما بعد النفي معناه: بلى آمنت. وقوله «ولكن ليطمئن قلبي»، أي ليزداد سكونا وطمأنينة بمضامة علم الضرورة - أي علم المشاهدة - إلى علم الاستدلال يجوز معه التشكيك بخلاف العلم الضروري، فأراد بطمأنينة القلب العلم الذي لا مجال فيه للتشكيك. فإن قلت: بم تعلق

اللام في قوله « ليطمئن » قلت بمحذوف تقديره : ولاكن سألت ذلك إرادة طمأنينة القلب ، (١) .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كان من جواب الخالق - عز وجل - على نبيه إبراهيم فقال : « قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا » .

قوله (فصرهن إليك) أى فاضممن إليك - قرئ بهضم الصاد وكسرها وتخفيف الراء - يقال : صاره بصوره وبصيره ، أى أماله وضمه إليه . ويقال - أيضاً صار الشيء بمعنى قطعه وفصله والمعنى : قال الله - تعالى - لإبراهيم : إذا أردت معرفة ما سألت عنه فخذ أربعة من الطير فاضممن إليك لتأملن وتعرف أشكالهن وهياتهن كيلا تلتبس عليك بعد الإحياء ، ثم اذبحهن وجزهن أجزاء (ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً) أى ثم اجعل على كل مكان مرتفع من الأرض جزءاً من كل طائر من تلك الطيور ثم نادهن يأتينك مسرعات إليك . والفاء في قوله (فخذ) هى التى تسمى بالفاء الفصيحة لأنها تفصح عن شرط مقدر أى : إذا أردت ذلك فخذ . .

وقوله (من الطير) متعلق بمحذوف صفة لأربعة أى فخذ أربعة كأنه من الطير ، أو متعلق بقوله (خذ) أى خذ من الطير . والطير اسم جمع - كركب وسفر - وقيل هو جمع طائر مثل ناجر وتجر . قالوا : وهذه الطيور الأربعة هى الطاووس والنسر والغراب والديك .

ومما قالوه في اختيار الطير لهذه الحالة : أن الطير من صفاته الطيران ، وأنه لا يستأنس بالإنسان بل يطير بمجرد رؤيته لسهولة تاقى ما يفعل به من التجزئة والتفرقة .

وقوله « ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً » معطوف على محذوف دل

عليه قوله ، جزءاً ، لأن تجزئتمهن إنما تقع بعد الذبح والتقدير : فاذبحهن ثم
 تأجل . الخ . وقوله ، ثم ادعهن ، أى قل لهن تعالين بإذن الله .
 وقوله (يا أيها الذين آمنوا) جواب الأمر فهو في محل جزم ، (سعيأ) منصوب
 على المصدر النوعى ، لأن السمى نوع من الإتيان فكأنه قيل : يا أيها الذين آمنوا
 إتياناً سريعاً :

قال الفخر الرازى : أجمع أهل التفسير على أن المراد بالآية : قطعهم ،
 وأن إبراهيم قطع أعضاءها ولحمها وربشها ودماءها وخلط بعضها ببعض . وفعل
 كما أمره الله ، ثم قال لهن تعالين بإذن الله فأقبلن مسرعات إليه بعد أن انضم كل
 جزء إلى أصله . ثم قال : ولكن أباً مسلم أنكر ذلك وقال : إن إبراهيم لما
 طلب إحياء الميت من الله - تعالى - أراه الله مثالا قرب به الأمر عليه ،
 والمراد به من إتيانك : الإمالة والمغربن على الإجابة . أى : فعود الطيور
 الأربعة أن تصير بحيث إذا دعرتها أجابتك وأتتك ، فإذا صارت كذلك
 تأجل على كل جبل واحداً حال حياته ، ثم ادعهن يا أيها الذين آمنوا ، والغرض
 منه ذكر مثال محسوس في عود الأرواح إلى الأجساد على سبيل
 التسهيل . . . (١) .

والذى يطمئن إليه القلب هو رأى الجمهور لأن الآية مسوقة لتحقيق معجزة
 تجرى على يد إبراهيم وهى إحياء الموتى بالمشاهدة كما جرى لإحياء الرجل
 الذى أماته الله مائة عام والذى جاء ذكره فى الآية السابقة ، ولأن ظاهر
 الآية صريح فى أنه حصل تقطيع لأجزاء الطير ثم وضع كل جزء منها على
 مرتفع من الأرض ، وما دام الأمر كذلك فلا يجوز حمل المعنى على غير
 هذا الظاهر ، كما لا يجوز تحميل الالفاظ ما لا تحتمله . وما ذهب إليه
 أبو مسلم هو قول بلا دليل فضلاً عن مخالفته لما عليه إجماع المفسرين .
 ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله (واعلم أن الله عزيز حكيم) أى واعلم أن

الله - تعالى - غالب على أمره ، قاهر فوق عباده ، حكيم في كل شئونه وأفعاله
وبذلك يرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقنا أدلة والشواهد على قدرة الله
- تعالى - وعلى أنه هو المستحق للعبادة والخضوع ، وعلى أن ما أخبر به من
صححة البعث والنشور حق لا ريب فيه .

ثم حض الله - تعالى - عباده على الإنفاق في سبيله ، ووعدهم على ذلك
بجزيل الثواب ، فقال - تعالى - :

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ
يَضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ ﴿٢٦٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُبَدِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٧﴾

ذكر بعض المفسرين أن هاتين الآيتين نزلتا في صدقة عبد الرحمن بن عوف
وعثمان بن عفان ، وذلك أن رسول الله - ﷺ - لما حث الناس حين أراد
الخروج إلى غزوة تبوك ، جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف درهم فقال : يا رسول
الله كانت لي ثمانية آلاف فأمسكت لنفسي ولعمالي أربعة آلاف ، وأربعة
آلاف أفرضتها لربي ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « بارك الله
لك فيما أمسكت وفيما أعطيت ، . وجاء عثمان بألف دينار في جيش العسرة
فصحبها في حجر الرسول - ﷺ - قال عبد الرحمن بن سمره - راوية
الحديث - فرأيت - صلى الله عليه وسلم - يدخل يده فيها ويقبلها ويقول :

« ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم اللهم لا تنس هذا اليوم لعثمان ، . وقال أبو سعيد الخدري : رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - رافعا يديه يدهو لعثمان ويقول : « يا رب عثمان إني رضيت عن عثمان فأرض عنه ، .

وزول هاتين الآيتين في شأن صدقة هذين الصحابييين الجليلين لا يمنع من شمولهما لكل من نهج نهجهما ، وبذل من ماله في سبيله الله .

و « المثل ، الشبهه والنظير . ثم أطلق على القول السائر المعروف بالماثلة مضربه لمورده الذي ورد فيه أولا . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة ، وعلى هذا المعنى يحمل المثل في هذه الآية .

و « الحبة ، كما يقول القرطبي - اسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتماته ، وأشهر ذلك البر فكثر ما يراد بالحب .

وسنبلة - بوزن فنعلة - من أسبل الزرع إذا صار فيه السنبل ، أى استقر السنبل كما يستقر السقر بالاسبال . وقيل : معناه صار فيه حب مستورا كما يستقر الشيء بالاسبال السقر عليه . والجمع سنابل .

والمعنى : مثل صدقة الذين يتفقون أموالهم في سبيل الله ، أى : فى طاعته ، كمثل حبة أقيت فى أرض طيبة ، أصابها الفيث ، فخرجت الحبة على هيئة زرع قوى جميل فأنبثت فى الوقت المناسب لإنباتها سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة .

فأنت ترى أن الخائق - عز وجل - قد شبه حال الصدقة التى يبذلها المؤمن فى سبيل الله فيكافئه الله - تعالى - عليها بالثواب العظيم ، بحال الحبة التى تلقى فى الأرض النقية فتخرج عودا مستويا قائما قد تشعب إلى سبع شعب ، فى كل شعبة سنبله ، وفى كل سنبله مائة حبة . وفى هذا التشبيه ما فيه من الحض على الإنفاق فى وجوه الخير ، ومن الغرغيب فى فعل البر ولا سيما النفقة فى الجهاد فى سبيل الله .

قال ابن كثير : وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة .
فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينمها الله - تعالى - لأصحابها كما
ينمى الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ، (١) .

وقال - سبحانه - ، « كمثل حبة أنبتت ، فأسند الإنبات إلى الحبة ، مع أن
المنبت في الحقيقة هو الله ، وذلك لأنها سبب لوجود تلك السنابل المليئة
بالحببات ، ولأنها هي الأصل لما تولد عنها .

ثم قال - تعالى - ، « والله يضاعف لمن يشاء ، أى والله - تعالى -
يضاعف الثواب والجزاء أضعافاً كثيرة لمن يشاء من عبادته ، فيعطى
بعضهم سبعمائة ضعف ، ويعطى بعضهم أكثر من ذلك ، لأن الصدقة يختلف
ثوابها باختلاف حال المتصدق ، فتمنى خرجت منه بنية خالصة ، وقلب سليم ،
ونفس صافية ، ومن مال حلال ، ووضعت في موضعها المناسب ، متى كانت
كذلك كان الجزاء عليها أوفر ، والمضاعفة لها تزيد على سبعمائة ضعف ،
إذ عطاء الله لمن يشاء من عبادته ليس له حدود ، وثوابه ليس له حساب
معدود .

ولذا ختم - سبحانه - الآية بقوله : « والله واسع عليم ، أى والله - تعالى -
عطاؤه واسع ، وجوده عميم ، وفضله كبير ، وهو - تعالى - عليم بنيات عبادته
وبأقوالهم وبأفعالهم وبسائر شئونهم ، فيجازى كل إنسان على حسب
نيتة وعمله .

وقوله - تعالى - : « الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، استئناف جى به
لبیان كيفية الإنفاق الذي يحبه الله ، ويجازى عليه المنفقين بالجزاء العظيم .
وقوله « ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، تحذير للمتصدق من هاتين
الصفيتين الذميتين لأنهم : ميطلمتان لثواب الصدقة .

والمن معناه : أن يتناول المحسن يا حسانه على من أحسن إليه ، ويتفاخر

عليه بسبب ما أعطاه من عطايا . كأن يقول على سبيل التفاخر والتعبير :
لقد أحسنت إليك وأنقذتك من الفقر وما يشبه ذلك .

قال الإمام الرازي ما ملخصه : والمن في اللغة على وجوه : فقد
يأتي بمعنى الإنعام . يقال : قد من الله على فلان . إذا أنعم عليه
بنعمة . وقد يأتي بمعنى النقص من الحق والبخس له . قال - تعالى -
« وإن لك لأجر غير ممنون » أي غير مقطوع وغير ممنوع ومنه سمي الموت
منونا لأنه يقطع الأعمار ، ومن هذا الباب المنة المذمومة لأنها تنقص النعمة
وتكدرها ، والعرب يمتدحون بترك المن بالنعمة .

والمراد بالمن في الآية المن المذموم الذي هو بمعنى إظهار الاصطناع

لهم ، (١) .

وقال صاحب الكشاف : المن : أن يعتد على من أحسن إليه بإحسانه ،
ويريه أنه اصطنعه وأوجب عليه حقاله ، وكانوا يقولون : إذا صنعتهم صنيعة
فانسوها . ولبعضهم .

وإن أمراً أسدى إلى صنيعة وذكرنيها إنه للثيم .

وفي نوابغ الكلم : صنوان : من منح سائله ومن ، ومن منح فائله وضم ، (٢)
والمراد بالأذى في الآية : أن يقول المعطى لمن أعطاه قولاً يؤذيه ، أو يفعل
معه فعلاً يسيء به إليه ، وهو أعم من المن ، إذ المن نوع من الأذى لكنه نص
عليه لكثرة وقوعه .

وجاء العطف بتم في الجملة الكريمة ، لإظهار التفاوت الشديد في الرتبة بين
الإنتفاق الذي يحبه الله ، وبين الإنتفاق الذي يصاحبه المن والأذى ، والإشعار
بأن المن والأذى بغيضين عند الإنتفاق وبعده ، فعلى المثقف أن يستمر في أدبه

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٤٩ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣١١ .

وإخلاصه وقت الإنفاق وبعده حتى لا يذهب ثوابه ، إذ المن والاذى مبطلان
للثواب في أى وقت يحصلان فيه .

قال الشيخ ابن المنير مبيناً أن « ثم » هنا تفيد استمرار الفعل بجانب
إفادتها للتفاوت في الرتبة : وعندى فيها - أى فى ثم - وجه آخر محتمل
فى هذه الآية ونحوها . وهو الدلالة على دوام الفعل المعطوف بها وإرخاء
الطول فى استصحابه . فهى على هذا لم تخرج عن الإشعار ببعده للزمن ، ولكن
معناها الأصيلى تراخى زمن وقوع الفعل وحدوثه ، ومعناها المستعار لإليه دوام
وجود الفعل وتراخى زمن بقائه . وعليه حمل قوله - « ان الذين قالوا
ربنا الله ثم استقاموا » أى : داوموا على هذه الاستقامة دواماً متراخياً تمتد
الأمدا . . . وكذلك قوله هنا « ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، أى
يدومون على تناسى الإحسان وعلى ترك الاعتداد به والامتنان
والأذى . . . » (١)

وكرر - سبحانه - النفي فى قوله « ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى »
لثبات كيدته وشموله لأفراد كل واحد منهما ، أى يجب ألا يقع منهم أى نوع
من أنواع المن ولا أى نوع من أنواع الأذى . حتى لقد قال بعض الصالحين :
« إن ظننت أن سلامك يشغل على من أنفقت عليه بنفقة تبغى بها وجه الله ،
فلا تسلم عليه » .

ثم ختم - سبحانه - الآية ببيان عاقبة المنفقين بلا من ولا أذى فقال : لهم
أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أى : لهم جزاؤهم العظيم
مكافأة لهم على أديهم وإخلاصهم ، عند ربهم ومالك أمرهم ، ولا خوف
عليهم بما سيحدثونه فى مستقبلهم ، ولا هم يحزنون . على ما ضيهم ، وذلك
لأن الله - تعالى - قد أحاطهم برعايته فى دنياهم وأخراهم وعوضهم عما فارقوه
خير عوض وأكرمه .

(١) حاشية تفسير الكشاف ج ١ ص ٣١١ للشيخ أحمد بن المنير .

ثم كرر - سبحانه - التحذير من المن والأذى ، مناديا المؤمنين بأن يجتنبوا في صدقاتهم هاتين الرذيلتين ، مبينا أن الكلمة الطيبة للفقير خير من إعطائه مع إهذائه ، استمع إلى القرآن الكريم وهو يسوق هذه المعاني وغيرها بأسلوبه البليغ المؤثر فيقول :

أَقُولُ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ

خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢١٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُبْطَلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَنُفِلَتْ عَنْهُ كُمُلٌ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَاصَابَهُمْ وَأَبِلُّ فترَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٧﴾

والمعنى : « قول معروف ، بأن نقول للسائل كلاما جميلا طيبا تجر به خاطره ، ويحفظ له كرامته ، ومغفرة ، لما وقع منه من الخفاف في السؤال ، وستر لحاله وصفح عنه ، « خير من صدقة يتبعها أذى ، أى خير من صدقة يتبعها المتصدق أذى للمتصدق عليه .

لأن الكلمة الطيبة للسائل ، والستر عليه ، والعفو عنه فيها صدر منه ، كل ذلك يؤدي إلى رفع الدرجات عند الله ، وإلى تهذيب النفوس ، وتأليف القلوب وحفظ كرامة أولئك الذين مدوا أيديهم بالسؤال . أما الصدقة التي يتبعها الأذى فإن إيتاءها بتلك الطريقة يؤدي إلى ذهاب ثوابها ، وإلى زيادة الآلام عند السائلين ولا سيما الذين يحرصون على حفظ كرامتهم ، وعلى حيافة ما . وجوههم ، فإن ألم الحرمان عند بعض الناس أقل أثرا في نفوسهم

من آلام الصدقة المصحوبة بالأذى ، لأن ألم الحرمان يخفف الصبر الذى وراه الفرج ، أما آلام الصدقة المصحوبة بالأذى لهم فإنها تصيب النفوس الكريمة بالجراح التى من العسير الشفاؤها .

قال القرطبي : روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « الكلمة الطيبة صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » . فعلى المسئول أن يتلقى السائل بالبشر والترحيب ، ويقابله بالطلاق والتقريب ليكون مشكوراً إن أعطى ومعذوراً إن منع . وقد قال بعض الحكماء : « التى صاحب الحاجة بالبشر فإن عذمت شكره لم تعدم عذره » (١) .

وقوله : « قول معروف ، مبتدأ وساغ الابتداء بالنكرة لو صحفها وللعطف عليها . وقوله : « ومغفرة ، عطف عليه وسوغ الابتداء بها العطف أو الصفة المقدرة إذ التقدير ومغفرة للسائل أو من الله وقوله : « خير ، خبر عنهما وقوله : « يتبعها أذى » فى محل جر صفة لصدقة .

ثم حتم الله - تعالى - الآية بقوله : « والله غنى حلیم ، أى والله - تعالى - غنى عن إنفاق المنفقين وصدقات المتصدقين . وإنما أمرم بهما لمصلحة تعود عليهما . أو غنى عن الصدقة المصحوبة بالأذى فلا يقبلها . وحليم ، فلا يعجل بالعقوبة على مستحقها ، فهو - سبحانه - يهمل ولا يهمل .

والجمله الكريمة تذييل لما قبله مشتملة على الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب .

وقوله - تعالى - « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى » . فداء منه - سبحانه - للمؤمنين بكرر فيه نهيهم عن المن والاذى ، لأنهما يؤديان إلى ذهاب الأجر من الله - تعالى - وإلى عدم الشكر من الناس .

ولذا جاء في الحديث الشريف : إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر .
ويمحق الأجر .

ثم أكد - سبحانه - هذا النهي عن المن والأذى بذكر مثابن فقال في أولهما : **« كالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر »** .
والمعنى : **« يامن آمنتم بالله - تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بأن تحبطوا أجرها ، وتحقروا ثمارها ، بسبب المن والأذى ، فيكون مثلكم في هذا الإبطال لصدقاتكم بسبب ما ارتكبتم من آثام ، كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل أن يرى الناس منه ذلك ولا يبغى به رضا الله ولا ثواب الآخرة ، لأنه كفر بالله ، وكفر بحساب الآخرة .**

وفي هذا التشبيه تنفير شديد من المن والأذى لأنه - سبحانه - شبه حال المتصدق المتصف بما في إبطال عمله بسببها بحال هذا المنافق المرائي الذي لا يؤمن بالله واليوم الآخر وقوله **« كالذي... الكاف في محل نصب على أنها نعت وقوله « كالذي... الكاف في محل نصب على أنها نعت لمصدر محذوف أى : لا تبطلوها إبطالا كإبطال الذي ينفق ماله رثاء الناس... أو في محل نصب على الحال من فاعل « تبطلوا ، أى لا تبطلوها مشاهرين الذي ينفق ماله رثاء الناس .**

وقوله **« رثاء »** منصوب على أنه مفعول لأجله أى : **« كالذي ينفق ماله من أجل رثاء الناس .** وأما المثال الثاني فقال - سبحانه - فيه : **« فثله كمثل صفوان عليه .**

وأما المثال الثاني فقال - سبحانه - : **« فثله كمثل صفوان عليه فأصابه وابل فزكه صلداً لا يقدر على شيء مما كسبوا .**

« الصفوان » اسم جنس جمع واحد صفوانة كشجر وشجرة وهو الحجر الكبير الأملس ، مأخوذ من الصفاء وهو خلوص الشيء مما يشوبه .
يقال : **« يوم صفوان أى صافى الشمس . وقبل هو مفرد كحجر . و« الوابل »** المطر الشديد . يقال : **« وبلت السماء قبل وبلا ووبلا . اشتد مطرها . و« الصلدا »**

هو الشيء. الأجرد النقي من التراب الذي كان عليه . ومنه رأس أصلد إذا كان لا ينبت شعراً ، والأصلد الأجرد الذي لا ينبت شيئاً ماخوذاً من صلد يصلد صلدا فهو صلد .

والمعنى : يأبها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكسبون مثلكم كمثل المنافق الذي يتفق ماله من أجل الرياء لا من أجل رضا الله ، وإن مثل هذا المنافق في انكشاف أمره وعدم انتفاعه بما يتفق به رياء وحباً للظهور كمثل حجر أملس لا ينبت شيئاً ولكن عليه قليل من التراب الموهوم للناس إليه أنه منتج فنزل المطر الشديد فأزال ما عليه من تراب ، فأنكشف حقيقته وتبين للناس إليه أنه حجر أملس صلد لا يصلح للإنبات أى شيء عليه .

فالتشبيه في الجملة الكريمة بين الذي يتفق ماله رياء وبين الحجر الكبير الأملس الذي عليه قدر رقيق من التراب سفر حاله ، ثم ينزل المطر فيزيل التراب وتتكشف حقيقته وبراه الرائي عارياً من أوشى يستره . وكذلك المنافق المراني في إنفاقه يتظاهر بمظهر السخاء أمام الناس ثم لا يلبث أن ينكشف أمره لأن ثوب الرياء يشف دائماً عما تحته ، وإن لم يكشفه فإن الله كاشفه . ومن المفسرين من يرى أن التشبيه في الجملة الكريمة بين المنفق الذي يبطل صدقة بالمن والأذى وبين الحجر الأملس ، وأن الضمير في قوله وفعله كمثل صفوان . ، يعود إلى هذا الميطل لصدقته بالمن والأذى . فيكون المعنى : لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل الحجر الأملس الذي عليه تراب كان يرجى أن يكون منبتاً للزرع فنزل المطر فأزال التراب فبطل إنتاجه ، فالمن والأذى يبطلان الصدقات ويزيلان أثرها النافع ، كما يزيل المطر التراب الذي يؤمل منه الإنبات من فوق الحجر الأملس .

والذي نراه أن عودة الضمير في قوله وفعله ، على الذي يتفق بالمرءاء الناس أظهر لأنه أقرب مذكور ، ولأن التشبيه في قوله وفعله كمثل صفوان ، قد جاء بلفظ المفرد وهو المناسب للذي يتفق ماله رياء الناس لأنه مفرد مثله ، بخلاف قوله ، لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، فإن الضمير فيه بلفظ الجمع ،

عن الأولى أن يعود الضمير في قوله (فقله) إلى المرائي لتوافقهما في الأفراد ثم قال - تعالى - (لا يقدرّون على شيء مما كسبوا) أى أن الذين يطولون صدقاتهم بالمن والأذى ، والذين يتصدقون رياء ومفاخرة لا يقدرّون على تحصيل شيء من ثواب ما عملوا لأن ما صاحب أعمالهم من رياء ومن أذى محق بركنها ، وأذهب ثمرتها ، وأزال ثوابها .

أو المعنى : أن أولئك المنافقين والمرامون ليس هذم قدرة على شيء من المال الذى بين أيديهم وإنما هذا المال ملك لله وهو - سبحانه - الذى أنعم به عليهم ، فعليهم أن يشكروه على هذه النعمة ، وأن ينفقوه بدون من أو أذى أو مرأاة ، حتى يظفروا بحسن المنوبة منه - سبحانه - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : (والله لا يهدى القوم الكافرين) أى لا يهديهم إلى ما ينفعهم لأنهم آثروا الكفر على الإيمان . والجملة الكريمة تذييل مقرر لمضمون ما قبله ، وفيها إشارة إلى أن الإنفاق المصحوب بالمن والأذى والرياء ليس من صفات المؤمنين وإنما هو من صفات الكافرين ، فعلى المؤمنين أن يحتنبوا هذه الصفات التى لا تليق بهم والذى ينظر في هذه الآيات الكريمة يرى أن الله - تعالى - قد حذر المنفقين من المن والأذى في ثلاث آيات متواليات ، كما حذرهم من الرياء ، وساق أكثر من تشبيهه لتفسيح الصدقات التى لا تكون خالصة لوجه الله فلماذا كل هذا التشديد في النهي ؟

والجواب عن ذلك : أن المن والأذى في الإنفاق كثير أما يحصلان بسبب استعلاء كاذب ، أو رغبة في إذلال المحتاج لإظهاره بمظهر الضعيف : وكلا الأمرين لا يليق بالنفس المؤمنة المخلصة ، ولا يتلاقى مطلقاً مع الحكم التى من أجلها اشترعت الصدقات بل إنه ليتنافر معها تنافراً تاماً لأن الصدقات شرعها الله لتهديب النفوس وتطهير القلوب وتربط بين الأغنياء والفقراء برباط المحبة والمودة والإخاء ، فإذا ما صاحبها المن والأذى أثمرت نقيض ما شرعته ، لأنها تثير في نفس المعطى بسبب ذلك الكبر والخيلاء وغير ذلك من الصفات الذميمة ،

و تثير في نفس الآخذ شعوراً بالحقد والانتقام ممن أعطاه ثم آذاه وبذلك تقطع الروابط ، ويتمزق المجتمع ، وتتحول المحبة إلى عداوة .

ولقد تحدث الإمام الرازي عن الآثار السيئة للمن والإذى فقال ماملخصه :

وإنما كان المن مذموماً لوجوه : الأول : أن الفقير الآخذ للصدقة منكسر القلب لأجل حاجته إلى صدقة ، فإذا أضف المعطى إلى ذلك إظهار الإيثار زاد ذلك في انكسار قلبه فيكون في حكم المضرة بعد المنفعة ، وفي حكم المسمى إليه بعد أن أحسن إليه . والثاني : أن إظهار المن يبعد أهل الحاجة عن الرغبة في صدقته إذا اشتهر من طريق ذلك . الثالث : أن المعطى يجب أن يعتقد أن هذه النعمة من الله - تعالى - عليه . وأن يعتقد أن الله عليه نعماً عظيمة حيث وفقه لطفاً للعمل ومتى كان الأمر كذلك امتنع عن أن يجعل ما ينفقه مئة على الغير الرابع أن المعطى في الحقيقة هو الله ، ومتى اعتقد العبد ذلك استنار قلبه ، أما إذا اعتقد غير ذلك فإنه يكون في درجة البهائم الذين لا يترقى نظرهم عن المحسوس إلى المعقول ، وعن الآثار إلى المؤثر ... وأما الأذى فيتناول كل ذلك وغيره مما يسمى إلى الفقير بأن يقول له : فرج الله عنى منك ، وأنت أبدأ أنأى إلى بما يؤلم . الخ (١) .

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير عدداً من الأحاديث الشريفة التي نعت عن المن والأذى ومن ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالخلف الكاذب ، وروى النسائي عن ابن عباس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « لا يدخل الجنة مد من خمر ، ولا عاق لوالديه ، ولا منان ، (٢) .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ٤٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٢١٨ .

وبعد أن بين القرآن سوء عاقبة الذين يراون في صدقتهم ، ويفسدون ثمارها بالمن والأذى ، أتبع ذلك ببيان حسن عاقبته الذين ينفقون أموالهم ابتغاء رضا الله ، فقال - تعالى - :

وَمِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءً

مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَثِيلٌ لِّجَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
مِّمَّاتٍ أَكَلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

الْبَصِيرُ ﴿٢٦٥﴾

التثبيت : تحقيق الشيء وترسيخه ،

والجنة - كما يقول الراغب - : كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض . وأصل الجن ستر الشيء على الحاسة ، يقال : جئته الليل وأجنته أى سقره . وسميت الجنة بذلك لأنها تظل ما تحتها وتستتره . و البروة ، - بضم الراء وفتحها - المكان المرتفع من الأرض . وأصلها من قولهم : ربا الشيء يربو إذا ازداد وارتفع ، ومنه الربا للزيادة المأخوذة على أصل الشيء . والمعنى : ومثل الذين ينفقون أموالهم طلباً لرضى الله - تعالى - وتثبينا من أنفسهم ، أى : وتوطينا لأنفسهم على حفظ هذه الطاعة وعلى ترك ما يفسدها ، كمثل جنة مرتفع من الأرض نزل بها مطر كثير فأخرجت ثمراً ضعفين ، أى ضعفاً بعد ضعف فتكون التثنية للتكثير ، أو فأعطت صاحبها أو الناس مثلي ما كانت تنمر في سائر الأوقات بسبب ما أصابها من المطر الغزير . أو فأخرجت ثمراً ضعفين بالنسبة إلى غيرها من الجنان . والمقصود تشبيه نفقة هؤلاء المؤمنين المتخلصين في زكاتها ونماؤها عند الله بملك الحديدية الياقعة المرتفعة التي تنزل عليها المطر الغزير فأتت أكلها

مضاعفاً ، وأخرجت للناس من كل زوج زوج .
 وقوله « ابتغاء » مفعول لأجله أى يبذلون نفقتهم من أجل رضا الله
 - عز وجل - أو حال من فاعل ينفقون . أى ينفقون أموالهم طالبيين
 رضا الله .

وقوله « وتبيننا من أنفسهم » معطوف على سابقه ، وقد ذكر صاحب
 الكشاف أوجهاً فى معنى هذه الجملة الكريمة فقال : قوله « وتبيننا من أنفسهم »
 أى وليشبتوا منها ببذل المال الذى هو شقيق الروح على سائر العبادات الشاقة
 وعلى الإيمان ، لأن النفس إذا ربيضت بالتحامل عليها ، وتكليفها ما يصعب
 عليها ذلت خاضعة لصاحبها ونل طعمها فى اتباعه لشهواتها وبالعكس ، فكان
 إنفاق المال تثبيتها لها على الإيمان واليقين . و « من » على هذا الوجه للتبويض ،
 مثلاً فى قولهم : هن من عطفه وحرث من نشاطه . ويجوز أن يراد من قوله
 - تعالى - « وتبيننا من أنفسهم » أى : وتصديقاً للإسلام وتحقيقاً للجزاء من
 أصل أنفسهم ، لأنه إذا أنفق المسلم ماله فى سبيل الله ، علم أن تصديقه
 وإيمانه بالثواب من أصل نفسه ومن إخلاص قلبه . و « من » على هذا الوجه
 لا ابتداءً للغاية ، كقوله - تعالى - « حسداً من عند أنفسهم » . ويحتمل أن
 يكون المعنى : وتبيننا من أنفسهم عند المؤمنين أنها صادقة الإيمان مخلصه فيه ،
 وتعهد هذا المعنى قراءة مجاهد : وتبيننا من أنفسهم : فإن قلت : فما معنى
 التبويض ؟ قلت : معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه ،
 ومن بذل ماله وروحه معاً فهو الذى ثبتها كلها كما فى قوله - تعالى - « وتجاهدون
 فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » (١) .

وخصص الجنة بأنها بريرة ، لأن الأشجار فى المكان المرتفع من
 الأرض تكون عادة أحسن منظراً ، وأزكى ثمراً ، للطاقة هوائها ،
 فكان من فوائد هذا القيد إعطاء وجه الشبه - وهو تضعيف المنفعة وجعلها -

قوة ووضوحاً ، كما أن من فوائدّه تحسين المشبه به تمسّينا يعود أثره إلى المشبه عند السامع .

ثم قال — تعالى — : « فإن لم يصيبها وابل فطل ، » .

والطل : هو المطر القليل وجمعه طلال ، وهو مبتدأ محذوف الخبر أى فطل قليل يصيبها يكفيها .

والمراد أن هذه الجنة لطيبها وكرم منبتها تزكو وتثمر كثر المطر النازل عليها أو قل ، فكذلك نعمة المؤمنين المخلصين تزكو عند الله وتطيب كثر أو قلت ، لأن إخلاصهم فيها جعلها عند الله - تعالى - مضاعفة نامية .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « والله بما تعملون بصير ، » .

أى أنه - سبحانه - عليم بأحوال عباده لاتخفى عليه خافية ، وسيجازى المخلصين بما يرضينهم كما سيجازى المنافقين والمرائين بما يستحقون . ففى الجملة الكريمة ترغيب ووعيد ووعيد .

وبذلك نرى القرآن الكريم قد ساق فى هذه الآية وسابقتها حالتين متقابلتين : حالة الذى يبطل صدقته بالمن والأذى والرياء ، وكيف تكون عاقبته ونهايته . وحالة الذى ينفق ماله طلباً لرضا الله وتعويداً لنفسه على فعل الطيبات وكيف يكون جزاؤه عند العليم الخبير ولقد صور القرآن هاتين الحالتين تصويراً مؤثراً بديعاً ، من شأنه أن يهدى العقلاء إلى فعل الخيرات ، وإخلاص النيات ، واجتناب السيئات .

ثم ساق القرآن آية كريمة حذر فيها الناس من ارتكاب ما نهى الله عنه وبين فيها كيف أن المن والأذى والرياء وما يشبه ذلك من رذائل يودى إلى ذهاب الشيء النافع من بين يدي صاحبه وهو أحوج ما يكون إليه . استمع إلى القرآن وهو بصور نهاية هذا الإنسان البائس .

فيقول - تعالى - :

أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَفِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ
ضِعْفَاءُ فَاصْبَاهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

قوله «أيود» هو من الود بمعنى المحبة الكاملة للشيء. وتبنى حصوله ،
والإستفهام فيه للإنكار و «الإعصار» ربيع عاصفة تنعكس من الأرض
إلى السماء مستديرة كالمود ، وهي التي يسميها بعض الناس زوبعة . وسميت
إعصاراً لأنها تحصر ما تمر به من الأجسام ، أو تلف كما يلتف الثوب
المعصور . والريح مؤنثة وكذا سائر أسمائها إلا الإعصار فإنه مذكر ولذا
قيل «فيه نار» أي سموم وصواعق .

والمعنى : «أحب أحدكم - أيها المتنافسون المرءون - أن تكون له جنة ،
معظم شجرها « من نخيل وأعناب تجرى من ، تحت أشجارها « الأنهار له
فيها من كل الثمرات ، النافعة ، والحال أنه قد أصابه الكبر الذي أقعده عن
الكسب من غير تلك الحديقة اليانعة : وله فضلا عن شيخوخته وعجزه
فزية ضعفاء لا يقدرّون على العمل ، وبينما هو على هذه الحالة إذا بالجنة
ينزل عليها إعصار فيه نار فيحرقها ويدمرها ففقدها صاحبها وهو أحوج
ما يكون إليها ، وبقى هو وأولاده في حالة شديدة من البؤس والحيرة
والغم والحسرة ، لحرمانه من تلك الحديقة التي كانت محط آماله .

فالآية الكريمة قد اشتملت على مثل آخر لحالة الذين يبطلون أعمالهم
وصدقاتهم بالمن والأذى والرياء ، وغير ذلك من الأفعال القبيحة ، والصفات
السيئة فقد شبهه - سبحانه - حال من يعمل الأعمال الحسنة ثم يضم إليها
ما يفسدها فإذا كان يوم القيامة واشتدت حاجته إليها وجدها محبطة ذاهبة ،

شبهه هذا الإنسان في حسرته وألمه وحرزته بحال ذلك الشيخ الكبير العاجز الذي له ذرية ضمهء لا يملك سوى حديقة يانعة يعتمد عليها في معاشه هو وأولاده ، فنزل إعصار فيه نار عليها فأحرقها ودمرها تدميراً .

وحذف - سبحانه - حالة المشبه وهو الذي يبطل صدقته بالمن والأذى والرياء وما يشبه ذلك ، لظهورها من المقام .

وقد وصف - سبحانه - تلك الجنة بثلاث صفات : وصفها أولاً بأنها من تخيل وأعنان أى معظمها من هذين الجنسيتين النفسيتين اللذين هما أنفع الفواكه ، وأجملها منظراً .

ووصفها ثانياً بأنها تجرى من تحتها الأنهار ، أى تجرى من تحت أشجارها الأنهار التى تسر النفس ، وتبهج القلب ، وتزيد فى حسن الجنة وبهائها . ووصفها ثالثاً بأنها زاخرة بكل أنواع الثمار التى تنفع صاحبها ، وتوفيه عن الاحتياج إلى غيره ، فوى الجنة قد جمعت بين حسن المنظر ، وكثرة النفع ، وهذا نهاية ما يتمناه على إنسان لما يملكه .

أما صاحبها فقد وصفه - سبحانه - بأنه إنسان قد أصابه الكبر وله ذرية ضمهء ، أى أنه فى منتهى الاحتياج إليها ، لكبر سنه وعجزه عن الاكتساب من غيرها ، والمستولية عن الإفتاق على أولاد ضمهء لا يولهم أحوسوا . تلك هى حالة الجنة ، وحالة صاحبها فى احتياجه إليها ، فإذا حدث بعد ذلك ؟ لقد أصابه إعصار فيه نار فاحترقت ، إذاً يكون حال هذا الإنسان الذى أصابه الكبر وله ذرية ضمهء وهو يرى جنته ومحل أمه قد احترقت وهو فى أشد الحاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها ؟

إن الكلمات لتعجز عن تصوير ما يصيب هذا البائس من غم وهم وحرز وحسرة ، وهو يرى جنته قد احترقت وهو فى أشد أوقاته حاجة إلى ظلها وثمارها ومنافعها ؟

ولسكان الله - تعالى - يقول للناس بعد هذا التصوير البديع المؤثر :

احذروا أن تبطلوا أعمالكم الصالحة بإرتكابكم لما نهى الله عنه ، فلا تجدون لها نفعاً يوم القيامة وأنتم في أشد الحاجة إليهم في هذا اليوم العصيب ، لأنكم إذا فعلتم ذلك كان مثلكم في التحسر والحزن كمثل هذا الشيخ الكبير الذي احترقت جنته وهو في أشد الحاجة إليها .
وأما لتصوير قرآني في أسنى درجات البلاغة والتأثير ، وفي أعلألوان التأييد والتعذيب .

قال القرطبي : روى البخاري عن عبيد بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يوماً لأصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) فيم ترون هذه الآية نزات وهي قوله - تعالى - : « أبودأحدكم أن تمكون له جنة ... الآية » قالوا الله أعلم . فغضب عمر فقال : قولوا نعم أو لا نعم . فقال ابن عباس : في نفسى منها شيء يا أمير المؤمنين . قال عمر : يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلاً لرجل غنى عمل بطاعة الله . ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أحرق عمله . وروى ابن أبى مليكة أن عمر تلا هذه الآية وقال : هذا مثل ضربه الله للإنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عمل العمل السئ . (١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية بقوله : « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » أى : كما يبين الله في هذه الآية ما يهدىكم وينفعكم يبين لكم آياته وهداياته في سائر أمور دينكم لكن تفكروا فيما يصلحكم ، وتعملوا ما يرضى خالقكم .

ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بأن يتحروا في نفقتهم الحلال الطيب ، بعد أن حضمهم على الإنفاق بسخاء وإخلاص .

فقال - تعالى - :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ
 مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ
 تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
 حَمِيدٌ ﴿٢١٧﴾ الشَّيْطَانُ يُعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ
 مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ
 وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
 الْأَلْبَابِ ﴿٢١٩﴾

قال ابن كثير : عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - في قول الله تعالى
 و يا ايها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم . . . الآية قال : نزات في
 الأنصار . كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من نخلها
 البسر فعلقوه على جبل بين الأسطواتين في مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)
 فيأكل فقراء المهاجرين منه ، فيعمد الرجل منهم إلى الحشف - أى القم الردى -
 فيدخله مع أفناء البسريظان أن ذلك جائز فأنزله الله فيمن فعل ذلك الآية ، (١) .
 والمعنى : يا أيها الذين آمنوا اجعلوا نفقتكم التى تنفقونها فى سبيل الله
 من أطيب أموالكم التى اكتسبتموها عن طريق التجارة وغيرها .
 قال ابن عباس : أمرهم الله - تعالى - بالإففاق من أطيب المال وأجوده
 وأنفسه ، ونهاهم عن التصدق بردالة المال ودنيته وخبثته ، فإن الله طيب
 لا يقبل إلا طيباً . قال - تعالى - لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون . .
 وقوله ومما أخرجنا لكم من الأرض ، معطوف على ما قبله أى أنفقوا

من طيبات أموالكم التي اكدتتموها ومن طيبات ما أخرجنا لكم من الأرض من الحبوب والثمار والزرع وغيرها . وترك - سبحانه - ذكر كلمة الطيبات في هذه الجملة لسبق ذكرها في الجملة التي قبلها .

فآية الكريمة تأمر المؤمنين بأن يلتزموا في نفقتهم المال الطيب في كل وجه من وجوهه ، بأن يكون جيداً نفيساً في صنفه ، وحلالاً مشروعاً في أصله وقد أكد الله - تعالى - هذا الأمر بجملةتين كريمتين فقال : « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، . قوله - تعالى - . ولا تيمموا ، أى ولا تقصدوا وتعمدوا . يقال : تيممت الشيء . وبمتمته إذا قصدته . ويقال : يمت جهة كذا إذا قصدته . ومنه الإمام لأنه المقصد المعتمد وأصل تيمموا تيمموا فحدثت إحداهما تخفيفاً والخبيث هو الرديء من كل شيء ، وخبيث الفضة والحديد ما نفاه الكبير لأنه ينفي الرديء . وبطلق الخبيث على الشيء الحرام والمستنذر . والإغماض في اللغة - كما يقول الرازي - غض النظر وإطباق جفن على جفن ، وأصله من الغمض وهو الخفاء ، والمراد بالإغماض ها هنا المساهلة وذلك لأن الإنسان إذا رأى ما يكره أغمض عنه لئلا يرى ذلك . ثم كثر ذلك حتى جعل كل تجاوز ومساهلة في البيع وغيره إغماضاً ، (٢) .

والمعنى : أنفقوا أيها المؤمنون من أطيب أموالكم وأنفسها وأجودها ، ولا تتحروا وتقصدوا أن يكون إنفاقكم من الخبيث الرديء ، والحال أنكم لا تأخذونه إن أعطى لكم هبة أو شراء أو غير ذلك إلا أن تتساهلوا في قبوله ، وتغضوا الطرف عن رداءته ، وإذا كان هذا شأنكم في قبول ما هو رديء فكيف تقدمونه لغيركم ؟ إن الله - تعالى - ينهاكم عن ذلك لأن من شأن المؤمن الصادق في إيمانه ألا يفعل لغيره إلا ما يحب أن يفعله لنفسه ، ولا يعطى من شيء إلا ما يحب أن يعطى إليه ، ففي الحديث الشريف :

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٢٠

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٦٨

« عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به ، ،

قال الألوسي : وقوله : « منه تنفقون ، الضمير المجرور يعود للخبيث ، وهو متعلق بتنفقون ، والتقديم للتخصيص ، والجملة حال مقدرة من فاعل « تيمموا ، أى لا تقصدوا الخبيث قاصرين الإنفاق عليه ، أو من الخبيث أى محتصاً به الإنفاق ، وأياً ما كان لا يرد أنه يقتضى أن يكون النهى عن الخبيث الصرف فقط مع أن المخارط أيضاً كذلك لأن التخصيص لتوبيخهم بما كانوا يتعاطون من إنفاق الخبيث خاصة .

وقوله « ولستم بأخذيته ، حال من ضمير « تنفقون ، أى : والحال أنكم لستم بأخذيته في وقت من الأوقات أو بوجه من الوجوه إلا وقت إغماضكم فيه ، (١) ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « واعلموا أن الله غنى حميد ، أى واعلموا أن الله - تعالى - غنى عن صدقاتكم - كما وإنما أمركم بها لمنفعتكم ، « حميد ، يجازى المحسن أفضل الجزاء ، وهو - سبحانه - المستحق للحمد الحقيقي دون سواه ، فن الواجب عليكم أن تبدلوا في سبيله الجيد من أموالكم شكراً له على نعمه حتى يزيدكم من عطائه وآياته .

ثم حذر الله - تعالى - المؤمنين من وساوس الشيطان وخطواته فقال :
الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، ،

قوله « يعدكم ، من الوعد ، وهو فى أصل وضعه لغة شائع فى الخير والشر ، وأما فى الاستعمال الشائع فالوعد فى الخير والإبعاد فى الشر . وقد استعمل هنا فى الشر نظراً إلى أصل الوضع ، لأن الفقر بما يراه الإنسان شراً ولذلك يخوف الشيطان به المنفقين فيقول لهم : لا تنفقوا الجيد من أموالكم لأن إنفاقكم هذا يؤدي إلى فقركم ونضوب ما بين أيديكم من أموال .

والفقر هو ما يصيب الإنسان من سوء فى الحال ومن ضعف بسبب قلة المال ، وأصل الفقر فى اللغة كسر فقار الظهر ، ثم وصف الإنسان المحتاج

الضعيف بأنه فقير تشبيهاً له بمن كسر فقار ظهره فأصبح عاجزاً عن الحركة لأن الظهر هو مجمع الحركات ، ومنه تسميتهم المصيبة فأفره ، وقاصمة الظهر . والفحشاء والفحش والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، ويرى كثير من العلماء أن المراد بالفحشاء في الآية البخل الشديد فإن كلمة الفاحش تطلق في لغة العرب على البخيل الشديد البخل ، ومن ذلك قول طرفة بن العبد .

أرى الموت بعثام الكرام ويهطني عقليّة مال للفاحش المتشدد (١)
 والمعنى : الشيطان يوعدهم إذا انفقتم بالفقر وضياع الأموال ، ويحذركم من الصدقة بما يوسوس في نفوسكم من شرور وآثام ، ويغريكم بارتكاب المعاصي التي من أقبحها البخل الشديد ، والشح المهلك ، فعليكم أن تحذروه وأن تنفقوا من أموالكم في سبيل الله ما يوصلكم إلى رضوانه ورحمته .
 قال الجمل : وفي هذه الآية لطيفة وهي أن الشيطان يخوف الرجل أولاً بالفقر ثم يتوصل بهذا التخويف إلى أن يأمره بالفحشاء وهو البخل ، وذلك لأن البخل صفة مذمومة عند كل أحد فلا يستطيع الشيطان أن يحسن له البخل إلا بتلك المقدمة وهي التخويف من الفقر فلهاذا قال : والشيطان يوعدهم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، (٢) .

وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن للشيطان لمة باين آدم ، وللملك لمة - أي همة وخطرة تقع في القلب - فأما لمة الشيطان فإيراد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيراد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ،

(١) بعثام : أي يخنار . والعقيلة : أكرم المال . والفاحش : البخيل والمعنى : أرى الموت يخنار الكرام ويختار أفضل مال البخيل وما دام الأمر كذلك فلا فائدة من البخل .

ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ : الشيطان يهدكم للفقر .
 هو يأمركم بالفحشاء . . . (١) .

هذا ما يهدى الشيطان للإنسان ، فما الذى يهدى الله - تعالى - لعباده ؟
 لقد بين - سبحانه - ذلك فقال : والله يهدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله
 واسع عليهم . . .

أى : إذا كان الشيطان يهدكم للفقر ويأمركم بالفحشاء ، فالله - تعالى -
 يهدكم مغفرة منه لذنوبكم على ما تنفقونه من أموالكم في سبيله ففي الحديث
 الشريف : الصدقة تطفيء الخطيئة . . . ويهدكم - أيضاً - وفضلاً ، أى نماء
 وزيادة في أموالكم ، فإن الصدقات تزيد البركة في الرزق فيصير القليل منه
 في يد السخى كثيراً بتوفيق الله وتأييده .

وصدر - سبحانه - الجملة بلفظ الجلالة ، للإشارة إلى أن الوعد الذى
 وعد به المتقين وعد حق لا يمكن أن يخاطه شك أو ريب ، لأنه وعد من الله
 الذى لا يخلف وعده ، وإذا كان الشيطان يهدد الناس بالفقر عند العطاء ،
 ويأمركم بالفحشاء ، فالله - تعالى - يهدى عباده بمغفرته ورضوانه ، بسبب
 إنفاقهم في السراء والضراء ، ويهدىهم على ذلك بالرزق الوفير ، والفضل
 الكبير في الدنيا والآخرة .

وقد ختم - سبحانه - الآية بقوله : والله واسع عليم ، تأكيداً لوعده
 الذى وعد به عباده المتقين المنصفين بأن يزيدهم من فضله ، أى والله - تعالى -
 واسع الجود والعطاء والرحمة ، وسبححق لكم ما وعدكم به من المغفرة
 وتضعيف ما تنفقونه ، وهو مع ذلك عليم بأحوال عباده صغيرها وكبيرها ،
 وسيجازى الذين اتبعوا أو امره بجزيل الثواب ، كما سيجازى الذين اتبعوا
 وسوسة الشيطان بسوء العذاب .

ثم قال - تعالى - يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً .

قال الإمام الرازي : . اعلم أنه - تعالى - لما ذكر في الآية المتقدمة أن الشيطان يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء ، وأن الرحمن يعد بالمغفرة والفضل ، نبه على أن الأمر الذي أوجب لأجله ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمن ترجحه الحكمة والعقل ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والنفس من حيث لإنهما يأمران بتحصيل الأذى الحاضرة واتباع أحكام الخيال والوهم . ولا شك أن حكم الحكمة والعقل هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيف والحلال ، وحكم الشهوة والنفس يوقع الإنسان في البلاء الحكمة ، فكان حكم الحكمة والعقل أولى بالقبول ، فهذا هو وجه النظم ، (١) .

و الحكمة ، مشتقة من حكم بمعنى منع ، لأنها تمنع صاحبها من الوقوع في الخطأ والضلال ، ومنه سميت الحديدية التي في اللجام وتجعل في فم القرس حكمة لأنها تمنعه من الجروح . أو هي في الأصل مصدر من الإحكام وهو الإلتقان في علم أو عمل أو قول أو فيها كلها .

والحكمة بالنسبة للإنسان صفة نفسية هي أساس المعرفة السليمة التي توافق الحق ، وتوجه الإنسان نحو عمل الخير ، وتمنعه من عمل الشر ، فهي فيه مانعة ضابطة مسير به نحو الكمال والاستعانة .

وللعلماء في المراد بها في الآية الكريمة أقوال كثيرة أرجحها أن المراد بها لإصابة الحق في القول والعمل ، أو هي العلم النافع الذي يكون معه العمل به . والمعنى : أن الله - تعالى - للفاعل لكل شيء يؤت الحكمة لمن يشاء . من عباده ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، لأن الإنسان إذا أوتي الحكمة يكون قد اهتدى إلى العلم النافع ، وإلى العمل الصالح الموافق لما علمه ، وإلى الإيمان بالحق ، وإلى الاستجابة لكل خير والابتعاد عن كل شر ، وبذلك يكون سعيداً في دنياه وأخراه .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « لا حسد - أى لا غبطة - إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على ماله كنهه فى الحق ، ورجل آتاه الله - تعالى - الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها ، ثم قال - تعالى - « وما يذكر إلا أولو الألباب » .

والألباب جمع لب وهو فى الأصل خلاصة الشيء وقلبه ، وأطاق هنا على عقل الإنسان لأنه أنفع شئ فيه .

والمراد بأولى الألباب هنا أصحاب العقول السليمة التى تخلصت من شوائب الهوى ، ودوافع الشر ، فقد جرت عادة القرآن ألا يستعمل هذا التعبير إلا مع أصحاب العقول المستقيمة .

أى : وما يتعظ بهذه التوجيهات القرآنية ، ويتفجع بشاهاها إلا أصحاب العقول الراجحة والتفوس الصافية التى اهتدت إلى الحق وعملت به ، والتى أنفقت فى سبيل الله أجود الأموال وأطيبها لأصحاب العقول الفاسدة ، والتى استحوذ عليها الشيطان فأنساها ذكر الله ، والتى ترى أن البخل بالمال هو الحكمة ، وأن الإنفاق فى سبيل الله هو نوع من الإسراف والتبذير - فالجملة الكريمة تذييل قصد به مدح أولئك المؤمنين الصادقين ، الذين استجابوا لتوجيهات دينهم ، فأصابوا الحق فى أقوالهم وأعمالهم .

ثم بين - سبحانه - أنه عليهم بما ينفقه المنفقون من صدقات سواء أكانت سرا أو جهرا وسيجازيهم عليها بما يستحقون من ثواب فقال - تعالى - :

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا لَأَصْدَقْتِ فَنِعْمَ هِيَ وَإِنْ تُخْفَوُهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

النفقة : هي العطاء العاجل في باب من أبواب الخير . أما النذر : فهو الالتزام قربة من القربات أو صدقة من الصدقات بأن يقول : لله على نذر أن أفعل كذا من أنواع البر . أو إن شفى الله مريضى فسا فعل كذا . والمعنى : وما أنفقتم - أيها المؤمنون - من نفقة عاجلة قليلة أو كثيرة ، أو ألزمتم بنفقة مستقبلية وعاهدتم الله - تعالى - على القيام بها ، فإنه سبحانه - يعلم كل شيء ، ويعلم ما صاحب نياتكم من إخلاص أو رياء ، ويعلم ما أنفقتموه أهو من جيد أم الرلكم أم من رديئها ، وسيجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته . فالآية الكريمة بيان لحكم كل شامل لجميع أفراد النفقات إثر بيان حكم ما كان منها في سبيل الله - تعالى - .

و داء في قوله د وما أنفقتم ، شرطية أو موصولة والفاء في قوله د فإن الله يعلمه ، رابطة لجواب الشرط إذا اعتبرنا ما شرطية ، ومزودة في الخير إذا اعتبرناها موصولة . و د من ، في قوله د من نفقة ، بيانية أو زائدة . وقوله د فإن الله يعلمه ، كناية عن الجزاء عليه ، لأن علم الله - تعالى - بالكائنات لا يشك فيه السامعون ، فأريد لازم معناه وهو الجزاء . وإنما كان لازماً له لأن القادر لا يصدده عن الجزاء إلا عدم العلم بما يفعله المحسن أو المسيء .

وهذه الجملة الكريمة مع إيجازها قد أفادت الوعد العظيم للمطيعين والوعيد الشديد للمتمردين ، لأن الإنسان إذا أيقن أن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من شئون خلقه ، فإن هذا اليقين سيحمله على الطاعة والإخلاص ، وسيحضه على المسارعة في الخيرات ، خصوصاً وإن الجملة قد صدرت بأن المؤمن كدة ، وتليت بلفظ الجلالة الدال على الاستحقاق الكامل للألوهية . قال بعضهم . وإنما قال - سبحانه - د فإن الله يعلمه ، ولم يقل يعلمها لوجهين : الأول : أن الضمير عائد إلى الأخير - وهو النذر - ، كما في قوله - تعالى - د ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ثم يرم به بريئاً ، . الثاني : أن الكناية عادت إلى ما في قوله د وما أنفقتم من نفقة ، لأنها

لهم كقوله : د وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، (١) .
وقوله ، وما للظالمين من أنصار ، وعيد شديد للأخارجين على طاعة الله
أى : ليس للظالمين أى نصير أو معزك يمنع عقوبة الله عنهم .

والمراد بالظالمين : الواضعون للأشياء فى غير موضعها التى يجب أن توضع
فيها ، والتاركون لما أمرهم الله به ، فيندرج فيهم الذين يبطلون صدقاتهم بالممن
والأذى والرياء ، والذين يتصدقون بالرديء من أموالهم ، والذين يتفقون
أموالهم فى الوجوه التى نهى الله عنها ، والذين لم يوفوا بندورهم التى
عاهدوا الله على الوفاء بها ، كما يندرج فيهم كل من ارتكب ما نهى الله عنه
أو أهمل فيما كلفه الله به .

ثم بين - سبحانه - أن الصدقة متى صدرت عن المسلم بالطريقة التى
دعت إليها تعاليم الإسلام فإنها تكون مرجوة القبول عند الله - تعالى - سواء
أفعلها المسلم فى السر أم فى العلن ، فقال - تعالى - : إن تبدوا الصدقات
فمنعناها وإن تخفوها وتزورها الفقراء فمهر خير لكم ويكفر عنكم من
سيئاتكم والله بما تعلمون خبير .

الصدقات : جمع صدقة وهى ما يخرج به المسلم من ماله على جهة القرية ،
وتشمل الفرض والتطوع ، وهى مأخوذة من الصدق بمعنى صدق النية
وقبيلتها من كل ما نهى الله عنه ، وسمى - سبحانه - ما يخرج به المسلم من ماله
صدقة لأن المال بها يزكو وينمو ويظهر .

والفاء فى قوله : د فنعماءى ، واقعة فى جواب الشرط . و د نعماً ،
أصلها نعيم ما ، فأدغمت لإحدى الميمين فى الأخرى ، ونعم فعل ماض ، وما
منكرة تامة بمعنى شئ ، وهى منصوبة على أنها تمييز ، والمفاعل ضمير
مستتر فى نعم .

والمعنى : إن تبدوا صدقاتكم - أي المؤمنون - وتظهروها فنعم شيئاً إبدائها
وإعلانها ، لأنه يرفع التهمة ، ويدعو أهل الخير إلى الاقتداء بهذا الفعل الحسن .

وجاء التعبير بمدح المعلنين صدقتهم بقوله « فنعما هي ، الإشارة إلى أن المسلم متى دفع صدقته لمستحقها بنية خالصة ، فإنه يكون بمدوحاً من الله - تعالى - ومدوحاً من الناس الذين شاهدوا عليه عمله الصالح .

هذه صدقة الجهر إذا خلصت من الرياء أما صدقة السر فقد أثنى الله على فاعلها بقوله : « وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، أي : وإن تخفوا الصدقات وتطوها للفقراء سرّاً ، دون أن يراكم أحد من الناس ، فعملكم هذا خير لکم عند الله لأنکم بإخفائکم للصدقة ودفعها للفقير سرّاً تكونون قد ابتعدتم عن الرياء ، وسترتم حال هذا الفقير المحتاج .

وقوله « ويكفر عنكم من سيئاتكم ، أي أنه - سبحانه - يسقر السيئات التي يرتكبها الشخص ، ويخفيها ولا يظهرها عند إثابته إياه على فعله الحسن لأن ما فعله من حسنات مسح ما فعله من سيئات فهو كقوله - تعالى - « وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ، و« من ، في قوله « من سيئاتكم ، بياقية بمعنى أن الصدقات تكفر السيئات ، لأن المسلم إذا بذل ماله في سبيل الله بصدق وإخلاص ، كان أهلاً لثوبة الله ومغفرته ، ويجوز أن تكون للتبويض أي يكفر عنكم بعض سيئاتكم بمقدار ما قدمتم من صدقات لأن الصدقات لا تكفر جميع السيئات .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله « والله بما تعملون خبير ، أي أن الله - تعالى - عليم علماً دقيقاً بكل ما تعملونه أي المؤمنون ، فعليكم أن تخلصوا له أعمالكم ، وأن تراقبوه في سرهم وجهرهم ، وأن تسارعوا في عمل الخيرات التي ترفع درجاتكم عند خالقكم .

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد مدحت صدقتي الجهر والسر متى كان المتصدق متبعاً آداب الإسلام وتوجيهاته ، ومبتعداً عن كل ما يبطل الصدقات ، ويحبط الأعمال .

ثم ختمت السورة حديثها عن النفقة والمتفقين ببيان حسن عاقبة من

يبدل ماله في سبيل الله ، وبيان صفات بعض المستحقين للصدقة ، وبيان
أن هداية البشر إنما هي بيد الله - تعالى - وحده ، فقال - تعالى - :

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي
مَنْ يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ
وَجْهِ اللَّهِ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٦﴾
لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ
يُحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَعْيَاءً مِنْ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ
النَّاسَ الْخَافًا ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٧﴾ الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٨﴾

قال القرطبي ما ملخصه : قوله - تعالى - : « ليس عليك هدايتهم ، هذا
الكلام متصل بذكر الصدقات ، فكأنه بين فيه جواز الصدقة على المشركين .
روى سعيد بن جبير مرسلًا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) في سبب نزول
هذه الآية أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة ، فلما كثر فقراء
المسلمين قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لا تصدقوا إلا على أهل
دينكم . فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام .
وروى عن ابن عباس أنه قال : كان ناس من الأنصار لهم قرابات من
بنى قريظة والنضير كانوا لا يتصدقون عليهم رغبة منهم في أن يسلموا إذا
احتاجوا فنزلت الآية بسبب أولئك . ثم قال : قال علماءنا : هذه الصدقة
التي أبيت لهم حسب ما تضمنته هذه الآثار هي صدقة التطوع ، وأما

المفروضة فلا يجزىء. دفعها لكافر، لقوله - عليه الصلاة والسلام -
 «أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها في فقرائكم»، (١).
 والمعنى: ليس عليك يا محمد هداية من خالفك في دينك. ولكن الله
 - تعالى - يهدي من يشاء هدايته إلى نور الإيمان، وطريق الحق. وما دام
 الأمر كذلك فعليك وعلى أتباعك أن نعاملوا غيركم بما يوجبها عليكم
 لإيمانكم من سماحة في الحقائق، وعطف على المحتاجين حتى ولو كانوا من
 المخالفين لكم في الدين.
 وعلى هذا المعنى الذي يؤيده سبب النزول يكون الضمير في قوله
 «هداهم» يعود على غير المسلمين.

ومن المفسرين من يرى أن الضمير في قوله «هداهم» يعود إلى المسلمين.
 المخاطبين في الآيات السابقة، فيكون المعنى: لا يجب عليك أيها الرسول
 الكريم أن تجعل المسالمين جميعاً مهديين إلى الإيمان بما أمروا به وممتنئين عما
 نهوا عنه من ترك المن والاذى والرياء في صدقتهم، ولكن الله وحده هو
 الذي يهدي من يشاء هدايته إلى الإستجابة لتوجيهات هذا الدين الحنيف.
 قال الألوسي: وعلى هذا الرأي تكون الجملة معترضة جئ بها على طريق
 تلوين الخطاب وتوجيهه إلى سبب المخاطبين (ﷺ) مع الالتفات إلى الغيبة
 فيما بين الخطابات المتتالية بأوائك المكلفين مبالغة في حملهم على الامتثال..
 ثم قال: والى يدعيه سبب النزول رجوع ضمير هداهم، إلى الكفار،
 وبينت لا التفتات، وإنما هناك تلوين الخطاب فقط... (٢).

ثم خص - سبحانه - المؤمنين على الإنفاق في وجوه الخير فقال: «وما
 تنفقوا من خير فلأنفسكم، أي: ما تقدمونه من مال في وجوه البر - أيها
 المؤمنون - فإن نفعه سيعود عليكم بالسعادة في الدنيا، وبالثواب الجزيل في
 الآخرة، فكأنوا أخصياء في الإحسان إلى الفقراء، وأبتعدوا عن وسوسة

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٣٧

(٢) تفسير الألوسي ج ٣ ص ٤٥ بتصرف وتلخيص:

الشیطان الذی یدعکم الفقیر ویأمرکم بالفحشاء .

و د ما ، شرطیة جازمة لتنفقوا ، وهی منتصبة به علی المفغوایه ، و د من «
التبعیض وهی متعلقة بمحذوف وقع صفة لفعل الشرط والتقدير : أی
شیء تنفقوا کائنا من المال فهو لأنفسکم لا ینتفع به فی الآخرة غیرها .

قال الفخر الرازی ما ملخصه : وقوله - تعالی - « وما تنفقون إلا ابتغاء
وجه الله ، یحتمل وجوها الأول : أن ینکون المعنی : واستم فی صدقتکم علی
أقاربکم من المشرکین تقصدون إلا وجه الله ، فقد علم الله هذا من قلوبکم ،
فأنفقوا علیهم إذا کنتم إنما تبغون بذلك وجه الله فی صلواتهم ومدخله مضطر ،
ولیس علیکم اهتدائهم حتی یمنعکم ذلك من الإنفاق علیهم . الثاني : أن
هذا وإن کان ظاهره خیراً إلا أن معناه نهی أی : ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله .
الثالث : أن قوله : « وما تنفقون » أی ولا تکونوا متفقین مستحقین الاسم
الذی یفید المدح حتی تبغوا بذلك وجه الله . وفی ذکر الوجه تشریف عظیم
لأنک إذا قلت : فعلت هذا الشیء لوجه زید فهو أشرف فی الذکر من قولک :
فعلته له لأن وجه الشیء أشرف ما فیہ ، ثم کثر حتی صار یعبر عن الشرف
بهذا اللفظ ، وأيضاً فإن قولک : فعلت هذا الفعل لوجهه یدل علی أنك فعلت
الفعل له فقط ولیس لغيره فیہ شركة ، (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآیة بقوله : « وما تنفقوا من خیر یوفی لیکم وأنتم
لا تظلمون » أی : أن ما تنفقونه من خیر - أيها المؤمنون - ستعود علیکم أثماره
ومنافعه فی الدنیا والآخرة ، أما فی الدنیا فإنکم بسبب هذا الإنفاق تترکوا
أموالکم ، وتحسن سیرتکم بین الناس ، وأما فی الآخرة فإنکم تنالون من
عالمکم ورازقکم أجزل الثواب ، وأفضل الدرجات .
وقوله « وأنتم لا تظلمون » أی لا تنقصون شيئاً مما وعدکم الله به علی
نفقتکم فی سبيله .

قال الجبل . وهاتان الجبلتان أى قوله - تعالى - « وما تنفقوا من خير يوف إليكم وقوله « وأنتم لا تظلمون ، تأكيد للجملة الشرطية الأولى وهى قوله : « وما تنفقوا من خير فلا نفسكم » . وقوله « وأنتم لا تظلمون ، جملة من مبتدأ وخبر فى محل نصب على الحال من الضمير فى « إليكم ، فالعامل فيها « يوف ، وهى تشبه الحال المؤكدة لأن معناها مفهوم من قوله « يوف إليكم » لأنهم إذا وفوا حقوقهم لم يظلموا . ويجوز أن تكون مستأنفة لا محل لها من الإعراب أخبرم فيها أنه لا يقع لهم ظلم فيندرج فيه توفية أجورهم بسبب الإنفاق فى طاعة الله - تعالى - اندراجاً أولياً ، (١) .

هذا ، والذي يتدبر هذه الآية الكريمة يراها من أجمع الآيات التى وردت فى الحض على بذل المال فى وجوه الخير ، فقد كرر فيها فعل « تنفقون ، ثلاث مرات لمزيد الاهتمام بمدلوله ، وجرى به مرتين بصيغة الشرط عند قصد بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب ، وجاءت كل جملة منها مستقلة ببعض الأحكام التى يسهل حفظها وتأملها فتجرى على الألسنة مجرى الأمثال وتتناقلها الأمم والأجيال .

ثم بعد هذا التحريض الحكيم على بذل الأموال فى وجوه الخير ، خص - سبحانه - بالذكر طائفة من المؤمنين هى أولى الناس بالعون والمساعدة ، ووصف هذه الطائفة بست صفات من شأنها أن تحمى العقلاء على المسارعة فى إكرام أفرادها وسد حاجتهم .

استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور حالة هذه الطائفة من المؤمنين تصوراً كريماً نبيلاً يستجيش المشاعر ، ويحرك القلوب لمساعدة هذه الطائفة المتعفة فيقول : للفقراء ، الذين أحصروا فى سبيل الله ، لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياً من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً .

(١) حاشية الجمل على الجلابين ج ١ صفحة ٢٢٥ . بتصرف يسير .

لقد وصفهم الله - تعالى - أولاً بالفقراء ، أى الذين هم فى حاجة إلى العون والمساعدة لفقركم واحتياجهم إلى ضروريات الحياة .

وقوله « للفقراء » متعلق بمحذوف يفهم من الكلام السابق والتقدير : اجعلوا نفقتكم وصدقتكم للفقراء لأن الكلام السابق موضوعه الإنفاق فى سبيل الله ، وما يتعلق بذلك من آداب وفوائد .

والجملتان استئناف بياني ، فكأنهم لما أمروا بالصدقات سألوا لمن هى ؟ وفقاً جيبوا بأنها لهؤلاء الذين ذكرت الآية صفاتهم .

ومن فوائد الحذف هنا للمتعلق : تعليم المؤمنين الأدب فى عطايتهم للفقراء بأن لا يصرحوا لهم بأن ما يعطونه إياهم هو صدقة حتى لا يشعرهم بالمذلة والضعف ، وأيضاً فى هذا الحذف لون من الإيجاز البليغ الذى قل فيه اللفظ مع الوفاء بحق المعنى .

قال القرطبي : والمراد بهؤلاء الفقراء ، فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم ثم تناول الآية كل من دخل تحت صفتهم غابر الدهر . وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر ، لأنه لم يكن هناك سواهم ، وهم أهل الصفة (١) وكانوا نجراً من أربع مائة رجل ، وذلك أنهم كانوا يأقون فقراء ومالهم أهل ولأمال فبنيت لهم صفة فى المسجد النبوى بالمدينة فقبل لهم : « أهل الصفة (٢) » . أما الصفة الثانية من صفات هؤلاء الذين هم أولى الناس بالعون والمساعدة فهى قوله - تعالى - « الذين أحصروا فى سبيل الله » .

والإحصار فى اللغة هو أن يعرض للرجل ما يحول بينه وبين ما يريد

(١) الصفة - بضم الصاد وتشديد الميم - اسم الموضع بناه النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المسجد النبوى بالمدينة ليأوى إليه فقراء المهاجرين الذين تركوا أموالهم بمكة وهاجروا إلى المدينة لإعلاء كلمة الله .

(٢) تفسير القرطبي ج ٢ صفحة ٣٣٩ .

بسبب مرض أو شيخوخة أو عدو أو ذهاب نفقة أو ما يجرى مجرى هذه الأشياء .

والعنى : إجماعوا الكثير مما تنفقونه - أيها المؤمنون - لهؤلاء الفقراء الذين حصرنا أنفسهم ووقفوها على الطاعات المتنوعة التي من أعظمها الجهاد في سبيل الله ، أو الذين منعوا من الكسب بسبب مرضهم أو شيخوختهم ، أو غير ذلك من الأسباب التي جعلتهم في حالة شديدة من الفاقة والاحتياج .

وعبر في الجملة الكريمة ، بأحصرنا ، بالبناء للمجهول ، للإشعار بأن فقرهم لم يكن بسبب تكاسلهم وإهمالهم في مباشرة الأسباب ، وإنما كان لأسباب خارجة عن إرادتهم .

وقوله ، في سبيل الله ، تكريم وتشريف لهم ، أى أن ما نزل بهم من فقر واحتياج كان بسبب إشارتهم لإعلاء كلمة الله على أى شئ آخر ، ففي سبيل الله هاجروا ، وفي سبيل الله تركوا أموالهم فصاروا فقراء ، وفي سبيل الله وقفوا أنفسهم على الجهاد ، وفي سبيل الله أصابهم ما أصابهم وهم يطلبون أداء ما كلفهم - سبحانه - بأدائه .

أما الصفة الثالثة من صفاتهم فقال فيها ، لا يستطيعون ضرباً في الأرض والضرب في الأرض هو السير فيها للكسب والتجارة وغيرهما .

أى أنهم عاجزون عن السير في الأرض لتحصيل رزقهم بسبب اشتغالهم بالجهاد ، أو بسبب ضعفهم وئلة ذات يدهم .

والصفة الرابعة من صفاتهم هي قوله - تعالى - ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، .

والتعفف : ترك الشئ والتبذع عن طلبه ، بقر النفس والتغلب عليها . يقال عف عن الشئ . يعف إذا كف عنه . والحسبان بمعنى الظن .

أى يظنهم الجاهل بحالهم ، أو الذى لا فراسة عنده ، يظنهم أغنياء من

أجل تجملهم وتعفهم عن السؤال ، أما صاحب الفراسة الصادقة ، والبصيرة النافذة فإنه يرحمهم ويعطف عليهم لأنه يعرف ما لا يعرفه غيره .
و ومنه في قوله « من التعفف ، للتعليل ، أو لابتداء الغاية لأن التعفف مبدأ هذا الحسبان .

أما الصفة الخامسة من صفاتهم فهي قوله - تعالى - « تعرفهم بسيماهم ، والسيما والسيما : العلامة التي يعرف بها الشيء ، وأصلها من الوسم بمعنى العلامة .

و المعنى : تعرف فقرهم وحاجتهم - أيها الرسول الكريم أو أيها المؤمن العاقل - بما ترى في هيئتهم من آثار تشهد بقلة ذات يدهم .

قال الإمام الرازي مامأخذه : قال مجاهد : «سيماهم» التخشع والتواضع .
أى - تعرفهم بتخشعهم وتواضعهم - وقال السدى : - تعرفهم بسيماهم - أى بأثر الجهد من الفقر والحاجة . وقال الضحاك : أى بصفرة ألوانهم ورنائهم ثيابهم ... ثم قال - رحمه الله - : وعندى أن كل ذلك فيه نظر والمراد شىء آخر هو أن لعباد الله المخلصين هيبة ووقفاً في قلوب الخلق ، وكل من رأيهم تأثر منهم وتواضع لهم ، وذلك له إدراكات روحانية ، لا علامات جسمانية . ألا ترى أن الأسد إذا مرهابتها سائر السباع بطابعها لا بالتجربة ، لأن الظاهر أن تلك التجربة ما وقعت ، والبازي إذا طار تهرب منه الطيور الضعيفة وكل ذلك إدراكات روحانية لا جسمانية فكذلك هنا . . . (١) .
وقد ذكر - سبحانه - في الجملة السابقة أن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء

من أجل تعفهم عن السؤال ، وذكر هنا أنهم يعرفون بسيماهم ، وذلك للإشعار بأن أنظار الناس تختلف باختلاف فراسطهم ونفاذ بصيرتهم . فأصحاب الانظار التي تأخذ الأمور بمظاهرها يظنونهم أغنياء ، أما أصحاب البصيرة المستنيرة ، والحس المرهف ، والفراسة الصادقة ، فإنهم يدركون ما عليه أوائك القوم من احتياج ، بسبب ما منحهم الله من فكر صائب

ونظر نافذ ، وفي الحديث الشريف : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، (١) .

أما الصفة السادسة من صفاتهم فهي قوله - تعالى - : « لا يسألون الناس إلحافاً » ، والإلحاف - كما يقول صاحب الكشاف - : هو الإلحاح بأن لا يفارق - السائل المستول - إلا بشئ - يعطاه - من قو لهم : لحفني من فضل لحافه أى أعطاني من فضل ما عنده . ومعناه : أنهم إن سألوا سألوا بتلطف ولم يلحفوا . وقيل هو نفي للسؤال والإلحاف ، (٢) .

والذي عليه المحققون من العلماء أن النفي منصب على السؤال وعلى الإلحاف أى أنهم لا يسألون أصلاً تعففاً منهم ، لأنهم لو كانوا يسألون ما ظنهم الجاهل أغنياء من التعفف ، ولو كانوا يسألون ما كانوا متعففين ، ولو كانوا يسألون ما احتاج صاحب البصيرة النافذة إلى معرفة حالهم عن طريق التفرس في سماتهم لأن سؤالهم كان يغنيه عن ذلك .

ولما جاء النفي بهذه الطريقة التي يروم ظاهرها أن النفي متوجه إلى الإلحاف وحده ، للموازنة بينهم وبين غيرهم ، فإن غيرهم إذا كان يسأل الناس إلحافاً فهم لا يسألون مطلقاً لا بإلحاف ولا بدونه ، والنفي بهذه الطريقة فيه تعريض للمتعففين وثناء على المتعففين . ولذا قال بعضهم : وإذا علم أنهم لا يسألون البتة فقد علم أنهم لا يسألون الناس إلحافاً والمراد النبيه على سوء طريقة من يسأل الناس إلحافاً ، ومثاله إذا حضر عندك رجلان أحدهما عاقل وقور قليل الكلام ، والآخر طياش مهذار سفيفه ، فإذا أردت أن تمدح أحدهما وتعرض بدم الآخر قلت : فلان رجل عاقل وقور لا يخوض في الترهات ولا يشرع في السفاهات ، ولم يكن غرضك من قولك لا يخوض في الترهات وصفه بذلك لأن ما تقدم من الأوصاف الحسنة يغنى عن ذلك ، بل غرضك النبيه على مذمة الثاني . فالامر هنا كذلك لأن قوله : « لا يسألون الناس إلحافاً » بعد قوله

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٢٤

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣٧٨

و يحسبهم الجاهل اغنياء من التمتع ، الغرض منه بيان مباينة أحد الجنسين
عن الآخر في استيجاب المدح والتعظيم ، (١) .

هَذَا وَتَدْرُدُ أَحَادِيثَ مُتَعَدَّةً تَدْعُ الْمُتَمَتِّعِينَ عَنِ السُّؤَالِ ، وَتَدْعُ
الْمُتَحَدِّثِينَ فِيهِ وَمِنْ ذَلِكَ مَا جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ
اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : إِبْرَاهِيمُ الْمَسْكِينِ الَّذِي تَرَدَّدَ اللَّقْمَةُ وَاللَّقْمَتَانِ وَلَا
الْتَمَرَةُ وَالنَّمْرَتَانِ إِنَّمَا الْمَسْكِينِ الَّذِي يَتَعَفَّفُ . أَقْرَبُوا إِنْ شِئْتُمْ : وَلَا يَسْأَلُونَ
النَّاسَ لِإِحْقَاقِهِ .

وَرَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ النَّبِيَّ
(صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قَالَ : لَا تَرْتَالِ الْمَسْأَلَةَ بِأَحَدٍ كَمْ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَلَا يَسْأَلُ فِي
وَجْهِهِ مِزْعَةَ لَحْمٍ .

وَرَوَى مُسْلِمٌ - أَيْضاً - فِي صَحِيحِهِ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : كَتَبْنَا تَسْعَةَ
أَوْ ثَمَانِيَةَ أَرْبَعِينَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ : أَلَا تَبَايَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقُلْنَا
عَلَامَ نَبَايَعُكَ ؟ قَالَ : أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً . وَالصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ
وَتَطْيِبُوا وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ . فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أَوْلَادِكَ النَّفَرِ يَسْقُطُ سَوْطُ
أَحَدِهِمْ فَلَا يَسْأَلُ أَحَدًا يَنَاقِلُهُ إِيَّاهُ .

وَالْخُلَاصَةُ أَنَّ السُّؤَالَ إِنَّمَا يَجُوزُ عِنْدَ الضَّرُورَةِ ، وَأَنَّهُ لَا يَصِحُّ لِمُؤْمِنٍ
أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ وَعِنْدَهُ مَا يَكْفِيهِ ، لِأَنَّ السُّؤَالَ ذَلٌّ يَرَبُّهُ بِنَفْسِهِ عَنْهُ كُلِّ مَنْ
يَحْفَظُ عَلَى مَرُورَتِهِ وَكَرَامَتِهِ وَشَرَفِهِ .

وَقَوْلُهُ « وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » تَهْرِيضٌ لِلْمُؤْمِنِ عَلَى الْبَدْلِ
وَالسَّخَاءِ ، وَتَرْقِيَةٌ لِنَفْسِهِ عَلَى التَّشْهُورِ بِمِرَاقِبَةِ اللَّهِ - تَعَالَى - وَهِيَ مَحَبَّةُ فِعْلِ الْخَيْرِ .
أَيُّ : وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ سِوَاهُ أَكَانَ الْمُنْفِقُ قَلِيلًا أَمْ كَثِيرًا سِرًّا أَمْ عَلَنًا
فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَسَيَجْزِيكُمْ عَلَيْهِ بِأَجْرٍ الشَّوَابِ ، وَأَعْظَمُ الْعَطَاءِ .

ثُمَّ خَتَمَ - سَبْحَانَهُ - الْحَدِيثَ عَنِ الْمُنْفِقَةِ وَالْمُنْفِقِينَ بِقَوْلِهِ : « الَّذِينَ يَنْفَقُونَ
أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ

عليهم ولا هم يحزنون . . .
 وقوله ، الذين يتفقون أمواهم بالليل والنهار سرأً وعلائية ، استئناف
 المقصود منه مدح أولئك الذين يعممون صدقاتهم في كل الأزمان وفي كل
 الأحوال فهم يتصدقون على المحتاجين في الليل وفي النهار ، في الغدو وفي
 الأصال ، في السر وفي العلان ، في كل وقت وفي كل حال ، لأنهم لقوة
 إيمانهم ، وصدقا نفوسهم يحرصون كل الحرص على كل ما يرضى الله تعالى .
 وقد بين الله - تعالى - في ثلاث جمل حسن عاقبتهم ، وعظيم ثوابهم
 فقال في الجملة الأولى : : فلهم أجرهم عند ربهم ، أى فلهم أجرهم الجزيل
 عند خالقهم ومربيهم ورازقهم .

والجملة الكريمة خبر لقوله والذين يتفقون . . . ودخلت الغاء في الخبر
 لأن الموصول في معنى الشرط فتدخل الغاء في خبره جوازاً ، وللدلالة على
 سببية ما قبلها لما بعدها أى أن استحقاق الأجر متسبب عن الإنفاق في
 سبيل الله .

وقال في الجملة الثانية ، ولا تحزن عليهم ، أى : لا تحزن عليهم من
 أى عذاب لأهم في مأمن من عذاب الله بسبب ما قدموا من عمل صالح .
 وقال في الجملة الثالثة ، ولا هم يحزنون ، أى لا يصيبهم ما يؤدي بهم
 إلى الحزن والهم والغم ، لأنهم دائماً في اطمانان يدفع عنهم الهموم والأحزان
 وقد روى المفسرون في سبب زول هذه الآية روايات منها أن علي
 ابن أبي طالب كان يملك أربعة دراهم فتصدق بدرهم ليلاً ، وبدرهم نهاراً
 وبدرهم سرأً ، وبدرهم علائية فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) ما حملك
 على ذلك ؟ فقال : أريد أن أكون أهلاً لما وعدني ربي . فقال (صلى الله
 عليه وسلم) : لك ذلك فأَنْزِلَ اللهُ هذه الآية ، (١) .

والحق أن هذه الرواية وغيرها لا تمنع عمرها ، فهي تنطبق على كل من
 بذل ماله في سبيل الله في عموم الأوقات والأحوال .

أما بعد : فهذه أربع عشرة آية بدأت من قوله - تعالى - « مثل الذين
 ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل . . . » وانتهت
 بقوله - تعالى - : « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرراً وعلانية فلهم
 أجرهم عند ربهم » .

والذي يقرأ هذه الآيات الكريمة بتقدير وتعمق يراها قد حضرت الناس على
 الإنفاق في سبيل الله بأبلغ الأساليب ، وأحكم التوجيهات ، وأفضل الوسائل ،
 كما يراها قد بينت أحكام الصدقة وآدابها ، والآفات التي تذهب بغيرها
 وضربت الأمثال لذلك ، كما يراها قد بينت أنواعها ، وطريقة أدائها ، وأولى
 الناس بها ورسمت صورة كريمة للفقراء المتعفين ، وكما بدأت الآيات حديثها
 بالثناء الجميل على المنفقين فقد ختمه أيضاً بالثناء عليهم وبالعاقبة الحسنی
 التي أعدها الله لهم .

ولو أن المسلمين أخذوا بتوجيهات هذه الآيات لعمتهم السعادة في دنياهم،
 سألوا لرضا الله ومشورته في آخرهم .

وبعد هذه السورة المثيرة التي ساقها القرآن عن النفقة والمنفقين أتبعها
 بصورة مضادة لها وهي صورة الربا والمرابين . ومن مظاهر التضاد والتباين
 بين الصورتين أن الصدقة بذل للمال في وجوه الخير بدون عرض ينتظره
 المتصدق ، أما الربا فهو لإخراج المال في وجوه الاستغلال لحاجة المحتاج
 مع ضمان لسفوداده ومع زيادة محرمة . وأن الصدقة تديجتها الرخاء والثناء
 والطهارة للمال ، وشيوع روح المحبة والتعامل والتكامل والاطمئنان بين
 أفراد المجتمع ، أما الربا فتديجته من الركة من المال ، وشيوع روح التقاطع
 والتحاسد والتباغض والخوف بين الناس . وانفسد نهر القرآن للناس من
 تتعاطى الربا تنفيراً شديداً وحذراً من سوء عاقبته تحذيراً مؤكداً

مقال - تعالى - :

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا

يُقِيمُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا

فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى

اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ

فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو

عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

وقوله - تعالى - والذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه -

الشيطان من المس . . . ، استئناف قصد به الترهيب من تعاطى الربا ،
بعد الترغيب في بذل الصدقة لمستحقيها .

ولم يعطف على ما قبله لما بينهما من تضاد ، لأن الصدقة - كما يقول
الفخر الرازي - عبارة عن تنقيص المال - في الظاهر - بسبب أمر الله بذلك ،
والربا عبارة عن طلب الزيادة على المال مع نهي الله عنه فكانا متضادين .
والأكل في الحقيقة . ابتلاع الطعام ، ثم أطلق على الافتتاع بالشيء .
وأخذه محرم وهو المراد هنا . وعبر عن التعامل بالربا بالأكل ، لأن
معظم مكاسب الناس تنفق في الأكل .

والربا في اللغة : الزيادة مطلقاً ، يقال : ربا الشيء - يربو إذا زاد ونما ،
ومنه قوله - تعالى - « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت
وربت . . . » ، أي : زادت .

وهو في الشرع : - كما قال الألويسي - عبارة عن فضل مال لا يقابله
عوض في معارضة مال بمال .

وقوله « يتخبطه » : من التخبط بمعنى الخبط وهو الضرب على غير
استواء واتساق . يقال : خبطته أخبطه خبطاً أي ضربته ضرباً متوالياً على
أنحاء مختلفة . ويقال : تخبط البعير الأرض إذا ضربها بقوائمه ويقال للذي يتصرف
في أمر ولا يتهدي فيه يتخبط خبط عشواء . قال زهير بن أبي سلمى في معلقته :
رأت المنايا خبط عشواء من تصبب تيمته ومن تخطى يعمر فيهرم

والمس : الخبل والجنون يقال : مس الرجل فهو ممسوس إذا أصابه الجنون . .
وأصل المس للمس باليد ، ثم استعير للجنون ، لأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه .
والمعنى : « الذين يأكلون الربا ، أي يتعاملون به أخذوا وإعطاءه لا يقومون » .
يوم القيامة للقاء الله لإقامة كقيام المتخبط المصروع المجنون حال صرعه
وجنونه ، وتخبط الشيطان له ، وذلك لأنه يقوم قياماً منكراً مفرغاً بسبب
أخذه الربا الذي حرم الله أخذه .

فالآية الكريمة تصور المرابي بتلك الصورة المرعبة المفزعة ، التي تحمل
كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها رائحة الربا .

وهنا نحب أن نوضح أمرين : أما الأمر الأول فهو أن جمهور المفسرين . . .

يروون أن هذا القيام المفزع للمرابين يكون يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم كما أشرنا إلى ذلك .

قال الألوسي : وقيام المرابي يوم القيامة كذلك مما نطق به الآثار، فقد خرج الطبراني عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «إياك والذنوب التي لا تغفر . الغلول فمن غل شيئاً أتى به يوم القيامة، وأكل الربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط ، ثم قرأ الآية وهو مما لا يحمله العقل ولا يمنعه ، ولعل الله - تعالى - جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له . . . ثم قال . وقال ابن عطية : المأد تشبيه المرابي في حرصه وتحرره في اكتسابه في الدنيا بالتخبط المصروع كما يقال لمن يسرع بحركات مختلفة : قد جن ، ولا يخفى أنه مصادمة لما عليه سلف الأمة ولما روى عن رسول (صلى الله عليه وسلم) من غير داع سوى الاستبعاد الذي لا يعتبر في مثل هذه المقامات » (١) .

والذي فراه أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا في قلق مستمر ، وانزعاج دائم ، واضطراب ظاهر بسبب جشعهم وشرهم في جمع المال ، ووساوسهم التي لا تكاد تفارقهم وهم يفكرون في مصير أموالهم . . . ومن يتتبع أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين في أقوالهم وحركاتهم . أما في الآخرة فقد توقعهم الله - تعالى - بالعقاب الشديد ، والعذاب الأليم .

وقد رجح الإمام الرازي أن الآية الكريمة تصور حال المرابي في الدنيا والآخرة فقال ما ملخصه : «إن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله ، ومن كان كذلك كان في أمر الدنيا متخبطاً . . . وأكل الربا بلا شك أنه يكون مفرطاً في حب الدنيا متم الكافيها ، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك حجاباً بينه وبين الله - تعالى - ، فالخبط الذي كان حاصله في الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط في الآخرة وأوقعه في ذل

الحجاب ، وهذا التأويل أقرب عندى من غيره ، (١) .
 وأما الأمر الثانى فهو جمهور المفسرين يرون أيضاً أن التشبيه فى الآية
 الكريمة على الحقيقة ، بمعنى أن الآية تشبه حال المرابين بحال المجنون الذى
 سمه الشيطان ، لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والجنون .
 ولكن الزمخشرى ومن تابعه ينكرون ذلك ، ويرون أن كون الصرع
 أو الجنون من الشيطان باطل لأنه لا يقدر على ذلك ، فقد قال الزمخشرى
 فى تفسيره : وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أن الشيطان
 يخبط الإنسان فيصرع . والمس الجنون ، ورجل ممسوس - أى مجنون - .
 وهذا أيضاً من زعماتهم ، وأن الجنى يمسّه فتختلط عقله ، وكذلك جن
 الرجل معناه ضربته الجن ، ورأيتهم لهم فى الجن قصص وأخبار وعجائب ،
 وإنكار ذلك عندهم كإنكار المشاهدات ، (٢) .

ومن العلماء الذين تصدوا للرد على الزمخشرى ومن تابعه الإمام القرطبى
 فقد قال : وفى هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة
 الجن وزعم أنه من فعل الطباع ، وأن الشيطان لا يسلك فى الإنسان ولا
 يكون منه مس . وقد روى النسائى عن أنى اليسر قال : كان رسول الله
 (صلى الله عليه وسلم) يدعو فيقول : اللهم إني أعوذ بك من الفردى والفرق
 والهدم والحريق ، وأعوذ بك من أن يتخبطنى الشيطان عند الموت ، وأعوذ
 بك أن أموت فى سبيلك مدبراً وأعوذ بك أن أموت لديقاً ، (٣) .

وقال للشيخ أحمد بن المنير : ومعنى قول الزمخشرى أن تخبط الشيطان
 من زعمات العرب ، أى من كذباتهم وزخارفهم التى لاحقيقة لها ، كما يقال
 فى الغول والعنقاء ونحو ذلك . وهذا القول من تخبط الشيطان بالقدرة
 - أى المعتزلة - فى زعماتهم المردودة بقواطع الشرع ، ثم قال : واعتقاد

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٩٦

(٢) تفسير الكشاف للزمخشرى ج ١ ص ٢٢٠

(٣) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٢٥٥

السلف وأهل السنة أن هذه أمور على حقا تمقها واقعة كما أخبر الشارع عنها -
 والتقديرة ينكرون كثير مما يزعمونه مخالفاً لقواعدهم . من ذلك السحر ،
 وخبطة الشيطان ، ومعظم أحوال الجن . وإن اعترفوا بشئ من ذلك فعلى غير
 الوجه الذي يعترف به أهل السنة وينبئ عنه ظاهر الشرع في خيط طويل لهم ، (١)
 والذي نراه أن ما نليه جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق ،
 لأن الشيطان قد يس الإیمان فيصيبه بالجنون ، ولأنه لا يسوغ لنا أن نقول
 القرآن بغير ظاهره بسبب إتجاه لا دليل عليه .

وقوله « من المس ، متعلق بيقومون أى لا يقومون من المس الذى
 حل بهم بسبب أكلهم الربا إلا كما يقوم المصروع من جنونه .

وقوله - تعالى - « ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله
 البيع وحرم الربا ، بيان لزعمهم الباطل الذى سوغ لهم التعامل بالربا ،
 ورد عليه بما يدمه .

واسم الإشارة ذلك ، يعود إلى الأكل أو إلى العقاب الذى نزل بهم -
 والمعنى : ذلك الأكل الذى استحلوه عن طريق الربا ، أو ذلك العذاب
 الذى حل بهم والذى من مظاهر قيامهم المنتخب - ، سببه قولهم أن البيع الفدى
 أحله الله يشابه الربا الذى تتعامل به فى أن كلا منهما معارضة .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن
 الكلام فى الربا لا فى البيع ، فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه
 وكانت شبهتهم أنهم قالوا : لو اشترى الرجل الشئ الذى لا يساوى لإادرهما
 بدرهمين جاز ، فكذلك إذ باع درهما بدرهمين ؟ قلت : جىء به على طريق
 المبالغة . وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً
 فى الحل حتى شبهوا به البيع ، (٢) .

وقوله « وأحل الله البيع وحرم الربا ، جملة مستأنفة ، وهى رد من

(١) الانتصاف على الكشاف لابن المنير ج ١ ص ٢٢٠ من الكشاف

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٢٢١

لأنه - تعالى - عليهم ، وإنكار لتسويتهم الربا بالبيع .

قال الآلوسی : وحاصل هذا الرد من الله - تعالى - عليهم : أن ما ذكرتم من أن الربا مثل البيع - قياس فاسد الوضع لأنه معارض للنص فهو من عمل الشيطان ، على أن بين اليايين فرقا ، وهو أن من باع ثوبا يساوي درهما بدرهمين فقد جعل الثوب مقابلا لدرهمين فلا شيء منهما إلا وهو في مقابلة شيء من الثوب ، وأما إذا باع درهما بدرهمين فقد أخذ الدرهم الزائد بدون عوض ، ولا يمكن جعل الإمهال عرضاً إذا الإمهال ليس عمال في مقابلة المال (١) وقوله : فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله . . .

تفريع على الوعيد السابق في قوله : الذين يأكلون الربا . . الخ . . .

والجبيء بمعنى العلم والبلاغ ، والموعظة : ما يعظ الله - تعالى - به عباده عن طريق زجرهم وتخويفهم وتذكيرهم بسوء عاقبة المخالفين لأوامره .
أى : فمن بلغه نهي الله - تعالى - عن الربا ، فامتنل وأطاع وابتعد عما نهاه الله عنه ، فله ما سلف ، أى فله ما تقدم قبضه من مال الربا قبل النهي .
وليس له ما تقدم الإتفاق عليه ولم يقبضه . . لأن الله - تعالى - يقول بعد ذلك : وإن تبتم فلنكم رؤوس أموالكم

وقوله : وأمره إلى الله ، أى أمر هذا المرابي الذي تعامل بالربا قبل التحريم واجتنبه بعده ، أمره مفوض إلى الله - تعالى - فهو الذي يعامله بما يقتضيه فضله وعفوه وكرمه .

قال ابن كثير : قوله : فمن جاءه موعظة من ربه . . . الخ ، أى من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة لقوله : عفا الله عما سلف ، وما قال النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم فتح مكة : وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين وأول ربا أضع ربا عمي للعباس ، ولم يأمرهم برد الزبادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما

سلف كما قال - تعالى - : دُفله ماسلف وأمره إلى الله ، أى فله ما كان قد أكل من الربا قبل التحريم ، (١) .

و من ، فى قوله دُفن جاءه موعظة ، شرطية وهو الظاهر ، ويحتمل أن تكون موصولة : وعلى التقديرين فهى فى محل رفع بالإبتداء ، وقوله دُفله ماسلف ، هو الجزاء أو الخير ، ودموعظة ، فاعل جاء ، وسقطت التاء من الفعل للفعل بينه وبين الفاعل وتكون الموعظة هنا بمعنى الوعظ فهى فى معنى المذكر وقوله دُمن ربه ، جار ومجرور متعلق بجاءه ، أو محذوف وقع صفة لموعظة وفى قوله دُمن ربه ، تفخيم لشأن الموعظة ، وإغراء بالامتثال والطاعة لأنها صادرة من الله - تعالى - المرئى لعباده .

وفى هذه الجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر السماحة فيما شرعه الله لعباده ، لأنه - سبحانه - لم يعاقب المرابين على ما مضى من أمرهم قبل وجود الأمر والنهى ، ولم يجعل تشريعه بأثر رجعى بل جعله للمستقبل ، إذ الإسلام يجب ما قبله . فأأكله المرابى قبل تحريم الربا فلا عقاب عليه فيه وهو ملك له ، إلا أنه ليس له أن يتعامل به بعد التحريم ، وإذا تعامل به فلن تقبل توبته حتى يتخاص من هذا المال الناتج عنه الربا .

ولقد توعد الله - تعالى - من يعود إلى التعامل بالربا بعد أن حرمه الله - تعالى - فقال : ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، . أى ومن عاد إلى التعامل بالربا بعد أن نهى الله عنه فأولئك العائدون هم أصحاب النار الملازمون لها ، والمالكون فيها بسبب تمديدهم لما نهى الله عنه وفى هذه الجملة الكريمة تأكيد للعقاب النازل بأولئك العائدين بوجود من المؤكدات منها : التعبير بالجملة الاسمية التى تفيد الدوام والاستمرار والتعبير عن رحمة الله ، والتعبير بالجملة الاسمية التى تفيد الدوام والاستمرار والتعبير بكلمة أصحاب الدالة على الملازمة والمصاحبة ، وبكلمة خالدون ، التى تدل على طول المكث .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المرابين ، وحسن عاقبة المتصدقين فقال : **وَيَحِقُّ لِلَّهِ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ .**

والمحق : النقصان والإزالة للشيء حالاً بعد حال ، ومنه محاق القمر ، أى انتقاصه فى الروبة شيئاً فشيئاً حتى لا يرى ، فكأنه زال وذهب ولم يبق منه شيء .

أى : أن المال الذى يدخله الربا يحقه الله ، ويذهب بركته ، أما المال الذى يبدل منه صاحبه فى سبيل الله فإنه - سبحانه - يباركه وينميه ويزيده لصاحبه .

قال الإمام الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : اعلم أنه لما كان الداعى إلى التعامل بالربا تحصيل المزيد من الخيرات ، والصارف عن الصدقات الاحترار عن نقصان المال ، لما كان الأمر كذلك بين - سبحانه - أن الربا ، وإن كان زيادة فى الحال إلا أنه نقصان فى الحقيقة ، وأن الصدقة وإن كانت نقصاناً فى الصورة إلا أنها زيادة فى المعنى ، واللائق بالعاقل أن لا يلتفت إلى ما يقضى به الطبع والحس والدواعى والصوارف ، بل يعول على ما أمر به الشرع .

ثم قال : واعلم أن محق الربا وإرباء الصدقات يحتمل أن يكون فى الدنيا وأن يكون فى الآخرة . أما محق الربا فى الدنيا فن وجود أحدهما : أن الغالب فى المرابى وإن كثرت ماله أن تؤول عاقبته إلى الفقر ، وتزول البركة عنه فى الحديث : **الزبا وإن كثرت فإلى قل وثانيتها : إن لم ينقص ماله فإن طاقبته الذم والنقص وسقوط العدالة وزوال الأمانة ، وثالثها : إن الفقراء يلعنونه ويغضونه بسبب أخذهم لأموالهم ... ورابعها : أن الأطماع تتوجه إليه من كل ظالم وطماع بسبب اشتهاه أنه قد جمع ماله من الربا ويقولون : إن ذلك المال ليس له فى الحقيقة فلا يترك فى يده .**

وأما أن الربا مسبب للمحق فى الآخرة فلو جوه منها أن الله - تعالى - لا يقبل منه صدقة ولا جهاداً ولا صلة رحم - كما قال ابن عباس - ، ومنها

أن مال الدنيا لا يبقى عند الموت بل الباقي هو العقاب وذلك هو الخسار الأكبر
وأما إرباء الصدقات في الدنيا فن وجود منها : أن من كان لله كان الله
له ، ومن أحسن إلى عباد الله أحسن الله إليه وزاده من فضله ، ومنها أن
يزداد كل يوم في ذكره الجميل وميل القلوب إليه ، ومنها أن الفقراء يدعون
بالدعوات الصالحة وتنفذ عنه الأطماع .

وأما إرباؤها في الآخرة فقد روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول
الله (صلى الله عليه وسلم) : إن الله - تعالى - يقبل الصدقات ويأخذها
بيمينه فيربها كما يربي أحدكم مهره ، أو فلوه حتى إن اللقمة لتصير
مثل أحد ، (١) .

ففي هذه الجملة الكريمة بشاراة عظيمة للمتصدقين ، وتهديد شديد للمرايين
ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : والله لا يحب كل كفار أثيم .
و د كفار ، من كفر بمعنى ستر وأخفى ووجدت في صيغة مبالغة لكافر .
و د أثيم ، فعيل بمعنى فاعل فهي صيغة مبالغة من آثم ، والأثيم هو
الكافر من ارتكب الآثام المبطية . عن فعل الخيرات .

أى : أن الله - تعالى - لا يرضى عن كل من كان شأنه السر لنعمه
والجحود لها ، والتعادي في ارتكاب المنكرات ، والابتعاد عن فعل الخيرات .
وقد جمع - سبحانه - بين الوصفين الإشارة إلى أن إيمان المرابين
ناقص إن لم يستحلوه وهم كفار إن استحلوه ، وهم في الحالتين آثمون
مما قبون ، بعيدون عن محبة الله ورضاه . وسيعاقب - سبحانه - الناقصين في
إيمانهم ، والكافرين به بما يستحقون من عقوبات .

فالجملة الكريمة تهديد شديد لمن استحلوا الربا ، أو فعلوه مع عدم
استحلالهم له .

وبعد هذا التهديد الشديد للمتعاملين بالربا ، ساق - سبحانه - آية فيها أحسن البشارات للمؤمنين الصادقين فقال - تعالى - :

« إن الذين آمنوا ، أى إيماناً كاملاً بكل ما أمر الله به ، وعملوا الصالحات ، أى الأعمال الصالحة التى تصلح بها نفوسهم ، والتى من جملتها الإحسان إلى المحتاجين ، والابتعاد عن الربا والمرابين ، وأقاموا للصلاة ، بالطريقة التى أمر الله بها ، بأن يؤدوها فى أوقاتها بخصر وأطمئنان ، وآتوا الزكاة ، أى أعطوها لمستحقيها بإخلاص وطيب نفس .

هؤلاء الذين انصفوا بكل هذه الصفات الفاضلة ، لهم أجرهم عند ربهم ، أى لهم ثوابهم الكامل عند خالقهم ورازقهم ومربيهم .

« ولا خوف عليهم ، يوم الفرع الأكبر ، ولا هم يحزنون ، لآى سبب من الأسباب ، لأن ما هم فيه من أمان واطمئنان ورضوان من الله تعالى ، يجعلهم فى فرح دائم ، وفى سرور مقيم .

ثم ينتقل القرآن إلى أسلوب الخطاب المباشر للمؤمنين فيما أمرهم بتقوى الله ، وبيناهم عن التعامل بالربا فيقول : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، أى اخشوه ووصفوا أنفسكم عن الأعمال والأقوال التى تفضى بكم إلى عقابه .

وقوله « وذروا ما بقى من الربا ، أى : اتركوا ما بقى فى ذمم الذين حاملتموه بالربا ولا تأخذوا منهم إلا رموس أموالكم فحسب ، فهذا مقابل لقوله - تعالى - قبل ذلك « فله ما سلف ، أى عما سلف قبضه من الربا قبل نزول الآية فهو لكم ، وما لم يقبضوه فأنتم مأمورون بتركه .

وقوله « من الربا ، متعلق بحذوف على أنه حال من فاعل « بقى ، أى اتركوا الذين بقى حال كونه بعض الربا ، ومن للتبويض . أو متعلق ببقى . و« ذروا ، فعل أمر - بوزن علوا - مبنى على حذف النون والواو

مخالف ، وأصله « وذروا ، فحذفت فاؤه ، والماضى منه « وذروا » .

وقوله « إن كنتم مؤمنين ، حض لهم على ترك الربا أى إن كنتم

مؤمنين - حق الإيمان فانتحلوا أمر الله وذروا ما بقى من الربا بما زاد على
روم أموالكم .

قال ابن كثير : نزل هذا الحديث في إف عمرو بن عمير بن ثقيف ، وبنى
المغيرة من بنى مخزوم كان بينهم ربا في الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا
فيه ، طلبت ثقيف أن تأخذ منهم فشاوروا . وقالت بنو المغيرة : لا تؤدى
في الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فنزلت هذه الآية ، فكتب بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
إليه . فقالوا تتوب إلى الله وتذروا ما بقى من الربا فتركوه كلهم . وهذا
تهديد شديد ووعيد أكيد أكل من استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار (١) .
ثم هدّد الله - تعالى - كل من يتعامل بالربا تهديداً هنيئاً فقال : « فإن لم تفعلوا
فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .

أى : فإن لم تتركوا الربا وأخذتم منه شيئاً بعد نهيكم عن ذلك ، فكونوا
على علم ويقين بحرب كائنة من الله - تعالى - ورسوله ، ومن حاربه الله
ورسوله لا يفلح أبداً .

وقوله « فأذنوا » من أذن بالشئ - يأذن إذا عامه . وقرئ « فأذنوا »
من آذنه الأمر وآذنه به : أعامه إياه : أى أعاموا من لم ينته عن الربا
بحرب من الله ورسوله .

وتذكير « حرب » ، للتحويل والتعظيم أى فكونوا على علم ويقين من أن
حرباً عظيمة ستنزل عليكم من الله ورسوله .

قال بعضهم : والمراد المبالغة في التهديد دون نفس الحرب . وقال آخرون :-
المراد نفس الحرب بمعنى أن الإصرار على عمل الربا إن كان من شخص
وقدر عليه الإمام تبص عليه وأجرى فيه حكم الله من الحبس والتعزير إلى
أن تظهر منه التوبة . وإن وقع من يكون له عسكر وشوكة ، حاربه الإمام

(١) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣٣٠ بتصرف يسير .

كما يحارب الفتنه الباغية ، وكما حارب أبو بكر الصديق مانعي الزكاة .
وقال ابن عباس : من تعامل بالربا يستتاب فإن تاب وإلا ضرب
عنقه (١) .

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم عند توبتهم عن التعامل بالربا فقال :
« وإن تبتم فلنكم رهوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .
أى : وإن تبتم عن التعامل بالربا الذي يوجب الحرب عليكم من الله
ورسوله ، فلنكم رهوس أموالكم أى أصولها بأن تأخذوها ولا تأخذوها
سواها ، وبذلك لا تكونون ظالمين لغير ما كنتم ، ولا يكونون ظالمين لكم ،
لأن من أخذ رأس ماله بدون زيادة كان مقسطاً ومتفضلاً ، ومن دفع ما
عليه بدون إنقاص منه كان صادقاً في معاملته .

ثم أمر الله - تعالى - الدائنين أن يصبروا على المدبنين الذين لا يجدون
ما يؤدون منه ديونهم فقال - تعالى - : « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى
ميسرة » .

والعسرة : اسم من الإعسار وهو تعذر الموجود من المال . يقال : أعسر
الرجل إذا صار إلى حالة العسرة وهى الحالة التى يتعسر فيها وجود المال .
والنظرة : اسم من الإلتظار بمعنى الإمهال . يقال : نظره وانتظره
وتنظره ، تأنى عليه وأمهله فى الطلب .

والميسرة : مفعلة من اليسر الذى هو ضد الإعسار . يقال : أيسر الرجل
فهو موسر إذا اغتنى وكثر ماله وحسنت حاله .

والمعنى : وإن وجد مدبني معسر فأمهله فى أداء دينه إلى الوقت الذى
يتمكن فيه من سداده ما عليه من ديون ، ولا تكونوا كأهل الجاهلية الذين
كان الواحد منهم إذا كان له دين على شخص وحل موعد الدين طالبه
بشدة وقال له : إما أن تقضى وإما أن تربي أى تدفع زيادة على أصل الدين .

وكان ، هنا الظاهر أنها تامة بمعنى وجد أو حدث ، فتكتفى بفاعلها كسائر الأفعال . وقيل يجوز أن تكون ناقصة واسمها ضمير مستكن فيها يعود إلى المدين وإن لم يذكر وقوله « فنظرة » الفاء جواب الشرط . ونظرة خبر لمبتدأ محذوف أى فالأمر أو فالواجب أو مبتدأ محذوف الخبر أى فعليكم نظرة .

ثم حيب - سبحانه - إلى عباده التصديق بكل أو ببعض ما لهم من ديون على المدينين المعسرين فقال - تعالى - : « وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم مؤمنين » .

أى : وأن تتركو للمعسر كل أو بعض ما لكم عليه من ديون وتصدقوا بها عليه ، فإن فعلكم هذا يكون أكثر ثوابا لكم من الإنظار . وجواب الشرط في قوله « إن كنتم تعلمون » محذوف . أى إن كنتم تعلمون أن هذا التصديق خير لكم فلا تقباطوا في فعله ، بل سارعوا إلى تنفيذه فإن التصديق بالدين على المعسر ثوابه جزيل عند الله - تعالى - . وقد أورد بعض المفسرين جملة من الأحاديث النبوية التي تحض على إهمال المعسر ، والتجاوز عما عليه من ديون .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال : « من نفس عن غريمه أو محبا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة » .

وروى الطبراني عن أسعد بن زرارة أن رسول الله ﷺ قال : « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه » .

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر » (١) .

ثم ساق - سبحانه - في ختام حديثه عن الربا آية كريمة ذكر الناس فيها بزوال الدنيا وفناء ما فيها من أموال ، وبالاستعداد للآخرة وما فيها من حساب فقال - تعالى - و اتقوا يوماً ترجعون . فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون .

أى : واحذروا أيها المؤمنون يوماً عظيماً في أهواله وشدائده ، وهو يوم القيامة الذي تعودون فيه إلى خالقكم فيحاسبكم على أعمالكم ، ثم يجازى - سبحانه - كل نفس بما كسبت من خير أو شر بمقتضى عدله وفضله ، ولا يظلم ربك أحداً .

فالأية الكريمة تعقيب حكيم يتناسب كل التناسب مع جو المعاملات والأخذ والعطاء ، حتى يتعد الناس عن كل معاملة لم يأذن بها الله - تعالى - . قال الألوسي : أخرج غير واحد عن ابن عباس أن هذه الآية هي آخر ما نزل على رسول الله - ﷺ - من القرآن . واختلف في مدة بقائه بعدها . فقيل : تسع ليال . وقيل : سبعة أيام . وقيل : واحداً وعشرين يوماً . وروى أنه قال : اجعلوها بين آيات الربا وآية الدين . . . (١) .

هذا ، والمندبر في هذه الآيات التي وردت في موضوع الربا ، يراها قد نفرت منه تنفيراً شديداً ، وتوعدت متعاطيه بأشد العقوبات ، وشبهت الذين ياكلونه بشبهيمات تفرغ منها النفوس ، وأشبهت منها القلوب ، وحضت المؤمنين على أن يلتزموا في معاملاتهم ما شرعه الله لهم ، وأن يتساحلوا مع المعسرين ويتصدقوا عليهم بما يستطيعون التصديق به .

وقد تكلم الفقهاء (٢) وبعض المفسرين عن الربا وأقسامه وحكمة تحريمه كلاماً مستفيضاً ، قل بعضهم : الربا قسمان : ربا النسبيمة ، و ربا الفضل .

(١) تفسير الألوسي ج ٣ صفحة ٥٤ .

(٢) راجع على سبيل المثال تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٣٤٧ . وتفسير

المناج ج ٣ صفحة ١٠٦ .

فربا النسبية : هو الذي كان معروفا بين العرب في الجاهلية ، وهو أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوه في موعد معين ، فإذا حل الأجل طوّل المدين برأس المال كاملا ، فإن تعذر الأداء زادوا في الحق وفي الأجل . وربا الفضل : أن يباع درهم بدرهمين ، أو دينار بدينارين ، أو رطل من العسل برطلين ، أو كيلة من الشعير بكيلتين .

وكان ابن عباس في أول الأمر لا يحرم إلا ربا النسبية وكان يجوز ربا الفضل اعتماداً على ما روى من أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « إنما الربا في النسبية ، ولكن لما تواتر عنده الخبر بأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : الحنطة بالحنطة مثلاً بمثل بدأ بيد ، رجع عن قوله . لأن قوله - صلى الله عليه وسلم - « إنما الربا في النسبية » محمول على اختلاف الجنس فإن النسبية حينئذ تحرم ويباح التفاضل كبيع الحنطة بالشعير . تحرم فيه النسبية ويباح التفاضل .

ولذلك وقع الاتفاق على تحريم الربا في القسمين : أما ربا النسبية فقد ثبت تحريمه بالقرآن كما في قوله - تعالى - « وأحل الله البيع وحرم الربا » . وأما ربا الفضل فقد ثبت تحريمه بالحديث الصحيح الذي رواه عبادة ابن الصامت أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر . والمالح بالمالح . مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، بدأ بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كانت بدأ بيد » .

وقد اشتهرت رواية هذا الحديث حتى صارت مسلمة عند الجميع . وجمهور العلماء على أن الحرمة ليست مقصورة على هذه الأشياء الستة ، بل تتعداها إلى غيرها مما يتحد معها في العلة . وقد فسر بعضهم هذه العلة باتحاد الجنس والقدر . . . (١)

(١) تفسير آيات الأحكام - بتصرف وتلخيص - للشيخ محمد علي السائس ج ١ صفحة ١٦١ .

ومن الحكم التي ذكرت في أسباب تحريم الربا : أنه يقتضى أخذ مال الغير بدون عوض ، ويؤدى إلى امتناع أصحاب الأموال عن تحمل المشاق في الكسب والتجارة والصناعة ، وإلى استغلال حاجة المحتاج أسوأ استغلال وكل ذلك يفضى إلى إشاعة روح التباغض والنخاصم والتحاسد بين أفراد المجتمع - كما سبق أن أشرنا - .

ومن الأحاديث الشريفة التي وردت في التحذير من تعاطى الربا ما رواه الشيخان عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : اجتنبوا السبع الموبقات - أى المهم لكات - قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ، وأخرج مسلم فى صحيحه عن جابر بن عبيد الله قال : لعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه . ،

وبعد أن أمر - سبحانه - المؤمنين أن يسارعوا فى التصديق على المحتاجين ، وأن يجتنبوا الربا والمرابين ، وبين لهم أن أموالهم تزكو وتنمو بالإتفاق فى وجوه الخير ، وتمحق وتذهب بمتاع الربا ، بعد أن وضع كل ذلك ساق لهم آية جامعة ، متى اتبعوا توجيهاتها استطاعوا أن يحفظوا أموالهم بأفضل طريق ، وأشرف وسيلة ، وأن يصرفوها عن الهلاك والضياع عندما يعطى أحدهم أخاه شيئاً من المال على سبيل الدين أو القرض الحسن المنزه عن الربا . استمع إلى القرآن وهو يتكلم عن أحكام الدين وعن أحكام بعض المعاملات التجارية الحاضرة فيقول :

يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِيَدَيْنِ إِلَىٰ أَجَلٍ
مَّسْمُومٍ فَآكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ
أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ
اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا
أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَئَ بِهِ فليَمْلِكْ لِيهِ بِالْعَدْلِ وَأَسْشْهِدُوا
شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ
تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ
وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا
أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ
أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجْرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِ اللَّهُ

وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾

قال ابن كثير : قوله - تعالى - يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، هذا إرشاد منه - تعالى - لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات

مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها - وقد نبه على ذلك في آخر الآية حيث قال : « ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا ، وروى البخاري عن ابن عباس أنه قال : أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى قد أحله الله وأذن فيه ثم قرأ دبايها الذين آمنوا إذا تداينتم . . الآية . » وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قدم النبي : صلى الله عليه وسلم - المدينة وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « من أسلف فللسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » (١) .

ومعنى « تداينتم » تعاملتم بالدين وداين بعضكم بعضاً . وحقيقة الدين - كما يقول القرطبي - « عبارة عن كل معاملة كان أحد العوضين فيها نقداً والآخر في الذمة نسيئة ، فإن العين عند العرب ما كان حاضراً ، والدين ما كان غائباً ، (٢) .

والأجل في اللغة هو الوقت المضروب لانقضاء الأمد ، وأجل الإنسان هو الوقت المحدد لانقضاء عمره . وأجل الدين هو الوقت المعين لادائه في المستقبل . وأصله من التأخير ، يقال : أجل الشيء - يأجل إذا تأخر والأجل تقيض العاجل .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا إذا عامل بعضكم بعضاً بالدين إلى وقت معين فاكتبوا هذا الدين ، لأن في هذه الكتابة حفظاً له ، وضبطاً لمقداره ، ومنعاً للتنازع من أن يقع بينكم .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا قيل : إذا تداينتم إلى أجل مسمى ، وأي حاجة إلى ذكر الدين ؟ قلت : ذكر - لفظ الدين - ليرجع الضمير إليه في قوله : « فاكتبوه » ، إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال : فاكتبوا الدين ، فلم يكن النظم بذلك الحسن ، ولأنه أبين لتنوين الدين إلى مؤجل وحال .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٣٣٤ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٣ صفحة ٣٧٧ .

فإن قلت : ما فائدة قوله « مسمى » قلت : ليعلم أن من حق الأجل أن يكون معلوما كالنقوت بالسنة والأشهر والأيام . ولو قال : إلى الحصاد أو الدياس أو رجوع الحاج لم يجز لعدم التسمية ، (١) .

وجمهور العلماء على أن الأمر في قوله « فاكتبوه » للندب ، ولأن الله - تعالى - قد قال بعد ذلك « فإن أمن بضمكم بعضاً فليؤد الذي أتمن أمانيه ، ولأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يلزم الدائنين بكتابة ديونهم ، ولا المدبنين بأن يكتبوها .

وقال الظاهرية : إن الأمر هنا للوجوب ، ومن لم يفعل ذلك كان آمناً ، لأن الأصل في الأمر أنه للوجوب . . .

وقوله « وليكتب بينكم كاتب بالعدل » بيان لكيفية الكتابة المأمور بها وتعيين من يتولاهما عقب الأمر بها على سبيل الإجمال .

أى : عليكم أيها المؤمنون إذا تعاملتم بالدين إلى أجل معين أن تكتبوا هذا الدين ، وليتول الكتابة بينكم شخص يجيدها وعنده فقهها وعلمها ، بأن يكون على معرفة بشروط العقود وتوثيقها ، وما يكون من الشروط موافقاً لشريعة الإسلام وما يكون منها غير موافق . وعلى هذا الكاتب أن يلتزم الحق مع الدائن والمدين في كتابته ، لأن الله - تعالى - يقول : « ولا يجز منكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » . فالجمله الكريمة تحض المتعاملين بالدين أن يختاروا لكتابته شخصاً تتوفر فيه إجاده الكتابة ، والخبرة بشروط العقود وتوثيقها ، كما تتوفر فيه الاستقامة وتحري الحق . ومفعول « يكتب » محذوف ثقة بانضمامه أى وليكتب بينكم الكتابة كاتب بالعدل . والتقييد بالظرف بينكم للإيضاح بأنه ينبغي للكاتب ألا يسمح لنفسه بأن يتفرد به أحد المتعاقدين ، لأن في هذا الانفراد ثمة يجب أن يربأ بنفسه عنها .

والجار والمجرور وهو بالعدل ، متعلق بمحذوف صفة لكاتب أى :
وليكن المتصدى للكتابة من شأنه أن يكتب بالسوية من غير ميل إلى أحد
الجانبيين . أو متعلق بالفعل يكتب . أى : وليكتب بالحق .

ثم نهى الله - تعالى - من كان قادراً على الكتابة عن الامتناع عنها متى
دعى إليها فقال : د ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ، .
أى : ولا يمتنع كاتب من أن يكتب للمتدائنين ديونهما بالطريقة التى
علمه الله لإبائها أن يشجرى العدل والحق فى كتابته ، وأن يلتزم فيها ما تقتضيه
أحكام الشريعة الإسلامية .

فالكاف فى قوله - تعالى - د كما علمه الله ، نعت لمصدر محذوف والتقدير :
فليكتب كتابة مثل ما علمه الله - تعالى - بمعنى أن يلتزم الحق والعدل فيها .
ويجوز أن تكون الكاف للتعليل فيكون المعنى : لا يمتنع عن الكتابة لأنه
كما علمه الله لإبائها وبسرها له ونفعه بها ، فعليه أن ينفع غيره بها ، فهو كقوله
- تعالى - د وأحسن كما أحسن الله إليك ، وفى الحديث الشريف د إن من
الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق ، وفى حديث آخر د من كنتم علماء
يعلمه أجه لله بلجام من نار يوم القيامة ، (١) .

وقوله د فليكتب ، تفريع على قوله د ولا ياب كاتب ، أى : فليكتب
الكتابة التى علمه الله لإبائها فهو توكيد للأمر بالاستفاد من قوله د ولا ياب كاتب .
ويجوز أن يكون توكيداً للأمر الصريح فى قوله د وليكتب بينكم كاتب بالعدل ،
قال القرطبى : واختلف الناس فى وجوب الكتابة على الكاتب والشهادة
على الشاهد . فقال الطبرى : واجب على الكاتب إذا أمر أن يكتب . وقال
الحسن : ذلك واجب عليه فى الموضع الذى لا يقدر على كاتب غيره فيضرب
صاحب الدين إن امتنع ، فإن كان كذلك فهو فریضة ، وإن قدر على كاتب
غيره فهو فى سعة إذا قام بها غيره ، (٢) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣٥

(٢) تفسير القرطبى ج ٣ ص ٣٨٥

وإلى هنا تكون الآية السكرية قد قررت مبدأ الكتابة في الدين ،
 وبقت كيفية الكتابة ، وأشارت إلى إجادة الكاتب لها ، ونهته عن الإمتناع
 عنها إذا دعى إليها . ثم انتقلت الآية بعد ذلك إلى بيان من يتولى الإملاء
 فقال - تعالى - : « وليلال الذي عليه الحق ، وابتق الله ربه ، ولا يبغض منه شيئاً »
 والإملال معناه الإملاء . فهما لغتان معناهما واحد . وقد جاء القرآن
 باللغتين قال - تعالى - : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه -
 بكرة وأصيلا ، .

أى : وعلى المدين الذين عليه الدين وقد التزم بأدائه أن يمل على الكاتب
 هذا الدين ، وذلك ليكون إملاؤه إقراراً به وبال حقوق التي عليه الوفاء
 بها . وعليه كذلك أن يراقب الله - تعالى - في إملائه فلا يتقص من الدين
 الذي عليه شيئاً ، لأن هذا الإنقاص ظلم حرمه الله - تعالى - .
 وقد أمر الله - تعالى - بأن يكون الذي يمل على الكاتب هو المدين لأنه
 هو المكلف بأداء مضمون الكتابة ، ولأنه بإملائه يكون قد أقر على نفسه
 بما عليه ، ولأنه لو أملى الدائن فربما يزيد في الدين ، أو يمل شيئاً ليس
 محل اتفاق بينه وبين المدين ، ولأن المدين في الغالب في موقف ضعيف
 فأعطاه الله - تعالى - حق الإملاء على الكاتب - حتى لا يغبن من الدائن .
 فأنت ترى أن الله - تعالى - قد مكن المدين من الإملاء على الكاتب
 حتى تكون الكتابة تحت سمعه وبصره وباختياره ، وإلكنه في الوقت
 نفسه أوجب عليه أمرين : تقوى الله ، وعدم الإنقاص من الدين الذي
 عليه ، وإن ذلك لتثريب عادل - حكيم لا ظلم فيه لا للدائن ولا للمدين .
 ثم بين - سبحانه - الحكم فيما إذا كان الذي عليه الدين لا يحسن الإملاء
 فقال - تعالى - : « فإن كان الذي عليه الحق ، وهو المدين ، سفياً ، أى
 جاهلاً بالإملاء أو ناقص العقل ، أو متولفاً مبذراً لا يحسن تدبير أمره ،
 أو ضعيفاً ، بأن يكون صبيهاً أو شيخاً تقدمت به الشيخوخة .
 أو لا يستطيع أن يمل هو ، بأن يكون عمياً أو أخرساً أو لا خبرة له

على املاء أمثال هذه المكاتبات .

فليملل وليه بالعدل ، أى فعلى ولى أمره أو من بهمه شأنه ولا يرضى
 به أن يضيع حقه أن يتولى الإملاء متحرراً بالحق والعدل فيما يكلف به .

وبعد هذا البيان الحكيم عن الكتابة وأحكامها فى شأن الدين ، انتقل
 القرآن إلى الحديث عن الإشهاد فقال - تعالى - : « واستشهدوا شهودين من
 رجالكم ، أى : اطلبوا شاهدين عدلين من الرجال ليشهدوا على ما يجرى
 بينكم من معاملات مؤجلة ، لأن هذا الإشهاد يعطى الدين والكتابة
 ثوباً وثباتاً . والسين والتاء فى قوله ، واستشهدوا ، للطلب .

قال الألوسى : « وفى اختيار صيغة المبالغة فى « شهودين ، للإيماء إلى
 من تكررت منه الشهادة ، فهو عالم بها مقتدر على أدائها وكان فيه رمز إلى
 العدالة ، لأنه لا يتكرر ذلك من الشخص عند الحكام إلا وهو مقبول عندهم
 ولعله لم يقل رجلين لذلك . والأمر للندب أو للرجوب على الخلاف فى ذلك ، (١)
 وقوله « من رجالكم ، متعلق بقوله « واستشهدوا ، ومن لا بداء الغاية
 ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف صفة لشهودين ومن للتبويض ، أى من
 رجالكم المسلمين الأحرار فإن الكلام فى معاملتهم .

ثم بين - سبحانه - الحكيم إذا لم يتيسر شاهدان من الرجال فقال :
 « فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء . »
 وقوله « ممن ترضون ، متعلق بمحذوف على أنه صفة لرجل وامرأتان .
 أى فإن لم يتيسر رجلان للشهادة فليشهد رجل وامرأتان كائناً من مرضيين
 عندكم بعد التهم .

وهذا الوصف وإن كان فى جميع الشهود إلا أنه ذكر هنا للشهيد فى
 اعتباره ، لأن انصاف النساء به قد لا يتوفر كثيراً .

وقوله « من الشهداء ، متعلق بمحذوف حال من من الضمير المفعول
 المقدر فى « ترضون ، العائد إلى الموصول : أى فليشهد رجل وامرأتان ممن

ترضونهم - حال كونهم من بعض الشهداء لعلمكم بعدالتهم ، وثقتكم بهم .
 وقوله - تعالى - « ممن ترضون من الشهداء ، أدق في الدلالة على صدق
 الشهادة من العدالة ، لأن الإنسان العدل قد يكون مرضياً في دينه وخلقه
 ولكنه قد يتأثر بالمشاهد المؤثرة فتخونه ذاكرته في وقت الحاجة إليها، أو قد
 يكون ممن يمنعه منصبه وجاهه ومقامه في الناس من الكذب إلا أنه قد يرتكب
 بعض المعاصي ، فجاه - سبحانه - هذه الجملة الحكيمة لكي يقول للناس .
 اختاروا الشهداء من الذين يرتضى قولهم ، و يقيمون الشهادة على وجهها
 الحق بدون التأثير بأي نوع من أنواع المؤثرات .

هذا ، وشهادة النساء مع الرجال تجوز عند الحنفية في الأموال والطلاق
 والنكاح والرجعة وكل شيء إلا الحدود والقصاص . وعند المالكية تجوز في
 الأموال وقوابعها خاصة ، ولا تقبل في أحكام الأبدان مثل الحدود والقصاص
 والنكاح والطلاق والرجعة .

ثم بين - سبحانه - العلة في أن المرأتين تقومان مقام الرجل في الشهادة .
 فقال : « أن تضل إحداهما فتذكر إحداها الأخرى ، » .

قال القرطبي : معنى تضل تنسى ، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان
 جزء منها وذكر جزء ، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالاً ، (١) .

والمعنى : جعلنا المرأتين بدل رجل واحد في الشهادة ، خشية أن تنسى
 إحداهما فتذكر كل واحدة منهما الأخرى . إذ المرأة لقوة عاطفتها ، وشدّة
 انفعالها بالحوادث ، قد تتوهم ما لم تر ، فكان من الحكمة أن يكون مع المرأة
 أخرى في الشهادة بحيث يتذاكران الحق فيما بينهما .

والعلة في الحقيقة هي التذكير ، ولكن الضلال لما كان سبباً في التذكير ،
 نزل منزلة العلة . وذلك كأن تقول : أعددت السلاح خشية أن يجيء العدو
 فأدفعه ، فإن العلة هي الدفاع عن النفس ، ولكن لما كان يجيء العدو سبباً
 فيه نزل منزلته .

وكما أمر الله - تعالى - الكتاب في أول الآية بعدم الامتناع عن الكتابة -
 أمر اليهود أيضاً بعدم الإمتناع عن الشهادة فقال - تعالى - : « ولا ياب
 الشهداء إذا مادعوا ، أرى : ولا يمتنع اليهود عن أداء الشهادة وتحملها متى
 دعوا إليها ، لأن الامتناع عن تحمل الشهادة وأدائها - يؤدي إلى ضياع
 الحقوق . والله - تعالى - قد شرع الشهادة لإحقاق الحق ، ونشر العدل بين
 الناس ، فعلى من اشتهروا بالعدالة ووثق الناس بهم أن يؤديوا الشهادة كما
 أمرهم الله - تعالى - .

ثم أمر - سبحانه - بكتابة الدين سواء أكبر الدين أم صغر فقال :
 « ولا تسامروا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله . »
 السام : الضجر والملل . يقال : سئمت الشيء أسامه ساماً وسامة أي
 مللته وضجرت به .

والمعنى : وعليكم أيها المؤمنون أن لا تملوا من كتابة الدين إلى الوقت
 المحدد له سواء أكان هذا الدين كبيراً أم صغيراً ، لأن الكتابة في الحاليتين
 ادعى إلى حفظ الحقوق وصيانتها ، وإلا، عدم نشوب النزاع أو التخاصم
 بينكم ، ولأن الدين قد يكون صغيراً في نظر الغني الملىء ، إلا أنه كبير في
 نظر الفقير المعسر ، ولأن التهاون في شأن الدين الصغير قد يؤدي إلى
 التهاون في شأن الدين الكبير ، لذا وجب عايكم أن تنقادوا لشرع الله وأن
 تكتبوا ما بينكم من ديون .

والضمير في قوله « أن تكتبوه » يعود إلى الدين أو إلى الحق . وقوله
 صغيراً أو كبيراً حالان من الضمير . أي لا تسامروا أن تكتبوه على كل حال
 قليلاً أو كثيراً ، وقدم الصغير على الكبير لإهتماماً به وانتقالاً من الأدنى إلى
 الأعلى .

ثم بين - سبحانه - ثلاث فوائد تعود عليهم إذا ما مثلوا ما أمرهم
 الله - تعالى - به ، فقال : « ذاكم أفسط عند الله . »
 واسم الإشارة ذلكم ، يعود إلى كل ما سبق ذكره في الآية من الكتابة

والإشهاد ومن عدم الإمتناع عنهما ، ومن تحرى الحق والعدل .
 و د أقسط ، بمعنى أعدل . يقال : أقسط فلان في الحكم يقسط بإقساطاً
 إذا عدل فهو مقسط . قال - تعالى - وإن الله يحب المقسطين . . ويقال :
 هو قاسط إذا جار وظلم . قال - تعالى - : د وأما القاسطون فكانوا لجهنم
 حطباً . .

أى : ذاكم الذى شرعناه لكم فى أمر الديون من الكتابة والإشهاد وغيرهما
 أعدل فى علم الله - تعالى - . وكل ما كان كذلك فهو الأعدل والأفضل
 والأحكم فى ذاته ، لانه - سبحانه - هو الأعل بما فيه مصداحتكم فاستجيبوا
 له ، وتلك هى الفائدة الأولى . أما الفائدة الثانية فهى قوله - سبحانه - د وأقوم
 للشهادة ، ومعنى د أقوم ، أبلغ فى الإسقامة التى هى ضد الاعوجاج . أى :
 أثبت لها وأعون على إقامتها وأداؤها وأما الفائدة الثالثة فهى قوله : د وأدنى
 أن لا ترتابوا أى : أقرب إلى زوال الشك والريبة . أى أن الأوامر والنواهي
 السابقة إذا نفذت على وجهها كان تنفيذها أعدل فى علم الله - تعالى - ،
 وأعون على إقامة الشهادة إذ بها يتم الاهتمام على الحفظ ، وأقرب إلى عدم
 الشك فى جنس الدين وقدره وأجله ، وإذا توفرت هذه الفوائد الثلاث
 فى المعاملات ساد الوفاق والتعاون بين الناس ، أما إذا فقدت فإن الثقة
 تزول من بينهم ، ويحل محلها النزاع والشقاق .

ثم أباح - سبحانه - فى التجارة الحاضرة عدم الكتابة فقال : د إلا أن
 تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها . .
 والتجارة الحاضرة التى تدور بين التجار : هى التى يجرى فيها التقابض
 فى المجلس أو التى يتأخر فيها الأداء زمنًا يسيرًا . وسميت حاضرة ، لأن المبيع
 والتمن كلاهما حاضر .

والمعنى : أن الله - تعالى - يأمركم بكتابة الديون وبالإشهاد عليها إلا
 أنه - سبحانه - رحمة بكم أباح لكم عدم الكتابة فى التجارة الحاضرة التى
 تتكثرون إدارتها والتعامل فيها ، لانه لو كلفكم بذلك لشق الأمر عليكم ،

هو - سبحانه - وما جعل عليكم في الدين من حرج ، ولأن أمثال هذه التجارات التي يحصل فيها التقابض ويكثر تكرارها ، لا يتوقع فيها التنازع أو النسيان .

والاستثناء هنا منقطع لأنه ليس هناك دين حتى يكتب ، وليست التجارة الحاضرة من جنس التعامل بالدينون فمكانه قيل : إذا تداينتم فتدكانبوا . وأشهدوا لكن التجارة الحاضرة التي يجري فيها التقابض لا جناح عليكم في عدم كتابتها .

وقيل : الاستثناء متصل والجملة المستثناة في موضع نصب لأنه استثناء من الجنس ، لأنه أمر بالكتابة في كل معاملة واستثنى منها التجارة الحاضرة والتقدير : أمركم بالكتابة والإشهاد في كل معاملة إلا في حال حضور التجارة . خلا بأمر من ترك الكتابة . ود تجارة ، قرأها الجمهور بالرفع على أنها اسم تكون ، والخبر جملة وتديرونها بينكم ، أو على أنها فاعل تكون إذا اعتبرناها مامة . وقرأها عاصم بالنصب على أنها خبر تكون واسمها ضمير مستتر فيها يعود على التجارة . أي . إلا أن تكون التجارة تجارة حاضرة .

وقوله - تعالى - وأشهدوا إذا تبايعتم ، أمر منه - سبحانه - بالإشهاد عند البيع ، وهذا الأمر للإرشاد والتعلم عند جمهور العلماء . ويرى الظاهرة أنه الوجوب .

قال صاحب الكشاف : هذا أمر بالإشهاد على التبايع مطلقا فاجزا أو كانا - أي مؤجلا - لأنه أحوط وأبعد عما عني يقع من الاختلاف . ويجوز أن يراد : وأشهدوا إذا تبايعتم هذا التبايع . يعنى التجارة الحاضرة على أن الإشهاد كاف فيه دون الكتابة ، وعن الضحاك : هي عزيمة من الله ولوعلى - بإقاة بقل ، (١) .

ثم نهي - سبحانه - عن المضارة فقال : ولا يضار كاتب ولا شهيد . .

والمضارة : إدخال الضرر . والفعل « يضار » ، يحتمل أن يكون مبنية للفاعل ، وإن أصله « لا يضار » - بكسر الراء - ويحتمل أن يكون مبنية للمفعول . وأن أصله لا يضار بفتح الراء الأولى .

والمعنى على الأول : نهي السكاتب والشاهد عن أن ينزلا ضرراً بأحد المذمومين ، بأن يخسر السكاتب أحدهما ، أو يشهد بغير الحق .

والمعنى على الثاني - وهو الظاهر - نهي الدائن والمدين عن أن ينزلا أحدهما ضرراً بالسكاتب أو الشاهد لهما على كتابة غير الحق أو قول غير الحق ، فإنما أمينان ، والإضرار بهما تدبهما على الخيانة وفي ذلك ضياع الأمانة وذهاب الثقة . ولذا قال - تعالى - بعد ذلك « وإن فعلوا فإنه فسوق بكم » .

أى : وإن فعلوا ما نهيتهم عنه أو تخالفوا ما أمرتهم به ، فإنكم بذلك تكونون قد خرجتم عن طاعة الله ، وتلبستم بمعصيته ، وصرتم أهلاً لعقوبته ، فعليكم أن تقفوا عند حدود الله حتى تتحقق لكم السعادة في دينكم ودنياكم .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بالأمر بحشيشته . وتذكيرهم بنعمه فقال : « واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم » .

أى : واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فهو - سبحانه - الذى يعلمكم ما يصاح لكم أمر دنياكم وما يصاح لكم أمر دينكم متى انقيتموه واسعجتتم له ، وهو - سبحانه - بكل شيء عليم لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

وبعد : فهذه هى آية الدين التى هى أطول آية فى القرآن ، تقرؤها فتراها قد اشتمت على أدق التشريعات ، وأحكم التوجيهات ، وأنجع الإرشادات التى تهدى إلى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها بمختلف الوسائل .

تقرؤها فترى المدنة العجيبة فى الصياغة بأن وضع كل لفظ فى مكانه المناسب ، وترى الصلاوة فى التعبير ، والعذوبة فى الألفاظ بحيث لا تطغى

دقة الصياغة على جمال العرض .

وترى الوفاء الكامل ، لكل الجوانب التشريعية والاحتراس التام من كل المؤثرات التي قد تؤثر على سلامة التعاقد ، والإرشاد الجامع إلى كل ما يضمن وصول الحق والعدل إلى جميع الأطراف بدون محاباة أو غبن . وترى قبل ذلك وبعد ذلك كيف يسوق القرآن تشريعاته بطريقة تفرس في النفوس الخوف من الله - تعالى - والمراقبة له ، والاستجابة لأوامره ، لا كطريقة البشر في قوانينهم التي صاغوها في قوالب صماء من الألفاظ لا تشعر معها بتأثير في النفس ، ولا باهتزاز في القلب .

ولو لم يكن في شريعة الله سوى هذا التأثير الذي تشعر به النفوس النقية الصافية عند تدبرها لكفاها ذلك دليلاً على سموها وفضائها وعلى أنها من صنع الله - تعالى - . ولو أن المسلمين أخذوا بها وتوجهياتها إلى سائر شئونهم انظفروا بالسعادتين : الدينية والدنيوية .

ثم بين - سبحانه - ما يجب على المسلمين فعله إذا لم يتمكنوا من كتابة ديونهم بأن كانوا مسافرين وليس معهم كاتب فقال - تعالى - :

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا
فَرِهْنِمْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَتَىٰ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ فَلَْيُوَدِّ الَّذِي أَوْثِنَ
أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ
عِندَ اللَّهِ قَلْبٌ مُّوَدِّعٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

الرهان : جمع رهن بمعنى رهون من باب إطلاق المصدر على اسم المفعول وقرأ ابن كثير وأبو عمرو فرهن مقبوضة ، وأصل الرهن في كلام

العرب يدل على الحبس قال - تعالى - وكل نفس بما كسبت رهينة .
ومعنى الرهن : أن يوضع شيء يناسب قيمة الدين من متاع المدين بيد الدائن
توثيقاً له في دينه ، ليستطاع أن يستوفي في حقه من هذا الشيء المرهون عند
تعذر الدفع .

والمعنى : وإن كنتم - أيها المزمنون - مسافرين ، وتداينتم بدين إلى أجل
مسمى ، ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم ديونكم ، أو لم تيسر لكم أسباب الكتابة
لأى سبب من الأسباب ، فإنه في هذه الحالة يقوم مقام الكتابة رهن
مقبوضة يقبضها صاحب الدين ضماناً لحقه عند تعذر أخذه من الغريم .
وفي التعبير بقوله وعلى سفر ، استعارة تبعية حيث شبه تمكّنهم في السفر
بتمكّن الراكب من مركوبه . وفيه كذلك إشارة إلى اضطراب الحال ،
لأن حال المسافر يقلب عليها التنقل وعدم الاستقرار .

وجملة ولم تجدوا كاتباً معطوفة على فعل الشرط ، أي : وإن كنتم مسافرين
ولم تجدوا ، كانياً فتكون في محل جزم تقديراً . ويجوز أن تكون الواو للاحال
والجملة بعدها في محل نصب على الحال .

وقوله وفرهان مقبوضة ، خبر لمبتدأ محذوف والتقدير : فالذي يستوثق
به رهن مقبوضة . أو مبتدأ محذوف الخبر والتقدير : فمليكم رهن مقبوضة
ومن الأحكام التي أخذها الفقهاء من هذه الآية الكريمة : أن تعليق الرهان
على السفر ليس لكون السفر شرطاً في صحة الرهان ، فإن التعامل بالرهان
مشروع في حالتي السفر والحضر ، وإنما علق هنا على السفر لأنه مظنة تعسر
الكتابة لما فيه من التنقل وعدم الاستقرار . وقد ثبت في الصحيحين عن
أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) توفي ودعه مرعونة عند يهودي
على ثلاثين وسقاً من شعير رهنها قوتاً لأهله ، (١) .

ومن الواضح أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند ما رهن دعه

لليهودى كان مقيماً ولم يكن مسافراً .

قال القرطبي : ولم يرو عن أحد منع الرهن في الحضرسوى مجاهد والضحاك وداود متمسكين بالآية ، ولا حجة فيها لهم ، لأن هذا الكلام وإن خرج ، يخرج الشرط فالمراد به غالب الأحوال . وليس كون الرهن في الآية في السفر مما يحظر في غيره ، (١) .

كذلك أخذ بعض الفقهاء من قوله : فرهان مقبوضة ، أن الرهن لا يتم إلا بالقبض ، فإذا افترق المتعاقدان من غير قبض كان الرهن غير صحيح بنص الآية وهذا مذهب الأحناف والشافعية ويرى المالكية والحنابلة أن الرهن يتم من غير القبض ، لأن القبض حكم من أحكامه ، فن حقه الدائن بعد تمام عقد الرهن أن يطالب بقبض العين المرهونة ، فالقبض حكم من أحكام العقد ، وليس ركناً من أركانه ولا شرطاً لتامه .

وقوله : فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أتمن أمانته وليتق الله ربه .
تفريع على أحكام الديون السابقة ، وحض على أداء الأمانة وعلى حسن المعاملة .
أى : فإن أمن الدائن المدين واعتمد على ذمته ووفائه ولم يوثق الدين بالكتابة والشهود والرهن ، فعلى المدين أن يكون عند حسن ظن الدائن به بأن يؤدى ما عليه من ديون في الموعد المحدد بدون تسويق أو مهاطلة ، وعليه كذلك أن يتق الله ربه ورعاية حقوق غيره فلا يجدها ولا يتأخر في أدائها لأن الله العليم بكل شيء سيحاسب كل إنسان بما قدمت يداه .

وعبر - سبحانه - بقوله : فإن أمن ... ، دون أو أودع ، للإشارة إلى الجانب الذى اعتمد عليه الدائن في المدين وهو خلق الأمانة ، فهو لا يرى فيه إلا جانباً آمناً ، فلو لا يتوقع منه شراً أو خيانة ، وللتنبيه إلى أن صفة الأمانة والوفاء من الصفات التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون جميعاً حتى ينالوا السعادة في دينهم ودنياهم .
وهو بقوله : فليؤد الذى أتمن ، ولم يقل فليؤد المدين ، لخصه على الأداء بأحسن أسلوب ، لأنه مادام الدائن قد أتمنه على ما أعطاه

من ديون ، فعلى هذا الذى اتمن وهو المدين أن يكون عند حسن الظن به وأن يرد إليه حقه فى موعده مع شكره على حسن ظنه به .

وقوله : أماتته ، أى دينه . والضمير يصح أن يعود إلى الدائن باعتباره مالك الدين ، وإلى المدين باعتبار أن الدين عليه . وفى إضافتها - أى الأمانة - إلى المدين إشعار له بأنها عبء فى ذمته يجب أن يؤديه حتى يتخلص من تكاليفه ، إذ الأمانة عبء ثقيل عند العقلاء الذين يشعرون بالمسئولية نحو أنفسهم ونحو غيرهم .

وجمع - سبحانه - بين صفتى الألوهية والربوبية فى قوله ، وليتق الله ربّه ، للبالغه فى التحذير من الخيانة والمهاطلة ، فإنهما يغضبان الله - تعالى - الذى خلق الإنسان ورباه وأسبغ عليه نعمه الظاهرة والباطنة ، ولإشعار هذا المدين بأن التقوى هى الوثيقة الكبرى التى لا تعدلها وثيقة أخرى من كتابة أو شهادة أو رهان .

وبذلك نرى لوفاء من ألوان التدرج الحكيم فى شريعة الله - تعالى - ، فانت ترى أن الله - تعالى - قد بين قبل ذلك أن الكتابة فى الديون والإشهاد عليها حطوبان ، فإن تعذرت الكتابة والشهادة لسبب من الأسباب فإنه يقرخص حينئذ بالرهن المقبوض .

فإن تعذر على المدين المحتاج أن يدفع للدائن فهنا يكون الاعتداع على الأمانة التى هى صفة من صفات الصادقين .

فيا له من تشريع حكيم ، بين للناس ما يصلح شأنهم فى دينهم وفى دنياهم . ثم أمر الله - تعالى - عباده بأن يؤديوا الشهادة على وجهها وألا يكتموها فقال - تعالى - : « ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » . أى : وعليكم - أيها المؤمنون - ألا تمتنعوا عن أدائها إذا دعيتم لإيها وألا تخفوها فإن الذى يخفيها ويمتنع عن أدائها يكون معاقباً من الله - تعالى - بسبب ارتكابه لما نهى عنه .

وقد أسند - سبحانه - الإثم إلى القلب خاصة مع أن الإثم يسند إلى الشخص ، لأن الإثم في كتمان الشهادة عمل القلب لا عمل الجوارح ، ولأن القلب أساس كل خير وكل شر ، ففي الحديث الشريف : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : هلا اقتصر على قوله « فإنه آثم » . وما فائدة ذكر القلب والجملة هي الأئمة لا القلب وحده ؟ قلت : كتمان الشهادة هو أن يضمها ولا يتكلم بها . فلما كان إثماً مقترفاً بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ ، ألا تراك تقول إذا أردت التركيز : هذا مما أبصرته عيني ، ووعاه قلبي . ولأن القلب هو رئيس الأعضاء .. فكأنه قيل : ومن يكتمها فقد تمكن الإثم من أصل نفسه ، وملك أشرف مكان فيه : وإنما يظن أن كتمان الشهادة من الآثام التي تتعلق باللسان فقط . وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن افتراقه ، واللسان ترجمان عنه . ولأن أفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح . وهي لها كالأصول التي تنشعب عنها . ألا ترى أن أصل الحسنات والسيئات الإيمان والكفر . وهما من أفعال القلوب . فإذا جعل كتمان الشهادة من آثام القلوب فقد شهد له بأنه من معاصم الذنوب . وقوله : « آثم » ، خبر إن و « قلبه » ، رفع بآثم على الفاعلية كأنه قيل : فإنه يآثم قلبه . ويجوز أن يرتفع قلبه بالابتداء . وآثم خبر مقدم . والجملة خبر إن والضمير للشأن » (١) .

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله : « واقه بما تعملون عليم » ، أي : واقه - تعالى - عليم بكل أعمالكم وأقوالكم وسائر شئونكم ، وسيجازي المحسنين إحساناً ، والمسيئين سوءاً ، فعليكم أيها المؤمنون أن تستجيبيوا لأوامر الله ، وأن تجتنبوا ما نهاكم عنه حتى تكونوا من السعداء .

فإن جملة الكريمة تفصيل قصد به الوعد الحسن للمؤمنين الصادقين ، والوهيد

الشديد للعصاة المسيئين ، حتى يزداد المؤمنون إيماناً ، ويقطع العصاة عن عصياتهم وسيئاتهم .

وبعد هذا البيان الجامع الحكيم لطرق التعامل التي أباحها الله - تعالى - لعباده ، والتي حرمها عليهم ، بين ، سبحانه - أن ما في السموات والأرض ملك له ، وأنه سيحاسب عباده بما يقتضيه علمه الشامل ، وإرادته النافذة . فقال - تعالى - .

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

أى : لله - تعالى - وحده ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً وتصرفاً . . .

وما دام الأمر كذلك فعليكم - أيها المؤمنون - أن تبدلوا نهاية جهنمكم في العمل الصالح الذي يرضى خالقكم الميمون على كل شيء ، وأن تعلموا أن المال الذي بين أيديكم إنما هو عارية مستردة ، وأن المالك الحقيقي له إيماناً هو الله رب العالمين ، فأنفقوا من هذا المال - الذي هو أمانة بين أيديكم - في وجوه الخير ، واجمعوه من طريق حلال ، وكونوا من القوم العقلاء الصالحين الذين لم تشغلهم دنياهم عن آخرهم ، بل كانوا كما قالوا : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار .

وقوله - سبحانه - د وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله - بيان لشمول علم الله - تعالى - لما أظهره الإنسان أو أخفاه من أقوال وأعمال . وأنه سيحاسبه على ذلك بما يستحقه من خير أو شر .

والجملة الكريمة صريحة في أن الله - تعالى - يحاسب العباد على نياتهم وما تمكسبه قلوبهم سواء أخفوه أم أظهروه .

وقد بين المحققون من العلماء أن هذه المحاسبة إنما تكون على ما يعزم عليه الإنسان وينويه ويصر على فعله ، سواء أنفذ ما اعتزم عليه أم حالت دونه حوائل خارجة عن إرادته : كمن عزم على السرقة وانفذ الوسائل لذلك ولكن لم يستطع التنفيذ لأسباب لم يتمكن معها من السرقة التي أصر عليها .

أما الخواطر النفسية التي تجول في النفس ، وتعرض الإنسان دون أن يعزم على تنفيذها ، فإنها ليست موضع مواخذة ، بل إن التغلب عليها ، وكفها بعد مكافحتها يجعله أهلاً للثواب .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال الله - تعالى - إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فآتتوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فآتتوها حسنة ، فإن عملها فآتتوها عشراً ، (١) .

وروى الجماعة في كتبهم عن أبي هريرة قال . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله تجاوز لي عن أمتي ما وسوست به صدورهم ما لم تعمل أو تتكلم ، (٢) .

قال الفخر الرازي : الخواطر الحاصلة في القلب على قسمين : فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم على إدخاله في الوجود ، ومنها ما لا يكون كذلك ، بل تكون أمورا خاطرة بالبال مع أن الإنسان يكرهها ولكنه لا يمكنه دفعها عن النفس . فالقسم الأول يكون مواخذاً به ، والثاني لا يكون مواخذاً به . ألا ترى إلى قوله - تعالى - « لا يؤاخذكم الله باللغو فـ إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » ، (٣) .

(١) ، (٢) تفسير ابن كثير ج ١ صفحة ٢٢٩ .

(٣) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ١٣٤ .

وقال الأوسى : المزاخذة على تصميم العزم على إيقاع المعصية في الأعيان وهو من الكيفيات النفسانية التي تلحق بالملكات ، وليس كذلك سائر ما يحدث في النفس - أى من خواطر لا تصميم ولا عزم معها - قال بعضهم : مراتب القصد خمس هاجس ذكروا فخاطر فحديث النفس فاستمعنا يليه هم فعزم كماها رفعت سوى الأخير ففيه الأخذ وقد دعا (١) وقوله - تعالى - فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، بيان لنتيجة المحاسبة التي تكون من الخالق - عز وجل - لعباده .

أى : أنه - سبحانه - بمقتضى علمه الشامل ، وإرادته النافذة ، يحاسب عباده على ما أسروه وما أعلنوه من أقوال وأعمال ، فيغفر بفضل لمن يشاء أن يغفر له ، ويعذب بعدله من يشاء أن يعذبه ، لاراد لمشيئته ولا معقب لحكمه . وقوله ، فيغفر ، ويعذب ، قرأه عاصم وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر برفع الراء والباء على الاستئناف أى فهو يغفر . وقرأ الباقرن بإسكانهما عطفاً على جواب الشرط وهو قوله ، يحاسبكم ، .

وقوله ، واقع على كل شيء قدير ، تذييل مقرر لمضمون ما قبله . فإن كمال قدرته - سبحانه - على جميع الأشياء موجب لقدرته على ما سبق ذكره من المحاسبة لعباده ، وإثابة من يشاء وإثابته وتعذيب من يشاء وتعذيبه ، فهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير .

ثم ختم - سبحانه - سورة البقرة بآيتين كريمتين بين في أولهما أن رسالة النبي - ﷺ - امتداد للرسالات السابفة وخاتمة لها ، ومهيمنة عليها ، وبين في الثانية أنه - سبحانه - لم يكلف الناس إلا بما في قدرتهم ، وأنهم سيحاسبون على أعمالهم ، وأن من شأن الأخيار أن يكثروا من التضرع إليه بخالص الدعاء . قال - تعالى - :

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ
 بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ۚ وَكُتُبِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ
 وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۗ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ
 اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۗ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ
 رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۗ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا
 كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ۗ رَبَّنَا وَلَا تُحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ
 وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۗ أَنْتَ مَوْلَانَا

فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

وقوله دآمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، استئناف قصد به
 الإخبار عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين بما يشرفهم ويعلى من
 أقدارهم ومنازلهم .

أي : صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما أنزل إليه من ربه في هذه
 السورة وغيرها من العقائد والأحكام والسنن والبيئات والهدايات تصديق
 لإذعان وإقرار وإطمئنان ، وكذلك المؤمنون الذين صدقوه واتبعوه آمنوا
 بما آمن به رسولهم وداعيتهم إلى الحق - ﷻ .

وقد قرن - سبحانه - إيمان المؤمنين بإيمان رسولهم - صلى الله عليه وسلم -
 كشر يفأ لهم وللإشارة إلى أنهم متى صدقوا في إيمانهم كانت منزلتهم عند الله
 - تعالى - قريبة من منازل الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - .

وفي تأخيرهم في الذكر إشارة إلى تأخر التابع عن المتبوع، وإشارة إلى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - هو أول من آمن بما أوحى إليه من ربه، وهو أقوى الناس إيماناً، وأصدقهم يقيناً، وأكثرهم استجابة لأوامر الله . وقوله « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، بيان للإيمان الكامل الذي اعتقدوه وصدقوا به .

أى : كل فريق من هذين الفريقين وهما الرسول والمؤمنون آمنوا إيماناً تاماً بوجود الله - تعالى - ووحدايته ، وكال صفاته ، ووجوب الخضوع والعبادة له ، وبوجود الملائكة وأنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، كما آمنوا بكتب الله التي أنزلها لمهادة البشر ، وبرسله الذين أرسلهم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور .

ثم بين - سبحانه - أن من صفات هؤلاء الاختيار أنهم لا يفرقون بين رسل الله - تعالى - فقال : « لا تفرق بين أحد من رسله ، أى يقولون لا تفرق في الإيمان بين رسل الله - تعالى - وإنما تؤمن بهم جميعاً ، وتصدق برسالة كل رسول أرسله الله - تعالى - ، ولا تقول كما قال الضالون : تؤمن ببعض ونسكفر ببعض .

ثم حكي - سبحانه - ما قالوه مما يدل على صدق إيمانهم ، ونقاء نفوسهم ، وطهارة قلوبهم فقال : « وقالوا سمعنا وأطعنا ، أى : وقالوا سمعنا قولك وفهمناه ، وامتثلنا أمرك - يا الهنا - واستقمنا عليه ، وصبرنا على تكاليفه بكل رضا واستسلام . « غفرانك ربنا ، أى اغفر لنا غفرانك الذي هو من فضل رحمتك ونعمتك ، فأنت ربنا وخالقنا والعليم بأحوالنا وبضعفنا .

فقوله « غفرانك ، مصدر منصوب على المفعول المطلق والعامل فيه مقدر أى : اغفر غفرانك . وقوله « وإليك المصير ، أى : وإليك وحدك المرجع والمآب ، ومنك وحدك يكون الحساب والثواب والعقاب ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، .

وبذلك نرى أن هذه الآية الكريمة قد مدحت الرسول - صلى الله عليه وسلم - مدحاً عظيماً ، ومدحت أتباعه المؤمنين الصادقين لاستجابتهم لأوامر الله ونواهيه ، وتضرعهم إليه بخالص الدعاء أن يغفر لهم ما فرط منهم . ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر رحمته بعباده فقال : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، والوسع - كما يقول الزمخشري - : ما يسع الإنسان ، ولا يضيق عليه ، ولا يخرج فيه ، أي إلا يكلفها إلا ما يتسع فيه طرفة ، وبقيس عليه دون مدى الطاقة والمجهود . وهذا إخبار عن عدله . ورحمته كقوله - تعالى - « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلى أكثر من الخمس ، ويصوم أكثر من الشهر ، ويجمع أكثر من حجة (١) .

فإنجزة الكريمة تهكمى لنا بعض مظاهر فضل الله علينا ورحمته بنا ، حيث كلفنا بما تسعه قدرتنا ، وتمتطيعة نفوسنا ، وقد حكى القرآن هذا المعنى في آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - « ما جعل عليكم في الدين من حرج » وقوله - تعالى - « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً » . وإذا كانت بعض التكاليف التي كلفنا الله بها فيها مشقة ، فإن هذه المشقة محتملة وفي وسع الإنسان وقدرته وطاقته ، وسيثبنا الله - تعالى - عليها ثواباً جزيلاً ، فهو القائل : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » . ثم بين - سبحانه - أن كل نفس تستجazy بما عملت فقال : « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » أي لها وحدها ثواب ما كسبت من حسنات بسبب أعمالها الصالحة ، وعليها وحدها عقاب ما اكتسبت من سيئات بسبب أعمالها السيئة .

قال صاحب الكشاف : « فإن قلت : لم خص الخير بالكسب والشرب . . . بالاكْتساب ؟ قلت . في الاكْتساب اعتيال ، فلما كان الشر بما تشتهيه

للنفس وهى منجذبة إليه وأمارة به ، كانت فى تحصيله أعمل وأجد ، فجعلت ، لذلك مكنته فيه . ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتقال ، (١) .

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده : ولا شك أن الميل إلى الخير مما أودع فى نفس الإنسان ، والإنسان يفعل الخير بطبعه وتكون فيه لفته . ولا يحتاج إلى تكلف فى فعل الخير ، لأنه يعلم أن كل أحد يرتاح إليه ويراه بعين الرضا وأما الشر فإنه يعرض للنفس بأسباب ليست من طبيعتها ولا من مقتضى فطرتها . ومهما كان الإنسان شريراً فإنه لا يخفى عليه أن الشر ممقوت عند الناس وصاحبه مهين عندهم . . وهكذا شأن الإنسان عند اعتراف كل شر يشعر فى نفسه بقبحة ، ويجد من أعماق سريره هاتفا يقول له : لا تفعل ، ويحاسبه بعد الفعل ويوبخه إلا فى النادر . . . (٢) .

وبعد بيان سنة الله - تعالى - فى التكليف وفى الجراء عليه ، ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتلك الدعوات الجامعة للمساعدة حتى يكثُر المؤمنون من التضرع بها فقال - تعالى - : ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، أى : ربنا يا واسع العفو والمغفرة لا تؤاخذنا أى لا تعاقبنا ، إن نسينا ، أمرك ونهيك أو أخطأنا ، ففعلنا خلاف الصواب جهلاً منا بوجه الشرعى .

فأنت ترى أن هؤلاء الذين اتقوا ربهم ، انصفت نفوسهم ، وطهرت قلوبهم ، وخشعت جوارحهم ، يتضرعون إلى الله أن يغفر لهم ما فرط منهم نسياناً أو خطأ ، وذلك لأن المؤمن عندما يصل إلى هذه الدرجة من التقوى والصفاء يشعر بأن الله - تعالى - يحاسبه على ما لا حساب عليه ، ويشعر بأن حسناته - مهما كثرت - هى قليلة بجانب هفواته وسيئاته ، فهو لشدة خشيته من الله يرجع جانب المؤاخذة على جانب العفو فيكثر من الضراعة والدعاء .

(١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٣٢ .

(٢) تفسير المنار ج ٣ صفحة ١٤٦ .

وقد أشار صاحب الكشاف إلى هذا المعنى بقوله : فإن قلت : النسيان والخطأ متجاوز عنهما فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما؟ قلت :... لأنهم كانوا متقين لله حق تفاته ، فما كانت تفرط معهم فرطة إلا على وجه النسيان والخطأ . فكان وصفهم بالدعاء بذلك إيداناً ببراءة ساحتهم عما يؤخذون به . كأنه قيل : إن كان النسيان والخطأ مما يؤخذ به ، فما فيهم سبب مؤاخذة إلا الخطأ والنسيان . ويجوز أن يدعو الإنسان بما علم أنه حاصل له قبل الدعاء من فضل الله لا استدائمه والاعتداد بالنعمة فيه ، (١) .

هذا هو الدعاء الأول الذي حكاه القرآن عن المؤمنين الصادقين ، أمه الدعاء الثاني فهو قوله - سبحانه - : « ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . »

والإصر في اللغة : الثقل والشدة . مأخوذ من أصر بمعنى حبس ، فكانه يحبس صاحبه في مكانه فيمنعه من الحركة .

والمعنى : أن أولئك يضرعون إلى الله - تعالى - ألا يلقى تكاليف وأعباء شديدة ، يثقل عليهم حملها ويعجزون عن أدائها ، كما كان الحال بالنسبة للذين سبقوهم ؛ فقد كلف الله - تعالى - بنى إسرائيل بتكاليف شاقة ثقيلة بسبب تعنتهم فسوقهم عن أمره ، ومن ذلك تكليفهم بقتل أنفسهم إذا أرادوا أن يتوبوا توبة صادقة ، وتحريم بعض الطيبات عليهم بسبب ظلمهم قال - تعالى - « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . . . » .

قال الرازي : والمؤمنون إنما طلبوا هذا التخفيف لأن التشديد مظنة التقصير . والتقصير موجب للعقوبة ، ولا طاقة لهم بعذاب الله - تعالى - فلا جرم التمسوا السهولة في التكاليف (٢) .

أما الدعاء الثالث فهو قوله - تعالى - « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به . »

(١) تفسير الكشاف ج ١ صفحة ٣٣٢ .

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٧ صفحة ١٥٧ .

الطاقة - كما يقول الراجب - : اسم لمقدار ما يمكن للإنسان أن يفعله بمشقة ، وذلك تشبيهه بالطوق المحيط ، فقوله - تعالى - « لا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، أى ما يصعب علينا مزاولته ، وليس معناه لا تحملنا ما لا قدرة لنا به ، (١) .

فالطاقة على هذا تكون قيما فعله بأقصى القدرة والقوة .

أى : ونسألك يا ربنا ألا تحملنا ما هو فوق طاقتنا وقدرتنا من المصائب والعقوبات وغير ذلك من الأمور التي لا نستطيعها .

وهذا الدعاء هو تدرج مترقب على الدعاء السابق ، فهم هنا يلتمسون

عنه - سبحانه - ألا ينزل بهم ما هو فوق قدرتهم وطاقتهم من بلايا ومحن ، بعد أن التمسوا منه ألا يكلفهم بتكاليف شاقة ثقيلة كما كلف الذين من قبلهم .

ثم حكي القرآن دعاءهم الرابع والخامس والسادس فقال : « واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أى نسألك يا ربنا أن تغفر لنا بأن تمحو عنا ما ألمنا به من ذنوب وتجاوز عنها ، وأن تغفر لنا سيئاتنا بأن تسترنا ولا تفضحنا بإظهارها فأنت وحدك الغفار الستار . وأن ترحمنا برحمتك السابعة التي شملت كل شيء ، فإننا مع تقصيرنا في طاعتك نأمل ألا نحرمننا من رحمتك فأنت تراهم قد تضرعوا إلى ربهم أن يعفو عنهم بأن يسقط عنهم العقاب وأن يغفر لهم بأن يستر عليهم ذنوبهم فلا يفضحهم بها ، وأن يشملهم بعطفه ورحمته . وهي دعوات تدل على رقة إحساسهم ، ونقاء نفوسهم ، وشدة خشيتهم من ربهم ، وشعورهم نحوه بالتقصير مهما قدموا من أعمال صالحة .

ثم ختموا دعائهم بقوله - تعالى - « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، أى : أنت مولانا وناصرنا وحافظنا وعيننا ومددنا بالخير والهدى فانصرنا يا ربنا على القوم الكافرين لكي تكون كلمتك هي العليا ، وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

وقولهم « أنت مولانا ، يدل على نهاية خضوعهم وتذللهم وطاعتهم لله

عرب العالمين، لأنهم قد اعترفوا بأنه - سبحانه - هو المتولى لكل نعمة يصلون إليها .
قال ابن كثير : وقد ورد في صحيح مسلم عن النبي : صلى الله عليه وسلم -
﴿ أن الله - تعالى - قال عقب كل دعوة من هذه الدعوات : قد فعلت .
وروى البخارى والجماعة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه ، .
وروى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله - ﷺ - :
أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلى ، .
وبعد فهذه هى سورة البقرة التى اشتملت على ما يشقى الصدور ، ويهدى
القلوب ، ويصالح النفوس : من توجيهات سامية ، وآداب حميدة ، وعقائد
سليمة ، وتشريعات حكيمة ، وأمثال هادية ، وقصص من شأنه أن يفرس
فى النفوس الخلق القويم ، وأن يفرها بالاعتباط والاعتبار حتى تكون ممن
رضى الله عنهم ورضوا عنه .
ولقد سبق لنا أن تكلمنا قبل البدء فى تفسيرها عن وقت نزولها ، وعن
فضلها وعن مقاصدها الإجمالية . . .
والله نسأل أن ينفعنا بها ويكتنابها الكريم ، وأن يجعل أفعالنا وأعمالنا
خالصة لوجهه ، ونافعة لعباده .
اللهم اجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا وبصائرنا ، وجملة هممتنا
وحزنتنا ، وأعنا على إتمام ما فصدناه بفضلك ورعايتك يا أكرم الأكرمين .
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على طريقته
على يوم الدين .

رقم الصفحة	رقم الآية	الآية المقصورة
١٢		سورة الفاتحة
١٨	١	بسم الله الرحمن الرحيم
٢١	٢	الحمد لله رب العالمين
٢١	٣	الرحمن الرحيم
٢٤	٤	مالك يوم الدين
٢٦	٥	إياك نعبد وإياك نستعين
٢٨	٦	إهدنا الصراط المستقيم
٢٩	٨	صراط الذين أنعمت عليهم
٤٦		سورة البقرة
٤٧	٩	ألم
٥٠	٢	ذلك الكتاب لا ريب فيه .
٥٣	٣	الذين يؤمنون بالغيب .
٥٦	٤	والذين يؤمنون بما أنزل إليك .
٥٨	٥	أو أنك على هدى من ربهم
٦٠	٦	إن الذين كفروا سواء عليهم
٦٣	٧	ختم الله على قلوبهم
٦٧	٨	ومن الناس من يقول آمنا
٦٩	٩	بخادعون الله والذين آمنوا
٧٠	٩٠	في قلوبهم مرض فزادهم
٧٢	٩١	وإذا قيل لهم لا تفسدوا
٧٣	٩٢	ألا إنهم هم المفسدون
٧٤	٩٣	وإذا قيل لهم آمنوا
٧٥	٩٤	وإذا تقوا الذين آمنوا

رقم الآية المفسرة	رقم الصفحة
الله يستهزى بهم	١٥
أو لئلا الذين أشعروا	١٦
مثلهم كمثل النوى استوقد ناراً	١٧
صم بكم عمى فهم لا يرجعون	١٨
أو كصيب من السماء	١٩
يكاد للبرق يخطف أبصارهم	٢٠
بأيها الناس اعبدوا ربكم	٢١
الذي جعل لكم الأرض	٢٢
وإن كنتم في ريب مما نزلنا	٢٣
فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا	٢٤
وبشر الذين آمنوا	٢٥
إن الله لا يستحي أن يضرب	٢٦
الذين ينقضون عهد الله	٢٧
كيف تكفرون بالله	٢٨
هو الذي خلق لكم ما في الأرض	٢٩
وإذ قال ربك للملائكة	٣٠
وعلم آدم الأسماء كلها	٣١
قالوا سبحانك لا علم لنا	٣٢
قال يا آدم أنتهم	٣٣
وإذ قلنا للملائكة اسجدوا	٣٤
وقلنا يا آدم اسكن أمت	٣٥
فأزلهما الشيطان عنها	٣٦
فتلقى آدم من ربه كلمات	٣٧

رقم الصفحة	رقم الآية الآية المفصلة
١٢٨	قلنا اهبطوا منها جميعاً ٣٨
١٢٩	والذين كفروا وكذبوا ٣٩
١٢٢	يا بنى إسرائيل اذكروا ٤٠
١٣٤	وآمنوا بما أنزلت مصدقا ٤١
١٣٦	ولا تلبسوا الحق بالباطل ٤٢
١٣٨	وأقيموا الصلاة وآتوا ٤٣
١٣٩	أنا مروون الناس بالغير ٤٤
١٤١	واستعينوا بالصبر والصلاة ٤٥
١٤٢	الذين يظنون أنهم ملائكة ٤٦
١٤٤	يا بنى إسرائيل اذكروا ٤٧
١٤٧	واقفوا يوماً لا تجزى ٤٨
١٥٢	وإذ نجيناكم من آل فرعون ٤٩
١٥٦	وإذ فرقتنا بكم البحر ٥٠
١٦٣	وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ٥١
١٦٤	ثم عفوفا عنكم من بعد ذلك ٥٢
١٦٥	وإذ آتينا موسى ٥٣
١٦٨	وإذ قال موسى لقومه ٥٤
١٧١	وإذ قلتم يا موسى ٥٥
١٧٢	ثم بعثناكم من بعد موتكم ٥٦
١٧٧	وظللنا عليكم الغمام ٥٧
١٧٩	وإذ قلنا ادخلوا هذه ٥٨
١٨٠	فبذل الذين ظلموا قولا ٥٩
١٨٤	وإذ استسقى موسى ٦٠

رقم الآية المفسرة	رقم الصفحة
وإذ قلتم يا موسى إن الذين آمنوا والذين	٦١
وإذ أخذنا ميثاقكم	٦٢
ثم توليتم من بعد ذلك	٦٤
ولقد علمتم الذين اعتدوا	٦٥
فجعلناها نكالا	٦٦
وإذ قال لموسى لقومه	٦٧
قالوا ادع ربك	٦٨
قالوا ادع ربك يبين لنا ما لونها	٦٩
قالوا لنا ادع ربك يبين لنا ما هي	٧٠
قال لمنة يقول إنها بقرة	٧١
وإذ قتلتهم نفساً	٧٢
فقلنا اضربوه ببعضها	٧٣
ثم قست قلوبكم	٧٤
أفنتطمعون أن يؤمنوا لكم	٧٥
وإذ لقوا الذين آمنوا	٧٦
أو لا يعلمون أن الله يعلم	٧٧
ومنهم أميون لا يعلمون	٧٨
فويل للذين يكتبون	٧٩
وقالوا لن تمسنا النار	٨٠
بل من كسب سيئة	٨١
والذين آمنوا وعملوا	٨٢
وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل	٨٣

رقم الصفحة	رقم الآية الآيه المفسرة
٢٤٦	وإذ أخذنا ميثاقكم ٨٤
٢٤٨	ثم أنتم هؤلاء تقتلون ٨٥
٢٥٠	أولئك الذين اشتروا ٨٦
٢٥٢	ولقد آتينا موسى ٨٧
٢٥٣	وقالوا قلوبنا غاف ٨٨
٢٥٥	ولما جاءهم كتاب ٨٩
٢٥٨	بئسما اشتروا به ٩٠
٢٦١	وإذا قيل لهم آمنوا ٩١
٢٦٥	ولقد جاءكم موسى ٩٢
٢٧٠	وإذ أخذنا ميثاقكم ٩٣
٢٧٣	قل إن كانت لكم الدار ٩٤
٢٧٥	ولن يتمنوه أبداً ٩٥
٢٧٧	ولتجدنهم أحرص الناس ٩٦
٢٨٠	قل من كان عدا لجبريل ٩٧
٢٨٣	من كان عدوا لله وملائكته ٩٨
٢٨٧	ولقد أرسلنا إليك آيات ٩٩
٢٨٨	أو كلما عاهدوا عهدا ١٠٠
٢٨٩	ولما جاءهم رسول ١٠١
٣٩٥	وانبعثوا ما تتلو الشياطين ١٠٢
٣٠٠	ولو أنهم آمنوا واتقوا ١٠٣
٣٠٧	يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا ١٠٤
٣١٩	ما يورد الذين كفروا ١٠٥
٣١٤	ما نفسخ من آية أو ننسها ١٠٦

رقم الصفحة	سرقم الآية الآية المفصلة	
٣١٤	ألم تعلم أن الله له ملك	١٠٧
٣١٥	أم تريدون أن تسألوا	١٠٨
٣١٧	ود كثير من أهل الكتاب	١٠٩
٣٢٠	وأقيموا الصلاة	١١٠
٣٢١	وقالوا إن يدخل الجنة	١١١
٣٢٤	بلى من أسلم وجهه	١١٢
٣٢٧	وقالت اليهود ليست النصراني	١١٣
٣٢٩	ومن أظلم ممن منع مساجد الله	١١٤
٣٣١	ولله المشرق والمغرب	١١٥
٣٣٢	وقالوا اتخذ الله ولدا	١١٦
٣٣٥	بديع السموات والأرض	١١٧
٣٣٦	وقال الذين لا يعلمون	١١٨
٣٤٠	إنا أرسلناك بالحق	١١٩
٣٤١	ولن ترضى عنك اليهود	١٢٠
٣٤٢	الذين آتيناهم الكتاب	١٢١
٣٤٤	يا بني إسرائيل اذكروا	١٢٢
٣٤٤	وانقروا يوما لا تجزي	١٢٣
٣٤٥	ولذا ابتلى إبراهيم رب	١٢٤
٣٤٨	ولذا يرفع إبراهيم القواعد	١٢٧
٣٥٠	ربنا واجعلنا مسلمين لك	١٢٨
٣٥٥	ربنا وابعث فيهم رسولا منهم	١٢٩
٣٥٩	ومن يرغب عن ملة إبراهيم	١٣٠
٣٦٠	إذ قال له ربه أسلم	١٣١

رقم الصفحة	رقم الآية الآية المفصلة
٣٦١	ووصى بها إبراهيم بنبيه ١٣٢
٣٦٢	أم كنتم شهداء ١٣٣
٣٦٣	تلك أمة قد خلت ١٣٤
٣٦٥	وقالوا كونوا هودا ١٣٥
٣٦٦	قولوا آمنا بالله ١٣٦
٣٦٨	فإن آمنوا بمثل ما آمنتم ١٣٧
٣٧٠	صبغة الله ومن أحسن ١٣٨
٣٧٥	قل أتجاجوننا في الله ١٣٩
٣٨٠	أم تقولون لمن ١٤٠
٣٨٤	تلك أمة قد خلت ١٤١
٣٨٧	سيقول السفهاء ١٤٢
٣٩٠	وكذلك جعلناكم أمة وسطا ١٤٣
٣٩١	قد نرى قلب وجهمك ١٤٤
٣٩٢	والئن آتيت الذين ١٤٥
٣٩٤	الذين آتيناهم الكتاب ١٤٦
٣٩٥	الحق من ربك ١٤٧
٣٩٦	والكل وجهة هو ١٤٨
٣٩٧	ومن حيث خرجت ١٤٩
٣٧٩	ومن حيث خرجت ١٥٠
٣٩٩	كما أرسلنا فيكم ١٥١
٤٠٣	فاذكروني أذكركم ١٥٢
٤٠٦	يا أيها الذين آمنوا استعينوا ١٥٣
٤٠٨	ولا تقولوا لمن يقتل ١٥٤

رقم صفحة	رقم الآية المفسرة
٤٠٩ . . .	و لنبلوكم فكم بشيء من
٤١١	الذين إذا أصابتهم
٤١٢	أولئك عليهم صلوات
٤١٦	إن الصفا والمروة
٤٢٢	إن الذين يكتُمون
٤٢٤	إلا الذين تابوا
٤٢٥	إن الذين كفروا
٤٢٦	خالدين فيها لا يخفف
٤٢٨	ولله حكم إله واحد
٤٣٥	إن في خلق السموات
٤٣٨	ومن الناس من يتخذ
٤٤٠	لذتبعوا الذين اتبعوا
٤٤٢	وقال الذين اتبعوا
٤٤٥	بأيها الناس كلوا مما
٤٤٧	إنما يأمركم بالسوء
٤٥١	وإذا قيل لهم اتبعوا
٤٥٢	ومثل الذين كفروا
٤٥٤	بأيها الذين آمنوا
٤٥٨	إنما حرم عليكم الميتة
٤٦١	إن الذين يكتُمون ما أنزل
٤٦٢	أولئك الذين اشتروا
٤٦٤	ذلك بأن الله نزل الكتاب

رقم الصفحة	رقم الآية الآية المفسرة	
٤٦٧	ليس البر أن تولوا	١٧٧
٤٧٨	يا أيها الذين آمنوا كتب	١٧٨
٤٨٠	وإنكم في القصاص حياة	١٧٩
٤٨٧	كتب عليكم إذا حضر	١٨٠
٤٩٠	فمن بدله بعد ما سمعه	١٨١
٤٩١	فمن خاف من مرض جنفا	١٨٢
٤٩٣	يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام	١٨٣
٤٩٧	أياما معدودات	١٨٤
٥٠٠	شهر رمضان	١٨٥
٥٠٧	وإذا سألك عبادي	١٨٦
٥١١	أحل لكم ليلة الصيام	١٨٧
٥٢١	ولا تأكلوا أموالكم	١٨٨
٥٢٥	يسألونك عن الآلهة	١٨٩
٥٣٠	وقائلوا في سبيل الله	١٩٠
٥٣١	واقتلوهم حيث تقفتموهم	١٩١
٥٣٥	فإن انتهوا فإن الله	١٩٢
٥٣٦	وقاتلوهم حتى لا تكون	١٩٣
٥٣٧	الشهر الحرام بالشهر الحرام	١٩٤
٥٣٨	وأنفقوا في سبيل الله	١٩٥
٥٤٤	وأنموا الحج والعمرة	١٩٦
٥٤٦	الحج أشهر معلومات	١٩٧
٥٤٨	ليس عليكم جناح	١٩٨

رقم الصفحة	رقم الآية والآية المفصلة
٥٥٠	ثم أفيضوا من حيث ١٩٩
٥٥٥	فإذا قضيتم ٢٠٠
٥٦٠	ومن الناس من يقول ٢٠١
٥٦٥	أولئك لهم نصيب مما كسبوا ٢٠٣
٥٧٠	وادكروا الله في أيام ٢٠٣
٥٧٤	ومن الناس من يعجبك ٢٠٤
٥٧٧	وإذا تولى سعى في الأرض ٢٠٥
٥٨٠	وإذا قيل له اتق الله ٢٠٦
٥٨٢	ومن الناس من يشرى ٢٠٧
٥٨٣	بأيها الذين آمنوا ادخلوا ٢٠٨
٥٨٥	فإن زلتم من بعد ٢٠٩
٥٨٧	هل ينظرون إلا أن يأتيهم ٢١٠
٥٩٠	سل بنى إسرائيل ٢١١
٥٩٣	ذين للذين كفروا ٢١٣
٥٩٥	كان الناس أمة واحدة ٢١٣
٦٠٣	أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ٢١٤
٦٠٨	يسألونك ماذا ينفقون ٢١٥
٦١٢	كتب عليكم القتال ٢١٦
٦١٨	يسألونك عن الشهر الحرام ٢١٧
٦٢٠	إن الذين آمنوا والذين هاجروا ٢١٨

رقم الصفحة	رقم الآية الآية المفسرة
٦٢٥	يسألونك عن الخمر ٢١٩
٦٣٠	ويسألونك عن اليتامى ٢٢٠
٦٣٦	ولا تنكحوا المشركات ٢٢١
٦٤٤	ويسألونك عن المحيض ٢٢٢
٦٤٨	نساءكم حرث لكم ٢٢٣
٦٥١	ولا تجعلوا الله عرضة ٢٢٤
٦٥٥	لا يؤاخذكم الله باللغو ٢٢٥
٦٥٦	للذين يؤولون من نسائهم ٢٢٦
٦٥٨	وإن عزموا الطلاق ٢٢٧
٦٦٠	والمطلقات يتربصن ٢٢٨
٦٦٥	الطلاق مرتان ٢٢٩
٦٧٠	فإن طلقها فلا تحل له ٢٣٠
٦٧٥	وإذا طلقتم النساء ٢٣١
٦٨٠	وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ٢٣٢
٦٨٨	والوالدات يرضعن ٢٣٣
٦٩٤	والذين يتوفون منكم ٢٣٤
٦٩٩	ولا جناح عليكم فيما عرضتم ٢٣٥
٦٥٥	لا جناح عليكم إن طلقتم ٢٣٦
٧٠٨	وإن طلقتموهن من قبل أن ٢٣٧
٧١١	حافظوا على الصلوات ٢٣٨

رقم الآية المفسرة	رقم الصفحة
فإن خفتهم فرجالا	٢٣٩
والذين يتوفون منكم ويذرون	٢٤٠
وللمطلقات متاع	٢٤١
كذلك يبين الله لكم آياته	٢٤٢
ألم تر إلى الذين خرجوا	٢٤٣
وقاتلوا في سبيل الله	٢٤٤
من ذا الذي يقرض الله	٢٤٥
ألم ترى إلى الملائم بنى إسرائيل	٢٤٦
وقال لهم نبيهم إن الله قد	٢٤٧
وقال لهم نبيهم إن آية ملكه	٢٤٨
فلما فصل طالوت	٢٤٩
ولما برزوا لجالوت	٢٥٠
فهمز موهم بإذن الله	٢٥١
تلك آيات الله تتلوها	٢٥٢
تلك الرسل فضلنا	٢٥٣
يا أيها الذين آمنوا أنفقوا	٢٥٤
الله لا إله إلا هو الحي	٢٥٥
لا إكراه في الدين	٢٥٦
الله ولي الذين آمنوا	٢٥٧
ألم تر إلى الذي حاج	٢٥٨

رقم الصفحة	رقم الآية الآية المفسرة
٧٧٧	أو كالذي مر على قرية ٢٥٩
٧٨٠	ولما قال إبراهيم رت ٢٦٠
٧٨٦	مثل الذين ينفقون ٢٦١
٧٩٠	الذين ينفقون أموالهم ٢٦٢
٧٩١	قول معروف ومغفرة ٢٦٣
٧٩٣	يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا ٢٦٤
٧٩٧	ومثل الذين ينفقون ٢٦٥
٨٠٠	أيود أحدكم أن تكون ٢٦٦
٨٠٣	يا أيها الذين آمنوا أنفقوا ٢٦٧
٨٠٥	الشیطان يعدكم الفقر ٢٦٨
٨٠٧	يؤتي الحكمة من يشاء ٢٦٩
٨٠٩	وما أنفقتم من نفقة ٢٧٠
٨١٠	إن تبدو الصدقات ٢٧١
٨١٣	ليس عليك هداهم ٢٧٢
٨١٥	للعقراء الذين أحصروا ٢٧٣
٨٢٠	الذين ينفقون أموالهم ٢٧٤
٨٢٤	الذين يأكلون الربا ٢٧٥
٨٢٦	يحقق الله الربا ٢٧٦
٨٢٧	إن الذين آمنوا وعملوا ٢٧٧

رقم الصفحة	رقم الآية الآية المفسرة
٨٣٠ . . .	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ٢٧٨
٨٢٥	فإن لم تفعلوا ٢٧٩
٨٣٦	وإن كان ذو عسرة ٢٨٠
٨٣٧	واتقوا يوماً ترجعون ٢٨١
٨٤٠	يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم ٢٨٢
٨٥١	وإن كنتم على سفر ٢٨٣
٨٥٦	الله ما في السموات ٢٨٤
٨٥٩	آمن الرسول بما أنزل إليه ٢٨٥
٨٦٢	لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ٢٨٦



٩٣٦٠٠٨ ت

دار الرسالة للطباعة والنشر



٩٣٦٠٠٨ ت

دار الرسالة للطباعة والنشر